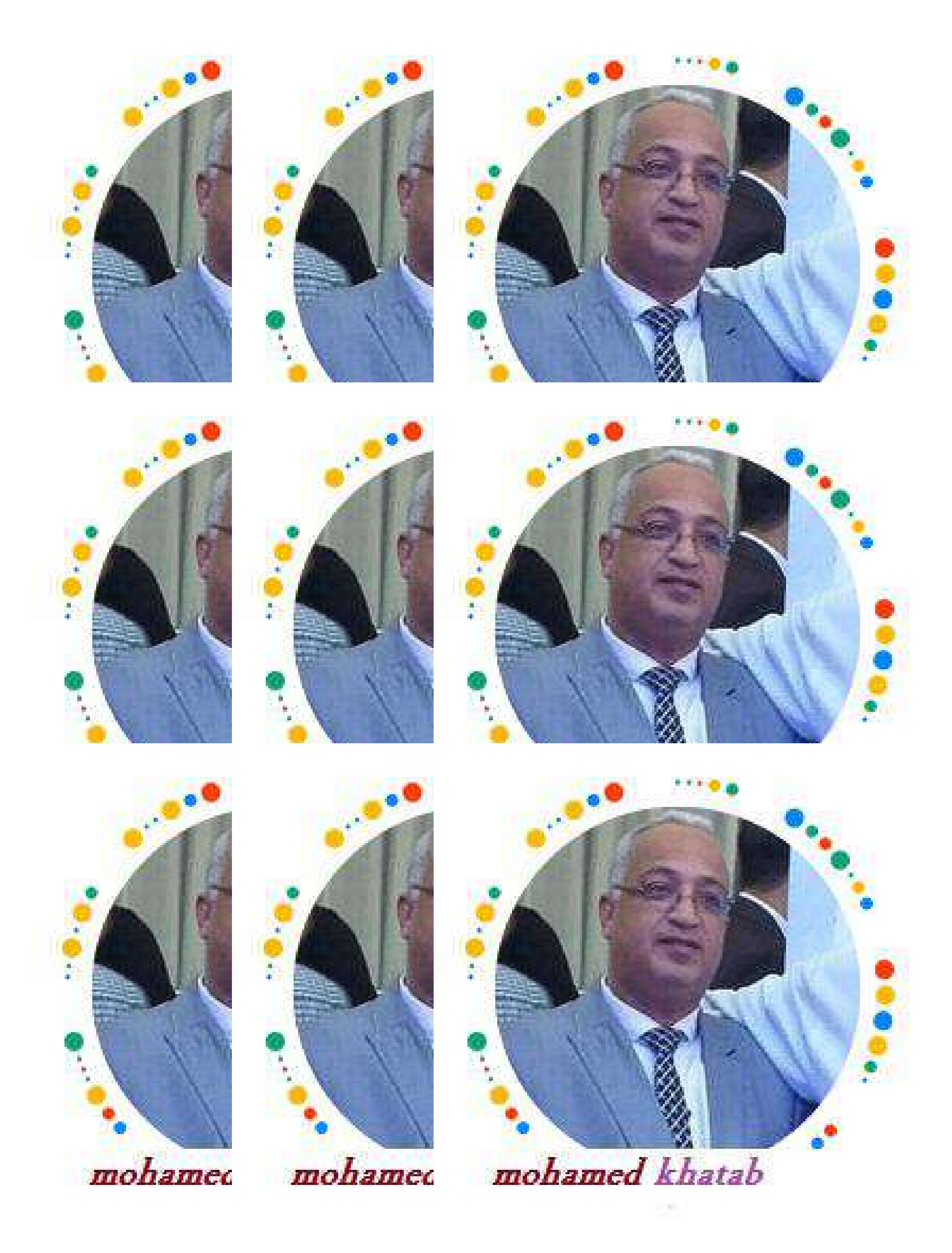
سليم حسن

موسوعة مصر القديمة

الجزء الثالث عشر


mohamed khatab

موسوعة مصر القديمة (الجزء الثالث عشر)

من العهد الفارسي إلى دخول الإسكندر الأكبر مصر وبه لمحات في تاريخ السودان وفارس وقصة قناة السويس قديمًا

تأليف
سليم حسن



موسوعة مصر القديمة (الجزء الثالث عشر)

سليم حسن

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي

الترقيم الدولي: ٨ ١٦٩٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

المحتويات

تمهيد

يَختتم هذا الجزءُ من «مصر القديمة» آخِرَ مرحلة في تاريخ أرض الكنانة في عهودها القديمة، ويبتدئ بغزو الفرس لمصر والاستيلاء عليها عَنوة عام ٥٢٥ق.م، ولا ريب أن هذا الفتح الفارسي كان يُعد في نظر الفرس أعظم انتصار لهم أمام العالم المتمدين آنذاك، كما كان يعتبر أكبر كارثة وأخزى معرة حلت بالشعب المصري في تاريخه المجيد. حقًّا ذاقت أرض الكنانة قبل انتصار الفرس عليهم مرارة الغزو والاستعمار الأجنبي؛ فقد اجتاح الهكسوس منذ أكثر من ألف ومائتي عام قبل الغزو الفارسي بلاد مصر، غير أن سيطرتهم عليها لم تشمل كل التربة المصرية إلا فترة قصيرة نسبيًّا انكمشوا بعدها في الوجه البحري، ثم ما لبثوا أن أجلاهم المصريون عن البلاد جملة على يد أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وباني أول لَبِنة في صرح الإمبراطورية المصرية التي امتدت بعده على أيدي خلفائه من أعالي دجلة والفرات حتى الشلال الرابع.

واقتصادًا في القول: سيطرت مصر منذ نهاية باكورة القرن السادس عشر قبل الميلاد حتى بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد — بوجه عام — على كل العالم المتمدين ونشرتْ علومَها وحضارتَها في معظم الأقطار التي كانت تدين لسلطانها أو تتصل بها. ولكن عامل الوهن والضعف والدعة أخذتْ تدبُّ في أوصال الشعب المصري عندما جنح أبناؤه إلى حياة الترف والرفاهية، وذلك في فترة بدأت تظهر فيها أُمم فتيةٌ لم تدنسها عوامل الترف، ومن ثم أخذت تظهر بوادر الاضطرابات والفتن السياسية والدينية في أرجاء الإمبراطورية، مما أدى إلى انحلالها وتفكُّك أوصالها، فلم يَسَع الفراعنة أمام تلك الحالة المنذرة بكل خطر إلا استعمال الجنود المرتزقة؛ لقمع الفتن وحماية البيت المالك نفسه.

وقد كان من جراء هذا التصرف أن وطد هؤلاء الجنود المرتزقة أقدامهم في طول البلاد وعرضها، وانتهى بهم الأمر إلى انتزاع السلطة من يد الفرعون، وتولية واحد منهم عرش الملك.

كان هذا أول تدخُّل أجنبي غير مباشر في حكم البلاد؛ فقد كان «سيشنق» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين لوبيًّا مرتزقًا، وعلى الرغم من أنَّ أُسرته قد أنقذت أرض الكنانة لفترة من الزمن من الفوضى إلا أنه منذ نهاية حكم أسرته أخذت بذورُ الفرقة تنبتُ وتينع في وادي النيل الذي كان ينحدر سكانه نحو الهاوية؛ لما أصابه من شيخوخة طاحنة، وانحلال تمثل — بصورة مزعجة — في رجال الدين الذين كان جُلُّ همهم جمع المال والسلطان في أيديهم بما كان لهم من نُفُوذ جارف على نفوس الشعب الساذج.

ولن نكون مبالغين إذا قررنا هنا أنَّ تغلغل السلالات الأجنبية في أرجاء البلاد، واستيلاء أُسرهم على زمام الحُكم منذ الأسرة الثانية والعشرين كان السبب الرئيسي في ضياع الإمبراطورية وخرابها.

والواقعُ أن المصائب قد توالتْ على مصر منذ نهاية حكم هذه الأسرة؛ إذ انقض عليها الكوشيون من الجنوب وأخضعوها لسلطانهم على يد الملك «بيعنخي» حوالى عام ٧٥٠ق.م، الذي وجد البلاد في فوضى يحكمها أكثر من ثمانية عشر ملكا في آن واحد في بقاع متفرقة منها. وفي تلك الفترةِ الحرجةِ من تاريخ أرضِ الكنانةِ كانت دولةُ آشور الفتية تَمُدُّ فُتُوحَها على كل العالم المتمدين، فوصلت في فتوحها حتى أبواب مصر التي كان يحتلها الكوشيون، فانقض على أرض الدلتا الملك «اسرهدون» واستولى عليها وطرد الكوشيين منها.

ثم تلاه آشور بنيبال واستولى على كل البلاد جملة، وطارد «تنوتأمون» الكوشي حتى انزوى في عاصمته «نباتا»، وبذلك انتهى الحكم الكوشي لمصر، وبدأ الحكم الآشوري الحقيقي فيها حوالى عام ٦٦٧ق.م، غير أن سيطرة الآشوريين لم تدم طويلا. وآية ذلك أن أسرة من أسر حكام المقاطعات في الدلتا أخذت في مقاومة الآشوريين، وانتهى الأمر بأن أجلى بسمتيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين كل الحاميات الآشورية التي كانت تُرابط في أرض الدلتا، وبذلك تخلصت مصر من احتلال آخر أجنبي لم يدم طويلا.

ولقد سار بسمتيك الأول مؤسس هذه الأسرة بالبلاد نحو الفلاح، والواقع أنه يعد من دُعاة نهضتها وبعثها من جديد؛ إذ نجده قد استمر في إحياء مجد البلاد القديم، وذلك بالرجوع إلى ما كان لمصر من علوم وفنون وثقافة وفلسفة حتى جعلها قبلة العلم والمعرفة.

يُضاف إلى ذلك أنه أخذ يتصل بالبلاد الأجنبية المجاورة لمصر، ويفتح أبوابها لكل طالب وبخاصة أنه كان في حاجة إلى تكوين جيش قوي في هذه الفترة؛ يدافع به عن مصر في وجه الممالك الفتية الناشئة التي ظهرتْ في العالم وقتئذ.

ولقد كان له ما أراد؛ إذ تدفق على مصر الجنودُ المرتزقة من بلاد الإغريق «وكاريا» بآسيا الصغرى، وقد عُرف هؤلاء الجنود المرتزقة بشجاعتهم ومهارتهم في فنون الحرب وحسن التسلُّح، هذا إلى أن الشعب الإغريقى منذ أقدم عهوده كان مرتبطًا بمصر ويعتقد أن أرض الكنانة هي أم الحضارات والعلوم، فلما أتاح لهم «بسمتيك» سبيل الدخول إلى مصر في عصر نهضتها هذه؛ وفد إليها جمعٌ غفيرٌ من طُلاب العلم والمعرفة وأخذوا ينهلون من حياضها وينقلون إلى بلادهم كُلَّ ما تَعَلَّموه، ومِن ثم كانت المعرفة المصرية النواة الأساسية الصالحة التي نشأ منها العلم الإغريقي والمعرفة الإغريقية في كل مظاهرهما. وهذه العلوم والمعارف هي التي نشرها الإغريقُ بدورهم في كل أنحاء العالم المتمدين وبني على أساسها العلم الحديث.

والواقع أنه منذ منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد؛ كانت مصر الينبوعَ الذي استقى منه الشعبُ اليوناني كل علومه وفنونه. وهكذا سارت أسرة بسمتيك في طريقها نحو إعلاء كلمة مصر وإحياء علومها القديمة، غير أنه في نهاية عهد «أحمس الثاني» ظهرت دولة الفرس الفتية في الأفق وأخذتْ تمد سلطانها على كل أقطار العالم المتمدين.

وكانت مصر وقتئذٍ خارجة من حروب داخلية طاحنة أنهكت قواها وأضعفت قوتها الحربية فكانت الفرصة سانحة أمام الفرس الذين كانوا قد بيتوا العزم على فتحها والاستيلاء عليها منذ عهد ملكهم «كورش»، غير أن المنية اختطفتْه قبل أن ينفذ عزمه، فلما تولى «قمبيز» عرش ملك فارس من بعده قام بحملة جبارة على مصر واستولى عليها عنوة بعد حرب مريرة عام ٥٢٥ق.م، وبهذا الفتح الفارسي فقدت مصر استقلالها وأصبحت جزءًا من أملاك الإمبراطورية الفارسية التي كانت تشمل كل العالم المتدين.

وقد تضاربت الأقوالُ في كيفية حُكم «قمبيز» لمصر ومعاملته شعبها وآلهتها، وتدلُّ الوثائقُ التاريخيةُ الأصليةُ التي في متناولنا على أنه على الرغم مما ذكره «هردوت» من فظاعة معاملة «قمبيز» لجثة «أحمس الثاني» وانتهاك حرمة العجل أبيس بجرحه وسوء معاملته الكهنة واحتقاره لهم؛ فإنه احترم آلهة مصر وقدم القربان لهم.

وعلى أية حال فإن الشعب المصري الأبي — على الرغم من أن «قمبيز» لقَّب نفسه فرعونًا، وتَدَيَّنَ بدين المصريين، وسمى نفسه ابن الإله — قام بثورة في عهد ابنه دارا الأول،

بصرف النظر عن حُسن معاملة الأخير لهم؛ وذلك أن المصريين الذين لم يرضوا يوما ما بالحكم الأجنبي انتهزوا فرصةَ هزيمةِ الفرس على يد الإغريق في موقعة «ماراتون» — على ما يقال — وأشعلوا نار فتنة في كل البلاد ولم تخمد نارها إلا في عهد «أكزركزس الأول»، الذي أعاد السكينة ثانية في البلاد، وشدد الخناق على المصريين بقوة وعنف وصرامة لم تُعهد من قبل.

لم يهدأ للمصريين بالٌ مع ذلك؛ إذ قاموا كَرَّةً أخرى بثورة جبارة، وذلك عندما رأوا ملك الفرس «أرتكزكزس» منهمكا في حروبه مع بلاد اليونان التي دَوَّخَتْ بلاد الفرس بانتصاراتها عليها، وكان المحرك لهذه الفتنة مصري يدعى «إيناروس» غير أنه لم يفلح في طرد الفرس، ولكن النضال ظل مستمرًّا بين المصريين وبين الفرس سرًّا وعلانية — على حسب الأحوال — حتى منتصف حُكْم دارا الثاني حوالي عام ٤١٠ق.م، حينما هَبَّتْ ثورةٌ عنيفةٌ أُخرى أَشَدُّ من سابقتها في مصر، قادها بطلٌ يُدعى «أمير تاوس» انتهت بنصر المصريين على الفرس وطردهم من بلادهم جملة عام ٤٠٤ق.م، وأصبحت البلاد تتنسم أنفاس الحرية من جديد.

أسس «أمير تاوس» الذي طرد الفرس من مصر الأسرة الثامنة والعشرين، به بدأت هذه الأسرةُ وبه انتهتْ. وتدل كل المصادر التي في متناولنا على أن ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين قادوا أرض الكنانة إلى طريق الفلاح؛ فقد انتعشت اقتصادياتُ البلاد بصورة ملحوظة، ودبت فيها روح الحياة، ويرجع السبب في ذلك إلى انصراف الفُرس عن مصر بحروبها مع بلاد الإغريق، هذا فضلًا عن أن دويلات الإغريق قد أخذت تتحالف مع مصر — وبخاصة أثينا — وتمد إليها يد المساعدة عند أية محاولة تبدو من الفرس لغزو وادي النيل. ومن ثم قامت علاقاتٌ وطيدة نسبيًّا بين مصر وبلاد اليونان أساسها مناهضة الفرس.

ومن أجل ذلك كانت تسمح بلاد الإغريق — عن طيب خاطر — لأبنائها الشُّجعان بالانخراط في سلك الجيش المصري؛ بوصفهم جنودًا مرتزقين مدربين على أحدث فُنُون الحرب.

وقد كان الدافعُ لهؤلاء الجنود المرتزقة للانخراط في الجيش المصري؛ ما كانوا يكسبونه من أُجُور عالية بالنقد الذهبي الذي كان يسكُّه الفراعنة خصيصًا لهذا الغرض. وقد كانت مصر — من جانبها — تمد البلاد الإغريقية بالمال والذخيرة أثناء نُشُوب حرب بينها وبين فارس بقدر ما تسمح به الأحوال.

والظاهرُ أن فراعنة مصر في خلال الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين كانوا يتبعون سياسة الدفاع لا الهجوم حيال الفرس. وقد حاول الفُرس غزو مصر في عهد «نقطانب الأول» مؤسس الأُسرة الثلاثين، ولكنهم باءوا بالفشل؛ بفضل مساعدة الجنود المرتزقة، وفيضان نهر النيل في وجه الغزاة.

وقد ظل هذا الفرعون واقفًا موقفًا دفاعيًّا؛ جريا على سياسة أسلافه الذين كانوا لا يرمون إلى القيام بأي توسيع خارج مصر، غير أن خلفه «تاخوس» أخذته العزة القومية، وذكر ما كان لمصر من سلطان وجاه في العالم القديم، فصمم على إعادة أملاك الإمبراطورية المصرية إلى سلطانه كما كانت في عهد تحتمس الثالث في آسيا. ومن ثم أخذ يعد العدة لذلك، وبهذا خرج على خطة الدفاع التي سار عليها فراعنة مصر في تلك الفترة، وقد كان يعاضدُهُ في فكرته هذه القائدُ الإغريقيُّ «خبرياس» الذي كان يقودُ جيشه البري في ساحة القتال.

والواقع أن «تاخوس» اتخذه مستشاره المالي، ولكن «خبرياس» الذي لم يكن يعرف العادات والطباع المصرية أخطأ الهدف في معاملة المصريين، وبخاصة الكهنة الذين كانوا — في هذه الفترة بوجه خاص — أصحابَ قوة عظيمة ونفوذ هائل على أفراد الشعب.

أشار «خبرياس» بفرض ضرائبَ فادحةٍ على الشعب المصري؛ ليعد بها العدة لتجهيز الحملة على بلاد آسيا لفتحها وضمها لمصر، وكانت وقتئذٍ ضمن أملاك الفرس، غير أن «خبرياس» لم يكتف بفرض الضرائب على أفراد الشعب، بل تخطى ذلك إلى الكهنة، فجَرَّدَهم من كل أملاكهم، ومن ثم أصبحوا هم والشعب حربًا على «تاخوس».

وقد جَهَّزَ «تاخوس» الحملة، وسار بها على آسيا وأخذت انتصاراتُهُ تترى، غير أنه قامت مؤامرةٌ عليه في داخل البلاد المصرية، وفي الجيش نفسه في ساحة القتال، وكان نتيجتها أن فَرَّ «تاخوس» إلى معسكر العدو، وعاد الجيشُ إلى مصر، وتولى «نقطانب» الثاني المغتصب للعرش زمامَ الأُمُور في مصر، واكتفى بسياسة الدفاع والمهادنة طوال مدة حكمه.

وقد كان أول شيء عمله نقطانب الثاني هو إرضاء الكهنة وضمهم إلى جانبه، وهي السياسةُ التي كان يتبعها أسلافُهُ إلا الفرعون «تاخوس». والمطَّلِع على تاريخ هذه الفترة؛ يلحظ أن كل ملوك الأُسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين؛ كانوا يعملون كل ما في وسعهم لإرضاء طبقةِ الكهنة؛ فكانوا يُقيمون المباني الدينية بصورة تَلفت النظر، ولا أدل على ذلك من المباني العظيمةِ العُدَّة التي أقامها الفراعنة آنئذٍ في طول البلاد وعرضها، وبخاصة

ما تركه لنا كلٌّ من نقطانب الأول ونقطانب الثاني، من معابدَ ومحاريبَ، تكاد تضارع في كثرتها وعظمتها ما تركه فراعنةُ الأسرة الثامنة عشر العظام.

وقد أخذ نقطانب يُعِدُّ كُلَّ أسباب الدفاع عن مصر في وجه أيَّةِ غارة فارسية، فأرضى أولًا الكهنة بإقامة المباني العظيمة للآلهة، واستعان بالجنود المرتزقة الإغريق — وعلى رأسهم قواد إغريق — مغدقًا عليهم المال الوفيرَ من الذهب والفضة.

غير أنَّ السياسةَ العالمية لم تكن وقتئذٍ مواتيةً له، وذلك أن الفرس، كانوا قد صفوا حسابهم — على وجه التقريب — مع بلاد الإغريق، وأخذوا بعد ذلك يوجهون أنظارهم إلى فتح مصر ثانية، والواقعُ أن الفُرس كانوا يعدونها دائمًا جزءًا من إمبراطوريتهم، فجَهَّزُوا حملةً جبارة لغزو مصر، وبعد نِضَالٍ طويل استولَوا عليها، وعندئذٍ اضطر نقطانب الثاني إلى الفرار إلى بلاد النوبة ومعه كنوزُهُ، حوالي عام ٣٤١ق.م.

وقد حاول وطني مصري آخرُ نزع النير الفارسي عن مصرَ وأفلح فعلًا في طرد الفرس، حوالي عام ٣٣٨ق.م، ولكن الفرس استردُّوا أرض الكنانة كَرَّةً أُخرى حوالى عام ٣٣٦ق.م، غير أنه في هذا الوقت — بالذات — كانت هناك دولةٌ قويةٌ ابتلعت دولة اليونان في بلاد مقدونيا على رأسها الإسكندر الأكبر، الذي سار بجيوشه فاتحًا كل أقطار العالم المتمدين، فاجتاح كل إمبراطورية الفرس، وعندما وصلتْ جُيُوشُهُ في زحفها إلى أبواب مصر سلم له الشعب المصري؛ تخلصًا من النير الفارسي عام ٣٣٢ق.م، وهكذا انتقل مُلك مصر من يد الفُرس إلى يد الإسكندر الأكبر، ومن ثم ظلت أرض الكنانة تنتقل من يد فاتح إلى فاتح آخر على مر الدهور حتى قامت بثورتها الجبارة عام ١٩٥٢، تلك الثورة التي قضتْ بها على آخرِ مستبدٍّ أجنبيٍّ، وتولى زمام أُمُورها مصريون، يجري في عروقهم الدمُ المصريُّ الخالص، وها هي مصر تبني من جديد مجدها الغابر، وتتبوأ مكانتها في العالم الجديد، وتعمل — جاهدة — على بُلُوغ المكانة التي كانت تمتازُ بها بين أُمم العالم القديم، والتاريخ يعيد نفسه.

هذا وقد أتبعنا تاريخ هذا العهد بلمحةٍ في تاريخ بلاد السودان في تلك الفترة، كما أوردنا نبذةً في تاريخ بلاد الفُرس لارتباطها بمصر في تلك الفترة، وأخيرًا وضَعْنا في نهاية الكتاب ملحقًا عن قناة السويس، أو بعبارةٍ أُخرى: القناة التي كانت تربط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، منذ أقدم العهود حتى حفر القناة الحالية؛ وذلك ليعلم كل مصري أن هذا المشروع الضخم يضرب بأعراقه في الأزمان السحيقة في القدم، وليس ببدعةٍ ابتدعها أهل الغرب الحديث.

وإنى أتقدم هنا بعظيم شكري لصديقي الأستاذ محمد النجار، المفتش بوزارة التربية والتعليم والأستاذ محمد نصر، المدرس بالمدارس الإعدادية؛ لِما قاما به من مراجعة أُصُول الكتاب، كما أَتَقدَّم بالشكر للأستاذ محمد عزت بجامعة عين شمس؛ لقراءة بعض تجارب هذا المؤلف.

وأخيرًا لا يسعني إلا أن أشكر السيد محمد زكي خليل، مدير مطبعة جامعة القاهرة على ما بذله مِن مجهودٍ عظيمٍ وعنايةٍ ملحوظةٍ في تنسيق طبع هذا المؤلف. وختاما شكري للسيد حسن حسني المنياوي مدير مطبعة «دار الكتاب العربى»؛ لما أبداه من اهتمام بالغٍ في إنجاز الطبع بسرعةٍ فائقةٍ وجهدٍ ملحوظٍ، والله أسأل أن يُوَفِّقَنا جميعًا لما فيه خيرُ مصر …

مقدمة الفتح الفارسي لمصر

رأينا عند الكلام على الفتح الآشوري للبلاد المصرية أنه لم يجسر ملكٌ من مُلُوك «آشور» على إعلان نفسه ملكًا شرعيًّا على عرش الكنانة بالمعنى الحقيقي؛ أي لم يعلن واحدٌ منهم نفسه فرعونًا على «مصر»، وحتى عندما استولى «آشور بنيبال» على كل البلاد المصرية، ريفها وصعيدها؛ لم يترك لنا أثرًا يدل على أنه كان يحمل لقب الوجه القبلي والوجه البحري، وهو اللقبُ الذي كان يحملُهُ كُلُّ ملك تسلط على «مصر».

وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الآشوريين لم يتركوا لنا آثارًا تُوحي بأنهم كانوا يبحثون وراء الاحتفاظ بمصر بصفة جدية أو يرغبون في التتوُّج بالتاج المصري، ويحملون الألقاب الفرعونية — كما فعل الفرس من بعدهم — فقَدْ أعلن ملوكُ الفرس أنفسَهم فراعنةً لمصر، وأسسوا أسرة أطلق عليها: الأسرة السابعة والعشرون، وقد جاءت هذه الأسرة بعد القضاء على آخر ملكٍ من ملوك الأسرة السادسة والعشرين.

وقد كان «قمبيز» أول عاهل فارسي استولى على الديار المصرية عام ٥٢٥ق.م، غير أن فكرة فتح «مصر» كانت — في الواقع — موضعَ تفكير قبل ذلك في نظر ملك الفرس «كورش» «سيروس Cyrus»، وكان قد أعد العدة بصبر وأناة لفتح أرض الكنانة غير أن الأجل لم يمتد لتنفيذ ما أراد، فلما تولى «قمبيز» ملك «فارس» من بعده عمل جهده لإعداد العُدَّة لذلك، وقد بدأ يستعدُّ بتجريد «أحمس» «أمسيس» الثاني من حلفائه، فتحالف هو مع كل من «بوليكارت» ملك جزيرة «ساموس» وملك «فنيقيا»، فكان ذلك من الأسباب التي سهلت له تقوية الحملة البرية على «مصر» بوساطة أُسطوله البحري وأساطيل حليفية. يُضاف إلى ذلك أن «قمبيز» قد حصل على مساعدة بَدْوِ خليج السويس.

هذا وقد ضمن «قمبيز» لنفسه وُجُودَ قاعدة قوية ينقضُّ منها على الحدود المصرية، بالتصريح لليهود ببناء معبد أورشليم، وفضلًا عن ذلك نجد أن الفرس قد اكتسبوا إلى جانبهم عواطفَ الجنود المرتزقة اليهود، الذين كانوا في خدمة الفرعون. وقد ساعدت الأحوالُ الفرسَ؛ بهروب «فانس» أحد أبناء «هاليكارناس» وكان رئيسًا من رؤساء الجُنُود المرتزقة الذين كانوا في خدمة «أحمس» الثاني، وانضم إلى معسكر «قمبيز» وأطلعه على أسرار كل الترتيبات التي وضعها المصريون لمقاومة الفرس (راجع: الجزء ١٢).

وبعد أن انتهى «قمبيز» من استعداداته جمع جموعه في «فلسطين»، وأرسى أُسطوله في ميناء «عكة» وقد كان موت «أحمس» الثاني في هذه اللحظة الحاسمة وتولِّي ابنه «بسمتيك» الثالث خلفًا له على العرش سببًا قويًّا في هزيمة المصريين وفقدان «مصر» استقلالها لمدةٍ من الزمن.

وقد بدأ «قمبيز» هُجُومَه على «مصر» في ربيع عام ٥٢٥ق.م، فزحف الجيشُ الفارسيُّ مِنْ «غزة» وتقابل مع الجيش المصري، وهزمه في مدينة «بلوز» «الفرما»، وقد قاومت هذه المدينة ومِن بعدها مدينة «عين شمس» الجيشَ الفارسي بعض المقاومة. وعلى أعقاب ذلك سقطت مدينة «منف» العظيمة وكان قد احتمى فيها «بسمتيك» الثالث. وفي أثناء تنظيم البلاد المصرية بعد الفتح الفارسي كان «قمبيز» يُعد العدة للقيام بحملات نحو الجنوب ونحو الغرب، وأسفرت حملاتُهُ عن خُضُوع كُلٍّ من «لوبيا» و«برقة» لسلطانه.

وتُحدثنا الأخبار أن الفنيقيين قد امتنعوا عن معاضدة الهجوم الذي قام به «قمبيز» على «قرطاجنة»، مما أَدَّى إلى فشل حملته على تلك الجهة. وبعد ذلك حول «قمبيز» جُهُودَه لإخضاع الواحات، وبلاد «كوش» التي كان يعد فتحها من الأُمور الضرورية لاتمام فتح «مصر»، فسار من «طيبة» جيشان، اتجه الجيشُ الرئيسيُّ منهما — وهو الذي على رأسه «قمبيز» نفسه — نحو الجنوب، فأخضع الكوشيين وسلمت له الواحةُ الخارجةُ دون قتال.

وعندما عاد «قمبيز» من حملته هذه أصابته لوثةٌ، ومن ثم بدأ يرتكب فظائعَ في «مصر»؛ فقد اضطهد رجال حاشيته من الفرس، كما اضطهد الكهنة المصريين، واحتقر ديانةَ البلاد وعقائدها، على حسب ما ذكره لنا «هردوت» غير أن المتون المصرية التي وصلتْ إلينا حتى الآن لم يأتِ فيها ما يؤيد ارتكابَ هذه الجرائم التي نُسب ارتكابها لهذا العاهل. وعندما غادر «قمبيز» الديار المصرية عائدًا إلى مقر ملكه في «فارس» وضع مقاليد الأُمُور في «مصر» — التي أصبحت إقليمًا من إمبراطوريته — في يد الشطربة «أرياندس Aryandes» وقد مات «قمبيز» في «سوريا» عام ٥٢٢ق.م وهو في طريقه إلى «فارس». وكانت «سوريا»

وقتئذٍ في ثورة أشعل نارَها المرزبان «جوماتا» الذي قيل عنه: إنه أخو «قمبيز»، وقد قام «دارا» بمحاربة «جوماتا»، فقتله وأطفأ نار الثورة في «سوريا» بسرعة (٥٢١–٥٢٠ق.م) بعد أن انتشرتْ في المديريات التي انفصلتْ عن الإمبراطورية وقتئذٍ، وبقيت «مصر» خاضعة لغُزاة الفرس.

على أنَّ الصعوبات التي لاقاها ملكُ الفرس في «مصر» لم تأت من المواطنين المصريين، بل جاءتْ من الحاكم الفارسيِّ نفسه؛ وذلك أن «أرياندس» قد مد نفوذه إلى ما وراء الحدود المصرية حتى أصبحت «برقة» خاضعة له، ثم لم يلبثْ — بعد ذلك — أن أظهر ميولَه وأطماعه نحو الاستقلال بالأصقاع التي كانت تحت سلطانه، مما أَقلقَ بال العاهل الفارسيِّ. وتُحدثنا الوثائق الفارسية أن «مصر» كانت ضمن الإقليم الثائر على ملك الفرس، وتقول صراحة: إن «دارا» فتح هذه البلاد، وأخضع الثورات وقتل «أرياندس».

أعيد بعد ذلك النظام[1] في البلاد على نمط الأُسس الإدارية والمالية التي وضعها «دارا» الأولى، وبذلك أصبحتْ «مصر» بالإضافة إلى الأقاليم الأفريقية الأخرى تُعَد الشطربية السادسة من بين شطربيات الإمبراطورية الفارسية.

وكانت الجزية التي تدفعها «مصر» سنويًّا للخزانة الفارسية تُقدر بمبلغ سبعماية تلنت[2] من الفضة، هذا فضلًا عن دخل مصايد السمك في بحيرة «موريس».

وكانت «مصر» — زيادة على هذه الضرائب — تقوم بِمَدِّ الجُنُود الفارسية الذين كانوا معسكِرين فيها بكل ما يلزمهم، وكان كُلٌّ مِن الجيش والأسطول المصري يُسهم في المشروعات الخاصة بملك الفرس العظيم، وقد أرسل «دارا» مهندس عمارة وعمالًا للعمل في «سوسا» عاصمة ملكه، وكذلك حَسَّنَ طرق المواصلات الداخلية في الإمبراطورية، وفتح طرقًا برية وبحرية جديدة حتى أصبحت العلاقاتُ المباشرة بين «فارس» وأملاكه في أفريقيا ثابتةً قوية، ولا أدل على ذلك من أن هذا العاهل هو الذي حفر «قناة السويس» فربطتْ بين «مصر» وإمبراطورية «فارس» كلها — كما سنرى بعد.

وقد ظهر تأثيرُ هذه الإصلاحات، بالإضافة إلى وضع معيار رسمي للنقد بأن ازدادت العلاقاتُ الاقتصاديةُ في كُلِّ أنحاء العالم الشرقي، ومن ثم أحست «مصر» بهذا الإصلاح السعيد في جميع مرافقها الحيوية.

---

[1] انظر [عصر الملك «دارا» الأول].

[2] التلنت = حوالى ٢٠٠ جنيه.

وتدلُّ الظواهرُ على أن «دارا» الأول كان يهتم شخصيًّا بإقليمه العربي؛ فقد زار «مصر» في السنتين الأوليين من حكمه، وأظهر عطفه وميله لمعبوداتها المحلية، فقَدَّمَ الهدايا للمحاريب، وشرَع في إقامة المعابد، وأمر بسن القوانين وشجع تأسيس معاهد التعليم. وقد بقيتْ «مصر» من جانبها مخلصة له حتى نهاية حُكْمه تقريبًا، عندما اندلع لهيبُ الفتنة في عهد ولاية الشطربة «فرندات Pherendate»، وذلك قبل موت «دارا» بقليل حوالى عام ٤٨٦ق.م.

ولما تولى «أكزركزس» (= خشيرشا أو خشويرش) ٤٨٥–٤٨٤ق.م، نصب أخاه «أخامنيس» شطربة على «مصر»، وهو الذي اشترك في الأعمال الحربية التي قام بها «أكزركزس» على بلاد الإغريق؛ إذ كان يساعدُهُ بالأُسطول المصري. والظاهرُ أن الفرس كانوا قد وجهوا كل قوتهم الرئيسية إلى محاربة بلاد الإغريق ومن أجل ذلك تركوا «مصر» في تلك الفترة جانبًا، ومن ثم نفهم السبب الذي من أجله أن «أكزركزس» وخلفه «أرتكزركزس» لم يزورا «مصر» ولَمَّا قامت ثورةٌ في الدلتا في عهد «أرتكزركزس» وكل أمر إخضاعها إلى قائده «مجابز Megapeze»، وكان مُشعل نار هذه الثورة قائد مصري يُدعى «إيناروس» ولكن بمعاضدة الإغريق أعداء الفرس عام ٤٥٦ق.م.

وعلى أثر موت «أرتكزركزس» عام ٤٢٤ق.م تولى زِمَام ملك «فارس» بعده الملك «دارا» الثاني، غير أنه لم يترك لنا آثارًا قيمة في «مصر».

وتدل الأحوال على أن الروابط التي كانت بين «مصر» وبلاد «فارس» في هذه الفترة؛ قد أَخذتْ في الانحلال والتراخي شيئًا فشيئًا، إلى أن انتهى الأمرُ بضياع سُلطان الفُرس من وادي النيل حوالي عام ٤٠٤ق.م.

الآثار التي خلفها لنا ملوك الفرس

الآثارُ الهامة التي تركها لنا «قمبيز»

سنتحدث هُنا أولًا عن الآثار التي أُرخت بعهد هذا الفرعون، ثم نُوردُ ترجمتها، ونستخلص منها الحقائق التاريخية الهامة:

(١) تمثال في متحف الفاتيكان ((No. 158 (113)) «وزاحر رسن»

يظهر أن هذا التمثال الصغير قد أتي به من مجموعة «هدريان» المصرية الموجودة في مدينة «تريفلي». والتمثال يُمثِّلُ رجلًا واقفًا، يرتدي جلبابًا طويلًا، ويقبض بين يديه على محرابٍ يَحتوي على صورةٍ للإله «أوزير».

ويبلغُ ارتفاعُ التمثالِ سبعين سنتيمترًا، وهو مصنوعٌ من الحجر الصلب الأخضر القاتم، وقد ضاع رأسُهُ ورقبتُهُ وذراعُهُ اليُسرى. وتغطي النقوش التي نُقشت عليه سطحَ المحراب وسنادته، والقميص والظهر والجزء الأعلى من القاعدة، وتشتمل كُلُّها على ثمانيةٍ وأربعين سطرًا.

وتنقسمُ عِدَّةَ مُتُون، كُلٌّ منها مستقلٌّ عن الآخر، ويصعب ترتيبُها على حسب تتابُعها بصفة قاطعة. والظاهرُ أن أحسن ترتيب هو الذي وضعه كلٌّ مِن «بركش» و«بيل» و«ماروكشى» وغيرهم (راجع: Posener, La Premiere Domination perse en Egyte p. 2 ff).

وتدلُّ النقوشُ التي على هذا التمثال على أن آخر بيان جاء ذِكرُه في متن هذا التمثال هو: إصلاحُ مدرسة «سايس» على حسب ما أمر به الملك «دارا» الأول كما جاء في أسطُر المتن من ٤٣–٤٥.

ويرجعُ تاريخُ هذا الحادث إلى السنة الثالثة من عهد هذا الملك — كما سنرى بعد — وهاك النصُّ الذي جاء على هذا التمثال، على حسب الترتيب الذي ارتأيناه.

(أ) على واجهة التمثال

(١) قربان يقدمه الملك للإله «أوزير حماج»، آلافٌ من الخبز والجعة والثيران والطيور، وكل شيء طيب طاهر، لروح المقرب لدى آلهة مقاطعة «سايس» (صا الحجر) رئيس الأطباء «وزاحر رسن».

(٢) قربان يُقدمه الملك للإله «أوزير» المقيم في «حت نيت» (صا الحجر) قربان جنازي، من الخبز والجعة، والثيران والطيور، وأواني المرمر، ونسيج وعطور، وكل شيء جميل؛ لأجل روح المقرب لدى الآلهة رئيس الأطباء «وزاحر رسن».

(٣) يا «أوزير» يا رب الأبدية إن «وزاحر رسن» يضعُ ذراعيه خلفك لحمايتك، فليت روحك تأمر بأن يعمل له كل الأشياء النافعة، كما عملت الحماية خلف محرابك أبديًّا.

(ب) ونقش على ذراع التمثال اليمني تسعة أسطر، وهي

المقرب لدى الإلهة «نيت» العظيمة أُم الإله (أي الإله «رع») ولدى آلهة «سايس» والأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وقريب الملك حقًّا، المحبوب والكاتب والمفتش على كتاب المحمكة، والمشرف على الكُتَّاب العظام للسجن (؟) ومدير القصر (٩) ورئيس البحرية الملكية في عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري؛ «خنم-اب-رع» «أحمس» الثاني ورئيس البحرية الملكية في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري (١٠) «عنخ-كا-رع» «بسمتيك» الثالث «وزاحر رسن» ابن مدير القصور (= مدير قصور التاج الأحمر) وكاهن «جرى ب» (رئيس بلدة ب). (وهذا لقبٌ كان يُستعمل في الأعياد الثلاثينية، واللقبُ معروفٌ منذ الدولة القديمة)، والكاهن «رنب» (= وهو الكاهنُ العظيم للمقاطعة الثالثة من مقاطَعات الوجه البحري) والكاهن «حبت وزات» (وهو لقب كاهن،

يُذكر كثيرًا في العصر المتأخِّر)[1] وكاهن الإلهة «نيت» التي على رأس مقاطعة (صا الحجر) المسمى «بفتو عونيت»، على حين كان معه غرباء البلاد الأجنبية كلها، وعندما استولى على هذه الأرض جميعها (١٢) استوطنها هؤلاء الغرباء، وأصبح حاكمًا عظيمًا على «مصر»، وملكًا كبيرًا على كل البلاد الأجنبية، وقد نصبني جلالتُه في وظيفة رئيس الأطباء (١٣) وجعلني أعيش بالقرب منه بوصفي السمير، والمدير للقصر، ومؤلف لقبه؛ أي اسمه، بوصفه ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مستيورع» (أي المتناسل من «رع»)، وقد عملت على أن يعرف جلالتُه عظمة (صا الحجر) (١٤) وهي مقر الإلهة «نيت» العظيمة الأم التي أنجبت «رع» التي بدأت الولادة عندما كانت الولادةُ لا وُجُود لها بعد، وأن يعرف عظمة هيئة معبد «نيت»؛ فإنه السماء[2] في كل أحواله، وعظمة معبد «حت نيت»، وهو مقام الحاكم سيد السماء (أوزير) وهيئة عظمة «رس نت» و«محنت» (وهما مكانان مقدسان في «سايس» يعبد فيهما الإله «حور») وهيئة بيت «رع» وبيت «آتوم» (وهذه المعابدُ الأربعةُ التي ذُكرت أخيرًا هي التي تُقابلُ الجهات الأربع) «رسنت» = الجنوب، «محنت» = الشمال، «بررع» = الشرق، «بر آتوم» = الغرب وهي المكان الخفى لكل الآلهة (= المكان الذي فيه المعابدُ الخاصةُ بالإلهة «نيت»، وهو المكانُ الذي كان فيه الآلهة كلهم).

المتن الذي تحت الذراع اليسرى

(١٦) المقرب من الإله المحلى «أوزير» وكل الآلهة، والحاكم الوراثي وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وقريب الملك الحقيقي، محبوبه (١٧) رئيس الأطباء «وزاحر رسن» الذي وضعته «أتم-ردس» يقول: (١٨) لقد تقدمت إلى جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «قمبيز» بشكوى من الأجانب المقيمين في معبد «نيت» (١٩)؛ ليطردوا من هناك؛ ليصير معبد «نيت» في كل فخاره، كما كان من قبل.

[1] يحتمل أن هذه الألقاب التي جاءتْ فى هذه السطور هي الألقابُ التي كان يحملُها «وزاحر رسن» فى عهد الملوك المصريين، وقد بقي يحمل بعضها فى عهد ملوك الفرس، ولكنه فقَدَ — بلا شك — قيادةَ الأُسطول، وكذلك وظيفة مفتش مكتبة المحكمة والإشراف على كتبة السجون؛ وذلك لأن هذة الوظائف الثلاث لم تُذكر فيما بعدُ ضمن ألقابة وعلى العكس كان قد أصبح كاهنًا ورئيس أطباء.

[2] تمثيل المعبد بالسماء وصفٌ شائعٌ عند المصريين.

وقد أمر جلالتُه بطرد الأجانبِ كُلِّهِمْ (٢٠) الذين استقرُّوا في معبد الإلهة «نيت» وتقويض منازلهم، وكل أرجاسهم (؟) التي كانت في هذا المعبد، وعندما حملت (٢١) كل أمتعتهم (؟) خارج سور المعبد أَمَرَ جلالتُه بتطهير «نيت» وتغيير كل من يعمل به.

(٢٢) … وكهنة الساعة الخاصين بالمعبد، وأمر جلالتُه بإعادة دخل أملاك الوقف الخاصِّ بالإلهة «نيت» العظيمة أم الإله «رع» وللآلهة العظام الذين في سايس مدينة الآلهة، الذين جلسوا فيها على عروشهم أبديًّا.

(ج) المتن الذي على قاعدة المحراب، وعلى العمود من الجهة اليُسرى

المقرب من آلهة «سايس» (٢٥) رئيس الأطباء «وزاحر رسن» يقول:

«لقدْ ذهب ملكُ الوجه القبلي والوجه البحري «قمبيز» إلى «سايس» ودخل بنفسه في معبد الإلهة «نيت» وسجد بخشوع كبير أمام جلالتها (أي جلالة «نيت») كما فعل كل ملك (من قبل) وقَرَّبَ قرباتٍ عظيمةً من (٢٦) كل شيء طيب للإلهة «نيت» العظيمة أُم الإله «رع»، ولكل الآلهة العِظام الذين في «سايس» كما فعل كل ملك محسن (٢٧)، وقد عمل جلالتُه ذلك؛ لأني جعلتُ جلالتَه يعرف عظمةَ جلالتها (أي جلالة الإلهة «نيت»)، وهي أم الإله «رع» نفسه.»

(د) المتن الذي على قاعدة المحراب والعمود من الجهة اليُمنى

(٢٨) المقرَّب لدى «أوزير ماج»،[٣] رئيس الأطباء «وزاحر رسن» يقول:

«إن جلالته أَدَّى كُلَّ عمل مفيد في معبد «نيت»، وقد أقر تقديمَ القربات السائلة لسيد الأبدية «أوزير» في داخل معبد «نيت» كما كان يعمل كل ملك من قبل (٣٠) وقد عمل جلالتُه هذا؛ لأني عملتُ على أن يعلم جلالتُه كل الأعمال المفيدة التي عملها كل ملك في هذا المعبد؛ وذلك بسبب عظمةِ هذا المعبد الذي هو مَقَرُّ الآلهة الذين استقروا فيه أبديًّا.»

[٣] أي المزمل، وهو هنا لقبٌ لأوزير ببلدة «سايس» «صا الحجر».

(هـ) المتن الذي على الجدار الأيسر للمحراب، وعلى الجلباب أمام الذراع اليُمنى

(٣١) المقرب لدى آلهة مقاطعة «سايس»، رئيس الأطباء «وزاحر رسن» يقول:

«لقد مكنت دخل أملاك الوقف الخاص بالإلهة «نيت» العظيمة، والدة الإله «رع» على حسب (٣٢) أَمر جلالته لطول الأبدية، وحبست أوقافًا للإلهة «نيت» سيدة «سايس» من كل شيء طيب، كما يفعل خادمٌ ممتازٌ لسيده وإنى رجلٌ طيبٌ في مدينته، فقد نجيت سكانها من الاضطراب العظيم (٣٤) عندما حدث في الأرض قاطبة «مصر». وهو الذي لم يوجد مثيلُهُ من قبل في هذه الأرض. فقد حميتُ الضعيفَ (٣٥) من القوي وحميت الخائف مما حدث له. وحملت لهم كل شيء مُفيد في (٣٦) اللحظة الحرجة، التي يجبُ أن يعمل الإنسان لهم فيها شيئًا (أي في وقت الاضطرابات).»

(و) المتنُ الذي على الجدار الأيمنِ للمحراب، وعلى الجلباب أمام الذراع اليُسرى

(٣٧) المقرب لدى الإله المحلى «أُوزير» رئيس الأطباء «وزاحر رسن» يقول:

«إني رجلٌ مقربٌ مِن والده وممدوحٌ من والدتِهِ، وموضعُ ثقة إخوته، وقد نصبتهم في وظيفة كاهن، وأعطيتُهُم حقلًا ذا محصولٍ على حسب أمر جلالتِهِ طوال الأبدية، وأقمتُ مدفنًا جميلًا لمن ليس له مدفنٌ منهم، وأطعمت كل أطفالهم ومكنت كل بيوتهم (٤٠) وعملت لهم كل شيء مفيد، كما كان يجب على الوالد أن يعمل لابنه عندما حدث الاضطرابُ في هذه المقاطعة، منذ أن وقع الاضطرابُ العظيمُ في كُلِّ الأرض «مصر» قاطبة.»

(ز) المتن الذي على ظهر التمثال

(٤٣) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد الكاهن «عنخ-ام-س» (الذي يعيش فيها، أو منها؟) والكاهن رئيس الأطباء «وزاحر رسن» الذي أنجبته «أتم اردس» يقول: إن جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» — ليته يعيش أبديًّا — أمرني أن أعود إلى «مصر» في حين كان جلالتُه يوجدُ في «عيلام» وكان وقتئذٍ ملكًا عظيمًا لكل البلاد الأجنبية، وملكًا عظيمًا على «مصر» لأجل أن أُصلح بيت الحياة

(٤٤) بعد الخراب، والأجانبُ حملوني من إقليمٍ إلى إقليمٍ، وجعلوني أَصِلُ إلى «مصر»، كما أمر به سيد القطرين.

وقد عملتُ كل ما أمرني به جلالتُه، فقد جَهَّزْنَاها بكل طُلَّابها الذين كانوا أبناء أُناسٍ ذوي قيمة، دون أن يكون بينهم أبناءُ أناسٍ من السفلة. وقد وضعتُهُم تحت إشراف كُلِّ عالم. (٤٥) كل أعمالهم، وقد أمرني جلالتُه أن أعطيهم أشياءهم الطيبة حتى يكون في استطاعتهم أن يؤدُّوا أعمالهم، وعلى ذلك سلمتُهُم كل أشيائهم المقيدة وكل أدواتهم التي نص عليها كتابة — كما كانت الحال من قبل — وقد عمل جلالتُه ذلك؛ لأنه يعرف فائدةَ هذا الفن، لأجل أن يجعل المريضَ يعيش، ولأجل أن يجعل كل أسماء الآلهة ومعابدهم، ودخل أملاك أوقافهم، وإقامة أعيادهم؛ تبقى أبديًّا.

(ح) المتنُ الذي على قاعدة التمثال من اليمين

(٤٦) رئيس الأطباء «وزاحر رسن» يقول:

«كنت رجلًا مقربًا لدى كل أسياده طالما كنت حيًّا؟ وقد منحوني زخارفَ من الذهب، وعملوا مِن أجلي كل الأشياء المُفيدة.»

(ط) المتن الذي على القاعدة من جهة اليسار

(٤٧) وأنه سيكونُ مقربًا لَدَى الإلهة «نيت» من سيقول:

«يأيها الآلهة العظام الذين في «سايس» تذكروا كل الأشياء القيمة التي عملها رئيسُ الأطباء «وزاحر رسن»، ومن أجل ذلك عليكم أن تعملوا له كل شيء مفيد، وتمكنوا بقوة اسمه الطيبة على هذه الأرض سرمديًّا.»

التمثال ذو المحراب المحفوظ بمتحف القاهرة

عثر على هذا التمثال الأثريُّ «روزيليني» ونَقل بعض نقوشه أثناء إقامته في «مصر» ١٨٢٨–١٨٢٩. غير أن «روزيليني» لم يقدم لنا أية معلومات محددة عن المكان الذي وُجد فيه هذا الأثر (راجع: Posener, Ibid p. 2 note 1 & 2) وتدل شواهد الأحوال على أن روزيليني بدلًا من أن ينقل كل النقوش التي عليه اكتفى بنقل النقوش التي تحتوي

الأسماء الملكية، ومن ثم أَصبح من الصعب تحديدُ تاريخ هذا المتن، ومع ذلك فإن أوجُه الشبه الكثيرة التي نَلحظها بين تمثال متحف القاهرة وتمثال متحف الفاتيكان الذي تَحَدَّثْنا عنه فيما سبق تلفت النظر؛ فالتمثالان من طراز واحد، وكذلك يظهر أنهما قُطعا بحجمٍ واحد، وكذلك نجد نفس الطغراءات في نقوشهما إلا طغراء الملك بسمتيك الثالث؛ فإنه لم يوجد على تمثال القاهرة ومِن المحتمل إذن أن التمثالين هما لرئيس الأطباء وزاحر رسن.

تاريخ التمثال: فإذا كان هذا التقاربُ بين التمثالين صحيحًا فإن تمثال «القاهرة» يكون من نفس العصر الذي يُنسب إليه التمثال الأول؛ أي في بداية عهد «دارا» الأول. والسببُ الوحيدُ الذي يَجعل الإنسان يَميل إلى هذا التاريخ هو كتابة اسم «دارا» (راجع: Bibliotheque de I' Universite de Pise, Manscrit 297 de Rosellini studi Egiziani II).

وهناك النقوش التي نقلها «روزيليني» (الترجمة):

«(١) ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خنم-اب-رع» «أحمس» (a) … (٢) جلالة (؟) ملك الوجه القبلي والوجه البحري «قمبيز» (b) حامي (؟) كل البلاد الأجنبية (c) … (٣) السيد العظيم للأراضي «قمبيز» العظيم (d) من يرفع المدن (e) (٤) واسمه ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مستيورع» (؟) (f) وجلالته (؟) قد طهر نفسه في معبد «نيت» أبديًّا (g) … (٥) ملك الوجه البحري والوجه القبلي «دارا» (h) معطى الحياة أبديًّا.»

(٢) نقوش سربيوم منف

يوجد ما يربي على عشرين لوحة من لوحات السربيوم بمدينة «منف» تحمل تاريخ ملوك «فارس» (والواقع أنها تكاد تكون كلها من عهد الملك «دارا») كما يوجد كثيرٌ غيرها ولكن لم نجد ذكر سنة الحكم على واحدة منها خاصة بنفس العصر. ولدينا خمسةُ متون من بين هذه لها أهميةٌ خاصةٌ بالنسبة للعصر الذي نبحث فيه؛ أي في تاريخ «مصر» في عهد الأسرة السابعة والعشرين، وهذه المتونُ هى: لوحتان جنازيتان لعجلتينِ مِن عُجُول «أبيس» واحدةٌ للملك «قمبيز» والأُخرى للملك «دارا» الأول (المتن رقم ٥)، ثم متن تابوت العجل الأول من العجلين السابقين (٤) ثم لوحتان لشخصٍ يُدعى «أحمس» (٦، ٧).

لوحة «أبيس» الذي دُفن في السنة الثالثة من عهد الملك «قمبيز»

هذه اللوحةُ أَعلاها مستديرٌ، ويبلغُ ارتفاعُها ٦٦ سنتيمترًا وعرضها ٤٤ سنتيمترًا، عثر علها «مريت» في الحفائر التي قام بها في سربيوم «منف» وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «اللوفر» (No. 354) وتنقسم صفين (راجع: Posener. Ibid p. 30 ff).

التأريخ: الشهر الثالث من فصل الصيف من السنة السادسة من عهد «قمبيز» وقد تحدث عن هذه اللوحة «بوزنر» وشرحها شرحًا وافيًا للمرة الأولى، فيما يلى:

الصف الأول: يشاهد تحت قرص الشمس المجنح مائدة قربان، وعلى جانبها تقرأ: قربان جنازي.

وعلى اليمين: نشاهد العجل «أبيس» يحلي رأسه قُرص الشمس، والصل بين قرنيه ويشاهد فوق «أبيس» ثلاثة أسطُر نقض فيها: «أبيس»، «آتوم» الذي له قرنان على رأسه، ليته يعطى كل الحياة.

وعلى اليسار: نُشاهد الملك «قمبيز» راكعًا وفوقه نقشٌ، اسمُهُ في ثلاثة سُطُور:

(١) «حور سماتوي» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مستيورع» الإله الطيب سيد القطرين.

وخلف «قمبيز»: نُشاهد روحه تحمل اسمه الحوري «سماتوي» (= مُوحِّد الأرضين).

الصف الثاني: يحتوي على عشرة أسطُر، وقد مُحي أكثر من نصف المتن من الجهة اليُمنى من اللوحة، عدا السطر الأول الذي بقي سليمًا، وهاك ترجمة ما تَبَقَّى:

السنة السادسة، الشهر الثالث من فصل الصيف، اليوم العاشر (؟) في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مستيو (؟) رع»، معطَى الحياة أبديًّا اقتِيد الإله في سلام نحو الغرب الجميل، ووُضع في الجبانة (أي في السربيوم) في «مكانه»، وهو المكان الذي عمله له جلالتُه — أي قمبيز — (٣) (بعد أن عمل) كل (الأحفال) في قاعة التحنيط.

وقد عملت له (كسوة) وملابس «منخت» ووضع معه تعاويذُهُ، وكل زيناته من الذهب، ومن الأحجار الغالية … (٥) … معبد «بتاح» الذي في داخل حماج (= قاعة من قاعات المعبد) (٦) … أمر … نحو (؟) «حت كابتاح» (= «منف») قائلًا: قُودوا (؟)

(٧) ... وقد عمل على حسب كل ما قاله جلالتُه[٤] (٨) في السنة السابعة والعشرين[٥] (٩) ...

(٣) نقوش تابوت «أبيس» الذي دُفن في عهد «قمبيز»

هذا التابوتُ مصنوعٌ من الجرانيت الرمادي، وقد عثر عليه في سربيوم «منف»، ونقش على الغطاء سطرٌ من النقوش.

التأريخ: وهذا التابوت يجب أن يكون خاصًّا بالثور الذي ذكر على اللوحة الجنازية رقم٣، وهو العجل المقدس الوحيد الذي جاء على لوحته أنه دفن في عهد الملك «قمبيز» — كما سنرى بعد، (راجع: gunn, A,S. 26 (1926) pp. 85–86).

الترجمة: (أ) «حور سماتوي» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مستيو (؟)-رع» (ب) ابن «رع» «قمبيز» (ج) ليته يعيش أبديًّا، لقد عمل بمثابة أثر منه لوالده «أبيس» – «أوزير» تابوتًا عظيمًا من الجرانيت (د) مهدًى من (هـ) ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مستيو (؟)-رع» بن «رع» «قمبيز» معطى كل الحياة، وكل الخلود، وكل القوة، وكل الصحة، وكل السرور، مشرقًا بمثابة ملك الوجه القبلي والوجه البحري سرمديًّا.

[٤] إن القليل من النقوش التي بقيتْ من الأسطُر ٥–٧ ليس له مقابلٌ في اللوحات الجنازية رقم ١٩٢-١٩٣ ٢٤٠ من لوحات السربيوم الموجودة في متحف «اللوفر»، والظاهر أن الموضوعَ ينحصرُ في أمرٍ صادرٍ من الملك وتنفيذه.

[٥] تحتوي اللوحة الجنازية الخاصة بالعجل أبيس هذا، على أربعة تواريخَ بوجهٍ عامٍّ، وهي: تاريخُ دفن العجل، وقد جاء ذكرُهُ في اللوحة التي نحن بصددها في السطر الأول، وتاريخ ولادته وتاريخ تتويجه وتاريخ موته. وتاريخ وفاة العجل الذي نحن بصدده الآن قد حدث قبل دفنه بمدة وجيزة (حوالي ٧٠ يوما في العادة). أما الرقم ٢٧ الذي نجده في لوحتنا؛ فلا يمكن أن يعود إلا على تاريخ ميلاد وتتويج أبيس وعلى حسب الآثار لا بد أن يكون تاريخ الميلاد.

أما التاريخ الثاني فلا بد أن يكون آخرَ السطر التاسع وبداية السطر العاشر، وعلى ذلك فإن تاريخ السنة السابعة والعشرين لا يُمكن أن يكون إلا تاريخ «أحمس» ٥٤٣ق.م، وعلى ذلك فإن أبيس الذي دُفن في عهد «قمبيز» لا بد إذن أن يكون قد عاش حوالي تسع عشرة سنة.

(٥) لوحة جنازيةٌ للعجل «أبيس»، الذي تُوُفِّيَ في السنة الرابعة من عهد «دارا» الأول

هذه اللوحة مستديرةٌ من أعلاها، وهي مصنوعةٌ من الحجر الجيري، ويبلغ ارتفاعُها ٨٠ سنتيمترًا وعرضها ٤٤ سنتيمترًا وسمكها ١٠ سنتيمترات، وهي محفوظةٌ بمتحف «اللوفر» (NO. 357) وقد وجد هذا الأثر مكسورًا ولم يبق منه الآن غير ثماني قطع، وينقصه — بلا شك — قطعتان من جانبه الأيسر، وينقسم صفين.

التأريخ: اليوم الثالث عشر، من الشهر السادس من فصل الصيف، السنة الرابعة من عهد «دارا» الأول (حوالي ٥١٨ق.م) (راجع: chaisinat, Rec. trav. 23 (1901) p. 77–7 posener. Ibid p. 36 ff).

ومما تجدر ملاحظتُهُ هنا: أنَّ الصفَّ الأعلى من هذه اللوحة موحَّدٌ بالصف الأعلى من اللوحة رقم ٣ السابقة الذكر، ولكنَّا نجدُ مكان قرص الشمس المجنح رسم العلامة على السماء، ولا يوجدُ للعجل «أبيس» إلا صل واحدٌ بين القرنين، ونجدُ تحت مائدةِ القُربان نفس المتن الذي وجدناه في النقش رقم ٣ سالف الذكر وواجهة القصر التي تحتوي «الكا» الملكية خالية، ونجد تحت مائدة القُربان نفس المتن الذي في النقش رقم ٣.

واسم الثور هو «أبيس–آتوم» الذي يوجدُ قرناهُ على رأسه، ليته يعطى الحياة كلها.

واسم الملك هو: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تارواش» (= دارا).

الصف الثاني: يحتوي على أحد عشر سطرًا، ويُلحظ أن نهاية كل سطر قد هشمت.

الترجمة: (١) السنة الرابعة الشهر الثالث، من فصل الصيف، اليوم الثالث عشر، في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري دارا، معطى الحياة مثل رع (أبديًّا) (؟).

(٢) لقد اقتِيد هذا الإله في (سلام) نحو الغرب الجميل و(أُريح في الجبانة في مكانه، الذي هو المثوى الذي قد أقامه له جلالتُه — ولم يعمل قط مثيله من قبل — بعد أن أُقيمت له كل الأحفال) في قاعة التحنيط. والواقعُ أن جلالته قد فخمه (كما فخم «حور» والده «أوزير») وقد عمل له (أي لأبيس) تابوتًا عظيمًا من مادة صلبة قيمة كما كان يعمل من قبل، وعمل له كساءً وملابسَ (منخت) وأحضر له تعاويذَه، وكل حلية من الذهب ومن كل مادة ثمينة ممتازة، وكانت أكثر جمالًا مما كان يعمل من قبل.

والواقع أن جلالته أحب (أبيس العائش) أكثر مِن كل ملك، وقد صعد جلالة هذا الإله إلى السماء في السنة الرابعة، الشهر الثالث من فصل الصيف (اليوم الرابع، وقد ولد) في السنة الخامسة، الشهر الأول من فصل الزرع، اليوم التاسع والعشرين (في عهد)

جلالة الوجه القبلي والوجه البحري «مستيورع»، وقد نصب في معبد الإله «بتاح» في السنة (... البقاء الجميل لحياة) هذا الإله كانت ثماني سنوات وثلاثة أشهُر وخمسة أيام ليت «دارا» يكون له؛ «أي لأبيس» واهبًا الحياة والسعادة أبديًّا (؟).

لوحة «أحمس» (أمسيس)

هذه اللوحةُ مصنوعةٌ من الحجر الجيري، ويبلغ ارتفاعُها ٤١٥ ملليمترًا، وعرضها ٢٨٥ ملليمترًا، وسُمكها ٧ ملليمترات. عُثر عليها في حفائر «مريت» في سربيوم «منف»، وهي الآن بمتحف «اللوفر»، وتؤرخ هذه اللوحة بعهد الفُرس في «مصر»؛ يدل على ذلك ما جاء في نقوشها من ذكر السيادة الأجنبية، وإذا كانت الألقابُ التي جاءت على هذه اللوحة موحدة بألقاب القائد «أحمس» — وهذا أمرٌ مشكوكٌ فيه — فإنها ترجع إلى حُكم الملك «دارا» الأول. وبما أنه جاء فيها موضوع الأحفال التي تتبع موت عجل «أبيس» فإنه في استطاعتِنا أن نقترح السنة الرابعة أو السنة الرابعة والثلاثين، وهذان التاريخان معروفان لنا بأنه قد تُوُفي فيهما عِجْلان من عُجُول «أبيس» (راجع: mariette, serapeum de Memphis (1857) pl, I serie 16; pierret recueil d'inscriptions inedites du louvre I, p. 67–73 chassinat rec. trav. 23 (1901) p. 78; posener Ibid p. 41).

الوصفُ: الصف الأول: نجد في الجزء الأعلى المستدير من هذه اللوحة تحت علامة السماء قرص الشمس بجناحين منحنيين، وقد نُقشت هنا لفظة «بحدتي»؛ أي الإدفوي مرتين على اليمين وعلى الشمال، من الصل الذي يَتَدَلَّى مِن قُرص الشمس، وفي الوسط نُشاهَد مائدة قربان، كتب على جانبيها: ألف من الثيران، وألف من الطيور، وألف من الخُبز، وألف من الجعة.

ويُشاهَد على يسار هذا الجزء الأعلى العجل «أبيس»، وبين قرنيه صل، ويُلحظ أنَّ لونُ الرأسِ والرقبة، والصدر والظهر والردف، والجزء الأعلى من الذيل؛ أسود، وقد نُقش فوق العجل اسمه «أبيس العائش».

وعلى الجهة اليُمنى يشاهد القائد «أحمس» واقفًا مرتديًا قميصًا، وقد نقشت خلفه ثلاثة أسطر جاء فيها:

(١) السمير الوحيد ورئيس الجنود «أحمس».
(٢) ابن رئيس الجنود «بايون حور» الذي وضعته «تاكا بنأخبيت».

وفي الصف الثاني تسعة أسطُر، جاء فيها:

(١) المقرب من «أبيس-أوزير» السمير الوحيد، رئيس الأجناد «أحمس» بن «بايون حور» الذي وضعته «تاكا بنأخبيت» يقول: عندما اقتِيد هذا الإلهُ في سلام نحو الغرب الجميل، بعد أن كان قد عمل له كل الأحفال في قاعة التحنيط كان هو «أحمس» واقفًا أمامه (أي أمام العجل أبيس) مشتغلًا بالرماة، وموجهًا الجنود والعساكر المختارة؛ لأجل أنْ يجعل هذا الإله إلى مثواه في الجبانة.

وإني خادمٌ عاملٌ لرُوحك (= لحضرتك) وقد أَمضيت كل الليالي ساهرًا دون نوم، باحثًا عن كيفية عمل كُلِّ الأشياء المفيدة لك. ولقد وضعتُ احترامك في قُلُوب الناس، والأجانب من كل البلاد الأجنبية الذين كانوا في مصر، بما فعلتَه في قاعة تحنيطك.

ولقد أرسلت أجانبَ نحو الجنوب، وآخرين نحو الشمال؛ لأحضر كل حكام المُدُن والمديريات حاملين هداياهم نحو قاعة تحنيطك، فيا آباء الآلهة ويا كهنة معبد الإله «بتاح»؛ قولوا: يا «أبيس-أوزير»، ليتك تسمع صلوات من فعل لك أشياء مفيدة رئيس الجنود «أحمس» إنه نائح (؟) خلفك وإنه قد حضر بنفسه حاملًا الفضة والذهب والكتان الملكي والعطور، وكل ثمين ذي قيمة، وكل شيءٍ جميل.

ليتك تمنحُهُ مكافأة مناسبةِ لِما فعله لك فتمد في سنيه، وتجعلُ اسمه باقيًا أبديًّا، وليت هذه اللوحة تُثبت بقوة في الجبانة؛ حتى يذكر اسمه أبديًّا.

لوحةٌ صغيرةٌ أُخرى لـ «أحمس»

وقد ترك لنا «أحمس» هذا لوحة صغيرة عثر عليها في سربيوم «منف»، وهي مصنوعةٌ من الحَجَر الجيري، ويَبلغُ ارتفاعُها ١٤ ملليمترًا، وعرضها ١٥٥ ملليمترًا، وسُمْكها ٣ ملليمترات، وقد عثر عليها مريت في الحفائرِ التي قام بها في سربيوم «منف»، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «اللوفر» (No. 330) وجُزؤُها الأعلى قد ضاع، وكذلك يلحظ أنَّ الأسطُر الثلاثة الباقية قد ضاع جُزؤُها الأعلى كذلك.

التأريخ: هذه اللوحة خاصة بنفس «أحمس» صاحب المتن السابق، وعلى ذلك يجب أن تكون معاصرة لها، وعندما نقرن ألقاب «أحمس» في اللوحتين نجد أنه قد رفعت درجته

على اللوحة الثانية، وهذا يدل على أن اللوحة رقم (٧) أحدث — من الوجهة التاريخية — من اللوحة رقم (٦) وهاك ترجمة ما بقي منها:

«المقرب من «أبيس-أوزير»، الرئيس الأعظم للجنود «أحمس» بن «بايون حور»، الذي وضعته «تاكا بنأخبيت» ابنة «بفتوخنسو».»

وهكذا نجد أنه في المتن الأوَّل يُلقب «أحمس» هذا بلقب رئيس الجُنُود، وفي المتن الثاني يلقبه الرئيس الأعظم للجنود.

(٣) لوحات القنال

(راجع: posener, Ibid p. 48. No. 1.)

لقد عرفت حتى الآن أجزاء متون لوحات ثلاث من عهد الملك «دارا» الفارسي، كانت قد نُصبت على طُول القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر، وسنُشير اليها هنا بالأرقام ٨، ٩، ١٠. وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه كانت توجد لوحةٌ رابعةٌ، غير أنَّنَا لا نعرف عنها إلا مكانها، وقد عرفت بلوحة السربيوم. وكانت منصوبة في البُقعة الواقعةِ بين «بحيرة التمساح» و«البحيرات المرة»، وقد ظن خطأً مهندسو الحملة الفرنسية أنَّ الخرائبَ التي وُجدت فيها هذه اللوحةُ هي خرائبُ السربيوم التي يتحدث عنها «أنطوان» في دليلة (راجع: descr. De l'egypte antiquites 5, 149–150 et 6, 279) وقد ظل اسم السربيوم يُطلق على هذا المكان حتى الآن، هذا وقد عملت حفائرُ في هذا المكان عام ١٨٨٤م، قام بها «كليرمون جانو Clermont ganeau»، وفي عام ١٨٨٦م وصل إلى متحف «اللوفر» ٢٣ أو ٢٥ قطعةٌ صغيرةٌ من اللوحة، عليها نقوشٌ مصرية قديمة، غير أنها اختفتْ بعد ذلك بعامين، وهذه اللوحاتُ الأربعُ كانت مُقامة — بالضبط — على الشاطئ الأيمن للقناة، تجاه البحر الأحمر، على مرتفعات من الأرض، وقد أُقيمتْ بحيث كانت تراها السفنُ التي تسير في القناة، يدلُّ على ذلك كِبَرها وأهمية القواعد التي أُقيمت عليها، وكذلك اختيار الأماكن التي أُقيمت فيها (lepsius, monatsber. K. p. Ak. Der wiss zu berlin, 1866–(1867) 287).

وقد وُجد في كُل موقع من مواقع هذه اللوحات قطعٌ من النقوش الهيروغيليفة والمسمارية، ووجدت على اللوحة رقم ٩ نقوشٌ هيروغيليفةٌ ومسماريةٌ، على الوجهين المقابلين، ومن المحتمل ان هذا الترتيب كان قد اتُّبع في اللوحة رقم ١٠، غير أنه في اللوحة

التي وُجدت في «تل المسخوطة» — وهي اللوحة الثامنة — كان كلٌّ من المتنين الهيروغليفي والمسماري مكتوبًا على لوحة خاصة — كما يقول الأثريُّ جولنشيف (راجع: posener, Ibib p. 50 no. 5).

ويُلحظ أن المتن المسماري كان يحتوي على ثلاث رواياتٍ، واحدةٌ بالفارسية القديمة، والثانيةُ بالبابلية، والأخيرة بالعيلامية، وقد ذكر عليها الألقابُ الملكيةُ والمرسوم الخاص بعقيدة «أهورامازدا» هذا بالإضافة إلى مختصرٍ خاصٍّ بشق القناة وبسياحة أُسطول مصري إلى «فارس» ولم يبق محفوظًا لنا — بصورة تامة — على وجه التقريب إلا اللوحةُ رقم ٩ والظاهرُ أن اللوحتين ٨، ١٠ كانتا مُوَحَّدَتَيْن بالتاسعة (راجع: scheil, rev. d'assyr, 27 p. 93 & 95–97) ولكن الوثائق تعوزنا للتأكُّد من ذلك.

وعندما نَبدأُ بفحص النقوش الهيروغليفية التي على هذه اللوحات؛ تزداد مصاعبُنا في الوُصُول إلى ترجمة مستقيمة؛ وذلك لأنه لم تصل إلينا لوحةٌ واحدةٌ من هذه اللوحات سليمة، ويُلْحَظ أنَّ كُلَّ واحدةٍ منها تحتلُّ في مساحتها ثلاثة أضعاف ما يحتويه المتنُ المسماري، وقد قُسمت ثلاثة صفوف، الصفُّ الأعلى، ويظهر أنه موحَّد في اللوحتين الثامنة والتاسعة، ويحتمل أنه كذلك مُوَحَّدٌ في اللوحة العاشرة، والصف الثاني من اللوحة التاسعة يظهر أنه وُضع فوق الصف الثاني من اللوحة الثامنة.

ولكن نجد هنا أن التقريبَ بين هذا المتن وما جاء على اللوحة العاشرة تقوم في وجهه اعتراضاتٌ، والصف الثالث، وهو الذي يحتوي على ذِكر الحوادث التي احتفل بها؛ وصل الينا في حالةٍ سيئةٍ حتى إنه أصبح من المتعذِّرِ أن نصل إلى أي حدٍّ كان مُوَحَّدًا على اللوحات الثلاث، وكل ما يُمكن الإدلاءُ به في هذا الصدد هو أنَّ الصف الثالث في اللوحات الثلاث يحتوي على رواياتٍ هامة.

التأريخ: نقرأ على اللوحة العاشرة السطر ٢٢ الرقم ٢٤ غير أنه ليس مؤكدًا إذا كان هذا الرقم خاصًّا بتأريخ أم لا؟ وإذا اتخذنا أساسنا كيفية كتابة اسم «دارا» فإن لوحات القناة لا بد أنها كانت بعد السنة السابعة والعشرين من حُكم هذا العاهل، غير أنَّ قيمةَ هذا المعيار فيها شَكٌّ، ويجب أن ترجع الحوادث التي جاء ذكرها في هذه النقوش إلى أوائل حُكم الملك «دارا» ويؤكد لنا ذلك قائمة البلاد التي ذكرت — على ما يظهر في الصف الثاني.

لوحة «تل المسخوطة»

هذه اللوحةُ مستديرٌ أعلاها، وهي مصنوعةٌ من الجرانيت الوردي، ومحفوظةٌ بالمتحف المصري (J. E 48855) وقد وُجدت مهشمة إلى ثماني قطع، أمكن تركيبُ سبعٍ منها، أما الثامنة فلم يُعرف وضعُها بالضبط حتى الآن. وقد ضاع الجُزء الأيمنُ كُلُّهُ من اللوحة، وكان قد عُثر عليها في مكان على مسافة كيلومتر واحد جنوبي «تل المسخوطة» على ربوة تبعد ٣٥٠ مترًا من القناة القديمة، وقد وجدها «جولنشيف» عام ١٨٨٩م، ونقلت إلى المتحف المصري حوالي عام ١٩٠٧م (راجع: golenischeff, rec. trav. (1890) p. 99–109 pl. 8 rec. trav. (1887) p. 137 posener, Ibid p. 50 if) وتتألفُ نُقُوش اللوحة من صفين.

الصف الأول: يشاهد تحت علامة السماء التي تحتل هذا الجزء قرص الشمس المجنح بانحناء، وعند نهاية الجناح اليسرى كلمة بحدتي (أي «حور» المنسوب إلى «إدفو»)، وفي الوسط نجد إلهين للنيل يقومان بضم الأرضين بوساطة علامة الضم التي يرتكز عليها طغراء الملك «دارا»، ويَعلو هذه الطغراء علامةٌ تتألفُ من ريشتين، بينهما قرصُ الشمس.

وعلى جانبي علامة ضم الأرضين، وتحت ساقَي كلٍّ من إلهي النيل، خطاب النيلين للملك، والمتن الذي على اليسار محفوظٌ تمامًا، وهو: إني أعطيك كل الأراضي وكل قوم الفنخو وكل البلاد الأجنبية وكل الأقواس.

والمتن الذي على الجهة اليُسرى من هذا الجزء من اللوحة قد مُحي تمامًا، ولكن يُمكن إصلاحُ جُزء كبير منه من اللوحة رقم ٩ وهو: «إني أُعطيك كل البشر، وكل الناس، وكل سكان جزء البحر الإيجى.»

ويوجد خلف كل من إلهي النيلين سبعة أَسطُر، تحتوي على أقوالٍ أخرى لهذين الإلهين، وقد بقي الجُزء الأعظم من المتن الذي على اليسار، وهو:

«نطق (١) إني أعطيك كل الحياة، وكل السلطان، وكل الصحة. نطق (٢) إني أمنحك كل الانشراح الذي يخرج مني. نطق (٣) إني أمنحك كل القربان، مثل التي يتسلمها «رع». نطق (٤) إني أهديك كل المأكلات. نطق (٥) إني أمنحك كل شيء طيب يخرج مني (أي من النيل). نطق (٦) إني أمنحك أن تظهر ملكًا للوجه القبلي والوجه البحري (٧) على … «رع» أبديًّا.»

والقليل الذي بقي في الجهة اليُمنى من الأسطُر الثلاثة المحفوظة موحد بالأسطُر المقابلة لها من الجهة اليُسرى، ولكن إذا اعتمدنا على توحيد هذه اللوحة باللوحة التاسعة؛

فإن شواهد الأحوال تدل على أن ما نطق به النيلان يجب أن يكون مختلفًا في قراءته بعض الشيء.

الصف الثاني: هذا الجُزء من اللوحة يحتوي على قائمة مؤلفة من أربعة وعشرين من الأجزاء التي تؤلف الإمبراطورية الفارسية. هذا ويُشاهَد في الوسط سطرٌ مُحي نصفُهُ، يُمكن تكملتُهُ من اللوحة التاسعة، جاء فيه: «إني أمنحك كل الأراضي (وكل البلاد الأجنبية متعبدة أمامك).»

وقد صف حول هذا العمود من جانبيه الأسماء الجغرافية المنقوشة في أشكال بيضية محززة، يَعلوها شخصيةٌ بملابس رأس مختلفة عن الأشخاص الآخرين، غير أنه قد أصابها البلى، ويُلحظ كذلك أن كل شخصية ترفع ذراعيها تضرعًا. هاك ما بقي من هذه الأسماء:

(١) «فارس» (٢) «ميديا» (٣) «عيلام» (٤) «هور» (= آري) (٥) «برتي» (بارثي) (٦) «بختر» (بكتريان Bactriane) (٧) «سقدي» Sogdiane (٨) «هرخذي» Arochosie (٩) «سرنح» (= درنجيان Drangine) (١٠) «سدجوز» (= بلاد ستاجيدس Sattagydes) (١١) «خرزم» (خوارزم) (١٢) «سك بح» (سك نا = سيثى ذات المستنقعات «وسيثى السهول» (؟) Sythie) (١٣) «ببر» (= بابلون Babylonie) (٤) «أرمينا» (أرمينيا Armenie).

الصف الثالث: يحتوي على اثنين وعشرين سطرًا — على وجه التقريب — ومعظمُها ممحوٌّ، وهاك ما تَبَقَّى منها:

«(١) ... «دارا» ... الذي وضعته نيت سيدة سايس، وصورة «رع» والذي وضعه (يقصد «رع») على عرشه لأجل أن يتم ما كان قد بدأه (٢) كل الذي تُحيط به الشمسُ عندما كان في الفرج ولم يكن قد أتى بعد إلى العالم؛ وذلك لأنها (= نيت) كانت تعلم أنه كان ابنها، وأنها أمرت له (٣) ... هي له ... يدها بالقوس أمامها لأجل أن تهزم أعداءه (أي أعداء الملك) كل يوم كما فعلت لابنها «رع» وأنه (أي الملك) قوي (٤) ... وأعداؤه في كل الأراضي ملك الوجه القبلي والوجه البحري، سيد الأرضين «دارا» ليته يعيش أبديًّا (الملك) العظيم، ملك الملوك. (٥) ... ابن «هيستاسب» الأخمنيسي العظيم. إنه ابنها (أي ابن نيت) الشجاع ... الذي يمد الحدود (٦) ... الـ ... مع جزياتهم معدة بمثابة ضريبة له ... عاقل ... في «فارس» (في) المدينة (٧) ... المقر (؟) ... لأجله (؟) «سيروس». وقد ذهب جلالته إلى ... أكثر من كل شيء. وقد أمر جلالته أن يحضروا (٨) ... وقال لهم: هل ...

لا يرى (٩) ... رجل مسن (؟) كان بينهم قال ... قد عمل (أو أعطى) ... «سيروس» ... (١٠) ... رجل مسن (؟) من (أو إلى) (شب)، وقد عمل ... (١١) ... وأمر عظماء (شب (؟) ... (١٢) ... حدودك ... أعطى الأمر (١٣) ... (شب) (؟) ... هناك (١٤) ... هذا ... بعد أن (١٥) ... على حسب كل ما أمر به جلالته ... لا (١٧) ... (شب). وقد عمل جلالته على أن يذهب قارب لأجل أن يعرف الماء (١٨) ... من «مصر» ثمانية أترو ... (ولا يوجد) ماء في ... لا يرى (١٩) أمر القائد الذي عمل ... مر بذهاب ... من «مصر» ... اعمل ... (٢١) السفن ... (٢٢) السرور.»

لوحة «كبريت»، أو لوحة (شلوفة)

هذه اللوحة محفوظةٌ الآن بمتحف «الإسماعيلية» وهي مصنوعةٌ من الجرانيت الوردي وجُزؤها الأعلى مستديرٌ ولا بد أن تكون أبعادُها كأبعاد لوحة «تل المسخوطة»، وقد عثر عليها على مقربة من «البحيرة المرة» الصغيرة على ربوةٍ من الأرض على مسافة ثلاثة كيلومترات جنوبي «كبريت» الواقعة غربي الترعة التي تروي هذه المحطة بالماء العذب. وقد كانت موضوعةً على قاعدة مصنوعةٍ من الحجر الرملي وتحتها قطعٌ من الحجر الجيري تستند عليها. وهذه اللوحة كانت منقوشة من وجهيها، وقد خصص وجه منها للمتن الهيروغليفي، والآخر خُصص للترجمة باللغات المكتوبة بالخط المسماري، وهي الفارسية القديمة والعبيلامية ثم البابلية.

وقد كُشف عن اللوحة للمرة الأولى عام ١٨٦٦م، على يد المهندس «ديلسبس»، وقد عُثر على ما لا يقل عن خمس وثلاثين قطعة مِن أجزائها، منها سبع عشرة قطعة باللغة المصرية، والقِطَع الصغيرة التي نُقلت إلى «شلوفة» قد اختفت، وقد تَمَكَّنَ من ترتيب خمس عشرة قطعةً منها. وفي عام ١٩١١–١٩١٢ استأنف الأثريُّ (كليدا Cledat) الحفائر في هذا المكان وقد أسفرتْ أعمالُهُ عن وُجُود قطعتين بالهيروغليفية، كانتا معروفتَين من قبل (٨، ٩) كما عُثر على ثلاثين قطعة جديدة، وقطع أُخرى صغيرة جدًّا، وقد نقل الكل إلى «الإسماعيلية» مع القطع المنقوشة بالخط المسماري التي كان قد عثر عليها (راجع: Scheil, Rev, d'assyr. 27. p. 93–95)، ومن المحتمل أنه كان يوجد بالقرب من هذه اللوحة أثرٌ آخرُ من العصر الفارسي؛ فقد تحدث كل من «روزيير» و«ديفيلييه» (Roziere, Descr. De L'egypte 8. 27–47 et Devilliers Ibid 5, 150–153).

عن أثر للملك «دارا» من الجرانيت الوردي، رأيا منه قطعة على مسيرة ست ساعات ونصف الساعة شمالي «السويس»، وعلى الرغم من أنهما ليسا على اتفاقٍ تام على موقع هذا الأثر فإن التفاصيل القليلة التي ذكرها تُوحي بأن مكانه هو موقع لوحة «كبريت» ومع ذلك فمِن المحتمل وُجُودُ لوحتين في نفس المكان (راجع: Posener Ibid. p. 64-65) وتنقسم اللوحة صفين:

الصف الأعلى: يشبه — بوجه عام — الصف الأعلى في لوحة «تل المسخوطة»، وهاك ما بقي من المتن:

«(١) إني أهبك (كل الحياة والسلطان والصحة) (٢) إني أهبك (كل السرور) … (٣) إني أهبك … مثل … (٤) … «رع» (٥) … (٦) … يظهر مثل ملك الوجه القبلي والوجه البحري (٧) رب الأرضين مثل «رع» أبديًّا.»

الصف الثاني: وهاك ما تبقى عليه من نقوش:

(١) الإله الذي … (٢) … رجال …

«دارا» … (٤) ملك الملوك الـ … «ابن هيستاسب» (٥) الأخمنيسي العظيم … بالقوة والنصر على … (٧) المقر الذي أقامه … (وقد وصل جلالتُه) (؟) … كل الـ … (٨) لهذه المدينة … وحينئذٍ … من (أو إلى) السيد (٩) … نحو المكان الذي يوجد فيه جلالتُه (١٠) … في وسطه. والحدود هي (١١) ثمانية … لا ترى … (١٢) … معبد … (١٣) (؟) خرم[٦] … «مصر». وليس فيها ماء … (١٤) اجعل المفتشين يذهبون … لأجل حفر القناة (أو إعادة حفرها) من أول الـ … الماء (؟) … ومر بمجيء قاب … مع (؟) مفتشين حاملين كل الهدايا … وقد عمل على حسب (ما أمر به جلالتُه)[٧] … (١٦) … ٢٤ (أو ٣٢) قارب مملوء بـ … وقد وصلوا إلى «فارس»[٨] … (١٧) … وكل الـ … الأمراء والمفتشون (؟) …

---

[٦] قناة أو بحيرة.

[٧] أمر الملك بحفر القناة وبإرسال سفينة، وجاء فى الروايات المسمارية، وهو ما يُقابل السطر الرابع عشر، ما يأتي: أنا «دارا» قد أَعطيت الأمر بحفر قناة من أول النهر الذي في «مصر»، واسمه «ببيرو»، حتى البحيرة المرة التي تخرج من خليج «فارس» (ترجمة «شيل») وترجم نهاية سطر ١٥ ما يأتي: «وهذه القناة قد حُفرت كما أمرت به» (ترجمة «شيل»).

[٨] وجاء في المتن الفارسي: السفن من أول «مصر» على هذا المجرى قد سارتْ حتى «فارس»، وذلك على حسب ما رغبت فيه.

دون أن يكون فيها[٩] ... (١٨) ملك الأبدية ... أمر كل (؟) أمير ... (ليس فيها أي ماء) ... (١٩) كل الـ ... ذاهبًا نحوها منذ الأزمان الأزلية، ولم يجدوا أي ماء، ولكن (؟) حملوا ... وجلالتك قد عملت ... والسفن محملة بجزيتها (؟) (٢٠) عليها (؟) وكل ما ينطق به جلالتُك يوجد في الحال كالذي يخرج من فم «رع»[١٠] وعلى ذلك أمر جلالتُه ... مر بوضع هذا على لوحة منحوتة ... (٢١) ... عبادة الإله ... وقد عمل على حسب كل أوامر (جلالته) ... (٢٢) ... «دارا» الذي يعيش أبديًّا لمدة طويلة ... ولم يحدث قَطُّ مثل ذلك.

لوحة «السويس»

(راجع: Posener, Ibid. pI. XIV–XV.)

كانت هذه اللوحةُ مقامةً على مسافة ستة كيلومترات في شمالي (السويس)، والواقعُ أنه قد وُجدت قطعةٌ من لوحة مستديرة، أعلاها من الجرانيت الوردي خاصة بالجُزء الأيسر من هذا الأثر، وهذه القطعةُ تُمثل تقريبًا ثلث عرضها (حوالي ٧٣ سنتيمترًا من جُزئها الأعلى، و٦٢ سنتيمترًا من جُزئها الأسفل) من كل ارتفاعها ٣٫١٢ مترًا، وسمكها ٧ سنتيمترًا. وقد أُقيمت اللوحة بالقرب من معسكر «حرس الكبرى» على ربوة صغيرة من الأرض على مسافة ٤٥٠ مترًا غربي القناة القديمة. وقد عثر الأثري «كليدا» على الجُزء المصري القديم من هذه اللوحة، عام ١٩١١–١٩١٢، وعثر في الوقت نفسه على قطعة من المتن البابلي من هذاالنقش، ووجد «بوزنر» عام ١٩٣٣ قطعتين أخريين من هذه اللوحة (راجع: Posener Ibid p. 83) وهاك ترجمةُ ما بقي من هذه اللوحة، على حسب ترجمة «بوزنر»:

الصف الأول: لم يبق فيه من النقوش إلا بعض علامات ... كل ... الصحة.

الصف الثاني: وجد في هذا الجزء اسم الملك «أكزركزس».

[٩] يظهر أن الأمر الملكي جاء في الأسطُر من ١٦ إلى ١٧.

[١٠] عندما تم المشروع وجهت تحية الملك على ذلك فى الأسطر من ١٨–٢٠، وتدل شواهدُ الأحوال على أن العمل كان ينحصر في حفر قناة كانت مملوءة بالرمال، وتمد السياح بماء الشرب الذي كان لا يوجد دائمًا في هذه الجهة.

الصف الثالث: وجد فيه بقايا المتن التالي، ويشمل حوالي ثلاثة وعشرين سطرًا، وهاك ما بقي منها:

«(١) ... أمر باعطاء ... (٢) ... «دارا» ... (٣) ... الحدود (؟) ابن الإله ... (٤) ... والإله منحني ... (٥) ... عندما كان جلالتُه في «فارس» ... (٦) ... كل المفتشين ... (٧) ... لم نر (؟) ولم نسمع ... (٨) ... مكث مدة طويلة ... (٩) ... (؟) ... (١٠) ... من الرمل ذهبنا ... (١١) ... بالقرب من بئر ... هناك (أو في) ... (١٢) ... نحن ... أترو ... (١٣) ... أمر ... قائد (؟) ... (١٤) ... ماء ... (١٥) ... على حسب أمر ... (١٦) ... في «فارس» ... (١٨) ... أي ماء ... (١٩) ... سفن محملة بجزيتها ... (٢٠) ... (٢١) ... (٢٢) أربعة وعشرون (؟)، وهكذا نُشاهد أنَّ ما بَقِيَ من هذا المتن لا يُمكننا من فهم أي شيء تقريبًا، إلا عند قرنه بالمتون الأخرى.»

نقوش وادي حمامات

نقش «خنم-اب-رع»: إن أول ما يَلفت النظر في نقوش «وادي حمامات» هو وجود عدد كبير نسبيًّا، خاص بالعهد الفارسي. فمِن بين مائتين وخمسين نقشًا نجد سبعةَ عشر منها مؤرخةً بعهد ملوك الأسرة السابعة والعشرين؛ أي الأسرة الفارسية على حسب نظام «مانيتون» هذا بالإضافة إلى ثلاثة نقوش أُخرى ليست مؤرخةً يحتمل أنها من هذا العهد أيضًا.

ومن هذه النقوش عددٌ خاصٌّ بالملوك، والجزء الآخرُ خاص بالموظفين، ويبلغ عدد النقوش الملكية أحد عشر نقشًا (من ١١ إلى ٢٣)، يُضاف إلى ذلك مائدة قربان محفوظة بالمتحف المصري (رقم ١٣)، ولوحة بمتحف «برلين» (رقم ١٧) وكلها جاء فيها ذِكر رئيس عمال بعينه.

ويُلحظ أن النقش رقم ١١ يَرجع إلى ما قبل الفتح الفارسي بقليل، غير أنَّ درس حياة صاحبه وهو «خنم-اب-رع» ضروري؛ لارتباطه بالعصر الفارسي، الذي نحن بصدد بحثه الآن.

وهذا المتن يحتوي على سبعة عشر سطرًا.

وقد ذكر «خنم-اب-رع» هنا بعد والده «أحمس بن نيت»، وعلى ذلك يكون «خنم-اب-رع» هو الذي أمر نقش الأثر الذي لا بد وأنه بداية مجال حياته العملية

(راجع: Deveria, Mem. Inst. Egyptien (1982) 724 note 2 = bibl. Egypt 4, 291 No. 2).

وتاريخ هذا النقش هو السنة الرابعة والأربعون من حكم الملك «أحمس» الثاني (= أمسيس) ٥٢٦ق.م (راجع: L.D. III 275 b, brugsch, thesa urus p. 12–37: Couyat–Monqt. Inscr. Du Quadi Hammamat No. 137. p. 88 et pl. 33: J. E. A. 2 p. 145).

الترجمة: (١) السنة الرابعة والأربعون من عهد ملك الوجه القبلي والوجه البري رب الأرضين «خنم-اب-رع» ابن «رع» «أمسيس» (أحمس الثاني) ليته يعيش أبديًّا، المحبوب من «ليت» سيدة «سايس» (٢) «حور» الذي يحمي العدالة، وسيد التاجين بن «نيت» الآمر في الأرضين، «حور» الذهبى، مختار الآلهة (٣) ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خنم-اب-رع» بن «رع» «أحمس» بن «نيت» ليته يعيش أبديًّا محبوب «نيت» سيدة «سايس» (٤) مدير أعمال (٥) الوجه القبلي والوجه البحري «خنم-اب-رع» (١٢) الذي وضعته ربة البيت «ساتنفرتم» (١٤) ليتهم يبقون أمام (١٥) (الآلهة) «مين» و«حور» (١٦) و«أزيس» «قفط» (١٧) أبديًّا.

(١٢) نقش صخري خاص بمدير الأعمال «خنم-اب-رع»

يَحتوي هذا النقشُ على ثمانيةِ أسطُر موضوعةٌ في إطار مستطيلٍ.

التأريخ: اليوم العاشر من الشهر الثاني من فصل الصيف السنة السادسة والعشرون من عهد الملك «دارا» الأول ليته يعيش أبديًّا (٤٩٤ق.م).

(راجع: Couyat–Montet inscr. Du Ouadi Hammamat No. 18 p. 41 et Pl. 6; Posener Ibid p. 91).

الترجمة: (١) السنة السادسة والعشرون من فصل الصيف، اليوم العاشر من عهد (٢) «دارا» الأول ليته يعيش أبديًّا، مدير الأعمال لمصر العليا والسفلى (٣) مدير الأعمال في البلاد كلها (٤) «خنم-اب-رع» ابن مدير الأعمال للوجه القبلي والوجه البحري «أحمس بن نيت» (٥) مدير الأعمال لمصر الجنوبية ومصر الشمالية، ومدير الأعمال (٧) في كل الأرض قاطبة (٨) «خنم-اب-رع».

(١٣) مائدة قربان «خنم-اب-رع» المحفوظة بالمتحف المصري

(راجع: J. E. 48439; Posener Ibid p. 92.)

عثر على هذه المائدة في عام ١٩٢٣ «ريزنر» في قرية «القلعة»، وهي من حجر الشست الرمادي، وطولها ٤٩ سنتيمترًا، وعرضها ٣٢ سنتيمترًا، وسمكها ٥٥ ملليمترًا، وكتابة هذه المائدة موحدة بكتابة «خنم-اب-رع» السالفة الذكر (رقم ١٢) في «وادي حمامات» وهاك ترجمة ما بقي عليها:

(أ) النقوش التي حول داخل المائدة: (١)، مدير الأعمال في الأرض قاطبة «خنم-اب-رع» (٢)، مدير الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري (٣)، عمل القربات التي يُقدمها الملك، خبز وجعة وثيران وطيور، وكل شيء طيب لروح (أوزير فقط) (٥-٤) ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «دارا» معطى الحياة أبديًّا.

(ب) النقوش التي على حافة المائدة: (٦) الكاهن والد الإله في «هليوبوليس» والكاهن والد الإله في «منف» ومدير القصور «الملكية» والكاهن «سامرت» (٧) (الابن الذي يحبه، وهو لقب ينعت به «حور»، ومن ثم أصبح لقبًا للكاهن الجنازي ولشعائر «أوزير»، وكذلك أصبح لقب الكاهن الأكبر في «إهناسيا المدينة» للإله «حرشفي») والكاهن حبسي (يحتمل أن يكون لقبًا للكاهن الأعظم في «أتريب»؟) وكاتب الآلهة في «هليوبوليس»، وكاهن الآلهة «سخمت» التي تقطن في القصر العظيم، وكاهن «خنم» (؟) … «أخت رع»، وكاهن «خنسو-حور» صاحب «طره» وكاهن «أنوبيس» سيد «سبأ» (مكان بالقرب من «طره») آلهة «عيان» (بالقرب من «طره»)، وكاهن «بتاح» سيد الصدق وكاهن (؟). صاحب «ب» (١٠) والمشرف على أعمال الفن العظيمة، وقائد الجُند، وقائد العساكر، ومدير الأعمال للوجه القبلي والوجه البحري «خنم-اب-رع» ابن المشرف على أعمال الوجه القبلي والوجه البحري «أحمس سانيت» (أي أحمس بن نيت).

نقش صخري آخر لـ «خنم-اب-رع»

هذا النقش ينقسم عمودين متلاصقين، الأول يحتوي على تسعة عشر سطرًا، والثاني يحتوي على أربعة عشر سطرًا، ويحتوي كل النقش بالتفصيل على ألقاب «خنم-اب-رع» ونسبه، ويلفت النظر أن ألقابه هنا تكاد تكون موحدة مع ألقابه التي على مائدة القربان السالفة

الذكر رقم ١٣. وتدل الظواهر على أن قصد مدير الأعمال هذا من هذا النقش كان إظهارًا لصلة نسبه برجال العمارة العظيمة في الدولة الحديثة في العصر الكوشي، ومن المحتمل كذلك أنه كان يُريد أن يرجع بنسبه إلى «أمحوتب» مهندس العمارة الشهير الذي عاصر الملك «زوسر» أحد ملوك الأسرة الثالثة.

وإذا كان الغرض الذي يرمي إليه هنا أنه يرجع إلى تقاليد أُسرة قديمة من رجال العمارة فإننا نجد هذه التقاليد — على مر الزمن — قد حُوِّرَت وشوهت بإرادة المؤلف الذي كان لا يبغي من وراء ذلك — قبل كل شيء — إلا إشباع غروره وزهوه، وعلى هذا كان لا بد من تفسير سلسلة الأخطاء المزدوجة التي نشاهدها في هذا المتن، فنجد أن مدير الأعمال قد نسب لنفسه أجدادًا عظماء، منهم من لم يكن له بهم قط أية صلة؛ وذلك لأن هؤلاء الأجداد لم تكن هناك صلةٌ تربط أحدهم بالآخر، بالإضافة إلى أنهم كانوا يحملون ألقابًا لم يكونوا يحملونها قطُّ — على ما نعلم.

هذا ويُلحظ أن قائمة الأنساب هذه قد وُضعت بدقة تاريخية عظيمة، فعندما نحسب طول جيل على حسب الفترة التي تفصل جيلين معروفين من سلسلة النسب، مثل «خنم-اب-رع» – «رع حوتب» أو «باكنخنسو»؟ نجد أنها حوالي خمس وثلاثين سنة، وهذه قاعدة حساب تقدم لنا نتيجة مرضية لفترة أخرى مثل «خنم-اب-رع» و«حرمساف الثاني».

وإنه لَمِن الصعب أن نُحدد مِن أي جد حلت محل سلسلةِ النسب الحقيقية سلسلةُ النسبِ المخترعة، والواقعُ أنه من بين خمسة وعشرين علمًا خلافًا لاسمَي «خنم-اب-رع» ووالده لم يمكن أنْ نُحقق منها إلا أربعة أسماء بوجه التأكيد، والأسماءُ المحققة هي «حرمساف الثاني» و«باكنخنسو» و«رع حوتب» و«أمحوتب»، ولكن يظهر مؤكدًا أن هناك أسماءً أخرى كذلك تقابل أسماء أشخاص قد عاشُوا فعلًا مثل «أمنحر بمشع» الذي يحمل ألقابا واضحة بوجه خاص (راجع: Lefebvre Hist. des Grandes Pretres d’Amon p. 137–175).

والظاهر أن مؤلف هذه القائمة كان يَعرف التواريخ المتوالية لحياة أعضاء قائمة النسب أكثر من معرفته لوظائفهم؛ وذلك لأنه منحهم ألقابًا مِن ألقاب أهل عصره، فنجد أن كل أجداد «خنم-اب-رع» كانوا يلقبون — بلا استثناء — مديري أعمال، ونجد في ست حالات أنَّ هذا اللقب قد رفع إلى مدير أعمال للوجهين القبلي والبحري.

هذا ونجدُ أنَّ سبعةً منهم كانوا يلقبون حكامًا، وتسعة عشر يحملون لقب وزير. وكان «رع-حتب» فعلًا يحمل لقب وزير، أما الثمانية عشر الآخرون فكانوا يلقبون

— على ما يظهر — وزراء، بدون أي حق، والسبب في ذلك هو التعظيمُ مِن شأن نسب «خنم-اب-رع». ولا نِزاع في أن مثل هذه الوثيقة يُمكن تأريخها بعام ٢٦ من عهد الملك «دارا» (٤٩٦ق.م)، ويجب أن نُشير هنا إلى أن النقش الذي نفحصه هنا يقع بجوار النقش رقم ١٥ الذي سنتحدث عنه بعد ذلك (راجع: posener, Ibid. p. 99).

ترجمة المتن: (١) الكاهن والد الإله في «هليوبوليس» والكاهن والد الإله في «منف» ومدير القصور، والكاهن «سامرف» (الذي يحبه والده) وكاتب الإله في «هليوبوليس» (٢) وكاهن الإلهة «سخمت» القاطنة في القصر العظيم، وكاهن «خنم رع» (؟) (٣) صاحب «أخت رع» وكاهن «خنسو-حور» صاحب «طره» وكاهن (٤) «بتاح» صاحب «طره» وكاهن «أنوبيس»، سيد «سيا»، وكاهن آلهة «عيان» (٥) وكاهن «بتاح» رب العدالة، وكاهن (؟) … في (ب) والمشرف على الأعمال قاطبة (٧) والمشرف على الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري «خنم-اب-رع» ابن المشرف على الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري (٨) «أحمس سانيت» ابن المشرف على الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري «عنخ» (٩) «بسمتيك» ابن المشرف على الأعمال «واح-أب رع-تني» ابن (١٠) المشرف على الأعمال «نس-شو-تفنبت» ابن المشرف على الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري (١١) حاكم المدينة والوزير «ثانهبو» ابن المشرف (١٢) على الأعمال الوزير «نس-شو-تفنت» (؟) ابن المشرف على الأعمال والوزير (١٣) «ثاهبو» ابن المشرف على الأعمال والوزير «نس-شو-تفنت» (؟) (١٤) ابن المشرف على الأعمال «ثاهبو» (١٥) ابن المشرف على الأعمال والوزير «نس-شو تفنت» (؟) (١٦) ابن المشرف على الأعمال والوزير «نس-شو تفنت» (؟) (١٦) ابن المشرف على الأعمال والوزير «حرمساف»، ابن المشرف على الأعمال (١٧) الوزير «مرمر» (؟) ابن المشرف على الأعمال والوزير «حرمساف» ابن (١٨) الكاهن الثاني والكاهن الثالث والكاهن الرابع، وكاهن «آمون-رع» ملك الآلهة (١٩) والمشرف على الأعمال وعُمدة المدينة والوزير «آمن-حر-بامشع» = «آمون» على رأس الجيش (٢٠) ابن المشرف على الأعمال وعمدة المدينة والوزير «بيبى» ابن (٢١) المشرف على الأعمال والوزير … (؟) ابن المشرف على الأعمال (٢٢) والوزير «ماي» ابن مدير الأعمال والعمدة والوزير «نفرمنو» ابن المشرف (٢٤) على الأعمال والعمدة والوزير «وزاخنسو» (٢٥) ابن المشرف على الأعمال والوزير «باكنخنسو» (٢٦) ابن كاهن «آمون-رع ملك الآلهة» (٢٧) الرئيس الأعلى لأسرار بيت «رع»، والمشرف على الأعمال (٢٨) في الوجهين القبلي والبحري وعمدة المدينة والوزير «رع حتب» (فى عهد رمسيس الثاني) الذي كانت شهرتُهُ أكثر من

(٢٩) وظيفة (؟) المشرف على الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري، وعمدة المدينة والوزير والكاهن المرتل الأول الملك لوجه القبلي والوجه البحري (٣٠) «زوسر» (المسمى أمحتب) ابن المشرف على الأعمال في «مصر» العُليا (٣١) و(مصر السفلى) «كانفر» الذي أنجبتْه السيدة (٣٢) «ساتنفرتم» ليته يعيش (٣٣) سرمديًّا.

(١٥) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

هذا النقشُ يحتوي على سبعة أسطُر وقد أُرِّخ بالشهر الرابع، من فصل الصف من السنة السادسة والعشرين، من عهد الملك «دارا» الأول (٤٩٦ق.م) (راجع: L. D III 283 Brugsch; Thesaurus 1273 Couyat-Montet Ibid No. 91, p. 67 et pl. 22).

ترجمة المتن: (١) السنة السادسة والعشرون، الشهر الرابع من فصل الصيف، من عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تاروش» «دارا» معطى الحياة أبديًّا (٢) المشرف على الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري والمشرف على الأعمال في الأرض قاطبة (٣) والمشرف على الأعمال العظيمة (؟) والمشرف على الأعمال في كل مناجم البلاد الجبلية (٤) «خنم-اب-رع» ابن المشرف على الأعمال في «مصر» العليا و«مصر» السفلى، والمشرف على الأعمال في الأرض قاطبة «أحمس» الذي وضعته «ساتنفرتم»، ابنة الكاهن الأول، والد الإله في «منف» «بب أعح» (؟) ليته يبقى، وليته يمكث، ليته يمكث سرمديًّا.

(١٦) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

يحتوي هذا النقش على ستة أسطر.

التأريخ: الشهر الثالث من فصل الزرع من السنة السابعة والعشرين من عهد «دارا» الأول (٤٩٥ق.م) (راجع: Burton, Excerpta hieroglyphica Pl. 4 No. 1; L. D. III 283 d.; Brugsch Thesaurus p. 1237-1238; Couyat-Montet Ibid No. 193 p. 100 & P1. 30; Posener Ibid p. 107).

الترجمة: (١) السنة السابعة والعشرون الشهر الثالث من فصل «أخت» مِن عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا»، ليته يعيش أبديًّا (٢) المشرف على الأعمال في المناجم (؟) في جبال كل البلاد الجبلية، وقائد الأجناد، وقائد الرماة، (٣) والمشرف على الأعمال العَظيمة الفنية، والمشرف على كل الأعمال في الأرض قاطبة (٤) والمشرف

على كل الأعمال الخاصة بكل آثار «مصر» العُليا و«مصر» السفلى «خنم-اب-رع» ابن (٥) المشرف على الأعمال في مصر العُليا ومصر السفلى «أحمس سانيت» الذي وضعتْه السيدة (٦) «ساتنفرتم» ليتها تمكث في حفرة «مين» و«حور» و«أزيس» و«موت» و«خنسو» سرمديًّا.

(١٧) لوحة متحف «برلين» «خنم-اب-رع» (No. 2120)

تحتوي هذه اللوحة على سبعة أسطُر، وقد اشتُريت من «الأقصر»، وهي مصنوعةٌ من حجر الشست الأسود وارتفاعها واحد وخمسون سنتيمترًا وعرضها ثمانية وثلاثون سنتيمترًا.

التأريخ: الشهر الثالث من فصل «أخت» (الفيضان) من السنة السابعة والعشرين من عهد الملك «دارا» (٤٩٥ق.م) (راجع: A. Z. 49 (1911) p. 69–71; Posener Ibid p. 108).

الترجمة: (١) السنة السابعة والعشرون، الشهر الثالث من فصل الفيضان، من عهد ملك الوجه القبلي الوجه البحري «دارا» (٢) ليته يعيش سرمديًّا محبوب الآلهة «مين» و«حور» و«أزيس» صاحبة «قفط» (٣) المشرف على الأعمال العظيمة الفنية، والمشرف على المناجم الجبلية لكل البلاد الأجنبية، وقائد الأجناد وقائد الرُّماة (٤) والمشرف على الأعمال في الأرض قاطبة (٥) ومدير الأعمال في الوجه القبلي والوجه البحري «خنم-اب-رع» (٦) ابن المشرف على الأعمال «أحمس» (٧) ليته يبقى في حضرة «مين» و«حور» و«أزيس» صاحبة «قفط».

(١٨) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

يحتوي هذا النقشُ على أحد عشر سطرًا.

التأريخ: اليوم الثالث عشر، من الشهر الرابع، من فصل الشتاء من السنة السابعة والعشرين من عهد «دارا» الأول (٤٩٥ق.م)، (راجع: L. D. III p. 283 g; Lieblein Dic. Des Noms. Hierog. No. 1215; Couyat Montet Ibid. No. 14 p. 39, & P1 3; Posener Ibid p. 109).

الترجمة: السنة السابعة والعشرون، الشهر الرابع من فصل الشتاء اليوم، الثالث عشر من عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري، سيد الأرضين ليته يعيش أبديًّا (٣) المشرف

على الأعمال العظيمة (؟) والمشرف على الأعمال في مناجم الجبل لكل البلاد الجبلية (أو الأجنبية)، وقائد الأجناد وقائد الرماة، والمشرف على الأعمال في الأرض كلها ابن المشرف على الأعمال في كل «مصر» العليا و«مصر» السفلى «أحمس ساليت» (٧) الذي وضعتْه السيدة «ساتنفرتم» (٨) ابنة الكاهن والد الإله في «منف» «بسمتيك» ليته يمكث، ليته يمكث (٩) ليته يبقى في حضرة «مين» صاحب «قفط» (١٠) «حور ساأزيس» العظيمة أم الآلهة (١١) و«حربوخراد» العظيم بكر أولاد «آمون» أبديًّا.

(١٩) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

يحتوي هذا النقشُ على ثمانية أسطُر. وقد أرخ باليوم الحادى عشر من الشهر الأول من فصل الصيف، من السنة الثامنة والعشرين، من عهد الملك «دارا» الأول (٤٩٤ق.م) (راجع: Posener Ibid p. 111).

الترجمة: (١) السنة الثامنة والعشرون، الشهر الأول من فصل الصيف، اليوم الحادى عشر، من عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري، سيد الأرضين «دارا» الأول عاش أبديًّا (٢) المشرف على كل أعمال الملك (٣) والمشرف على كل الأعمال في الأرض قاطبة، والمشرف (٤) على الأعمال الفنية، والمشرف على الأعمال في المناجم (٥) الجبلية لكل البلاد الجبلية (أو الأجنبية)، وقائد الأجناد، وقائد الرماة (٦)، والمشرف على الأعمال في «مصر» العُليا و«مصر» السفلى «خنم-اب-رع» (٧) ابن المشرف على الأعمال في «مصر» العُليا و«مصر» السُّفلى «أحمس ساني» (٨) الذي وضعتْه السيدة «ساتنفرتم» ليته يبقى في حضرة «حور» و«أزيس» صاحبة «قفط» سرمديًّا.

(٢٠) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

لم يبق من هذا النقش إلا الجزءُ الأعلى من ثلاثة أسطُر.

التأريخ: إن اللقب الوحيد الذي نجده للمشرف على الأعمال «خنم-اب-رع»؛ نجده في النقش رقم ١٩ وحده، ويظهر من جهة أُخرى من الترقيم الذي وضعه كل من «كويا» و«موتنيه» (١٩ = رقم ١٣٤، ٢٠ = رقم ١٣٥) وأن هذين النقشين متجاوران على الصخر. وعلى ذلك يُمكن أن نحكم أنهما مُتعاصران؛ أي حوالى السنة الثامنة والعشرين من عهد الملك «دارا» الأول (٤٩٤ق.م).

(راجع: Couyat-Montet No. 135 p. 87; Posener Ibid I 13.)

ترجمة ما بقي من هذا المتن (١) المشرف على كل أعمال (الملك) «خنم-اب-رع».

(٢١) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

هذا النقش يحتوي على سطرين.

التأريخ: اليوم الخامس عشر من الشهر الرابع، من فصل الشتاء، من السنة الثلاثين، من حكم الملك «دارا» الأول (٤٩٢ق.م).

(راجع: Posener Ibid. 114.)

الترجمة: (١) السنة الثلاثون، الشهر الرابع من فصل الشتاء، اليوم الخامس عشر من حكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيد الأرضين «دارا» عاش أبديًّا، المحبوب من كل إله (٢) مدير الأعمال في الأرض قاطبة، والمشرف على الأعمال في «مصر» العليا و«مصر» السفلى «خنم-اب-رع» ابن المشرف على الأعمال في «مصر» العُليا و«مصر» السفلى «أحمس سانيت».

(٢٢) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

يحتوي هذا النقش على ثلاثة أسطر.

التأريخ: الشهر الرابع من فصل الفيضان، من السنة الثلاثين، من عهد الملك «دارا» الأول (٤٩٢ق.م) (راجع: L. D. III 283 f. Brugsch Thesaurus, p. 1283; Couyat-Montet Ibid. No. 186 p. 96 & P1. 33; Posener Ibid. p. 114).

الترجمة: (١) السنة الثلاثون الشهر الرابع من فصل الشتاء، من عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «أنتروش» (دارا الأول) عاش أبديًّا المحبوب من كل إله (٢) مدير الأعمال في الأرض قاطبة، والمشرف على الأعمال في «مصر» العُليا و«مصر» السفلى «خنم-اب-رع» ابن مدير الأعمال (٣) في الأرض قاطبة، والمشرف على الأعمال في «مصر» العليا و«مصر» السفلى «أحمس سانيت» الذي وضعته «ساتنفرتم».

(٢٣) نقش صخري لـ «خنم-اب-رع»

هذا النقش يوجد مدونًا على الصخر بالقرب من صورة الإله «مين» بعضو التذكير منتشرا، ويتألف من ثلاثة أسطُر ولم يُمكن قراءة التاريخ، الذي في هذا النقش بصورة مؤكدة.
(راجع: L. D. II 1275 d.; Couyat-Montet Ibid No. 9 p. 67; Posener; Ibid p. 115.)

الترجمة: (١) ليت الإله «مين» صاحب «قفط» (٢) الإله العظيم يعطى الحياة (٣) إلى «خنم-اب-رع» المشرف على الأعمال.

نُقُوش الموظفين من الفرس وغيرهم في «وادي حمامات»

كشف حتى الآن اثنا عشر متنًا على صخور «وادي حمامات»، خاصة بالموظفين في العهد الفارسي، منها عشرة متون لموظفين من أصل فارسي يُضاف إلى ذلك، النقش الصخري رقم ٣٢، وهو الذي لم يذكر فيه اسم صاحبه، ويظهر أنه كذلك من أصل فارسي، وهذه النقوش تقع في عهدي الملكين «دارا» الأول و«أكزركزس».

ويُلحظ أن المتن رقم ٣٥ الذي سنتكلم عنه فيما بعد، وهو الذي نقش على الصخر الواقع على الطريق بين «قفط» و«سفاجة» لا يؤلف جزءًا من هذه المجموعة، ولكنه يُعَدُّ شاهدًا عدلًا على أنه كان يقعُ على طريقٍ مختلف عن الطرق الأخرى التي تخترق الصحراء الشرقية.

(٢٤) نقش صخري لموظف فارسي يدعى «أتياواهي»

يحتوي هذا المتن على أربعة أسطُر.

التأريخ: السنة السادسة والثلاثون من عهد الملك «دارا» الأول (٤٨٦ق.م) (راجع: burton, Idid. Pl. 14 no. 3; l.d. III 283 b; couyat mentet Idid no. 146 p. 90 et pl; 34; posener Ibid p. 117).

الترجمة: (١) السنة السادسة والثلاثون من عهد الإله الطيب رب الأرضين «دارا» معطى الحياة مثل «رع» محبوب «مين» العظيم الذي يقطن في «قفط» (٢) عمل بوساطة «ساريس» الفارس (أي الخصي) المسمى «أتياواهي» ابن «أرتاميس» الذي وضعته السيدة «قنزو».

(٢٥) نقش صخري لنفس الموظف السابق

يحتوي هذا النقش على خمسة أسطُر.

التأريخ: اليوم التاسع عشر، من الشهر الأول، من فصل الفيضان السنة الثانية من حكم الملك «خشيالش» «اكزوكزس xerxes» ٤٨٤ق.م.

(راجع: L. D III p. 238 n.; golenischeff resuitats etc. pl. 18 No. 3; couyat-Montet Ibid. no. 50 p. 52, pl 6; posener Ibid. p. 120).

الترجمة: (١) السنة الثانية، الشهر الأول من فصل الفيضان، اليوم التاسع عشر (٢) من عهد الإله الطيب رب التيجان، السيد الذي يقوم بأداء الشعائر (٣) «أكزركزس» (= خشيالش) (٤) عمله الساريس (= الخصي) الفارسي المسمى «أتياواهي».

(٢٦) نقش صخر لنفس «أتياواهي» السالف الذكر

يحتوي هذا النقش على خمسة أسطر.

التاريخ السنة السادسة من حكم الملك «أكزركزس» (٤٨٠ق.م) (راجع: L. D III, 283 l. golenischeff resuitats etc. pl. 18 no. 2; couyat-montet idid no 286 p. 118; posener idid, p. 120 f).

الترجمة: (١) السنة السادسة من عهد رب التيجان (٢) «أكزركزس» (٣) عمله «ساريس» (الخصي) الفارسي (٤) حاكم «قفط» (٥) «أتياواهي».

(٢٧) نقش صخري لنفس الموظف السابق

هذا النقش يحتوي على خمسة أسطر معها صورة الإله «مين» جالسًا على مقعد خفيف الحمل.

التأريخ: السنة العاشرة من عهد الملك «أكزركزس» (٤٧٦ق.م).

(راجع: couyat-montet ibid No. 106, p. 74 et pl. 27; posener ibid, p. 121).

الترجمة: (١) الإله «مين» العظيم الذي على مقعده (٢) السنة العاشرة من عهد رب الأرضين «خشيالش» (٣) عمله الساريس (الخصي) أتياواهي (٥) و«أرباوارتا».

والظاهر — كما سنرى بعدُ — أن هذين الخصيين أخوان (انظر النقوش رقم ٣١، ٣٣، ٣٤).

(٢٨) نقش صخري لـ «أتياواهي» السالف الذكر

يحتوي هذا النقش على ستة أسطر.

التأريخ: السنة الثانية عشرة من حكم الملك «أكزركزس» (٤٧٦ق.م).

(راجع: Burton idid pl. 8 No. l; golenischeff idid pl. 18 No. 4; posener ibid p. 122, couyat. Montat Ibid No. 164, p. 93–94 pl. 35.)

الترجمة: (١) السنة السادسة من حكم رب الأرضين «قمبيز» (٢) السنة السادسة والثلاثون من حكم رب الأرضين «دارا»[١١] (٣) السنة الثانية عشرة من حكم رب الأرضين «أكزركزس» «خشيالش» (٤) عمله الساريس (الخصي) الفارسي «أتياواهي» ليته يبقى في حضرة «مين» الذي على مقعهده.

(٢٩) نقش صخري لنفس الموظف

يحتوي هذا النقش على ستة أسطر.

التأريخ: السنة الثانية عشرة من عهد «أكزركزس» ٤٧٦ق.م.

(راجع: burton, Ibid pl, 14 No. 2, Wilkinson, j. E. A, II, p. 145; L. D III 2830 Couyat–montet idid NO. 148 p. 91, 34; posener Idid. p. 123.)

[١١] من المحتمل أن «أتياواهي» صاحب هذا النقش يذكرنا هنا بزياراته السابقة التي جاء ذِكر الثانية منها فى المتن ٢٤، وقد ذكر كذلك فى المتن رقم ٣٠ كما سيأتي بعد، وإذا كان هذا الموظف عمره أثناء الحملة التي قام بها فى هذه الجهة «قمبيز» هو حوالي عشرين عامًا فإن عمره يكون فى السنة الثانية عشرة من عهد «أكزركزس» حوالي سبعين عامًا تقريبًا وقد ظن «بركش» وكذلك الأثري «فيدمان» أن هذا المتن الذي نحن بصدده يقدم لنا مدة حياة «أتياواهي»؛ أي ست سنوات فى عهد «قمبيز» وطوال مدة حكم «دارا» الأول وهو ست وثلاثون سنة ثم اثنتي عشرة سنة من حكم «أكزركزس»، وقد فسرت بنفس الطريقة متونٌ أُخرى من هذه المجموعة، ولكن المقصود من هذه التواريخ هنا — كما يظهر كذلك من المتن رقم ٢٥ — هو التواريخُ لا مجموع السنين.

الترجمة: (١) السنة الثانية عشرة (٢) من عهد الإله الطيب سيد الأرضين (٣) «أكزركزس» (٤) عمله الساريس (الخصي) الفارسي «أتياواهي» بن «أرتاميس».

(٣٠) نقش صخري لنفس الموظف

يحتوي هذا النقش على أربعة أسطُر.

التأريخ: السنة الثالثة عشرة من حكم «أكزركزس».

(راجع: couyat-montet Ibid No. 13 p. 39 et pl. 3; brugsch gesch. Aeg. p. 758; posener Ibid. p. 124).

الترجمة: (١) السنة السادسة والثلاثون من عهد الإله الطيب سيد الأرضين ابن «رع» رب التيجان «دارا» ليته يعيش مثل «رع» أبديًّا.

(٢) السنة الثالثة عشرة من عهد ابنه، رب الأرضين، بن «رع» رب التيجان «أكزركزس» ليته يعيش مثل «رع» أبديًّا.

(٣) عمله الساريس (الخصي) الفارسي حاكم «قفط» (المسمى) «أتياواهي».

(٣١) نقش صخري

يُحيط متن هذا النقش صورة الإله «مين» واقفًا أمام مائدة قُربان، ويشمل ستة أسطُر.

التأريخ: السنة الخامسة من عهد الملك «أرتكزركزس» الأول (٤٦١ق.م).

(راجع: burton, Ibid pl. 8 No. 3; L. D III 283 couyat-montet ibid No. 144 p. 89 and pl. 34 wilkinson j. E. A. 2 p. 145: posener ibid p. 125).

الترجمة: (١) مين صاحب قفط رب المقصورة «سحنت» (مقصورة خاصة بهذا الإله).

(٢) السنة الخامسة من عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري.

(٣) سيد الأرضين «أرتكزركزس» (= أرتخشش) عاش أبديًّا، المحبوب من الآلهة.

(٤) عمله (؟) الفارسي «أريوارتا».

(٥) ابن «أرتاميس» الذي وضعتْه السيدة «قنزو» ليتها تبقى في حضرة «مين» و«أزيس» صاحبة «قفط».

(٣٢) نقش صخري

يوجد هذا النقش بالقرب من النقش السالف في «وادي حمامات»، ويشمل أربعة أسطُر وهو على ما يظهر من وضع صاحب النقش السالف «أريوارتا»، وقد حذف توقيعُهُ هنا لمجاورة نقشنا هذا من النقش السالف رقم ٣١ على ما يبدو.

التأريخ: السنة السادسة عشرة من عهد الملك «أرتكزركزس» (٤٥٠ق.م).

(راجع: burton, ibid pl. 8 no. 3; wlikinson. j. E. A. 2P 145 L. D III p. 283; couyat–montet ibid no. 145 p. 89–90 & pl. 34 posener ibib p. 126).

الترجمة: (١) السنة السادسة عشرة من عهد الإله الطيب سيد الأرضين (٢) «أرتكزركزس» (٣) الملك العظيم (٤) محبوب «مين» (؟) (لم يذكر هنا الإله «مين» ولكن يفهم ذلك بالقريحة) معطى الحياة أبديًّا مثل «رع».

(٣٣) نقش صخري

يشبه هذا المتن في ترتيبه المتن رقم ٣١ ويشمل ثمانية أسطُر.

التأريخ: السنة السادسة عشرة والسنة السابعة عشرة من حكم الملك أرتكزركزس الأول (٤٥٠–٤٤٩ق.م)، (راجع: couyat–montet Ibid no. 72 p. 61–62 and pl. 17; posener Ibid p. 127).

الترجمة: (١) «حور» العظيم بن «أزيس».

(٢) السنة السادسة عشرة من عهد الإله الطيب رب الأرضين، السنة السابعة عشرة.

(٣) «أرتكزركزس» معطى الحياة أبديًّا مثل «رع».

(٤) «مين» و«حور» «أزيس» صاحبة «قفط».

(٥) آمون-رع ملك الآلهة ورب السماء ليتهم يعطون الحياة ... (؟) من «الفارسي» «أريوارتا» (٧) المسمى «زدحر» بن «أرتاميس» الذي وضعته السيدة «قنزو» ليته يبقى في حضرة «حور» و«أزيس» صاحبة «قفط» و«آمون-رع» ملك الآلهة، وسيد السماء (أي «حور»).

(٣٤) نقش صخري

يُشاهَد في هذا النقش «أرتكزركزس» يقدم قربانًا يتألف من إناءين للإله «مين»، والمتن الذي يصحبه مؤلفٌ من خمسة أسطُر.

التأريخ: يرجع تاريخ هذا النقش إلى عهد الملك «أرتكزركزس»، وهو مثل النقوش الأخرى التي تنسب للموظف «أريوارتا» (انظر النقش رقم ٢٧ الذي يؤرخ بالسنة العاشرة من عهد «أكزركزس»، وقد ذكر اسمه قبل اسم اخيه).

(راجع: couyat-montet Ibid No. 95 p. 69-70 pl. 21 posener Ibid p. 129.)

الترجمة: (١) الإله «مين» صاحب «قفط» (٢) رب الحياة (٣) الرئيس الفارسي «أريوارتا» بن «أرتاميس» ليته يبقى في حضرة «مين» سيد الحياة.

(٣٥) كتابة (جرافيتى) على صخرة

يوجد بالقرب من قرية، على مسافة ثمانية كيلومترات من نهاية السكة الحديدية التابعة لشركة الفوسفات التي توجد بالقرب من «بئر واصف».

(راجع bisson de la roque bull. Soc. Sultanieh de geographie 11 (1922), 133.)

وهذه الكتابة تحتوي على اسم الملك «أتنروش».

هذا ويطيب أن نذكر هنا أن «ريناخ» (راجع: rapport sur les fouitles de koptos, 44) قد ذكر أنه رأى طغراء الملك «أكزركزس» عند «بئر واصف» غير أنه لم ينشرها.

(٣٦) قطعة من نقش

وهناك أيضًا قطعةٌ من نقش دونت بأربع لغات، وهاك ما أمكن قراءته من هذا النقش — على وجه التقريب: الرئيس (؟) الأعلى للمعسكر العظيم الخاص بالملك «أكزركزس».

(٣٧) نقوش على أوان

جمع الأثري «بوزنر» في كتابه عن الفتح الفارسي لـ «مصر» حوالي ثلاث وستين آنية، وقطع من أوانٍ مؤرخة بهذا العهد. وقد نقش عليها كتابات هيروغليفية، وهذه الأواني معظمها من نوع خاص من الحجر يسمى «أراجونيت aragonite» إلا الأواني التي تحمل الأرقام ٧٤، ٧٥، ٧٩ فإنها ليست من هذا الحجر، ومعظم هذه الأواني عثر عليها في الحفائر التي عملت في بلدة «سوس» بالبلاد الفارسية، وقد قام بهذه الحفائر رجالٌ فرنسيون. وقد وجد على ست قطع من هذه الآثار اسم «الملك» أكزركزس (٣٧–٤٢) وعلى اثنتين وثلاثين منها اسم الملك «أكزركزس» وعلى خمس منها كذلك اسم الملك «أرتكزركزس» (٧٨–٨٢) أما الباقي فإنه لم يمكن نسبتُهُ إلى الملوك الذين أمروا بصنعه؛ لصعوبة قراءة ما على الأواني من نقوش، ويلاحظ أن الأواني التي باسم كل من الملكين «أكزركزس» و«أرتكزركزس» قد نُقش ما عليها من كتابة بالفارسية القديمة والعيلامية والبابلية، وذلك على غرار لوحات القناة (٨–١٠) وكذلك المتن رقم ٣٦.

ولم يحفظ على الكثير من قطع «اللوفر» إلا المتن الذي دُوِّنَ بالخط المسماري؛ ولهذا السبب لم ندونها هنا. ويوجَد بالمتحف البريطاني من هذه أربعٌ، أكبرها الذي يحمل رقم (٩١٤٥٩) وقد حُفظ عليه الإطار الذي فيه النقش الهيروغليفي وقد أحضر لوفتوس loftus القطع التي في لندن من مدينة «سوس» (راجع: loftus travels & researches in chaldee and Susiana p. p. 49. 413).

والواقع أن كل ما ذكرنا هنا من آثار لم يأتِ على نهاية كل ما في المتاحف والمجاميع الخاصة؛ فمثلا يوجد في متحف «طهران» عدة قطع من الأواني الأخمينيسية مستخرجةٌ من «سوس» (راجع: posener Ibid. p. 137 no. 7) هذا وتُطالعنا أعمالُ الحفر التي تُعمل في «سوس» كل يوم — بجديد — ولا بد من انتظار نتائج هذه الحفائر فقد تأتي بما لم يكن في الحُسبان.

الأواني التي من عهد الملك «دارا» الأول

عملت كل الأواني والقطع التي عليها اسم الملك «دارا» الأول المعروفة حتى الآن من الحجر الأرجواني (وهو نوع من الكلس) وكل أثر من هذه الآثار عليه نقش بالخط المسماري،

والمتن الذي كتب بالهيروغليفية عليه قد وُزِّعَ على أعمدة محصورة في مستطيل، جزؤه الأعلى على هيئة السماء، وقد كتبت هذه الأواني على قدر ما نعلم بطريقة واحدة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيد القطرين «دارا» عاش مخلدًا، السنة العاشرة.

وكتابة اسم الملك واحدةٌ في كل الأمثلة المعروفة لنا.

التأريخ: وقد بقي على الآنيتين اللتين تحملان الرقمين ٣٧ (السنة ٣٣) و٣٨ السنة ٣٤، وهذا يُبرهن على أنَّ المقصودَ هُنا هو الملك «دارا» الأول؛ وذلك لأن مُلُوك الفرس الآخرين الذين كانوا يحملون اسم «دارا» لم يحكموا مدةً طويلة كهذه، ومِن المستطاع — بما لدينا من تشابُه في المتون، وكذلك من توحيد توزيعها — أن نعزو إلى ملك بعينه عدة آثار عندما يعوزنا التاريخ.

(٣٧) إناء عثر عليه في سوريا عام ١٩٣١

التأريخ: السنة الثالثة والثلاثون من عهد الملك «دارا» الأول (٤٨٩ق.م)، والمتن الذي على هذا الإناء لم يُنشر بعد (راجع: posener Ibid p. 138).

(٣٨) قطعة من إناء بمتحف «اللوفر» (A. S 515)

عُثر عليها في حفائر «سوس» ومؤرخة بالسنة الرابعة والثلاثين، من عهد «دارا» الأول (٤٨٨ق.م)، (راجع: Delegation en perse memolres 7 (1995) p. 40 fig. 47; bor-chardt A. Z. 49 (1911) p. 75 & pl. 8, no. 4).

(٣٩) قطعة من آنية بمتحف «اللوفر» (١٠٥٠٧)

عثر عليها في حفائر «سوس» وليس عليها تاريخ.

(٤٠) قطعة من إناء بمتحف «اللوفر» (A. S. 516)

عثر عليها في حفائر «سوس» ولسى عليها تاريخ.

(٤١) قطعة من إناء بمتحف «اللوفر» (A. S. 518)

عثر عليها في حفائر «سوس» وليس عليها تاريخ.

(٤٢) قطعة من إناء بمتحف «اللوفر» (A. S. 520)

عثر عليها في حفائر «سوس» وقَدْ ضاع تاريخُها ولم يَبْقَ إلا جزءٌ من اسم الملك «دارا».

أواني الملك «أكزركزس»

صُنعت الأواني وكذلك الأواني التي تنسب الملك «أكزركزس» من حجر أرجواني عدا الإناءين ٧٤، ٧٥.

هذا ويُلحظ أن المتن الهيروغليفي يكمل بوجه عام بنقش مسماري فيذكر الاسم والألقاب الملكية بالفارسية القديمة، والعيلامية والبابلية (راجع: weissbach, keilinschr. Der achameniden p. 118–119).

والمتون الهيروغليفية المعروفة حتى الآن تنقسم نوعين:

(١) فمن الرقم ٤٣ إلى ٤٨ نجد:

«ملك الوجه القبلي والوجه البحري، سيد الأرضين «أكزركزس» عاش أبديًّا، السنة العاشرة.»

وهذا الكليشيه موحد بالكليشيه الذي يوضع على أواني الملك «دارا» الأول، وهو دائمًا مُحاطٌ باطارٍ بنفس الطريقة التي نجدها على الأخير.

(٢) القطع من ٤٩–٧٦:

نجد منقوشًا عليها «أكزركزس» الفرعون العظيم.

وهذا اللقب مأخوذٌ من الفارسية القديمة، والنقوش التي من هذا الطراز كثيرةٌ جدًّا، وتكون أحيانًا محصورةً في مستطيلٍ، مثل كليشيه المجموعة السابقة، وأحيانًا لا تكون في داخل اطار.

(٤٣) آنية مهشمة بمتحف «اللوفر» (A. S. 561)

نقش عليها متنٌ بالمسمارية، ومؤرخة بعهد الملك «أكزركزس» (٤٨٤ق.م).

(٤٤) قطعة من إناء بمتحف «اللوفر» (A. S. 578)

وهذه القطعةُ ليس عليها كتابةٌ مسماريةٌ، وقد أُرِّخَتْ بالسنة الثانية من عهد الملك «أكزركزس» (٤٨٤ق.م).

(٤٥) قطعة من آنية بمتحف «اللوفر» (A. S. 577)

ليس عليها نقوش مسماريةٌ، وقد أُرخت بالسنة الخامسة من عهد «أكزركزس» (٤٨٤ق.م).

(٤٦) قطعة من آنية بمتحف «اللوفر» (A. S. 572)

ليس عليها نقوشٌ بالخط المسماري، ولا يوجد عليها تاريخٌ أيضًا.

(٤٧) قطعةٌ من آنيةٍ بمتحف «اللوفر» (D. 60)

وهي خاليةٌ من النقوش المسمارية، وليس عليها تاريخٌ أيضًا.

(٤٨) قطعة من إناء بمتحف «اللوفر» (١٠٥١٢)

ويُلحظ أن المتن الذي على هذه القطعة هو الوحيد الذي كتب أُفُقيًّا.

التأريخ: لم يؤكد عليها اسم الملك «أكزركزس» بالهيروغليفلية، ولكنه بقي محفوظًا في المتن المسماري، ويُلحظ أن السنة قد مُحيتْ.

(٤٩) آنية محفوظة في «باريس» (Cabinet des medailles, paris)

والظاهرُ أنه كان قد عُثر عليها في مصر، ويؤجد عليها كتابةٌ مسماريةٌ، وليس عليها تاريخٌ، وكذلك القطع الأخرى التي بعدها، وهي ليست بذات أهمية إلى رقم ٧٥.

(٧٦) قطعة من آنية بمتحف «اللوفر» (D. 59)

وُجد عليها نقوشٌ بالخطِّ المسماري.

التأريخ: عُرف اسمُ الملك من النقوش المسمارية التي عليها، ولم يَبْقَ من الكتابة الهيروغليفية إلا دائرة الطغراء.

(٧٧) قطعةٌ من آنيةٍ بمتحف «اللوفر» (P. 396)

لم يوجد عليها كتابةٌ مسماريةٌ، وإنما بقي عليها آثارُ اسم الملك بالمصرية القديمة.

أواني الملك «أرتكزركزس»

صنعت الأواني وقطع الأواني التي عليها اسم هذا الملك؛ من الحجر الأرجواني (الحجر الجيري)، إلا الآنية رقم ٧٩، وكلها تحمل نقوشًا بالمسمارية بثلاث لُغات، وهي لذلك تشبه آثار الملك «أكزركزس» التي من هذا النوع، ويُلاحظ أن المتن الهيروغليفي منقوشٌ في عمد، واسم الملك موحدٌ على كل الأواني، أما النقوش فمن طرازين:

الأول: من ٧٨–٨٠ يُشبه الطراز رقم (٢) من أواني «أكزركزس»، وقد جاء فيه «أرتكزركزس» الملك العظيم.

الثاني: ٨١–٨٢ وقد جاء فيه «أرتكزركزس» الملك.

التأريخ: نجد أن الأواني التي تحمل الأرقام ٧٨، ٨١، ٨٢ تُشبه أواني «أكزركزس» ويُمكن نسبتُها للملك «أرتكزركزس» الأول (راجع: borchardt Ibid. 75 & noel giron, rev. d'assyriologie 18 (1921) p. 144).

أما آنية «فنيس» رقم ٧٩ فقد أُرخت بحكم «أرتكزركزس» الثالث؛ وذلك بسبب شكلها الخاص (راجع: Borchardt lbid. 75, note 3).

(٧٨) آنية «برلين» (١٤٤٦٣)

اشتريت هذه الآنية في «القاهرة» وسعتها على حسب ما ذكره «بورخاردت» ٤٥٥٠ سنتيمترًا مكعبًا، وهذا يساوي عشرة هنات. أقرن هذه الآنية بالآنيتين رقمي ٩٨، ٩٩ حيث المعيار قد ذكر بالهن (راجع: Borchardt lbid 74–77 Pl. 8, Fig. 2).

والمتن الذي عليها يشبه المتن الذي على الطراز الأول.

(٧٩) آنيةٌ من الجرانيت الرمادي محفوظةٌ في «فنيس»

عُثر عليها في «برسيوليس» (راجع: Borchardt lbid. 75–77 & p. l, 9, 4) والمتن الذي عليها من الطراز الأول السابق الذِّكر.

(٨٠) قطعة من آنية بمتحف «اللوفر» (A. S. 574)

عُثر عليها في حفائر «سوس»، والمتن الذي عليها من الطراز الأول، ويُلحظ أن بداية الاسم الملكي قد ضاع.

(٨١) آنية موجودة بمتحف جامعة «فيلادلفيا» (C. B. S. 9208)

اشتريت في «بغداد» (راجع: Borchardt ibid, 76–77 & pl. 9. 3).

والمتن الذي عليها من الطراز الثاني.

(٨٢) آنية في مجموعة المسيو «نويل إيميه جيرون» قنصل «فرنسا» في «بورسعيد»

كانت قد وجدت في ضواحى «ممبج» (Hierapolis) في «سوريا».

(راجع: Noel Oiron, Rev. D. Assyriologle 18 (1921) p. 143–145.)

المتن الذي عليها من الطراز الثاني.

هذا ولدينا — خلافًا لذلك — عدةُ أوانٍ لا يُمكن نسبتُها لملك معين بصفة مؤكدة، وقد جمعها الأثري «بوزنر» وتَحَدَّثَ عنها (راجع: Posener lbid p. 148).

(ز) نقوش أختام ومقابض صناجات وثقالات عقود «منات» وبرنز

وجد من بين الثمانية عشر أثرًا التي عثر عليها من هذا الصنف ستة عشر أثرًا باسم الملك «دارا» (١٠١–١١٦)، وواحدةٌ باسم الملك «قمبيز» (رقم ١٠٠)، وواحدةٌ باسم الملك «أرتكزركزس» (١١٧). ومن المستحيل أن نؤكِّد أن الآثار التي من رقم ١٠١ إلى رقم ١١٤ على حسب ترقيم «بوزنر» هي للملك «دارا» الأول. وإذا كانت الكتابة الخاصة بالاسم الملكي، المعروفة لنا من أمثلة أخرى تسمح لنا أن ننسب الأثرين اللذين يحملان رقم ١٠١، ١١٤ للملك «دارا» الأول بشيء من الاحتمال؛ فإنه من الصعب تأريخ القطع الأخرى. ويميل الأثري «بوزنر» إلى نسبتها لنفس الملك؛ لأنه حكم مدة أكثر من مدة الملك «دارا» الثاني، ومن مدة الملك «دارا» الثالث. وقد ترك لنا «دارا» الأول في الواقع آثارًا أكثر منهما في «مصر». ويُمكن أن ننسب الأثر رقم ١١٧ لأسباب مماثلة للملك «أرتكزركزس» الأول.

(راجع: Wiedmann Ceach. Aeg. p. 240–241; petrie Hist. III p. 364–5 Gau-thier L. R. IV p. 148–50.)

قمبيز

(١٠٠) خاتم للملك «قمبيز» بمتحف الفنون الجميلة بـ «موسكو»

وجد لهذا الملك خاتمٌ في متحف الفنون الجميلة في «موسكو».

(راجع: Tourneiv, Hist. De L’ Ancien Orient (eu Russe) 2. 177 & 411.)

ويُلحظ أن الطابع الذي أخذ لهذا الخاتم كان رديئًا؛ ولذلك كان من الصعب قراءة هذا الخاتم بصورة مؤكدة. هذا، ويطيب أن نذكر هنا أن اسم «قمبيز» قد وُجد على قطعة منقوشة في «منف» وقد ذكرها «بتري» في كتابه عن قصر «أبريز» (راجع: petrie, The palace of Apries p. 11).

الملك دارا الأول

(١٠١) يوجد في متحف «اللوفر» مقبض صناجه من الخزف الأزرق المطلي (No. Inv. 2263)

(راجع: pierret Catalogue de la Salle Hist. p. 146 No, 664; Posener Ibid p. 153.)

والمتن الذي على هذه القطعة هو:

(١) الإله الطيب سيد الأرضين والسيد الذي يؤدي الأحفال، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» معطى الحياة مثل «رع» أبديًّا.

(٢) اللعب بالصناجة لأجل سيدة الصناجات الإلهة «تفنت».

(١٠٢) صناجة من الخزف بمتحف «القاهرة» (J. E 15005)

عثر على هذه الصناجة فى «منف» (راجع: Mariette Mon–Div. pl.34 (d; Maspero) Guide to the Cairo Museum (1903) p. 267).

وقد جاء عليها المتن التالي: «الإله الطيب سيد الأرضين والسيد الذي يؤدي الشعائر، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» عاش أبديًّا محبوب الإلهة «باست» سيدة «بابنات» (؟) (= مكان غير معروف)».

(١٠٣) قبضة صناجة من الخزف الأخضر

يوجد في متحف «برلين» (N. 4548) مقبض صناجة كذلك من الخزف المطلي الأخضر عثر عليه في «تانيس».

(راجع: L. D. III. p. 283 a, Sachs, die Musikinstrumente des Altin Aegypten Staatliche Museum Zu Berlin, Mitteil. Aus der Ag. Samml–ung 3, 36 & PL. 5, 65; Borchardt A. Z. 69 p. 73.)

والمتن الذي عليها هو «الإله الطيب سيد الأرضين «دارا» ليت «باست» تعطي الحياة إلى صاحبها» (أي صاحب الصناجة).

(١٠٤) قطعةٌ من مقبض صناجة من الخزف الأخضر الغامق، موجودةٌ في مجموعة «ناش»

(راجع: Nash, p. S. B. A. (1908) p. 153 & pl. 1, 15).

والمتن الذي نقش عليها هو «الإله الطيب، رب الأرضين «دارا». «بتاح» ...»

(١٠٥) لوحةٌ صغيرةٌ من الخزف المطلي بمتحف «القاهرة»

اشتريت هذه اللوحة من «تل بسطة» (راجع: Naville, Bubastis p. 62).

ونقش عليها ما يأتي: «(١) الإله الطيب رب الأرضين «دارا» معطى الحياة. (٢) ماهس عظيم القوة رب ...»

(١٠٦) قطعة من ثقالة عقد «منات» من الخرز الأخضر الباهت

هذه القطعةُ محفوظةٌ الآن بمتحف «ينفرستي كولدج» بمدينة «لندن». والمتن الذي نقش عليها: ... رب التيجان «دارا» ...

(١٠٧) قطعةٌ من ثقالة عقد «منات» من الخرز الأصفر

محفوظة الآن بالمتحف المصري (J. E. 37050) وقد عثر عليها في خبيئة الكرنك (راجع: Legrain, A. S 8, p. 51).

وقد نقش عليها: (١) الإله الطيب رب الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» معطى الحياة ... (٢) محبوب «حورور» سيد الوجه القبلي.

(١٠٨) قطعة ثقالة عقد «منات» من الخزف الأخضر الباهت

موجودة الآن بمتحف «اللوفر» (Louvre E. 14221).

المتن: الإله الطيب، رب الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» ليته يعيش أبديًّا ...

(١٠٩) قطعة ثقالة عقد «منات» من الخزف الأخضر الصافي اللون

موجودة الآن بمتحف «اللوفر» (راجع: Louvre J. E. 640; Pieret, Catalogue de la Salle Hist. 110 No. 456).

وقد نقش عليها ما يأتي: «الإله الطيب رب الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» عاش أبديًّا.»

(١١٠) قطعة من ثقالة عقد «منات» من الحجر الجيري الملون باللون الأخضر

محفوظة الآن بمكتبة البلدية بمدينة «فرانكفورت» على نهر «المين»، عثر عليها بـ «الفيوم».

ونقش عليها: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» … (راجع: Posener. Lbid. p. 158).

(١١١) ثقالة عقد «منات» من الخزف الأخضر الباهت

وهى موجودة الآن بمتحف «ينفرستي كولدج» بمدينة «لندن» (راجع: Petrie, Scarabs and Cylinders p. 57 & pl. 57).

ونقش عليها: «الإله الطيب، رب الأرضين «دارا» معطى الحياة.»

(١١٢) ثقالة عقد «منات» من الخزف الأزرق السماوي اللون

وهى محفوظة الآن بمتحف «فلورنس» (No. 854).

(راجع: Schiaparelli: Museo Archeologico di Firenze Antichita egizie 180, No. 1451).

والمتن الذي عليها كالمتن السابق.

(١١٣) الجزء الأسفل من ثقالة عقد «منات» من الخزف الرمادي الأخضر

وهو موجودٌ الآن بالمتحف البريطاني (No. 17162) (راجع: Petrie Historical Scarabs pl. 63 No. 1999).

وقد جاء عليها المتن التالي: «... «دارا» معطى الحياة أبديًا.»

(١١٤) قطعة من لوحة من البرنز

وهي موجودةٌ الآن بمتحف «القاهرة» (J. E. 3850).

وقد مثل على هذه اللوحة موكب ملوك يحملون قربانًا، ولم يبق من هذا الموكب إلا فرعون واحد، وساقٍ آخرَ، وأمامهما طغراءان موحدان. عثر على هذه القطعة في خبيئة الكرنك (راجع: A. S. 8. p. 51).

وجاء عليها المتن التالي: «دارا.»

(١١٥) خاتم من البرنز

يوجد هذا الخاتم بالمتحف البريطاني (No. 48929). وقد عُثر عليه في الواحة الخارجة (راجع: Hall. Cat. Of Egy p. Scarabs etc. In the British Museum 284 No. 2744).

وجاء عليه المتن التالي: «دارا».

الملك دارا

(١١٦) حدوة مثلثة الشكل من البرنز

هذه القطعة موجودةٌ الآن بمتحف «اللوفر» (E. 5335).

(راجع: pierret Catalogue de Salle Hist. 164 No. 665.)

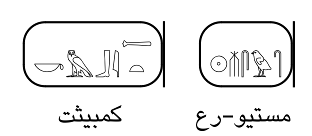
وجاء عليها المتن التالي: الإله الطيب، رب الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» «أنتروش»، محبوب «أوزير» معطى الحياة والدوام والظهور مثل الشمس أبديًّا.

الملك «أرتكزركزس» (= أردشير)

(١١٧) قطعة من تعويذة من الخزف المطلى موجودةٌ بالمتحف المصري

(J. E. 38032) وجدت في خبيئة الكرنك (Rec. Trav. 28. p. 148). لم ينشر «لجران» متن هذه التعويدة.

عهد الملك قمبيز



ذكرنا الفصل السابق الوثائق التي وصلت إلينا حتى الآن، من الآثار المصرية المباشرة، من عهد الحُكم الفارسي الأول لـ «مصر»، وسنُحاول هنا أن نَستخلص تاريخ تلك الفترة من هذه الوثائق وغيرها، مما وصل إلينا من مصادر أُخرى تَمُتُّ إلى هذه الفترة من تاريخ أرض الكنانة. وأول وثيقة تميط لنا اللثام عن أحوال الفتح الفارسي لـ «مصر» وتسلط «قمبيز» عليها وإقامته فيها؛ هي النقوش التي جاءت على تمثال «وزاحر رسن» الموجود حاليًا بمتحف «الفاتيكان»، والواقع أن «وزاحر رسن» هذا قد لعب دورًا هامًّا في هذه الفترة من تاريخ البلاد المصرية، ومن أجل ذلك سنفحص نقوشه فحصًا دقيقًا، وندرسها درسًا وافيًّا مستفيضًا؛ بغية الوصول إلى نتيجة مرضية.

ولد «وزاحر رسن» في مدينة «سايس» الواقعة بالقرب من «كفر الزيات» الحالية، من أبوين مغمورَي الذكر، وكان أبوه يسمى «بفتوعونيت» وتُدعى أمه السيدة «أتم أردس»، وتدل شواهدُ الأحوال على أن والده لم يكن معروفًا من قبل، وقد حاول بعض الأثريين أن يوحد اسمه وألقابه باسم وألقاب صاحب تمثال رجل عظيم بمتحف «اللوفر»، غير أن تلك المحاولة قد أخفقت؛ لأن ألقاب هذين الرجلين لم يكن بينها شَبهٌ ما؛ وذلك لأن صاحب تمثال «اللوفر» كان ذا مكانة عظيمة في حاشية آخِر ملوك العهد الساوي في حين أن والد «وزاحر رسن» لم يكن يحمل أي لقب ديني كسميه، وعلى ذلك يجب أن نضرب صفحًا عن محاولة أيِّ تقارُب بين هذين الرجلين، ومن ثم نترك جانبًا التفسيرَ الذي أدلى به الأثري

«رفييو» وعاضده فيه الأثري «مالت» وهو أن «وزاحر رسن» قد أصبح خائنًا لبلاده حِقدًا عليها وتَنكُّرًا لها بعد أن فقد وظائفه الدينية العالية التي كانت وراثية في أسرته.

(راجع: Rev. Egypt I (1880) p. 70–71; Culte de Neit ä sais p. 144; Prasek, Forschung zur Gesch, Des Altertums 1, 2.)

وقد نفى «جوتييه» (راجع: Gauthier L. R. Iv p. 112, No. 3).

حيث يقول: إن أولاد الملك «إبريز» كانوا معروفين لدينا، وعلى ذلك لا يوجد أيُّ سبب يحملنا على الظن مع «رفييو» أن «أتم أردس» التي جاء ذكرها على تمثال متحف «الفاتيكان» كانت ابنة ملك.

أما القول بأن «وزاحر رسن» نفسه كان شطربة كما ادعى المؤرخ «براشك» فليس له نصيب من الصحة قط.

(راجع: Prasek, Gesch. Der Meder und perser. 2, 48 & 109.)

هذا، ولا يمكن توحيده مع «كومبافيس Kombaphis»، كما ذكر لنا ذلك الأثري «بركش» أيضًا، (راجع: Brugsch id. 1, 251)، وعلى أية حال فإنه لا يمكن أن ينسب إلى «وزاحر رسن» هذا على قدر ما وصلت إليه معلوماتُنا؛ أي أثر غير تمثال «الفاتيكان» وتمثال آخر وهو التمثال رقم ٢ الذي تحدثنا عنه من قبل.

مجال حياة «وزاحر رسن»

تحدثنا نقوش تمثال «وزاحر رسن» على أن مجال حياته كان مدنيًّا في الأصل؛ فقد كان في عهد الملك «أحمس» الثاني «أمسيس» يشغل وظائف مدنية عالية، ولا نعرف شيئًا عن سُلُوكه مدة احتدام الحرب التي وقعت بين «مصر» والفرس، غير أنه لُوحظ — بعد انتهاء هذه الحروب — أنه كان من بين رجال حاشية الملك «قمبيز».

ولا نزاع في أنه كان يميل — كل الميل — إلى جانب الفرس، وقد كان له تأثيرٌ على نتيجة الحرب التي قام بها الفرس لفتح «مصر»، وبخاصة عندما نذكر أن «وزاحر رسن» كان قائدًا للأسطول المصري في البحر في عهد «بسمتيك» الثالث، فقد وضعه هذا المنصبُ السامي في مكانةٍ خاصة غاية في الأهمية، ومن المحتمل أن الخدمات العظيمة التي أَدَّاها فعلًا لملك الفرس، والتي كان لا يزال يؤديها بعد تقربه من الفرس؛ قد خولت له أن يتوسط لدى «قمبيز» في صالح أسرته وفي صالح مدينته «سايس» مسقط رأسه، كما توسط كذلك لدى الملك لخدمة الآلهة المصرية.

ويدل ما لدينا من نقوشه على أنه قد احتفظ بعددٍ عظيمٍ من ألقابه، وقد نال — فضلًا عن ذلك — ألقابًا جديدة من الفرس، وبخاصة لقب «رئيس الأطباء»، ولا بد أن هذا اللقب كان لقبًا حقيقيًّا لا لقبَ شرفٍ وحسب. أما الوظيفة الهامة التي كان يقوم بأدائها لدى ملك الفرس؛ فهي وظيفة رئيس المراسيم ومُرشد الملك إلى كل العادات المصرية القديمة من دينية واجتماعية، وغير ذلك.

وتُحدثنا النقوش أن «وزاحر رسن» قد سافر بعد وفاة «قمبيز» إلى الخارج؛ أي في عهد الملك «دارا» الأول؛ فقد ذهب إلى «عيلام» ليكون بالقرب من مليكه، ولكن لا نعلم شيئًا قط عن الأحوال التي اقتضتْ هذا السفر.

وقد ذهب المؤرخون مذاهبَ شتى متضاربة في هذا الصدد، ولا حاجة بنا إلى سَردِها هنا؛ فإنها كلها محض حدس ورجم بالغيب.

(راجع: Revillout, Rev. Egypt. I (1880) p. 71; Maspero, Hist. Anc. des Peuples de l’orient Classique 3, 685: Farina Bibychnis, 18 (1929) 455.)

وعلى أية حال نعلم من نقوش «وزاحر رسن» أن العاهل الجديد؛ أي «دارا»، قد أرسله إلى «مصر» في بعث رسميٍّ، كما سنتحدث عن ذلك بعد، وقد كان القيام بتنفيذ هذا الأمر آخرَ عملٍ قام به، جاء في النقوش التي تركها لنا، وقد استغرق حوالي ستة أعوام.

والواقع أن ما جاء في نقوش تمثال «وزاحر رسن» يُعدُّ دفاعًا عن موقفه بالنسبة لبلاده، فقد أراد أن يفهم خلفه بأنه كان جديرًا بكل حمد وثناء من أسرته، ومن مدينته ومن رؤسائه، وبوجه خاص من آلهته، ومما يُلحظ في نقوشه أنه لم يذكر لنا من الوقائع التاريخية إلا التي اشترك فيها هو، وبخاصة عندما تكون هذه الوقائع عونًا له على إظهار تُقاهُ وصلاحُهُ وخدماته لآلهة «سايس» مسقط رأسه.

وإذا كان «قمبيز» لم يُظهر اهتمامَه إلا بمعبد الإلهة «نيت» وإذا كان «وزاحر رسن» قد أظهر نفس الاهتمام بوصفه الساعدَ الأيمنَ لملك الفُرس؛ فإن ذلك كان يرجع — بلا شك — للاختيار الخفيِّ للأمور التي ذكرها لنا صاحبُ التمثال في نقوشه، هذا بالإضافة إلى أنه كان في خدمة أجانب؛ أي في خدمة الفُرس، فكان مدينًا لهم بمركزه الهام؛ ولذلك كان عليه أن يختار من الأمور ما يعجبهم، ثم يعرضها عليهم دون تعليق بعد أن كان قد أخذ للأمور عدتها ومَهَّدَ السبيلَ بما لديه من سياسة وتجارب لتنفيذها دون تعليق، وهذه هي التحفظات التي يجب أن نضعها هنا من جهة القيمة التاريخية لهذه الوثيقة.

ومن جهة أُخرى يجب أن نلحظ أن ما قصه علينا «وزاحر رسن» في نقوش تمثاله كان مفروضًا أن يقرأه المارةُ «هذا إذا كان تمثالُهُ على ما يظهر موضوعًا في معبد «أوزير» بمدينة «سايس»»، وكان معاصرًا للحوادث التي ذكرها عليه.

هذا، ومن الطبيعي أن يضع أمام المارة صورة مشوهة جدًّا عن العصر الذي عاش فيه هو، وأن يُفهم القوم أنه أَسهم في الإصلاحات التي جرت فيه.

على أنه كيف يكون رئيس الأطباء «وزاحر رسن» هذا ليس في حاجة إلى ملق الملك «قمبيز»؟ والواقع أن هذا يرجع إلى أن المتن قد وُضع بعد موت هذا الملك، يُضاف إلى ذلك أنه على الرغم من أن «وزاحر رسن» كان ميالًا بعواطفه إلى الفرس، إلا أنه قد تحدث عن وجود اضطرابات عظيمة في أيامهم؛ فقد أشار إلى التخريب الذي سَبَّبَه الأجانبُ في أثناء حروبهم وتوطيد أقدامهم في «مصر». وأخيرًا نجد أنه قد برهن على حياده في تلك الفترة بأنْ وضع أسماءَ مُلُوك الأسرة الساوية في طغراءات، وأسبقها بلقبَي: ملك الوجه القبلي والوجه البحري، كما فعل مع ملوك «فارس»، وذلك في حين أننا نجد بعض الوثائق كانت لا تعترف بالملك «أحمس» الثاني ملكًا كما جاء ذلك في تاريخ «هردوت»، (راجع: Herod. III 16)، وكما ذكر لنا «ماسبرو» (راجع: Hist. III p. 663)، و«جريفث» أيضًا (راجع: Pa p. Ryland III p. 99)، ومن جهة أُخرى نجد في تواريخ المتون المكتوبة بالخط الديموطيقي أن الأمر كان على عكس ذلك؛ إذ نرى أن «أحمس» الثاني قد عُومل بوصفه ملكًا على حين أن «قمبيز» وحتى «دارا» قد ذُكرا بوصفهما شخصين عاديين.

(راجع: Spiegelberg A. Z. L III p. 30; Sottas, A. Z. 23, p. 46.)

ومِن ثَم لا ينبغي علينا ألا نُقلِّل من القيمة التاريخية لهذا المتن الذي نحن بصدده، وألا نعد صاحبه رجلًا وصوليًّا، ولكن بشرط أن نذكر أَنَّ الحوادث التي دَوَّنَها في هذا المتن كانت قد اختِيرت بصورةٍ شخصيةٍ تُوحِي بما يُشْتَمُّ منه رائحة التحيُّز، ومن ثم يمكنُ استعمالُهُ واستخلاصُ معلوماتٍ ثمينةً من محتوياته.

والواقع أن «وزاحر رسن» قد وصف لنا في متنه هذا فتح الفرس لـ «مصر»، بألفاظ تنطوي على الإبهام، فلم يذكر لنا الحروب التي قامتْ بين البلدين، وهذا الصمت من جهة «وزاحر رسن» كان أمرًا طبيعيًّا؛ لأن ذكرها في هذا الوقت لم يكن من السياسة أو اللباقة التي يُحمد عليها صاحبها، ولا تدعو إلى الفخار في ظرف كهذا، وعلى ذلك فقد أراد أن يمثل لنا الملوك الأجانب الذين اغتصبوا «مصر» بأنهم كانوا يواصلون بأمانة إنجاز الأعمال التي بدأها الملوك الوطنيون، والواقع أن الدور الذي قام به «سماتوي تفنخت» في أثناء الفتح

الفارسي الثاني لـ «مصر» على يد «أردشير» الثالث يشبه الدور الذي قام به «وزاحر رسن» غير أنه يُعَد أقلَّ وضوحًا من الدور الذي قام به الأخيرُ كما سنرى بعد، وتدلُّ ظواهرُ الأُمُور على أن كلًّا منهما كان يلعب دورًا مزدوجًا، فكان مذبذبًا بين هؤلاء وهؤلاء.

(راجع: Spiegelberg, Chronique demotique de Paris Recto. V 15-16.)

والواقع أن الفتح الفارسي في القصة التي رواها لنا رئيس الأطباء «وزاحر رسن» قد ظهر في صورة هجرة؛ إذ يقول: «إن سكان البلاد الأجنبية الذين أتوا مع «قمبيز» قد استوطنوا «مصر».» وفي فقرة أُخرى نجد أن مهاجمين قد استقروا في معبد الإلهة «نيت»، ولا نِزَاعَ في أن المقصودَ من ذلك كان رجالُ الجيش الفارسي الذين أبقاهم معه «قمبيز» طوال مدة إقامته في «مصر» (٥٢٥–٥٢٢ق.م)، وقد كانت «مصر» في عهده تعد بمثابة قاعدة للأعمال الحربية التي قام بها على بلاد «كوش» والواحات، ومن المحتمل أن عددًا من سكان البلاد المجاورة لـ «مصر» قد انتهزوا فرصة الفتح الفارسي ودخلوا «مصر» مستوطنين فيها، وقد يكون ذلك صحيحًا — كما جاء في الوثيقة السالفة التي من عهد الملك «أكزركزس».

وتدلُّ الوثائقُ التي في متناولنا على أن الغُزاة كانوا من سلالات عدة؛ ولذلك نجد أن «وزاحر رسن» قد اختار التعبيرَ الملائم للدلالة على ذلك في نقوش تمثاله؛ فقد قال عنهم: «الأجانب الذين من كل البلاد الأجنبية»، والواقع أن البردية الآرامية التي عُثر عليها في «مصر» والتي يرجع عهدها إلى القرن الخامس تكشف لنا عن وجود فُرْس وخوارزميين وكسبيين، وبوجه خاص جَمٌّ غفير من الساميين يحملون أسماء بابلية وآرامية ويهودية.

(راجع: Ed. Meyer, Das Papyrusfund Von Elephantine 25 et Noël Aimé-Giron, Textes Araméens d'Egypte p. 58.)

هذا، وقد دل على وجود جنود من البابليين في جيش «قمبيز» وثيقةٌ بالخط المسماري، (راجع: Meissner, A. Z. 29, p. 123)، وقد أحس المصريون بوصول هؤلاء الأجانب بما ارتكبوه من عُنف وقسوة، وكان ذلك — بلا نزاع — بداية عهدٍ من الفوضى وسوء النظام، ويُلحظ أن رد الفعل الذي أحدثتْه الغزواتُ الفارسية لـ «مصر» في الأدب والدين ذو طابع هام بارز؛ ففي أسطورة الإله «حور» التي نقشت على جدران معبد «إدفو» نجد أن الإله «ست» عدوه قد أحفظه وأثار غضبه بوصمه له بأنه ميدي؛ «أي فارسي».

(راجع: Chassinat Edfu, 6, 214-215 F; Kees, Kult-legende und Urgeschichte, Nachr., Göttingen 1930 p. 346.)

هذا، ونجد أسماء أقوام الأقواس التسعة القديمة أعداء «مصر» التقليديين (راجع: «مصر القديمة» الجزء التاسع) قد بدءوا يسمون بأسماء حديثة، فنجد أن رُماة الصحراء الذين وحدوا بالبدو قد سموا بأهل بلاد «ميا».

(راجع: Chassinat, Edfu, 6, p. 198; sethe, Spuren der Perserherrschaft Nachr., Göttingen 1916 p. 130.)

هذا، ويُلحظ أن التعبير «أجانب كل البلاد الأجنبية» — الذي ذكرناه فيما سبق — يدل على الغزاة في المتنين رقم ١، ٦، ويوجد في نفس نقش معبد «إدفو» الذي نحن بصدده صيغٌ سخريةٌ عملت ضد أعداء الملك، وهؤلاء هم في الأصل آسيويون (راجع: Ibid. 6, 235)، وتدل الأحوال على أن «وزاحر رسن» لم يخف ما ارتكبه الأجانب من آثام، ويُلحظ هذا في الفقرتين الشهيرتين من نقوشه وهما اللتان تذكران: «الاضطراب العظيم جدًّا الذي حدث في مقاطعة «سايس» وفي كل «مصر»، وهذا الاضطراب لم يحدث مثيله من قبل».

وقد أراد بعض المؤرخين أن يرى في هذه الاضطرابات إشارةً إلى أعمال العنف التي ارتكبها «قمبيز» في «مصر»، وهي التي ذكرها الكُتاب الأقدمون، وبخاصة «هردوت» وهناك الفقرات التي جاء فيها ذكر هذا العنف.

(راجع: Herod. 3, 16, 27, 130; Diodorus 1, 46; Strabo 17, 1, 27; Plutarch, De lside 44 justin 1, 9, etc.)

وقد تابع «قمبيز» السير من مدينة «منف» إلى مدينة «سايس» قاصدًا أن يتم ما بدأه؛ لأنه عندما دخل قصر «أحمس» الثاني أمر في الحال بأن يحضر جسم «أحمس» الميت من ضريحه، وعندما تم له ذلك أعطى الأوامر بجلده ونتف شعره ووخزه وانتهاك حرمته بكل طريقة ممكنة، ولكنهم عندما أخذ منهم التعبُ كل مأخذ من هذا العمل «لأنه لما كان الجسم محنطًا فقد قاوم ولم يُمزق إربًا إربًا» أمر «قمبيز» بحرقه، وبذلك أمر بما هو كفر؛ لأن الفرس كانوا يَعتبرون النار إلهًا؛ «أي يعبدونها»، ومن ثم فإن حرق الميت لم يكن — بحالٍ — مسموحًا به في كلتا الأمتين «الفارسية والمصرية»، فلم يكن مسموحًا عند الفرس للسبب السابق؛ وذلك لأنهم يقولون: إنه ليس من الحق أن نقرب لإله جسم إنسان ميت، أما من جهة المصريين فقد كانت النار تُعَد حيوانًا حيًّا وأنها تلتهم كل شيء يمكن أن تصل إليه، وعندما تتخم بالطعام تخبو بما التهمتْه، وعلى ذلك كان قانونُهُم أَلَّا يعطى — بأية حال من الأحوال — جسمٌ ميتٌ لحيوانات مفترسة؛ ولهذا السبب كانوا يحنطونها «حتى لا ترقد وتأكلها الديدان».

ومن هذا نرى أن «قمبيز» قد أمر بشيء منبوذ في عادات الأُمَّتين، وعلى أية حال فإن المصريين يقولون إنه ليس «أحمس» الثاني الذي عُومل بهذه المعاملة، بل كان مصريًّا آخر في نفس قامة «أحمس» الثاني قد أهانه الفرسُ ظَانِّينَ أنهم قد أهانوا «أحمس»؛ لأنهم يقولون إن «أحمس» كان قد أُخبر — بوحيٍ — بما سيحدث له بعد الموت؛ لأجل أن يعالج الشر الذي كان سيلحق به، ولذلك دُفن جسم هذا الرجل الذي عُذب بالقرب من باب مدفنه وكلف ابنه بأن يدفن جسمه هو في أقصى جُزء في الضريح.

والآن فإن هذه الأوامر التي أعطاها «أحمس» وهي الخاصة بدفنه هو، ودفن هذا الرجل يظهر لي أنها لم تُعط قط، ولكن المصريين يفخرون بها كذبًا، وجاء في فقرة أخرى (Herod. III 27): وعندما وصل «قمبيز» إلى «منف» ظهر العجل «أبيس» للمصريين وهو الذي يُسميه الإغريق «أبا فوس»، وعندما حدث هذا الظهور أسرع المصريون في الحال إلى ارتداء أثمن الملابس، وأقاموا أعيادًا انقطعوا أثناءها عن العمل، وعندما رآهم «قمبيز» مشغولين هكذا استنبط منهم أنهم يقومون بهذه الأفراح بسبب عدم نجاحه في حملته على بلاد النوبة، فأمر حُكَّام «منف» بالحضور أمامه، وعندما مثلوا في حضرته سألهم: «لماذا لم يفعل المصريون شيئًا من هذا القبيل عندما كان في «منف» من قبل ثم فعلوا ذلك الآن عندما عاد فاقدًا جزءًا عظيمًا من جيشه؟» فأجابوا أن إلههم قد ظهر لهم، وهو الذي كان معتادًا أن يظهر في فترات متباعدة، وأنه عندما ظهر كان المصريون جميعًا قد اعتادوا أن يفرحوا ويُقيموا أعيادًا، وعندما سمع «قمبيز» بذلك قال لهم: إنهم كذبوا وأمر بقتلهم بسبب كذبهم (٨) وبعد قتلهم أمر بمثول الكهنة في حضرته، وعندما قص الكهنة نفس القصة قال: إنه سيكشف فيما إذا كان إلهًا طيعًا على هذا النحو قد أتى بين المصريين، وبعد أن قال ذلك أمر الكهنة أن يحضروا «أبيس» إليه وعلى ذلك ذهبوا ليحضروه.

وهذا العجل «أبيس» أو «أبا فوس» هو عجل بقرة لا يُمكنُها أن تحمل في غيره، ويقول المصريون: إن الثور ينزل من السماء على البقرة، ومن ثم تضع «أبيس»، وهذا العجل الذي يُسمى «أبيس» يُميز بالعلامات التالية: إنه عجل أسودُ فيه بقعةٌ مربعةٌ بيضاء على جبهته، وعلى ظهره صورةُ نسر، وفي الذيل شعرٌ مزدوجٌ، وعلى لسانه صورة جعران (٢٩)، وعندما أحضر الكهنة «أبيس» استل «قمبيز» خنجره كإنسانٍ يكاد أن يكون قد خرج عن حواسه، قاصدًا بذلك بَقْرَ بطن «أبيس»، ولكنه ضربه في فخذه، وبعد ذلك أخذته نوبةُ ضحك قائلًا للكهنة: «أنتم أيها الأغبياء هل هناك آلهة مثل هذه من دم ولحم وتحس بالفولاذ؟ حقًّا إن هذا إله جديرٌ بالمصريين، ولكنكم لن تهزءوا مني.»

وبعد أن تكلم هكذا أمر رجاله بتعذيب الكهنة، وقتل كل المصريين الذين كانوا يجدونهم على يد هؤلاء الذين كان هذا عملهم، وعلى ذلك فض عيد المصريين وعوقب الكهنة، ولكن «أبيس» الذي جُرح في فخذه خارتْ قواه في المعبد، وفي النهاية مات من الجرح ودفنه الكهنةُ دون علم «قمبيز».

وفي فقرة أخرى نقرأ عن تعسُّف «قمبيز» ما يأتي: (راجع: Herod. III par, 37) وبعد ذلك ارتكب أعمالًا جنونية مع الفرس وحلفائه أثناء مكثه في «منف»؛ إذ فتح المدافن القديمة وفحص الأجسام الميتة، وكذلك دخل معبد «فلكان» واحتقر تمثاله؛ لأن تمثاله كان شديد الشبه بتمثال «باتيس Pataice» الفنيقي وهو الذي يضعه الفنيقيون عند مقدمة سفنهم الحربية وهو على صورة قزم، وكذلك دخل معبد «كابيري» (وهو محرم على كل فرد دخوله إلا الكهنة) وحرق هذه التماثيل بعد أن مثل بها بطُرُق مختلفة، وهذه كلها مثل تمثال «فلكان» ويقولون: إنها أولاد هذا الأخير هذا ما أورده لنا «هردوت»[١] غير أن ما جاء في متن «وزاحر رسن» ليس فيه ما يسوغ حتى التقريب بينه وبين ما جاء في «هردوت»؛ وذلك لأن الكلمة المصرية التي استعملها «وزاحر رسن» في متنه، وهي كلمة «نشن» لا تعني — في الواقع — إلا اضطرابًا سياسيًّا أو فوضى، ولا تعني قط مصيبة أو كارثة، وإذا جاز لنا أن نثق في الصيغ الثابتة التي تُستعمل في وصف «تعذيب كبير» فإنا نكون هنا أمام حالة فوضى وسوء نظام، يُمكن أن نجعل سكان مدينة عظيمة في خطر مما يجعل القويَّ يقهر الضعيف ويترك الخائف دون حماية، كما جاء في متن تمثال «وزاحر رسن»، ولكن هذا الوصف لا يمكن أن يعزى إلى أعمال الشدة التي ارتكبها «قمبيز» كما حدثنا عن ذلك «هردوت»، وهي الفظائع التي ذكرناها فيما سبق، والواقع أن تعسف «قمبيز» كان موجهًا بصورة خاصة للدين، ولكن على ما يظهر لم يمس هذا التعسف صغار الشعب الذين يتحدث عنهم متن تمثال «وزاحر رسن»؛ إذ إن هذه الأعمال تصبغ بصفة كارثة عامة نزلت بالبلاد جميعها، مثل الاضطراب الذي يحدثنا عنه متن التمثال.

ومن جهة أخرى ليس أمامنا ما يبرر أن «وزاحر رسن» قد أشار من طرف خفي إلى أعمال السوء التي ارتكبها «قمبيز» سيده وحاميه، وهو الذي كان يعمل جاهدًا باستمرار على إظهار مقاصده الحسنة نحو «مصر»، أما ما يجب أن نفهمه من عبارة «الألم العظيم» فيبحث عنه في نفس متن تمثال «وزاحر رسن»، فالاضطرابُ الذي فوجئتْ به البلادُ جميعًا

[١] Diodorus I, 46, Strabo, 17, 1, 27: Plutarch De Iside, 44: Justin 1, q etc.

قد نتج عن استقرار الأجانب في «مصر»، كما ذكر في المتن، أما سوء النظام الذي حدث في مقاطعة «سايس» فنجد مقابلًا له في إقامة الغزاة في معبد الإلهة «نيت».

وهذا التغير في حالة البلاد يؤكده بصفة غير مباشرة ما جاء في عقد بابلي خاص ببيع عبد مصري (Meissner A. Z. (1891) p. 123–124) وهذا العبد كان قد جيء به إلى «مسوبوتاميا» عام ٥٢٥ق.م، بوصفه غنيمة حرب ومن ثم يُمكننا القول بأنه في بداية الفتح الفارسي كان سكان «مصر» يجتازون فترة أليمةً في حياتهم، ومع ذلك فإنه بعد الفتح الفارسي تدل الأحوالُ على أن الحياة قد عادتْ بسرعة إلى مَجراها الطبيعي؛ ففي نهاية السنة السادسة من عهد «قمبيز» (٥٢٤ق.م) كان في الإمكان الاحتفال بدفن عجل «أبيس» كما جاء ذلك في الوثيقة رقم ٣، وكذلك في نفس السنة نرى أحد الكهنة القاطنين في الدلتا قد أرسل في طلب مرتبه في معبد من معابد «مصر» الوسطى (راجع: Griffith Ryl. Pa p. 3, 105–106)، وأخيرًا نجد في أربع وثائق من عهد «قمبيز» ما يُبرهن على أن حكمه في «مصر» كان لصالح البلاد ورقيها، (راجع: Sottas A. S. 23, p. 46).

ومما يؤسَف له أن متن تمثال «وزاحر رسن» لم يقدم لنا تفاصيل أكيدة عن هذا الموضوع، فلم نعلم منه شيئًا إلا ذِكْره احتلال معبد «سايس»، ومن المحتمل أن المدرسة التي كان يجب أن تكون بجوار المعبد قد خربت ونهبت؛ وذلك لأن الملك «دارا» — فيما بعد — كان مضطرًّا لأنْ يهبها كل المواد اللازمة لإصلاحها، ولا نِزَاع في أنَّ إصلاح مدرسة «سايس» كان من أعمال «دارا» لا من أعمال سلفه، ومع ذلك فإنه يظهر أن «قمبيز» قد كبح جماح جُنُوده بمَنعِهم من التعدِّي على الأهلين وأصلح — على الأقل ولو جزئيًّا — الأضرارَ التي نتجت عن الغزو، وقد وصف لنا ذلك المتن رقم ٢، ومن جهة أخرى نعرف على حسب رأي المؤرخ اليهودي «جوسيفس» (راجع: Ant. Jud II, 15, 315)، أن قمبيز أسس مدينة «بابل» القريبة من «منف» (راجع: Ed. Meyer Sitzungsber. Pr. Ak. 315 Wiss. (1915) p. 310 note 1).

ونعرف مكانين يَحملان اسم الفاتح الفارسي «قمبيز»، واحد منهما جنوبي الشلال الثاني (راجع: Ptolemie. 4, 7; pline Hist, Nat. p. 181).

والثاني عند قناة السويس (راجع: Id 6, 165) وينسب «ديودور» الصقلي (راجع: Diod. 1, 33) إلى «قمبيز» تأسيس مدينة «مروى»[٢] بالسودان.

---

[٢] ويشمل النيل كذلك جزائر في داخل مياهه، كثيرٌ منها يوجد في «إثيوبيا»، ومنها واحدةٌ عظيمةُ المساحة، تُدعى «مروى»، وقد أقيم عليها كذلك مدينةٌ عظيمةٌ تَحمل نفس اسم الجزيرة، وهي التي كان قد أَسَّسَها

هذا، ونعلم أن الغُزاة قد طردوا بأمر من «قمبيز» من داخل سور الإلهة «نيت»، كما أمر بتطهير المعبد، وعلى ذلك يمكن «وزاحر رسن» أن يتحدث عن تَعَسُّفات الأجانب؛ وذلك لأن سيدَه وحاميَه «قمبيز» لم يكن شخصيًّا مسئولًا عنها، بل على العكس حارب تلك التعسفات وأوقفها.

سياسة «قمبيز» في «مصر»

تدل شواهد الأحوال على أن «قمبيز» باتخاذه هذه الإجراءات كان يبحث — ولو في الظاهر — عن إرضاء الشعب المقهور والتودُّد إليه، ومن أجل الوصول إلى قصده هذا اتخذ لنفسه ألقابًا فرعونية وهي الألقاب الخمسة التي كان يَتَقَلَّدُها — في العادة — كل فرعون عند توليه عرش الملك في «مصر». غير أننا لم نجد له منها حتى الآن إلا ثلاثة ألقاب، فقد كان يُلقب: (١) نسل رع، (٢) واسمه قمبيز، (٣) واسمه الحوري، وهو الذي يوحِّد الأرضين.

وقد ألف له هذه الألقاب أو الأسماء «وزاحر رسن» الذي أوضح له بطبيعة الحال، كذلك الأهمية الدينية لبلدة «سايس» حتى إنه جعله يُعيد إلى محاريب هذه المدينة خُدَّامَها ودخلها المقدس، وكذلك أمر بأن تُقام شعائرها الدينية وتُقدم القربات للإله «أوزير».

وأخيرًا ذهب «قمبيز» نفسه إلى هذه المدينة الملكية التي كانت مقر مُلك أسلافه من المصريين؛ ليسجد أمام الإلهة «نيت»، ويقوم بنفسه بتقديم قُربانٍ عظيمٍ لآلهة المدينة — كما يقول المتن المصري — (راجع: المتن سطر ٢٥)، وذلك في حين نجد أن «هردوت» يقول كما أسلفنا (Herod. III 10) إن «قمبيز» حضر إلى «سايس» وهتك حرمة ضريح «أحمس» «أمسيس» فما هي الحقيقة يا ترى؟ ثم يقول: «وزاحر رسن»: إن جلالته قد عمل ذلك لأني أفهمته كل عمل مفيد أُقيم في هذا المحراب لكل ملك.

والآن يتساءل الإنسان: أليس من الجائز أن «قمبيز» قد عمل ذلك كله بعد أن أفهمه «وزاحر رسن» أن أعماله الأولى كانت خاطئة؟

ومما تجدرُ ملاحظتُهُ هنا أن الموازنة بين «قمبيز» والملوك الآخرين السابقين قد ذُكرت في ثلاث فقرات من متن «وزاحر رسن» (سطر ٢٥، ٢٦، ٢٩)، والواقع أن «قمبيز» كان

«قمبيز»، وقد سماها باسم والدته «مروى». ويقولون: إن هذه المدينة في صورة درع طويل، وهي تفوق في حجمها الجزائر الأخرى في ستاد، وهي كذلك تحتوي على مدن طولها هو ٣٠٠٠٠ ستاد، وعرضها ألف هذه الأجزاء؛ وذلك لأنهم يقولون إن ليست بالقليلة وأعظمها شهرة هي «مروى».

يود — في الظاهر — أن يستمر في السير على حسب تقاليد الأُسرة المنحلَّة السابقة، وهي التي كانتْ عاصمتُها الملكية مدينة «سايس»،[٣] مقر ملك أسلافه من المصريين، كما كانت الإلهة «نيت» إلهة الأسرة الحاكمة بطبيعة الحال، وقد كان يدفن فيها ملوك «سايس» في داخل سور الإلهة «نيت» كما حدثنا عن ذلك «هردوت» (راجع: Herod. III 1169).

وعلى أية حال لا ينبغي لنا أن نُبالغ في الأهمية التي يَنسبها ملوكُ الفرس إلى «سايس» وآلهتها، وذلك على الرغم من أننا نرى أن الملك «دارا» قد أعلن نفسه ابن الإلهة «نيت» كما نقرأ ذلك في المتون التي وصلتْ إلينا عنه (راجع: المتن رقم ٨ سطر ١، ٣) والواقع أنه يجب علينا أن نذكر أن متون تمثال «وزاحر رسن» وضعها رجلٌ ساوي، وكان غرضُهُ من ذلك أن يُظهر فيها مناقبَه الحسنة، وأعماله الخيرة التي قام بها لآلهة المدينة، ولا نزاع في أن ما قَصَّهُ علينا هذا الساوي يتعارض مع منشور «قمبيز» الذي حدد فيه دخل المعابد (راجع: Ed. Spiegelberg, Verso d: Ed. Meyer Id. 309–311).

فلقد اختفت فجأة هبات الأفراد للمعابد التي كانت عديدة في عهد الأسرة السادسة والعشرين في زمن الفرس، ومن المحتمل أن ذلك كان نتيجة لمنشور «قمبيز»، ومن المحتمل إذن أن ما نُسب إلى «قمبيز» من أعمال العُنف في الحرب وما أتاه جنودُ الاحتلال من سلب ونهب في كل المعابد المصرية (راجع: Cowley Aram, Pa p. No. 30, 13–14 (date 408))، وكذلك على حسب ما جاء في «استرابون» نعرف أن «قمبيز» قد خرب معابد «هليوبوليس»، (راجع: Strabo 17, 1, 27 & Pline Hist. Nat. 36, 66; Recke A. Z. 1935 (p. 123 note 2)).

فقال متحدثًا عن «عين شمس»: «والمدينةُ الآن مهجورةٌ تمامًا وتحتوي على المعبد القديم الذي أُقيم على الطريقة المصرية، وهو يقدم لنا شواهدَ عدةً عن جنون «قمبيز» وكفره؛ فقد سعى لتخريبها بالنار وبالحديد فهَدَمَها وحَرَقَها في كل ناحية كما فعل ذلك بالمِسَلَّات، وهناك اثنتان منهما أُتلفتا إتلافًا تامًّا، وقد نُقلتا إلى «روما»، ولكن هناك مِسَلَّاتٌ أُخرى لا تزال موجودةً هناك أو في «طيبة»، وهي «ديوس بوليس بارفا» الحالية، ولا يَزال بعضُها منصوبًا، غير أنها قد أكلتْها النارُ تمامًا، وأُخرى ثاويةٌ على الأرض.»

---

[٣] ولا بد أن العاصمة الإدارية في هذا العهد كانت مدينة «منف» (راجع: Griffith Ryl. Pa p. 3, 79 note 4: 97, note 2, 182).

وكان دخل معبد الإلهة «نيت» غيرَ معترف به ولم يُعمل له حسابٌ بين المعابد التي احتَفظت بامتيازاتها؛ فقد كان الأمرُ الملكيُّ بإعادة الدخل المقدَّس لمعابد «سايس» في مجموعها «وهو كما يقول المتن حرفيًّا كما كانت من قبل» قد أتى بعد ذلك طرد الأجانب كلهم الذين كانوا قد احتلوا حرم الإلهة «نيت»، وعلى ذلك يجب أن يكون قبل المنشور الذي نحن بصدده الآن، وقد يجوز أن الصورة التي رسمها أمامنا «وزاحر رسن» ليست مطابقةً للأصل تمامًا، وبخاصة عندما نرى أنه قد وصف لنا الفاتح في صورة ملك صالح تقي يسير على حسب التقاليد، ولا نزاع في أن في هذا الوصف بعض المبالغات، وقد يجوز كل المبالغة كما نشاهد الآن في أيامنا أن الملوك الطغاة تُوصف بالتقوى والصلاح، وأقربُ شاهدٍ على ذلك ما شاهدناه في مصرنا الحديثة عندما وصف «فاروق» بالصلاح والتقى!

وعلى الرغم من هذه التحفُّظات فإن ما جاء في متن «وزاحر رسن» لا يُمكن أن نَشُكَّ فيه إلا بشيءٍ من الصعوبة.

موضوع قتل العجل «أبيس»

ولدينا متونٌ أُخرى ذكرناها فيما سبق، تؤكد احترام «قمبيز» للديانة المصرية،[٤] ونعلم من لوحة عثر عليها في سربيوم «منف» أن أحد عجول «أبيس» قد دفن باحتفال، في العام السادس من حكم «قمبيز» (٢٢ق.م).

وقد وصل إلينا غطاء تابوت إهداء هذا الفرعون للعجل «أبيس» هذا.

وعلى الرغم من كل هذا يحدثنا الكُتاب الأقدمون أن «قمبيز» قد قتل ثورًا مقدسًا، كما ذكرنا من قبل (راجع: Plutarch, de Iside. 44, Justin. 1, 9 Clement d’Alexandrie. Protrepticus 4, 52, 6).

[٤] راجع ما كتبه «هردوت» (Herod. III 34) إذ نجد أن «قمبيز» قد استشار وحي «بوتو». وتَدُلُّ الأحوالُ على أنه في عهد الملك «دارا» الأول قد نشأتْ في «مصر» عبادة مؤسس الأسرة السابعة والعشرين؛ أي أنه «قمبيز» كما ذكر ذلك الأستاذ «جريفث» (راجع: Ryl. Pa p. III p. 30 note 1 & p. 132, No 10). حيث نجد أنه قد جاء في ورقة محفوظة في مدينة «برلين» (راجع: Berlin Papyrus N. 3110 (pl. 1, 10, 1)) ويرجع عهدها إلى السنة الخامسة والثلاثين من عهد الملك «دارا» الأول، أن الملك «قمبيز» كان له كاهن روح مما يدل في هذا العهد على أنه كان يُعبد، ولا بد أن نلحظ هنا أن سياسة الأخمينيسيين كانت دائمًا حسنة بالنسبة لآلهة البلاد التي فتحوها (راجع: Ed. Meyer Gesch, des Altertums 3, (1912) 56–57).

فقد حدثنا «هردوت» بأن «قمبيز» عاد من حملته الفاشلة في بلاد النوبة ودخل في «منف» وقد كان المصريون في عيد عجل «أبيس» جديد ظهر لهم، وقد ظن «قمبيز» — كما ذكرنا آنفًا — أن المصريين كانوا في فرح بسبب فشل حملته، فجرح العجل «أبيس» وقد مات متأثرًا من جراحه بعد زمن قصير، وقد دفنه الكهنة على غير علم من «قمبيز».

وإنه لمن الصعب أن نوفق بين هذه القصة وبين ما جاء على اللوحات الجنازية التي وُجدت للعجول «أبيس» في هذه الفترة، فالثور الذي مات في عهد «قمبيز» لم يُدفن خفية (راجع: الوثيقة ٢، ٤)، وكذلك العجل الذي خلفه وهو الذي مات في السنة الرابعة من عهد الملك «دارا» الأول (الوثيقة ٥) لم يكن قد قتله بطبيعة الحال الملك «قمبيز» على أنه لو وُجد فراغ من الزمن بين هذين العجلين لَتأكدنا من تاريخ موت العجل الأول المزعوم، ولكن هذا ليس هو الوضع الحقيقي؛ إذ على العكس لو قَارَنَّا تاريخَ دفن العجل الأول وقد كان الدفن يحدث عادة بعد سبعين يومًا من تاريخ موت «أبيس»، وكان ذلك في السنة السادسة الشهر الحادي عشر اليوم العاشر من عهد الملك «قمبيز» بتاريخ ولادة «أبيس» الثاني، وكانت في السنة الخامسة الشهر الخامس في اليوم التاسع والعشرين من عهد الملك «قمبيز»؛ فإنا نجد أنه أثناء حوالي خمسة عشر شهرًا كان قد وُجد عجلان من عجول «أبيس» في وقت واحد، وهذا يَتنافى مع العقائد الدينية المصرية، وهي التي — على حسبها — لا يُمكن أن يظهر الإلهُ في حيوانين في آنٍ واحد.

فالعجل «أبيس» في الواقع يولد إلهًا، وتوارث الثيران المقدسة يجب أن يحدث لا من تتويج «أبيس» إلى تتويج آخر، بل من ولادة عجل «أبيس» إلى ولادة عجل «أبيس» آخر، وما لدينا من لوحات جنازية نادرة متتابعة للعجول «أبيس» تؤكد هذا المبدأ؛ فاللوحتان رقمي ١٩٣، ٢٤٠ المحفوظتان بمتحف «اللوفر» قد عثر عليهما في السربيوم بمدينة «منف» (راجع: Rec. Trav., 22 (1900) 20, 21, I,d, 167).

وتفهم من نقوشهما أن عجلًا منهما قد وُلد في اليوم التالي من موت سلفه، هذا ونفهم كذلك من اللوحات الجنازية التي عثر عليها في بوخيوم «أرمنت» (أي مدفن عجول «أرمنت») (راجع: Mond. And Myers, The Bucheum Vol. 2; Herog. Inscr. By Fairman. 28–34, See especially the telas 7–12).

إنه في مدة معلومة كانت تؤلف سلسلة متتابعة لعجول، ولكن لم نجد فيها ما يثبت وجود عجلين مقدسين في آنٍ واحد.

ومن ثم فإن لوحتي «أبيس» في العهد الفارسي يوجد فيهما تناقضٌ يحتاج إلى إيضاح،[٥] وأولُ ما نَلحظه في هذا الموضوع هو: أن تاريخ موت «أبيس» الذي مات في عهد «قمبيز» لم يُوجد على اللوحة (راجع: الوثيقة رقم ٣)، وهذه اللوحة لم يبق عليها إلا تاريخ الدفن، وإذا طرحنا من هذا التاريخ سبعين يومًا، وهي الأيام التقليدية اللازمةُ للتحنيط، والمعروفة لنا من لوحاتٍ أُخرى وُجدت في السربيوم؛ فإنا نحصل على تاريخ موت العجل، وهو لا يتفق مع تاريخ ولادة العجل الذي جاء ذِكرُه على اللوحة رقم ٥؛ إذ كان في الواقع بعد ذلك بحوالي خمسة عشر شهرًا تقريبًا، فهل لا يمكننا في هذه الحالة أن نَفرض أن الفترة التي وقعت بين الموت والدفن للعجل «أبيس» الذي جاء ذِكرُه في اللوحة رقم ٣؛ كانت أكثر من سبعين يومًا، وأن «أبيس» هذا كان قد مات قبل ولادة خلفه؟

ومما يؤسَف له أن اللوحة رقم ٣ قد وصلت إلينا في حالة رديئة جدًّا، مما لا يَسمح لنا أن نؤكد هذه النظرية التي فرضناها هنا، ونَوَدُّ أن نَلفت النظر هنا إلى أنه لا يوجد في اللوحات الجنازية الأُخرى للعجل «أبيس» ما يُقابل القِطَع التي بقيت لدينا، وهي التي يُمكن قراءةُ ما عليها (الأسطر ٥–٧)؛ إذ نجد فيها أمرًا ملكيًّا والأمر بتنفيذه، وهذا الأمر خاص بدفن «أبيس»، فإذا تغاضَينا عن الصيغ الدينية العادية التي نجدها في مثل هذه النقوش؛ فإننا نجد أن المتن رقم ٣ يُوحي بأن دفن العجل «أبيس» كان يجري في أحوالٍ غير عادية استوجبتْ تَدَخُّل الملك، فهل كان هذا الأمرُ خاصًّا بتأخيرٍ في جنازة «أبيس» والثور المقدس الذي ذُكر على اللوحة رقم ٥ قد وُلد في اليوم التاسع والعشرين من الشهر الخامس من السنة الخامسة من عهد «قمبيز»[٦] (= ٢٩ مايو ٥٢٥ق.م)، وقد كان يجب أن يكون سلفه وهو العجل صاحب اللوحة رقم ٣ قد مات على حسب القاعدة قبل هذا التاريخ.

---

[٥] وقد اعترف «مابرو» (راجع: Maspero Hist. Anc. 3, 668 note 4) بوجود عجلين «أبيس» في وقت واحد، غير أنه اعترف بأن هذا أمرٌ شاذٌّ (راجع: كذلك: Revillout Notice des Pa p. Dem. p. 386–387).

[٦] ومنذ أن وضع «فيدمان» كتابه عن «مصر» (Wledmann Gesch. Aeg. 226–227) استعمل المؤرخون هذا التاريخ لتحديد تاريخ فتح «مصر» (راجع: عن ذلك «بورخارت» Borchardt, Die Mitteill. Zur Zeitlichen Festlegung von Punkten der Aegyptischen Gesehich. Und ihre anwendung. p. 64). حيث يقول: إنه في ٢٩ مايو ٥٢٥ق.م، كان «قمبيز» قد اعترف به فعلًا ملكًا على «مصر»؛ وذلك لأنه يحمل لقب ملك الوجه القبلي والوجه البحري، وأن هذا اليوم كان قد أرخ به على حسب سني حكمه غير أن المتن لا يقول إن «قمبيز» كان يوجد في هذه اللحظة في وادي النيل، بل يصف حادثًا بعيدًا عن شخص الملك، وهو ولادة عجل «أبيس»، وقبل كتابة هذا المتن بثماني سنين.

والواقع أن هذه اللوحة معاصرةٌ للفتح الفارسي لـ «مصر»، وهو الذي قد أُرخ — بدون شك — في مايو–يونية سنة ٥٢٥ق.م، وقد عرفنا ذلك من ثلاث أوراق ديموطيقية مؤرخة بشهر هاتور–طوبة من السنة الثانية من عهد «بسمتيك» الثالث، والظاهر إذن أنه في شهري مارس–مايو سنة ٥٢٥ق.م كان هذا الملك لا يزال يحكم «مصر» (راجع: Ryl. Pa p. 1, 3.24) ولما كان لم يمكث إلا شهورًا معدودات، وأن مدة حكمه كانت متداخلة في سنتين مدنيتين فإن الفتح الفارسي لا يمكن وضعُهُ في أكثر من نهاية الشهر السادس من السنة الثانية من حُكم هذا الفرعون (أمشير = يونية)، ويؤكد لنا ذلك المصادرُ القديمةُ، وهي التي على حسبها حدث الفتحُ قبل نهاية شهر يونية (راجع: Prasek, Forschung zur Gesch. Des Alterthums 1, 58).

ومن الممكن أنَّ الفوضى التي سادت البلاد المصرية في أوائل الفتح الفارسي قد سببتْ تأخيرًا كبيرًا في إقامة الحفل بجنازة العجل «أبيس»، وهذا التأخيرُ الذي كان يزيدُ على سنةٍ قد لا يدعو إلى الدهشة كثيرًا إذا ألقينا نظرة على المتن رقم ٦، وهو الذي يُظهِر لنا أهمية التجهيزات التي كان يَستلزمها الاحتفالُ بدفن «أبيس» (راجع: Kees, Kulturgeschichte, 74 Note 2)، وهذه الطريقةُ التي اتُّبعت هنا لحل مسألة وجود عجلَي «أبيس» في آنٍ واحدٍ، إن هي في الواقع إلا حَل موضوع شاذ بآخر مثله شاذ، ولذلك يجب أن ننظر إلى هذا الموضوع بعين حذرة إلى أن يأتي المتنُ الذي يحل هذا اللغز.

وقد ظن الأثري «فيدمان» (Gesch. Agy p., p. 229) أن العجل «أبيس» الذي دُفِنَ في السنة السادسة من عهد «قمبيز» كان قد قتله الملكُ نفسه، ولا بد أن حياة هذا العجل القصيرة كانت قد اندمجتْ في حياة العجل الذي مات في عهد الملك «دارا»، وأن هذه خدعةٌ كان الغرضُ منها محو آثار الجريمة التي ارتكبها «قمبيز»، ويقول «فيدمان»: إن الغش

والواقع أنه في الوثائق الديموطيقية التي جاءتْ بعد الفتح الفارسيِّ؛ قد وجدنا أن السنين الأخيرة من حُكم «أمسيس» وتواريخ حكم «بسمتيك» الثالث — وهما معاصران لحكم «قمبيز» في بلاد «فارس» — قد حُذفت ووُضع مكانها سنو حكم الملك الفارسي.

قارن السنة ٢ (٥٢٨ق.م = السنة ٤٢ من حكم أمسيس) والسنة ٨ (٥٢٢ق.م) من عهد «قمبيز» في البردية رقم ٥٠٠٥٩ الموجودة بمدينة «القاهرة» (راجع: Cat, Geu. Spiegelberg, Dem Denkmaler 3, 42–45; Griffith Ryl. Pap 3, 105-106). ومن الممكن كذلك أنَّ نفس التغيير قد حدث في المتن رقم ٥، وعلى ذلك لا يُمكننا أن نؤكد أن التاريخ ٢٩ مايو سنة ٥٢٥ق.م كان الغزاةُ فيه فعلًا في «مصر»، وأن «بسمتيك» الثالث لم يكن جالسًا فعلًا على عرش الكنانة.

قد ظهر لنا في لوحة الحيوان الذي قُتل، ويعني بذلك: اللوحة رقم ٣، وهي التي وضعها الكهنةُ سرًّا، والأشهُر الخمسة عشر التي وُجد فيها في وقت واحد عجلَا «أبيس»؛ إن هي في الواقع إلا مدة حياة الثور الذي صرعه «قمبيز».

ويقول «بوزنر»: إنه يجب أن تُهمل هذه النظرية؛ وذلك لأن الترجمة التي قَدَّمَها لنا «فيدمان» للوحة رقم ٣ تُبرهن على أن التاريخ الذي جاء في السطر الثامن قد أخطأ فيه، يُضاف إلى ذلك أن التصحيحات التي عُملت في الأسطُر الأربعة الأُولى قد أصبحتْ مؤكدة، وذلك بموازنة البقية الباقية منها، التي لا تزالُ ظاهرة بما يُقابلها من مُتُون مماثلة.

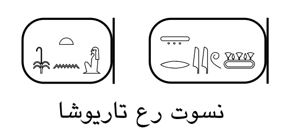
ومن هذه الأسطُر نفهم أن التحنيطَ والنقوشَ الخاصة بالعجل «أبيس» هذا قد عملت رسميًّا، ويؤكد ذلك نقوش التابوت (الوثيقة رقم ٤) التي لم تكن معروفة في عهد «فيدمان»، وعلى حسب هذه النقوش نَفهم أن هذا التابوت كان قد أهداه «قمبيز» لهذا العجل «أبيس». وحتى لو فرضنا أن نقوش اللوحة والتابوت كاذبةٌ — وفي ذلك شكٌّ — فإن وجود هذا التابوت المصنوع من الجرانيت وحجمه الضخم يجعل نظرية «فيدمان» — القائلة إن «أبيس» هذا كان قد دُفن خفية — قابلةً للشك الكبير، يُضاف إلى ذلك أن التاريخ الذي جاء في السطر الثامن من اللوحة له معنًى هام؛ إذ يُبرهن على أن «أبيس» الذي ذُكر على اللوحة قد عاش حوالي تسع عشرة سنة لا خمسة عشر شهرًا كما ظن «فيدمان»، وعلى ذلك لا يكون هو العجل الذي قتله الملك؛ لأنه على حسب ما جاء في «هردوت» قد حدث القتل بعد ولادة «أبيس» أو في أثناء أعياد التتويج، وهي الأعيادُ التي كانت تُقام عادةً بعد مُضِيٍّ بضعة أشهُر من ولادة «عجل أبيس» جديد — وقد كان على أكثر تقدير مدة شهرين على حسب اللوحة ٣٤ — (راجع: Rec. Trav. 22, 11) وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يومًا على حسب اللوحة رقم ١٩٣ (راجع: Ibid. 20–21) وتسعة أشهر ويومين على حسب اللوحة رقم ٢٤ (Ibid. 167) وتسعة أشهر وأحد عشر يومًا على حسب اللوحة رقم ١٩٢ (Ibid. 20)، وإذا أردنا أن نجمع حياة «أبيس» صاحب اللوحة رقم ٣ مع حياة خلفه، فإن حياة العجل الأخير تكون على ذلك حوالي السنة السابعة والعشرين من عهد الملك «أمسيس» الثاني.

وعلى أية حال فإن هذه الوسيلة التي كان الغرض منها مَسْحَ آثار الجريمة لا يمكن أن تكون قد حدثت إلا منذ اللحظة التي تكون فيها ذكريات قتل «أبيس» بيد قمبيز قد بدأت تتناسى بعض الشيء؛ أي في عصرٍ كان يجبُ فيه ألا تكون سببًا لمضايقة نُفُوذ الفاتحين، على أن هذه الحيلة التي أتى تأثيرُها متأخرًا وغيرَ مؤكد يظهر أنها كذلك قليلةُ الاحتمال، وكذلك

قليلةُ الجدوى، وعلى أيَّة حال فإن الحل الذي اقترحه «فيدمان» وكذلك الحلول الأُخرى التي يمكن أن يتصورها الإنسانُ ليجعل متن اللوحة يتفق مع ما جاء في قصة «هردوت»؛ تكون من باب الحدس والتخمين الخطر، وإنه لمن الحكمة أن ننظر إلى ما جاء في قصة «هردوت» بعين الشك في تفاصيلها ومجموعها.

ونستخلصُ من هذا العرض الطويل أن المحاولات التي عُملت للتوفيق بين ما جاء في النقوش الهيروغليفية وبين ما جاء في قصة «هردوت» وما نقله لنا «ديودور» و«استرابون» وغيرهم؛ لم تقدم لنا هنا نتائجَ مرضيةً يَرتاح إليها النقدُ العلميُّ، والواقعُ أن حُكْمَ «قمبيز» كما جاء في المتون المصرية يدلُّ — على ما يظهر — على أنه كان ملكًا أكثر حكمة وروية مما افتراه عليه الكُتاب الأقدمون من أقاويل، ومع ذلك قد يكون كل ما نسبه لنفسه بوصفه فرعونًا لا يخرج عن كونه كالفراعنة الآخرين، يقولون ما يحلو لهم، ويخفون ما شاءوا أن يخفوا من مخازٍ وأعمالٍ مشينة؛ ولأنهم آلهةٌ والآلهةُ لا تخطئ.

عصر الملك «دارا» الأول



نسوت رع تاريوشا

ذكر «مانيتون» أن الملك «دارا» الأول حكم ٣٦ سنة (راجع: Unger. Chronologie des Manetho p. 285: Wiedmann Geschichte. p. 66) وأعلى تاريخ له وجد على الآثار المصرية هو السنة السادسة والثلاثون (راجع: Inscriptions du Ouadi Hammamat, Couyat-Montet p. 90, No. 146 etc.) ولا نزاع في أن الوثائق المصرية القديمة قد أظهرت لنا الملك «قمبيز» في صورة مختلفة عن الصورة التي صورها لنا الكُتاب القدامى من الإغريق والرومان، وعلى ذلك فإنها تؤلف مستندًا ثمينًا لتاريخ التسلُّط الفارسيِّ على وادي النيل، ولكن عندما نصل إلى عهد الملك «دارا» نجد أنه على الرغم من قِلَّة المصادر المصرية الخاصة به بالنسبة لسلفه؛ فإنها تُقدم لنا حقائقَ جديدةً، كما أنها لا تغير قط الفكرة التي يمكن أن نكوِّنها عن عهده، على حسب ما جاء في المصادر غير المصرية، كما حدث في عهد «قمبيز»، فتدلُّنا الوثائقُ المصرية على أنه في عهد الملك «دارا» عاد «وزاحر رسن» إلى «مصر» بأمر من الملك لأجل أن يُعيد تأسيس مدرسة «سايس» (راجع: الوثيقة، أسطر ٢٤-٢٥).

وهذا العملُ كان يؤلف — على ما يظهر — جزءًا مِن مجموع الإجراءات التي اتخذها «دارا» لأجل تحسين حال البلاد المصرية في الداخل، ويحقُّ لنا أن نُقرِّبَ هذا الرأي من فقرة جاءتْ في الحوليات الديموطيقية، (راجع: Spiegelberg, Die Sogenante Chronik

Verso C, 6.16 cf: Ed. Mey.er Sitzungsber. Pr. Ak. Wiss. (1915) 304–309, Reich Mizraim I (1933) 178–182). حيث نجد أن الملك «دارا» قد وكل إلى الشطرب أمر سَنِّ القوانين المصرية، ويرجع تاريخ ذلك إلى السنة الثالثة من عهد «دارا»[1] الأول (٥١٩ق.م)، وربما كان هذا التاريخ هو التاريخ التقريبي الذي عاد فيه «وزاحر رسن» إلى «مصر».

وتدلُّ شواهد الأحوال على أنه بعد موت «قمبيز» قامت في «مصر» ثورةٌ نَزعت فيها عن نفسها نيرَ الحكم الفارسي مؤقتًا، وتفصيل ذلك على ما يظهر (راجع: Journal of Near Eastern studies. Vol. 2 Part 4, p. 307 ff)، أنه في خلال الثورة التي قام بها «نبوبخود نصر» الثالث ملك «بابل» على الملك الأول ما بين أكتوبر وديسمبر سنة ٥٢٢ق.م (Herod. IV 145)، انتهزت «مصر» هذه الفرصة ونزعت عن عاتقها نير الحكم الفارسي، وعلى أية حال فإن شطرب «مصر» المسمى «أرياندس Aryandes» هو الذي كان قد أعاده «دارا» إلى الحكم لم يشاطر في هذه الثورة بقلبه، بل كان يعمل بوصفه ممثلًا لقمعها من قبل «دارا»، والواقعُ أن لدينا فقرة من المؤرخ «بوليانوس Polyacnus» كان يعتقد منذ زمن طويل أنها تُشير إلى اشتراك «أرياندس» في هذه الثورة (راجع: Wiedemann Geschichte Agypt, p. 236).

ولكن يجب أن نفهمها الآن على عكس ذلك؛ إذ قد جاء فيها أن المصريين قد أَبَوا احتمال فظائعه وثاروا عليه بسببها، ولا نزاع في أن الثورة التي قام بها المصريون (كما ذهب الأستاذ أو لمستيد) على حسب وثيقة «وزاحر رسن» الذي كان يجله «دارا» كثيرًا كانت على دارا وعلى أريندس، ومن ثم لم يكن يُذكر عنه إلا كل ثناء عاطر — كما أسلفنا — والواقعُ أنه أخذ يُحدثنا بعد أن ذكر ما قام به مِن أعمالٍ عظيمةٍ وما عمله له «قمبيز» أنه عمل لوالده ولوالدته، كل شيء كان يمكن أن يرغب فيه والده عندما حَلَّ الاضطرابُ بهذه المقاطعة (يقصد «سايس»)، وذلك خلافًا للاضطراب العظيم الذي حل بكل أرض «مصر»، وفي الجملة التي تلي ذلك يذكر لنا «وزاحر رسن» جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا»، ومن ثم نفهم أنه كانت توجد بمصر اضطراباتٌ عند تَوَلِّي «دارا» عرش

[1] وقد ذكرت نفس السنة في الورقة الديموطيقية رقم ٤١ من القائمة التي وضعها «جريفث» (راجع: Ryl. Pa p. 3, 25–26): الذهب والفضة التي تركت في معبد «إدفو» (؟) في السنة الثالثة من عهد «دارا» وهل هذه الوثيقة تنسب إلى النظام الذي قام به شطربة «مصر» (راجع: Revillout Notiece, 407).

الملك، ولن نكون قد ذهبنا بعيدًا عن الصواب إذا فسرنا هذه الاضطرابات بأنها الثورةُ التي قام بها المصريون على «دارا» والشطرب الفارسي «أرياندس»، هذا، ويستمر «وزاحر رسن» في حديثه قائلًا:

«دارا» … أمر بالعودة إلى «مصر»، وهذه العبارة لها أهميةٌ عظيمة؛ وذلك لأن هذا المصري «وزاحر رسن» الذي كان مواليًا للفُرس الذين أغدقوا عليه النعم العديدة؛ قد وصل إلى مرتبةٍ لم يكن في استطاعتِهِ أن يصل إليها إذا كانت «مصرُ» قد بقيتْ مستقلةً، كان قد هرب من بلاده خلال الاضطرابات، ومن المحتمل أنه كان قد هرب بصحبة «أرياندس»، ولم يكن في استطاعتِهِ العودةُ إليها إلا عندما أمره «دارا» بالعودة؛ أي بعد أن كان قد قضى على الثورة، وبذلك أصبح الموظفون الموالون للفرس في طمأنينة على حياتهم.

والفقرة المشارُ إليها نقلًا عن «بوليانوس» تذكر أنه كان من الضروريِّ؛ لأجل إخماد هذه الثورة أن يجتاز الملك «دارا» صحراء بلاد العرب ويصل إلى «منف» في الأيام التي كان المصريون فيها يَلبسون الحداد على العجل «أبيس» المتوفَّى، ولما وصل هذا العاهلُ إلى «مصر» منح مبلغ مائة تلنت من الذهب لقائد العجل «أبيس»، وقد دهش الشعب المصري من هذا السخاء، حتى إنهم أحجموا عن الاستمرار في ثورتهم على الفرس.

وهذه الفقرة كانت لسببٍ وجيهٍ لها علاقاتٌ بمتن مصري منذ زمن بعيد، وعلى حسبه نجد أن عجل «أبيس» كان قد مات ودُفن في السنة الرابعة من حكم الملك «دارا» (راجع: Posener Ibid No. 5, p. 36) وعلى ذلك كان لا بد أن نستنبط أن «دارا» كان قد وصل إلى «مصر» ما بين ٣١ أغسطس و٨ نوفمبر من عام سنة ٥١٨ق.م.

ولا بد أن نعرف أن هذا الفصل من السنة في «مصر» لم يكن ملائمًا كل الملاءمة؛ وذلك لأن الفيضان يكون في قمة ارتفاعه في سبتمبر، وفي هذا الوقت تكون أراضي الدلتا مغمورةً بالمياه، ولكن «بوليانوس» يقول: إن «دارا» اجتاز الصحراء العربية، وهذا التعبيرُ يدلُّ في الأزمان القديمة على أنه كان يَشمل الأراضيَ التي تقعُ شرقي الدلتا، وعلى ذلك كان في مقدور «دارا» أن يتفادَى أرض الدلتا التي كان يغمرُها الفيضانُ، وبذلك كانت طريقه — بلا نزاع — عبر وادي «طليمات»، ومن الجائز أن مسألة إصلاح القناة القديمة — وهي التي كانت تمر بوادي «طليمات» — قد عملت في هذا الوقت.

والآن لم يعد بعدُ موضوع تاريخ زيارته من الموضوعات الرئيسية؛ إذ في مقدورنا أن نضرب صفحًا عن موضوع إقامته تمثالًا لنفسه أمام تمثال «سيزوستريس» الذي أخضع تمامًا عددًا كبيرًا من الأُمم التي أخضعها «دارا» لسلطانه، والذي قهر السيثيين Sethians

أيضًا، وهذا عملٌ عظيمٌ قد عجز «دارا» عن إتيانه، (Herod. II, 110; Diod. 1, 58)؛ وذلك لأنه في وقت دُخُوله «مصر» عام ٥٠٨ق.م، لم يكن — في الواقع — قد هاجم سيثيي «أوروبا».

ولكن لدينا عبارةٌ في الحوليات الديموطيقية لا تُعارض دخولَ «دارا» «مصر» متأخرًا في عام ٥١٨ق.م، وهذه العبارة ما يأتي: «أرسل «دارا» إلى «مصر» شطربة في السنة الرابعة.» وأمر بجمع القوانين القديمة المصرية، وهذا الأمر يظهر جليًّا على أنه كان قد أرسل من خارج «مصر»، ولكن في الوقت نفسه كانتْ وقتئذٍ قَدْ أصبحتْ «مصر» ثانية إقليمًا فارسيًّا، لها شطربها الخاص، والواقع أن السنة الرابعة من حكم «دارا» في «مصر» كانت قد انتهتْ فعلًا في ٣٠ ديسمبر سنة ٥١٨ق.م، وإذا فرضنا أن «دارا» كان قد دخل البلاد المصرية ما بين ٣٠ أغسطس، ٨ نوفمبر من هذه السنة فإنه لم يكن لديه وقتٌ لوضع الأُمُور في نصابها، فكان عليه أن يُعيد «أرياندس» شطربة على «مصر»، ثم يعود هو إلى «آسيا»، ومع ذلك فقد أصدر أوامر في «مصر» نفسها في نفس السنة.

وعلى ذلك فإنه من الممكن أن نجبَر على قبول الاقتراح السابق، وهو أن النواة الحقيقية التي جاءتْ في قصة «بوليانوس»، وهي أنه من المحتمل أن عجل «أبيس» قد مات في نفس السنة التي وصل فيها «دارا» إلى «مصر» «وذلك على الرغم من أن وصوله كان قبل ذلك بأشهُر في الشتاء».

وكذلك لا بد أن نستنبط أن الثورة قد قُضِيَ عليها بنجاح بوساطة إجراءات أعنف مما جاء في قصة «بوليانوس».

ومهما يكن من أمر فإن موضوع اشتراك «أرياندس» في ثورة المصريين على الفرس قد أصبح أمرًا مفروغًا منه، ويمكن الآن أن نعتبر — على ضوء جديد — مخاطراته التي جاءت بعد، وذلك أنه بعد انقضاء سِنِينَ على الحوادث التي ذكرناها الآن وحوالي الوقت الذي كان فيه «دارا» نفسه مشتغلًا في حروب مع السيثيين، سعى «أرياندس» إلى أن يُظهر ولاءه للملك؛ لِمَا أَسبغَه عليه مِن نِعَم بالاستيلاء على بلاد «لوبيا»؛ لتكون مُلك «فارس»، وقد اتخذ لذلك حجة، أنه كان يُساعد حاكم «برنيقيا» (برقة) الذي كان في زمنه، وهذه الحجة لم يقبلها حتى «هردوت» (Herod. IV, 145)، وأمر جنوده بالسير نحو «برقة»، وقد استسلمت بعد حصارٍ دَامَ تسعةَ أَشْهُر، ثم وصل جيشُهُ بعد ذلك مظفرًا إلى «إيوسبريس Euesperis» «بنغازي الحالية» (راجع: Oris Bates. The Eastern Ly jians p. 52) وعلى أية حال فإن جيشه عندما قفل راجعًا إلى «فرتيكا» اشتبك في مناوشات لا نهاية لها

مع السكان الأصليين، ومن أجل ذلك أمر «أرياندس» جيشه بالعودة إلى وطنه، وقد كانت عودته هذه على ما يظهر قد تمت بشقِّ الأنفُس.

وعلى أية حال فإن الحملة قد أصابتْ بعض النجاح، هذا وقد أرسل «أرياندس» بعض الأسرى البرقيين إلى الملك «دارا»، وقد أرسلهم الأخيرُ إلى بلاد «بكتيريا» «الفرس» حيث كانت توجدُ مستعمرةٌ لهم هناك كان يُمكن رؤيتُها في أيام «هيرودوت».

وحوالي نفس هذا الوقت كانت «قناة السويس» قد تم إنشاؤها، وعلى ذلك كانت اللوحات التذكارية قد أقيمت على شاطئيها، وقد كتب ضمن قائمة المديريات الفارسية فيها إقليم «لوبيا» كما سنرى بعد، وتدل شواهد الأحوال على أنه فيما بعد قد اتهم «أرياندس» شطرب «مصر» بالخروج على «فارس» وحكم عليه فيما بعد بالإعدام.

رحلة «دارا» إلى «مصر»

ويحدثنا «بوزنر» عن رحلة «دارا» إلى «مصر» فيقول: إنه على حسب ما جاء في نُقُوش «وزاحر رسن» كان الملك «دارا» في هذه اللحظة في «عيلام» (سطر ٤٣) وقد جاء «دارا» إلى «مصر» على حسب نظرية «فيدمان» في السنة التالية، وهذا التاريخ قد وُضع على حسب ما جاء في فقرة في «بوليانوس» (Polyaenus 7.11.7) وهي التي على حسب ما جاء فيها يكون الملك قد وصل إلى «مصر» بعد موت عجل «أبيس» — كما ذكرنا من قبل — وهذان المتنان يَذكران نفسَ الحادث، على أن الحصول على تاريخ الرحلة الملكية بهذه الكيفية يعترضه عقبات (راجع: Herod. IV 145 and How and wells. A Commentary on Herod. 1, p. 356) ولم يحز إجماعًا تامًّا، ومن جهةٍ أُخرى فإن قيمةَ ما قَصَّهُ «بوليانوس» قد اعترض عليه «جريفث» (راجع: Ryl. Pa p. III p. 26).

أما اللوحة رقم ٥ فإنها — في حد ذاتها — لم تُقدِّم لنا أية معلومات تاريخية محددة، ومع ذلك فهناك تفصيلٌ لا بد مِن ذِكره، جاء على هذه اللوحة؛ فقد ترك في الصف الأعلى منها مكان العلم الذي كان يجب أن يحتوي على الاسم الحوري لملك «خاليا»، والاسم الملكيُّ الوحيدُ الذي جاء ذكرُهُ في المتن هو «دارا»، وقد كتب بالمصرية (Ryl. III p. 26) والظاهر أنه منذ وصول «دارا» إلى «مصر» كان قد أمر بتأليف ألقابه الفرعونية على غرار ما فعل «قمبيز».

وعلى ذلك فإنه ليس من المستحيل أن النقش كان سابقًا لرحلته إلى «مصر».

وتُنسب إلى «دارا» — بوجه عام — الألقابُ الملكيةُ التي تُوجد على الجدار الخارجيِّ الغربي لمعبد الواحة الخارجة، وبداية المتن قد ضاعتْ، واسمه الحوري قد اختفى، والأسماء الأربعة التالية هي ... رب التيجان: ابن «آمون» المختار ابن «رع» في داخل برافد (؟) حور الذهبي: سيد الأراضي المحبوب من آلهة «مصر» وآلهتها، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، شعاع «رع» والابن الحقيقي الذي يحبه «دارا»، الفتي في قوته، ليته يعيش أبديًّا ... إلخ (Posener Ibid. 176 N. 7)، ومن الجائز أن هذا النقش كان قد عُمل قبل سفر «دارا» إلى «مصر».

وهذه اللوحةُ السابقة الذِّكر هي الوحيدةُ التي وصلتْ إلينا عن موت عجل «أبيس» في مدة حكم «دارا»، ولكن على حسب ما جاء في لوحات أُخرى لأفراد نعرف أن عجلًا آخر قد مات في السنة الرابعة والثلاثين من حكم هذا الفرعون فمثلًا لدينا لوحة من السربيوم محفوظة الآن بمتحف «اللوفر» (راجع: Rec. Trav. 21, p. 67) ذُكر فيها مراسيم الدفن، وهذه المتونُ لا يمكنُ تقريبها مما ذكره «بوليانوس» الذي ذكرناه فيما سبق (٧. ١١. ٧) وهو الذي يذكر أن «دارا» قد جاء «مصر» ليقمع ثورة الشطرب «أرياندس»، والواقع أن إعدام «أرياندس» قد حدث قبل تأليف لوحات سنة ٣٤، وذلك لأنه في السنة الثلاثين كانت مصرُ محكومة بالشطرب «فراندات pherendate» أقرن (pa p. Dem. 13540 du muse de Berlin Spiegelberg Sitzungsber Pr. Ak. Wiss (1928) p. 605–606) وهذا يتفق مع ما ذكرناه عن «أرياندس» وعدم قيامه بثورة بل على العكس من ذلك.

القائد «أحمس»

ولا نزاع في أن المتن رقم ٦ يصف لنا دفن أحد هذين العجلين، وهذا المتن هام؛ لأنه يذكر الغُزاة (السطر رقم ٥)، وكذلك لأنه جاء فيه ألقابٌ هامة لـ «أحمس» هذا، فقد كان يلقب المشرف على الجنود، وجاء ذكرُهُ في لوحة أُخرى (اللوحة رقم ٧) أنه المشرف الأعلى للجنود، و«أحمس» هذا هو القائد الذي قاد الحملة التي أرسلها الشطرب «أرياندس» على «برقة» (Herod. 4, 167, 201, 203) غير أن هذا الرأي فيه شكٌّ؛ فقد جاء على حسب «هردوت» أن القائد «أمسيس» «أحمس» هو «مارافين Maraphien»، وهذا يدلُّ على أنه من أصل فارسيٍّ (راجع: Ibid. 1, 125)؛ وذلك لأن اسم «أحمس» كان اسمًا شائعَ الاستعمالِ في هذا العهد، وعلى أية حال فإنه على حسب ما جاء في «بوليانوس» كان قائد الجيش المصري يُدعى «أرسامي Arsames»، وقد وقفا: «أحمس» والطبيب «وزاحر رسن» في العمل على

احترام آلهته وبث الخوف منهم في نفوس الذين كانوا في خارج البلاد المصرية (اللوحة رقم ٦ سطر ٤–٥) وقد ادعى أنه أمر بمجيء حُكَّام المدن والمقاطعات إلى «منف» لجلب الهدايا إلى «أبيس» المتوفى. وهذا القولُ إذا كان صحيحًا فإنه يُعَدُّ شاهدًا بما كان يتمتع به «أحمس» من سلطة عظيمة عند حكام الفرس في «مصر»، ومن المرجَّح أنه لم يكن إلا منفذًا لأوامر الشطرب أو الملك. وعلى أيَّة حال فإنه من المهم أنْ نرى مصريًّا يحتل مثل هذه المكانة الهامة في الإدارة الفارسية، كما أنه من المهم أن نُشاهد مرة أُخرى الرعاية والاهتمام والاحترام التي كان يُظهرها الفاتحون نحو ديانة بلد مقهورة (Ryl. 3, p. 35 No. 3).

الموظفون الفرس في «مصر»

ولا نزاع في أنه كان يوجد في تلك الفترة عددٌ عظيمٌ من حُكَّام المدن والمديريات المصرية، من الذين أتى بهم «أحمس» إلى «منف» لم يكونوا مِن أصل مصري، والواقعُ أننا نعرف من المتون التي نُقشت على صخور «وادي حمامات» واحدًا من هؤلاء، وهو حاكم «قفط» المسمى «أتياواهي» بن «أرتاميس» وتدعى أُمُّه «قنزو» (النقوش ٢٤–٣٠)، وقد عاش هذا الموظف في عهد كل من الملك «قمبيز» والملك «دارا» والملك «أكزركزس» (المتن ٢٨)، وآخر تاريخ عُرف لهذا الموظف هو السنة الثالثة عشرة من حكم «أكزركزس» عام سنة ٤٧٣ق.م، وقد كان كذلك أخُوه الأصغرُ موظفًا فارسيًّا، وقد ذُكر مرة واحدة (سنة ٤٧٦ق.م)، ثم ذُكر بمفرده في عهد الملك «أرتكزركزس» في النقوش ٣١، ٣٢، ٣٤، وتمتد النقوش الخاصة بهذين الفارسيين إلى سبع وثلاثين سنة، وهذا يوضح لنا التأثير المتزايد للبلاد المفتوحة على الأجانب.

ويُلحظ أن النقوش الأُولى الخاصة بالموظف «أتياواهي» (النقوش ٢٤–٢٦) لا تحتوي إلا على التاريخ والاسم، أما لقب الموظف فقد نُقل عن الآرامية.

هذا، ونجد في السنة العاشرة من عهد «أكزركزس» أن «أتياواهي» هذا يُضيف صورة الإله «مين» إلى نُقُوشه (النقش ٢٧) ونقرأ في السنة الثانية عشرة دعاءً مختصرًا، كتبه نفس الموظف للإله «مين» (النقش ٢٨).

هذا، ونجد في نقوش «أريوارتا» — وهي أحدث من السابقة — أنها مصحوبةٌ بصورة إله (٣١، ٣٣، ٣٤) وقد ترجم «أريوارتا» هذا لقبه إلى المصرية وهو «زدحر» (تاخوس) (النقش ٣٣) واتخذه لنفسه، وقد تضرع لكل من الإله «مين» (٣٤) والإله «مين حور» والإلهة «أزيس» (٣١، ٣٢) والإله «آمون رع» ملك الآلهة.

السياسة الدينية التي نهجها الملك «دارا»

كانت سياسة الفرس تقومُ على نهج سديد من حيث احترام موظفيهم للديانة المصرية، وهذا النهجُ قد وضعه الملك «دارا» وسار على مقتضاه، ولا نزاع في أن ذلك قد أرضى المصريين تمامًا، وبخاصة عندما نعلم أن هذه كانت النقطةَ الحساسة عندهم، ومن ثم نرى في عهد «دارا» أن الإلهة «نيت» قد حافظتْ على مكانتها الممتازة بين الآلهة المصريين في تلك الفترة من تاريخ البلاد، وقد أعلن الملك أنه ابنُ هذه الإلهة كما جاء في اللوحة الثامنة (سطر ١–٣). وإنه لمن المهم أن نرى أن اللوحة رقم ٩ — وهي التي نجد فيها تشابهاتٍ عدة بما جاء في اللوحة الثامنة — قد أحلت صورة العقيدة الخاصة بالإله «أهورامازدا» محل الصيغ التي تعبر عن تمسُّك الملك بالآلهة المصريين.

هذا، وقد تحدثنا فيما سبق عن إصلاح مدرسة «سايس»، ونجد كذلك أن المحاريب الأُخرى لم تنس، ولا نزاع في أن الملك «دارا» هو الذي شرع في بناء معبد للإله «آمون رع» في الواحة الخارجة، وقد عثر على صاجة في «منف» وهي الآن في متحف «القاهرة» وقد نُسبت خطأً — كما يقال — إلى هذا الملك، ولكن من جهة أخرى نعرف أنه ترك لنا آثارًا في «بوصير» (راجع: Naville, The Mound of the Jews. Pl. 7A & p. 27-28). هذا، ويحتمل أنه ترك بعض الآثار في «الكاب» (راجع: Chassinat Edfu 7, 214, 248).

استغلال المحاجر في عهد الملك «دارا»

يدل على ما قام به «دارا» الأول من نشاط في فن العمارة؛ النقوشُ التي تركها لنا في محاجر «وادي حمامات»، وقد كان يُدير هذه الأعمال في المحاجر موظفٌ كبيرٌ يُدعى «خنم-اب-رع»، وكان يحمل لقب المشرف على الأعمال (المتون ١١–١٣)، و«خنم-اب-رع» هذا هو ابن موظف كبير آخر يُدعى «أحمس سانيت» وكان يحمل بدوره لقب المشرف على الأشغال، أو الأعمال في عهد الملك «أحمس» الثاني (النقش ١١ سطر ٤–٦) وكانت أُمُّهُ تُدعى «ساتنفرتم»، ويظهر لنا من نفس النقش ١١ المؤرخ بالسنة الرابعة والأربعين مِن عهد الملك «أحمس» الثاني أن «خنم-اب-رع» كان في صحبة والده أثناء العمل، وبعد انقضاء ثلاثين سنة على ذلك تقريبًا؛ أي في عهد «دارا» الأول نجده قد عاد إلى «وادي حمامات» وحده، وفي خلال الأربع سنين التالية لذلك عاد إلى هذه المحاجر عدة مرات وترك لنا نقوشًا هناك.

وعلى الرغم من أن هذه المتون لم تذكر لنا الغرض من هذه الحملات؛ فإنه يبدو من عناوينها أن «خنم-اب-رع» كان يذهبُ إلى «وادي حمامات» للبحث عن الأحجار الخاصة بالبناء، وإنه لَمن الصعب أن نعرف — بصورة قاطعة — السببَ الذي جعل كلًّا من «أتياواهي» و«أريوارتا» يذهب إلى هذه المحاجر، على أنه لما كان لا يوجد في ألقاب كل منهما ما يُشير إلى أنه كان رجلَ عمارة، فقد يتساءل المرء فيما إذا لم يكن قد قفا أثر خليج «قفط» (راجع: Strabo. 17, 1, 15) ليصل إلى البحر الأحمر، ثم يذهب من هناك بطريق الماء إلى «فارس» أم لا، ولا بد أن نُشير هنا إلى وُجُود نقش على الصخر كتب فيه طغراء «دارا» الأول على الطريق التي تؤدي من «قفط» إلى «سفاجة» (النقش ٣٥).

الثورة في «مصر» في نهاية عهد دارا

تدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الثورة التي قام بها المصريون في أواخر عهد الملك «دارا» الأول لم تمكث طويلًا؛ فلدينا الآنيتان رقمي ٢٣، ٤٤ تؤرخان بالسنة الثانية من عهد الملك «أكزركزس»، وقد جاء ذكر هذه السنة في المتن رقم ٢٥، وهو الذي عثر عليه في «وادي حمامات»، ومِن جهة أُخرى نجد السنة السادسة والثلاثين من عهد «أكزركزس» في المتون التي تحمل الأرقام ٢٤، ٢٨، ٣٠ على التوالي، وهذه الآثار مستخرجةٌ من نفس محاجر «وادي حمامات»، وظاهرٌ من هذه التواريخ أن الثورة التي قام بها المصريون لتحرير بلادهم كان من المحتمل أنْ تكون من أسبابها الأخبار التي وصلت إلى «مصر» عن هزيمة الفرس أمام الإغريق في موقعة «ماراتون»، وأنها على أية حال لم تكن ثورة طويلة الأمد — كما سنرى.

والواقعُ أن وادي النيل في عهد الملك «دارا» كان من الوجهة الحربية محصنًا بحاميات فارسية قوية، تمتد من بلدة «ماريا» الواقعة في الشمال (وهي على مقربة من مكان مدينة «الإسكندرية» الحالية) حتى بلدة «الفنتين» («أسوان» الحالية) والشلال في الجنوب، وكانت أقوى حامية للفرس في بلدة «منف» ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز في أهميته؛ لوقوعه على مسافة قريبة عند بداية تفرُّع الدلتا، وكانت حامية «منف» (البدرشين وميت رهينة الحاليتين) تتألف بوجه خاص من جُنُود من الفرس يحملون رُتَب ضباط، كما كانت تحتوي على عناصرَ أُخرى من الجنود المصريين والأجانب كالجنود المرتزقة من اليهود الذين كانوا يقطنون «الفنتين» وقتئذٍ. هذا، وكانت كل هذه الحاميات الفارسية تمون من البلاد التي تُعسكر فيها مما كانوا يتسلمون من أنواع المحاصيل المختلفة، وبخاصة القمح.

وتدلُّ شواهدُ الأحوال بوجه عام على أن «مصر» في عهد الملك «دارا» الأول كانت سعيدة وفي رخاء بقدر ما يسمح به نظامُ الاستعمار الأجنبي نسبيًّا، وما لدينا من نقوش يدل على أن «دارا» كان شخصيًّا ذا ميول طيبة نحو البلاد المصرية، وقد كان من الممكن أن تسير الأحوال في مجراها الطبيعي إذا كان حُكَّام البلاد من الفُرس قد أظهروا نفسَ الاعتدال والحكمة الذين انتهجهما عاهلهم نفسه.

هذا، ولم يكن في الإمكان أن يقبض على زمام الأمور وهو في عاصمته البعيدة ويرقب حركات عماله ومعاملتهم للأهلين في «مصر» على الوجه الأكمل، وقد زاد الطين بلة أن هذا العاهل قد تُوُفي في عام ٤٨٦ق.م، ومنذ أواخر حُكمِه قامت في البلاد المصرية حركةٌ وطنيةٌ لمقاومة الحكم الأجنبي، وكان غرضُها طردَ الفُرس والتخلُّص من حكمهم.

والواقعُ أنَّ الأسبابَ الحقيقيةَ التي دَعَتْ لقيام هذه الثورة مجهولةٌ لنا تمامًا، وكذلك لا ندري شيئًا عن سَيْرِ الحوادث في تلك الفترة، حقًّا كان لموقعة «ماراتون» التي هُزم فيها الفرس وقَضت على نفوذهم الذي كان لا يجارى في العالم وقتئذٍ، ولم يكن في استطاعةِ الفرس وقتئذٍ إرسال حملة على بلاد اليونان مع قيام انفجار ثورة في «مصر»، بل كان لا بد من القضاء عليها أولًا؛ ولذلك فإن كلًّا من الملك «دارا» ومن بعده ابنُهُ وخليفتُهُ «أكزركزس» قد عَمِلَا بحماسٍ على استردادِ نُفُوذهما وسلطانهما على «مصر» (راجع: Herod. VII 2, 18, VII 5).

ففي عام ٤٨٤ق.م، استرد الجيشُ الفارسيُّ بدون كبير عناء البلادَ المصرية للحُكم الفارسيِّ، وقد نصب «أكزركزس» «أخمينيس» شطربة على «مصر»، والظاهر أنه هو الذي قاد الحملة على البلاد لاستردادها من يد الثوار، والظاهرُ كذلك أنه كان قد أخضع البلاد وجَعَلَها أكثر امتثالًا لسلطان الفرس عما كانت عليه في عهد «دارا» الأول (راجع: Herod. VII 7, cl VII 20) وقد اختلفت الرواياتُ في مجرى حوادث هذه الثورة؛ لقلة ما لدينا من آثارٍ تُحدثنا عن كنهها، فقد قيل بأن الثورة لم يقم بها المصريون أنفسُهُم، بل قام بها اللوبيون الذين كانوا يقطنون غربي الدلتا، فانتزعوا الوجه القبلي من الفُرس، وكانت عاصمة ملك الفرس في «مصر» وقتئذٍ بلدة «منف» وقد قاومت الثوار الذين استولوا على الوجه البحري إلى أن وصلت النجدةُ إلى جيش الفرس، وفي تلك الفترة، كانت طريق «وادي حمامات» التي تربط بين «مصر» والطريق البحرية إلى بلاد العرب؛ هي الطريق التي تربط بين عاصمة الملك الفارسية و«مصر».

«أكزركزس» الأول وثورة «خبا باشا»

ولدينا روايةٌ أُخرى تَدُلُّ على أن الذي قام بهذه الثورة في بداية عهد «أكزركزس» هو أحدُ الأبطال المصريين الذي أراد أن يخلص «مصر» من الاستعباد الفارسيِّ، وتدل ما لدينا من نقوش على أنه حَكَمَ البلادَ بوصفه ملكًا، واتخذ لنفسه ألقابًا ملكية، وهذا البطلُ يُدعى «خبا باشا»، غير أنَّ العصر الذي عاش فيه هذا الملك لا يزالُ موضوعَ نقاش كبير، والواقعُ أنه في عهد «الإسكندر آجوس Alexander Aegus» وجد نقش من عهد الملك «بطليموس سوتر» الذي كان يحكم «مصر» فعلًا جاء فيه (راجع: Mar. Mon. Divers. p. 14, Records of the Past x, 71): وقد ذهب لفحص تمثال الملك «خبا باشا».

وقد ذكر الكهنةُ أن ملك الفرس «أكزركزس» قد اضطهد «بوتو»، وقد حصل الكهنةُ على هِباتٍ جديدةً من «بطليموس» الذي أعاد الأوقافَ القديمةَ التي كان منحها «خبا باشا» لِمعبد «بوتو»، أَمَّا النقشُ الآخرُ الذي دُون عن هذا البطل فيدلُّ على أنه كان قابضًا على ناصية الأُمُور في «منف»، فقد أُرخ بالسنة الثانية شهر «هاتور».

وهذا، ولدينا حروف طغرائه على جعل، وكذلك في مجموعة «ستير» (راجع: L.D. IV 196).

ويقول «بترى» عن هذا الملك (راجع: Petrie, Hist. III 368–9): إنه على الرغم من أن «خبا باشا» يعد أسرة قائمة بذاتها مستقلةً فإنه يعتبر «بكنرف» ملك الأسرة الرابعة والعشرين، فقد حكم كل منهما مدة قصيرة لا أهمية لها.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد عهد هذا الملك، فقد كان يؤرخ حتى عام ١٩٠٧ بأنه القائد المصري الذي قاد الثورة عل الفُرس في عام ٤٨٦ق.م، وقد برهن «فلكن» (راجع: A. Z. 35, (1897) p. 81–87) على حسب ترجمة مضبوطة للوحة الشطرب أن «خبا باشا» جاء في العهد الذي بعد «ششرش» الطاغية؛ أي «أكزركزس»، وقد ظن أن ذلك حدث في عهد «أرتكزركزس» الأول التي وقعت في خلاله الثورة العظيمة الثانية في وادي النيل على الفرس، وأخيرًا نشر الأثري «شبيجلبرج» ورقة كتبت بالديموطيقية تُدعى ورقة «ليي Libbeg»، وتحتوي على عقد زواج مؤرَّخ بالسنة الأولى من عهد الملك «خبا باشا»، وقد دَوَّنَها نفسُ الكاتب الذي دون ورقة أُخرى مؤرخة بالسنة التاسعة من عهد «الإسكندر الأكبر»، وعلى ذلك نُبرهن على أن «خبا باشا» كان قد حكم «مصر» قبل عهد «الإسكندر الأكبر» بزمنٍ قصير؛ أي عند نهاية الحُكم الفارسي ما بين ٣٤٢–٣٣٢ق.م.

(راجع: Der Papyrus Libbey, Schrifften der wissen-schaft Gesch, in Strasburg 1907.)

ولكن من جهة أُخرى لم نجد اسم «خبا باشا» لا في مُلُوك الأسرة التاسعة والعشرين ولا في ملوك الأسرة الثلاثين في قائمة «مانيتون»، هذا فضلًا عن أنه لم يذكر اسمه في الحوليات الديموطيقية، وقد حدد «ماسبرو» تاريخَ هذا العاهل، واقترح أن يكون قد جاء في عهد «دارا» الثالث «كودومان»، ولكن إذا كانت الورقةُ الديموطيقية (٢٤٣٠) المحفوظة بمتحف «اللوفر» تُؤرخ بالسنة الثانية من عهد «دارا» الثالث؛ فإن الأثري «جوتييه» في هذه الحالة يميل إلى وضع «خبا باشا» قبل آخر ملك فارسي حَكَمَ «مصر»؛ أي في عهد «أرتكزركزس» الثالث وهو الذي يلقب باسم «أوكوس» أو «أرسس» (ما بين ٣٤٢–٣٣٦ق.م)، (راجع: L. R. IV 159 note 2).

ولكن على الرغم من كل ذلك نجد أن الأثري «جريفث» في عام ١٩٠٩م قد أَصَرَّ على أَنْ يَضَعَ الحادث الذي يُسمَّى ثورة «خبا باشا» في السنة الخامسة والثلاثين من حُكم «دارا»؛ أي قبل التاريخ الذي اقترحه الأثريون الذين سبقوه بنحو مائة وخمسين سنة (راجع: Griffith Ryl. Vol. II p. 31).

وهاك الآثار التي تركها لنا «خبا باشا»:

ورقة «لبي Libbey» (راجع: Sphinx, VII p. 139-140): هذه الورقةُ محفوظةٌ الآن في متحف الفن بمدينة «توليدو» بمقاطعة «أهيو» بأمريكا الشمالية، وكانت قد اشتُريت من «الأقصر» وتحتوي على صيغة عقد زواج مكتوب بالديموطيقية، وهاك الترجمة:

(١) في السنة الأولى في شهر «هاتور Athyr» من عهد الملك «خبا باشا» قالت السيدة «سيتربون Setyrboone» ابنة «بيتهاربوكراتس Peteharpokrates» و«سيمينيس Semminis» إلى الكاهن فاتح باب المحراب لـ «آمون» «الكرنك» في «طيبة» الغربية المسمى «تيوس Teos» ين «باو أنس حار بخرت» إنك اتخذتني زوجتك وأمهرتني ٥/١٠ دبنًا من الفضة (= ٢,٥ ستات) وإني أكرر ٥/١٠ دبنًا من الفضة مهرًا لي، فإذا نبذتك بوصفك زوجي كارهة لك، أو أحببت رجلًا آخرَ أكثر منك؛ فإني أَرُدُّ إليك ٢,٥ أعشار دبنات من الفضة (أي ١ ١/٤ ستات) – وإني أكرر ٢,٥ أعشار دبنات من الفضة وهي التي تخص هذه ٥/١٠ دبنًا من الفضة (؟) وهي = ٢,٥ ستات (نقد إغريقي) — وإني أكرر ٥/١٠ دبنًا من الفضة (؟) وهي التي أعطيتنيها مهرًا، وإني أنزل لك عن النصف من جميع كل شيء سأحصل عليه منك ما دمت متزوجًا مني: تسلم صورة من المتن أعلاه في ورقة أُخرى وقد قمتُ بنقلها

(؟) وإني أُقرر كل كلمة دونت أعلاه على حسب (؟) الوثيقة الحالية وسأُتممها بستة عشر شاهدًا، وإني أُعطيكها — ولن يكون في استطاعتي أن أُحدد تاريخًا آخرَ لك غير السابق (؟) — ودون أن أتفاوض معك بأية طريقة — بالكتابة أو شفويًّا (؟).

كتبه «بتحار برس peteharpres» بن «بكاس Pekas».

ويضيف الناشر لهذا العقد ما يأتي: من بين الستة عشر شاهدًا الذين وقعوا على حسب ما جاء في السطرين ١، ٣ فإن الخمسة التالية قد دونت أسماؤهم على ظهر الورقة:

(أ) «بتي Pete» … ابن «بتو» (؟).
(ب) «سمينس» بن «وافريس Waphris» «أبريز».
(جـ) … ابن «فيبيس Phebis».
(د) «توتيوس» (؟) بن «بتو».
(هـ) الكاهن «حرى-سشت» (كاتم السر) (؟) في «طيبة» «أمينوفيس» بن «تيوس».

ولا نزاع في أن هذه الوثيقة تُقدم لنا فكرةً صريحة جليةً عن قيمة الوثائق الديموطيقية، وقد علق «شبيجلبرج» على ترجمته هذه بملحوظةٍ صغيرة أراد أن يُحدد فيها تاريخَ حُكم الملك «خبا باشا»، وقد حَدَّدَهُ على وجه التقريب بين ٣٤١–٣٣٢ق.م، ولكن «جريفث» — كما ذكرنا من قبل — قد عارضه في ذلك.

(٢) الوثيقة الثانية من عهد «خبا باشا»: هي تابوت لعجل «أبيس» وُجد في سربيوم «منف»، وقد أُرخ بالسنة الثانية شهر «هاتور» (راجع: Brugsch A. Z, (1817) p. 13: Thesaurus p. 968) وقد جاء عليه: السنة شهر هاتور في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبا باشا» محبوب «أبيس»، «أوزيرحور» صاحب «كم» (= الثور).

(٣) اللوحة المسماة لوحة الشطربة: عثر على هذه اللوحة في «القاهرة» عام ١٨٧٠م في أساس حُجرة صغيرة في جامع «شيخون»، وقد كشف عنها «محمد أفندي خورشيد» الذي كان وقتئذٍ رئيسَ الملاحظين بالمتحف المصري، وتؤرخ بالسنة السابعة من عهد «الإسكندر» الثاني ابن «الإسكندر الأكبر»، وقد أَهْدَاهَا «بطليموس» بن «لاغوص» الذي قنع فيها بتلقيب نفسه بشطربة «مصر» وقتئذٍ، وقد كان «بطليموس» هذا صاحب قوة فعلية، وكان يقطن في قلعة الملك «الإسكندر» الأول على شاطئ البحر الأيوني؛ أي في «الإسكندرية» التي كانت تُسمى في بادئ الأمر «ركوتي» وقد أسكن كثيرًا من الجنود المرتزقة من الإغريق في هذا المكان، ومعهم خيلهم، كما وضع فيها سُفُنًا مجهزةً بجُنُودها وعتادها، ولما ذهب إلى بلاد

«سوريا» من أجل منازَلة أهلها في موقعة، خاض المعمعة بقلب صلب وانقضَّ على العدو كما ينقضُّ النسرُ على الحمام، فاستولى على هذه البلاد دفعةً واحدةً، وساق رؤساءها إلى «مصر»، كما استولى على جيادهم كلها وسفنهم وكل ثروتهم، وبعد عودته من حملته المظفرة في «المرمريك» اقترح عليه أحدُ مستشاريه أثناءَ احتفاله بنصره والعمل على ما يمكن أن يرضي آلهة «مصر» أن يثبت لمعبد «بوتو» الوقف الذي كان قد حبسه الملك «خبا باشا» على آلهة هذه المدينة، وكذلك الممتلكات التي كان قد وهبها «أكزركزس» الأول ملك الفرس فوافق على ذلك، ثم ينتهي متنُ هذه اللوحة باللعنات على كل مَن يحاول العودة إلى التعدي على هذه الأوقاف (Maspero Guide (1915) p. 199) وقد لقب «خبا باشا» في هذه اللوحة بأنه تمثال «تاتنن» المختار من الإله «بتاح».

(٤) وعثُر للملك «خبا باشا» كذلك على جعران في مجموعة «ستير» (راجع: Brugsch Bouriant Livre des Rois p. 122) وقد نقش عليه «خبا باشا» محبوب «رع»، وقد حدث نقاشٌ كبير عن أصل «خبا باشا»، فمِن قائلٍ إنه شطرب الفرس، ومن قائلٍ إنه كوشي أو عرب المنبت، غير أن طغراء الأولى تُبرهن على أنه تُوِّجَ في «منف»، وعلى ذلك يحتمل أنه كان من أصل لوبي كما اقترح ذلك «ماسبرو»، وذلك على غرار الرئيس «أيناروس» الذي أعلن نفسه فيما بعد ملكًا على كل «مصر»؛ وذلك لأن ورقة «لبي» تعد وثيقة من أصل طيبي، وهناك رأي آخرُ يقول: إنه من أصل نوبي (راجع: عن كل ذلك: Friedrich Karl Kienitz Die Politische Geschichte Agyptens Von 7, Bis Zum 4 Jahrhundert vor der Zeltwende p p. 185–189)، حيث عالج موضوع «خبا باشا» وجمع كل الآراء التي وردت عنه.

عهد الملك «أكزركزس» في مصر



خاشاروشا

مكث حكم الملك «خبا باشا» حوالي عام إذا صدقنا الرأي الذي يقول إنه عاش في عهد الملك «أكزركزس»،[١] وبعد ذلك حضر الأخيرُ إلى «مصر» وقضى على الثورة التي تزعهما «خبا باشا»، والواقعُ أن هذه الثورة — كما ذكرنا آنفًا — لم تكن ذاتَ شأنٍ عظيمٍ، ولا تُعَد حادثةً بالغةَ الأهمية، غير أن تأثيرها كان عظيمًا؛ وذلك أن «دارا» قد أراد أن تكون «مصر» جزءًا لا يتجزأ من إمبراطوريته، وأن يكون فرعونًا على هذه البلاد بوصفها مستقلة في ظاهر الأمر، وهذه السياسة قد حققها لنفسه، غير أنَّ الثورة التي قامتْ في «مصر» قد أظهرتْ له أنه كان خاطئًا في زعمه.

وَلَمَّا تولى «أكزركزس» زمام الحكم في «مصر» حاد عن سياسة والده، والواقعُ أنه لم يكن يعرف الموقفَ في «مصر» ولم يكن قد زارها من قبل، هذا فضلًا عن أنه لم يكن يُظهر أيَّةَ أهمية لوادي النيل؛ ولذلك فإنه عامل «مصر» كمديرية من مديريات الإمبراطورية الأُخرى، ومن ثم منع المال الذي كان يعطيه سلفه لمساعدة المعابد المصرية، ويدل ما لدينا على أنه لا «أكزركزس»، ولا خلفه «أرتكزركزس» قد أقام معابدَ في «مصر»، ولا نزاع في

[١] وهذا الرأيُ فيه شكٌّ كبير، والمحتمل جدًّا أنه عاش قبل فتح الإسكندر لمصر مباشرة.

أنه جعل «مصر» في حالة عبودية ومهانة أكثر مما كانت عليه في عهد «دارا»، وبعد أنْ تم له الفتحُ عاد إلى عاصمة مُلكه في «فارس» تاركًا أخاه «أخمينيس» حاكمًا عليها، فأخذ في استعبادِ الأهلين بصورةٍ بشعة.

ولا نِزَاعَ في أن الفرس قد أخذوا يضيقون الخناق على المصريين باطراد، لدرجة أن الوظائف الصغيرةَ التي لا أهمية لها قد أصبحت في يد الفرس؛ وذلك لانتزاع ما يُمكن انتزاعُهُ من هذه البقرة الحلوب حتى الفَناء. ومن ثم لُوحظ في هذه الفترة أن التجارة المصرية التي كانت رائجة السوق في عهد «دارا الأول» قد أخذت تتدهور بسرعة مُحَسَّة، وإذا كانت شواهدُ الأحوال تَدُلُّ على أن هذه التجارة كانتْ رائجةً بعض الشيء في البحر الأحمر وعلى الطرق الصحراوية التي كانت تخترقها القوافلُ؛ فإنها مِن جهة أُخرى قد انقطعتْ أسبابُها في «نقراش» وفي البحر الأبيض المتوسط؛ وذلك بسبب الحُرُوب التي كانت مشتعلةً بين جمهورية «أثينا» وحلفائها من جهة، وبين الإمبراطورية الفارسية من جهة أخرى.

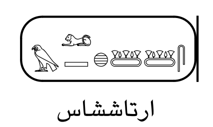
وقد كانت «مصر» مضطرةً وقتئذٍ أن تُقحم نفسها في هذه الحروب على كُرْه منها، وكان لا بد أن تلعب فيها دورًا حاسمًا بسبب تَبَعِيَّتِها للدولة الفارسية، ومن ثم نرى أن «أخمينيس» قد جَهَّزَ أُسطولًا مؤلَّفًا من مائتيْ سفينة مصرية ليشد به مِن أَزْرِ الحملة الهائلة التي أرسلها الفرسُ على بلاد الإغريق في عام ٤٨١ق.م، في الحرب الميدية الثانية. وعلى الرغم مما أظهَره المصريون من شجاعة ومهارة في حروبهم البحرية في موقعتَي «أرتميز» و«سلامس»؛ فإن هذه الحملة قد مُنيت بالفشل التام والهزيمة المخزية.

على أن العبثَ والطُّغيان والفساد الذي اتصف به «أكرزكزس» لم يقتصر على «مصر»، بل نُشاهد أنه في أول سنةٍ من حُكمِه ذهب إلى «بابل» وأَتَى فيها أمرًا منكرًا لم يأته ملكٌ من ملوك الفُرس قبله، وذلك أن كلًّا من «كيروس» و«قمبيز» و«دارا»؛ قد دخل هذا البلد بوصفه ملكًا، وقد كان ذلك يمثل في احتفال مقدس مهيب، وكان على العاهل أن يقوم في عيد رأس السنة في المعبد بالقبض على يدي الإله «بل-مردوك» وبذلك يصبح تَمَلُّكُه عرش البلاد شرعيًّا، غير أنَّ «أكزركزس» — عوضًا عن ذلك — أمر بإبعاد تمثال «مردوك» عن المعبد، ومِنْ ثم نجد أن ملكية «بابل» قد أُلغيت (راجع: Ed. Meyer forsch. II p. 476–479; G.D.A. IV, 1 p. 121.123; cf lehmann Haupt zu Herod. I, 183; Klio 7 (1907), p. 447.8; com p. F.H. Weissbach Zur neu Babylon und Achamenidischen Z. D. M. G. 62 (1908) p. 642–645).

أما عن آثار حكم «أكزركزس» في «مصر» فضئيلةٌ، والظاهرُ أنه لم يعد إلى «مصر» ما بين عامي ٤٨٤ق.م، ٤٦٥ق.م، وهي السنة التي مات فيها؛ فقد قتله «أرتابانوس» في صيف ذلك العام، وقد دلتْ أعمالُهُ على أنه لم يكنْ يَسْعَى لجلب محبةِ المصريين وجَذْب قلوبهم إليه، وكل ما يمكن الإشارةُ إليه من أعمالٍ قام بها هو وخلفُهُ «أرتكزركزس» من بعده؛ النشاطُ الذي أظهره كُلٌّ منهما في قَطْع الأحجار من «وادي حمامات»، وهذه الأحجارُ — على ما يظهر — كانت تُنقل إلى بلاد «فارس» عن طريق البحر الأحمر لإقامة المباني الهامة.[٢]

[٢] راجع كذلك النقوش المصرية الآرامية من عصر «أكزركزس» الموجودة بمتحف برلين: Borchardt, A. Z, 49–1911 p. 73–74 Bisseng Z D. M G.: 34 (1910) p. 226–238.

الملك «أرتكزركزس» الأول وثورة «إيناروس»



ارتاششاس

على أثر موت الملك «أكزركزس» تَوَلَّى بعده الحكمَ «أرتكزركزس»، وقد حكم هذا العاهلُ — على حسب رواية «مانيتون» — إحدى وأربعين سنة، ولكن على حسب الآثار التي تركها لنا، نجد أن آخر سنة في حُكمه هي السنةُ السابعة عشرة، ويقول «سنسل Syncelle»: إنه حكم أربعين عامًا، (Ungur Chron-ologie des Manetho p. 258)، و«أرتكزركزس» هو الابن الأصغر للملك «أكزركزس».

وقد لاحظ الأثريُّ «فيدمان» مما جاء في النقش رقم ٣١ الذي عثر عليه في «وادي حمامات» والمؤرخ بالسنة الخامسة من حكم الملك «أرتكزركزس» الأول (٤٦١ق.م)؛ أن الدلتا كانتْ في ذلك الوقت في ثورةٍ عامةٍ، وقد استنبط أنَّ الوجهَ القبليَّ كان قد بقي خاضعًا للفرس ولم يقم بأيِّ عصيان.

والظاهر أنه على أثر وفاة «أكزركزس» شبتْ نارُ فتنة في «مصر» تشبه التي قامت في أواخر عهد «دارا» الأول بقيادة الملك «خبا باشا» — على بعض الأقوال — وحقيقةُ هذه الثورة أن أميرًا من أمراء مملكة «لوبيا» — التي كانت تنحصر بين فرع النيل الكانوبي والصحراء والبحر — يُدعى «إيناروس» ابن «بسمتيك» الذي يحتمل أنه كان من فرع الأسرة الساوية القديمة التي أُبعدت عن عرش الكنانة منذ ستين عامًا مضت؛ قد ضَمَّ تحت لوائه

بيُسْر وسهولة الجزءَ الأعظمَ من بلاد الوجه البحري الواقع بين فرعَي النيل الرئيسيين، وقد قوبل هذا الأمير بكل ترحاب في كل مكان دخله، وكان أولُ عمل حاسم قام به هو طَرْدُ جباة الجزية من عمال الفرس، وكذلك أقصى جنود «أخمينيس» شطربة البلاد، ولم يكن أمام هؤلاء الجنود إلا الالتجاء إلى «منف» حيث لم يكن يدور بخلد «إيناروس» أنه سيقفو أثرَهُم إلى هناك ويقضي عليهم إلا بعد أن يتأكد من أنه في مأمن من عدم هجومٍ بحريٍّ عليه، وقد طلب من أهل «برقة» مساعدتَه في هذا الصدد كما طلب من جمهورية «أثينا» ذلك بصفةٍ خاصة، وقد أرسلت الأخيرةُ إليه من «قبرص» أسطولًا مؤلَّفًا من مائتيْ سفينة بحرية مزودة بخمسين ألف مقاتل مدججين بالسلاح، بعضهم من «أثينا» نفسها، وبعضهم الآخر من حلفائها، وهذا الأسطولُ قد تمكن فعلًا من الإقلاع في النيل دون عناء، وانضمت قوتُهُ إلى قوة «إيناروس» التي حاصرتْ قلعة «منف»، وقد كان ذلك في الوقت الذي عاد فيه «أخمينيس» بجيشه فهزمه «إيناروس» في «بابرميس» إحدى مدن الدلتا (Die. Geogr. IV p. 79) في عام ٤٥٩ق.م، وقد قَتَلَه وأرسل جثتَه إلى ملك الفرس «أرتكزركزس»، وقد حاول هذا العاهلُ عبثًا أن يغري مملكة «إسبرتا» بالقيام بمهاجمة عدوتها ومناهضتها «أثينا» انتقامًا لمساعدتها لـ «مصر»، ولجعل «أثينا» تسحب نجدتها من «مصر»، ولكنه لَمَّا خاب مسعاهُ اضطر إلى إرسال جيش جديدٍ قوي إلى دلتا النيل، وقد بُولغ في تقدير عدد هذا الجيش؛ إذ قُدر بنحو ثلاثمائة ألف مقاتل بقيادة شطرب «سوريا» المسمى «مجابيز»، وقد كان هذا الجيش يعتمد على أُسطول يشد أزره قوامُهُ ثلاثمائة سفينة، يقودها «أرتاباز».

وقد وقعت بين الفريقين موقعةٌ كانت نتيجتُها أن هُزم المصريون واليونان في هذه المرة هزيمة ساحقة، وقد اضطرَّ المصريون إلى التخلِّي عن «منف» فطَارَدَهُم الفرس وحاصروهم في جزيرة «بروسوبيس Prosopis»، وبعد حصارٍ دام أكثر من سنة ونصف السنة سَدَّ «مجابيز» مياه النهر، وبذلك أَمكَنه أن يستولي على الأُسطول الذي أصبح يقف على اليابسة لانحسار المياه عنه (٤٥٦ق.م)، وبعد حربٍ دامتْ سنواتٍ دارت الدائرةُ على المصريين فخَسِرُوا الحرب، وكان من جراء ذلك أن أُعدم «إيناروس» بوضعه على خازوق، ومن ثم عادتْ «مصر» ترزخُ تحت نير الفرس من جديد.

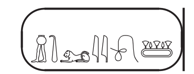
هذا، وكانت «أثينا» قد أرسلت — بعد ذلك ببضع سنين — نجدة للمصريين مؤلفةً من خمسين سفينة، دون عِلْمِها بِما حَلَّ بالجيشين المصري واليوناني، فاستولى عليها الفرسُ دون عناء، وهي سائرةٌ في فرع النيل المنديسي (٤٥٥–٤٥٤ق.م)، وأخيرًا عقد في عام ٤٤٨ق.م صلح «كالياس» بين «أثينا» وملك الفرس العظيم، وقد كان من شُرُوطه

الواضحة الجلية عدمُ محاولة «أثينا» التدخل في مصلحة «مصر» أو العمل على استقلالها القومي.

ولم يترك لنا «إيناروس» ولا معاصره «إمرتي» الأول — على ما يظهر — آثارًا، وعلى أيَّةِ حال فإن «أرتكزركزس» الأول لم يكن معروفًا لدى المصريين في عهده مثل أسلافه؛ وذلك لأنه — على ما يظهر — لم يذهب إلى «مصر» قط،[1] ومما يَطيب ذكرُهُ هنا أنه في عصر هذا العاهل — وبخاصة في المدة التي ساد فيها السكون؛ أي في المدة التي جاءت على أعقاب صُلح «كالباس» بين عامي ٤٤٨–٤٤٥ق.م — زار المؤرخ اليوناني «هردوت» وادي النيل، وترك لنا وصفه الجغرافي الحر الغني بما حواه من الملاحظات العجيبة عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية لوادي النيل، وعلى الرغم مما حَوَاهُ مِن أخطاءٍ يرتكبها كُلُّ سائحٍ لا يعرف طبائعَ البلاد، فإن مؤلفه يعد أنفس ما تركه لنا اليونان الأقدمون، وهو لا يزال حجة يرجع إليها عن العصر الذي عاش فيه من ناحية ما رآه رأيَ العين.

[1] حفظت لنا قصة «إيناروس» وحروبه فيما كتبه كُلٌّ من «ديدور الصفلي» والمؤرخ اليوناني «ثوسديد thucydide» و«كتسياس» (راجع: L. R. IV, p. 153 note 3).

الملك «دارا» الثاني



أنتريوش = «دارا الثاني»

حكم هذا الملك على حسب ما رواه «مانيتون» تسع عشرة سنة، ولم يرد شيء عن سني حكمه قط في الآثار المصرية، ولا بد أن نلفت النظر هنا إلى أن السنة التاسعة عشرة من عهد «دارا» قد وجدت في متن بطلمي في معبد «إدفو»، وقد نسبها بعضُ المؤرخين (راجع: Actes du Congress International des Orientalistes tenu a Leide, t. IV p. 233–235: Introduction a Ed. Meyer Geschichte des Alten Agypten p. 45). إلى «دارا» الثاني، ولكنها يجب أن تُنسب إلى «دارا» الأول، (راجع: L. R. IV p. 153 No. 4).

هذا، ولا بُدَّ أن نُشير هنا إلى أنه بعد موت «أرتكزركزس» (أردشير) الثاني عام ٤٢٤ق.م، خلفه على عرش «سوس» أخوهُ «أكزركزس» الثاني، والظاهرُ أنه لم يمكث على عرش الملك إلا شهرين، (راجعْ: Unger Chronologsie de Manethon p. 285; Maspero Hist. Ancienne III p. 278 n., wiedmann Aeg. Gesch. p. 666) ثم قتله أخوه «سوجديانوس Sogdianos» الذي لم يحكم بدوره إلا ستة أو سبعة أشهُر، وبعد ذلك قتله أخوه «أوكوس» الذي خلفه على أريكة الملك باسم «دارا» الثاني.

ولم يترك لنا كُلٌّ من «أكزركزس» الثاني و«سوجديانوس» — خلال حكمهما الذي لم يَدُمْ أكثر من سنتين — أيَّ أثر من أعمالهما في «مصر»، كما لم نعثرْ على اسم واحدٍ منهما، لا في الهيروغليفية ولا في الديموطيقية.

ولم يكن «دارا» الثاني هذا ابن الملك «أكزركزس» الأول، بل كان صهره، وكان يطلق عليه اسم «أوكوس»، وقد كان قبل توليه عرش بلاد «فارس» شطربة مديرية «هيركاني»، وبعد قتل «سوجديانوس» خلفه على العرش عام ٤٢٣ق.م، وقد أطلق عليه اليونان «ابن أبيه»؛ وذلك لأنه كان واحدًا من أولاد «أرتكزركزس» الأول العديدين غير الشرعيين، والواقعُ أن «دارا» الثاني هو الملك الوحيد بعد «أرتكزركزس» الأول الذي ترك له على الآثار في «مصر».

فنجد في المعبد الذي أقامه «دارا» الأول في الواحة الخارجة أن «دارا» الثاني هذا أضاف طغراءه في أماكن عدة، وقد نقش هناك بوجه خاص ذكرى له على الآثار في «مصر».
(راجع: Brugsch, Reise Nach der Grossen Oase El. Khargeh p. 13 ff & Lepsius A. Z. XII (a874) p. 73, 75, 78; Brugsch A Z.XII (1875) p. 51 ff: Wied-mann Gesch. p. 240 No. 1-2; id. p. 880 No. 1).

وقد كان المعبودُ المحلي للواحة الخارجية يُدْعَى «آمون رع سيدهبت» (أي الواحة الخارجة) الإله الأعظم القوي الساعد، وتَدُلُّ النقوشُ على أن «دارا» الثاني قد زاد في لقبه وهو «محبوب آمون رع» بإضافة نعوت مختلفة لهذا الإله، وقد نظفت مصلحة الآثار هذا المعبد ورَممته (راجعْ: «فخري» الواحة الخارجة).

ولا يفوتُنا هنا أن نذكر أنه في عهد حُكم هذا الملك، وبعبارة أَدَقَّ: في عام ٤٠٧ق.م، دونت البرديةُ المشهورةُ باللغة الآرامية، والتي عُثر عليها في «الفنتين» وسُميت باسمها (راجع: Cowley, Aramaic Popyrus of the fifth Century, Oxford. 1923).

وهذه الورقةُ تُحدثنا عن المستعمرة اليهودية التي كانت تقطن «الفنتين» وقتئذٍ، والواقعُ أنَّ تأسيسَ هذه المستعمرة يرجع على أَقَلِّ تقديرٍ إلى حُكم الملك «أبريز» (٥٨٨–٥٦٩ق.م)، (راجع: Schafer Klio (1904) p. 155 ff) ومن المحتمل أنها ترجع إلى أقدم من ذلك؛ إذ قد تكون في عهد «بسمتيك» الثاني (٥٩١–٥٨٨ق.م)، أو حتى في عهد «بسمتيك» الأول (٦٦٣–٦٠٩ق.م)، (راجع: Dictionnaire de la Bible supplement face-X (1923) p. 983-984).

وأوراق «الفنتين» الآرامية هذه عثر عليها في هذه البلدة على دفعات من عام ١٩٠٤–١٩٠٨م، على يد بعثات أوروبية مختلفة، ومعظم هذه الأوراق مؤرخٌ ويمكن وضعُ الأوراق

بعد الفحص ما بين عامي ٤٩٥، ٤٠٠ق.م، وبعبارة أُخرى في عهد الحكم الفارسي لـ «مصر»، وكان يهودُ «الفنتين» يؤلفون مستعمرة حربية ينفق عليها ملك «فارس»، وعندما طرد الفرس من «مصر» عام ٤٠٠ق.م؛ كان على يهود «الفنتين» أن يُغادروا هذا المكان الذي احتَلُّوهُ منذ أكثرَ مِنْ قرنٍ من الزمان، ومن المحتمل أنَّ هؤلاء اليهود لم يُشتتْ شملُهُم دفعة واحدة؛ وذلك لأنه لدينا وثيقةٌ آرميةٌ مؤرخةٌ بالسنة الخامسة من عهد الملك «إمرتي»، وهو الملك الوحيد الذي يُعرف في الأسرة الثامنة والعشرين — كما سنرى بعدُ (راجع: Papyrus no. 35 de Cowley o p. cit.) في عهد البطالمة الذين أظهروا حُسن معاملتهم لهذه الطائفة.

ومما تَجدُرُ ملاحظتُهُ هنا أن كهنة الإله «خنوم» لم يكونوا على حُسن تفاهُم — على الأقل في نهاية العهد الفارسي — مع اليهود القاطنين في «الفنتين»؛ لخلاف في الدين، وبخاصة عندما نعلم أن المصريين كانوا يحتقرون اليهودَ وديانتَهم ويبتعدون عنهم كُلَّ البُعْد؛ ولذلك فإنه في عيد الفصح الذي كان يحتفل فيه اليهودُ بذبح «خروف صغير»؛ نجد أن كهنة «الفنتين» الذين كانوا يعبدون الإله «خنوم» (أي الكبش) لم يصرحوا بذبح الخروف، وهذا لم يكن بالأمر الغريب من جانب المصريين.

وعلى أية حال فإنه من الجائز جدًّا أنَّ تاريخَ اليهود لم يكن مجهولًا لدى المصريين، فمِنْ غير المعقول أن يوجد تعايشٌ طويلٌ بين المصريين واليهود دون أن يوجد لذلك تأثيرٌ مهما كان ضئيلًا حتى لو كان بين الفريقين خلافٌ في الثقافة والآراء، وعلى ذلك فمِن الجائزِ أن يكون تاريخ «يوسف» وسبع السنين العجاف معروفًا عند كهنة معبد «خنوم» في «الفنتين» عن طريق اليهود.

هذا، ويُعَدُّ «دارا» الثاني آخر ملوك الأخمينيسين الذي تألفت منهم الأسرة السابعة والعشرون، على حسب رأي «مانيتون»، وبعد وفاة هذا العاهل حكم بلاد «فارس» بعده «أرتكزركزس» الثاني، غير أن هذا العاهل ومَن خلفه مِن ملوك الفرس لم يظهروا في «مصر»، ومنذ السنين الأخيرة من عهد «دارا» الثاني أخذت الحركةُ المصريةُ القوميةُ تَقوى وتشتد في البلاد، وأخذت في طرد المستعمر من بلادها إلى أن أفلحت في التخلُّص من شطربة الفرس الذي كان يحكم «مصر» ووضعت مكانه على عرش «مصر» أميرًا مصريًّا يُدعَى «أميرتايوس» وكان مستقلًّا عن عاصمة ملك «فارس» تمام الاستقلال. وهكذا بدأ عهدٌ جديدٌ في التاريخ المصري — كما سنشرحُ ذلك فيما يلي …

طرد الفرس من «مصر»

لم يَرْضَ الشعبُ المصري يومًا ما بالحكم الفارسي مدة تسلُّطه عليه؛ ولذلك فإنه كان يتحين الفرصَ للتخلُّص من نيرهم، كما تخلص مِن قبل مِن نيرِ الآشوريين، وقد واتت الفرصةُ المصريين حوالي عام ٤٩٠ق.م، عندما هزم الإغريقُ الفرسَ هزيمة منكرة في واقعة «ماراتون» بالقرب من «أثينا»، ومنذ ذلك العهد اتجهتْ أنظارُ عاهل الفرس نحو بلاد الإغريق، ومن ثم أخذ يعبئ حملة ضخمة للقضاء عليها، ومسح العار الذي لحق ببلاده وبجيشه.

وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الفرس لم يُضَيِّقُوا الخناقَ على المصريين، ولم يُتابعوا ملاحظةَ سيرِ الأُمُور فيها عن كثب، ولا أَدَلَّ على ذلك من أنه في عام ٤٨٦ق.م، قامت ثورةٌ في الوجه البحري؛ أي بعد واقعة «ماراتون» بمدة قصيرة، وفي ذلك يقول «هردوت» (راجع: Herod. VII 1)؛ وعندما وصلت أخبار موقعة «ماراتون» إلى «دارا» بن «هيستابس» الذي كان في شدة الغيظ والحنق على الآثينيين بسبب هجومهم على «ساريس» في «آسيا الصغرى» ازداد غضبُهُ جدًّا وأصبح تَوَّاقًا بشدة إلى شَنِّ حربٍ على الإغريق، وبعد أن أرسل في الحال رُسُلًا إلى المدن المختلفة حتم عليها أن تجهز جيشًا، وفرض على كل مدينة عددًا أكبر مما كانت تُقَدِّمُهُ من قبل من السفن والخيل والغلة وسفن الشحن، وعندما أُعلنت هذه الأوامرُ في أنحاء الإمبراطورية أصبحت كُلُّ بلاد «آسيا» في اضطرابٍ لمدة ثلاث سنوات، وقد انخرط أشجعُ الرجال في الجيش واستعدُّوا لغزو بلاد الإغريق، ولكن في السنة الرابعة ثار المصريون — الذين كان قد أخضعهم «قمبيز» — على الفرس، وعندما كان «دارا» يستعدُّ للقيام بحملة على «مصر» و«أثينا» قام نزاعٌ شديدٌ بين أولاده على خلافة الملك، وانتهى أمرُ هذا النزاع باختيار «أكزركزس»؛ ليكون خليفته على ملك «فارس» (٤٨٥–٤٦٤ق.م).

وعلى أية حال فقد مات «دارا» قبل أن يقوم بالحملة على «مصر» لإخضاعها، وترك ذلك لابنه «أكزركزس» الأول، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الأخيرَ لم يكن مَيَّالًا لمحاربة الإغريق، ولكن من جهة أُخرى جَهَّزَ جيشًا لإخماد الثورة في «مصر»، ويُحدثنا «هردوت» في ذلك قائلًا: (راجع: Herod. VII, 5–7): ولكن «مردنيوس» بن «جوبرياس» وهو ابن عم «أكزركزس» وابن أخت «دارا» الذي كان حاضرًا وله تأثيرٌ عظيمٌ جدًّا عليه أكبر من كل الفرس؛ كان يخاطبه باللغة التالية قائلًا: «سيدي إنه ليس من الحق أن الأثينيين بعد أن أوقعوا أضرارًا كبيرة بالفرس أن يُتركوا دُون عقاب على ما ارتكبوه من أعمال، وعلى أية حال فَلتُنهِ الآن المشروعَ الذي تقوم به، وعندما تقضي على وقاحة «مصر» سَرْ بجيشك على «أثينا» حتى تنال شهرةً حسنةً بين الناس، وكُلُّ واحد سيأخذُ حذره للمستقبل، إذا سَوَّلَتْ له نفسُهُ الزحفَ على قطرك.»

وفي السنة الثانية من حكمه قام بالحملة على «مصر»، وفي ذلك يقول «هردوت» (Herod. VII, 7) وعندما أقنع «أكزركزس» بإشعال نار حرب على الإغريق قام أولًا وقتئذٍ في السنة الثانية بعد موت «دارا» بحملة على الثائرين، وبعد ذلك صير كل «مصر» في حالة استعباد أسوأ مما كانت عليه في عهد «دارا» ووكل أمر حكومتها إلى شقيقه «أخمينيس» بن «دارا».

وبعد ذلك ولى «أكزركزس» وجهه شطر بلاد الإغريق لمحاربتها، وكان من جراء الهزائم التي توالتْ عليه وعلى جيوشه في حروبه مع بلاد الإغريق أن اندلعت نار الفتن في أنحاء المديريات الفارسية، وقد اغتيل «أكزركزس» وخلفه على عرش الملك ابنه «أرتكزركزس» (٤٦٤–٤٢٤ق.م) وفي خلال حُكم هذا العاهل قامت ثورةٌ في «مصر» مطالبةً بتحرير نفسها، وكانت أَشَدَّ خطرًا وأكثرَ عُنفًا من التي قامتْ في عهد «دارا» الأول.

وكان القابضُ على زمام هذه الثورة في «مصر» أميرٌ يُدعَى «إيناروس» بن «بسمتيك» وهو على ما يظن نوبي الأصل، وقد امتدت الثورةُ في أنحاء البلاد وساعد «إيناروس» وشد أزرَه مصريٌّ آخرُ يُدعَى «إمرتي» من بلدة «سايس»، وتدلُّ الأحوالُ على أنه من الأسرة الملكية الساوية المنحلَّة، وفي تلك الأثناء وجد الأثينيون فرصة لإضعاف عدوهم الأكبر ملك الفرس، فأرسلوا أُسطولًا قوامُهُ ثلاثمائة سفينة حربية — على حسب رواية «ديودور» الصقلي (Diod. Xl, 71) ومائتا سفينة في روايةٍ أُخرى (Ibid. Xl, 74)، أما المؤرخُ العظيمُ «ثوسيديد» فيقول إن عدد السفن كان مائتي سفينة (راجع: Thucydide, J. 104) وقد سار هذا الأسطولُ في النيل حتى وصل إلى «منف»، ولكن قبل أن يصل هذا الأسطولُ إلى

«مصر» كان «أرتكزركزس» ملك الفرس، قد ساق جيشًا عرمرمًا قوامُهُ ثلاثمائة ألف مقاتل إلى «مصر»، وقد تَقابل الجيشُ المصري مع الجيشِ الفارسي عند بلدة «بابرميس»، وهي عاصمةُ إحدى مقاطعات الوجه البحري، لا يُعرف موقعها، وكان يُقام في هذه البلدة عيدٌ خاص (راجع: Reallexikon p. 582)، وقد هزم المصريون في بادئ الأمر، ولكن كانت لهمُ الغلبةُ فيما بعد، عندما وصل إليهمُ المددُ الإغريقي، وقد كان بين الموتى في الجانب الفارسي «أخمينيس» أخو ملك الفرس.

وبعد ذلك تقهقر الأحياءُ من الفرس إلى «منف»، أما المنتصرون في «بابرميس» فقد أقاموا الحصار أمام «منف»، وقد اضطرَّ الفرسُ إلى التخلِّي عن جُزء منها للمصريين، وأقاموا المتاريسَ في جُزء مُحَصَّنٍ منها، وأخذوا في مقاومة هجمات الجيش المصري الإغريقي، (راجع: Diod XI 74; Ktesiaas 33; Pline Histoire Naturelle xxxv, 11, 40; Isocrate sur la paix 86).

ولكنْ لم يمضِ أكثر من ثمانية عشر شهرًا حتى انتقم الفرسُ لأنفسهم، وهزموا الجيشَ المصري، وقد اضطرَّ الإغريقُ إلى الالتجاء إلى جزيرة «بروزوبيتيس Prosopitis» وأحرقوا سفنهم التي كانت على استعداد لمنازلة الفرس في موقعة فاصلة، ولكن الفرس لم يهتموا باقتفاء أثرهم، وبذلك أمكنهم العودةُ إلى بلاد الإغريق مارين على ما يظن ببلاد «لوبيا».

(راجع: Diod xI, 77.)

أَمَّا «إيناروس» الذي كان قد جُرح في الحرب؛ فقد وقع أسيرًا وسِيق إلى «سوس» حيث أمر «أرتكزركزس» بقتله، وقد حاول الإغريق كرةً أُخرى اختراقَ الدلتا، ولكن أُسطولهم هُزم هزيمة منكرة على يد الأسطول الفنيقي الذي كان وقتئذٍ في خدمة الفرس (راجع: Diod. XI, 77; Thucydide 1, 110).

وبعد موت «إيناروس» بقي «أمرتي» القائد الوحيد الذي يقود الوطنية، ويقول «جروت» المؤرخ المعروف عن هذه الحرب (Grote XLV p. 417 Vol. V. Every mans Ed) وفي مقابل الانتصارات العدة التي انتصرها الأثينيون لا بُدَّ أن نحسب هزيمتهم الجائحة في «مصر» بعد حُرُوبٍ دَامَتْ ستة أعوام مع الفرس (٤٦٠–٤٥٥ق.م) وقد نالوا — في بادئ الأمر — نجاحًا لامعًا مع الأمير «إيناروس» الثائر على الفرس، فطردوا الفرس من كل «منف» إلا أقوى جُزء منها الذي يُسَمَّى «القلعة البيضاء»، وقد كان انزعاج ملك الفرس عظيمًا؛ لوجود الأثينيين في «مصر» لدرجة أنه أرسل «مجابازوس Megabaxus» بمبلغ

عظيم من المال إلى مملكة «إسبرتا» لإغراء اللاسيدامونيين على غزو «أتيكا»، وعلى أية حال فإن هذا المبعوث لم يفلح في مأموريته، وعلى ذلك أرسلتْ قوةٌ كبيرة من الفرس إلى «مصر» بقيادة «مجابازوس» بن «زوبيروس Zopyrus» (راجع: Herod. III 160).

فطرد الأثينيين وحلفاءَهم بعد موقعةٍ عنيفةٍ من «منف» إلى جزيرة في النيل تُدْعَى «بروزوبيتيس Prosopitis» وقد حُوصِروا فيها مدةَ ثمانيةَ عشرَ شهرًا إلى أن حول «مجابازوس» مياهَ فرع النيل، وجعل مجراه يَجِفُّ، ثم هاجم الجزيرةَ أرضًا وقد نجا القليلُ جدًّا من الأثينيين من طريق البر إلى «سيريني»، أما سائرُ الجيش فقد قُتل أو أُسر، وكذلك قتل «إيناروس» نفسُهُ، وقد زاد في هزيمة الأثينيين وصولُ خمسين سفينة أثينية بعد الهزيمة التي مُني بها الأثينيون، ولكن هذه السفنُ كانت قد وصلتْ دون علمٍ من رجالها بذلك، فسارتْ في فرع النيل المنديسي، وبذلك وقعتْ — على غفلة من رجالها — في قبضة الفُرس والفنيقيين، ولم يَنْجُ من هذه السفن إلا القليلُ جدًّا، وقد أصبحتْ كل مصر ثانية خاضعةً للفُرْس إلا الأمير «أميرتاوس» الذي حاول أن يُحافظ على استقلاله بالارتداد إلى مناقع الدلتا الصعبة المنال، وهكذا نرى أن أُسطولًا بحريًّا من أكبر الأساطيل التي أرسلتْها «أثينا» وحلفاؤها لطرد الفرس قد مُزِّقَ شملُهُ تمامًا. هذا، وقد كتب «ديودور» رواية مخالفة لِما ذكرناه (راجع: Diod XI, 77, XII, 3).

وقد أفلح «أميرتاوس» في المحافظة على استقلاله — في الدلتا على الأقل — حتى عام (٤٤٩ق.م)، وقد طلب النجدة ثانية من «أثينا»، فأرسلتْ إليه أُسطولًا مؤلَّفًا من ستين سفينة حربية، ولكنه على أثر سماعه بموت «سيمون» عاد إلى بلاد الإغريق حتى قبل أن يصل إلى الشواطئ المصرية (راجع: Thucydide 1, 112; Plutarch Cimon 18) ولما رأى المصريون أنَّ الصلح قد أُبرم بين «أثينا» والفرس هدأتْ ثورتُهُم؛ لفقدان أملهم في مساعدة «أثينا»، هذا بالإضافة إلى أن الشطرب الجديد قد أظهر تسامحًا وسياسة ماهرة؛ إذ نصب «تاميراس» و«بوزيرس» ابني «إيناروس» الذي قاد الثورة و«أميرتاوس» شريكه في الحركة الوطنية على رأس الحكومة التي كان يُسيطر عليها والداهما.

وقد جاء ذِكْرُ ذلك في «هردوت» على سبيل ذِكْر احترامِ الفُرْس لأولاد الملوك، فيقول: لأن الفُرس كانوا معتادين تكريمَ أولاد الملوك، وحتى لو كانوا قد تمردوا عليهم، فإنهم مع ذلك كانوا ينعمون بالحكم على أولادهم، ويُمكن البرهنةُ على وُجُود هذه العادة بأمثلةٍ كثيرةٍ أُخرى، ومن بينها ما حدث للأمير تاميراس بن «إيناروس» اللوبي الذي أُعيدتْ له حكومةُ والده، و«بوزيريس» بن «أميرتاوس» الذي أُعيدت إليه حكومةُ والده، ومع ذلك لم يفعلْ

أحدٌ سوءًا للفرس أكثر مما فعله كُلٌّ من «إيناروس» و«أميرتاوس»، وعلى الرغم من هذا التسامُح وحُسن المعاملة؛ فإن «مصر» لم تخضعْ بأكملها للحُكْم الفارسيِّ.

وحقيقةُ ذلك أن مصريًّا يُدعَى «بسمتيك» أرسل في عام ٤٤٥ق.م ثلاثمائة ألف مكيالًا من الغلال (سعة المكيال حوالي ١٣ لترًا) إلى «أثينا» (وعلى حسب ما جاء في «بلوتارخ» ٤٠ ألف ميكال) (راجع: Plutarch Pericles 37)، ومن الجائز جدًّا أن ذلك كان ثمنًا للمساعدة الحربية التي أرسلتْها «أثينا» إلى «مصر» أثناء صورة الدلتا، ولم تحدثْنا النقوشُ أو المحفوظاتُ عن شيء أكثر بمناسبة هذه الثورة.

وعلى أثر موت «أرتكزركزس» الأول قامت المشاحناتُ العادية — كما ذكرنا آنفًا — على تولي عرش الملك، ولم تَمض إلا بضعةُ أَشْهُر حتى مات كُلٌّ من «أكزركزس» الثاني وقاتِلُهُ، وهو أخوه «سوجديانوس»، وتولى عرش البلاد أخٌ ثالثٌ لهما يُدعَى «أوكوس»، وهو الذي تَسَمَّى باسم «دارا» الثاني (٤٢٤–٤٠٤ق.م).

والأثرُ المصريُّ الوحيدُ الذي يُنسب إلى عهده في «مصر» هو الأنشودةُ التي حُفرت على جدران معبد الواحة الخارجة الذي أقامه «دارا» الأول — كما ذكرنا من قبل.

«أميرتاوس» والأسرة الثامنة والعشرون

هذه الأسرةُ قد مُثلت في تاريخ «مانيتون» بملكٍ واحدٍ حكم ست سنوات ويُدعى «أميرتاوس»، ولما كان الكتاب الكلاسيكيون قد حافظوا لنا على ذكريات ملكين لمصر بهذا الاسم يَبعدُ أولهما عن الآخر بنحو نصف قرنٍ من الزمان، فإنا نتساءل الآن أيهما كان موحدًا بالملك الذي جاء ذكرُهُ في تاريخ «مانيتونٍ» (؟).

وقد ذكرت لنا الحولياتُ الديموطيقية سلسلةً متصلةَ الحلقات، مؤلفة من تسع ملوك تبتدئ بملك يمكن توحيدُهُ بالملك «أميرتاوس»، وتنتهي بالملك «نقطانب» الثاني. هذا، ولم يأت ذكر «أميرتاوس» آخر في هذه السلسلة (راجع: Revillout–Rev–Egyptologique I p. 145–149 & 151)، ومن ثم يمكننا أن نستنبط بصورة قاطعة أن المقصود هنا هو «أميرتاوس» الثاني، ومن المحتمل أنه كان حفيد «أميرتاوس» الأول، وقد ذَكرْنا من قبل أن أُمراء الدلتا قد حاولوا نزع نير الفرس عن عاتقهم، وذلك بمساعدة الإغريق المرتزقة قبل أن يقوم «أميرتاوس» بحملته الناجحة عليهم وطردهم من «مصر»، والواقعُ أنه كما ذكرنا منذ عهد «دارا» الأول بعد هزيمته في «ماراتون» على يد اليونان أخذ الوجه البحري يعمل على استرجاع حريته، ولكن «أكزركزس» الأول كسر شوكةَ هذه الحركة الوطنية، ولا نعرف اسم المحرض على قيام هذه الحركة، وكُلُّ ما يمكن أنْ نؤكده الآن هو أنه على رأي بعض المؤرخين ليس «خبا باشا» الذي جاء ذِكرُه على الآثار المصرية (راجع: L. R. IX, p. 155 No. 2)، وقد ناقشنا هذا الموضوع من قبل.

وفي أوائل حكم «أرتكزركزس» الأول قامت ثورةٌ أُخرى، وفي هذه المرة كان المحرضُ على قيامها لوبي يُدْعَى «إيناروس» بن «بسمتيك» كما ذكرنا من قبل، وقد استمرت الثورةُ بضع سنين، وبعد ذلك قَمَعَها الفرسُ بشدة وعنف أكثر مما قُمعت به الثورةُ الأولى، ومع ذلك فإن زميل «إيناروس» وهو «أميرتاوس» المصري قد نجح في المحافَظة على استقلاله

عدة سنوات، ذلك بمساعدة «أثينا» كما ذكرنا مفصلًا من قبل، وعندما اختفى «أميرتاوس» بقي ابنُهُ «بوزيريس» لعبة في أيدي الفرس، يحكمونه كيف شاءوا، وبعد تولية «دارا» الثاني عرش ملك «فارس» قامت ثورةٌ جديدةٌ في «مصر»، ومن المحتمل جدًّا أنها كانت من صنع «أميرتاوس» الثاني الذي يحتمل أنه كان ابن «بوزيريس»، ولكنها أُخمدت — على أية حال — كسابقتها، وقد بقيت نارُ الفتنة تحت الرماد ملتهبةً إلى أنْ كان لها ضرام نار في منتصف حكم «دارا» الثاني ثم امتدَّ لهيبها لا في الدلتا وحدها، بل في كل أنحاء «مصر»، وقد أفلحتْ هذه المرة في طرد الفرس من كُلِّ «مصر»، ومن المحتمل جدًّا أن هذا النجاح كان بمساعدة «أثينا» لمصر، والواقعُ أننا لا نكاد نعرف شيئًا معينًا عن هذه الثورة الناجحة غير أنها ابتدأتْ حوالي عام ٤١٠ق.م، وانتهت في عام ٤٠٤ق.م، (Xenophon Anabase 1, 4, 5, 13) بالاعتراف باستقلال «مصر» عن الفرس.

ومما هو جدير بالذكر هنا بهذه المناسبة أنه في عام ٤١٠ق.م، حدث اضطهادٌ لليهود في «الفنتين»، وكان سببُهُ — على ما يظهر — ميل المستعمرين في هذه الجهة لملوك الفرس؛ شأن كل الأقليات في كل زمان ومكان، هذا فضلًا عن الأسباب الدينية الأخرى التي ذكرناها فيما سبق، ومن أجل ذلك هَدَمَ المصريون معبدهم، ومع كل فإن هذه المستعمرة لم تَختفِ كُليةً من البلاد.

وقد مكثتْ حربُ التحرير — على الأقل — ست سنوات، وكما قُلنا من قبل انتشرتِ الثورةُ في كل أنحاء القطر المصري، و«أميرتاوس» الثاني هذا كان من أصل ساوي، ومن المحتمل أنه كان ينحدرُ من صلب أُسرة «بسمتيك» التي كان قد خلع «قمبيز» آخرَ ملوكها — وهو «بسمتيك» الثالث — عن عرش «مصر» منذ أكثر مِن قَرْنٍ مضى، وتَدُلُّ الأحوالُ على أن «أميرتاوس» الثاني قد مَكَثَ على عرش «مصر» مدةَ سِتِّ سنوات، وهذه هي المدةُ التي حَدَّدَها له «مانيتون»، وليس لدينا أيُّ أثر باسمه في «مصر» حتى الآن، وليس لدينا من النقوش المصرية من أسماء الملوك ما يُمكن توحيدُهُ باسمه إلا «أمنرود» أو «رود آمون» كما اقترح ذلك بعض علماء الآثار (راجع: Lepsius Konigsbuch pl. XLIX. No. 66) ولكن هذا الاقتراح قد رفضه «ماسبرو» ثم «بدج» وأخيرًا «جوتييه» (راجع: Gauthier, L. R. III p. 392 No. 3).

أما المحاولات الأُخرى لتقريب هذا الاسم الإغريقي النطق إلى المصرية القديمة، فقد جاء في الحوليات الديموطيقية، وهذه بدورها ليستْ محاولات مقنعة؛ وذلك لأن الاسم الذي أُريد تقريبه من اسم «أمرتي» أو «أميرتاوس» ليست قراءته مؤكدة، وفي الوقت الذي

نجد فيه الأثري «رفييو» (راجع: Revillout Rev. Egyptologique T. I, face. 4 Textes Demotiques p. 1, II fase. 1, text. p. 1 etc.) يُريد أنْ يقرب هذا الاسم من اسم «أمن حر» فإننا نجد من جهة أُخرى أن الأثري «هس» يقترح تقريبه من الاسم الديموطيقي «أمنردس» وهذا هو نفسُ ما اقترحه الأثري «شتيندورف» والملك «أمرحر» على حسب رأي «رفييو» جاء ذكره على بردية ديموطيقية محفوظة الآن بالمتحف البريطاني، ولكن هذا الملك الذي يُشير إليه هذا الأثري كان يحكم «طيبة» وكل الوجه القبلي في حين أن «أميرتاوس» لم يكن يحكم إلا الدلتا، وعلى أيَّةِ حال فإنه — بكل أسف — ليس لدينا أيُّ أثر آخرَ يُمكن أن يُساعدنا على حَلِّ هذه المسألة الهامة؛ وبخاصة لأن استقلال «مصر» قد جاء على يديه.

الوثائق الديموطيقية المنسوبة إلى العهد الفارسي الأول

لم نجد إلا سجلات قليلة من عهد «قمبيز» في «مصر»، وتدل شواهد الأحوال على أن الثلاث أو الأربع سنين التي مَكَثَها «قمبيز» في «مصر»، وكذلك الفترة التي سبقتْ تَوَلِّي «دارا» الأول حكم «مصر»، وهي الفترة التي جاء ذِكْرُها على لوحة قبر محفوظة بالمتحف البريطاني — على ما يحتمل — والتي قيل عنها: إنه لم يكن فيها ملكٌ في البلاد (راجع: A. Z. XXXI. p. 94 & p. l. I) لا بد كانت الأعمال التجارية قد كسدتْ فيها أكثر مما كانت عليه في عهدي الملكين «نيكاو» و«أبريز»، وهذان الملكان في الواقع لم يتركا لنا إلا عددًا قليلًا من الأوراق البردية، وهذا الكسادُ كان لا بد منه، ولو لم يكن «قمبيز» بالرجل المجنون القاسي — كما مثل لنا في التقاليد التي وصلت إلينا عنه عن طريق الكُتاب الإغريق.

والأوراق الديموطيقية المعروفة لدينا حتى الآن من عهد الأسرة السابعة والعشرين؛ أي الأسرة الفارسية، تؤرخ كلها بعهد الملك «دارا» الأول، ومن المعقول أن ننسبها كلها إلى ذلك العهد الذي كان يدير فيه «دارا» الأول إمبراطوريته الشاسعة بكرم وحكمة مما وَطَّدَ سلطانَه ورفع شأنه في العالم، اللهم إلا إذا كانتْ لدينا براهينُ تُلزمنا أن ننسبها إلى غير عهده من الملوك الذين يحملون اسم «دارا»، ولا نزاع في أَنَّ الوثائقَ التي تؤرخ بسنة بعد السنة العشرين لا بد أن تُنسب إلى «دارا» الأول، وهي كثيرة جدًّا؛ وذلك لأن حكم «دارا» الثاني قد انتهى بثورةٍ، بعد أن حكم تسعة عشر عامًا.

وأهم الوثائق التي وصلتْ إلينا من عصر «دارا» هي:

(١) تقرير رسمي (راجع: Griffith Ryl III, 25)

العمود الأول: يحتوي على قائمة كئوس، وأشياء أخرى، ومبالغ من الذهب والفضة الموجودة في معبد «حور» في «إدفو» (أو المأخوذة منه).

العمود الثاني: الذهب والفضة التي تُركت في معبد «إدفو» (؟) في السنة الثالثة من عهد «دارا» الأول، وقد اجتمع الكهنةُ وقَسَّمُوا المتاعَ فيما بينهم، وقد ذكر اسم كل كاهن والمبلغ الذي تسلمه.

الأعمدة من ٣–٨ (؟): يظهر أن هذه الأعمدة بقية قائمة أسماء الكهنة والذهب والفضة التي تسلموها.

وهذه الوثيقة على الرغم من أنها ممزقة فإنها هامة، والظاهر أنها وثيقةُ معبد أو سجل جاء نتيجة تحقيق حكومي.

وقد يخالج الإنسان الشك في أن القسمة (؟) بين الكهنة لم تكن قسمةً عادية لدخل، بل كانتْ محاولة للاستيلاء أو إخفاء الكنوز التي لم تَستَولِ عليها الحكومة؛ وذلك لأن المقدار الذي استولى عليه كُلُّ كاهن كان كبيرًا؛ إذ ما حُفظ منها ظاهرًا في الوثيقة كان يتراوح ما بين ٢٠، ٧٠ قطعة من الفضة، ومن الذهب ما بين ٢٫٥ إلى ٧ قطع، وقد تسلم كاهن ٣٫٥ قطعة من الذهب و٣٠ قطعة من الفضة، ومن هذه الأرقام يظهر بداهةً أن قطعة الذهب في ذلك الوقت كانت تُساوي ما يقرُبُ من عشر قطع من الفضة، وكانت نسبته في المعاملة محددة من حيث الوزن، وهي أن $\frac{٣}{١٠}$١٣ من الفضة = واحدًا من الذهب، وذلك على حسب ما نعرفه من العملة في ذلك الوقت، أما النسبة المتفَق عليها من حيث الوزن في المعاملة البابلية الفارسية، فكانت بنسبة عشرة إلى واحد، وفي النظام الفنيقي هي ١٥ إلى ١ (راجع: Hill in Encyel. Bible. 4444) وعلى ذلك فإن النسبة التي ذكرناها فيما سبق هي على حسب النظام الفارسي المتفَق عليه.

ومن جهة أُخرى يمكن أن تكون نقودًا ملك الكهنة، وكانت قد وضعت في المعبد؛ ضمانًا لعدم ضياعها في السنين التي حدثتْ فيها الاضطراباتُ، ثم أُخرجت من مخبئها الآن للاتجار بها بعد أن عاد السلامُ، وكان معبد «إدفو» من المعابد التي منحها «دارا» الأول عطفَه الخاص، وكذلك عطف عليه من بعده «دارا» الثاني.

وقد اعتمد الأثري «فيدمان» على فقرة جاءتْ في «بوليانوس» تذكر لنا أن «دارا» قد وصل إلى «مصر» مباشرة بعد موت العجل «أبيس»، وأنه وهب مائة تلنتًا من الذهب لمن يكشف عن «أبيس» آخر؛ ولذلك أرخت زيارة هذا الملك العظيم لـ «مصر» بالسنة الرابعة غير أن قصة «بولبانوس» غير مقنعة.

ويوجد في المكتبة الملكية الفرنسية (راجع: Bibliotique Nationale Ryl. III p. 26) بردية تُعرف بالحوليات الديموطيقية، وتُؤرخ بأوائل الحكم الإغريقي في «مصر» وتحتوي على فقرتين هامتين خاصتين بالمعاملة التي لقيتها المعابدُ في عهد «قمبيز»، ومما يؤسف له أن هاتين الفقرتين ممزقتان، وقد ترجمهما الأثري «جريفث» من نسخة بخط الأثري «رفييو» لا يُعتمد عليها كثيرًا، وهاك الترجمة:

الكلمات الخاصة (؟) بالمتاع: وهي التي كُتبت بكتابة المتاع بالانفصال (؟) من السنة (؟) ٤٤ من عهد الفرعون «أحمس» إلى اليوم الذي أتى فيه «قمبيز» «مصر» أو خرج من «مصر» (؟) وعلى ذلك مات قبل أن يصل بلاده — وكان «دارا» (؟) هو الذي حكم «مصر» — وكل الأرض (أو كل الأرض حزنت من أجله؛ أي «أمسيس»)، وذلك بسبب رحمة قلبه كأمير، وأنه («قمبيز» أو «دارا») منح «مصر» لشطربته في السنة الثالثة قائلًا: دع وثائق الحساب (؟) ... وإعداد المحاربين ... كتاب «مصر» يرسلون إلى ... مع، حتى يستطيعوا كتابة عوائد «مصر» المقررة (؟) لسنة (٤٤؟) من عهد الملك «أحمس» كعوائد، وهي العوائد المقررة (؟) للفرعون للمعابد وهي العوائد التي كانت أحضرت إلى هنا (؟) ...

... حتى سنة ١٩ ... «مصر» التي كانت ... الأمور التي كانوا مشتغلين بها، الأوقاف الإلهية ... عوائد «مصر»، وقد كتبوا نسخة (منها؟) وهي كتابة «آشور».

وقد كملت قبالتها (؟) لقد كتبت قبالتها ولم يحذف شيء (؟).

إن الأُمُور التي كانت قد فحصت ضد (؟) عوائد المعابد في بيت المحاكمة.

إن القوارب (أو الألواح؟) وخشب الحريق والكتان (؟) والبردي (؟) التي اعتيد أن تُعطى للمعابد من قبل في عهد الفرعون «أحمس»، عدا معبد «سيفي»، ومعبد «أون» (هرمويوليس في الدلتا)، ومعبد «بوبسطة»، أمر «قمبيز» قائلًا: لا تعطها إياهم من الـ ... بل «رع» أماكن تعطى إياهم في خمائل (؟) بلاد الجنوب «مصر العليا» حتى يمكنهم أن يحصلوا على قوارب «أو ألواح» وخشب حريق لأنفسهم ويحضروها لآلهتهم، دعهم يعطونها كما كانت الحال من قبل.

وإن الماشية التي اعتيد إعطاؤها المعابد، ومعابد الآلهة من قبل في حكم الملك «أحمس» عدا المعابد الثلاثة التي ذُكرت أعلاه، قد أمر «قمبيز» قائلًا: إن نصفها سيُمنح لهم.

وما اعتيد منحه لها — أي المعابد الثلاثة التي ذُكرت أعلاه — أمر أن يُمنح لها أيضًا.

وإن الطيور التي كان معتادًا منحها للمعابد في الزمن السابق في عهد الفرعون «أحمس» عدا المعابد الثلاثة، فإن «قمبيز» أمر قائلًا: امنحها لها وستربي الكهنة إوزا لأنفسهم وتعطيها آلهتهم، ومقدار الفضة، والماشية والطيور، والغلة والأشياء الأُخرى التي كان معتادًا إعطاؤُها معابد الآلهة من قبل في عهد الفرعون «أحمس»، وهي التي أمر من أجلها «قمبيز» قائلًا لا تعطوها الآلهة.

(٢) وثيقة زواج من عهد هذا الفرعون (راجع: Ryl. III p. 27 & 116)

وهذا العقد يحتمل أنه كان نتيجة زواج حدث عندما كان الزوج ينتظر مولودًا، أو كان المولودُ قد وضعته أُمُّه فعلًا، وملخصه هو أنه في السنة الخامسة من شهر «أبيب» اعترف الساقي «بشنيسي» بن «حريرم» و«أنيوتهتس» أنه تسلم ثلاثة دبنات من الفضة من «تسنن حور» ابنة الساقي «أسمن» و«رورو» وإذا طلقها فإنه يدفعها ثانية إليها، وكذلك يُعطيها ثلث ما يكسبه كله، في أثناء حياته معها بما في ذلك دخلُهُ (؟) من الساقية (وفاتح الجبل)، وهاك الترجمة الحرفية:

السنة الخامسة شهر بابه من عهد الفرعون «دارياوش» «دارا».

إن سقاء الوادي (المسمى) «بشنيسي pshenesi» بن «حريرم Herirem» وأمه تُدعى «أنيوتهتس Enneutehts» يقول للمرأة «تسن حور Tsenhor» ابنة سقاء الوادي (المسمى) «أسمن Esmin» وأمها تُدعى «رورو Ruru» لقد أعطيتني ثلاث قطع من الفضة من مالية «بتاح» عملة جارية (؟)؛ أي قطعتين من الفضة زائد ٢/٣، ١/٦، ١/١٠، ١/٣٠، ١/٦٠ قدت من مالية «بتاح»؛ أي ثلاث قطع من الفضة من خزانة «بتاح» عملة جارية (؟) ثانية، وإذا تركتك كزوجة وكرهتك فإني سأعطيك ثلاث القطع من الفضة التي من خزانة «بتاح» عملة جارية (؟) وهي التي قد أعطيتنيها وهي المكتوبة أعلاه هذا بالإضافة إلى ثلث كل شيء سأكسبه معك وأني سأعطيها إياك.

الكاتب «زحو» وتسعة شهود.

وهذا على ما يظهر عقد نتيجة زواج والغرض منه إتمام تأكيده.

(٣) وثيقة أخرى يعترف فيها الأب بوراثة ابن له (Ibid p. 23)

وتتلخص في أنه في السنة الخامسة جعل «بشنيسي» ابنته «رورو» التي أنجبها من «تسنن حور» شريكة مع أولاده الآخرين الذين سيُولدون له في كل أَملاكه، وفي كل ما سيكسبه مستقبلًا، وفي وظائفه بوصفه ساقيًا وفاتحًا، وقد كتب هذه الوثيقة الكاتب «رحو» وشهد عليها تسعة (؟) شهود.

(٤) وثيقة وقف أو هبة لولد (راجع: Ryl. III p. 28)

وتتلخَّص هذه الهبةُ في أنه في السنة الخامسة من عهد «دارا» الأول في شهر «هاتور» تَعترف الساقيةُ المسماةُ «تسنن حور» بحق السقاء «بتامنحوتب» بكرها، وهو ابن «إنحارو» بنصف كل ممتلكاتها، وكل ما تستحقه من والديها والنصف الآخر يئول لابنتها «رورو» وإذا حدث أن ولد لها طفلٌ آخرُ وعاش، فنصيبُهُ من التركة يؤخذُ من نصيبهما بالتساوي.

كتبه «أبي» بن «زحو» (وثمانية شهود).

(٥) وثيقة وقف لولد (راجع: Ibid p. 28)

وذلك أنه في السنة الخامسة في شهر هاتور اعترفتْ «تسنن حور» بحق ابنتها الصُّغرى الساقية المسماة «رورو» ابنة «بشنيسي» بنصف كل ممتلكاتها، وباقي الوثيقة كالسابقة.

الكاتب «أبي» (وثمانية شهود).

ويُلاحظ أن هذه الوثائق الثلاث السالفة الذكر ليست إلا تسوية عُملت بعد زواج وولادة ابنه، وأن التسوية مع الزوجة أُرِّخَتْ قبل التسوية مع أولادهما بشهر، وإحدى هذه التسويات قد عملتْها الزوجةُ لابنها من زوجٍ سابق، والتسويتان الأُخريان قد عملهما الزوج والزوجة على التوالي لابنتهما، ويحتمل أن ذلك قد حدث بعد ولادتها مباشرة، ومما يَطيب ملاحظتُهُ هنا أن الأولاد كانوا قد أصبحوا يحملون لقب ساق، وقد كان هذا تقليدًا موروثًا

بطبيعة الحال، كما كانت الحالُ في هذا العصر، وقد تَحَدَّثَ عنه «هردوت» (راجع: «مصر القديمة» الجزء التاسع)، وقد كانوا صغار السن بلا نزاع؛ وذلك لأنه قد وُلد طفل للأبوين فيما بعد — كما سنرى.

وكذلك يُلحظ هنا أن النساء كان لهن الحقُّ التامُّ في التصرُّف في أملاكهن، وكانت الزوجةُ لها الحقُّ بسبب أولادها في أن تأخذَ نصيبًا مما يَكسبه زوجُها في أثناء زواجهما (راجع: Ibid. p. 19 No. 16 & p. 20 No. 18).

(٦) وثيقة بيع عبد (راجع: Ibid 28, & 58)

وقد جاء فيها: السنة الخامسة شهر برمودة من عهد الفرعون له الحياة والفلاح والصحة «ثاريوس» («دارا» الأول) له الحياة والفلاح والصحة، اعترف «أحمس» بن «بسمتيك» وأُمُّه هي «أتورو» لفاتح المحراب ليت «آمون» … «موت» بن «أسخنس» وأمه «أسخنس».

لقد جعلت قلبي يرضى بالفضة لأجل الشاب «بشن» … ابن «تحتمس» وأُمُّه هي «ختبسير بوني Khetbesierboni» وهو عبدي الذي بعتُهُ لك، وإنه ملكك وهو عبد لك.

وإن مَن سيأتي إليك من أجله باسمي، أو باسم أيِّ رَجُلٍ في البلاد قاطبة سواء أكان أخًا أم أُختًا أم أبًا أم أُمًّا أم سيدًا أم أنا نفسي، قائلًا: إنه ليس عبدك؛ فإني سأخلصك منه، وإذا لم أُخلصك منه فإني سأُعطيك خمسة دبنات فضة من خزانة «بتاح» من الفضة الخالصة، وهي «أربعة» دبنات من الفضة زائدًا ٩ ٢/٣، ١/٦، ١/١٠، ١/٣٠، ١/٦٠؛ أي خمسة دبنات ثانية من الفضة من خزانة «بتاج»: وعبدك مع ذلك ملكك هو وأولاده إلى الأبد (يأتي بعد ذلك توقيع الكاتب، ويحتمل كذلك توقيعات الشهود على ظهر البردية).

ومن هذه الوثيقة وأُخريات غيرها (راجع: Ibid. p. 57–58)، نرى وثائق عن بيع محض، نجد فيه أنَّ العبيد كانوا يُباعون بيع الماشية، وهذه الوثائقُ تختلف عن وثائق العبودية التي نرى فيها أن العبد هو الذي يُقَدِّمُ نفسه للبيع بمحض إرادته، والواقعُ أننا لا زلنا نشكُّ في الحالة الأخيرة، فهل كانت مجرد تأجير للشخص نفسه أو عبارة عن تعويض مقنع (؟) وعلى أية حال يستحسن أن نعتبر في مثل هذه الحالات الأخيرة أن الشخص البائع سلم نفسه للعبودية بعد أن كان حُرًّا طليقًا؛ من أجل دَين، أو لأجل أن يحصل على وسيلةٍ

حسنةٍ للعيش، أو ينعم بعيشة رغدة نسبيًّا، ومثل هذه الحالات كانت شائعة في «فلسطين» وبين البابليين.

ظلامة «بتيسي»

هذه الشكوى وقعت حوادثُها في السنة التاسعة من حكم الملك «دارا» الأول، وقدْ تَحَدَّثْنَا عنها فيما سبق (انظر «مصر القديمة»، الجزء الثاني عشر).

(٧) هبة نصف بيت لزوجة (راجع: Ryl. III p. 28)

السنة العاشرة شهر بئونة، أعطى «بشنيسي» زوجة «تسنن حور» نصف موقع بيت خال، يشرع أن يبنى عليه في غربي «طيبة» بالقرب من قبر الملك «وسرتون Userton» (؟) (يحتمل أنه «أوسركون») وتقسم مصاريف المباني مناصفة بالتساوي، ونصف الملكية.

الكاتب «أبي» بن «زحو» وثمانية شهود.

ويُلحظ أن «بشنيسي» لم يشتر الموقع بعد — كما سنرى فيما يلي:

(٨) شراء موقع بيت (راجع: Ryl. III p. 29)

السنة الثانية عشرة شهر بابه يبيع «توتوتوي Teuteutoi» الموقع الخالي للبيت المذكور أعلاه (يحتمل نصف ما كان قد شرع في بيعه في العقد السالف) فقط إلى «بشنيسي»، الكاتب «أبي» وثمانية شهود.

(٩) بيع بقرة (راجع: Turin, Not. p. 415. Ryl. III p. 29)

السنة الخامسة عشرة شهر برمودة، أن الراعي «فنامون Phenamun» يبيع بقرة حرث حمراء إلى «مخاف Mekhaf» بمبلغ أربعة قدات من الفضة ١٥ مكيالًا من القمح (؟) بضمانة غرامة دبن من الفضة.

الكاتب «أبي» وثمانية شهود.

(١٠) منحة ردهة (؟) (راجع: Ryl. III p. 29)

السنة السادسة عشرة شهر بابه، أن السقاء «إسامنحوتب Esamenhotep» يعطي «حوش» (ردهة تبع بيت والده «تسنن حور» بالامتيازات المنوعة المعينة). (الظاهر أن «إسامنحوتب» كان شديد القرابة بـ «تسنن حور»؛ إذ إنه استعمل التعبير: «والدنا» «أسمن»، وذلك على الرغم من أن والديه كانا مختلفين، ومن المحتمل أنه كان جارًا مباشرًا له؛ فقد اشتركا في سلم واحد.)

(١١) اعتراف بسلفية غلة (Ryl. III p. 29)

السنة الرابعة والعشرون، شهر كيهك أخذ «أتوروز» على نفسه أن يدفع إلى «إفعو Efôu» كمية من القمح في ٢٤ طوبة، وإذا تَأَخَّرَ عن ذلك يدفع أرباحًا شهرية.

الكاتب «أبي»، وثمانية شهود.

(١٢) وقف لابنة (وصية؟)

السنة الرابعة والعشرون شهر برمودة يعترف «بشنيسي» لابنته «رورو» بنصف كل أملاكه وأرباحه المقبلة، والنصف الثاني هو ملك أخيها «أتورو» (؟).

الكاتب «أبي».

الكاتب «أبي».

ويُلحظ هنا أن اسم «أتورو» قد أُخذ من وثيقة أُخرى ستأتي بعدُ، حيث نجد أن «رورو» قد صارتْ شريكةً مع كل الأطفال؛ وذلك لأن الأسرة قد وقفت عن الزيادة في عدد أفرادها، ومن المحتمل كذلك بالنسبة لزواجها؛ فَقَدْ أصبح النصيبُ محدَّدًا بوساطة وصية جديدة.

(١٣) هبة أرض (Ryl. III p. 29)

السنة الخامسة والعشرون، شهر بئونة، يعطي كاهن «آمون رع» ملك الآلهة أربعة أرورات من الأرض في «بمهنامون Pmehenamun» السقاية «رورو» بصفة وقف لقبر المرأة «تت» …

الكاتب «أبي» إمضاء المهدي «وسبعة شهود».

وإذا كان هذا الإصلاحُ الذي عمل في هذه الهبة صحيحًا، فإن الوثيقةَ تَدُلُّ على أن السقاءات الإناث كن يتبعن مقابر النساء.

(١٤) بيع نصف بقرة (Ryl. III p. 29)

السنة (التاسعة والعشرون) (؟) أو السنة التاسعة شهر أمشير، يبيع «حاروز» نصف عجلة سوداء، اشتراها من «حور» إلى «ستيمنكو Steamenkou» مع نصف عجلها بضامن الملكية بغرامة.

الكاتب (وأربعة شهود).

ويُلحظ هنا أنه لما كان تاريخ هذه الوثيقة قد مُزِّقَ، فإنه ليس من المؤكد أنها من عهد «دارا» الأول.

(١٥) وثيقة طلاق (Ryl. III p. 30)

السنة التاسعة والعشرون شهر أبيب، طلق السقاء «بت» … «تاهاي» وأنها حرة في أن تتزوج، كاتب وأربعة شهود (على ظهر الوثيقة).

(١٦) عقد زواج لزوجة (Ryl. III p. 117)

السنة الثلاثون شهر توت من عهد الفرعون «دارا».

إن المرأة «أسنخبي» ابنة سقاء الوادي (المسمى) «خبخرات Khepekhrat» وأمها تُدعى «تتامون Tsteamon» … تقول لسقاء الوادي (المسمى) «أتورو» بن «بشوتفنختي Pshutefnakhti» وأمه هي … لقد جعلتني زوجة هذا اليوم.

ولقد أعطيتني قدت واحدًا من الفضة من خزانة «بتاح» خالصًا (أي فضة خالصة) بمثابة مهري، وإذا هجرتك بوصفك زوجًا وكرهتك وأحببت رجلًا أكثر (؟) منك؛ فعلى أن أُعطيك نصف قدت من الفضة الخالصة من خزانة «بتاح» الذي قد أعطيتنيه مهرًا لي، وليس لي الحق في أي متاع في الأرض سأحصل عليه معك، وذلك دون ذكر أي براءة (مقابل ذلك)، كاتب وأربعة شهود على ظهر الورقة.

(١٧) بيع إرث (Ryl. III, 2. p. 30)

السنة الواحدة والثلاثون شهر بئونة، تبيع «تأمن» … لأخيها من أُمها، وهو سقاء يُدعَى «فنلابوي (؟) Phenlaboi» حقوقها من ميراثها من أمها، كاتب (وثمانية شهود).

(١٨) اعتراف بحق الربع في وظيفة ومكاسبها (Ryl. p. 30)

السنة الواحدة والثلاثون شهر بئونة يعترف السقاء «أمنحتب» بحق «تسنن-حور» في ربع أجور السقاية المعطاة مقابل خدمة «أسبوتو» وأولاده، وعليه أن يؤدي ربع الخدمة كالعادة، لم يذكر في الوثيقة كاتب أو شهود (؟).

ملحوظة: ليس هناك مِن شَكٍّ في أن «أمنحتب» المذكور هنا هو نفس «أسامنحتب» الذي ذُكر في الوثيقة رقم ١٠ السالفة الذكر هنا أو أخوه.

(١٩) وثيقة طلاق (Ryl. III, p. 30 & 117)

السنة السادسة والثلاثون (أو الرابعة والثلاثون) شهر برمودة من عهد الملك «دارا».

يقول سقاء وادي «أمنتي» (الغرب) صاحب «ويسبت Uis Pete» … ابن «أسامنحتب» وأمه «أتورو»، للمرأة «تاهاي» ابنة سقاء «أمنتي» صاحب «ويس» و«تنفر» وأمها «كوسنيسي».

وقد سرحتك باعتبارك زوجة، وإني قد انفصلت عنك، وليس لي أي حق على الأرض عندك.

ولقد قلت لك اتخذي لنفسك زوجًا في أي مكان ستذهبين إليه، ولن يكون في قدرتي أن أقف أمامك فيها (أي في الأماكن) من هذا اليوم وما بعده إلى الأبد.

كاتب وثمانية شهود.

(٢٠) وثيقة طلاق (Ryl. III p. 30)

السنة الرابعة والثلاثون شهر بئونة، طلق السقاء «وسر» — المرأة «رورو» … إلخ وهذه الوثيقة كالسابقة.

كاتب وأربعة شهود.

وهذا الرجل يجوز أنه صاحب الوثيقة السابقة، وإذا كان الأمر كذلك فإنه — على ما يظهر — كان من أُسرة غير ثابتة.

(٢١) اتفاق خاص ببقرة (Ryl. III p. 30)

السنة الخامسة والثلاثون، أن الراعي «زحو» التابع لمقاطعة «تشترس» تكفل للموظف «أسحور» أن بقرة الحرث التي قد أعطاها «أسحور» المذكورة أعلاه لسقائه «زحو» لأجل أن يجعلها عقيمًا، سترد إليه في يوم ٢٠ هاتور، وإذا أخل بذلك فعليه أن يُعطي أخرى مثلها في نفس التاريخ أو يدفع خمس قدات من الفضة في آخر الشهر، وإذا تأخر فعليه أن يدفع فوائدَ شهريةً، وقد رهن كل متاعه لتنفيذ ذلك.

كاتب وثمانية شهود.

والمفهوم أن السقاء «زحو» هو فرد آخر من أسرة «أسامنحتب» التي وُجدت في كل أوراق «برلين».

(٢٢) تبادل بقرات (Ryl. III p. 31)

السنة الخامسة والثلاثون شهر برمهات، أن راعي الثيران «أتوروز» يعطي بقرة حمراء لسقاء جبانة «زمي» «أتورو» بن «بشنسي» و«تسنن حور» بدلًا من بقرة أُخرى.

الكاتب «خمسة شهود».

(٢٣) مستند عن باكورة الأثمار (Ryl. III p. 31)

السنة الخامسة والثلاثون شهر برمهات، مستند بثلاث أوزات، تسلمها الكاهن والد الإله «زحو» من «بتمنستو Petemenstu» بمثابة فائدة عن السنة الخامسة والثلاثين، وقد تسلم «زحو» باكورة الثمار الخاصة بأرض المعبد التابعة لمقاطعة «ديوس بوليس» وهي التابعةُ لمعبد «آمون»، وذلك في مقابل أراضيه هو.

كاتب وأربعة شهود (على ظهر الورقة).

(٢٤) الاعتراف بأمانة (Ryl. III p. 31)

السنة الخامسة والثلاثون، شهر برمودة، يعترف «بتاح أرتايس» بأن لديه سبعة وعشرين مكيالًا من الغلة (؟) في بيته ملك «زبتحف عنخ Zeptehefankh» ومتعهد بإعطائها عند الطلب، كاتب وأربعة شهود.

تاريخ «مصر» بعد نهاية الفتح الفارسي الأول (٤٠٤–٣٤١ق.م)

مقدمة: علاقة مصر ببلاد الإغريق

نزعت «مصر» عن عاتقها نير الحُكم الفارسي على أثر موت الملك العظيم «دارا» الثاني في باكورة عام ٤٠٤ق.م، وقد كان مخلصها «أمير تاوس» — كما ذكرنا من قبل — وتدل الأحوال على أن أرض الكنانة كانت محكومة بأسر مصرية طوال مدة عهد الملك «أرتكزركزس» الثاني الذي كان يُسمى «منمون» (حوالي ٤٠٤–٣٥٨ق.م)، وكذلك في خلال الجزء الأعظم من عهد الملك «أرتكزركزس» الثالث الذي كان يلقب «أوكوس» (حوالي ٣٥٨–٣٣٧ق.م).

وقد كانت علاقةُ «مصر» طوال هذه الفترة التي تبلغ أكثر من ثلثَي قرن من الزمان، مع بلاد اليونان وبخاصة مع «أثينا» و«أسبرتا»؛ وثيقة ونشطة متصلة، سواء أكان ذلك من ناحية المدد الحربي الذي كانت تمدها به هاتان البلدتان لمواجهة الخطر الفارسي، أم من جهة المساعدة المالية والاقتصادية التي كانت تُرسلها «مصر» إلى «أثينا» و«أسبرتا»، وذلك لتنفيذ المشروعات اليونانية المناهضة لملك الفرس العظيم عدو اليونان اللدود.

هذا، ونرى من جهة أُخرى أن الإغريق كانوا أحيانًا يُرسلون إلى بلاد الفرس قوادًا وجنودًا مرتزقة؛ لينضموا إلى صُفُوف الجيش الفارسي لمحاربة «مصر» وإضعافها، ومن ثم نرى أن الإغريق كانوا لا يسيرون على حسب سياسة مُوَحَّدة مع الفرس، على الرغم من شدة كُرهِهم لهم، والواقع أن النفوذ الإغريقي أو الهيلاني، كان ينفذ بشدة بصور مختلفة

في وادي النيل، ولكن بسياسة وحزم؛ ولذلك نرى — في نهاية الأمر — أن البلاد المصرية كانت ممهدة للتسليم لحكمهم عندما شرع «الإسكندر» المقدوني في غزوها.

وسنُحاول فيما يلي أنْ نَضَعَ أولًا إطارًا تاريخيًّا لهذا العهد الذي سبق الفتح المقدوني لـ «مصر» بقدر ما تَسمح به الحقائقُ التاريخيةُ التي في متناولنا، ثم نتحدث عن الفترة التي عاشتْ فيها «مصر» مستقلةً يحكمها أبناءُ جلدتها، إلى أنْ جاء الفتحُ الفارسيُّ الثاني.

ملخص تاريخ الفترة الأخيرة من عهد هذا الفرعون

مقدمة: يجدر بنا أن نذكر هنا أولًا بشيء من الاختصار؛ الحقائقَ الأساسية لِما سنُفصِّلُه بعدُ، فنعلم أولًا أن الفرعون «أميرتاوس» هو الذي خلف على عرش «مصر» الملك «دارا» الثاني الذي يُعَدُّ آخر ملوك الأسرة السابعة والعشرين، والملك «أميرتاوس» يُعد حتى الآن الملك الوحيد الذي يمثل الأسرة الثامنة والعشرين، وقد خلفه على العرش بعد حكم دام ست سنوات الملك «نفريتيس Nepherites» وهو المؤسس للأسرة التاسعة والعشرين المنديسية، وقد مكث على العرش ست سنوات، وفي عهده قامت «مصر» بحرب بمساعدة «لاسيدموني» «أسبرتا»؛ للتغلُّب على الفرس، وكان ذلك في ربيع عام ٣٩٦ق.م، وبعد وفاة «نفريتيس» الأول هذا تولى عرش الملك ملكٌ يُدعَى «أكوريس» حكم ثلاث عشرة سنة، وقد صَدَّ محاولةً قام بها الجيشُ الفارسيُّ لغزو «مصر»، وتحالف مع «إفاجوراس Evagorase» حاكم «قبرص» وأفاد من مساعدة القائد الأثيني «خابرياس Chabrias» وتولى الملك بعد «أكوريس» هذا الفرعون «بساموتيس Psamuthis» غير أنه لم يمكث على عرش البلاد إلا سنة واحدة، تولى بعدها الملك «نفريتيس» الثاني، ولم يحكم بدوره إلا أربعة أشهر، وبذلك انتهت الأسرة المنديسية المنسوبة إلى بلدة «منديس» («تل الربع» الحالية) التي كانت تُعتبر مسقط رأس مؤسسها.

وأتى على أعقاب هذه الأسرة أسرةٌ أخرى، وهي الأسرةُ الثلاثون، وتُلقب بالأسرة السمنودية؛ نسبة إلى بلدة «سمنود»، وقد ظل مُلوكها يحكمون البلاد حتى الفتح الفارسي الثاني، ومؤسسُ هذه الأسرة هو الملك «نقطانب» الأول، وقد مكث على عرش الملك ثماني عشرة سنة، ويمتاز عصرُهُ — بصفة أساسية — بما قام به مِن صد غارة قام بها الفرس حوالي ٣٧٤ أو ٣٧٣ق.م، وجاء بعده الفرعون «تاخوس Tachos» وعلى الرغم من قصر عهده؛ فإن زمن حكمه كان مليئًا بالحوادث الهامة، فهو الذي قام قبل موقعة «ماتيا» (في صيف ٣٦٢ق.م) بحبك المؤامرات على شطاربة مختلفين من الفرس وأمراء من

حُكَّام «آسيا»، ومَهَّدَ للحرب، وهاجم الفُرْس مع القائد الأثيني «خابرياس» وملك «أسبرتا» «أجيسيلاس Agesilas».

وفي عهد هذا الفرعون كذلك قامت ثورةٌ عليه انتزعت منه الملك، وتولى بعده حكم الكنانة الملك «نقطانب» الثاني، وهو الذي ساعده ملك «أسبرتا» «أجيسيلاس»، وقد دام حكم «نقطانب» ثماني عشرة سنة، وهو الذي صد أول هجوم قام به الفرس حوالي عام ٣٥٣ أو ٣٥١ق.م؛ للاستيلاء على «مصر»، وقد انتهى حُكمه بعد ضربة شديدة أنزلها به الفرسُ واليونان، وذلك قبل نهاية عهد ملك الفرس «أوكوس» ببضع سنين، والواقعُ أن تاريخ هذه الفترة كان مليئًا بالأحداث، مما أَدَّى إلى صعوبات جمة خطيرة لتحديد زمنها.

مصادر هذا العهد

ومِن بين أهم المصادر التي يرجع إليها في درس هذا العصر: أولًا: ما تركه لنا «ديودور» الصقلي (Books XIV, XV, XVI etc.) وتاريخه — على الرغم مما فيه من فائدة — يحتوي على متناقضات، ولدينا كذلك قوائمُ مُلوك «مصر» المأخوذة عن «مانيتون»، وهي التي أخذها عن التقاليد المصرية، وهذه التقاليدُ قد وصلتْ إلينا عنه بدورها بصفةٍ غير مباشرة؛ أي أن الاقتباسات التي نَقَلَها عنه نَسَّاخُون متأخرون ترجع إلى القرن الثالث بعد الميلاد؛ ولذلك فإنه لا يُمكن عَدُّها مصادرَ أصلية.

والقوائمُ المتأخرةُ التي وصلتْ إلينا على الرغم من أنها لا تُقدم لنا معلومات قيمة دقيقة عن مُدَد حكم الملوك المختلفين من جهة، إلا أنها من جهة أُخرى تُقدم لنا مدة حكم كل ملك بالتوالي، والمقتبساتُ التي أشرنا إليها غايةٌ في الاختصار حتى إنها تكون — في بعض الأحيان — غامضةً بعض الشيء ومتضاربةً أيضًا، مثال ذلك أننا نجد الأسرة الثلاثين قد مكثتْ في الحكم عشرين سنة، على حسب ما جاء في إحدى هذه القوائم المقتبسة، وثماني وثلاثين سنة على حسب قائمة أُخرى.

وعلى ذلك فإنه ليس من المستغرَب أنْ نجد المؤرخين الأحداث قد وصلوا إلى نتائجَ مختلفة في بحوثهم، وإذا كان قد أصبح مِن المتفق عليه تقريبًا ترتيبُ ثورات الفراعنة على العرش ومدة حكم كُلٍّ واحد منهم؛ فإننا من جهة أُخرى نجد أن بعض الحوادث قد وُضعت في عصور مختلفة للحوادث الأصلية، وهذا التناقُضُ نجدُهُ كذلك في التفاصيل، فمثلًا نجد أن المؤرخين قد اختلفوا على تحديد السنة التي قامتْ فيها حملةٌ فارسيةٌ في عهد

«نقطانب» الأول، وكذلك لم يتفق على زمن الحملة التي أخفق فيها «أوكوس» ملك الفرس في عهد «نقطانب» الثاني، وغير ذلك من الأحداث.

وعلى أية حال: فقد فحص المؤرخ «بول كلوشيه» موضوع هذه التواريخ ووصل فيها إلى نتائجَ تقريبية، (راجع: Rev. Egyptologique Tom. I, p. 257)، وكذلك بحث أخيرًا هذا الموضع الأثريُّ الألمانيُّ Friedrich Karl Kienitz (راجع: Die Politische Geschiehte Agyptens Vom 7 bis Zum 4 Jahrhundert Vor der Zeitwende p. 166–180)، وقد وصل إلى نتائج هامة، يُعتمد عليها في كثير من الأحيان.

والآن بعد هذه المقدمة القصيرة عن ملوك تلك الفترة من تاريخ البلاد؛ سنفصل القول في حُكمهم فيما يلي …

الأسرة الثامنة والعشرون مصر في عهد الفرعون «أميرتاوس» والأسرة المنديسية

يدل ما لدينا من معلومات حتى الآن على أنه لم يكن هناك اتصالٌ مباشرٌ قائمٌ بين العالم الهيلاني والملك «أميرتاوس» (٤٠٤–٣٩٩ق.م)، وهذا الفرعون هو الملك الوحيد الذي يمثل الأسرة الثامنة والعشرين الساوية، ومع عدم وُجُود معلوماتٍ لدينا في هذا الصدد؛ فإنه لا يُمكننا أن نعتبر أن كلًّا من تاريخ «مصر» وتاريخ بلاد الإغريق في هذا العهد كان بعيدًا أحدُهُما عن الآخر.

ومما هو جديرٌ بالملاحظة هنا أولًا التأثير الهام الذي أوجدتْهُ الحوادثُ الجسميةُ الهيلانيةُ المعاصرة في تحرير «مصر» من الحكم الفارسي، وذلك أن حروب البلوبونيز التي دارتْ رَحَاهَا بين «أسبرتا» و«أثينا»؛ كان مِن جرائها — وهي في شوطها الأخير (حوالي ٤٠٥-٤٠٤ق.م) — تحويل قوة الدولة الفارسية من داخلها إلى خارج حدودها؛ وذلك لأن بلاد الفُرس في ذلك العهد كانتْ قدْ وقعتْ في مشاكلَ سياسية، وبخاصة ما قام به «كورش» الصغير الذي كان يُعَد مِن أعظم رجال الفرس وأمهَرِهم في الأحوال الإغريقية (راجع: Xenophon Hell, II, 1, 14; Plutarque Lysander. 9).

ولا شك في أن هذه الأحوال لم تكن مواتيةً من جهة الفُرس لقمع الثورة التي اندلعتْ في «مصر»، وهي الثورةُ التي انتهتْ بتنصيب الفرعون «أميرتاوس» فرعونًا على أرض الكنانة (عام ٤٠٤ق.م)، وسنرى أنه بعد مرور بضع سنين على الاستعدادات التي قام بها «كورش» بمعاضدة إغريق «آسيا الصغرى» (٤٠٢-٤٠١ق.م)، وكذلك الحملة التي قام بها «كلارك Clearque» وجنوده المرتزقة؛ قد أدت إلى شَلِّ حركة حكومة الملك «منمون Mnemon» وتحبيذ ثورة الاستقلال التي قامت في مصر.

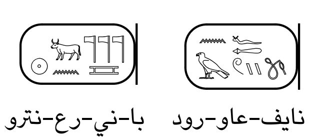
وتَدُلُّ الأحوالُ على أنه حوالي هذا العهد — أو قبله بقليل — كانتْ توجدُ روابطُ صداقة بين الشطرب حاكم بلاد «أيونيا» المسمى «تاموس» الذي كان حليفًا للأمير «كورش» وبين بلاد الإغريق نفسها وبين ملك «مصر» «بسمتيك» الذي كان يحكم على الدلتا وقتئذٍ (راجع: Doid. XIV, 3 53–4).

غير أن هذه الحالة لم تدم طويلًا؛ إذ نجد أنه بعد هزيمة «كورش» قد اعتمد صديقه «تاموس» على صاحبه «بسمتيك» واحتمى في بلاطه، ولكن «بسمتيك» بدلًا من حمايته ذَبَحَه هو وأولاده، (راجع: Diod, XIV, 35, 5) ويقول «ديودور» في ذلك إن «بسمتيك» كان قد أراد بفعلته هذه أنْ يستولي على أُسطول الشطرب وثروته، وعلى أية حال؛ فإن الكارثة التي حاقتْ بالأمير «كورش» إن لم تكن قد أحدثتْ رد فعل في حاشية «أمير تاوس»؛ فإنها — على الأقل — قد نجحتْ في ذلك في الإقليم الذي على الشاطئ، لصالح هذا الملك.

ومن جهة أخرى إذا صدقنا الشائعة التي دَوَّنَها «أكسنوفون Xenophon» فإنه على حسبها كان جيش ملك الفرس يحتوي في صفوفه في موقعة «كوناكسا Cunaxa» على مصريين؛ إذ يقول في ذلك: «وبجانبهم (أي الفرس) كان يوجدُ جُنُودٌ مسلحون بدروع من خشب تصل حتى أقدامهم، وهؤلاء كانوا — على ما يقال — مصريين.» (راجع: Anab 1, VII 1, 9)، وعلى العكس نجد أن قوة الجنود المرتزقة المخيفة بقيادة «كلارك» كانت على شفا القضاء على سلطان «منمون» ملك الفرس، وهذه القوة كانت تميل — بصفة غير مباشرة — إلى استقلال «مصر»، غير أن الأحوال قد قادتها إلى أن تنقلب على الثائرين في وادي النيل، وذلك أنه بعد موقعة «كوناكسا» قدم القائد «كلارك» على حسب ما رواه «أكسنوفون» (راجع: Anab, II, V, 13) إلى «تسافرن Tissapherne» مساعدته بجنوده على «مصر»، (راجع: Anab, II, 1, 14) والواقعُ أن العلاقات لم تكن علاقاتٍ مباشرة بين «مصر» وبلاد اليونان، ويظهر ذلك بصورةٍ عابرةٍ قلقة في عهد تلك الأسرة الساوية التي مثلها «أمير تاوس».

الأسرة التاسعة والعشرون

«نفريتيس» الأول



حكم هذا الفرعون على حسب ما جاء في «مانيتون» ست سنوات، أما على الآثار فنجد أن آخر أثر عُثر عليه له يرجع إلى السنة الرابعة من حكمه كما سنذكر ذلك فيما بعد، (راجع: L. R. IV p. 161, note 5).

وفي عهد الملك «نفريتيس» أول ملوك الأسرة المنديسية (٣٩٩–٣٩٣ق.م)، نجد أن سياسة «مصر» الخارجية كانت — على ما يظهر — تميل إلى مناهضة الفرس بمساعدتها اليونان، وذلك على الرغم من أنه لم يكن حاكمًا قويًّا — كما سنرى بعد.

ويبتدئ «نفريتيس» على حسب ما جاء في «مانيتون» أسرة جديدة وهي الأسرة التاسعة والعشرون التي يرجع أصلها إلى بلدة «منديس» والظاهر أنه توج على «مصر» في عام ٣٩٩ق.م؛ أي قبل موت «أميرتاوس» أو سقوطه بسنة، ويذكر لنا المؤرخ «شور» (راجع: W. Schur, Klio 20/1926, p. 274) أن «نفريتيس» كان مصريًّا في حين أن «أميرتاوس» كان لوبي الأصل غير أن اسم «نفريتيس» بالمصرية «نايف-عاو-رود» ليس مصريًّا قط، والواقعُ أنه كان مثل كل حكام هذا العصر ينتمي إلى أصل لوبي، ولا يفوتُنا أن نذكر هنا أنه يجوز أن الشخص كان يحمل اسمًا غير مصري، ويكون مِن أصل أجنبي، ولكن العكس كان صحيحًا.

وعلى أية حال فإن التغير في اعتلاء العرش قد جاء عن طريق القوة.

وسنرى أن «أميرتاوس» لم يكن في مقدوره أن يضع قواعدَ ثابتةً لتوطيد أسرته كما فعل من قبل «بسمتيك» الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.

وقد ترك لنا «نفريتيس» هذا بعض آثار قليلة ليست بذاتِ أهميةٍ عُظمى، في كل أنحاء البلاد، وذلك في مدة ست السنوات التي حكمها، وسنذكر هذه الآثار التي خَلَّفَها لنا باسمه.

(١) عثر له في السنة الثانية من حكمه في سربيوم «منف» على لوحتين نُقشا بالخط الهيراطيقي، جاء فيهما ذكر دفن عجل «أبيس»، وهما محفوظتان الآن بمتحف «اللوفر». (Deveria, Catalogue des Manuscrits Eg. p. 208; L. R. IV p. 161, Et note 6).

(٢) وعثر على لفافة مومية مؤرخة بالسنة الرابعة من حكمه، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «اللوفر» ومكتوبة بالخط الديموطيقي.

Deveria Catalogue des Manuscrits EgyP. p. 207; Maspero Hist. Anc. III p. 753 A. 2; Wiedmann Gesch. Agyptens von Psammetich 1, bis auf Alexander d. Gr. (1886), p. 273; Gauthier L. R. IV p. 162.

(٣) وفي «تل تمي الأمديد» عثر له على قطعتين من الحجر الجيري عليهما اسمه (A. S. 13, p. 208; Porter & Moss IV p. 37; Gauth, L. R. IV p. 162).

(٤) وكذلك عثر في نفس المكان على قطعة من تمثال مجيب، منحوت في قطعة من تابوت مصنوع من الجرانيت الأسود، وهي محفوظةٌ بالمتحف المصري، وربما كان هذا دليلًا على أن هذا الملك قد دُفن في «منديس»، (راجع: Rec. Trav. 9, p. 19; L.R. IV p. 163 No. 9).

(٥) وفي «منف» وُجد له تمثال «بو الهول» برأس رجُل، مصنوع من البازلت، وهو محفوظٌ الآن بمتحف «اللوفر» (A. 26)، وقد كُتب على قاعدته اسم «نفريتيس» ووصف بأنه محبوب «أوزيرسوكو» و«بتاح» القاطن جنوبي جداره.

(راجع: De Rougé, Notice des Monuments, p. 24; Pierret, Recueil d'lnscri p. II p. 1; Wiedmann Gesch. 273; Gauth. Ibid, 162 No. 5.)

(٦) وفي «سوهاج» عُثر له على محراب من الجرانيت الأحمر، وُجد في الدير الأبيض (راجع: Ancient Egypt 1915, p. 27).

(٧) أما في الكرنك فقد عُثر على قطعتين من الحجر الرملي عليهما صورٌ تمثل هذا الملك وآلهة مختلفة، وهذه القطع وُجدت مبنية في معبد «خنسو» الصغير الواقع في الجنوب الشرقي من مُحيط المعبد الكبير، وقد شاهد هذه القطع «لبسيوس» وتدل شواهدُ الأحوال

على أن البطالمة قد استعملوها في إصلاح هذا المعبد، وهذه القطع محفوظةٌ الآن في متحف «برلين» (راجع: Mus. Berlin No. 2113 & 2114; Wiedmann Gesch. Aegypt. Von Psammetich 1 bis Alex. p. 273).

(٨) هذا وتُوجد قطعةٌ أُخرى لهذا الملك من نفس المكان السابق، (راجع: Wiedemann p. S. B. A. VII (1885) p. 111; wiedemann Suppl. p. 75; Petrie Hist. of Egypt p. 373; L.R. IV p. 162 No. 4).

(٩) وتوجد كذلك قطعة أخرى من نفس المعبد السابق (راجع: Cham p. Not. Descr. II 290; petrie. Ibid. 373; L.R. IV 162 A 5, Potrer & Moss II 89).

(١٠) ويوجد له تمثالٌ مجيب بمتحف «اللوفر» (راجع: Rec. trav. 4. p. 110; wiedemann, Ibid 273; petrie Ibid 373; L.R. IV 163 No. 9).

(١١) هذا ويوجد طابع خاتم هذا الملك في المتحف البريطاني، (راجع: Brit. Mus 5583; Hall, Scarabs 1 p. 292 No. 2792; Petrie Scarabs and Cylinders p. 40).

(١٢) ويوجد له جعرانٌ وقطعٌ أخرى صغيرةٌ في «يونيفرستي كولدج بلندن وبتروغراد» (راجع: Petrie Ibid. p. 33, 40 & pl. LV11, 29, 1).

هذا وقد نشرت كتابة على لوحة من الخشب نشرها «نوري هويت Towry white»، (راجع: p. S. B. A, 23, (1901) p. 130–131)، غير أن هذه النقوش من طراز كتابتها لا بد أن تكون مزورة على الرغم من قلة النقوش التي تنتسب لهذا الملك (راجع: Petrie Hist. III p. 373; Gauth. L.R. IV p. 163 No. 7 & A 1).

هذه هي كل الآثار التي تُنسب إلى عهد هذا الفرعون، ويُلحظ فيها أنها لم تحدثنا بكلمة واحدة عن سياسته الخارجية قط، والواقع أن سياستَه الخارجية كانت تنحصر في علاقته مع ملك الفرس وأعدائه اليونان، وقد لعب دورًا محدودًا في مُدة حكمه، وكان غرضُهُ الأكبرُ هو المحافظة على استقلال بلاده التي كانت تطمع الفرس في استردادها، ووَضْعِها تحت سيطرتها؛ ولذلك نجد أنه قد استجاب في عام ٣٩٦ق.م إلى مساعدة «أجيسيلاس» ملك «لسيدمونيا» «أسبرتا» عندما سار الأخير لمحاربة الفرس، وكانت «لسيدمونيا» تبحث وقتئذٍ عن حلفاء يساعدونها على طاغية الفرس، وقد فكرت بطبيعة الحال في «مصر» عدوة الفرس، وكانت وقتئذٍ بلادًا غنية ولها جيشٌ وطنيٌّ جديد، نالت به استقلالها حديثًا من الفرس، وقد حضر إلى «مصر» فعلًا رسولُ «أسبرتا» لمقابلة «نفريتيس» وطلب إليه عَقْدَ حلف مع بلاده لمناهضة الملك العظيم (راجع: Diod. XIV, 79, 4).

على أن ما قام به «نفريتيس» من مساعدة يدلُّ دلالةً واضحةً على السياسة المحددة التي اتبعها في هذه المرة، وهي سياسةُ دفاع ستكونُ النهج الذي سيسير عليه ملوكُ «مصر» في عَهْدَيِ الأُسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين. هذا، ويجدر بنا أن نُشير هنا إلى أنَّ مشروعَ المحالفة لم يأتِ من جانب «مصر»، ولكنه جاء من جانب «أسبرتا»، ومِن ثم يُمكننا القولُ إن هذا الفرعون لو تُرك وشأنه لَمَا دار بخلده أن يقوم بأَيِّ تَعَدٍّ على «أرتكزركزس» عاهل الفرس، والظاهر أنه لم يكن لديه أي رغبة للفتح والغزو، كما كانت عادة الفراعنة أسلافه عند تولِّي عرش الملك في تلك الفترة، بل نجده قد قنع باستقلال بلاده، يضاف إلى ذلك أن «نفريتيس» لم يقدم لحليفته الجديدة «أسبرتا» مساعدة إلا بقدر معلوم، كما حَدَّثَنَا عن ذلك بصراحة «ديودور» إذ يقول: إن الأُسبرتيين لم ينالوا مساعدةَ الفرعون الحربية، بل حَصَلُوا منه على نصف مليون مكيالٍ من الشعير وعلى الأدوات اللازمة لتجهيز مائة سفينة حربية (راجع: Diod. XIV, 79, 4).

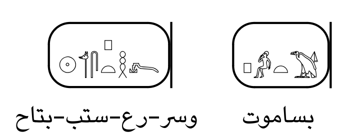
وقد اقتضت الأحوالُ أن تكون المساعدةُ المصرية غيرَ كافية جزئيًّا؛ وذلك لأن اللاسيدمونيين الذين حملوا الحبوب المصرية للجيش الذي كان في «آسيا» قد رَسَوْا بسُفُنهم في جزيرة «رودس»، غيرَ عَالِمِين أنها كانت قد انحازتْ لعَدُوِّهم حديثًا، ومن ثم استولى القائد «كونون Conon» وأهالي «رودس» على ما كانتْ تحملُهُ السفنُ من مئونة (راجع: Ibid. XIV, 79, 7).

وفي هذه الحالة نُشاهد أن موقف الفرعون لم يكن موقفَ تَرَدُّدٍ أو مخادعة؛ إذ لم يتزحزحْ عن خطته، وهي الحياد، فلم يرسل مساعدة فعلية لأعداء المِلِك العظيم، والواقعُ أنه لم يغادر البلاد المصرية جنديٌّ واحدٌ أو سفينةٌ حربيةٌ واحدةٌ لمساعدة حليفته، وقد كانت كل مشاركة «نفريتيس» في هذا المشروع الحربي المعادي للفرس قد نفذت بصورة تدل على منتهى التحفُّظ والحرص، ولا شك في أن ما فعله كان خُرُوجًا بعض الشيء عن الحياد، ولذلك يظهر أن المحالفة التي قامت بين البلدين لم تكن محالفةً بالمعنى الحقيقيِّ.

وقد مات «نفريتيس» في عام ٣٩٣ق.م، بعد أن حكم أرضَ الكنانة حوالي ستة سنوات، وقد جاء عنه في الحوليات الديموطيقية عبارةٌ غيرُ كاملة: «لأن ما فعله كان قد عمله بعلم مما جعل ابنه يخلفه»، وقد دُفن في «منديس» أو في ضواحي «تمى الأمديد» حيث عثر على قطعة من تماثيله المجيبة — كما ذكرنا آنفًا — وبموته قامتْ ثورةٌ طاحنةٌ في داخل البلاد،

ولم يمكث ابنه «موتس» على عرش البلاد إلا مدة قصيرة جدًّا، «فقد عزل عن الملك بعد مدة قصيرة (؟)؛ بسبب آثام كثيرة ارتكبها في مدة حكمه … وقد عزل (؟)»، وبما أنه كان قد حاد عن القانون فإنه قد نصب خلفه في مدة حياته (راجع: Demotische Chronik col. III 21, IV, 6). هذا، ولم نعرف حتى الآن آثارًا للملك «موتس» هذا.

الملك بساموتيس



وقد خلفه على عرش الملك مدع آخر يدعى «بساموتيس Psammuthis» غير أنه لم يمكث كذلك على عرش الملك أكثر من سنة واحدة، هذا، ولا نعرف أي صلة بينه وبين كل من الملك «نفريتيس» وابنه «موتس»، فهل يمكن أن يكون شطب اسم «نفريتيس» الأول من قطعة الحجر التي عثر عليها في الكرنك كان من عمل «بساموتيس» هذا؟

وتدل الأحوال على أن قوة نفوذه كانت في الجنوب؛ وذلك لأن الأثر الوحيد الذي عُثر عليه له كان من الكرنك، غير أن ذلك لا يمكن أن نَستنبط منه أنه كان من أهل الوجه القبلي.

وعَلَى أية حال فإن هذا الملك على الرغم من قصر مدة حكمه؛ قد ترك ما يدل على نشاطه، فقد كان أهم عمل قام به هو إقامة معبد صغير أمام الجناح الجنوبي للبوابة الأولى لمعبد الدولة الكبير في الكرنك، وكذلك لم يكن في استطاعة «بساموتيس» أن يمكث طويلًا على عرش الملك، ففي عام ٣٩٢ق.م عزل من عرش الملك، وقد جاء عنه في الحوليات الديموطيقية ما يأتي:

وكان رابع حاكم بعد حكم الميديين، وهو «بشن موت» ولم ينهج طريق الإله، فلم يترك طويلًا في الحكم، (راجع: Demotische Chronik Col. IV 7-8).

وقد ترك لنا الآثار الآتية غير ما ذكرناه آنفًا:

(١) قطعة من الحجر عليها اسمُهُ عُثر عليها في قرية «النجع الفوقاني» بالكرنك، وهي محفوظةٌ الآن في متحف «برلين» (No. 2095) (راجع: L. D. III 259 b.; L.D.T. III p. 40; Ausf. Verz. p. 245; L.R.IV p. 168 No. 2; Porter and Moss II p. 89).

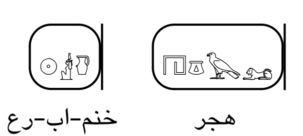
(٢) وكذلك عثر له على قطعة من عمود في ردهة المعبد الكبير بالكرنك ما بين البوابتين التاسعة والعاشرة (راجع: Porter & Moss II p. 61).

(٣) وقد ظهر نشاطُهُ في العمارة في المخزن الواقع في الجنوبِ الشرقيِّ لمعبد «آمون» (راجع: L.D. III 259 a; L.D.T. III, p. 42; ChamP. Mon. 283, No. 4; IV 303, No. 1; 309 No. 3; Rosellini Mon. Stor. 1, 14, No. 56; 154, No. 4; Mariette. Karnak Texte p. 11; Wiedemann p. S.B.A.7, (1885) p. 108–110).

(٤) وأخيرًا وجد له جعران باسمه (راجع: Petrie, Scarabs and cylinders p. 48, Pl. LV11, 29, 3)، هذا وهناك شكٌّ كبيرٌ في أن الخاتم المصنوع الذي وجد عليه طغراؤه (A.Z. 21 p. 70) وكذلك الجعران الذي وُجد في مجموعة «لوفتي Loftie» وذكره «بتري» (راجع: Petrie Hist. Scarabs No. 2000) وكذلك ذكره «جوتييه» في كتاب الملوك (راجع: L.R. p. 169 No. 4 & 5 note 3) هما له.

هذا، ولا بد أن نُشير هنا إلى أن ما ذكره «رفييو» (Revillout, Rev. Egypt. 2 (1882) p. 56) من أن قبر هذا الملك موجودٌ في «سفارة»، ونشر ذلك «لبسيوس»، كان نتيجة خطأ وقع فيه.

الملك «هجر» (أوكوريس)[1]



حكم هذا الفرعونُ على حسب ما جاء في «مانيتون» ثلاث عشرة سنة (٤٠٠–٣٨٧ق.م)، (راجع: Unger Chronologie des Manetho p. 297) وفي رواية أخرى حكم عشر سنين، غير أن الرقم ثلاث عشرة سنة هو الرقم الذي يعترف به المؤرخون عادة.

وجاء في «مانيتون» أن هذا الملك هو خليفة «نفريتيس»، ولكن الأثري «فيدمان» يقول على حسب الحوليات الديموطيقية أنه جاء بعد الملك «بساموت»، غير أنَّ نقشًا بالكرنك يحبذ رواية «مانيتون» (راجع: Daressy, Notice explicative des ruines de medinet Habou p. 22; L. R. IV p. 164 & 165 No. 3).

وقد توصل الملك الجديد «أوكوريس» في نهاية الأمر إلى القضاء على الفوضى التي كانت شائعةً في البلاد، ويدل ما قام به «أوكوريس» هذا من شطب اسم الملك «بساموتيس» من نقوش المعبد الصغير الذي كان قد أقامه في الكرنك ووضع اسمه هو مكانه. على أنه كانت قد نشبتْ حربٌ بينهما، والظاهرُ أنه قد أَتم هذا المعبد الصغير الذي لم يتم في عهد سلفه — كما سنرى بعد — ولكن من جهة أُخرى يبرهن اسم ابنه «نفريتيس» على أن «أوكوريس»

[1] انظر (Revue D’ Egyptologie Tom. VII p. 107) ٣٩٢–٣٨٠ق.م.

— على ما يظهر — كانت اسمًا مصريًّا (راجع: A. S. 18, (1919) p. 39, No. 2) ومن المحتمل إذن أن الاضطرابات التي قامت في البلاد في عامَي ٣٩٣، ٣٩٢ق.م كان سببها — على وجه عام — خلافًا بين نفس أفراد الأسرة.

والواقع أنه بِتوَلِّي «أوكوريس» عرش الملك بدأ في أرض الكنانة عصرٌ جديد، ولا بد أن نَعتبره بأنه هو الواضعُ الحقيقيُّ للسيطرة المصرية في القرن الرابع قبل الميلاد، فمنذ بداية عهده لم يكن استقلالُ «مصر» يُعَدُّ نتيجة لأمر واقع؛ لأن بلاد الفُرس عدوه اللدود؛ كانت في نضالٍ عنيفٍ مع الإغريق في «آسيا الصغرى» وبحر «إيجة»، وأكبر دليل على عِظَم قوته ورخاء البلاد في عهده ما تركه لنا من آثار ضخمة في طول البلاد وعرضها، فقد ترك لنا في مدة الثلاث عشرة سنة التي حكمها حوالي خمسة وثلاثين أثرًا منتشرة في أنحاء البلاد، من أول قناة السويس شمالًا حتى مدينة «الكاب» جنوبًا.

والواقعُ أنه — كما سنرى بعدُ — قد أمر بإقامة المباني في «الكرنك» و«الأقصر» و«المدمود» ومدينة «هابو» و«الكاب»، وقد عُثر له في «إهناسيا المدينة» على قطعة من محراب، وفي «سوهاج» وُجد له ناووسٌ من الجرانيت، وفي الدلتا حيث كانت تتركز سياسةُ البلاد عُثِرَ له على سلسلة تماثيلَ مَلَكية، هذا بالإضافة إلى تمثال «بو الهول» من البازلت جميل الصنع، وكذلك وُجدتْ مجموعةٌ نقوش عدة في محاجر «طرة» و«المعصرة» مؤرخةٌ بالسنوات الست الأولى من حكم هذا الفرعون، وهذا دليلٌ ناطقٌ على أن «أوكوريس» قد أقام مباني في الوجه البحري، وفضلًا عن كل نشاطه هذا في العمارة فإنه يُعَدُّ مؤسسًا لقوة بحرية عظيمة في «مصر».

ولا نزاع في أن السياسة التي نهجها «أوكوريس» كانت أكثر جرأة وأوضح سبيلًا من التي سلكها سلفُهُ «نفريتيس»، ولا أَدَلَّ على ذلك من المساعدة التي قدمها إلى «أفاجوراس» صاحب «قبرص»؛ فقد كانتْ أكثر تحديدًا وأعظم أهمية، على الرغم مِن أنها كانتْ على نِطاق ضيق، ولم تَدُمْ طويلًا، وفي الحق لم يكن الموقف الذي يقفه «أوكوريس» هو نفسَ الموقف الذي كان في عهد «نفريتيس»، فَمِمَّا لا شَكَّ فيه أنَّ ثورة «مصر» على الفُرس، ومشاركة المصريين المتواضعة في الحملة التي أُرسلت على الفرس عام ٣٩٦ق.م كانت قد شغلت بال حكومة «أرتكزركزس الثاني»، وقد أرسل هذا الملك العظيم حوالي عام ٣٩٠ق.م حملة على «مصر» قوية، ولما رأى «أوكوريس» أنه قد هُدِّدَ بصورة مباشرة بالجيوش الجرارة التي كان يقودها كلٌّ من «أبروكومس Abrocomes» و«تيتروستس Tithraustes» و«فارنابازوس Pharnabasos» (راجع: Isocrates Pangyr., 148)، فإنه لم يَرَ بُدًّا من التحالُف مع

ألدِّ أعداء عاهل الفُرس وقتئذٍ، وهما في تلك الآونة «أثينا» و«أفاجوراس صاحب قبرص»، على أن محالفتَه لبلاد «أثينا» في عام ٣٨٨ق.م لم تكن إلا حدثًا جديدًا كما ذكر لنا ذلك «أريستوفان» (راجع: Ploutos, 179)، ومن المحتمل أن هذه المخالفة لم تكن إلا نتيجة غير مباشرة وحادثًا ثانويًّا، إذا ما قِيستْ بمحالفته مع «قبرص» التي كانت تُعاضد «أثينا» منذ عام ٣٩٠ق.م.

ومما يؤسَف له أنه ليس لدينا حقائق تُحدثنا عن مقدار ما جنتْه «مصر» من فائدة مِن وراء هذه المعاهدة الأثينية المصري. هذا، ويدلُّ الصمتُ المطلق الذي لجأ إليه كل من المؤرخين «أكسنوفون» و«ديودور» بصورة واضحة المعالم على عكس ما أظهراه من جهة العلاقات بين «أثينا» و«قبرص» وبين «مصر» و«قبرص» على أن هذه المحالفة لم يكن لها أية أهميةٌ أساسيةٌ، ولا بُدَّ أنها قد انتهتْ مِن تلقاء نفسها بصلح «انتالسيداس Antaicidas» عام ٣٨٧–٣٨٦ق.م.

ولكن مِن جهة أُخرى يُحدثنا «ديودور» عن العلاقات التي كانتْ بين «أوكوريس» و«أفاجوراس» بشيءٍ من الاختصار، ولكنه اختصارٌ مفيدٌ، ويقولُ إن «أفاجوراس» قد عَقَدَ معاهدةً مع «أوكوريس» ملك «مصر» الذي كان وقتئذٍ في حالةِ حرب مع الفُرس، وقد وصل إليه إمداداتٌ هامة، والألفاظُ التي استعملها «ديودور» في هذا الصدد لا تَسمح لنا أنْ نَحكم بأن المفاوضات عن المعاهدة التي أُبرمت بينهما قد جاءتْ من جانب «أفاجوراس» لا من جانب «أوكوريس»، وعلى أية حال يمكن القول إن «أوكوريس» عندما رأى أن بلاده مهددةٌ بخطرِ الغزو من جانب الفرس سارع في إبرام هذه المعاهدة، ولا شك في أن هذا التَّحَالُف يظهر عليه أنه كان أَشَدَّ قوة من التحالف الذي عُقد بين الملك «نفريتيس» وبلاد «أسبرتا»؛ وذلك لأنه كان اتفاقًا حربيًّا، لا مجرد معاهدة صداقة.

ومما يلفت النظر هنا أن «أوكوريس» كان في مقدوره أن يثبت أمام المهاجمين من الفرس ويُلحق بقوادهم هزائمَ أفدحَ من التي حاقتْ به — كما ذكر لنا ذلك «أسوكرات» — (راجع: Ibid. Pang.,140)، هذا فضلًا عن أنه أرسل فريقًا مِن جيشه لِمساعدة «أفاجوراس»، ولكن يتساءل المرءُ: هل كان بين هذا المدد بعضُ الجُنُود المرتزقين الذين استعان بهم «أوكوريس» فيما بعد في حُرُوبه؟ (راجع: Diod. XV, 29, 1).

والجواب عن ذلك أنه قد يجوز، ولكن المتن لم يحدثنا بشيء عنه، ومن الجائز أن «أوكوريس» قد قطع الطريق على الغزاة من الفرس، وبذلك قدم يد المساعدة لحليفه «أفاجوراس»، وذلك بفضل جُنُوده الوطنيين فقط.

هذا، ولم يقفْ «أوكوريس» عند هذا الحدِّ في مساعدة «أفاجوراس» حربيًّا بل أرسل مثل «نفريتيس» الحبوبَ إلى حليفه، يُضاف إلى ذلك أنه وضع تحت تَصَرُّفِهِ ثروةً طائلة، وأخيرًا أرسل أُسطولًا مؤلفًا من خمسين سفينة لمعاضدته (راجع: Diod. Ibid, XV, 34).

ويُلحظ هنا أن المؤرخ «ديودور» لم يذكر لنا أولًا المدد البحري الذي — على ما يظهر — جاء متأخرًا نسبيًّا، وأنه جاء بعد إِرسالِ المدد من الجُنُود والغلال والمال، والواقع أن عرض هذا المدد لم يَأْتِ من جانب «أوكوريس»، بل جاء بناءً على طلب مِن «أفاجوراس» عندما شاهد أنَّ قِلَّةَ عدد جيشه البحري لا تكفي لمقاومة الفرس، (راجع: Ibid. XV, 3, 4).

ومع كل ذلك فقد نزلت بالجيش الأسبرتي كارثةٌ بحريةٌ في موقعة «كيتون»، وقد وقع هذا الخبرُ على «مصر» وقوعَ الصاعقة (راجع: Ibid. XV, 35–6)؛ وذلك لأن الخمسين سفينة الحربية التي أرسلها «أوكوريس» لمساعدة حليفه، وهي تُعادل رُبع الأُسطول الفارسي؛ قد فُقدت (راجع: Ibid. XV, 34)، يُضاف إلى ذلك أنه في نفس الوقت كانت قد بدأت تَظهر علاماتُ الفُتُور بين «أفاجوراس» والفرعون «أوكوريس»، وما حَدَّثَنا به «ديودور» في هذا الصدد واضحٌ جليٌّ، فقد ذكر لنا أن «أفاجوراس» الذي هُزم في واقعة «كيتون» قد هرب تحت جنح الظلام من بلده «سلامين Salamine» طالبًا الحماية في بلاط حليفه الأول، غير أنه لم يَلْقَ منه أيَّ تِرْحَاب لِمَدِّ يد المساعدة؛ ولذلك اضطرَّ ثانية إلى أنْ يَعُود إلى الملك «أوكوريس»، ويرجوه في أن يستمر في مُزَاوَلة الحرب بقوةٍ وعزم، وأنْ يتأكد من صدق الرابطة المتينة التي تربطُهُ به على مغالبة ملك الفرس (راجع: Ibid. XV, 4, 2)، ومنذ تلك الحادثة أصبح التحالفُ الذي بين هذين البلدين مجردُ تحالُف رسمي وحسب، ولا أَدَلَّ على ذلك من أن المساعدة التي كان يُقدمها ملكُ «مصر» للملك «أفاجوراس» كانت ضئيلةً، فلم يعد يرسل إليه جُنُودًا أو سُفُنًا حربية، بل كان كل ما أمد به «أفاجوراس» عند عودته من «مصر» هبةٌ من المال كانت أَقَلَّ بكثيرٍ مما كان يُنتظر منه (راجع: Ibid. XV, 8, 1)، وهكذا نرى أن المساعدات العظيمة التي كان يُقدمها ملك «مصر» لحليفه «أفاجوراس» قد أخذت في التضاؤل والتراخي، وإذا سَلَّمْنَا أنَّ السياسة المصرية في هذا العهد لم تكنْ فسيحةَ الأُفُق، وأنها كانت ذاتَ طابع قاريٍّ أكثر منه بحري، وأنها ذات صبغة مصرية محضة، فإنه يُمكننا أن نُفَسِّرَ بسهولةٍ هذا التطوُّر الذي ظهر في سياسة «أوكوريس»؛ وذلك أنه رأى أنَّ دوامَ وُجُود تهديد حربي خطير على «مصر» وما دام هذا الخطرُ من نتيجته أن يودي باستقلال أرض الكنانة؛ فإنه لم يُظهر أقل حماس لصالح محالفه.

وتدل الظواهرُ على أن مساعدة «أوكوريس» البحرية التي لم تأت إلا متأخرة قد أُرسلت بعد إلحاح من حليفه، ولم تأت عن طِيبِ خاطر، هذا فضلًا عن أنها كانت غيرَ كافية، وقد كانت كارثة «كيتون» خاتمةَ المطاف لإبعاده عن مساعدة «أفاجوراس»؛ إذ كان يمده بمساعدة ضئيلة، بل لقد تحالف مع ابن «تاموس» المسمَّى «جلوس» الذي كان قد خرج على ملك الفرس العظيم، ولكن لم نستطعْ معرفةَ قيمة هذا التحالُف الذي عقد مع «جلوس» (راجع: Diod. XV, 9, 3)، وتدل الأحوال على أن الفرعون «أوكوريس» قد استعمل كل موارده في داخل حُدُود بلاده، فلم تعد الجنود أو السفن الحربية الفرعونية ترسل لمساعدة حلفائه اليونان على هزيمة الفرس، بل كان القُوَّادُ والجنودُ المرتزقون من الإغريق هم الذين كانتْ تجلبُهُم أموالُ الفرعون إلى دلتا النيل زرافات ووحدانًا، ويحدثنا «ديودور» (راجع: Ibid. XV, 29, 1) عن تجمعهم بكثرة حول الملك «أوكوريس» الذي كان يُغدق عليهم المبالغ الباهظة ويمنح العدد الوفير من قوادهم الجدد العطايا (XV, 29, 1)، وقد نصب «أوكوريس» على الجيش الذي ألفه من الجُنُود اليونان بهذه الكيفية القائد «خابرياس» الأثيني، وقد حصر «ديودور» كلامَه في التحدُّث عن الحماس والنشاط اللذَين أظهرهما هذا القائدُ العظيمُ في قيادة جيشه (XV, 29, 2)، غير أنه لم يُشِرْ قَطُّ إلى أن هذا الجيش قد قام بمحاولةٍ حربيةٍ مِن قبله بمهاجمة عدو البلاد، ومن جهة أُخرى يذكر لنا المؤرخُ «كورنيلياس نيبوس Cornelius Nepos» (راجع: Iphicrates, 2) صراحة أن الملك «أرتكزركزس» قد أرسل رسولًا إلى الأثينيين يطلب إليهم «أفكراتيس»؛ لأنه يُريد مهاجمةَ «مصر»، والواقعُ أن «خابرياس» قد أَبْدَى نشاطًا في «مصر» لإعداد الجُنُود وتدريبها، هذا فضلًا عن إقامة حصنين عند الحُدُود؛ لحمايتها من الجهتين الشرقية والغربية (راجع: Strabon XVI, 11, 33, XVII 1, 22).

وعلى أية حال فإنه مهما كانت مقاصدُ كُلٍّ مِن «خابرياس» والفرعون «أوكوريس»؛ فإن من الواضح أنَّ السياسةَ المصريةَ كانتْ في أساسها ذاتَ صبغةٍ حربية قارية، وأن دِلْتَا النيل كان مقدرًا لها — كما حدث في عامَي ٣٨٩–٣٨٧ق.م — أن تكون المكانَ الأساسيَّ للحرب التي ستنشب لمواجهة الغزاة، وصدهم عن احتلال البلاد المصرية كرة أخرى.

ولكن الواقع أنه لم تنشب نار حرب بعدُ في عهد الملك «أوكوريس» لصد عدوان الفرس عن «مصر». هذا، وتُحدثنا الأخبارُ أن هذا الفرعون قد حرم عام ٣٨٠ق.م أحسن مُساعِد له في شئونِ الحرب؛ وذلك لأن «خابرياس» لم يكن موفدًا رسميًّا من قبل «أثينا» لقيادة جيش الفرعون وإعداده لمواجهة العدو، بل الواقعُ أنَّ هذا القائدَ كان قَدْ غادر «أثينا» دون أن يَأْخُذَ

موافقةً رسمية من «ديموس Demos» (راجع: XV, 29, 2)، ولكن مع ذلك يتساءل المرءُ: هل كان «خابرياس» يعمل بوصفه قائدَ جُنُود مرتزقة وحسب؟ والجواب عن ذلك هو: لا؛ وذلك لأن «أثينا» التي كانتِ الحليفةَ القديمة لكل من «أفاجوراس» والفرعون «أوكوريس»، قد انحنتْ أمام الحوادث التي وقعت في عام ٣٨٧–٣٨٦ق.م، وجعلتها تمر دون أن تفكر في قطع العلاقات الودية التي كانت بينها وبين عاهل الفُرس، فقد كان مِن المحتمل أن الأثينيين الذين جُرح شعورُهُم بسبب ضآلةِ ما جنَوه من معاهدة «أنتالسيدس Antalcides» وكسر شوكة «أفاجوراس»؛ قد نظروا بفرحٍ وغبطةٍ إلى مساعدة قائدهم الممتاز «خابرياس» لملك «مصر» من أجل القضاء على أعدائهم الفُرس، ولا شك في أن ملك الفرس وقُوَّادَه كانوا وقتئذ يخشون — بطبيعة الحال — وُجُود «خابرياس» على رأس الجيش المصري بجانب الفرعون «أوكوريس»، وقد كان مِن جراء ذلك أن انتخب الملك «أرتكزركزس» القائد «فارانابازوس pharanabazos» ليكون على رأس جيشه الذي أَعَدَّهُ لمحاربة «مصر»، وقد طلب هذا القائدُ بدوره إلى الأثينيين استدعاءَ «خابرياس» من «مصر»، وقد جاء هذا الطلبُ في فترة مناسبة؛ وذلك لأن قوةَ الفرس وسلطانَهم منذ صلح عام ٣٨٧–٣٨٦ق.م، وهزيمة «أفاجوراس» قد أخذتْ في الازدياد لدرجةٍ مخيفةٍ، وقد رأى الأثينيون أمام ذلك أنه لا بُدَّ من مهادَنة مِلك الفُرس واكتساب رضاء «فارانابازوس» (راجع: Ibid. XV, 29, 4)؛ ولذلك خضعوا لمطلب هذا الشطربة القوي، ووعدوه بأكثرَ مِن ذلك وهو أن «إفيكراتيس» سيقوم قريبًا للانضمام للمعسكر الفارسي.

وهكذا انتهى عهدُ الفرعون «أوكوريس» الذي بدأ بفخار وعظمة دون أن يمنع عن بلاده العدوانَ الذي كان يَتَهَدَّدُها من قِبل الفرس، وإذا كانت «مصر» لم تُقَدِّمْ لحلفائها الإغريق إلا مساعدةً ضئيلةً محدودةً مما أدى إلى هزيمتهم؛ فإن ذلك لم يكن في مصلحتها؛ إذ قد بقيت منفردة دون أن يكون لها عضدٌ من المدن الهيلانية الرئيسية، التي كانت محالفة لها في سنتي ٣٩٦–٣٩٥، ٣٨٩–٣٨٧ق.م، مما أدى إلى انقلابِ الحال فأصبحتْ هذه المدن على ودٍّ ومُصافاةٍ مع الفُرس، ولو ظاهرًا.

ولا نزاع في أن «مصر» على الرغم مِن أنها فقدتْ صداقةَ حُكَّام المدن الإغريقية العظيمة مثل «أثينا» و«أسبرتا»؛ فإنه كان في استطاعتها — بما لديها من مواردَ اقتصاديةٍ، وثراء ضخم — أن تَجلب إلى خدمتها وتضع تحت تصرُّفها نشاط آلافِ الجُنُود الإغريق الطموحين الذين يميلون للمغامرة حبًّا في كسب المال، غير أنَّ مغادرة القائد «خابرياس» الذي كان مكلفًا بتنظيم قوة «مصر» الحربية الهائلة؛ قد أضعفتْ معنويتها بصورة بارزة، وذلك في

وقتٍ كان الفُرس يستعدُّون فيه لتجهيز جيشٍ جرار بإشراف القائد «فارانابازوس» الذي كان لا يَقِلُّ في مهارته الحربية عن «خابرياس» لغزو «مصر» كَرَّةً أُخرى، وجَعْلها ولايةً فارسية من جديد.

نشاط «أوكوريس» في الواحات وغيرها

ولم تقتصر سياسة «أوكوريس» على معاهداته مع بلاد اليونان لمناهضة الفرس، بل نجد كذلك أن عماله في «آسيا الصغرى» كانوا يُبدون نشاطًا ملحوظًا، فقد عقد هذا العاهلُ مع «بيزيدرن» — الذي تَخَلَّى عن تبعيته للفرس في «آسيا الصغرى» — معاهدةَ ود وصداقة، (راجع: Theopom p. Frg. 103 (111); Jacoby F. Gr. Hist. II, 2, p. 558, 1–11)، وفي الغرب عقد محالفة مع «باركارن Barkäern» قوامها الود والمهادنة (راجع: TheopomP. Ibid, p. 558, 1)، وبذلك حمى ظهره، وفضلًا عن ذلك سهلت هذه المعاهدة على الجنود الإغريق المجيء إلى «مصر»، والانضمام إلى جيشها.

هذا، وقد وَجَّهَ «أوكوريس» قوته إلى التوسع في الخارج نحو الغرب، فنجد أن حاكم واحة «سيوة آمون» (راجع: Herod. II, 32) المسمى «ستخ-أر-ديس» قد اعترف بسلطان «أوكوريس» عليه.

والواقعُ أن الملك «أوكوريس» يُعَدُّ أولَ حاكمٍ مصريٍّ ظهر اسمُهُ هنا في النُّقُوش الهيروغليفية كما سنرى بعدُ، فمنذ زمنٍ أُعيد بناء معبد «أغورمي» الذي لم يكن — في الواقع — مبنيًّا على الطراز المصري قط، فأصبح ذا طابع مصري (راجع: A. Z., 69, (1933) p. I ff & p. 7 ff & 21 f).

والسبب في هذا الزحف في الغرب لم يكن إلا سياسة خارجية؛ إذ لا نزاع في أن واحة «آمون» هذه لم يكن لها معنًى لدى «مصر» والمصريين وقتئذٍ (راجع: O, Eissfeladt, Philister und Phönizier A. O. 34 Band Heft 3, (1936) p. 16 ff).

حيث يقول: إن واحة «آمون» ليس لها — على ما يظهر — علاقةٌ ب «آمون» المصري، ولكن كانت مكانتُهُ ثانويةٌ؛ إذ قد حَلَّ محلُّه بوساطة الفنيقيين إلهُهُم المسمى «بعل هامون»، وهو الذي قد طُوي في عالم النسيان (اقرن ذلك بكتابة واحة «آمون» بتضعيف الميم مع كتابة «آمون» المصري بميم غير مضعفة)، وقد كانت الحملة في ذلك الوقت تحتاج إلى تعب وتحمُّل مخاطر كما كانت الحالُ منذ زمن قريبٍ في عَصْرنا. والواقع أن واحة «آمون» كانت

بالنسبة للمصريِّ عند قرن إلهها بإلههم «آمون» «طيبة» شيئًا لا يُذكر، ولكن من جهة أُخرى كانت قيمتُها للمصري من الوجهة السياسية العالمية، وبخاصة أن «آمون» الصحراء الذي كان على الطريق الموصِل إلى «فرنيكا» منذ القرنين السادس والخامس؛ على جانب عظيم من الأهمية البالغة، فقد طلب إليه «كرويسوس» المشورة قبل هجومه على «كورش Kyros» عام ٥٤٦ق.م، (راجع: Herod, I, 46).

وَقَدْ وَفَّرَ على «قمبيز» — كما قيل — نصرًا حربيًّا يستحق الذكر.

وقد أهدى الشاعر «بندر» لـ «آمون» اللوبي أنشودة (راجع: Frg. 36 (Schroeder), cf. Schol. Pind. IX, 89; Pausanias, IX, 16, 1)، وكذلك أرسل «كيمون» قبل موته بقليل (٤٥٠–٤٤٩ق.م) إلى «آمون» رسولًا (راجع: Plutarch Kimon, 18)، وسعى «ليسندر» لغرض في نفسه ليجعل «آمون» في خدمته (راجع: Diod. XIV, 13, 5).

ولقد كان من جراء اهتمام الملك «أوكوريس» وحمايته لهذا الإله؛ أنْ عَلَا نفوذُهُ في كل العالم الإغريقي، وقد كان ذلك جُلُّ ما تصبو إليه نفسُهُ، ولكنه قد وافتْه المنيةُ والحربُ التي كانتْ تدور رحاها بقيادة «أفاجواس» على الفرس لا تزال مستمرة في صيف عام ٣٨٠ق.م، (والظاهر أن قبره كان في «منف»).

وقد عزي احتمالُ دفنِه في «منف» إلى العُثُور على تمثال مجيب له هناك، وهذا التمثال محفوظٌ الآن بمتحف «القاهرة» — كما سنذكر ذلك بعد.

وعلى أثر موته قامت المشاحناتُ على وراثة العرش، وقد كان هذا أداء دفينًا في الدولة المصرية خلال القرن الرابع قبل الميلاد، والواقعُ أن «أوكوريس» لم يكن قد استطاع الوصولَ إلى تثبيت أُسرته وتوطيدِ قدَمِها مِن حيث وراثةِ العرش. ومن المحتمل أنه قبل موته ببضعةِ أشهُر قامتْ مشاحناتٌ جديدةٌ واضطراباتٌ داخليةٌ، ولم يكن في مقدور «نفريتس» الثاني «نايف–عا–رود» ابن «أوكوريس» أن يمكث أكثر من أربعة أشهر، (راجع: Kienitz p. 88).

وَقَدْ جاء عنه في الحوليات الديموطيقية ما يأتي: «أنَّ الحاكم الخامس الذي أتى بعد الميديين «الفرس»؛ أي «أوكوريس» رب التيجان، قد ترك يحكم كل وقت تسلُّطه؛ وذلك لأنه كان يَعمل صالحًا للمعابد، وقد أسقط عندما حاد عن القانون، ولم يأخذ الحذر من أخيه، والحاكمُ السادس الذي جاء بعد الميديين؛ أي «نفريتس» الثاني لم يمكث على العرش؛ إذ لم يحب الناس أن يكون على العرش؛ وذلك لأنه حَادَ عن القانون الذي كان في عَهْدِ والده، وقد ترك ابنه يقابل السوء من بعده»، (راجع: Chronik, Col. IV 9. 12. Cf Ed, Meyer, Klein Schriften 1–11 (1910–24) II p. 84).

وقبل أن نتحدث عن «نقطانب» الأول الذي ارتقى عرش الملك بعد «نفريتس» الثاني لا بد أن نذكر هنا — بشيء من الاختصار — الآثارَ العِدَّةَ التي تركها لنا الفرعونُ «أوكوريس» العظيم في جميع أنحاء البلاد.

والواقعُ أن «أوكوريس» قد ترك لنا آثارًا عِدَّةً في أنحاء البلاد — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — وهاك أَهَمُّ ما تركه لنا مُدَوَّنًا عليه اسمه:

(١) وُجد له في «طرة» و«المعصرة» كتابات منوعةٌ بالخط الديموطيقي، تحمل تواريخَ من السنة الأُولى من حُكمه حتى السنة السادسة: فلدينا نقوشٌ في محاجر «طرة» و«المعصرة» مؤرخةٌ بالسنين الأُولى والثانية والرابعة والسادسة، وكذلك نقوشٌ لا تحمل تواريخَ لم يمكن قراءتها، وقد نقلها جميعًا الأثري «شبيجلبرج».

(راجع: A. S. 6. p. 219–233 No. 2, 4, 5, 6, 13, 14, 15 (?), 19, 20, 33; H. Brugsch, Rec. du Mon. I, Tom. X No. 16, 14, bis 16, 20 bis. 22; Champ Not. Descr. II 489; Vyse, Pyramids III 102–3; L.D.T. 1 p. 223, Daressy A. S. 11, (1911) p. 267; L.R. IV 164, 11, 2 et A. 5; Porter. & Moss IV p. 75).

ومن المحتمل كذلك أنه جاء على قطعة ورق ديموطيقية في مجموعة «رشي Ricci» يجوز أنه عثر عليها في سربيوم «منف»، هذا التاريخ هو: السنة الثالثة الشهر السابع من عهد «أوكوريس».

(راجع: Spiegelberg, Demotische chronic p. 30 N. 6).

(٢) وجد في سربيوم «منف» كتابة من عهد «بطليموس» الثالث «يورجيتس»، وقد جاء فيها ذكر عمال كانوا يعملون هناك في السنة الرابعة من عهد «أوكوريس» (راجع: Brugsch, A.Z. 22 (1884) p. 116; Revillout Rev. Eg. 6 (1891) p. 136–9; L.R. 164 note 5).

(٣) أوراق من دفتر حساب مكتوبة بالخط الديموطيقي محفوظة الآن بالمتحف المصري (رقم ٣٠٨٩٩–٣٠٩٠٣) مؤرخة بالسنة السادسة الشهر الثامن اليوم الثامن (؟) ومن المحتمل أنها وُجدت في «منف» (؟) (سقارة؟)

(راجع: Spiegelberg, Cat. Gen. Demot. FaP. p. 195, & T. LXV111; Revillout Not. Pa p. Demot. Arch. p. 471).

(٤) وجد مصباح عليه اسم الملك «أوكوريس» وهو محفوظ الآن بمتحف «برلين»، (راجع: Mus. Berlin No. 8811; Ausfürliches der Agyptischen Altertümer und

Gipsabgüsse im Konigl. Museum Zu Berlin. 2. Auflage Berlin 1889 p. 250; L.R. IV 167 A. 2 b). عثر عليها في مضيق قناة «السويس».

(٥) وعثر له في «تل بسطة»؟ على جزء تمثال من الجرانيت، وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطاني، (راجع: Naville, Bubastis p. 56 & Pl. XL111 B; Petrie Ibid. 374; L.R. IV 167 No. 17; Porter & Moss IV 32).

(٦) وكذلك في «هليوبوليس» عثر على قطعتين من تمثال له، واحدة وُجدت في عام ١٨٤٢، رآها «لبسيوس» في «الإسكندرية»، والثانية محفوظة بمتحف «بوسطن» (٢٩٧٣٢) والقطعتان تلتئمان سويًّا بالضبط، (راجع: L.D. III 284 e; L.DTI. p. 1; Dows Dunham J.E.A. 15 p. 166).

(٧) وفي بلدة «لتوبوليس» («أوسيم» الحالية)، وجد له الأثري «أحمد كمال» قطعة من الجرانيت الرمادي عليها اسمه، وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري.

(راجع: A.S. 4. p. 92; L.R. IV p. 167 No. 16; p. & M. IV 68.)

(٨) وفي سربيوم «منف» وجدت قطعة حجر عليها اسمه، وهي محفوظة الآن بمتحف «اللوفر».

(راجع: Pierret Catalogue p. 165; L.R. IV p. 187; A. 4.)

(٩) وعثر له على جزء من تمثال راكع مصنوع من الديوريت، وهو محفوظ بمتحف «القاهرة».

(راجع: Borchardt, Cat. Gen. Statuen und Statuetten III p. 25 No. 681 Pl. 124, Bosse Menschl, Figure p. 55, No. 144).

(١٠) قطعة من أسفل الساق لتمثال للملك يخطو إلى الإمام، وهي مصنوعةٌ من الحجر الجيري الصلب، ومحفوظةٌ بالمتحف المصري.

(راجع: D.E. No. 28026; Borchardt, Cat. Gen. Ibid IV p. 48 No. 1080; A.Z. 26, p. 114 § LIV.)

(١١) وفي «منف» عثر له على قطعة من خارجة بناء استعملت ثانية تابوتًا في العهد القبطي في دير «الأنبا جرمياس».

(راجع: Quibell, Excavations at. Saqqara 1908–1910 Pl. LXXXV.)

(١٢) ويوجد له بمتحف «اللوفر» تمثال «بولهول» (Louvre A 27) وكان قد عُثر عليه في «روما».

(راجع: De Reugé,notice des Monuments, p. 24; Bissing, Denkmaler No. 70.)

(١٣) وجد له تمثال مجيب، وقد أَهدى هذا التمثال إلى المتحف المصري حارس الجبانة اللاتينية في «مصر القديمة» عام ١٩٢٢، وهو بدون رأس. ويقول «جوتييه» إنه يحتمل أن يكون هذا التمثال مستخرجًا من «منف»؛ وذلك لأنه يظهر أن «أوكوريس» قد دفن في هذه المدينة، وهذا التمثال مكتوبٌ عليه الفصل السادس من كتاب الموتى، وكتابة هذا التمثال بها أخطاءٌ، والتمثال محفوظٌ بالمتحف المصري (راجع: Gauthier, A.S. 22. (922) p. 208).

(١٤) وفي «إهناسيا المدينة» وجد الأثري «بتري» له قطعة من محراب مصنوع من البازلت الأخضر الضارب إلى السواد.

(راجع: Petrie, Ehnasia. p. 2, 20, 23 & Pl, x1, XXVIII; L.R. IV 166 A. 4. p. M. IV 119.)

(١٥) ووجد له الأثري «أحمد كمال» في نفس المدينة لوحة من عهده نقش عليها إهداء قطعة أرض للإلهة «إزيس»، وقد وجدت مبنية في بيت في «كفر أبو شهبة» مركز «ببا» مديرية «بني سويف»، وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري، وهذه اللوحة مصنوعةٌ من الحجر الجيريِّ ويبلغ ارتفاعُها ٧٥ سنتيمترًا وعرضها ٣٩ سنتيمترًا، وأعلاها مستديرٌ، ورسم عليه قرص الشمس المجنح بصلين، ويحلق فوق الملك الذي نقش معه: «الملك الطيب رب الأرضين «هجر» «أوكوريس».» وقد مثل واقفًا مرتديًا قميصًا، وعلى رأسه تاج الوجه القبلي، ويقدم بيده اليُمنى علامة الحقل، ورافعًا يده اليسرى احترامًا للإلهة «إزيس» القديمة العظيمة ربة «نويرة»، وقد مثلتْ واقفةً لتتقبل هبة الملك التي وُصفت بأنها هبة حقل لأمة القوية «إزيس» العظيمة، والظاهرُ أن الجزء الأسفل من اللوحة قد تُرك خاليًا لأجل أن يثبت في أَحد جدران المعبد؛ لتكون ظاهرة لكل من يزور المكان، و«نويرة»،[٢] هذه تقع على بعد ٣٥٠٠ مترٍ من «إهناسيا» وعلى مسافة ٦٥٠ مترًا جنوبي «قاي»، وقد ذكر كُتاب العرب هذا المكان بوصفه مدينة كبيرة بعض الشيء، وقد سُمي باسمها جسر يُسمى جسر «النويري»، وقد ذكر «بروكش» هذه المدينة ووصفها بأنها بلدة غير معروف موقعها.

(راجع: Brugsch, Geogr. Inschriften p. 42; A.S. 3. (1902) p. 243–4; L.R. IV 166; p. & M. IV 123.)

---

[٢] راجع الخطط الجديدة «لعلي باشا مبارك» الجزء السابع.

(١٦) وجد في مباني الدير الأبيض القريب من «سوهاج» عدة قطع من الأحجار الأثرية، وبخاصة لملوك الأسرة السادسة والعشرين وما بعدها، ومن بين هذه القطع الأثرية ناووس للملك «أوكوريس» الذي نحن بصدده الآن، وقد نُقش إطارُهُ بنقوش تحدثنا عن ألقاب هذا الفرعون كاملة وهي: «حور» عظيم القلب محبوب الأرضين، صاحب السيدتين (المسمى) الشجاع، «حور» الذهبي (المسمى) مرضي الآلهة، ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) خنم ماعت ستبن «رع»، ابن الشمس رب التيجان «هجر» عاش أبديًّا، لقد عمل ناووسًا فاخرًا من حجر الجرانيت لوالده … «حور» قاطن «شنوت» سيد «نشاو» عظيم السحر وكبير الخطا هازم العدو.

(راجع: Weill, Rec. Trav. 36 (1914); p. 98–100, Kees. A.Z. 64 (1929) p. 108; L.S. IV 166 No. 12; p. & M. V. 31.)

(١٧) وقد وجد له في «المدمود» قطعة حجر عليها اسمه.

(راجع: Bisson de la Reque Fouilles de Medamoud. 1931 & 1932 p. 65-66; p. & M, V. p. 144.)

(١٨) وقد أتم الفرعون المعبد الصغير الذي كان قد بدأه الملك «بساموتيس»، وهذا المعبد يقع أمام الجناح الجنوبي للبوابة الأُولى، وقد كشط في هذا المعبد اسم «بساموتيس».

(راجع: Maspero, Rec. trav. 6 p. 20; Daressy A.S. 18 p. 37–48.)

(١٩) وفي قرية «النجع الفوقاني» بالكرنك عثر على قطعة حجر عليها اسمه.

(راجع: L.D. III 284 F, g; L.D.T. III p. 40; Petrie Ibid. 375; L.R. IV p. 166 No. 11; p. & M. II 89.)

(٢٠) وعثر على عارضة باب مبنية في جدار فندق الأقصر منقوش عليها اسمه، (راجع: wiedemann p. S.B.A. 7 (1885) p. 110, L.R. IV 166, No. 10; p. & M. II, 73).

(٢١) وفي معبد «موت» «بالكرنك» عثر على قطع حجرية في الجنوب من هذا المعبد عليها اسمه.

(راجع: Cham p. Not. Descr. II, 264; Petrie Ibid. 375.)

(٢٢) وفي «الأقصر» عثر على قطع من الحجر وقوالب أكاليل مبنيةٌ في الجدران، (راجع: ما كتبه «دارسي» عن ذلك في A.S. 19, p. 171–2).

(٢٣) وفي «العساسيف» بجوار الدير البحري، وُجدت صور لهذا الفرعون، (راجع: Cham p. Mon. II, 194. No. 2; L.R. IV 165, No. 8).

(٢٤) وفي «مدينة هابو» أضاف هذا الفرعون بعض المباني في معبد الأسرة الثامنة عشرة الصغير.

(راجع: L.D. III 284-h, I; L.D. 301 no. 81, L.D.T. III p. 157 & 164; L.R. IV p. 165 No. 7; p. & M. II p. 168–170; cham p. Mon. II 194 Not. Descr. 1. 329 (A.B) 331 A; Cf. Daressy, Notice explicative des ruines Medinet Habü p. 22-23.)

ويُلحظ هنا أنه وجد جزء تمثال ملكي مصنوع من الجرانيت الأسود دون وجود اسم الملك عليه، وهو محفوظ بالمتحف المصري، ويحتمل أن يكون للملك «أوكوريس».

(راجع: Wiedemann, Gesch. Eg. p. 276; Ag. Gesch. p. 698, Suppl. p. 76 Zu p. 698, A. 8, petrie, Hist. III 375 fig. 155; Gauthier, L.R. V. p. 167 No. 3.)

(٢٥) وقد قام هذا الفرعون في «الكاب» بإصلاحات كثيرة في معبد الأسرة الثامنة عشرة، وقد وجدت له هناك طغراءات عدة.

(راجع: Cham p. Not. Descr. 1, 265, Somers Clarke, J. E.A. 8, p. 27 ff Capart A.S. 39 (1937) p. 8-9; Petrie Ibid. p. 375; L.R.165 No. 6, p. & M. V. p. 173.)

(٢٦) وفي قرية «الكاب» نفسها عُثر على قطع من عمد عليها اسمه.

(راجع: L.D.T. IV p. 37; Petrie Ibid. 375; L.R. IV 165 No. 4; p. & M. IV p. 173.)

(٢٧) وكذلك وُجد له في «الكاب» لوحة من الحجر الرملي يُشاهَد فيها الملك يهدي حقولًا للإلهة «نخبت»، وهذه اللوحة موجودة الآن بمتحف «تورين».

(راجع: Maspero, Rec. Trav. 4 (1884) p. 150; Orcurti Catalogo. II p. 41 No. 61: Fabretti Rossi, Lanzone Regio Museo di Torino 1, p. 217 No. 1469; L.R. IV 165 No. 5; p. & M. V. p. 174.)

(٢٨) ووجدت كذلك قطع باسم هذا الفرعون في نفس «الكاب» ومعه آلهة مختلفة.

(راجع: Champ, Not. Descr. 1, 265, 3; p. & M. V. p. 174.)

(٢٩) كما وجد له هناك لوحة يُشاهَد فيها، وهو يقدم القربان للإله «سبك» وهذه اللوحة محفوظة بمتحف «القاهرة».

(راجع: Wiedemann, Ag. Gesch. 1884 suppl (1886), p. 698; Petrie Ibid 375; L.R. IV 169 A, 1.)

(٣٠) هذا، وقد قام هذا الفرعون بإقامة مبانٍ في معبد «آمون» بواحة «سيوة» وهو المعبد رقم ٥ أغورمي.

(راجع: A.Z. 69 (1933), p. 19 & 21; ders., Durch die Libysche Wuste zur Amonsoase p. 118, Vorläufiger Bericht, Bsgw, 1900 p. 220, Archäol, reisézur Ammonsoase siwa, Petermanns Geogr. Mitteilungen 50 (1904) p. 183).

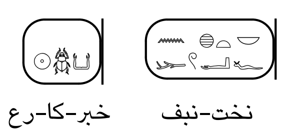
(٣١) وفي متحف «الإسكندرية» توجد قاعدة مائدة قربان من الجرانيت (راجع: Daressy A.S. 5, p. 119; Petrie Ibid. 375; L.R. IV 167 No. 18)، ويقال إنها وُجدت في «شبين الكوم» ولكن المؤكد أنه عُثر عليها في شرقي الدلتا.

(٣٢) ويوجد لهذا الفرعون الجزء الأسفلُ من تمثال في مجموعة «لوفتي Lofti» (راجع: Wiedemann Suppl. p. 698. A. 8; L.R. IV 167, A. 3).

(٣٣) وأخيرًا يوجد له خاتم في مجموعة «ينيفرستي كولدج لندن».

(راجع: Petrie Scarabs etc. p. 33, 40 & Pl. LVII 29, 2).

«مصر» في عهد «نقطانب» الأول
٣٨٠-١–٣٦٢ق.م



نخت-نبف خبر-كا-رع

لم تمكث الاضطرابات التي أعقبت موت «أوكوريس» وتولى ابنه «نفريتيس» الثاني إلا بضعة أشهر (راجع: Kienitz p. 88) تولى بعدها زمام الحكم «نقطانب» الأول وهو سمنودي المنبت، وكان والده أميرًا يُدعَى «تاخوس»، وذلك على حسب ما جاء على نقوش تابوت ابن أخيه (راجع: Sethe, Urk. II p. 26) وقد كان زمام الأمور في يده تمامًا حوالي نوفمبر[1] سنة ٣٨٠ق.م.

[1] ومما هو جديرٌ بالملاحظة هنا أن كتابة اسم الملكين «نخت نبف» و«نخت-حر-حبت» اللذَين وُجدا على الآثار المصرية بهذه الصورة قد كتبهما المؤرخ «مانيتون» وغيره من كُتَّابِ الإغريق بلفظة «نقطانبيس Nektanibis» أو «نقطانبس» (٣٨٠–٣٦٢ق.م)، وذلك للاسم الأول، و«نقطانبوس» (٣٦٠–٣٤٣ق.م)، للاسم الثاني، وقد كان تحديد زمن هذين الملكين والتمييز بينهما في الأزمان السابقة أهم مسألة عند علماء الآثار المصرية بالنسبة للأسرة الثلاثين. وقد وضع في الأصل «نخت نبف» الملك «نقطانبيس» الأول، و«نخت-حر-حبت» للملك «نقطانبوس» الثاني، ولكن مُنذ عهد الأثري «مريت» قد عكس هذا الترتيب السابق على حسب ما استنبط من الترتيب الذي وُجد لعجول «أبيس» ومن ثم أصبح «نخت-حر-حبت» = «نقطانبيس» الأول، و«نخت نبف» = «نقطانبوس» الثاني.

ويدل على ذلك الآثار المؤرخة بحكمه في «إدفو» و«نقراش» — كما سنرى بعدُ — وتدل الآثار التي عُثر عليها في «نقراش» على أن «سايس» كانت كذلك في قبضة «نقطانب»، وقد كانت «سمنود» مسقط رأسه بطبيعة الحال تحت سُلطانه، يُضاف إلى ذلك أن «خابرياس» وزير حربية «أوكوريس» قد انضم إلى «نقطانب» وسَاعَدَهُ على توطيد حُكمه في البلاد (راجع: Cornellius Nepos. Chabrias II, 1)، وهكذا قضى على الاضطرابات الداخلية في البلاد بسرعة.

ولما تولى «نقطانب» عرش «مصر» لم تكن أحوال السياسة الخارجية تدعو إلى التفاؤل كثيرًا، وإذا صرفنا النظر عن «جلوس» وخلفه المسمى «تاخوس» اللذَين لم تجن منهما «مصر» شيئًا؛ فإن مصر لم تكن على تحالُف مع أية دولة، أما الفرس فعلى العكس من ذلك فإنهم بعد نهاية الحرب مع «أفاجوراس» أخذوا يقومون باستعدادات للقيام بحملة جديدة للاستيلاء على «مصر»، ومن أجل ذلك طلب إلى اليونان استدعاء «خابرياس» من «مصر».

ولكن الأثري «شبيجلبرج» برهن فيما كتبه عن الحوليات الديموقراطية منذ ١٩١٤ «نقطانب» الأول، و«نخت-حر-حبت» هو «نقطانب» الثاني. والبرهان الذي أوردتْه الحوليات الديموطيقية عن هذين الملكين كان عن مؤسس الأُسرة الثلاثين؛ أي «نخت نيف». أما عن الثاني؛ أي الذي حكم منذ ٣٤٣-٣٤٢، وهو الملك الذي فر أمام الفرس إلى بلاد «أثيوبيا» (كوش) فقد ذكر عنه الحاكم الذي أتى به (Spiegelberg Demotiche Chronik p. 6). وفضلًا عن ذلك نجد أساس معبد «هيبس» الذي أقامه «نخت-حر-حبت» اسم «نخت-نبف» في ودائع الأسرة، وهذا يدل على أنه أقدم الملكين، وقد جاء في قطعة حجر منقوشة بالديموطيقية ومستخرجة من «وادي حمامات» (راجع: L.D. XI 69 No. 162) أن موظفًا في عهد الملك «نخت-حر-حبت» قد خدم الميديين (أي الفرس) والأونيين (أي المقدونيين) (راجع: Spiegelberg Ibid, p. 694/No. 332) اقرنْ كذلك ما جاء في «ادورد مير». (Ed. Meyer kl. Schr. III, p. 74f)، عندما أشار إلى هذا الموضوع قائلًا إن كتابة اسم «نقطاتبيس» تعني أن الإغريق في بادئ الأمر كانوا يعلمون اسم «نخت نبف»؛ وعلى ذلك فإن كتابته «نقطانبيس» موافقة جدًّا، أما كتابة اسم «نخت-حر-حبت» بكلمة «نقطانيبوس»، فإن ذلك من باب القياس لكتابة اسم «نقطانيبيس»، اقرن فضلًا عن ذلك ما كتبه «أرنست مير» (راجع: A.Z. 67, (1931) pp. 68–70). والخلاصة أن هذه المسألة برمتها قد أصبحت واضحة منذ زمن الأثري «شبيجلبرج»، ومع ذلك يجب الاعتناء واليقظة البالغة للذين يشتغلون بالتاريخ المصري القديم في القرن الرابع قبل الميلاد؛ إذ قد خلط كثيرًا بين اسم «نخت نيف» و«نخت-حر-حبت». فقد استعمل الأول محل الثاني والعكس بالعكس، وبخاصة فيما كتبه المؤرخ «شور» في هذا الصدد عند كلامه عن المملكة البطلمية (راجع: Schur, Zur Vorgeschichte des ptolemäerreiches. Klio. 20/1926, p. 270–308).

على أن استدعاءه لم يكن في تلك اللحظة دليلًا على أن الفرس يريدون إعلان الحرب على «مصر» في الحال؛ وذلك لأن الأحوال لم تكن مواتية للفُرس وقتئذٍ، فقد كان تحريرُ مدينة «طيبة» اليونانية في عام ٣٧٩ق.م، مضافًا إلى ذلك الاضطرابات الهيلانية التي أعقبتْ ذلك، ثم النشاط الخارجي الذي أظهرتْه مملكة «أثينا» وقتئذٍ، وهو ذلك النشاط الذي كانتْ نتيجته قيام إمبراطوريتها البحرية الثانية عام ٣٧٧ق.م؛ كل هذه العوامل كانت سببًا في تحويل أنظار السياسة الفارسية مؤقتًا لِمدة طويلة نسبيًّا عن «مصر»؛ وفضلًا عن ذلك فإن الاستعدادات الحربية نفسها للقيام بالحملة على «مصر» قد تطلبت من الفرس وقتًا طويلًا، وفوق كل ذلك نجد أن القيادة العامة للجيوش الفارسية قد تغيرت مرتين.

والواقع أن الحملة على «مصر» لم يكن قد تم استعدادها إلا في عام ٣٧٤ق.م؛ أي بعد خمس أو ست سنوات من موت الفرعون «أوكوريس» (راجع: Diod. XV, 41, 1)، وكان الجيشُ الإغريقيُّ الفارسيُّ الذي كان مجهزًا للقيام بالحملة تحت قيادة الشطربة «فارنابازوس» وهو الذي كان وحده المسيطر على كل الجيش، ومنه يصدر كل أمر صغير أو كبير خاص بالزحف؛ وذلك على الرغم من أن القائد «إفيكراتس» الذي كان يقود الجنود اليونانية المشتركة في الحملة، كان ميالًا إلى الإسراع في القيام بالحملة؛ إذ كان يرى أنها قد تباطأتْ، وذلك في حين أن «فارنا باذوس» القائد الأعلى كان غرضه من هذه الحملة أن يَثأر لنفسه مما أَحاق به من هزيمة عام ٣٨٠ق.م (راجع: Diod. XV, 29, 1).

وقد كان يساعده في هذه الحملة — فضلًا عن ذلك — القائد الإغريقيُّ «تيتراوستيس Tithraustis»، وكان من القواد الذين هزموا في الحرب التي نشبت في عام ٣٨٩–٣٨٧ق.م، يُضاف إلى ذلك أن ملك الفرس أعاره القائد «داتامس» لمدة قصيرة، وكان يعتبر من أحسن قواده وقتئذٍ (راجع: Cornelius Nepos, Damtes 4).

ويذكر لنا «داماتس» أن «فانا بازوس» قد استدعاه ملك الفرس وَحَلَّ هو مَحَلَّهُ في قيادة الجيش، وإذا صدقنا ما قصه «داماتس» عن نفسه في تاريخ حياته فإنه — بلا شك — كان قد عمل بغيرة وحماسة على تجنيد الجيش وإعداده، (راجع: Cornelius Nepos Damates 5).

وتدل الأحوالُ على أنه لم يتقبل بسرورٍ الأمرَ الذي أرسله إليه الملك «أرتكزركزس» بالزحف على الثائر «أسبيس Aspis»، ولكنه على الرغم من ذلك رأى أنه لا بد من الطاعة، وإن كانت المأموريةُ الأولى المسنَدة إليه — وهي قيادة الجيش — أكثر أهمية من التي أمره الملكُ العظيمُ بالقيام به، وفي خلال قيامه بالقضاء على ثورة «أسبيس» حمل إليه البريدُ أمرًا من قِبَل الملك العظيم، بأن يبقى في معسكر «عكة»، ولما رأى ملك الفُرس شدة بأس

«داماتس» وقوة عزيمته في إخماد هذه الثورة زاد إعجابُهُ به، وثَبَّتَهُ في قيادته في «مصر»، ورأى أنه يجب ألا تُفلت «مصر» من ضربات هذا القائد العظيم، ولكن لَمَّا كان «داماتس» مُحاطًا بالدسائس في البلاط الفارسيِّ فإنه ظن أنه لو خاب في حملته على «مصر» أصبح معرضًا للأخطار، ومن أجل ذلك ترك المعسكر في «عكة» وذهب إلى «كابادوشيا»؛ ومن أجل ذلك سلم ملك الفرس قيادة الجيش إلى «فارنابازوس»، وكان القائد الإغريقي «إفيكراتس» وقتئذٍ مساعدَه تحت إمرته المباشرة، وكان الأخيرُ يرأس الجنود المرتزقة من الإغريق، وهو الذي كان يُساعد «فارنابازوس» من قبل، (راجع: Diod. XV, 41, 1).

وكان القائد «إفيكراتس» مثل القائد «خابرياس» صاحب سمعة كبيرة في فنون الحرب؛ فقد اشتهر خلال حروب «كورنته» في «تراقيا» وهناك تزوج ابنة الملك «كوتيس Cotys»، وقد انتصر في مواقعَ كثيرةٍ مدة سنين عدة (راجع: Diod. XV, 41, 2)، لدرجة أنه واجه «فارنابازوس» بكل صراحة متهمًا إياه بأنه كثير الكلام بطيء العمل، وقد أسرع «فارنابازوس» إلى إجابته على ذلك بأن المسئولية في ذلك تقعُ على عاتق ملك الفرس نفسه؛ لأنه هو الذي في يده تحديد الخطط الحربية التي يجب العمل بمقتضاها، وفي استطاعتنا أن نفسر نفاد صبر قائد الجنود المرتزقة الذي كانت تتوق نفسُهُ للحرب، على أنه من جهة أخرى قد تكون هناك أسبابٌ قويةٌ قاهرةٌ لدى ملك الفرس في تأخير قرار إعلان الحرب؛ فقد يكون ذلك مثلًا راجعًا إلى الأحوال السياسية العامة المضطربة في بلاد اليونان منذ عام ٣٧٩ق.م، وعلى أية حال لا يجب الإسراعُ هنا في اتهام الحُكُومة الفارسية بالتباطؤ أو اتهام قوادها بالتراخي، وإنا نقرأ من بين سُطُور اتهامات «إفيكراتس» ما يوحي بعدم التفاهُم التام بينه وبين القائد الفارسيِّ منذ البداية؛ وذلك لأن المشاحنات الشديدة التي وقعتْ بينهما خلال الحملة على «مصر» كانت نتيجةً لسوء التفاهُم الأصلي الذي كان بينهما.

والآن يتساءلُ الإنسانُ ما القوات التي كانت تحت إمرة كل من «فارنابازوس» ومساعده «إفيكراتيس»؟ يدل الإحصاءُ الذي عمل في معسكر «عكة» على حسب ما ورد في «ديودور» على النتائج التالية:

٢٠٠ ألف جندي من الفرس و٢٠ ألفًا من الجنود المرتزقة من الإغريق (راجع: Diod. XV, 41, 3, 41, 1).

أما على حسب ما ذكره لنا المؤرخ «كورنيليوس نبوس» (راجع: Iphicrates, 2) فإنا نفهم أن الملك «أردشير» قد طلب إلى الآثنيين أن يرسلوا إليه «إفيكراتيس» ليكون على رأس اثني عشر ألف مقاتل من الجنود المرتزقة، وهذان الرقمان — على اختلافهما من

حيث عدد الجنود المرتزقة — يُمكن التوفيقُ بينهما؛ وذلك أن الفرس عندما طلبوا مساعدة «إفيكراتس» حوالي عام ٣٨٠ق.م لم يكن لديهم إلا اثنا عشر ألف مقاتل من الجنود المرتزقين على ما يظهر، أو بعبارة أُخرى لم يكن لديهم على أُهبة الاستعداد للحرب إلا هذا العدد، ولكن منذ عام ٣٨٠ إلى ٣٧٤ق.م ازداد عددُ الجنود المرتزقين — على ما يظن — وعلى أية حال فإن هؤلاء الجنود الأجانب وكانوا خيرة الجنود المحاربين الذين استحقوا بجدارة عند الإغريق الاسم الفاخر جنود «إفيكراتيس»، (راجع: Cornèlius Nepos, Iphicrates 2)؛ كانوا يؤلفون أحسن عنصر في الجيش الذي أعده الفرس لغزو «مصر»؛ إذ الواقع أنهم كانوا أكثر تدريبًا وأخف حركة وأشد حماسة من سائر ذلك الجيش الفارسي الجرار، ولا نزاع في ذلك فقد استعرض أمامنا «ديودور» بدقة (XV, 44, 2-3) الإصلاح الذي عمله «إفيكراتس» في الجيش، ونخص بالذكر من ذلك الخفة في التسليح الدفاعي، والعمل على تقوية السيوف والحراب.

هذا، وكان تحت يد قائد الفرس المهاجم عتادٌ وفيرٌ وأسطولٌ يبلغ عددُ سفنه نحو الثلاثمائة، والواقع أن الأهمية في هذه الحرب كانت تنحصر في الأسطول الذي كان معارضًا لقوات الفرس في أثناء حرب «قبرص» وهو الأُسطولُ الذي كان تحت إمرة كل من «أفاجوراس» والفرعون، (راجع: Diod. XV, 2, 1).

هذا، ونجد أن «فارنابازوس»، قد أَغلق بأسطوله في وجه المصريين كل أمل في التحوُّل من جهة البحر المتوسط، وعلى أية حال لم نجدْ أن «نقطانب» قد قام بأية محاولة بحرية، وعلى ذلك فإن النجاح الوحيد الذي كان ممكنًا أن يحرزه الفرس هو السيطرة على البحر.

وفي بداية فصل الحرب تحرك الجيش الفارسي بأكمله ورافقه الأسطولُ على مسافة قريبة من الساحل السوري، كما كان يفعل «تحتمس» الثالث في غزواته المظفرة، (راجع: Diod. XI, 41, 4).

وتدلُّ الأحوالُ على أن جيش «فارنابازوس» قد أَخذ في الزحف قبل مُنتصف شهر يونية، وهو التاريخُ الذي يَبتدئ فيه ظهورُ بشائرِ الفيضان، وكل ما يمكن قولُهُ هنا: أن رياح الخماسين التي تكون على أَشُدِّها في شهر أبريل قد أجبرت القائدَ الفارسيَّ أن يُؤَخِّرَ بدايةَ الحملة حتى شهر مايو.

والظاهر أن اختيار مثل هذا الوقت من العام للقيام بحملة على «مصر» قد انتقده بشدة مؤرخون مختلفون؛ فقد رَوَوا أن المغيرين لم يكن لديهم — بلا شك — إلا مدة

قصيرة قبل حُلُول فصل الفيضان الذي تكون كل بلاد الدلتا فيه مغمورةً بالمياه، (راجعْ: Rev. Egyptol. II, p. 91)، وقد لا تكون هناك أَيَّةُ مسئولية في هذه المسألة على القائد «إفيكراتس»؛ إذ من الممكن جدًّا أنه قد استُشير في التاريخ الذي سوف تقوم فيه الحملة، وأنه قد أشار على حسب العادات الإغريقية بالدخول في الحرب في فصل الربيع، والواقع أننا لم نجدْ في كل ما رواهُ لنا «ديودور» أنه قد أبدى معارضةً في التاريخ الذي اختِير لقيام الحملة فيه؛ وذلك لأن القرار النهائيَّ في ذلك لم يكن في يد «إفيكراتس»، بل كان في يد آخرين، ولا أَدَلَّ على ذلك من أنه كان مضطرًّا عدة شهور إلى أن يستسلم للأوامر الصادرة إليه بتأخير الحملة التي كان يُلِحُّ في إنهائها بكل حماس وسرعة، (راجع: Diod. 41, 2).

والآن يتساءلُ المرءُ هل القائدُ العام «فارنابازوس» هو الذي اختاره، للقيادة وقت مسير الحملة على «مصر»؟ والجوابُ على ذلك أنه ليس لدينا ما يؤكد ذلك، وقد ذكر لنا «إفيكراتس» نفسه أن القائد «فارنابازوس» كان يُمكنه أن يستشير كما يريد، إلا أنه مع ذلك كان خاضعًا لسلطان حُكُومة ملكية تصدر منها الأوامرُ الهامةُ في مثل هذه المواقف الخطيرة، والواقعُ أن كل القُوَّاد الفُرس لم يكن في استطاعةِ الواحد منهم أن يَفصل بصفةٍ قاطعةٍ في مثل هذه المسائل الخطيرة، بل كان عليه أن يضع الأمر بين يدي الملك ليقضي فيه بما يشاء (راجع: Diod. 41, 3)، وعلى ذلك فإنه ليس بالأمر الغريب أن يكون «فارنابازوس» عندما أعطى الأوامر بالزحف في فصل الربيع على «مصر» لم يكن إلا منفذًا لأمرٍ ملكيٍّ صَدَرَ له من «أرتكزركزس»، ولكن هل هذا الأمرُ جديرٌ بأن يكون موضعَ انتقاداتٍ صارمة؟ هذا ليس حتميًّا؛ إذ يظهر مما رواه «ديودور» أنه كان من الممكن اتخاذُ قرارٍ حربيٍّ قبل الوقت الذي يكونُ فيه الفيضانُ خطرًا على رجال الحملة، وأن هذا القرار كان قد تأخر واتفق عليه لأسباب خارجة عن تاريخ القيام بالحملة نفسها بعد أن كان قد قطع جيش «فارنابازوس» الصحراء السورية ووصل إلى النيل أمام الفرع «البيلوزي» (راجع: Diod. XV, 41, 42, 2)، وعندما وصلت الحملةُ إلى هذا المكان وَجَدَ قُوَّادُ الجيش الفارسي أن المصريين أخذوا للحرب عُدَّتَها لمقابلة الجنود المهاجمين؛ وذلك لأن الاستعدادات الطويلة التي قام بها الفرسُ قد خدمت المصريين فاستعدوا لمقابلة عَدُوِّهِم، (راجع: Diod. XV 41, 4)، والواقع أنه كان في المدة الطويلة التي جمع فيها «فارنابازوس» جيشه الجرار كان «نقطانب» الأول يَعرف مدى أهمية هذا الجيش، (راجع: Diod. XV, 42, 1).

وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن «نقطانب» لم يكن لديه أية جنود مرتزقة لأي قائد إغريقي؛ ولا أدل على ذلك من أن «ديودور» قد أغفل هذا الموضوع إغفالًا تامًّا؛ ومن أجل

ذلك نجد أنه في أثناء أن كانت الحربُ دائرةً رحاها بين الآثينيين والأسبرتيين حول «كورسير Corcyre» كان على الأسبرتيين أن يُرسلوا مددًا إلى الملك «نقطانب» الذي كان يُهاجمه القائد «إفيكراتس» الآثيني، ولكن «إفيكراتس» هذا على الرغم من أنه قد أرسلتْه «أثينا» منذ بضع سنين مضت ليكون قائدًا في الجيش الفارسي؛ لم يكن إلا مجرد رئيس جُنُود مرتزقة، ولا يُمثل في الواقع السياسة الأثينية.

ومِن جهةٍ أُخرى كان «اللاسيديميون» في مقدورهم كما حدث في عام ٣٨٧-٣٨٦ق.م، أن يجعلوا الفُرس يَفرضون على أعدائهم الأثينيين الصلح، (راجع: Grote, XIV, pp. 315–316).

ومن ثم نرى أن المصريين قد أصبحوا ولا عون لهم إلا جيشهم، وكان أخوفُ ما يخاف «نقطانب» وقتئذٍ هو أن تحيق به هزيمةٌ في الأرض المصرية السهلة المنبسطة، ولا شك في أن قيمة هذه الحروب وقيادتها كانت تنحصر في «إفيكراتس» الأثيني، يُضاف إلى ذلك أن الجيش المصري — على حسب الظواهر — كان أَقَلَّ عددًا من الجيش الفارسي، ولم يُشِرْ «ديودور» — وهو الذي قَدَّرَ عدد الجيش الفارسي بقيادة «فارنابازوس» بنحو ٢٠٠ ألف، هذا عدا الجنود المرتزقة — إلى أهمية جيش «نقطانب» وعدده.

(راجع: Diod. XV 41, 3.)

ويتساءلُ الإنسانُ هنا: هل كان هذا الجيشُ الذي كان تحت إمرة «نقطانب» الأول أكبرَ عددًا من الجيش الذي كان سيجمعُهُ «نقطانب» الثاني في عام ٣٤٣-٣٤٢ق.م، في ساعةٍ مميتةٍ، ويدلُّ ما لدينا من معلوماتٍ على أنَّ الأخيرَ لم يكن تحت إمرته إلا ٨٠ ألف مقاتل من الأفريقيين؛ أي المصريين واللوبيين، (راجعْ: Diod. XVI 41, 7)، ومن جهة أُخرى نعرف أن الملك «تاخوس» الذي كان يُعَدُّ أنشطَ وأجسرَ أميرٍ سمنودي، كما أنه كان مستعدًّا لخوض غِمَارِ حربٍ طويلةِ الأمد؛ لم يضع في ميدان القتال أكثر من ٢٠ ألف مقاتل مصري، (راجعْ: Diod. XV, 92, 2)، ومن ثم يَظهر لنا أن «نقطانب» الأول لم يكن في مقدوره وقتئذٍ أن ينزل في ساحة القتال في حربه مع الفرس أكثر مما سينزلُهُ خلفاه،[2] ومع ذلك فإن النقص الذي

---

[2] ولكن بعد سقوط «تاخوس» نرى أن جيشًا مؤلفًا من مائة ألف مقاتل كانوا سائرين لمحاربة «نقطانب» الثاني بقيادة مدع (راجع: Diod. XV, 92, 3, Piutarth Agisilas) ولكن هؤلاء الجنود لم يكونوا إلا جماعة غير منظمة لا جيشًا قائمًا، هذا فضلًا عن أن عددهم كان أَقَلَّ بكثيرٍ من الجيش الذي كان يقودُهُ «فارنا بازوس» في عام ٣٧٤ق.م.

كان ظاهرًا في جيش «نقطانب»، وكذلك قلة النظام قد سَدَّهُما «نقطانب» بما كانت تمتاز به مراكزُهُ الدفاعيةُ من متانة وتَفَوُّق في المقاومة، وقد روى لنا «ديودور» أن «نقطانب» الأول وضع كلَّ أمله في هاتين الميزتين؛ للتغلُّب على المهاجمين، (راجع: Diod. XV, 42, 1)، وكان أول ما أفاد منه «نقطانب» الأولُ الوقت الذي أخذ فيه الفرسُ يقومون باستعداداتهم، فأتم من جانبه سلسلة التحصينات التي كان قد أقامها «خابرياس» واجتهد في أن يسد في وجه العدو كل المنافذ المؤدية إلى داخل «مصر»؛ فقد حمى كل فرع من فروع النيل بحصن مجهز بالعدة والعتاد على كل شاطئ النهر وبأبراج مرتفعة مرتبطة بقنطرة من الخشب مغلقة في وجه كل هجوم نهري، ولما كان الفرع البيلوزي مُعَرَّضًا لمهاجمة العدوِّ أكثر من أيَّةِ جهة أُخرى؛ فإنه قوي بالتحصينات العِدة؛ إذ حفرت فيه الخنادقُ وأقيمتِ الجدرانُ والمستنقعات الصناعية؛ حماية لهم من هُجُوم الأُسطول والفرسان والمشاة من الفرس، (راجع: Diod. XV, 42, 2–3).

وحينما وصل «فارنابازوس» إلى هذا الإقليم، ورأى هو وقُوَّادُهُ الفرع «البيلوزي» وما عليه من حمايةٍ منظمة، وجُنُود عديدين؛ فإنهم تخلَّوا عن كل فكرة فكروا فيها لاقتحام طريق لهم من هذا المكان للدخول في «مصر»؛ وعزموا على أن يدخلوا من فرع آخر من فروع النيل، وقد وطدوا العزم على الدخول من باب الفرع المنديسي الواقع في الجهة الغربية من الفرع البيلوزي، ويقع تقريبًا في الامتداد الجنوبي من الطريق المؤدية إلى «منف» وهي الطريق التي ستتلاقى فيها كل قوات «فارنابازوس»، هذا فضلًا عن أن شاطئه العريض كان ملائمًا — بصفة خاصة — لرُسُوِّ السفن، غير أن الفرس وجدوا أن الفرع المنديسي كان كذلك محصنًا، على غرار الفروع النيلية الأخرى تحصينًا متينًا، ولم يكن هناك أمل في اقتحامه إلا بالهجوم المفاجئ؛ ولذلك وضع مشروعٌ آخرُ لهجوم مفاجئ.

ويلفت النظر هنا أن «ديودور» لم يخص واحدًا من القُوَّاد دون الآخرين بتصميمِ هذا الهجوم، وقد قيل إن «إفيكراتس» قد نصح للفُرس بتجربة هجومٍ مفاجئ، وهذا ممكنٌ، لكن «ديودور» لم يذكر لنا أي اسم، وكُلُّ ما نعرفه — على وجه التأكيد — هو أن «إفيكراتس» و«فارنابازوس» قد رَأَسَا اجتماعًا لتنفيذ هجوم مفاجئ على القوات المصرية، ونجد أن القائد الفارسي قد شرع — بدلًا من السير بجيشه على طول الساحل الشرقي — أن يسير إلى الغرب حتى يصل إلى الفرع المنديسي على مرأًى من الحرس المصري، ثم يجعل فرقة الجنود المخصصة لاقتحام الممر الذي أُريد اقتحامُهُ تقومُ بعمليةِ التفافٍ من جهة البحر (راجع: Diod. XV, 42, 4).

ولم يلحظ أن السفن الفارسية قد ضايقها أُسطولٌ مصريٌّ ما، والظاهر أن مثل «نقطانب» هذا كان كمثل «أوكوريس» بعد هزيمة «أفاجوراس» قد تَخَلَّى عن اتباع سياسةٍ بحرية ترمي إلى الدفاع عن بلاده، بل وضع كُلَّ همه في جمع كل ما لديه مِن قوة برية على أديم «مصر» للدفاع عنها.

ولما كان كلٌّ من القائد «فارنابازوس» والقائد «إفيكراتس» يُريد اقتحامَ طريقه إلى داخل البلاد المصرية بهجومٍ سريعٍ وحشيٍّ، أو من جهةٍ أُخرى إجبار حامية القلعة المصرية المهاجِمة بالخُرُوج من معقلها باستعمالِ قوةٍ صغيرة من جنوده؛ فإنه — كما ستُظهرُهُ الحوادث بعد — لم ينتظرْ حتى ينزل كُلُّ جُنُوده إلى البر، بل انقضَّ على رأسِ قوة قوامها ٣٠٠٠ مقاتل أُنزلوا من سفنهم على الحصن الذي كان يحرس الفرع المنديسي، ولكن المصريين وقفوا في وجه هذه القوة المؤلفة من فرسان ومشاة بقوة تُضارعها في الأهمية، ومن المحتمل أن مساواة عدد القوتين المتحاربتين هي التي جعلت المصريين — على ما يظهر — يرتكبون مثل هذا الخطأ الخطير، فقد كانت متانةُ خنادقهم وحصنهم كافية لحمايتهم مدة طويلة، ولكنهم تركوها وتقابلوا مع العدو في واقعة في سهل مكشوف (راجع: Diod. XV, 42, 5)، وقد دارت بين الفريقين معركةٌ حاميةُ الوطيس، وقد ظلت نتيجتُها متأرجحة — على ما يظن — بسبب ما كان يصل من مدد مستمر من الجنود الفارسية، وكانت النتيجة أن أُحيط الجنودُ المصريون بالجيش الفارسي، وقُتل خلقٌ كثيرٌ منهم، وأسر عددٌ عظيم، وبذلك كان النصر في جانب القائد الفارسي «فارنابازوس» ولا نزاع في أن كثرة عدد الجيش الفارسي قد مهدت له النصر، يُضاف إلى ذلك أن خفة حركة الجنود المرتزقة من الإغريق، وسرعة انقضاضهم بقيادة «إفيكراتس» قد جعلت نتيجة المعركة في جانب الفرس، وقد تلا في جزء من الحامية المصرية التطويق أو نجح في فتح طريق إلى مكان الواقعة، ولكن المهاجمين حاصروهم عن كثب، وقد كان الفضلُ في متابعة الحرب والقضاء على البقية الباقية من رجال الحامية؛ يرجع إلى جنود «إفيكراتس» الذين استولوا على القلعة ومسحوها من الوجود مسحًا تامًّا، وأخذوا ما فيها غنيمة لهم وأَسَرُوا ما تَبَقَّى من جُنُودها، (راجع: Diod. XV, 42, 4-5).

وبعد هذا النصر العظيم أصبحت الطريق مفتوحة أمام الفرس إلى «منف» وقد سارت الأُمُور دون أيِّ تعقيد أو خلاف بين القائدين «إفيكراتس» و«فارنابازوس» على الرغم من سوء التَّفَاهُم الذي كان بينهما في معسكر «عكة»، وقد حلت المشكلة التي قامت بينهما بسبب «بيلوز» لحسن الحظ وعملا سويًّا على أحسن ما يكون من الوفاق في إقليم

«منديس»، ولكن هذا الوفاق قد أخذتْ تنحَلُّ عُراهُ عندما أراد كلٌّ منهما أن يستغل النصر الأول الذي أحرزه في «مصر» لنفسه، وقد حَدَّثَنَا «ديودور» في هذا الصدد بما يفيد أن «إفيكراتس» قد علم من الجنود المصريين أن «منف» كانت غير محصنة وقتئذٍ بالجنود، وعلى ذلك تكون غنيمة سهلة إذا هوجمت، ومن أجل ذلك اقترح على مجلس القواد أنه باستعمال الطريق النهري يمكن أن تقلل عقبات الزحف ويصل الجيش على جناح السرعة قبل أن تتجمع القوات المصرية هناك؛ ولكن «فارنابازوس» وحاشيته رفضوا هذا الاقتراح قائلين: إنه لا بد لنجاح الحملة من انتظار وصول كل القوات الفارسية (راجع: Diod. XV, 43, 1)؛ ولكن «إفيكراتس» لم يقبل الهزيمة في الرأي وعمل على ما في جهده على أن يزحف إلى «منف» ويهاجم بمن معه من الجنود المرتزقين، غير أنه لم يكن رئيسًا لهؤلاء الجنود المرتزقة وليس بسيدهم؛ وقد رجا «إفيكراتس» القائد «فارنابازوس» أن يسلمه هؤلاء الجنود المرتزقة، ولكن الشطربة رفض هذا الطلب كذلك ظنًّا منه أن «إفيكراتس» يُريد أن يحتل «مصر» لمصلحته الشخصية، ولكن هذا القائد الأثيني احتجَّ بقوة على رفض اقتراحه، وأكد أنه إذا تُركت مثل هذه الفرصة دون انتهازها، فإن كل مجهودات الحملة ستذهب سُدًى، ومنذ ذلك الوقت أخذت العلاقات بين قواد الفرس وزميلهم الأثيني تسوء، وأصبح كلٌّ من الفريقين يكيل الذم للآخر (راجع: Diod. XV, 43, 2)، هذا هو مُلَخَّص ما جاء في «ديودور» في هذا الصدد.

وإذا استعرضنا ما كان يَدُورُ بخلد «فارنابازوس» وقواده من ظنون وأوهام بالنسبة للقائد «إفيكراتس» فإنها في مجموعها تكون في صالح الأخير؛ إذ قد أظهرت جمود رفاقه، ومن أجل ذلك فإن كل هجوم عليه من لسان قواد الفرس يصبح لا قيمة له، وعلى أية حال فإن حقنا أن نتساءل فيما إذا كان «إفيكراتس» وأصدقاؤه عندما عادوا إلى بلاد الإغريق قد اخترعوا أو بالغوا في سرد قصته مع القواد الفرس بقصد فائدة شخصية، وربما تكون القصة كما يأتي: الظاهر أن رئيس الجنود المرتزقين من الإغريق لم تقع عليه أية مسئولية في الخيبة النهائية التي لاقتها الحملة، بل على العكس كان يقع كل اللوم على «فارنابازوس» وأن «إفيكراتس» عندما نصح بالإسراع في القيام بالضربة القاصمة بعد تدهور المقاومة عندما فم فرع النيل المنديسي؛ كان — في الواقع — يقترح الطريقة الوحيدة لإنهاء الحرب بنجاح باهر، ولكن لم يُؤخذْ باقتراحه.

وإذا قبلنا كل ما جاء في هذا الاعتذار من دقة حاذقة — وليس فيه ما يدعو إلى الشك — فإن ذلك يكون بعيدًا من أن تجعل كل الأسباب التي دعت «فارنابازوس» إلى الرفض

تفقد قيمتها، كما أنه لا يمحو كل المسئولية عن عاتق «إفيكراتس» في خيبة الحملة؛ وذلك أنه عندما اقترح القائد الفارسي أن ينتظر تجمع كل القوات الفارسية للزحف نحو الجنوب؛ فإنه كان بوصفه القائدَ الأعلى العام قد أراد — بطبيعة الحال — أن يفيد من أحد عناصر النصر التي تُعد من أهم الأُسس لهذا الجيش، وأعني بذلك: تفوقه في عدد جنوده على الجيش المصري، وبعد ذلك إذا لم يكن هناك شيء يبرر الشكوك التي كانت تحوم حول مطامح «إفيكراتس» الشخصية، وهي التي نسبها إليه «فارنابازوس»، فإنه يجب علينا أن نُوافق على أن مثل هذه الشكوك كانت طبعية في نظر القائد الفارسي بدرجة لا بأس بها؛ وذلك لأن «إفيكراتس» لم يكن إلا مغامرًا ورئيس جُنُود مرتزقة لا مواطنًا أثينيًّا، وقد كان كل ما يمتاز به هو أنه قد أصبح في حروب في «تراقيا» صهر ملك قوي وسيد ميناء بحرية، حصنها واستعمرها، (راجع: Grote XIV, pp. 257-8)، وقد كان من المحتمل أن «إفيكراتس» يحلم بأن تتوج أعماله في «مصر» بأن يُصبح بعد ذلك صاحب مؤسسة غنية بعد انتصاره، وحتى إذا فرضنا أن «إفيكراتس» كان يُريد أن يقوم بالحرب على المصريين على رأس جُنُوده المرتزقين؛ فإنه كان في ذلك مخلصًا وخاضعًا للتعليمات العسكرية، والآن يتساءل المرءُ هل كان في مقدور «فارنابازوس» أن يفهم إلحاح «إفيكراتس» في ذلك؟ ولكن إذا عرفنا عادات القُوَّاد الفُرس وما جُبلت عليه نفوسُهُم وقتئذٍ من جُبن وتردُّد، وكذلك إذا عرفنا أنهم كانوا مجبَرين على إخفاء مسئولياتهم وراء أوامر عليا تصدر لهم من قبل مَلِكهم العظيم؛ لفهمنا — بدون كبير عناء — لماذا كان «فارنابازوس» مندهشًا من إلحاح «إفيكراتس»، أو بعبارة أخرى: من مرءوس كان يرفض أوامر رئيسه؛ ومن ثم نجد للقائد الفارسي كل العذر في أن يشك أو يكون على وشك الشك في مطامع «إفيكراتس» وحبه لنفسه.

وأخيرًا لدينا اعتبارٌ آخرُ عن الغرض الذي كان يرمي إليه «فارنابازوس» وهذا الغرض قريبٌ من الاعتبار السالف الذكر؛ وذلك أنه كان يرى محافظة على شرف الجيش الفارسي أنه لا ينبغي أن تفتح «مصر» ثانية بما تظهره الجنود الهيلانية من مهارة ونشاط، وبخاصة عندما يكون الفضل راجعًا إلى «إفيكراتس» وجنوده المرتزقين في الاستيلاء على الحصن الذي بفتحه دخلت الجنود الفارسية أرض «مصر»، ومن ثم فكر فيما يحيق بسمعة الفرس إذا استولت الجنودُ المرتزقة وحدهم على عاصمة الملك ونهبوها! وعلى أية حال فإن مقاومة «فارنابازوس» للقائد «إفيكراتس» مهما كانت خاطئة في مجموعها في عدم نيل النجاح النهائي، فإنه يمكن تفسيرها بأسباب مقبولة، أما عن مسئولية «إفيكراتس» فسنرى أنها لم تسمح كلها بسبب رفض مقترحه في توجيه الجيش الذي كان يقوده.

والواقع أنه لم يكن قد فقد كل شيء عندما قام الخلاف بين القائدين؛ وذلك لأن الزحف على «منف» بالسير من طريق البحر واقتحام الفرع المنديسي، ثم المناقشات التي تلتْ ذلك؛ لم تكن تشغل زمنًا طويلًا، وأنه قبل حُلُول الفيضان كان هناك وقت متسع يسمح بالقيام بعمليات حربية طويلة مثمرة، وهذا هو نفس ما يظهر لنا مما ذكره «ديودور» في هذا الصدد؛ إذ يقول: إن المصريين كان لديهم وقتٌ طويلٌ هامٌّ، بفضله تهيأت لهمُ الفرصةُ أن يضعوا في «منف» حامية كافية للدفاع عنها (راجع: Diod. XV, 43, 2)، وقد واصل العدو بعد ذلك مجهوداته العظيمة فقام بتدمير الحصن، الذي كان على رأس الفرع المنديسي، وقد كان ذلك هو الكسب الوحيد الجبار الذي ظفر به العدو، وقد حدثتْ هناك بعضُ مناوشات، ولكن المصريين — في النهاية — تغلبوا على العدو، (راجع: Ibid. XV, 43, 3).

وقد مضى وقتٌ طويلٌ بين الاستيلاء على الحصن المنديسي ومجيء الفيضان الذي بحلوله شُلَّتْ حركةُ الحملة الفارسية، وهذا الوقت لم يفد منه الغزاة، ومن ثم نفهم أن سبب خيبة الحملة لم يأتِ من أن الفرس لم يقوموا بها إلا عند مجيء الفيضان، بل لأنه كان في مقدور «نقطانب» مدة بضعة الأسابيع التي تقع بين الاستيلاء على حصن «منديس» وحلول الفيضان أن يجمع جيشه ويهاجم العدو، فهل يا ترى يقع جزء محس من المسئولية في هذا على «إفيكراتس»؟ والواقع أن الإنسان لا يمكنه بأية حال أن يفصل بصفة قاطعة في مثل هذا السؤال، ولكن هناك بعض ملحوظات لا بد من إبدائها في هذا الصدد، وذلك أن المؤرخ «ديودور» لم يحدثنا فيما كتبه قط عن الجنود المرتزقة — وهم الذين تحدثنا بوضوح وجلاء عن الدور الذي لعبوه في الجزء الأول من الحملة — والدور الذي لعبوه في حصار «منف» الذي سبق الفيضان، وإنه لَمِمَّا يُدهش أن نجد هؤلاء المشاة الخفيفي الحركة والمسلحين بأسلحة دفاع جبارة والمدربين على الهجوم الهائل؛ لم يفلحوا في هزيمة المصريين وكسر شوكتهم، ومن جهة أخرى نعلم أن القائد «فارنابازوس» بعد عودته من «آسيا» أخذ حنقه يشتد على «إفيكراتس»، وأخيرًا أخذ يتهمه عند الآثينيين بأنه كان السبب في خيبة الحملة (راجع: Ibid. XV, 43, 5 & 6)، على أن هذا التوبيخ لا يُمكن أن يكون له معنًى أو قيمة إلا إذا كان «إفيكراتس» قد أظهر بعد الخلاف الذي حدث بينه وبين «فارنابازوس» بعضَ التراخي في عزيمته، أو ما يَدُلُّ على سوء قصد، وقد يحتمل أن ذلك قد جاء مِن نُصحه لجنوده بالإضراب عن القتال، أو أنه وافق على ذلك، ولكن إذا كان هؤلاء الجنود المرتزقون قد أظهروا في أثناء حصار حصن «منف» نفسَ النشاط الذي أظهروه في أول الحملة، وإذا كان رئيسُهُم المباشر قد قادهم إلى الواقعة بعزم وحزم ناسيًا — أو

متناسيًا — الخلافات الحديثة التي وقعت بينه وبين قائده الأعلى؛ فماذا تعني إذن اتهامات الشطربة «فارنابازوس» لقائده القديم، وكذلك التوبيخات التي كالها له بعد العودة من «مصر» بالخيبة؟

ويلوح أنه يجوز للإنسان أن يعارض في أن ذلك كان محاولة من «فارنابازوس» أن يخلِّص نفسه من فضيحة الهزيمة أو يلقي تبعتها على فردٍ آخر، وإذا كان هذا الشطربة قد قصد اتهام «إفيكراتس» أمام الملك العظيم فإن اتهامه لا يُمكن أن يُحكم عليه إلا بأنه زورٌ وبهتان، وقد وجدناه يجرح عدوه مباشرة وبعد ذلك وجه كلامه إلى الآثينيين طالبًا منهم تعويضًا؛ وذلك لأن «أثينا» قد وعدت بعمل تحقيق في هذا الصدد ومعاقبة المتهم، إذا كان هناك ما يُبرر ذلك (راجع: Ibid. XV, 43, 6)، وتدلُّ الظواهر على أن «فارنابازوس» كان يحمل بين جنبيه حقدًا دفينًا، وهذا الحقد لا يمكن تفسيرُهُ لا بما حدث في أول الحملة عندما لمع اسم «إفيكراتس» فيها بأعماله الحربية الباهرة، ولا بالخلاف الذي تَوَلَّدَ مِن رفض «فارنابازوس» رأى «إفيكراتس» وحسب، بل زاد الطين بلة — على ما يظن — أنه في الوقت الذي مَرَّ بين رفض مقترحاته وبين حلول الفيضان؛ نجد أن «إفيكراتس» بدلًا من أن يساعد رئيسه بكل دقة ونشاط قد عارض مجهوداته أو عضدها بفتور، وهنا على ما يظهر من وجهة مسئوليات القائد الآثيني كانت النقطةُ الضعيفةُ حقًّا التي يؤاخذ عليها في خلال الحملة، ولكن ليس لدينا أيُّ دليل قاطع يُمكن أن يثبت عليه ذلك.

ولَمَّا كان الفرسُ قد أُوقفوا عند حدهم بهجوم مضاد قام به المصريون، وأن الجنود المرتزقة قد خذلوهم على ما يحتم بعدم مد يد المساعدة؛ فإنهم كانوا في طريقهم إلى هزيمةٍ فاصلة على يد الطبيعة، وعلى أيَّة حال فإنه مما يظهر لدينا مدهشًا لأول وهلة أن الفرس قد تركوا أنفسهم يؤخذون على غرة بماء الفيضان، وبخاصة عندما تعلم أنهم قبل ذلك كانوا قد سيطروا على «مصر» أكثر مِن قَرن من الزمان، ولكن مما يلفت النظر هنا أن «مصر» كانت منذ ثلاثين — سنة ٤٠٥–٣٧٤ق.م — مستقلة عن الملك العظيم ودولته، وقد كان هذا الوقت كافيًا ليجعل الفرس يفقدون ما كان لديهم من خبرة شخصية تمكنهم من تحديد زمن الفيضان وانتظامه العظيم وتقلُّباته ومدته وأهميته الدقيقة، ولدينا فقرةٌ فيما كتبه المؤرخ «ديودور» تعضد هذه النظرية؛ وذلك أنه في خلال الثورة التي قام بها أهلُ مدينة «صيدا» على الفُرس عام ٣٥٠ق.م عندما كان الملك «تنسي» يتفاوضُ في أمر خيانته مع الملك وعرضه عليه الاشتراك معه في شَنِّ حربٍ على «مصر»، وقد قدم «تنسي» للملك أكبر خدمة، وهي معرفتُهُ البالغة الدقة بإقليم نهر النيل، (Ibid. XV, 43, 2).

وعلى ذلك فإنه من المحتمل جدًّا أن أهل الفرس كانوا لا يعرفون إلا معلومات مبهمة جدًّا عن جغرافية «مصر» وبوجه خاص عن مجرى هذا النهر العظيم ونظامه، ومن ثم يفسر الإنسانُ بيُسْر وسُهُولة أن القُوَّاد الفرس الذين كانوا قائمين بالحملة على «مصر» في عام ٣٧٤ق.م، بدلًا مِن أن يعودوا القهقرى في أوائل شهر يونية بجيوشهم، وهو الشهر الذي يبتدئ فيه الفيضان، والذي بحلوله يقطع منه الرجاءُ من كسب أيِّ انتصارٍ حاسمٍ سريع، قد فاجأهم الفيضان على غرة وبخاصة بطبيعة ارتفاعه ومدة فيضانه، ولم يتقهقر الفرس إلا عندما بلغتِ الحالُ أشدها، وكاد الفيضان يقضي عليهم، ويحدثنا «ديودور» عن هذه النقطة بدقة عظيمة كافية لفهم الحالة (Ibid. XV, 43, 4).

على ذلك مكث القتال زمنًا طويلًا حول التحصينات، وكانت ريح الشمال قد حلتْ فعلًا وأخذتْ تَشتَد، وبدأ النيلُ في الارتفاع شيئًا فشيئًا إلى أن وصل إلى نهاية شاطئيه، وأخيرًا أخذت المياهُ تغمر الإقليمَ المجاور، وكان النهر دائمًا يحمي «مصر» بدرجة عظيمة بزيادته الغزيرة، ولكن الفرس لأجل أن يعودوا القهقرى انتظروا حتى منتصف شهر سبتمبر، وهو التاريخُ الذي يصل فيه النيلُ إلى منتهى زيادته، أو على الأقل يصلُ إلى درجةٍ عظيمةٍ في فيضانه، والواقعُ أنهم كانوا قد اضطروا أمام تدفُّق المياه الجارفة إلى الانسحاب.

وعلى ذلك تقرر التقهقُر، وقد عاد الجيش إلى «آسيا» (راجع: Ibid. XV, 43, 5)، بلا شك في منتصف شهر أغسطس أو أوائل سبتمبر، على أن فصل الحرب لم يكن قَطُّ قد انتهى، وقد عسكر الجيشُ — بلا شك — على مقربة من «عكة»، وهناك بدأتْ من جديدٍ المشاحنات بين «فارنابازوس» و«إفيكراتس»، وقد كان غضب الأول على الثاني للسبب الذي ذكرناه آنفًا شديدًا جدًّا لدرجة أن «إفيكراتس» كان يرتعد؛ خوفًا على حياته، وبخاصة أنه كان يذكر ما حدث للقائد «كونون» بخوف وفزع، ومن أجل ذلك وَلَّى هاربًا في الخفاء إلى «أثينا» على ظهر سفينة (راجع: Diod. XV, 43, 5)، ومع ذلك فإن حقد «فارنابازوس» على «إفيكراتس» كان لا يزال مُتَّقِدًا؛ ولذلك فإنه لَمَّا كان يعد «إفيكراتس» دائمًا مبعوث «أثينا» لمساعدة الفرس على «مصر»، أوفد إلى «أتيكا» سفراء مكلَّفين باتهام هذا القائد بالخطأ الذي ارتكبه، وهو كما يقول «إن «مصر» ظلت حرة»، ولَمَّا كانتْ «أثينا» في تلك الفترة في حرب مستمرة مع «أسبرتا»؛ فإنها قد تكونُ في حاجة إلى وساطة مَلِكِ الفُرس أو إلى مساعدته المالية، وعلى ذلك فمن المحتمل أنَّ ذلك كان السببَ الذي مِن أجله لم تجسر «أثينا» على أن تغطي بصراحة وبدون تردُّد منها قائدَها العظيم «إفيكراتس» أمام الاتهامات الفارسية التي نُسبت إليه، وقد أعلن رسميًّا أن المأمورية التي كان كلف بها «إفيكراتس» قد ربطت

بلاده بعهود مع ملك الفرس، وعلى ذلك فإن الوفد الذي أرسله «فارنابازوس» قد أجيب على ما أُرسل من أجله بأن الموضوع سيُفحص، وأنه إذا وجد «إفيكراتس» مذنبًا فإنه سيعاقب، وبهذه الكيفية نجد أن «أثينا» نظريًّا قد عُدَّتْ بين أعداء استقلال «مصر»، وتَدُلُّ جدية بل على العكس نجد أنه في ربيع عام ٣٧٣ق.م قد عين قائدًا حربيًّا شواهد الأحوال على أن «إفيكراتس» لم يظهر عليه أنه كان مهمومًا بصورة (راجع: Ibid. XV, 43, 6).

وبعد ذلك بعام نراه قد خلف القائد «تيموتيوس Timotheos» رئيسًا للأسطول الأثيني العظيم الذي كان يحارب «لاسيدمون»، ولكن «أثينا» بعملها هذا لم تكن تريد قطع علاقتها مع الفرس، وكذلك لم تظهر بأنها كانت تعارض «مصر» في طلب استقلالها.

هذا، ونجد أنه بعد المحاكمة التي أكدتْ طرد القائد «تيموتيوس» من قيادة الأُسطول الأثيني وإسناده إلى «إفيكراتس»، دخل الأول في خدمة ملك الفرس؛ وذلك أنه — كما يُقال — قد مثل أمام ملك الفرس الذي كان في حَرْبٍ مع «مصر»، وحصل من أجل ذلك على كل ما كان قد حصل عليه «إفيكراتس» من قبله من موافَقة شعبه، وقد كانت مغادرته للانضمام إلى الجيش الفارسي في عهد حكومة «أستيوس Asteios» (حوالي مايو ٣٧٢ق.م).

وقد وجدنا أن «تيموتيوس» كان لا يزال في خدمة الفرس في عهد حكومة «أكستنيس» فيعام ٣٧٣–٣٧١ق.م، وعلى ذلك فإن إقامته في الجيش الفارسيِّ كانت قد امتدَّ أَمَدُها، ولم يُحدثنا «ديودور» ولا الخطب التي ألقيتْ ضد «تيموتيوس» عن أي تفصيلٍ خاصٍّ بهذه الحملة الجديدة التي قام بها الفرسُ على «نقطانب» الأول، هذا فضلًا عن أننا لم نجد أن الجيش الفارسي الإغريقي قد قام في أيَّة جهة بزحفٍ على «مصر»، والظاهرُ أن كل ما حدث كان ينحصر في قيام بعض مناوراتٍ واستعداداتٍ ليستْ هامة في معسكر «عكة» بقيادة «تيموتيوس» وقواد ملك الفرس بالاشتراك سويًّا.

وعلى أية حال نجد أن «نقطانب» الأول قد أمضى في سلام وحرية مدة الثماني عشرة سنة التي حكمها ٣٧٩–٣٦١ق.م، والواقع أنه قد قُضِيَ على أزمة عام ٣٧٤ق.م بالفشل من جانب الفرس لأسباب منوعة؛ أولًا: طول مدة التعبئة الفارسية التي كان يعرقلها تردُّد القيادة العُليا، مما سمح للفرعون أن ينظِّم على مهل مقاومته للعدو في الدلتا، وقد كان توقُّف العمليات الحربية بعد سُقُوط قلعة «منديس» يرجع إلى قرار «فارنابازوس» ومِن ثم هُيئت الفرصةُ للمصريين أن يعاودوا الكَرَّة بالهجوم بقوة وشدة متناهيتين، ومِن المحتمل كذلك أنَّ تراخيَ «إفيكراتس» وعدم رغبته في قيادة الجيش بسبب رفض القائد العام الفارسي مقترحاتِه، كان السببَ في فشل الحملة، والسببُ الحاسم في نجاة «مصر»

هو فيضانُ النيل الذي جعل أية حركة حربية على «مصر» ضربًا من المستحيل، وهذه هي المرةُ الوحيدةُ التي نرى فيها — في خلال هذه القصة — أن النصر كان في المعسكر المعادي للإغريق.

ولكن إذا استثنينا أن «مصر» قد نالت سلامتها بسبب النظام الدفاعيِّ الذي سَلَّحَها به فيما سبق القائدُ «خابرياس» الأثيني؛ فإن الجنود المرتزقين لم يهزموا في واقع الأمر؛ وذلك لأن أعمالهم الباهرة في بداية الحرب لم يمحها إلا الكبرياءُ الوطنيُّ والخوفُ السياسيُّ الذي أظهره «فارنابازوس» قائدهم الأعلى، وكذلك قد يرجع إلى حِقْدِ رئيسهم المباشر «إفيكراتس» على القائد الأعلى «فارنابازوس».

هذه نظرةٌ عاجلةٌ عن حروب «نقطانب» الأول لصد الفُرس عند محاولتهم كرة أُخرى احتلال البلاد.

حالة مصر في عهد نقطانب الأول ومركز الإمبراطورية الفارسية

لا نزاع في أن «مصر» قد وصلت إلى أعلى ذروة في عهد «نقطانب» الأول، وقد بدأ في عهده عصرٌ جديدٌ في تاريخ إقامة المباني الضخمة وإنتاج الفن الرفيع، وقد وصلت إلينا معلوماتٌ مختلفةٌ عما لا يَقِلُّ عن مائة أثر من عهد هذا الفرعون، وسنتحدثُ عنها فيما بعد، ويُلحظ هنا أنَّ العلاقةَ السياسية بين «مصر» وبين الدويلات الإغريقية لم يعرف عنها شيءٌ يُذكر حتى عام ٣٦٦ق.م، ويبدو أنَّ ذلك يتناقضُ مع ما كانت عليه «مصرُ» مِنْ عِلَاقاتٍ مع هذه الدويلات في عهد الفرعون «أوكوريس»، ولا يُمكن تفسيرُ ذلك بقِلَّةِ ما لدينا مِن مصادرَ فقط؛ فمنذ صلح الملك الذي عقده في عام ٣٨٦ق.م لم توجد في بلاد الإغريق أيةُ ولاية على اتصالٍ ببلاد الفرس إلا وكانت في حِلف مع «مصر» خوفًا من سطوة الأولى وطغيانها.

وقد وجدت بلادُ الفرس نفسها في خلال عشرة السنين التي تلت الكارثة التي أصابتْها في «مصر» في حالة انحلالٍ وتدهوُر متزايدَين (راجع: Judeich, Klein asiat studien p. 190 ff; Ed Meyer, Gesch. d. Alt. V § 964–5, p. 454 ff, § 979 ff, p. 485 ff & Beloch Griech. Gèsch. III 2, s 105/5 p. 254–7)، وقد كان الملك «أرتكزركزس» الثاني فضلًا عن ذلك طاعنًا في السن بالإضافة إلى أنه لم يكن حاكمًا قويًّا، ومِنْ ثم ترك أحوال إمبراطوريته تُسَيِّرُها الأقدارُ كما تشاء، فترى فوق تركه القيام بحملة جديدة على «مصر» أن كل شطربياته الغربية قد دَبَّ فيها رُوحُ الانفصال عن الإمبراطورية، وهكذا نرى أن الشطربة «داتامس Datames» حاكم «كابودوشيا» قد اتخذ لنفسه منذ زمن

طويل موقفًا مستقلًّا عن المملكة الفارسية، وفي عام ٣٧٠ق.م نجد أنه قد استولى على «سنوب Sinope» من قبضة «بافلاجونيا Paphlagonia»،[٣] وفي كل ذلك قد تحاشى إعلانَ الثورة على ملك الفرس العظيم، وكذلك نجد الشطرب «هكاتومنوس Hekatomnos» صاحب «كاريا»[٤] (٣٩١–٣٧٧ق.م) وخليفته «موسوللوس Mausollos» (٣٧–٣٥٣ق.م) كانا في الواقع مستقلين بملكهما أكثر من تبعيتهما لملك الفرس، وكذلك كانت الحال مع الشطربة «اريوبارزانس Ariobarzanes» صاحب «داسكيليون Daskyleion» (حوالي ٣٨٨–٣٦١ق.م)، يضاف إلى ذلك بلادٌ كثيرةٌ أُخرى قد أصبحت شبهَ مستقلة عن بلاد الفُرس.

والواقع أنه كان يُخشى مِن وُقُوع انهيارٍ تامٍّ في الجزء الغربي من الإمبراطورية، وليس لدينا أيُّ مصدرٍ يُمكن أن يُحدثنا عن مدى نُفُوذ بلاد الفرس بعد الكارثة التي لحقتْ بها في «مصر» ولا عن تأثير هذه الخيبة في تدهوُرها، وكل ما نعلمه أنه منذ بداية عام ٣٦٠ق.م قد حدث أولُ انفجار ظاهر في تصدع تلك الإمبراطورية، وذلك أن «داتامس» حاكم «كابودوشيا» كان أول من بدأ الخطوة الأولى في هذا الصدد بإعلان الثورة، وقد أرسل الملك العظيم الشطربة «أوتوفراداتس Autophradates» حاكم «ليديا»[٥] لمحاربة «داتامس»، وعلى الرغم من نيله بعض الانتصارات، فإنه لم يمكنه القضاءُ عليه.

ومن ثم أخذت الثورات تمتد بصورة ضخمة فقام «أريوبارزانس Ariobarzanes» حاكم «فرجيا»،[٦] بثورة عام ٣٦٦ق.م، ومن جهة أخرى نجد كلًّا من «أثينا» و«أسبرتا» قد لامت الملك العظيم على المساعدة التي قدمها لعدوتيهما «طيبة» في عامي ٣٦٧، ٣٦٦ق.م.

هذا، وقد كانت «أثينا» — أملًا منها في أن يمدها الفرس بالمال — تفكر بهذه الطريقة لتوسيع تحالُفها، وكانتْ قدْ لجأتْ إلى مساعدة «أريوبارزانس» فعلًا، وقد أرسلت «أسبرتا» الملك «أجسيلاوس» إليه كما أرسلت «أثينا» «تيموتيوس» إليه أيضًا في عام ٣٦٥ق.م ويُلحظ أنه ما بين عامي ٣٦٣–٣٦١ق.م كان الجزء الغربي من إمبراطورية الملك العظيم قد فُقد جميعُهُ، يُضاف إلى ذلك أن ربيبه «أوروتنيز Oiontes» صاحب

[٣] الواقعة جنوب البحر الأسود مباشرة.

[٤] على شاطئ البحر الأبيض في آسيا الصغرى.

[٥] مجاورة لـ «كاريا».

[٦] في الجهة اليمنى من «كاريا».

«أرمينيا» وبلاد «ليكيا» و«بزيديا» و«بامفيليا» «وكليكيا» و«سوريا» و«فنيقيا» وكذلك بلاد «آسيا الصغرى» الإغريقية، قد انفصلت كلها عن الإمبراطورية الفارسية.

هذا، ونجد أن «موسوللوس» ملك «كاريا» قد عاضد الثورة، ولكن نُشاهد أن صديق الملك الحميم «أوتوفراداتس» صاحب «ليديا» كان مضطرًّا أن يُصبح وحيدًا، وأن يبقى بعيدًا على أية حال، وكذلك نجد أن «داتامس» قد وَصَلَ في زحفه مسافةً متقدِّمًا على نهر الفُرات، وذلك في حين أن «أورونتيز Orontes» الذي كان يقوم على رأس ثورة بوصفه القائد الأعلى لهجوم كبير على الملك العظيم — وقد كان مجهزًا بجيش جمعه في «سوريا» (Diod. XV, 91, 1) — قد أخفق مشروعُهُ من كل النواحي، في فكرته وفي قيادته، ومن جهةٍ أُخرى نجد أن «كورش» الصغير قام من «سرديس» بعصيانٍ على أخيه «أرتكزركزس» الثاني قاصدًا بذلك انتزاعَ ملك الأخمينيسيين، غير أن هذا الاتجاه لم يحز قبولًا قَطُّ من أي من الثوار الذين قاموا بثوراتٍ في عام ٣٦٠ق.م فقد كان غرضُ كل شطربة أن يصبح هو قويًّا ومستقلًّا بنفسه، ولكن لم يكن لديه أيُّ قصدٍ في الانفصالِ عن الإمبراطورية الفارسية اسمًا؛ إذ لم يكن لأَيٍّ من المشتركين في هذه الثورة أيةُ فائدة حقيقية من الانفصال عن ملك «فارس».

وهذه السياسة قد نفذت تمامًا في كل حالة فردية، فقد كان كل شطربة يظن أن ارتباطه مع الملك الأعظم يحقق فائدته أكثر مما لو انتقض عليه، وعلى ذلك تَحَطَّمَ العصيانُ وهدأت الثورات التي قام بها شطاربة المملكة الفارسية، وقد كان أول من سلم بالإخلاد إلى السكينة واسترضاء الملك الأعظم هو «أوروتنيز» وذلك بإرسال هدايا له كما وعد الملك العظيم، أن يجعل تحت سلطانه كل الشطربيات التي على ساحل «آسيا الصغرى»، وكذلك سلم له كل الثوار الذين كانوا في قبضة يده (Diod. XV, 91, 1) كما عاد كل من «موسوللوس» و«أوتوفراداتس» إلى سياسته القديمة، وبذلك قَوِيَ مركزُهُما بالولاء للملك العظيم. هذا، وسنجد فيما بعد أن «اريوبازانس Ariobazanes» ثم «داتامس»، قد لاقى كُلٌّ منهما حتفَهُ بالخيانة، فقد أُخذ الأول أسيرًا وقُتل الثاني،[٧] وبذلك حفظ كيانَ الدولة الفارسية دون أن تتكلف الحكومةُ المركزيةُ أي مجهود حربي.

---

[٧] راجع: Xenophon, Cyro p. VIII, 8, 4, Aristoteles Pol. V, 8, 15 (1312a), Cornelius Nepos, Natames, X, XI; Polyan, VII 29, 1; Diodor. XV 91, 7.

أما في «مصر» فإنه على ضوء هذه التطورات في الإمبراطورية الفارسية قد ظهرت في مصر حالةٌ جديدة.

وقبل أن نتحدث عن الأحوال السياسية التي نشأتْ عن ذلك يجب أنْ نتحدث هنا عن الآثار التي خلَّفها لنا الفرعون «نقطانب» الأول في أنحاء البلاد أولًا؛ وذلك لأن هذه الأحداث السياسية التي حدثتْ كانت في عهد ملكٍ آخرَ غير «نقطانب» وهو الملك «تاخوس».

آثار الملك «نقطانب» الأول «نقطانبيس»

قبل أن نتحدث عن آثار الملك «نقطانب» الأول يجدر بنا أن نَلفِت النظر إلى أنه على الرغم مِن عَدَمِ التفرقةِ بين اسمه واسم «نقطانب» الثاني في كُتُب التاريخ الحديثة؛ فإنه يوجدُ فرقٌ بَيِّنٌ في الكتابة المصرية القديمة، فنجد أن «نقطانب» الأول يُسَمَّى «نخت نبف» ويُسَمَّى الثاني «نخت حر-حبت».

هذا، ونجد أن «مانيتون» قد نطق الأول «نقطانبيس» ونطق الثاني «نقطانبوس» وقد اختلف الاسمان في بادئ الأمر على المؤرخين، ولكن في النهاية أصبح مِن المؤكد أن «نقطانب» الأول هو «نخت نبف» بالمصرية و«نقطانب» الثاني هو «نخت حر-حبت».

وسنُحاول أن نذكر آثارَ الفرعون «نقطانب» الأول على حسب ترتيبها التاريخيِّ بقدر المستطاع، وسيلحظ القارئُ في كتب التاريخ أنه إلى عهد حديث جدًّا كان الأول يحل محل الثاني والعكس بالعكس ومن أجل ذلك نلفت النظر إلى هذه الملاحظة الهامة.

(١) إدفو

يوجد في معبد «إدفو» نقشٌ مؤرخٌ بالسنة الأولى من عهد «نقطانب» الأول «نخت نبف» وقد دُوِّنَ في عهد «بطليموس» الحادي عشر «سوتر الثاني»، وهذا النقشُ خاصٌّ بإهداءِ قطعةِ أرضٍ للإله «حور» صاحب «إدفو»، وهو محفورٌ على الجِدار الخارجيِّ من السور الشرقي، وقد جاء فيه ذكرُ الملوك «نقطانب» الأول والثاني و«دارا» الفارسي.

هذا، ويوجد حتى الآن ناووسٌ من الجرانيت في معبد إدفو ولا بد أنه كان دون أي شك أَهَمَّ محرابٍ لعبادة «حور» «إدفو»، وقد نُقش على عارضتي هذا الناووس متنٌ يُحدثنا أن الملك «نقطانب» الأول قد أهدى هذا الناووس لمعبد «إدفو»، (راجع: Dumischen temple Inschr. I, Taf. III Al. 1–6).

وقد جاء في هذا النقش على لسان الإله «حور» ما يأتي: «جميلٌ هذا الأثر الذي أقمته لي وإن قلبي لمرتاحٌ لذلك سرمديًّا»، وبعد ذِكْر الأسماء الملكية يقول الملك «نقطانب» في إهدائه: «لقد عمله بمثابة أثره لوالده «حور بحدتي» الإله العظيم رب السماء، عمل له ناووسا فاخرًا من الجرانيت ومصراعًا بابُهُ مِن خشب الصنوبر ومُطَعَّمٌ بالنحاس، ومُغَشًّى بالذهب، ونقش عليه الاسمُ العظيمُ لجلالته، وفي مقابل ذلك وهبه الإلهُ ملايين من الأعياد ومئات الألوف من السنين أبديًّا.»

(راجع: L.D. IV, 43 a, b, 44 a, L.D.T. IV p. 67, Brugsch, Thesaurus, III p. 538 ff, pl. 1, 9, III 5, V, 22, VI 18, VIII, 14, Com p. W. Otto, Priester Und Tempel Bd. I, p. 263, Anm. 2, De Rochemonteix-Chassinat, Le temple d'Edfu VII, p. 189 ff, X, pls. CLXXI–CLXVII, XIV, Pls. DCXLVI–DCLIV.)

(٢) نقراش Naukratis

لوحة من الجرانيت الأسود خاصة بتتويج الملك في سايس والهبات لمعبد الإلهة «نيت».

في السنة الأولى من عهد الفرعون «نقطانب الأول» (راجع: J. E. A. Vol. 29 p. 60 ff).

وهذه اللوحة تمتاز بجمال كتابتها وغرابة نقشها؛ وذلك لأنها تحتوي على عدد كبير من الكلمات التي نجد فيها أن الهجاء التقليدي بالإشارات المقطعية قد حل محله الأحرف الأبجدية وحدها، وقد عزا الأستاذ «أرمان» هذا الإغراب في الهجاء إلى رغبة الكُتَّاب المتأخرين في الكتابة بأُسلوبٍ قديم بقدر المستطاع، على أنه لا تكادُ توجد أيةُ نقوش قديمة تحتوي على كتابات مثل التي نُقشت بها اللوحة التي نحن بصددها الآن. وقد قال «ماسبرو» عند فحص نُقُوش هذه اللوحة: إن هذه الكتابات سببُها — على ما يظن — معرفةُ الكاتب بإغريق «نقراش» واختلاطه بهم، ويقصد بذلك معرفته بحروفهم الأبجدية، وهذا الرأيُ الأخيرُ قد رفضه رفضًا باتًّا الأثري «بيل» الذي أظهر بحق أن كتابات لوحة «نقراش» توجد في نقوش أُخرى معاصرةٍ لها أو ترجع إلى العصر الساوي، وقد استخلص من هذه الحقيقة أن هجاء كلمات اللوحة هو مصري خالص، والواقع أن استنباطه لا يتمشى مع المنطق؛ وذلك لأن الكتابات التي نحن بصددها قد انحصرتْ في فترة قصيرة من التاريخ المصري نسبيًّا، وكل ما دلل عليه هو أن مثل هذه الكتابات كانت منتشرة أكثر مما أراد الإدلاء به «ماسبرو».

وعلى أية حال فإن وجود مثل هذا الهجاء لأول مرة لا بد لوجوده من معنًى في هذا الوقت الذي كانت فيه «مصر» قد أخذت تتصل بالثقافة الإغريقية، وبخاصة عندما نعلم أنَّ هذه الثقافة قُوبِلت بالترحاب في البلاط الفرعوني، ولا أَدَلَّ على ذلك مِن أن «ديودور» الصقلي قد حَدَّثَنا بأن «بسمتيك» الأول كان مِن كبار المعجبين بالثقافة الهيلانية، لدرجة أنه ثقف أولاده بهذه الثقافة الإغريقية.

ويُخيل إلينا أنه في العصر الساوي كان يوجد نفرٌ من المصريين قد تأثروا بنوعِ الكتابة التي كان يدون بها الأجانب الذين أتوا إلى بلادهم، وبخاصة ما كانت تنطوي عليها من بساطةٍ مدهشة، ومن ثم اتخذ مبدأ الكتابة بالحروف الأبجدية من وقت لآخر في الكتابات الهيروغليفية في هذه الفترة وأحيانًا فيما بعد، غير أن هذا المبدأ قد تُرِكَ جانبًا في نهاية الأسرة الثلاثين لسبب أو أكثر من الأسباب التالية: أولها: حكم التقليد الذي كان المصري يحافظ عليه بكل ما أوتي من قوة. ثانيًا: ثورة المصريين على كل ما هو إغريقيٌّ بدافع الوطنية المصرية، وذلك عندما غزا الإغريقُ البلاد وتسلطوا عليها. وثالثًا وأخيرًا: لُوحظ أن كتابة اللغة المصرية القديمة بحروفٍ أبجديةٍ فقط مؤلفة من حروف ساكنة؛ قد تسبب تضحية سهولة القراءة بدلًا من البساطة، وبذلك كان ضرر هذه الطريقة أكبر من نفعها، وهذا الاعتبار الأخير سواء أكان فعالًا أم لا فإنه على ما يظن يرتكز على أساس؛ وذلك لأن تركيب الكتابة المصرية القديمة العادية بما لها من مخصصات وإشارات تدل على كلمات خاصة، هذا بالإضافة إلى الاختلافات التقليدية في الكتابة لكلماتٍ مختلفة تحتوي على نفس الحُرُوف الساكنة يجعلها أكثر سهولة في قراءتها من كتابتها بالحروف الأبجدية؛ وذلك أن مجرد النظر للمعتاد على قراءة اللغة المصرية يكون كافيًا للتمييز بين الألفاظ ومعانيها.

وهاك ترجمة لهذه اللوحة على حسب البحوث التي قام بها نخبةٌ مِن علماء الآثار منذ العثور عليها (راجع Maspero. Comptes Rendus de I'Ac. Des Inscr. 1899, p. 793 ff.; Erman–Wilcken A. Z. XXXVIII, p. 127 ff.; Maspero, muse Eg. I, 40 ff., Sethe، A. Z. 39 (1901) p. 121–123; Piehl Sphinx VI 89 ff; Kuentz. In Bull. Inst. Fr. XXVIII, 103 ff.; Posener in A. S. XXXIV 141–8, J.E.A vol. 29, p. 90 ff):

السنة الأولى الشهر الثاني عشر اليوم الثالث عشر من عهد جلالة «حور» قوي الساعد، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، السيدتان (المسمى) مفيد الأرضين، حور الذهبي (المسمى) الفاعل ما ترغب فيه الآلهة، «خبر كا رع» بن «رع» «نقطانب» «نخت نبف» العائش أبديًّا، محبوب «نيت» الآلهة الطيبة سيدة «سايس»، رمز «رع» المحسن، وريث

«نيت»، لقد اختارت جلالته من الشاطئين ونصبته حاكمًا على الأرضين، ووضعت صلها على رأسه، وهي التي تأسر له قُلُوب العظماء، وتخضع له قلوب عامة الشعب وتمحو كل أعدائه.

وإنه ملك قوي حامٍ لـ «مصر» وجدار من البرنز على كلا جانبي «مصر»، القوي جدًّا، والعامل بساعديه ورب السيف الذي ينغمس في الجمع، ومن يهيج عندما يرى أعداءه، أنه واحد يقطع قلوب المتمردين، ولكن يهب النعم لمن هو مُوَالٍ له، ومن ثم ينامون (؟) حتى طلوع النهار معتمدين على صفاته الباهرة دون أن يضلوا سبيلهم، ومن يجعل كل الأراضي يانعة عندما يشرق (مثل الشمس)، ويحفظ الناس في عافيةٍ بخيره (؟) وكل العيون تنبهر عند النظر إليه مثل «رع» عندما يشرق من الأفق، وحبه يفتح (كالزهر) كل يوم، لقد أعطى الحياة لأجسام الناس، وهو الذي تفرحُ الآلهةُ عندما تراه، وإنه ليقظٌ في البحث عن إنعامات لمحاربيها، ومن يدعو كهانها لأجل أن يشاورهم في كل مهام المعبد، ومن يعمل على حسب نطقهم دُون أن يكون في أذنه وقرٌ مِن كلماتهم، وهو ذو قلبٍ مستقيمٍ على طريق الإله، بأن مساكنهم (أي الآلهة)، ومقيم جدرانهم، وممد بوفرة موائدهم، وصانع أوانيهم المقدسة، ومنشئ قربانًا من كل الأنواع، وهو الإله الأوحدُ صاحب المعجزات العدة، ومن يقدم له نور الشمس ثناء، ومن تُظهر له الجبالُ ما في جوفها، ومن يقدم له المحيطُ مياهَه، والبلاد الأجنبية تقدم له فيضها، وإنه يشرح صدورهم في أوديتهم.

لقد طلع جلالته في قصر «سايس» يجلس في معبد «نيت»، وقد قيد الملك إلى مقر «نيت»، وقد ظهر بالتاج الأحمر بجانب والدته المقدسة عندما قدم قربانًا لوالده رب الأبدية في بيت «نيت» وقال جلالته ليعط:

(١) عشر الذهب والفضة والخشب، والخشب المشغول، ومن كل شيء يأتي من البحر اليوناني، ومن كل السلع التي تفد لأملاك الملك في المدينة المسماة «حنو» (غير معروف موقعها).

(٢) عشر الذهب والفضة وكل الأشياء التي تنتج في «بي-امروي» المسماة «نقراش» على شاطئ «عنو» (على الفرع الكانوبي)، والتي تحسب لبيت الملك (أي التي يجبى منها ضرائبُ الملك)، لتكون وفقًا لمعبد والدتي «نيت» أبديًّا، وذلك فضلًا عما كان موجودًا مِن قبل، ودَعْهَا تحول إلى نصيب (خاص) يساوي ثورًا وإوزة «رو» مسمنة وخمسة مكابيل

«منو» من النبيذ بمثابة قربانٍ يوميٍّ دائم، وتوريدها يكون في خِزَانة والدتي «نيت»؛ وذلك لأنها سيدةُ المحيط، وأنها هي التي تهب خيره (أي أنها هي التي تهب «مصر» الخير الذي يحضر عبر البحار).

وقد أمر جلالتي أن تحفظ أوقاف معبد والدتي «نيت» وأن كل شيء قد عملوه في الأزمان السالفة يستمر حتى يستمر ما عملته لأولئك الذين سيكونون مدة أبدية السنين، وقد أمر جلالته أن يسجل ذلك على هذه اللوحة التي يجب أن تُوضع في «نقراش» على شاطئ «عنو» وعلى ذلك ستتذكر طيبته حتى نهاية الأبدية.

من أجل حياة وثبات وعافية ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر كارع» بن «رع» «نخت نبف» «نقطانب» العائش أبديًّا، ليته يمنح كل الحياة وكل الثبات وكل السلطان وكل الصحة، وكل انشراح الصدر، مثل «رع» أبديًّا.

وقد تحدثنا عن هذه الضرائب في مكانها، (راجع: مقال أرمان-فلكن A. Z. XXXVIII, p. 127).

(٣) وادي حمامات (السنة الثالثة)

يوجدُ نقشٌ على صخور «وادي حمامات» في مغارة مؤرخ بالسنة الثالثة من فصل الزرع، اليوم الرابع من عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري، الإله الطيب رب الأرضين «نقطانب» الأول، ويشاهد في المنظر الإله «آمون» جالسًا على عرشه بوجهه نحو اليمين، وقد نقش على يمينه: «آمون رع» رب تاج الأرضين ... إلخ.

هذا، ويشاهد في هذا المنظر — فضلًا عن الإله «آمون» — الملك «نقطانب» الأول يُقدم البخور وإناء ماء للإله «مين» رب «قفط»، وكذلك للإله «حربوخرات» الذي وقف خلفه والإلهة «إزيس» التي تأتي في الخلف أخيرًا، وهؤلاء الآلهة الثلاثة هم ثالوثُ هذه الجهة (راجع: L.D. III 287 a)، ويُشاهَد تحت الملك مبنى على قمته هرم، كما يُشاهَد خلف هذا الثالوث صورة شخص صغير الحجم، وعلى اليمين يُشاهَد الإله «بتاح» مرتين الواحدة فوق الأخرى في محرابه، وعلى اليمين من ذلك يشاهد كاهن أمام الإله «مين» (راجع: L.D. III 286 h)، ويشاهد في نفس المنظر على ارتفاع بسيط يمين تاج رأسه الإله «مين» الإله «آمون رع» جالسًا، وقد نقش تحته المتنُ الذي ذكرناه في أول الكلام عن نُقُوش هذا الكهف، ويُلحظ أن

المنظر كله قد انتشرتْ في أنحائه كتاباتٌ إغريقيةٌ وديموطيقيةٌ منقوشةٌ في الصخر، (راجع: L.D. VI, p. 100).

(انظر كذلك: Friedrich Karl Kienitz, Die Politische Geschicte Agyptens Von der Zeitwende p. 200; L.D.T.V. p. 353-354; Couyat-Montet, Les inscr, Du Ouadi Hammamat, p. 43 No. 26 & pl. VIII.)

(٤) منف (السرابيوم – السنة الثالثة)

عثر الأثري «بركش» على لوحة من اللوحات التي كانت موضوعة في سرابيوم «منف» في قلعة «القاهرة» ضمن الآثار التي كانت محفوظة فيها، وقد بدأت بالكلمات التالية: في السنة الثالثة اليوم الأول من شهر بشنس من عهد الملك «نقطانب» الأول الذي نصبها عن موت العجل «أبيس» الذي ولدته البقرة! ...

(راجع: Brugsch, A.Z. 22 (1884) p. 134 No. 23; Revillout, Not. Pa p. Dem. Arch. p. 479.)

(٥) منف (السرابيوم – السنة الثالثة)

يوجد في متحف «برلين» لوحة منقوشة بالديموطيقية، مؤرخة بالسنة الثالثة، وكانت موضوعة في ضريح عجل «أبيس»، (راجع: Berlin Mus. No. 2127, Ausfuhrliches Verzeichnis der Agyptischen Altertùmer und Gipsabgusse im Konigl. Museum zu Berlin 2 aufgabe Berlin 1899 p. 312).

(٦) منف (السرابيوم – السنة الثالثة)

يوجد بمتحف «اللوفر» لوحةٌ منقوشةٌ بالديموطيقية، مستخرجةٌ من السرابيوم، وقد نبه عنها الأثري «مريت»، (راجع: Le Serapeum Edit., Maspero p. 127; Revillout, Not. Pa p. Dem. Arch., p. 479).

وقد ترجمها الأثريُّ «ريفيو»، وهذه اللوحةُ تذكر لنا موت عجل «أبيس» وتضيف إلى ذلك أن العجل «أبيس» هذا كان قد انتخب في السنة الأولى في ٢٨ برمودة من عهد الملك «نقطانب» الأول على ما يظن، (راجع: L.R. IV p. 184, Note b).

(٧) وادي النخل (السنة السادسة)

عثر على متن قصير مكتوب بالديموطيقية باسم الملك «نقطانب» الأول ونشر الأثري «كليدا» متنين بالديموطيقية، أرخ كل منهما بالسنة السادسة ويقعان في «وادي النخل» بالقرب من «تل العمارنة»، وقد نشرهما ثانية الأثري «شبيجلبرج» (راجع: J. Cledat, Bull. Inst. Franc. D'Archeol. Orient. II p. 69, et, pl. VII No. 27, 29 et 31; spiegelberg, Rec. trav. XXVI (1904) p. 159–61).

جاء فيها: في السنة السادسة ... قبل «تحوت» العظيم سيد «الأشمونين» للإله العظيم بوساطة «أونوفريس» بن ... والملك المشار إليه هنا هو «نقطانب» الأول، وكذلك وُجد نقشٌ آخرُ في نفس الجهة مؤرخٌ بالسنة التاسعة (Ibid. pl. VII No. 27)، ويحتمل أنه لنفس الملك، (راجع: Spiegelberg Ibid. p. 161).

(٨) محاجر طرة (السنة الثالثة)

وعثر الأستاذ «شبيجلبرج» على نقش في محاجر «طرة» مؤرخٌ بالسنة الثالثة؟ الشهر؟ من عهد الملك «نقطانب» الأول، عاش مخلدًا (راجع: A.S. VI 1905 p. 219 ff. No. 5-6, 21, 25).

(٩) السرابيوم (لوحة مؤرخة بالسنة الثامنة)

وذكر الأثري «فيدمان» (راجع: Wiedemann, Gesch. p. 718) لوحة لم تنشر محفوظة في متحف «اللوفر» عثر عليها في سرابيوم «منف» وقد أرخت بالسنة الثامنة من عهد الفرعون «نقطانب» الأول.

(١٠) الأشمونين (السنة الثامنة)

لوحة من الحجر الجيري

وتحتوي على خمسة وثلاثين سطرًا، وتشتمل على تقرير يتحدث عن مبان وأوقاف في ثلاثة مواضع في «الأشمونين» من السنة الرابعة حتى السنة الثامنة، وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري، (راجع: Roeder, Hermopolis (1938) und Mitteilung D. Inst. 9 (1940) p. 78) انظر: [فصل: «مصر» في عهد «نقطانب» الأول – وادي حمامات (السنة الثالثة)].

(١١) إهناسيا المدينة؟ (السنة الثامنة)

بردية مكتوبة بالديموطيقية مهشمة تمامًا، وهي محفوظةٌ الآن بجامعة «ليل» من أعمال «فرنسا»، وقد نشرها الأثريُّ «سوتاس»، (راجع: Sottas Papyrus demotiques de Lille. p. 49–51, No. 22–24).

وقد جاء عليها ذكرُ «سماتوي تفنخت» وهو أحدُ أفراد أُسرة شهيرة، وجاء فيها ذكرُ بلدة «إهناسيا المدينة» (وقد عثر عليها في مدينة «غراب» بالفيوم).

(١٢) إدفو (؟)

وجد في «إدفو» ورقةٌ بالخط الديموطيقي مؤرخةٌ بالسنة الخامسة عشرة، الشهر الثاني، وتحتوي على عقد زواج، (راجع: Junker. PaP. Lonsdorferl)، عُثر عليها في جدار مُقام باللبنات في الركن الشمالي من معبد إزيس الكبير، وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري.

(١٣) قفط

لوحةٌ مؤرخةٌ بالسنة السادسة عشرة مِن عهد الملك «نقطانب» الأول، وهذه اللوحةُ مصنوعةٌ من الحجر الرمليِّ عُثر عليها في خرائب «قفط»، وهي الآن محفوظةٌ بالمتحف المصريِّ، وارتفاعُها ٤٢ سنتيمترًا وعرضها ٢٠ سنتيمترًا، وأعلاها مستديرٌ ويُشاهَد فيه قرصُ الشمس المجنح، ويُلحظ أن الصلين منفصلان من قرص الشمس ويُحيطان بطغراء الملك «نقطانب» الأول، وعلى اليمين نقش «بحدتي» (أي الإله «حور» المنسوب إلى «إدفو»)، ويشاهد كذلك

في الجزء الأعلى المستدير تحت قرص الشمس الإله «مين» واقفًا ومعه النقش التالي: «الإله «مين» صاحب «قفط» الإله العظيم رب السماء ورب انشراح الصدر.»

وكذلك يشاهد الإله «حور» بن «إزيس» و«أوزير» واقفًا برأس صقر ويتقبل ترحاب الملك «نقطانب» الأول مُعطَى الحياة مثل «رع» أبديًّا، ويُلحظ أن هذا الملك يلبس قبعة الحرب واقفًا وهو يقدم لهذين الإلهين رمز الحقل ومعه المتن التالي: «يقدم لوالده الحقل الذي عمله له مُعطَى الحياة مثل «رع».»

وفي الجزء الأسفل من اللوحة نقش مؤلف من ثلاثة أسطر أفقية جاء فيها:

«السنة السادسة عشرة من عهد جلالة «حور» قوي الساعد، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» ابن الشمس «نخت نبف» مُعطَى الحياة، لقد عمل آثارًا لوالده «آمون» صاحب «قفط» فبنى له جدارًا عمله بالعبيد؟ حول معبده، وقد عمله ليعطى الحياة أبديًّا.» ويقول «ماسبرو»: إنه رأى بقايا هذا الجدار المقام باللبنات في الزاوية الجنوبية لمعبد «إزيس» الكبير الذي نظفه في «قفط» في الأيام الأولى من عام ١٨٨٣م، (راجع: A. Z. 23, p. 4–5).

(١٤) بلوزيوم (الفرما)

عثر الأثري «كليدا» على معيار وزن من الجرانيت الأسود في «بلوزيوم»، وجهه الأعلى مقببٌ ومسطحٌ مِن أسفلَ ويبلغ ارتفاعُهُ ١٧٧ ملليمترًا وقُطره ٣٢ سنتيمترًا وقُطرُهُ الأسفلُ ٢٧٥ ملليمترًا ووزنُهُ الحالي = ٣٢ كيلوجرام، وقد عُثر عليه في خرائبِ المدينة على سطحِ الأرض، وقد نقش عليه متنان بالمصرية القديمة باسم «نقطانب» الأول، أولهما جاء فيه: «الملك الكامل» رب الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع».

والثاني جاء فيه: يعيش «حور» القوي الساعد، السيدتان (المسمى) مثبت الأرضين، «حور» قاهر «ست» (المسمى) العامل ما تحبه الآلهة، ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) «خبر-كا-رع» ابن الشمس (المسمى) «نخت نبف» (المسمى) العامل … من الذهب الجميل، (راجع: Rec. Trav. 37 p. 33–34, Fig 2–4 Ancient Egypt, 1915 pl., 84, Poiter & Moss IV p. 1).

حيث يقارن هذا الوزن الروماني Centumpondiüm وهو يساوي ٣٢ كيلوجرامًا.

(١٥) «بتوم» (تل المسخوطة)

وُجدت قطعةٌ مِن لوحة صغيرة من الحجر الجيري الأبيض في تل المسخوطة، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «الإسماعيلية» تحت رقم ٦٨٦ عليها الاسمُ الحوري للملك «نقطانب» الأول.
(راجع: Rec. trav. 36 p. 109, Com p. Ancient Egypt 1915 p. 28.)

(١٦) «بتوم»

عثر كذلك لهذا الفرعون على صناجة وقد جاء عليها: (١) الإله الكامل رب الأرضين، «خبر-كا-رع» (لقب «نقطانب») محبوب «حتحور» صاحبة «عنو»[8] ومفكت … في بيت «قرحت»، (٢) ابن الشمس رب الأرضين «نخت نبف» محبوب «حتحور» صاحبة «عنوت» … و«آتوم» صاحب «تكن»[9] (تل المسخوطة) و«إيزيس» سيدة الآلهة، (راجع: Rec. Trav. 36, p. 109, No. IV Com p. Ancient Egypt 1915 p. 28).

(١٧) «المنجات الكبرى» الواقعة غربي «القنطرة»

عثر فيها على قطعة من الحجر الرملي صور عليها الملك «نقطانب» الأول والآلهة «بوتو»، (راجع: Uriffith in pertie tanis II, p. 46 pl. XLII).

(١٨) «قنتير» الواقعة شمال «فاقوس»

يوجد في متحف «ميونيخ» قطعتان من منظر رُسمتا بصورة فنية بديعة مما يقدم لنا فكرة عن تقدُّم الفن في هذا العهد باسم الملك «نقطانب» الأول، ومما يؤسف له جِد الأسف أن كلًّا منهما لا تحتوي إلا على جزء من اسم الملك، غير أن فيهما كل ما هو كافٍ للدلالة على أنه

---

[8] اسمُ قطرٍ زراعيٍّ في المقاطعة الثامنة من مقاطعات الوجه البحري التي عاصمتها «بتوم» (تل المسخوطة)، وفيها كانت تُعبد الآلهةُ «حتحور» (راجع: Dic. Geogr. I. p. 144).

[9] «تكن» الاسم المدني لعاصمة المقاطعة الثامنة من مقاطعات الوجه البحري، واسمُها المقدس هو «براتم» = «بتوم» وهي موحدةٌ مع «تكن»؛ أي تل المسخوطة الحالي (راجع: Dic. Geogr. VI p. 83).

«نقطانب» الأول «نخت نبف»، (راجع: Spiegelberg, A.Z. Band, 65 p. 103-104, Pl, VI No. e & f).

لوحة الملك نقطانب «نخت نبف» الأول

(راجع: A.S.L. III, p. 375-442.)

عُثر على هذه اللوحة خلال أعمال الحفائر التي قامت بها البعثة الألمانية عام ١٩٣٩م، في «الأشمونين»، وهي مصنوعةٌ من الحجر الجيري الأصفر المائل إلى السمرة، ويبلغ طولها ٢,٢٦ مترًا وعرضها حوالي ١,١٥ مترًا، وسمكها حوالي ٠,٥٢ مترًا.

وصف اللوحة: يشمل الجزء الأعلى من هذه اللوحة صورة سماء منحنية تتفق مع شكل اللوحة المستديرة في أعلاها، ويُشاهَد على يمين ويسار هذه السماء رمز الصولجان «واس»، ورسم في الجزء الأعلى من هذه اللوحة منظران يُرى فوقهما صورة الشمس ترفرف عليهما بجناحيها، ويشاهد على كل من جانب قرص الشمس صل، ويُلحظ أن الذي على اليمين يلبس تاج الوجه القبلي والذي على اليسار يرتدي تاج الوجه البحري، وقد نقش أمام كل من الصلين النقش التالي:

«بحدتي» «الإله العظيم، المبرقش الريش، رب السماء»، كما نقشت بينهما العبارة التالية: «ليته يعطى الحياة لكل واحد.»

المنظر الذي على اليمين: يشاهد في هذا المنظر الملك يقدم صورة آلهة العدل للإله «تحوت» وللآلهة «نحمت-عاوي»، ويُلحظ أن الملك الذي يرى وهو يخطو إلى الأمام؛ يرتدي قميصًا قصيرًا، ويتدلى من حزامه الذيلُ التقليديُّ ويحلي عنقه عقد بسيط، وعلى رأسه خوذةُ الحرب محلاة بالصل، وقد مثل الملك بيديه مرفوعتين، في اليسرى صورة رمز العدالة واليمنى ممتدة إلى الأمام نحو «نحوت»، ونقش فوقه: «الملك الكامل رب الأرضين «خبر-كا-رع» ورب التيجان «ونخت نبف» الممنوح الحياة والسلطان مثل «رع».» ويحلق فوق رأس الملك صقر منتشر الجناحين، والجناح الأيسر منتشرٌ إلى الأمام والأيمن إلى أسفل، ونقش أمامه «بحدتي الإله العظيم»، ونقش خلف الملك: «كل للحماية والحياة والسلطان تكون خلفه كما هي خلف «رع»، أن الأبدية مع كل انشراح القلب سرمديًّا ملكك.»

ونقش أمام الملك عموديًّا: «تقديم العدل لربة العدل، ومنها يعيش وأنه يعطي الملك الحياة.»

أما الإله «تحوت» — الذي يشاهد في الصورة — فقد مثل قابضًا بيده الممتدة على صولجان الحكم «واس» ويقبض بيده اليسرى المتدلية على رمز الحياة، ويُلحظ أنه يرتدي قميصًا ضيقًا وحزامًا أملس وذيل ثور، وكذلك يحلي رقبته عقد بسيط، وعلى رأسه تاج بقرنين في وسطهما قرصُ الشمس.

ونقش فوق «تحوت» سطر عموديٌّ جاء فيه: «(١) أعطيك سني الحياة الأبدية منضمة مع الحياة والسلطان»، (٢) «تحوت» صاحب العظمة المزدوجة رب «الأشمونين» ابن «رع» سيد الدل، (٣) رئيس الآلهة، ومن حقق العدالة لتاسوع الآلهة، (٤) الإله العظيم رب السماء.

ونقش أمام «تحوت» أفقيًّا: «أعطيك الملك العظيم في حياة، وثبات وسلطان لأجل أن تقيم العدل على هذه الأرض.»

ويقف خلف الإله «تحوت» الآلهة «نحمت-عاوي» تخطو وئيدًا بقدمها اليسرى، وقد ارتدَت على رأسها غطاء غريبًا في بابه.

وقد نقش فوقها ما يأتي: «(١) أمنحك قوة «منتو»، وقوة مثل تلك التي لابن «إزيس» (٢) «نحمت-عاوي» القاطنة في «الأشمونين» وعين «رع» التي في جبهته (٣) ورئيسة البيت الذهبي، الفاخرة المقر، سيدة السماء، وسيدة الأرضين التي تمنح الحياة والثبات والسلطان مثل «رع».»

ونقش أمامه: «إني أمنحك إشراق «رع» في السماء دون أن يشرق عدوك أبديًّا.»

ونقش خلف «نحمت-عاوي» في سطر عمودي (ويحتمل أن يكون ذلك كلام «تحوت») كلام: «لقد منحتك أن يغسل قلبك (أن يكون فرحًا) في كل الأراضي وذلك لتعيش وتجدد مثل «رع».»

الصورة التي على اليسار: يشاهَد فيها الملك يتسلم أَعيادًا ثلاثينية من «تحوت»، ومن الآلهة «نحمت-عاوي»، ويُلحظ أن الملك «نقطانب» يلبس نفس الملابس التي يلبسها في الصورة التي على اليمين، ويقبض بيده اليُسرى المتدلية على علامة الحياة، ويرفع يده اليُمنى ليتسلم من الإله «تحوت» علامة العياد الثلاثينية، ونقش فوقه: «الإله الكامل رب الأرضين «خبر-كا-رع» رب التيجان «نخت-نبف» مُعطَى الحياة والسلطان مثل «رع» ونقش خلفه في سطر عمودي نفس الصيغة التي نُقشتْ في الصورة التي على اليمين.

ونقش أمام الصقر الذي يحلق فوق الملك: ««بحدتي» الإله العظيم.» ويلبس الملك الذي يرى وهو يخطو إلى الأمام نفس الملابس التي يلبسها في المنظر الذي على اليمين، ويقبض بيده اليسرى على جريدة نخل، يكتب عليها بقلم في يده اليمنى السنين، ويشاهد في الجزء المنحني من جريدة النخل شريطان يتدلى منهما الردهتان اللتان يتألف منهما رمزُ العيد الثلاثيني، وقد نقش فوقه في سطر أُفُقي: (١) «إني أعطيك عمر «رع» وسني «آتوم» (٢) «تحوت» المضاعف العظمة سيد «الأشمونين» ورئيس «حرست؟» ورئيس (؟) ... (٣) والذي يخلق كل ما هو كائن، الإله العظيم رب السماء.»

ونقش أمام «تحوت» عموديًّا ما يأتي: (١) «تسلم الأعياد الثلاثينية التي أعطاها إياك والدك «تحوت» أبديًّا، (٢) إني أكتب لك أعيادًا ثلاثينية مثل (تلك التي للإله «رع») يا بني المحبوب إن سنيك ملأى بالحياة والثبات والسلطان لجلالتك، مع القوة كلها أبديًّا أبديًّا.»

وترى الآلهة «نحمت-عاوي» وقد صورت بالصورة نفهسا التي على اليمين، وقد نقش فوقها ما يأتي: (١) «إني أعطيك البطش مثل «تحوت» وعمرك مثل عمر «رع». إن «نحمت-عاوي» التي في بيت «رع» قوية في القصر، وهي التي تخلق الكائنين والتي تحمي المدينة (؟) سيدة كل الأرضين وربة كل الآلهة.»

ونقش أمامها: «إني أعطيك ملك والدك «رع» بنصر أبدي.»

ونقش خلفها (ويحتمل أن ذلك كلام «تحوت»):

بيان: «إن مملكة «آتوم» في ساعدك وعلى رءوس الأراضي الأجنبية كلها دون أن تمد يدك إلى كل الأراضي أبديًّا.»

متن اللوحة

(أ) من سطر ١–٧، أول تاريخ ورد على اللوحة هو السنة الرابعة: ونقش تحت هذين المنظرين السالفي الذكر متن مؤلف من خمسة وثلاثين سطرًا

وهاك ترجمتها:

(١) السنة الرابعة الشهر الثاني من فصل الفيضان في عهد جلالة «حور» القوي الساعد ملك الوجه القبلي والوجه البحري، نبتي (العقاب والثعبان)، (المسمى) الذي يزين الأرضين «حور» المسيطر على نوبتي (أي ست) (المسمى) الذي يعمل ما تحبه الآلهة

«خبر-كا-رع»، ابن «رع» سيد التيجان (المسمى) «نقطانب» الذي يعيش أبديًّا مثل «رع» المحبوب من ملك الوجه القبلي أبديًّا، وملك الوجه البحري سرمديًّا رب أرباب «الأشمونين» والقاضي والوزير ورب العدل؟ «تحوت» المشرف على القردة، إن الإله الكامل يعيش، ابن «تحوت» نتاج (٢) سيد «الأشمونين» والذي يُرشد الأرضين، ومن جماله مثل جمال «شو» ابن «رع»، وإنه صورة «رع» الحية التي على الأرض، نتاج ثورة الآلهة ومن رفعه الإله ومن حمله رئيس الملايين (أي الإله «شو» الذي رفعه «رع»؟)

ومن أعطى ... (٣) ومن أحضر صور آلهة هذه الأرض بوصفه ملك الأرضين، والذي ... بيوت الإله الذي أعطاه «شو» الملك على عرشه في الجدار الأبيض (منف) الإله الكامل صورة «رع» والبيضة الممتازة لسيد الحياة، وأنه «تحوت» الذي خرج هو من جسمه، وأنه حامي مَن يجلس على عرشه، وكل حياة بجانب الإله في ... وعندما يشرق «رع» تأتي الحياة لكل فرد في مملكته من على كرسي «رع»، والذي يعطي للإله أجسامها، والتي صورها أُنشئت فيها من أجلك (؟) ومن ثم تتبعها كُلُّ الناس، ومن يأتي إليهم بنيلٍ عظيمٍ في ميعاده ... من رغب، أن الحياة ... في قلب «رع» (٥) ومن قلبه تعرفه بسبب ذلك الآلهة، ومن ثم يحبون أولاده، ومن أعطوه مملكة الأبدية والحكم السرمدي بوصفه ملك الأرضين حاكم الشواطئ؛ لأنه ابنُ رب الحياة، وأنه «تحوت» الذي يحب الإله الكامل، (أو الذي سيجعل الإله الكامل يعيش)، شديد القوى ... الأقواس التسعة ... ومَن الفزعُ منه عظيم في أجسام الذين يجهلون قوته (؟) الملك القوي الذي يضرب عدوه، العظيم الاسم، الفاخر اللقب، وأنه أمير حلو الحب.

ومَنْ بنظرته تتهللُ كل الناس كأنه «رع» عندما يُرى مشرقًا، وهو «رع» القدسيُّ الوجه (؟) للملك بوساطة التضرع ... جلالته لأجل (؟) روحه، ومن يقلع إليه أهلُ الوجه القبلي وأهل «مصر» السفلي ينحدرون إليه، وعلى رءوسهم أشياؤهم الثمينة في حين أنهم يرجون منه حياتهم، وكان جلالته في هم (؟) وكان حول «مصر» بمثابة حائطٍ من النحاس (؟) منذ ... بفضل قيادة الملك «خبر-كا-رع» الذي يعيش أبديًّا مثل «رع».

تعليق: يحتوي هذا الجزء من المتن فقط على تاريخ، وهو السنةُ الرابعةُ من حُكم الملك «نقطانب»، كما يحتوي على نعوت عدة لهذا الفرعون، وينتهي هذا الجزءُ كبقية الأجزاء التي تشملها هذه اللوحة باسم الملك، ومن ثم يستنبط أن متن اللوحة قد وضع في صورة شعرية، وأهم ما يلحظ في موضوع هذه الفقرة أن الملك قد أعاد تماثيل الآلهة، إلى ما كانت عليه بعد أنْ كان الفرسُ قد اتخذ مكانة بارزة بجوار الإله «تحوت» الذي أُقيمت اللوحة في

مقاطعته، وكذلك الإله «رع» بوصفه الإله المسيطر، وقد كان يعبد الإله «شو» في المقاطعة الثانية عشرة من مقاطعات الوجه البحري.

(ب) من سطر ٧–٩ من هذه اللوحة

زيارة القائد «نخت نبف» لمدينة «الأشمونين» (قبل تَوَلِّيه الملك)

أتى جلالتُه إلى مدينة «حرست» (٨) زمن الملك الذي كان قبله عندما كان قائدًا، وقد أراد جلالتُه أن يكون بمثابة المخلص الذي هزم عدوه، وقد أراد أن يكون الحاكم الوحيد ... تل للأرض الخاصة بسكان المدينة، وعندما انتصر على الأعداء خلص عظماء المدينة، وأحيا صغارَها الذين كانوا في محنة في زمن الملك الذي كان قبله.

«ابن رع» سيد التيجان «نقطانب» الذي يعيش مثل «رع».

يُفهم من هذه الفقرة أنها تقريرٌ عادي، عن حادثة كانت قد وقعتْ ولم تحمل تاريخها، غير أنها — لا بد — كانت قد حدثتْ قبل التاريخ الذي ذُكر في صدر اللوحة، وفي عهد ملك قد حكم من قبل، وكل ما تَدُلُّ عليه هذه الفقرةُ أنها تُحدثنا عن زمنِ بؤسٍ تَحارَبَ المصريون فيه بعضهم مع البعض الآخر، ومن المحتمل أن المتن الذي نحن بصدده كُتب تخليدًا لحادث وقع ولعب فيه «نقطانب» — بوصفه قائدًا — دورًا بارزًا على أعداء مليكه، وكان فيه النصرُ حليفه، ومن ثم أراد أن يُظهر ما فعله من خير لأهل «الأشمونين».

وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أن المقاطعة الخامسةَ عشرة — أو على الأقل عاصمتها — كانت في جانب حزب الملك، ونعرف أن «نقطانب» الذي كان مسقط رأسه «سمنود» قد حارب فيما سبق بقوة من الجنود المرتزقة ملك الفرس لحساب ملوك الأسرة التاسعة والعشرين التي يرجع أصلها إلى بلدة «منديس» الواقعة في شرقي الدلتا.

(ج) من سطر ٩–١١

«نقطانب» يتسلم الصل الملكي

لقد طلب إلى أمه «وسرت» «نحمت-عاوي» عين «رع» ... في المدينة (يقصد هنا «قفط»!) وعندما أصبح ملكَ الوجه القبلي والوجه البحري بسنين عدة بوصفه

حاكمًا طيبًا لهذه الأرض؛ سار إلى المقر الملكي (١٠) و(الملك الحالي؟) الذي كان في القصر، ثم أصدر منشورًا (؟) عن الذي حدث فيه، ولكن بعد أن سمح له والدُهُ «تحوت» المزدوج العظمة ورب «الأشمونين» ووالدته «وسرت» «نحمت-عاوي» (أن يكون بمثابة ملك للوجه القبلي أبديًّا وملكًا لوجه البحري سرمديًّا)؛ رغب جلالتُه في صل على رأسه؟ وقد خشي قوته الناس في كل الأراضي، وكذلك أقوام الأقواس التسعة.

الملك «خبر-كا-رع» الذي يعيش أبديًّا.

تعليق: في هذه الفقرة لا بد أن نذكر أن الآلهة «وسرت» قد قامتْ بعمل طيب للملك، وقد حدث ذلك عندما وضعت الصل على جبينه، وذلك على غرار ما عملتْه مع والده «رع» إله الشمس فيما مضى، وهذا الحادثُ ليس فيه غرابة؛ وذلك لأن كل ملك بوصفه ابن الشمس كان لا بد أن يضع على جبينه الصل ليحميه من الأعداء، غير أن هذا الحادثَ له مدلولٌ خاصٌّ وذلك أن «نقطانب» لم يكن من دم ملكي، بل كان مجرد جندي، وعلى ذلك فإن الإلهة «نحمت-عاو» هي التي حصلت له على عرش الملك، وذلك بوضع الصل على جبينه، وقد قامتْ هذه الإلهةُ بمنحه فضلًا خارقًا للمألوف — كما سيأتي بعد (سطر ١٧).

ومن معنى هاتين الفقرتين نفهم أن الإلهة «نحمت-عاوي» ومعها الإله «تحوت» والإله «رع» قد قاموا بتتويج «نقطانب» ملكًا على «مصر»، فهل ينبغي أن يكون إعلانُهُ ملكًا قد حدث في «مصر» الوسطى بقيادة أو بمساعدة مقاطعة «الأرنب» الواقعة في «مصر» الوسطى؟ وإذا كان الأمرُ كذلك فإنه يكون من المفهوم السبب الذي جعل «نقطانب» يقوم بأعمال البناء الجديدة التي أقامها في «الأشمونين»، وهكذا نرى أن قوة «مصر» العُليا بالموازنة مع «مصر» السفلى والأراضي الأجنبية؛ قد انعكستْ صورتها في حادثة تاريخية.

(د) من سطر ١١–١٥

الملك «نقطانب» يُقيم معبدًا للآلهة

لقد عمله بمثابة أثره لأمه «وسرت» «نحمت-عاوي» العظيمة في (الحماية؟) … في … التي حمايتها؟ الملكة الخاص ب … في الآلهة، عين «رع» سيدة السماء وأميرة كل الآلهة … ل «رع» لأجل … والخوف منه (أي «رع») قد وضع في الآلهة

والناس، وقد أقام له (الملكُ) بيتًا في وسطه قاعةٌ من حجر «قيس» وعمدها (أي عمد الواجهة) من (الحجر الجيري الأبيض الجميل)، وكلٌّ واحد منها مزخرفٌ بأربعة وُجُوه «حتحور» (موشاة بالذهب) وسقف جميل المنظر، ومُطَعَّم بكل حجر ثمين ومزخرف بخشب الصنوبر ومطعَّم بالذهب وواحد ... طرقه؟ حول هذه القاعة مُغَشَّاة بالذهب، ومطعمةٌ بكل الأحجار الفاخرة، رقعتُها (رقعة القاعة) مكسوة بالمرمر كأنها الماء ... يقال لها ... ولمعانها مثل الأشعة (عندما يراها) كل الناس؟

وقاعة (قاعة عمد) (؟) سقفها من الحجر الجيري الأبيض وعمد السماء الأربعة ... كشيء جميل مزين بخشب الصنوبر ومغشًّى بالذهب ومطعم باللازورد (القاشاني الأزرق) والذهب وحجر (أبخا)؟ ... وواحدة ... قاعة محراب (؟) من الحجر الجيري الأبيض ومصراع الباب من خشب الصنوبر (المغشى بالذهب) وكل هذه ... منقوشة (؟).

ب ... وعمل جلالتُه حديقةً جميلة في الردهة الأمامية خارج هذا البيت، وكل شجرة ونخلة تنبت ... وكل نبات يخرج (فيها؟) ... هذا البيت هو أُفُق ربة (زوجة؟) حاكم القصر ...

(وقد عمل ذلك)؛ أي ابنة المقدس؟ ابن «تحوت» رب التيجان «نقطانب» (العائش أبديًّا).

تعليق: هذه الفقرةُ تَبتدئ بالصيغة المعتادة الخاصة بالعمارة، وهي التي تقرأ فيها تقديم الملك لإله المعبد، ثم يتبع ذلك وصفُ الأجزاء المختلفة للمبني، وقد استعملت فيها بعضُ التعبيرات التي عرفناها في مبانٍ حقيقية، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن المبنى الذي وُصف هنا هو ردهةٌ أماميةٌ أقامها «نقطانب»، وقد أُقيمتْ فيها اللوحةُ التي نحن بصددها، والواقعُ أن ما وُصِفَ هنا هو معبدٌ، له واجهةٌ، فيه ردهة تحيطها طرقةٌ ذات عمد، ثم قاعة عمد معروشة، وعلى حسب ما جاء في سطر ٢٦ تحتوي على محراب، ومساحتُها ١٥ × ٣٠ مترًا على حسب ما جاء في سطر ٢٣، وعلى مقربة من هذا المبنى حديقةٌ فيها أشجارٌ وأزهار، ولدينا بناءٌ مشابهٌ لذلك في القسم المقدَّس، لم يعثر عليه حتى الآن، ولا بد أنه يوجد على مسافة من مكان اللوحة، ويحتمل أنه في الشارع المؤدي إلى معبد «فيليبوس Philippos».

(هـ) من سطر ١٥–١٨

الآلهة ينشرح قلبها للبناء الجديد

(ولم يعمل مثيلُهُ) منذ الأزل، وهو (أي البيت؟) على الأرض مثل أُفُق «آمون–رع» في السماء، وأنه (مثل) أرض «بنت» التابعة لها سيدة «حرست» وأنه أفق صل الجبين الخاص بالإله «رع» الذي فيه «ونو» الوجه القبلي، وقد عمل لها مكانًا عظيمًا (محرابًا) … وكان قلب «رع» في فرح عندما نظر ابنته، ولأنه عمل ما ترغب فيه في هذا البيت يوميًّا؛ ولهذا السبب أعطيت إياه مملكة ملك الوجه القبلي.

وهذه الآلهة، كان «رع» و«تحوت» … أمامها على حسب ما عمل لها ما يحبه قلبها نهارًا وليلًا، (كما جاء في سطر ٢١)، ويعمل لها في هذا البيت ما يحبه قلبها … في «حرست» وكل ما خرج (من المعبد) (كانت الآلهة منشرحة به) وكل ما دخل في البيت، فإن قلب الآلهة لا يكون مكتئبًا من أجله، والقُرُبات المختارةُ التي أُحضرتْ تكونُ مثل التي من «بنت» (وقد عملها)؛ أي الملك «خبر–كا–رع» الذي يعيش أبديًّا مثل «رع».

تعليق: يلحظ أن هذه الفقرةُ ابتدأتْ بجملةٍ تُعتبر أنها خاتمةٌ لوصف ما سبق، يُضاف إلى ذلك أن المؤلف لم يقدم لنا أيَّ بيانٍ ملموسٍ، وقد ذكر لنا فقط في سطر ١٦ المحراب، ثم يُكرر تلميحاتٍ عتيقة ذات صبغة أُسطورية خاصة بالأشمونين، ثم يتحدث عن ترتيبات لتزيين المعبد، وفي هذه الفقرة تظهرُ الإلهة «وسرت» بوصفها ابنة «رع» الذي يظهرها بوصفه ملكًا قويًّا، غير أنه لم يأخذ مكانه في المقدمة هنا، وعلى أيَّةِ حال فإن إنشاءَ هذه الفقرة غامضة المعنى.

(و) من سطر ١٨–٢١

الملك «نقطانب» يحبس قربانًا للآلهة

ولقد (جعل إقامة وتجهيز) هذا البيت بـ … وأتى جلالته (؟) … وجلالة هذه الآلهة أدخلت بيتها الذي بناه لها، ولم يعمل له مثيلٌ في الأزل، وقد قَرَّبَ قُربانًا عظيمًا من الخبز والجعة والثيران والعجول والإوز والخمر والسدر وكل الأشياء الجميلة … (وسكان «الأشمونين» يهللون) … بأزهار السوسن عندما كان الإكليل على رءوسهم، الرجال مثل النساء، وصوت تهليل هذه المدينة وصل إلى السماء

في حين أن نساء «الأشمونين» (؟) كُنَّ عطشى إلى ... الذي خرج من «رع» ... آلهة ... التي كانت تتعطش إلى جمال ... (جماع؟) وقد عظمت؟ ما كان قد حدث؟ ... لأجلها رجالًا ونساء لتجعل قلبها يتهلل كل يوم وكل ليلة وإن «نحمت–عاوي» المحبوبة من «تحوت» والإلهة «نوت» في انشراح من أجل ذلك الذي قد عمل لها، وهو الذي عمله ابنها والذي تحبه وهو ابن الإله «تحوت».

«رب التيجان «نقطانب» العائش معافًى وصحيحًا مثل «رع» أبديًّا».

تعليق: تعودُ بدايةُ هذه الفقرة إلى ما جاء في السطر الحادي عشر بمثابة تكملة، ويستمرُّ الكلام على أنه تفصيلٌ للقُربات التي أُهديت للمعبد، أما عن المعبد نفسه فلمْ يُذكر لنا عنه أية معلومات، اللهم إلا عن القُربات التي كانت لا بد أن تقدم للآلهة، وسكان المعبد قد غمرهمُ السرورُ مِن أجل الهدية الملكية، حتى إن أصواتَ التهليل قد ارتفعتْ إلى عنان السماء، وقد عبر الآلهةُ عن سُرُورهم، وبخاصة الإلهة «نحمت–عاوي» بوصفها سيدة المعبد.

(ز) الأسطر ٢١–٢٢

الآلهة تبرهن للملك على شُكرها

لقد نجت جلالته أمام ضربات أعدائه.

ولقد أعطتْه عمر «رع» في السماء.

ومملكة «شو» في مقاطعة «الجدار الأبيض».

وستضع سيدة القوة على جبينه «الصل الملكي».

وترغب في أن يكون جلالتُه حيًّا ثابتًا قويًّا، وسيفه على كل الأراضي الأجنبية أبديًّا.

ملك الوجه القبلي والوجه البحري الذي يعيش مثل «رع».

التعليق: هذه الفقرة تحتوي على أُنشودة نطقت بها الإلهة «وسرت»، وتنتهي برغبة تريد تحقيقها للملك، والواقعُ أنها فيما سبق قد نجتْه من أعدائه، ومن ثم كان عليها أن تحميه بعد ذلك وتمنحه حُكمًا سعيدًا وتهبه عمر الإله «رع»؛ أي الخلود، أما منحها إياه مملكة الإله «شو»؛ فإن ذلك يُشير إلى «سمنود» مسقط رأس الملك «نقطانب»، وهي في

المقاطعة الثانية عشرة من مقاطعات الوجه البحري (انظر كتاب أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني ص٨٢)، أما «منف» فهي البلدةُ التي تُوِّجَ فيها، وأما ما فعله الملكُ للآلهة في مقابل ذلك فهو ما قدمه لها من إقامة معبد ومده بالقربات.

(ح) من سطر ٢٢–٢٥

كان المعبد مقر راحة للمعبود

لقد بنى ما وجده متهدِّمًا بالحجر الجيري الأبيض الجميل.

ومصراعا بابه من خشب الأرز المصفَّح بالبرنز، وطولُهُ ستون ذراعًا، وعرضه ثلاثون ذراعًا.

وهو مكانُ راحة لأمه «وسرت»، «نحمت–عاوي» وقد سمي بيت «الأشمونين» وبيت «الذهبية».

وثماني الصناجات الخاصة بالإلهة «حتحور» موجودة فيه، وهو محط ثمانية الآلهة الأزلية.

وأنه المكان الذي وُجد فيه «رع» عندما صعد في سلام.

والماء العظيمُ الخاص بجزيرة اللهيب قد عمل ما رغب فيه.

وذلك عندما كان جلالتُه؛ أي «رع» طفلًا جميلًا، وفي حين أن تاسوعه كان خلفه وآلهة التل الأزلي والإلهة «نيت»، بقرة السماء العظيمة التي حلت في «رع» وتاسوع الآلهة العظيمة الذي في «الأشمونين» يرغبون لابنك الذي تحبينه أن يمنح الحياة والثبات والقوة، وهو ابن «تحوت».

رب التيجان «نقطانب» الذي يعيش أبديًّا، وهو الذي لمع بوصفه ملكًا على عرش «حور»، وبوصفه أول الأحياء أبديًّا.

تعليق: تبتدئ هذه الفقرة بوصفها تقريرًا حقيقيًّا يصف البناء، ثم ينتقل مباشرة إلى تمييز هذا المعبد وعلاقته بالآلهة الأزلية، وقد وصفه بأنه يَكاد يكون فيه التلُّ الأزليُّ، وجزيرة اللهيب في بحر المدى الذي أشرقتْ منه الشمسُ للمرة الأولى، غير أنَّ هذا المكان المقدس ليس فيه هذه الأشياء، بل ما ذكره عبارة عن تشبيه، ثم يذكر لنا بعد ذلك الإله «رع» في بادئ أمره عندما كان طفلًا وخلفه تاسوعه، وذكر التل الأزلي والإلهة «نيت» التي يصفها أنها بقرةُ السماء التي تحمل في «رع» كل يوم، غير أن كل ذلك لا يتفقُ مع ما

جاء في ثامون الإلهة «تحوت» في «الأشمونين»، وخلق العالم الذي يتلخَّص في أن الشمس في الأزل، قد خرجتْ من زهرة بشنين من التل الأزلي، في حضرة ثمانية الآلهة الذين يتمثلون في أربعة ضفادع ذكور وأربع ثعابين إناث.

(ط) من سطر ٢٥-٢٦

الملك يريد إعلان الانتهاء من بناء هذا المعبد

لقد أتى إنسانٌ لجلالته يقول:
«إن بيت والدتك «وسرت» «نحمت-عاوي» قد تم.»
وصار ثابتًا وقويًّا مثل السماء.
وأعمدة من الحجر الجيري الأبيض كانت أمام هذا البيت.
وكل واحد منها له أربعةُ أَوْجُه مثل «حتحور» ومصفح بالذهب.
رؤيتها جميلة، وله سقف (بكل) حجر ثمين (أي مطعم بكل حجر ثمين).
وفي وسطه مكانٌ عظيمٌ، مصفحٌ بالذهب من الداخل ومصراعَا بابِهِ (المصفحة أركانه) كانتا من الذهب، وقد نقش عليهما اسم جلالته العظيم.
لم يُعمل مثلُهُ في الأزمان العتيقة.
وقد مَدَّهُ جلالتُه (أي المكان) بما يلزم من الذهب والفضة، وكل الأحجار الكريمة.
وكل الأشياء الجميلة.
وقد سُرَّ جلالتُه لذلك أكثر مما عمل من قبل.

تعليق: بهذه الفقرة ينتهي تاريخُ البناء، ولا بد أن نفهم هنا أن ما ذُكر من سطر ١١ إلى سطر ٢٥ يقص علينا حوادثَ وقعتْ في الماضي، وعلى ذلك لا ينبغي علينا — لهذا السبب — أن نعدها شيئًا سيقع في المستقبل.

(ى) من سطر ٢٦-٢٨

السنة الثامنة – الآلهة تسير إلى المعبد

السنة الثامنة الشهر الثاني من فصل الفيضان، إن جلالة هذه الآلهة دخلت بيتها.

وقد قدم جلالتُه قُربانًا كبيرًا من كل شيء جميل لروحها.
وجلالتُها كانت مشتاقةً إلى جمال الملك.
وقلبها هَلَّلَ بما فعله جلالتُه لها.
وكل رجل في المدينة «الأشمونين» (احترم) صورة أول سيد (أي «رع»)، وشكر الملك من القلب.
حتى إن صوت التهليل وصل إلى عنان السماء.
وفرحتْ كل المدينة لهذا العمل.
الذي عمله جلالتُه لوالدته «وسرت-نحمت-عاوي».
وتاسوع الآلهة العظيم الذي في «ونو» الجنوبية.
قد أقاموا أعيادًا ثلاثينية جديدة.
للملك «خبر-كا-رع» الذي يعيش مثل «رع» أبديًّا.

تعليق: يُفهم من هذه الفقرة أن البناء — أو المعبد — قد تم بناؤُهُ في أربعة أعوام، وأخذت الآلهةُ مكانها فيه في فرح وسرور وأعياد، واشتركت فيها الآلهة، وهذا المتن يذكرنا باللوحات التي أقامها الملك «تهرقا» تخليدًا لإقامة معبده في بلاد النوبة للإله «آمون» فقد استمر بناؤُها عدة سنين قبل أن يحتله الإله «آمون»، وقد أُقيم له الاحتفالُ بافتتاحه بعد إتمامه.

(ك) من سطر ٢٨–٢٩

الملك نقطانب الأول يحبس أوقافًا على ثمانية الآلهة «ثامون الأشمونين»

لقد أمر جلالته أن يستقر الآلهةُ الثمانية وهم عظماءُ الزمن الأزلي الأولى في بيتهم العتيق حتى يستريحوا فيه، وقد جَهَّزَهُ بحاجياته من الذهب والفضة وكل الأحجار الثمينة، وقد عمل قُرْبَانًا عظيمًا مِن كل شيء جميل لأجل أنْ تفرح أرواحُهُم، وكل الناس في المدينة (الأشمونين) كانوا في اغتباطٍ، ورَجَوُا الصحة لجلالته من أرواحهم، وطلبوا للملك أن يكافأ بالقوة والنصر لأجل أن يكون جلالته في حياة وثبات وقوة مثل «رع» أبديًّا.

تعليق: تتضمنُ هذه الفقرةُ أمر الملك بحبس أرزاقٍ على ثامون بلدة «الأشمونين»، وهم الآلهةُ المحليون — وعلى رأسهم «آمون» — وقد أمر بأن يبقَوا في معبدهم الأصلي؛ وذلك لأجل أن ينال الملكُ رضاهم ورضاء أهل «الأشمونين» الذين كانوا يُقَدِّسُونهم.

(ل) من سطر ٢٩–٣١

الملك «نقطانب» يضع الحجر الأساسي لمعبد جديد للإله «تحوت»

السنة الثامنة، الشهر الثالث من فصل الشتاء (٣٠) لقد أقام جلالتُه بيت والده «تحوت» المزدوج العظمة، رب «الأشمونين» والإله العظيم الخارج من أنف «رع» والواجد جماله، من الحجر الجيري الأبيض الجميل ورقعته من حجر «قيس» طولُهُ ٢٢٠ ذراعًا وعرضُهُ ١١٠ ذراعًا بصناعة ممتازة أبدية، لم يعمل مثيلُهُ منذ الأزمان الأزلية. وقد بدأ جلالتُه يعمل فيه ليل نهار وقد أتمه في انشراح، وعندما رأى والده «تحوت» يستقر فيه فإن جلالته كان في حياة وثبات وقوة سرمديًّا، ولقد زاد في قُربان الإله أكثر ما كانت عليه من قبل، وقد منح جلالته هبة للكهنة، والكهنة المطهرين عند إتمام كل عمل أنجزوه في «حرست».

تعليق: تتضمن هذه الفقرة سرد عمل ثالث جديد قام به الملك «نقطانب» من أجل «الأشمونين»، وذلك بتاريخٍ جديد جاء بعد دخول الإلهة «وسرت» معبدها بخمسة أشهر، وهذا آخر تاريخ نقش على اللوحة التي نحن بصددها، ولا بد أنها أقيمتْ بعد ذلك بمدة قصيرة؛ أي حوالي ٣٧٠ق.م، ولا نزاع في أن وضع الحجر الأساسي لهذا المعبد كان موضع القيام باحتفالات عظيمة أُقيم مثلها كثيرًا منذ الدولة القديمة.

(م) من سطر ٣٢-٣٣

صلاة من أجل «نقطانب» لآلهة «الأشمونين»

«تحوت» المزدوج العظمة رب «الأشمونين» وسيد كلمة الإله و«رع» الذي خرج من بحر جزيرة اللهيب، وثمانية الآلهة عظماء الزمن الأزلي الأول و«نحمت-عاوي» في المعبد، وأقدم من في البيت العظيم (القصر).

والإلهة «نيت» البقرة «أهت» العظيمة، التي وَلدت «رع»، والتاسوع العظيم الذي يَسكن في كل «الأشمونين»، ليتهم يهبون أعيادًا ثلاثينية عدة، والمملكة

الأبدية والحكم السرمدي لابنهم الذي يحبونه، وهو الملك «نقطانب» الذي يكون مثل «رع»، عائشًا ومعافًى وصحيحًا؛ لأجل أن تغني «مصر» لجلالته، ولأجل أن تُصبح كُلُّ الأراضي الأجنبية تحت قدميه أبد الآبدين.

هذه الفقرةُ تتضمنُ دعاءً للملك ولبلاده؛ حتى يسود العالم بحكمه السعيد.

(ن) من سطر ٣٣–٣٤

الملك «نقطانب» يأمر بإقامة هذه اللوحة

وعندئذٍ قال جلالتُه: ليت هذا يُقامُ بمثابة حجرٍ تذكاريٍّ، يوضعُ في بيت الإله والدي «تحوت» المزدوج العظمة، رب «الأشمونين»، وليته يذكر اسمي الجميل حتى في الأبدية.

تعليق: هذه الفقرة تشملُ أمرًا مباشرًا بإقامة هذه اللوحة.

(ص) من سطر ٣٤–٣٥

الإله تحوت وآلهة الأشمونين يشكرون الملك

إن كل جماعة آلهة «الأشمونين» قاطبة يقولون لابنهم الذي يحبونه، وهو الملك «خبر-كا-رع» العائش مثل «رع» «نقطانب» والمكافأ مثل «رع» أبديًّا بالحياة والصحة والعافية:

والدك «تحوت» يذكر جمالك في بيته نهارًا وليلًا، وأنه نفسه ونحن كذلك نصدُّ كل الأعداء عن جلالتك بنصر، وأن «مصر» العُليا أقوى من مصر السُّفلى، وكل الأراضي الأجنبية قاطبة لا شك تلمع فيها بكل حياة وثبات وقوة، وكل صحة وكل فرح بوصفك ملكًا على عرش «حور» أول الأحياء مثل «رع» أبديًّا وسرمديًّا.

تعليق: في هذه الفترة تتجمعُ آلهة «الأشمونين» لتخبر «نقطانب» أنهم قد أَتَوا لنجدته على أعدائه الأجانب، ولا غرابة في ذلك فإن «نقطانب» في هذه الفترة من حياته كان في حاجة لنصرة الآلهة له، وبعبارة أُخرى الكهنة والشعب ليصد العدو الأكبر لمصر وهو ملك الفرس.

الحوادث التاريخية التي يُمكنُ استخلاصُها من متن هذه اللوحة

لا بد لنا للتعرُّف على الأساس السياسيِّ الذي بُني عليه متن هذه اللوحة التي نحن بصددها؛ أن نصل إلى حقيقة الحوادث التي وقعت في هذا العهد، والتي لم تذكر في هذه اللوحة.

والواقع أنه في ذلك العهد كان الملك العظيم عاهل الفرس يسعى دائمًا إلى مَدِّ سُلطانه على بلاد «مصر»، وذلك على الرغم من أنه كان يوجدُ أميرٌ مصريٌّ يُسيطر على البلاد بوصفه ملك الوجه القبلي والوجه البحري، وهذا الملكُ كان في يده قوةٌ فعليةٌ لا في الدلتا وحسب — وهي مسقطُ رأسه — بل كان يمتدُّ سُلطانُهُ على الوجه القبلي أيضًا، وكانت سني الحُكم في البلاد تُؤَرَّخُ باسمه. وتدل شواهدُ الأحوال على أنَّ كُلَّ الحوادث التي ذُكرت على اللوحة تقعُ في عهد ملك الفرس المسمى رتكزركزس الثالث المسمى منمون الذي حكم من عام ٤٠٥ق.م إلى عام ٣٦٢ق.م، وفي مدة حكمه ظهر نقطانب قائدًا في الأشمونين، ويحتمل أن ذلك كان في عهد الملك أوكوريس الذي حَكَمَ في عهد الأسرة التاسعة والعشرين حوالي ٣٩٣–٣٨٠ق.م ... ثم حكم بعده نقطانب بمفرده البلاد (٣٧٨–٣٦١ق.م)، وذلك بعد حُكم ملكين نكرتين.

وقد تحاشى مؤلفُ هذا المتن أن يشير صراحةً إلى الحوادث التاريخية العالمية التي وقعت في زمنه، بل على العكس قد سكت سُكُوتًا تامًّا عن ذِكْر أيِّ شيء عن الملك العظيم عاهل الفرس ودولته العالمية، أما ما جاء عن ذِكْر البلاد الأجنبية في اللوحة فإن ذلك لا يخرجُ عن كونه ضربًا من التقليد الأدبيِّ المتوارث.

يُضاف إلى ذلك أنَّ المسألة الوطنية الكبرى التي شغلتْ بَالَ المصريين خلال القرن الرابع — وأعني بذلك: تحرير «مصر» من ربقة العبودية الفارسية — لم يُشر إليها إلا من بعيد جدًّا، لدرجة أنه لا يكاد الإنسانُ يشعرُ بها إلا مِن بين السطور.

والواقعُ أننا نجد في الصورتين اللتين مثلتا في أعلى هذه اللوحة؛ أن الإله «تحوت» قد وعد الملك أن يجعل قلبه فرحًا في كل الأراضي، وأن يده لن تصد في كل الأراضي؛ ويقصد بذلك بما أن مملكة «آتوم» قد امتدت فوق رُءُوس كل الأراضي الأجنبية، فإن الإلهة «نحمت-عاوي» ستجعل سيفَ جلالتِه أبديًّا على كل الأراضي الأجنبية، وأن كل آلهة «الأشمونين» ستحميه، وأن كل البلاد الأجنبية ستكونُ تحت قدميه.

وهذه الوعودُ التي نجدها في متن هذه اللوحة ليست إلا من عمل الفرعون الذي لم يكن قد قام بحروب خارجية بعدُ، ومن ثم يمكن الإنسان أن يشك إذا كانت هناك في الواقع ثورةٌ داخليةٌ قد حدثتْ، وعلى ذلك سنبقى في شَكٍّ إذا كان المقصودُ هنا حَرْبًا داخليةً، أو حربًا خارجية على الأعداء عندما أعلنت الإلهة «نحمت-عاوي» في فقرة: «إن أعداءك لن يظهروا

عليك أبديًّا.» وفي مكان آخرَ تقول (سطر ٢١) «إن جلالتك ستنجو من ضربة أعدائك.» والواقعُ أن الأعداء الذين في داخل البلاد كانوا هم المقصودين في وصف الحرب التي شَنَّهَا القائدُ «نقطانب» في «الأشمونين»، ويُفهم هذا كذلك عندما يوصف «نقطانب» بأنه: «الملك القوي الذي يطرح عَدُوَّهُ أرضًا» (سطر ١٦)، ولكن مع ذلك فَإِنَّا لا زلنا في شَكٍّ من معنى وعد تاسوع «الأشمونين» للملك، فقد وعدوه بطرد أعدائه.

والبيانات الهامة التي نجدُها في هذه اللوحة من حيث الحوادث التاريخية هي الآتية:

كان «نقطانب» قبل اعتلائه العرش قائدًا أرسل إلى بلدة «الأشمونين»؛ ليقضي على ثورةٍ قامتْ في عهد الملك الذي كان قبله، ولدينا الحريةُ أن نضع هذا الحادثَ في عهد أيِّ ملك من الأُسرة التاسعة والعشرين، ويجب أن تكون هنا ثورةٌ قامت في الوجه القبليِّ على أمراء الدلتا، انتهتْ بتنصيب «نقطانب» ملكًا، وقد كان مِن جراء ذلك قيام حزب في «الأشمونين» يحتمل أنه كان متصلًا بمقاطعات أُخرى في «مصر» الوسطى، وكان هَوَاهُ مع مُلُوك الدلتا، ويمكن أن نعد من حزب الملك أو الموالين له على الأقل — على حسب ما نُشاهد في انتصار القائد «نقطانب» — كهنةَ معبد الإله «تحوت» في «الأشمونين».

وقد كان «نقطانب» ابن أمير مقاطعة يُدعَى «زدحور»، ويحتمل أنْ تكون هذه المقاطعةُ هي «سمنود» (أي المقاطعة الثانية عشرة)، التي تُعَد مسقط رأس «نقطانب»، ونحن نعلم ذلك من التابوت رقم ٧ الذي يُنسب للقائد «نقطانب» ابن ابن أخ للملك، وهو الذي عين أمير مقاطعة عند حُدُود الدلتا، ويحتمل أنَّ ذلك حَدَثَ بعد عام ٣٤٠ق.م، في خلال الاحتلال الفارسي الثاني، والربط بين الجمل التي جاءت في الأسطُر ٧–٩ مع ما جاء في السطر العاشر والسطر السابع عشر، وأخيرًا السطر الخامس والثلاثين؛ تجعل الغرضَ ظاهرًا وهو أنَّ مقاطعةَ «الأرنب» قد ساعدتْ في تنصيب «نقطانب» ملكًا، وهذا بلا شَكٍّ بالتحالف مع المقاطَعات الأُخرى التابعة لمصر الوُسطى، وقد ساعد ذلك على إبعادِ الجيش الفارسيِّ الذي كان ينتظر قيامَ ثورة ناجحةٍ في داخل البلاد.

وقد عزي تنصيبُ القائد «نقطانب» ملكًا على الوجه البحري والوجه القبلي، كما جاء في اللوحة (سطر ٩–١١) للإلهة «وسرت-نحمت-عاوي»، فهي التي وضعت الصل على جبينه، وقد حَدَثَ التتويجُ في عام ٣٧٨ق.م بطريقة عادية في المقاطعة الأُولى من مقاطعات الدلتا «منف» (انظر الأسطُر ٣، ٢٢)، ولكن كان المتوج الحقيقي للملك على مملكته هو الإله «شو»؛ وذلك لأنه إله «سمنود» مسقط رأس «نقطانب» في المقاطعة الثانية عشرة من مقاطعات الدلتا.

وفي السنة الرابعة (أي حوالي ٣٧٤ق.م)، في الشهر الثاني من فصل الفيضان تَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ حادثًا خارجيًّا — ويحتمل أن يكون واجبًا عليه بسبب ارتقائه العرش — قد حَثَّ الفرعونَ على أن يضع تصميمَ معبد للإله «وسرت-نحمت-عاوي» في «الأشمونين» (السطر ١١–١٥)، وقد أُقيم البناء وتم، وقد مَيَّزَهُ الفرعونُ بأَنْ حبس عليه الأوقاف من ماله الخاص في البلاط الملكي (الأسطر ٢٥–٦٢)، سارتِ الآلهةُ إلى البناء الجديد؛ أي أنه رتب رواتبَ للكهنة (كما جاء في سطر ١٥، سطر ٢٥).

في موكب حافل بين تهليل أهالي «الأشمونين» (الأسطُر ٢٦–٢٨).

ولم يكن الملك نفسه حاضرًا، غير أنه انتهز سُنُوح هذه الفرصة والإفادة منها بزيادة دخل معبد الثامون الأشموني (الأسطُر ٢٨-٢٩).

وفي السنة الثامنة (حوالي ٣٧٠ق.م) في الشهر الثاني من فصل الفيضان؛ أي بعد مُضِيِّ أربع سنوات بالضبط على التاريخ الأول من إعلان إتمام البناء.

وبعد مُضِيِّ حوالي خمسة أشهُر على هذا التاريخ الأخير؛ أي في الشهر الثالث من فصل الشتاء من نفس السنة؛ وهب الفرعون هبة للأشمونين، وذلك أنه أمر بعمل توسيعٍ كبيرٍ في معبد الإله «تحوت» (الأسطُر ٢٩–٣١)، وقد كان لا بد أنْ يبدأ في العمل الذي وضع تصميمه بسرعة — كما يحدثنا بذلك المتن.

هذا، ولا ينبغي لنا أن نُعيد بناء تاريخ هذا العهد من هذه البيانات الضئيلة التي في هذه اللوحة، ومع ذلك فإني سأُقَدِّم في القائمة التالية الحوادثَ التي وصفناها ووضعت فيها عهد حكم الملوك، ووضعت فيها عمرًا للأفراد على فرض أن كل فرد عاش ستين عامًا، وأن ابنه الذي ولد له كان في السنة الخامسة والعشرين من سني حياته، وعلى ذلك فإنَّ كُلَّ التواريخ المقدرة هنا قد تحتوي على خطأ قد يبلغ عَشْرَ سنواتٍ — على وجه التقريب:

الفرس (الملك العظيم)	مصر الفرعون	الكاهن الأكبر للأشمونين (عمره)	أفراد آخرون غير الكهنة (عمره)
٤٢٤–٤٠٥ق.م «دارا» الثاني ناتوي	الأسرة ٢٨ «سايس» (المقاطعة) «آمون» أرداس	٤٢٠–٣٦٠ق.م «زدتحوتف عنخ» الأول كان في وظيفته في عهد «نخت نبف»	٤٤٦–٣٨٦ق.م «زد حور» أمير مقاطعة «سمنود»

الفرس (الملك العظيم)	مصر الفرعون	الكاهن الأكبر للأشمونين (عمره)	أفراد آخرون غير الكهنة (عمره)
٤٠٥–٣٦٢ق.م أرتكزركزس «الثاني» منمون	الأسرة ٢٩ «منديس» (المقاطعة ١٦) ٣٩٨–٣٩٣ق.م نف-عا-ورد نفريتس الأول ٣٩٠–٣٨٠ق.م الملك «هجر» (أوكوريس) ٣٨٠ بامسوت (بساموتيس) ٣٧٩ «نف-عا-رود» «نفريتس» الثانى	٣٩٥–٣٤٥ق.م نس-شو مدة عمله في عهد نحت-حور-حب	ابنه: القائد «نخت نبف» ولد في عام ٤٢١ق.م، في «سمنود» وتولى الملك في عام ٣٧٨ق.م ٣٨٠–٣٢٠ق.م الحفيد الثاني لزد-حر القائد «نخت-نبف» أمير مقاطعة «ثارو» (تل أبو ضبعة الحالي) بعد ٣٤٠ تقريبًا على حسب ما جاء على التابوت رقم ٧ ببرلين
٣٦٢–٣٣٨ق.م	الأسرة ٣٠ «سمنود» المقاطعة ١٢ ٣٧٨–٣٦١ق.م	٣٧٠–٣٤٠ق.م	الحوادث في «الأشمونين»
«أرتكزركزس» الثالث أوكوس	«نخت نبف» «نقطانب الأول» ٣٦٠–٣٥٩ق.م «زد حور» «تيوس تاخوس» ٣٥٩–٣٤١ق.م نخت حرحبت «نقطانب» الثاني	«زدتحوتف عنخ» الثاني في عهد «نخت حر حب»	٣٧٤–٣٧٠ق.م إقامة اللوحة
٣٤٢ق.م «مصر» تعود إلى الحكم الفارسي ثانية ٣٣٨–٣٣٦ق.م المستشار «باغوص» مصري		٣٤٠–٢٨٠ق.م «زد حور»	حوالي ٣٤٠–٣٣٤ق.م حياة «بتوزريس»
٣٣٦–٣٣٠ق.م «دارا» الثالث كوداماتيس	خباباش (نوبي)؟	٣٣٥–٣٢٠ق.م تحوت رخ	

الفرس (الملك العظيم)	مصر الفرعون	الكاهن الأكبر للأشمونين (عمره)	أفراد آخرون غير الكهنة (عمره)
٣٣٠ (الإسكندر الأكبر) تغلب على الفرس	المقدونيون: ٣٣٢–٣٢٣ق.م الإسكندر الأول ٣٢٣–٣١٧ق.م فيليب أرخيدايوس» ٣١٧–٣١١ق.م الإسكندر الثاني ٣١١–٢٨٥ق.م بطليموس الأول (سوتر) ٢٨٥–٢٤٦ق.م طليموس الثاني فيلادلف		

(١٩) صفط الحناء

ناووس من الجرانيت الأسود

من أهم الآثار التي عثر عليها في «صفط الحناء» ناووس للملك «نقطانب» الأول، وقد كتب عنه جمعٌ غفيرٌ من الأثريين منذ العثور على قطعة (راجع: Brugsch, A.Z. 19 (1881) p. 15–18; Naville, Goscher. p. 2–3، 6–13 pl. 1. VII; Roeder, Cat. Gen. Naos, p. 58–99 & 33 b; Com p. Schott. Mitt. D. Inst. 2/1931, p. 54–56 & pl. X).

عثر بعضُ الفلاحين في أثناء أعمال الفلاحة على هذا الأثر الفاخر في هذه الجهة، وقد سمع به أحدُ الباشوات القاطنين في هذه المنطقة، وأمر على الفور بتسليمه إياه؛ ظنًّا منه أنه يحتوي في ثناياه على ذهب، وقد حمل هذا الباشا قطعتين من هذا الأثر إلى عزبته، وقد بقيتا هناك حتى حُملتا إلى متحف «بولاق» وقتئذٍ، وقد بُنيت عدة قطع من هذا الناووس في القناطر التابعة لصفط الحناء، وذلك بعد أن محيت أوجهُها المنقوشةُ، وقد قام الأثري «نافيل» بجمع هذه القطع بالإضافة إلى القِطَع الأُخرى التي عُثر عليها في أثناء الحفائر التي قام بها في هذه الجهة ورَكَّبَها على بعضها البعض، غير أنه ينقصه قطعٌ عدة.

وكان الناووسُ يتألف من قطعة واحدة، ويبلغ سمكُهُ ست أقدام وثماني بوصات ونصف بوصة، وعرضه ست بوصات، أما ارتفاعُهُ فلا يُمكن تحديدُهُ بالضبط، غير أنه لا يمكن أن يكون أَقَلَّ من سبع أقدام وثلاث بوصات على حسب رأي «نافيل»، ولم يبق شيءٌ مِن سقف هذا الناووس.

وهاك بعض النقوش التي على الجزء الباقي من هذا الناووس:

الواجهة الأمامية: نجد على هذا الجزء اسم «نقطانب» مكررًا ثلاث مرات ومسبوقًا بأحد النعوت الثلاثة التي توجد مجتمِعة في لقبه، فقد قيل عنه إنه يحب الإله المحلي «سبد» رب الغرب، وروح الشرق، و«حور» الشرق.

وفوق هذه النعوت الأناشيد التي كان ينشدها الملك متحدثًا كالإله «تحوت» الذي تُنسب إليه هذه الأناشيد، (راجع: Saft El-Hennah etc. p. 6 & pl. 1).

وهاك الترجمة للأسطُر الأُفُقية العُليا: «الحمد لسبد من الإله الكامل، رب الأرضين «خبر-كا-رع» بن «رع» رب التيجان … عمل بوساطة «تحوت» نفسه في الزمن الأزلي تَعَبُّدًا لهذا الإله الفاخر.»

ونقش عموديًّا تحت ذلك تسعة أَسْطُر، منها أربعةٌ أمام الملك ومن سطر ٥ إلى سطر ٨ فوقه، وسطر ٩ خلفه:

وهاك ترجمة ما تبقى منها:

(١) … في بيته … على أعدائه … مرتين، وقد أتى وقتل «أبو فيس»، وافتتح السنة الجديدة، والآلهة والآلهات في فرح وتهليل في مكانه العظيم (محرابه)؛ لأنه غل العدو بأجنحته.

(٢) … والصقر المقدَّس، وأرض الشرق في الشرح، وقد ذبح أعداءه (ربما كان المقصود هنا «رع»)، والغرب قد أصبح في سرور، وعندما صعدت هذه الروح إلى أُفُقها قطعت أعداءها إربًا، وقد اخترق السماء في ريح رخاه، ووصل إلى الغرب الجميل، وفرح أهل الغرب برؤيته.

(٣) وعندما اقترب منهم كانت أجسامُهُم مبتهجةً لرؤيته تأمل! تأمل! أنه على أفواههم، ولم يكن في مقدور واحد منهم أن يستيقظ، بل كانت أجسامُهُم ممتدةً أمامه، وأنه هو الواحد الأحد الذي سيختار أين سيقترب من جبل «باخو» (الجبل الذي تغربُ فيه الشمسُ في الصحراء الغربية).

(٤) وعندما يشرق على الجبل تُهلل كُلُّ ذوات الأربع التي في البلاد له، وأشعتُهُ وبهجتُهُ في وجوههم، وأنه يجلب النهار عندما تمر الساعة الخفية في «نوت» (إلهة السماء) والنجوم

السيارة والنجوم الثابتة (القطبية) دون أن يحدث له تعب، و«حور» قوي الساعد يَحمل في يده الحربة ويذبح «عبب» (أبو فيس). (٥) أمام قاربه (أي قارب «رع»)، ويمسك «حور» بالدفة لأجل أن يدير القارب الكبير، والإلهة «سشات» الجبارة ربة الكتابة تنطق صيغها المقدسة في سفينته المقدسة، ولقد أتى «رع» وضرب أعداءه في صورته «أختي» (إله في صورة «بس» بوصفه حاميًا للأطفال المولودة حديثًا)، وأنه يجعل جسمه يزيد باسمه «حورسبد» وأنه يكمله في الوقت المعين باسمه «ماحس» (اسم إله)، وأنه هو نفسه يمده بأعضائه باسمه.

(٧) «حور الشرق»، وقد ضربهم (أعداءه) بالحرارة التي في جسمه باسمه «حور» قوي الساعد، وقد اخترقهم بضربة واحدة، (وأجسامهم) ألقى بها في الشرق والغرب وقضى عليهم. (٨) على جبل الشرق وأعضاؤهم التهمتها النار، ويحس «رع» الريح الطيبة كل يوم باسمه «حور» المنتصر، وأنه يكون ممتازًا كل يوم باسمه «حورسبد»، مرحبًا بك إلى حدود السماء يا سيد «حرمخيس» الذي في … (٩) … والآلهة والآلهات … من الفرح كل يوم قد اجتمع السرور والانشراح، روح الشرق، وصقر الشرق الذي هو «رع» في الغرب، وأنه يخترق السماء هو نفسه … على شرق سفينته كل يوم.

وهذه الأنشودةُ كانت أول متن يعترض عين الناظرُ إلى الناووس؛ ونجد فيها التكرارات العادية جدًّا التي نجدُها في المتون الدينية مما يجعلها — في أغلب الأحيان — مملة للقارئ، وفيها نجد كثيرًا من التورية في الألفاظ، وكانت هذه التوريةُ محببة للمصري، غير أنه لا يمكن إظهارُها في الترجمة.

وأَهَمُّ ميزة للإله «حور سبد» أبرزها مؤلفُ الأنشودة هي: حبه للحرب؛ فهو إله محارب، وسنرى ذلك عندما نبحث الأشكالَ الخاصة التي اتخذها لنفسه، وسننتقل الآن إلى بعض المتون التي على الجوانب الأخرى، وسنبدأ بالمتون التي كُتبت بحروف كبيرة، وهي نقوش الإهداء.

فيشاهد على الجانب الأيسر (راجع: The Shrine of Saft El-Hennah and the Land of Goschen, Edward Naville, p. 7 & pl. II)، متنٌ ذُكر فيه الأحوال التي أُقيم فيها هذا الناووسُ للإله.

(١) الإلهُ الكاملُ عظيمُ البطش قوي الساعد، الذي يصد البلاد الأجنبية، والبارع في النصيحة ومن يحارب من أجل «مصر»، ثور المقاطعات ومن يطأ بقدميه الآسيويين ومن

يخلص مأواه من عبثهم، الثابت الجنان، ومن يتقدم ولا يتقهقر قط لحظة واحدة، ومن يفوق سهمه في اللحظة المناسبة، ومن يمد المعابد بذكائه العظيم، والذي يقولُهُ يَحدث في الحال، كالذي يخرج من فم «رع» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» ابن «رع» «نخت نبف».

(٢) هذا الإلهُ المبجل «سبد» رب الشرق يذكر نيته الطيبة نحو جلالتِه، وكل الآلهة عندما يخرج (ابن الملك) أمامهم يحفلون به لأجل أنْ يَعتني بالأجسام المقدسة (أي تماثيل الآلهة) مدة حياته ولسنين عدة فيما بعد، وعندما أراد الملكُ أن يقدم إنعاماتٍ خاصة بهذا الإله (أي سبد) في محرابٍ خَفِيٍّ لم يكن معروفًا لدى الكهنة، وحيث كان كُلُّ آلهة الإقليم يُخفون أجسامهم؛ فإن الإله قد وضع في قلب الملك أن يجعله يرى …

(٣) وبعد سنين عدة دُون أن يعرف كيف حدث ذلك، فإنهم رأوا بوضوح كيف أُقيم على مقعده، وبعد ذلك كان هناك سرورٌ قائلين: إن هذا الأمير قد ظهر في الشرق، وإنه قد زَيَّنَ العالم بأشعتِهِ وإنك قد رفعت عاليًا جدًّا إلى السيد المنتصر، وبعد ذلك فإن الإله الكامل قد زين محرابه وعمله، «أمن-خبرو» (= المكان الخلفي) لرب الشرق لجسمه هو، وكل الآلهة الذين كانوا في ركابه على يمينه وكل الآلهة الذين في مكانه على يساره، وعندما يخرج فإن كل آلهته تكون أمامه مثل «رع» عندما يشرق في أُفُقه، وكذلك تكونُ الحالُ عندما يأوي إلى محرابه كل يوم.

ومِن ثم نفهم أن سبب إقامة هذا الناووس كان وقوع أُعجوبة في عهده، ومما يؤسَف له جد الأسف؛ أن نهاية السطر الثاني وُجدت مهشمة؛ ولذلك لم نعرف ماذا حدث، وعلى أية حال يظهر واضحًا أن الكهنة، إما أنهم كانوا لا يعرفون أين كان مأوى الإله، أو أن هذا المأوى كان مكانًا غيرَ مسموح لهم بالدخول فيه، وهذا الرأي الأخير هو المرجح، وقد قرر الملك أن يعمل شيئًا لهؤلاء الآلهة بهذا الخصوص، غير أننا لا نعرف ما هو هذا الشيء؛ وذلك بسبب الكسر الذي في الناووس، والنتيجة أنه بعد مُضِيٍّ سنين عدة ظهر فجاءة إله على مقعده وأظن أنه هو الإله «سبد»، وقد كان هذا الحادثُ مثارَ فرحٍ عظيمٍ في «مصر»، وقد سمي «نقطانب» هذا المحراب أو الناووس «مكان اختفاء سبد»، وتلك هي الحقائقُ القليلةُ التي أمكن جمعُها من هذا المتن المتكررة عباراتُهُ.

وعلى ظهر الناووس يُلحظ أن النقش الذي حُفر بحروفٍ كبيرة لا يحتوي على حقائقَ تاريخية، بل كُلُّها عباراتُ مدح تُثني على الأعمال العظيمة التي قام بها الفرعونُ كما تذكر لنا صفاته، (راجع: Ibid, pl. VI):

(١) ... الخاص بالشرق، قوي الساعد، نسل «حور» الشرق، بكر إله الأُفُق، الواحد الأحد وحصن «مصر» ومبيد الآثمين في الأرض، والثائرين حولها، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» بن «رع» «نخت نبف» العائش أبديًّا.

(٢) ... إله الأفق الذي يُشرق في الأُفُق وأشعتُهُ الصفراءُ تضيء ... وكل البشر يعيشون برؤية بهاء «حور» في الشرق، وكل الآلهة يحفلون به عندما يرونه.

(٣) ... عرشك بمثابة «سبد» منتصرًا وكل القطرين قاطبة ينظر فرحًا عندما تشرق في أُفق «بخو» (المكان الذي تشرق منه الشمس) ... وأنه ألقى الجبال في أوديتها وأنه هو الذي يحمي «مصر»، عين «رع»، والذي يحرس أجسام الآلهة، ولقد أغنيت المعابد بكل الأشياء الطيبة امنحن مكافأة نصر «رع» أبديًّا.

والنقش الذي على الجانب الأيسر أكثر أهمية جدًّا عن السابق (Ibid. p1. VD) فاستمع لما جاء فيه:

(١) ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «خبر-كا-رع» ابن «رع» «نقطانب»، لقد عمله بمثابة أثر لوالده «سبد» رب الشرق، هذا الناووس من حجر الجرانيت الأسود والمصراعان اللذان في الأمام من البرونز الأسود موشيان بالذهب، والصور التي عليه من ... وكل الذي دون على إضمامةٌ من الجلد قد عمل بصناعة جميلة باقية أبديًّا، وقد كوفئ على ذلك حكمًا طويلًا، وكل البلاد الأجنبية تحت قدميه وهو عائش مثل «رع» أبديًّا.

(٢) الإله الكامل رب الأرضين أمر أن تعمل هذه الأشياء بمحض إرادته لأجل أن يحفظ الجسم الإلهي (أي تمثال الإله) في مسكنه بعد أن أتى جلالتُه إلى «قيس» ليقرب قُربانًا لهذا الإله المحترم «سبد» رب الشرق على عرشه بوصفه السيد المنتصر، وعلى ذلك فإن أحقابًا من السنين سترى ... وقد اختار جلالتُه مسكنَه في مدة حياة «خبر-كا-رع» ابنه الذي يحبه «نقطانب» العائش أبديًّا.

(٣) وأنه الملك الذي أمر بنفسه بإقامة التماثيل للآلهة «قيس» على هذا المحراب في مدة حياة جلالته، وكل الآلهة في أماكنها، وأنها كما دون على إضمامة الجلد، وكذلك كل الأحفال

المقدسة دون أيِّ إهمال فيها عندما … «تحوت» مثل كل أتباع رب «حسرت» على حسب الأعياد الثلاثينية العديدة، عائشًا مثل «رع» أبديًّا.

والواقعُ أن هذا هو أهمُّ نقشٍ حُفر على المحراب؛ إذ إنه يخبرنا عن المكان الذي أقام فيه «نقطانب» الأول الناووس، وهذا المكان هو بلدة «قيس».

أما النقوش التي حُفرتْ بأحرُف صغيرة فإنها إما أن تصف ما حفر تحتها، أو تحدثنا ماذا فعل الآلهة، ليكافئوا الملك لفائدته، وليس من المستطاع أن تتبع القاعدة التي اتخذها الحفارون في اختيارهم الصور التي مثلوها.

ويُلحظ أن أهم صورة للإله «سبد» الذي عمل من أجله الناووس هي صورةُ صقر عاري الرأس (Pl. V. 4)، أو يلبس ريشتين (Pl. II 5)، ويُرى جاثمًا على مضجع (Pl. II 5)، أو على قاعدة من الحجر؛ ومن الجائز أن يكون أمامه مثلثٌ يقرأ «سبد» وهو اسمه، وهذا الشكلُ نراه في العلامة الهيروغليفية التي تُسَمَّى بها المقاطعة، والصقر هو الشكل العادي للإله «سبد» — غير أنه ليس أقدم صورة له — في عهد الملك «نقطانب»، وعلى ذلك فإنه يحمل ألقابه كاملة: «سبد» روح الشرق، والصقر أو «حور» الشرق، (pl. IV 6).

وقد مثل هذا الإله في هذا العصر بصورة قزم قبيح المنظر برأس كبير ولحية، ويتحلى بريش وبذراعين ممتدتين وجناحين، وفي كل يد من يديه سكينٌ، وهو في هذه الصورة يُشبهُ الإله «بس»، وهذا الشكل يُسمى «سبد» الذي يضرب الآسيويين (pl. II 6 & c)، وله صورة ثالثةٌ أخرى في هيئة رجل بجناحي ورأس صقر بدلًا من رأس إنسان، ويُلحظ أن جسمه قد اضطجع على مقعد وذراعه اليُسرى مرفوعةٌ مثل ذراع «آمون»، وفي يده اليُمنى قوسٌ وسهام، ويسمى هذا «سبدشو» بن «رع» (pl. II 6) وقد سُمي على أثر آخر في متحف «اللوفر» «رب الحرب».

ويُلحظ أن «سبد حور» لا يختلف إلا قليلًا عن «سبدشو» وذلك أن جزءه الأعلى مكونٌ في صورة صقر على جسم إنسان، (pl. V. 4).

والمقابلُ لهذه الصورة هي صورةُ إنسانٍ واقف، بذنب وجناحَي صقر وبيده اليُسرى سكين وفي يده اليمنى علامةُ الحياة، وهو يُسَمَّى هنا «سبد سيد للوجوه والمخيف والمخيف إلى أقصى حَدٍّ»، (راجع: Pl. II 5 & V. 4).

ويمكن أن يمثل الإله «سبد» كذلك في صورة إنسان يلبس ريشتيه، وفي إحدى يديه صولجان وفي الآخر رموزٌ أُخرى، وهو بهذه الصورة يُشبه الإله «أنحور»، وهذا التنوُّعُ قديمٌ جدًّا، ولدينا مثالٌ قديمٌ على لوحة عُثر عليها في «وادي جاسوس» على ساحل البحر

الأحمر، وهي الآن موجودةٌ في قصر «النويك Alnwick Castie»، ويرجع تاريخها للملك «سنوسرت» الثاني (A. Z. 1882, p. 204).

ولدينا صورةٌ أخرى في «وادي مغارة» ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (L.D. III p. 204)، وثالثة من عهد «رعمسيس» الثاني (Ibid. III 144)، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن هذه الصورة هي أقدمُ شكلٍ لهذا الإله، وهو دائمًا كان يُسَمَّى من أجل ذلك «رب الشرق»، ولا نزاع في أنه إلهُ حرب، وإليه يُنسب الشرق (أي مقاطعات شرق الدلتا)، حتى تخوم «سوريا»، هذا بالإضافة إلى الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر وهو يُشرف على جبال «باخو» وهي مرادفٌ للشرق، وأنه هو الذي يحمي «مصر» من الغزاة الشرقيين، وهم «المنتو» أو «الفنخو» — كما يسمون هنا — ويعنى بذلك: الفُرس الذين كانوا أخطرَ أعداء الملك «نقطانب» الأول.

ويُلحظ أن الإله «سبد» تتبعه عدةُ آلهات تحمل اسم «خونست» (راجع: pI. V. 3 & 4).

هذا بالإضافة إلى أشكالٍ عدةٍ للإله «حور» «حورمر» أو «حور سا إزيس»، كما يتبعُهُ الإله «آمون» ممثلًا بأشكالٍ مختلفة، وغالبًا ما يكون في صورة طائر (Pl. II 5)، ومِن بين أتباعه الذين نراهم معه كثيرًا جدًّا الأسد «ماحس» الذي يمثل عادة وهو يأكل رأس أسير (راجع: Pl. III 3, Vl 6, VII 5)، وأحيانًا يُمثل بصورة إنسان برأس أسد (راجع: Pl. II 6, III 4).

هذا، ويمكنُ استخلاصُ معلوماتٍ أُسطورية كثيرة من ناووس «صفط الحناء» وغيره من الآثار المنقوشة التي عُثِرَ عليها من عهد الأسرة الثلاثين (راجع: مثلًا عن توحيد الإله «آمون» بالإله «حرمخيس» Pl. II 1, Pl. V. 1, 4) والواقع أنه لو فُحصت المتونُ المنسوبة للإله «سبد» فإن ذلك يؤدي إلى أنه ليس بالشمس المشرقة التي يمثلها، بل إلى أنه أحدُ النجوم السيارة، أو بعبارةٍ أُخرى الزهراء بوصفها نجم الصباح.

هذا، وقد مثل على الجانب الأيسر للناووس — بقدر ما يمكن استخلاصُهُ مما تَبَقَّى منه — عدةُ سفن كانت قد أُودعت في المعبد أمام الإله:

فنرى أولًا سفينتي الإلهة «باست» والإله «تحوت» (Ibid. p1. II 4)، وقد نقش مع كل سفينة، أنه أمام «سبد» وأسفل من ذلك يحتمل أنه كانتْ توجدُ سفينةُ «آمون» (٥، ١١)، وكذلك سفينة «سبدشو» ثم يأتي فلك «سبد» ضارب الآسيويين، (٦) وفي نفس الصف نجد

أشكال «سبد» الأربعة الرئيسية يقدم لها الملك «نقطانب» القُربان، وكذلك للإلهين حورمر والآلهة «خونست».

هذا، ويُلحظ أن النقوش التي على اللوحة (٢) في السطر ٤، ٥ متشابهةٌ جدًّا، وهي تذكر لنا أن هذه السفن قد نُقشت على حسب إرادة «نقطانب» ومعه ألقابه العادية، وجاء في السطر السادس: أنها عملت بمثابة مكافأة حسب إرادة ابنهم (ابن الآلهة) الذين يحبهم وهو الملك «نقطانب» وقد أعطيت إياه رقعة «رع» … جب وأنه شجاعٌ مثل شجاعة الآلهة، وكل الأرض تقفز فرحًا، كما أن القلوب منشرحةٌ لرؤية جماله، وأن حبه يمتد على كل الدنيا مثل «رع» عندما يشرق في «باخو» (الشرق)، وذلك بسبب صلاحه العظيم نحو كل الأرض.

ويشاهد على ظهر الناووس (Pl. III & Iv) مواكبُ طويلةٌ من الآلهة، فنجد هناك الأسماءَ الأربعةَ للمكان الذي نصب فيه الناووس، وقد كرر بعضها وهي: «سبد» بيت «سبد» ومأوى الجميزة وبيت الجميزة.

ويشاهد على ظهر الناووس (Pl. III 1-1)، مواكب طويلةٌ من الآلهة، أُمم مختلفة، أن الهمج قد وطأهم تحت قدميه، وأن ساعده قويٌّ بين رؤساء الإغريق.

ونجد في السطر الثاني من هذه اللوحة ذكر كتاب قد اقتبس فيما بعد، وهو الذي أخذت عنه الرسوم التي على الناووس على ما يظهر! هذه الصور التي عملت على هذا الناووس قد اختِيرت من الكتاب، وقد نقشت بإرادة الملك «نقطانب».

هذا، ونجد في السطر الثالث موضوعًا يكاد يكون طبق الأصل في اللوحة (Pl. VI 1–6)، وقد فسر بالطريقة الآتية: هؤلاء الآلهة الذين يأوون في محراب الإلهة «ونت» (إلهة في صورة ثعبان)، ويقفون على يمينها ويَسارها في مساكنهم في بيت الجميزة، وقد نقشوا بإرادة الملك «نقطانب» العائش أبديًّا وقد كوفئ على ذلك بمدائح كثيرة العدد، والجبال والرمل «السهل» قد نحت أمامه، وناووس الآلهة «ونت» الذي ذكر هنا يحتوي على نفس الآلهة يشاهد في اللوحة (Pl. Vl, 1–6)، وهناك إلهتان باسم «ونت» واحدةٌ للجنوب وأُخرى للشمال.

والسطر الرابع من نفس اللوحة يتحدث بنفس الطريقة عن آلهة ناووس الإله «سبد» ضارب الآسيويين: «إن هؤلاء الآلهة الذين يأوون في ناووس «سبد» ضارب الآسيويين على يمينه وعلى شماله، والذين يقفون في أماكنهم في «باسبد» قد نحتوا بإرادة الملك … إلخ، وهم نفس الآلهة الذين شاهدناهم (في اللوحة الثانية السطر السادس) مصاحبين الناووس الذي يأوون إليه.»

وفي اللوحة الثالثة السطر الرابع نشاهد الملك «نقطانب» يقدم قربانًا لأربعة حيوانات نقش فوقها: «إنك شجاع وبطل وإن ساعدك قد نما ليضرب أولئك الذين يعملون المتاعب (؟) لمصر»، والظاهرُ أنه أتى بعد ذلك تاريخ قد اختفى.

وفي اللوحة الرابعة (pl. IV 1–5) نقرأ: «هذه الآلهة التي تقف على مساكنها، وقد وجد لها مكان آخر سري في الساحة المقدسة في بيت النبقة، وقد صدرت على حسب إرادة الملك، وقد أراد جلالته أن يقدم احترامًا خاصًّا لآبائه مقدسًا صورهم وكل إله في مكانه وأشكالها على هذا الناووس أيضًا، والسطر السادس يبتدئ بالملك يتعبد لأربعة آلهة: مكان آخر وجد في داخل المعبد اختير لها وقد نحتت، إلخ.»

ونقرأ بعد ذلك: «منقوش من لفافة جلد خاصة بالمعبد وهي كتاب بالخط المقدس (هيروغليفي) وقد نحتت (الآلهة) على حسب الكتاب بإرادة الملك «نقطانب»، وقد أراد جلالتُه عمل هذه الأشياء المقدسة، وقد أقامها في بيت والده «سبد» رب الشرق، وعندما رفع الآلهة في مأواها حينما اختارت مسكنها في مدة حياته، وقد دعم عرش جلالته بين الأحياء كالسماء كل يوم.»

ويلاحظ أنه في نقوش التقدمة قد جاء ذكرُ لفافة جلد أُخرى، وهي الكتاب المقدس الذي يحتوي على القانون الذي على حسبه، كانت توضعُ الأحفال وعلى الجانب الأيمن (Pl. V. & vl.)، نجد الشجرة التي تُسمى «نبس» وهي التي منها اشتق الاسم الذي يطلق على «صفط الحناء» وهو «برنبس» كما يقول معظم الأثريين، ولكن «جوتييه» يقول: «يخيل إليَّ أنه من المحتمل كثيرًا أن اسم «آت نبس» أو «حات نبس» كان محرابًا أو حيًّا خاصًّا في هذه المدينة؛ أي «صفط الحناء».»

والغريب في الكلمة «نبس» أنه لم يحقق كنهها بعدُ، فمِن قائلٍ إنها شجرة الجميزة، ومِن قائل إنها شجرة النبق، ويحتمل أن المعنى الأخير يقرب من الحقيقة؛ لتقاربه من اللفظة العربية «نبق»، وفي السطر الثاني نقرأ من اللوحة رقم … لآبائه أسياد سكان الجميزة (؟) والجميزة الخضراء وأغصانها تخرج أوراقها الخضراء والأرض مخضرة في كل امتدادها ومقر هذه لإله مخضر كل يوم، وأنه ينبثق عن زهوره وكل الأشياء الطيبة، وأن أرض «كس» خضراء لأجل أن تكون لامعة في مدة حياته.

ويُلحظ أنه في هذا السطر قد مثلت شجرة «نبس» (الجميزة؟) مع الإله «حور» الذي اعتبر ساكنها، وكما نجد في السطر الرابع من نفس اللوحة الإله «شو» والإلهة «تفنت»، وفي السطر الثالث الإلهة «حتحور» قد مثلت بهذه الكيفية.

هذا، وتوجد صورة بيت «نبس» في السطر الثالث من نفس اللوحة، فهناك نجد الشجرة مسكونة بالإلهين «سبد» و«حرمخيس» وخلفها نشاهد ثلاثة أشكال مختلفة للإلهة «خنست» (وهي إلهة لم تظهر إلا في العهد المتأخر)، ويُشاهَد أمام الشجرة ثعبانان يلقبان بحارس باب القاعة، ويوجد أمام هذه القاعة دهليزٌ آخرُ يحتله ثعبانان ويلقبان حارس باب الدهليز المؤدي إلى بيت الشجرة «نبس» (؟).

والنقوش التي فوق هذه الأشكال هي:

عندما (أتى) الملك «خبر-كا-رع» صورة «رع» وسليل صقر الشرق و«سبد شو» المعابد والبناء العظيم — في هذه المقاطعة لأجل أن يقدم قربانًا لآبائه أرباب مأوى شجرة «نبس» مكملًا «مصر» في منظرها ومجددًا سكن شجرة «نبس» وجاعله كله جديدًا؛ فإن الأرض كلها كانت في سرور من أجل ذلك، وكل إنسان كان مبتهجًا؛ لأنه كان قد عمل على حسب كُتُب «رع»، وعندما اختلط «رع» بالشعب فإنهم جعلوا بيت شجرة «نبس» يزدهر.

ونجد كذلك في السطر الرابع من نفس اللوحة أشكالًا عدة للإله «سبد» والنقوش التي تتبع ذلك تتضرع للآلهة قائلة: تعالوا وانظروا كل ما قد عمل لكم على يد ابنكم الذي يحبكم الملك «نقطانب» الذي يعيش أبديًّا، وكل الآلهة والإلهات ... عندما ينضم إليهم «رع» والشعب يشم الأشياء الجميلة التي عملها في مسكن «باخو» «الشرق»، فقد جعل موائد قرابينكم تفيض بكل الأشياء الطيبة وجدد الحدائق؟ دون انقطاع، وجعل الحقل ممتازًا مزودًا موائد قربانك، أعطه مكافأة ليكون ملك الوجهين القبلي والبحري اللذين يخضعان لإرادته مثل «رع» أبديًّا.

وجاء في السطر الخامس من نفس اللوحة ما يأتي: إن جلالته قد وَجَّهَ عزمه على تنفيذ كُلِّ هذه الأشياء المقدسة، والآلهة يرون ما يفعل في بيوتهم على يد ابنهم الذي عَلَى عرشهم الملك «نقطانب» العائش أبديًّا، وقد نال مدائحَ مثل «تاتنن» مكافأة له على بِناء معابدهم، وقد توج ملكًا على الأرضين، وعلية القوم وعامتهم يحتفلون به، وكل الأرض قاطبة منحنيةٌ أمام جلالته بسبب سلطانه عليهم، والماء يعلو في فصله وإنه ممتازٌ بسبب فائدته؛ لأنه سر قلوبهم حقًّا، والأرض تعيش به (أي الماء كل يوم).

وجاء في السطر السادس: تعالوا وشاهدوا ما فعل جلالتُه نحوكم يا أسياد مأوى «نبس» (شجرة؟) كافئوه بعزة «آتوم» وبعمر «رع» بوصفه أميرَ الأحياء، إن كل قلوبهم متعلقةٌ به وكل الأراضي الأجنبية ... بحربته وإن رؤساءهم حامِين «مصر» وحارسين عين «رع» من الذين يجلبون السوء لها.

والملك «خبر-كا-رع» نفسه طفلها الذي يحرس معابد كل الآلهة أبديًّا؛ لأنه ابنك الذي يحميك وإنه الباني القدير في بيت «نبس» بن «رع» «نقطانب» العائش أبديًّا مثل «رع».

وفي السطر السادس نُشاهد الإله «آتوم» في صورة دمس، ونجد نفس هذا الإله ثانية في اللوحة رقم ٧ (Pl. VII, 1). الصف الأول.

ويُلحظ أنه يسكن في (Pl. VI 1, 6)، واحد من ستة نواويس مختلفة، ويحتمل أنها كانت في المعبد مع بقية المحاريب، والآلهة الذين يُحيطون «ونت» نجدها كذلك للمرة الثانية، ومما تجدر ملاحظتُهُ أنه من أول السطر الثالث وما تحته تذكر النقوش المادة التي صنع منها تمثالُ الإله أو الرمز، كما تذكر ارتفاعَه، فنجد مثلًا في السطر الثالث (١) أنَّ تمثال «سبد» الواقف صُنع من الذهب، وارتفاعُهُ ذراعٌ في حين أن «حور» الواقف خلف «سبد» قد صنع من حجر موشًّى بالذهب، وارتفاعُهُ خمس قبضات أو في السطرين الخامس والسادس، نجد أن عددًا من الآلهة قد صنعت من حجر الجرانيت.

والجزءُ الداخليُّ من الناووس كان قد زين كله بالنقوش ومعظمها تكرارٌ لِما نقش خارج الناووس، وأول سطر يذكر اسم المخبأ (Cf. Pl. II 3)، وهو كما رأينا قد أُطلق على محراب الملك «نقطانب» بعد أنْ حدثت المعجزة.

ويوجد في متحف «اللوفر» قطعةٌ مِن ناووس، مثل عليها أسابيعُ السنة (كان الأسبوع يعد عشرةَ أيام)، وقد عثر على قطعة أُخرى من هذا الناووس في «الإسكندرية» ويُقال إن موضعه الأصليَّ كان في «صفط الحناء»، وقد تحدث مليًّا عن هذا الناووس الأثري «لبيب حبشي».

(راجع: Journal of Near Eastern Studies Vol. XI. p. 251–263 (1952).)

(٢٠) صفط الحناء

جذع تمثال من الجرانيت الرمادي للملك «نخت نبف» اشتراه «نافيل» من فلاح مصري، وتدل شواهد الأحوال على أن الرأس والقدمين قد كُسرت عمدًا وقد نُقش على العمود الذي يرتكز عليه التمثال صَفَّان من النقوش، (راجع: Naville. the Shrine of Saft El-Hennah and the Land Of Goshen p. 5, 1, VIII B; Guide to the Egyptian Galleries Sculpture p. 52).

والصف الذي على اليمين من النقوش جاء فيه أسماء الملك «نقطانب» الأول وألقابه، وجاء على السطر الذي على اليسار اسم الإله الذي أهداه «نقطانب» تمثاله هو، ومما يلفت

النظر هنا أن لقب «قوي الساعد» كان من الألقاب التي كان يحملها غيره من الملوك القُدامى، ونخص بالذكر من بينهم «سنوسرت» الثاني، وذلك عندما نراه يظهر أمام الإله «سبد» في لوحة في «وادي جاسوس» (راجع: A.Z. 1882 p. 204)، وكذلك نجد أن الإمبراطور الروماني «تبيريوس» يحمل هذا اللقب، وهاك ترجمة ما جاء على ظهر هذا التمثال:

في السطر الأول من اليمين: «حور» صاحب الساعد الجبار، السيدتان (المسمى) منعش الأرضين، «حور» الذهبي (المسمى) الذي يعمل ما تحبه الآلهة ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) رب الأرضين، رب القربان «خبر-كا-رع».

السطر الذي على الجهة اليسرى: محبوب «سبد حور» رب الشرق، «حرمخيس» الإله العظيم سيد جبال «باخو» والأمير وحاكم التاسوع ليته يُعطَى الحياة كلها أبديًّا.

(٢١) تانيس

كشف الأثري «مونتيه» عن موقع معبد للملك «نقطانب» الأول في هذه البلدة في عام ١٩٤٦م، وكتب عنه في مجلة ”Ill ustrated London “News.

(٢٢) تانيس

عُثر على لوحة صغيرة في ودائع أساس، وجدت في الزاوية الشمالية الشرقية من الجدار الذي يُحيط بالمعبد الكبير، وهذا يُبرهن على أنه قد أقام هذا الجدار أو على الأقل قد أصلحه نقطانب الأول، وقد كتب على هذه اللوحة الصغيرة ما يأتي: ابن الشمس «نخت نبف»؛ أي «نقطانب» الأول، (راجع: Montet, Le Drame d’Avaris p. 204).

(٢٣) بلدة «البقلية» الواقعة في جنوبي المنصورة

كشف في غربي المعبد الذي عُثر عليه في هذه المدينة على جذع تمثال للملك «نقطانب» الأول، وهو يمثله ماشيًا ومرتديًا قميصًا، ونقش على حزامه النقش التالي:

يعيش رب الأرضين «خبر-كا-رع» محبوب «تحوت» في بلدة «رحو» «البقلية».

الإله الكامل رب الأرضين «نخت نبف» «نقطانب» محبوب «نحوت» في «رحو».

ونُقش على ظهر التمثال: «حور» القوي الساعد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» ابن الشمس «نخت نبف».

(راجع: A.S. VII p. 233.)

(٢٤) وعثر «نافيل» على قطعة حجر في أسكفة باب شيخ في قرية مجاورة «للبقلية»، وقد نُقش عليه اسم الملك «نقطانب» الأول ولقبه، ويدل ما تبقى من النقش الذي لا يزال مدفونًا تحت الأرض في الأسكفة على أن الإله «تحوت»، هو معبود بلدة «البقلية» «رحو» — كما سبق ذكره.

(راجع: Ahnas El Medineh, p. 22, pl. III B.)

(٢٥) وأخيرًا عُثر لهذا الفرعون على تمثالين في صورة أسد رابض، يبلغ طولُ الواحد منهما حوالي ١٫٨٥ متر، وقد وُجدا في معبد «تحوت» صاحب «رحو» («رحو» هي عاصمة المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطَعات الوجه البحري)، وهما الآن في «الفاتيكان» وقد عُثر عليهما في «روما»، وليس في نُقُوشهما شيءٌ جديد غير ألقاب هذا الفرعون وأسمائه.

(راجع: Wiedemann, Rec Trav. 6, p. 118; Marucchi il Museo Egizio Vaticano No. 16–18 p. 32، 36–39; Bissing; Denkmalër Pl. 74; Scharff، Bemerkungen Zur Kunst der 30 Dynasty, Vatikan Festschrift, 1941, (p. 195–203, Fig. p. 197).)

(٢٦) منديس

أهدى الفرعون «نقطانب» ناووسًا لكبش «منديس» وهو مصنوعٌ من الجرانيت المبرقش، وقد عُثر عليه في بيت من بيوت العصر الروماني، وهو محفوظٌ الآن بالمتحف المصري تحت رقم ٧٠٠٢٢، ويبلغ ارتفاعُهُ ١٫٤٧ مترًا وصناعتُهُ جيدةٌ، وكتابتُهُ محفورةٌ بعناية، وقد وجد في حالة سليمة تقريبًا إلا بعض قطع صغيرة كُسرت منه، وهو قطعةٌ واحدةٌ من الحجر — كما هي الحال في معظم نواويس هذا العصر — وقد نقش على عارضيته سطران، فالذي على اليَسَار جاء فيه: «حور» قوي الساعد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» بن «رع» (المسمى) «نقطانب» عاش مخلدًا.

محبوب كبش «منديس» القاطن في «إيون» الإله العظيم رب «رس خاست» والاسم الأخير يُطلق على حَيٍّ من أحياء مدينة «منديس» عاصمة المقاطعة السادسة عشرة من مقاطعات الوجه البحري، ويقع في الجُزء الغربي من المدينة، وكان يعبد فيه كبش «منديس» والإلهة «حت محيت»، ويظن الأثري «دارسي» — بشيء من الصواب — أن المقصود هنا هو المكانُ الذي على حسب الأُسطورة التي رواها «بلوتارخ» كانت توجد فيه «إزيس» عندما

علمت بموت زوجها «أوزير»، وحيث قطعت خصل الشعر علامة على الحزن — كما هو ممثل في كتابة الكلمة بالمصرية القديمة — (راجع: Gauthier, Dic., Geogr. IV p. 98).

ونقش على العارضة اليُمنى ما يأتي:

«حور» القوي الساعد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» بن «رع» «نخت نبف» (= «نقطانب» الأول)، العائش مثل «رع» محبوب كبش «منديس» القاطن في «إيون» الإله العظيم خالق نفسه.

ونقش على الواجهة صورة الشمس المجنحة كما نقش: رب «مسن»، وعلى اليمين وعلى الشمال نقش في سطر أفقي وآخر عمودي «بحدتي» الإله العظيم رب السماء ذو الريش المبرقش الخارج من الأُفُق رب «مسن» (وهو اسم مكان لعبادة حور صاحب إدفو).

(راجع: Roeder, Cat. Gen. Naos p. 99–100 and pl. 65 b, c.)

(٢٧) «أبو ياسين» مركز كفر صقر شرقية

عثر في بلدة «أبو ياسين» في الحفائر التي عملت في عام ١٩٣٧–١٩٣٨م، على قطعة من تابُوت مصنوع من الجرانيت الوردي، وقد وُجد عليه اسم الملك «نقطانب» الأول (راجع: A.S. XXXV. III p. 611).

(٢٨) سمنود

جذع تمثال من الجرانيت الأسود للملك «نقطانب» الأول وهو محفوظ الآن في «باريس» (راجع: Descr. De l'Egypte Ant. V. pl. 69 (7, 8) cf, Texte. X. p p. 572–573; Naville. Mound of the Jews p. 27).

(٢٩) المحلة الكبرى

رأى الأثريُّ «إدجار» جذع تمثال لهذا الملك في «سمنود»، ولكنه يظن أن هذا الأثر قد نُقل من «المحلة الكبرى» إلى «سمنود».

(راجع: A.S. XI. p. 96.)

وقد نقش عليه: يعيش بن «رع» رب التيجان «نخت نبف».

يعيش ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» (أي «نقطانب» الأول)، وهذا المتن نقش على حزام هذا التمثال.

(٣٠) المحلة الكبرى

استولتْ مصلحةُ الآثار على جذع تمثال جميل الصنع من أحد أهالي قرية «دقميرة» مركز «كفر الشيخ» مديرية «كفر الشيخ»، وكان ذلك في عام ١٩٢٢؛ وقد نقل إلى المتحف المصري، وهو محفوظٌ هناك تحت رقم ٤٧٢٩١، ومما يؤسَف له أن المكان الأصليَّ الذي كان فيه هذا التمثالُ لم يعلم بعدُ، وقد قيل على لسان صاحبه: إنه عُثر عليه أثناء بناء السكة الحديد من «المحلة الكبرى» إلى «بلطيم».

والتمثال مصنوع من الحجر الأسود الصلب، ويُعتقد أنه من البازلت.

وقد نقش على العمود الذي يرتكز عليه التمثال أربعةُ أسطُر عمودية، غير أنها وُجدت مهشمة؛ ولذلك أصبح من الصعب ترجمةُ هذا النص، ولكن من السهل أن نَستخلص من المتن أنَّ الشخص الذي يمثله هذا التمثال، كان يشغل وظيفة من الدرجة الأولى في عهد آخر فراعنة العصر الساوي، واسم هذا الموظف هو «شدسومسو» وتدل شواهد الأحوال على أنه كان من سكان المقاطعة السابعة عشرة من مقاطعات الوجه البحري التي تقع عاصمتُها الآن في مكان «تل البلمون» الحالية مركز «شربين»، وأنه قد عاش في عهد الملك «نقطانب» الأول، (راجع: A.S. XXIII p. 173–5 & Ancient Egypt (1925) p. 124).

(٣١) «سايس» أو «دمنهور»

وجد فيها ناووس من الجرانيت الأسود للآلهة «نبت»، وهو محفوظٌ الآن بالمتحف المصري (راجع: Daressy, Rec. trav. 11, p. 80–81 No. XXII; Maspero–Quibell Guide p. 170, No. 650).

وهذا الناووسُ المصنوعُ من الجرانيت الأسود سقفُهُ مقببٌ، ومزينٌ من الأمام بقرص الشمس المجنح ونقش معه: «بحدتي» الإله العظيم رب السماء مُعطَى الحياة، ونقش على عارضتَي بابه ما يأتي: من اليمين: «حور رع» قوي الساعد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» بن «رع» «نخت نبف» محبوب الإلهة «نيت» العظيمة أم الإله.

ونقش على اليسار: «حور رع» القوي الساعد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» بن «رع» «نخت نبف» محبوب «نيت» ربة «آت خت».

وبلدة «آت خت» تقع في الدلتا، ومعناها بلدة العزلة في «دمنهور»، كما يقول «دارسي» وهي خاصةٌ بالإله «أوزير» الشمال فاتح الطرق، غير أنها في المتن الذي نحن بصدده تنسب للإلهة «نيت»، (راجع: Gauth, Dic. Geogr. Tom. 4, p. 31).

(٣٣) رشيد

قطعة حجر منزوعة من بين عمودين، مزينة بكرنيش رسم عليه صفٌّ من الصقور، وحفر عليها صورة «نخت نبف» «نقطانب» الأول، وقد مثل راكعًا وهو يقدم ربانًا لإله، وقد عُثِرَ على هذا الحجر في خرائب «رشيد»، وطولُهُ أربعةُ أقدام وعرضُهُ قدمان وست بوصات، وقد أَهْدَاهُ الملك «جورج» الثالث للمتحف البريطاني عام ١٧٦٦م.

(راجع: A Guide to the Egyptian Galleries (Seulpture) p. 250, Arundale-Bonomi, Gallery of Antiquities pl. 145 fig. 165, p. 110–111.)

(٣٤) الإسكندرية

قطعةٌ أخرى من حجر البازلت، منزوعةٌ من بين عمودين من معبد أُقيم بجوار مدينة «الإسكندرية» الحالية، أقامه «نخت نبف» «نقطانب الأول»، وقد نقش على واجهة هذه القطعة الملك راكعًا يقدم قُربانًا لإله، ونقش فوقه اسمه، وعلى ظهر الحجر نقش أسماء الملك وألقابه، (راجع: Ibid. p. 250).

وكذلك عُثر على رأس لهذا الملك في نفس المكان السابق ذكره.

(راجع: Guide, British Museum p. 394 fig. 217 & vol. of pls. II of Cambridge Ancient Hist, p. 14 B.)

(٣٥) «الإسكندرية»

قطعةٌ من عمود عليها اسمُ «نقطانب» الأول: ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «خبر-كا-رع» «نقطانب الأول»، وهذه القطعة كتبت من الوجهين ويشاهد فيها «نقطانب» الأول يقدم قربانًا.

(راجع: Porter & Moss IV p. 5; L. D.T.I. p. 1.)

(٣٦) كفر مناقر

(راجع: A.S. Tom. 19, p. 136–140.)

يوجدُ الآن في المتحف المصري جُزءٌ من تمثال للملك «نقطانب» الأول، والواقع أنه لم يَبْقَ من هذا التمثال إلا العمود الذي كان يستند عليه وأجزاءٌ أخرى بسيطة، وهو مصنوعٌ من الجرانيت الأسود المبرقش بالأبيض، ويبلغ طولُهُ ٢٫٢٢ مترًا وعرضه ١٣ سنتيمترًا، وقد نقش على هذا العمود متن في أعمدة.

والعمود الذي على اليمين جاء فيه أسماء الملك «نقطانب» الأول دون تغير ملحوظ، والعمود الذي على اليسار أكثر أهمية من سابقه، فنشاهد أن «حور» نقطانب يواجه «حوارًا» آخر يعلو رأسه قرص الشمس قابضًا على رمز مركب من علامة النبات وعلامة الحياة الواحدة فوق الأخرى، وهو يجعل «حور» الذي يقابله يشم رائحتها، وهاك الترجمة:

«حور رع» سيد «كم تاخنتي خاتي» الصقر المقدس الذي على قصره، أنه يعطي الحياة والقوة لملك الوجهين القبلي والبحري «خبر-كا-رع» والوارث الممتاز للمبعوث السليم (لقب أوزير) على عرشه «نقطانب» مُعطَى الحياة.

أما السطر الذي على اليمين فجاء فيه: «حور» ذو الساعد القوي ملك الوجهين القبلي والبحري، السيدتان (المسمى) الذي يثبت الأرضين، حور الذهبي الذي يعمل ما تحبه الآلهة «خبر-كا-رع» بن الشمس ومحبوبه «نقطانب» الأول.

(٣٧) «ليتوبوليس» (= أوسيم)

تدل الآثار التي كشف عنها حتى الآن في بلدة «أوسيم» الواقعة في مركز «إمبابة» مديرية الجيزة، على أنها كانت تحتوي على عدة آثار للملك «نخت نبف»؛ أي «نقطانب» الأول، فمنذ عام ١٩٠٤م أشار الأثري «شبيجلبرج» في رحلة كشفية مع الأثري «كويبل» إلى وجود أربع قطع من الحجر عليها اسم الملك «نخت نبف»، وبذلك أضاف هذه القطع إلى ما كشف عنه الأثريان المصريان «أحمد كمال» و«أحمد نجيب» في هذه الجهة باسم هذا الفرعون، (راجع: Rec. trav. XXVI, p. 147-48, A.S. XXIII, p. 171–3 & XXXII p. 78–80 Com p. Ancient Egypt 1925, p. 124).

هذا، وفي عام ١٩٢٣ عثر الأثري «جوتييه» خلال رحلة تفتيشية في داخل قرية «أوسيم» نفسها على قطع أُخرى من الحجر الأسود الصلب المائل إلى السمرة، تدل — بدون أي شك — على أنها بقايا تمثال أقامه الملك «نقطانب» الأول للإله «حور» رب «أوسيم» وهو الإله المحلي لهذه البلدة، وقد وجد على أحد هذه الأحجار قطعةٌ من موكب مقاطعات، وقد شاءت الصُّدَف أن تستولي مصلحة الآثار على أربع قطع باسم الملك «نقطانب» الأول أصلُها من «أوسيم»، وذلك أثناء عمل شارع في حي سوق الصالح «بأوسيم»، وهذه القطعُ من نفس الجرانيت الرمادي المائل إلى السواد الذي منه القطعُ السابقةُ التي شُوهدتْ في «أوسيم»، ويلفت النظر من بين هذه القطع اثنتان؛ وذلك لأنهما من أساس معبد مُزَيَّن بموكب أشخاص، يمثل كل منهم مقاطعة من مقاطعات «مصر».

ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أنه قد ذكر مع كل مقاطعة أجزاؤها الثلاثة (راجع: كتاب أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني ص٢٠ للمؤلف)، وقد وُجد على القطعة الأولى اسم المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطَعات الوجه القبلي، ويرمز لها باسم الإله «تحوت»، هذا، ونجد جُزءًا من الكلام الخاص بالمقاطعة السادسة عشرة التي عاصمتها «منديس»، أما الحجر الثاني من هذه الأحجار فقد ذُكر عليها اسم مقاطعة لم يحدد اسمها بعدُ بالنسبة لِما جاء في القوائم الأُخرى بالمقاطعات وأجزائها، (راجع: Gauthier, A.S. XXXII 78–80).

(٣٨) «عين شمس»

قطعة منقوشة من الحجر الجيري من معبد هذه البلدة، وكذلك قطعة أخرى منقوش عليها لقب «نقطانب» الأول «خبر-كا-رع»؟

(راجع: Naville-Griffith, Mound of the Jews p. 66 & pl. XXI, No. 16.)

ومن المحتمل أن يكون هذا النقش للملك «سنوسرت» الأول؛ لأن الملك «نقطانب» الأول و«سنوسرت» الأول يحمل كل منهما هذا اللقب «خبر-كا-رع»، ومما يلحظ هنا أن الفن كان رفيعًا في كل من العصرين، فقد كان عصر سنوسرت يعتبر العصر الذهبي للفن والعلوم، كما كان عصر نقطانب يعتبر عصر نهضة جديدة في الفن.

(٤٠) القاهرة

ناووس للإلهة «نيت» من الجرانيت الرمادي المنقط.

(راجع: Roeder, Cat. Gen. Naos. p. 57–8 pl. 16 a.)

ناووس من الجرانيت الرمادي يبلغ ارتفاعُهُ ٩٣ سنتيمترًا، وهو قطعةٌ واحدةٌ، وقد وجد على عارضتيه المتن التالي:

الجانب الأيمن: «حور» ذو الساعد القوي، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» ابن الشمس «نخت نبف» محبوب «نيت» العظيمة الأم الإلهية.

ونقش على الجانب الأيسر نفس النقش بإضافة محبوب «نيت» ربة «آت خت» (و«آت خت» مكانٌ بالدلتا خاصٌّ بالمعبود «أوزير» الشمال فاتح الطرق، ويحتمل أن يكون هذا الاسمُ له علاقةٌ بمقر القاضي الجنازي الثامن.

هذا، وقد نسبت الإلهة «نيت» إلى هذا المكان على الناووس الذي نحن بصدده)، (راجع: Gauth. Dic. Geogr. IV p. 31).

(٤١) القاهرة

وجدت قطعةٌ مِن تاج عمود عليها صورة «نقطانب» الأول قابضًا بيده على صورة «بولهول»، وقد عُثر عليها في قلعة «القاهرة».

(راجع: Porter & Moss IV p. 72.)

(٤٢) محاجر «طرة»

وجد نقش على صخور محاجر «طرة»، يتحدث عن فتح محاجر جديدة لأجل استخراج أحجار منها لبناء معبد الإله «تحوت» صاحب «هرموبوليس» الكبرى (= البقلية)، وقد جاء فيه المتن التالي: لقد فتح هذا المحجر الجميل في «طرة» لأجل إقامة البناء في معبد «تحوت» المزدوج العظمة، والذي يفصل بين المتخاصمين ورب الكلام المقدس، ومهدي الآلهة والعظيم في «بعح» (= وهو الاسم المدني لعاصمة المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه البحري، ومن المحتمل أن هذا الاسم هو «تل البقلية») الحالي، الواقع في مديرية الدقهلية مركز «أجا» على مسافة ستة كيلومترات من الجنوب الغربي من «تل البقلية»، (راجع: Gauth. Die. Geogr. IV p. 16).

مع آلهة «بعح» ليته يثبت ويبقى أبديًّا.

وقد ذكرنا من قبل شيئًا من محاجر «طرة» (انظر الأرقام ٧، ٤، ٦، ٩).

(٤٨) منف

ووجدت قطعة منقوشة عليها اسم الملك «نقطانب» الأول ولقبه (راجع: Gauth. Dic. Geogr IV p. 87) وقد عُثر عليها في سرابيوم «منف».

(٤٩) منف

قطع من تابوت الملك «نقطانب» المصنوع من حجر البرشيا الأخضر، وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري.

من المحتمل أن تابوت الملك «نقطانب» الأول قد جيء به إلى «القاهرة» في عهد الخلفاء، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه كان تابوتًا فاخرًا مستطيلَ الشكل مصنوعًا من حجر البرشيا الصلب الأخضر، ويبلغ طوله ثلاثة أمتار واثني عشر سنتيمترًا، وكان غطاؤُهُ مقببًا، غير أنه مما يؤسف له جِد الأسف أن هذا التابوت كان قد هشم، وقد وجدت منه أجزاءٌ مختلفةٌ في أنحاء «القاهرة»، وقد جمع المتحف المصري منه خمس قطع، وقد مثل على قاع التابوت آلهة بذراعيها ممتدتين لتتسلم جسم المتوفى، وعلى خارج سطح التابوت مثلت بعض آلهة جنازية، كما وجد اسم الفرعون منقوشًا مرات عدة.

هذا، ولم يعثر من غطاء التابوت إلا على قطعتين، نقش عليهما اسم الملك ولقبه، (راجع: A.S. IV p. 105 ff.; Kienitz, Ibid. p. 206).

(٥٠) منف

تمثال للملك «نقطانب» عُثر عليه في «منف» وهو مصنوع من الديوريت وقد مثل راكعًا، (راجع: Ausf. Verz. p. 247, Mus. Berlin No. 1205).

(٥١) منف

عثر «بتري» على نقش دُون عليه لقب هذا الملك وهو «خبر-كا-رع» في قصر «إبريز» في «منف»، غير أن هذا اللقب، كان يحملُهُ كذلك الملك «سنوسرت» الأول؛ ولذلك فإن الأثر يمكن أن يكون لأحد هذين الفرعونين، (راجع: Petrié, Palace of Apries (Memphis II) p. 13 & Pls XXII & XXV).

(٥٢) منف

وفي «سقارة» وجدت قطعةٌ في مبنى دير «أباجرمايس» عليها اسمُ هذا الفرعون، (راجع: Quibell, Saqqara (1908–1910) p. 147 & pl. LXXXVI (5)).

(٥٣) منف

قطعة منقوش عليها اسم «نقطانب» الأول (راجع: Petrie, Riqqeh and Memphls VI p. 33 & pl. LVII NO 25).

(٥٤) منف

وجد لهذا الفرعون تمثال مجيب عُثر عليه في معبد الإله «بتاح»، وهو الآن بالمتحف المصري، وهذا التمثالُ مصنوعٌ من القاشاني الأخضر، وقد ظن بعض الأثريين أن وجود مثل هذا التمثال الجنازي الذي لا يوجد إلا في حجرة دفن المتوفى، يوحي بأن هذا الملك قد دُفن في «منف».

(راجع: Mariette Mon, div pl. 32, texte Maspero p. 8; Loret, Rec. Trav. Tome IV (1882) p. 110; Gauth, L.R. IV p. 191, No. 30).

(٥٥) منف

ويوجد بالمتحف البريطاني تمثال باسم «خبر-كا-رع» وهو لقب يُطلق على كل من الملكين — كما ذكرنا من قبل — «سنوسرت» الأول و«نقطانب» الأول؛ وقد ظن البعض أن

هذا التمثال هو للملك «نقطانب» غير أنه بالدرس والمقارنة وجد أنه للملك «سنوسرت» الأول.

(راجع: M.A. Murray, AncientEgypt, (1928) pp. 105–109.)

(٥٨) الأشمونين

عثر الأثري «ريدر» على تمثال أكبر من الحجم الطبيعي لهذا الفرعون، وقد مثل ماشيًا، وهو مصنوع من الحجر الجيري.

(راجع: Roeder, Hermopolis (1938–1939) Mitleilung D. Inst. p. 77–78.)

(٥٩) الأشمونين

أقام هذا الملك مبنى مدخل «بولهول» الموجود أمام بوابة «رعمسيس» الثاني بمعبد «الأشمونين».

(راجع: Roeder, Ibid. p. 79 ff. pl. 4 b, 5a, 12 b.)

(٦٠) الأشمونين

يوجد في متحف «جيميه» بباريس تمثال راكع للكاهن الأكبر لمعبد «الأشمونين» ويُدعَى «شبسس أرداس»، وكان ذلك كاهن تماثيل الملك «خبر–كا–رع» «نقطانب الأول»، (راجع: Roeder Ibid. p. 78).

(٦١) الأشمونين

عُثر في «الأشمونين» على مائدة قربان من الحجر الجيري يبلغ ارتفاعها ١٫٢٠ مترًا، وهي مستطيلة الشكل ومتوجة بكرنيش ويُشاهَد فوقها شكلُ نصف أسطوانتين، ولم يَتَبَقَّ من النقوش التي على قاعدة هذه المائدة إلا نقشٌ واحدٌ يمكن قراءته جاء فيه: يعيش الإله الكامل رب الأرضين، «خبر–كا–رع» ابن «رع» «نخت نبف» محبوب «آمون» الذي في الأرض العالية؟ القاطن في «الأشمونين» ورئيس أرض جبانة الأشمونين، (راجع: Rec. Trav. 20, p. 86).

(٦٢) الأشمونين

قطعة من تمثال للملك «نقطانب» الأول، والتمثال مصنوعٌ من الحجر الصلب، ومحفوظٌ بالمتحف المصري.

(راجع: Borchardt, Cat. Gen. Statuen Und Satuetten IV No. 1078 p. 47.)

وقد مثل هذا التمثال ماشيًا، ويبلغ ارتفاعُهُ ٥٩ سنتيمترًا.

وكل ما تبقى من النقوش على هذه القطعة هو اسم الملك «نقطانب» عاش أبديًّا «تحوت» رب «الأشمونين».

(٦٣) «وادي النخلة» (انظر رقم ٨)

وفي كفر أبو «بانوبوليس» توجد على أحد عضادتي باب مقصورة من المقاصير التي أهديت للإله «مين» (في مركز أخميم) نقوشٌ للملك «بطليموس» الثاني وللملكة بطلمية، ويفهم من هذه النقوش أنهما من سُلالة الملك «خبر-كا-رع» «نقطانب» الأول، (راجع: L.D.T. II p. 164, Sethe. Urk. II p. 27, No. 12, ComP. Gauthier L.R. IV p. 191, A. 4; Porter & Moss V p. 17).

(٦٤) العرابة المدفونة

معبد الملك «نقطانب» الأول الواقع في الجنوب الغربي من معبد «أوزير»، وقد وُجدت فيه قطعة من ودائع الأساس، وبعض قطع أُخرى من عهد «نقطانب» الثاني، (راجع: Petrie, Abydos. I p. 33 & pl. Lxx, No. 11; Vol. II p. 7 & pl. XLIX).

(٦٥) العرابة

وجد في العرابة ناووس من الجرانيت الأحمر المبرقش، وهو محفوظٌ الآن بالمتحف المصري، وقد وُجد عليه اسم كل من «نقطانب» الأول والثاني. عثر على هذا الناووس الأثري «دارسي» في العرابة المدفونة، حوالي عام ١٨٩٦-١٨٩٧م في المعبد الصغير الواقع غربي «شونة الزبيب»، وهو الآن بالمتحف المصري، وصناعة هذا الناووس دقيقة غير أن النقش الذي في داخله لم ينل عنايةً كافية.

هذا، ويُلحظ أن الجزء الأعلى من جانبه الأيمن قد هُشم، وكذلك الجزء المتصل بالسقف، هذا بالإضافة إلى بعض قطع صغيرة قد ضاعتْ منه، والناووس قطعةٌ واحدةٌ وسطحُهُ على هيئة السرج.

وأهم النقوش التي عليه ما يأتي:

(١) يُشاهَد على جداره الأيمن منظران الأول من جهة اليسار، مثل فيه الملك يحضر العدالة أمام الإله «تحوت»، وقد نقش فوق الملك: ملك الوجهين القبلي والبحري رب الأرضين «خبر-كا-رع» بن «رع» رب التيجان «نخت-نيف» ليته يُعطَى الحياة والثبات والقوة مثل «رع» أبديًّا.

ونقش خلفه الحماية والحياكة كلها حوله مثل «رع»، ونقش أمامه: «إعطاء العدالة لوالده لأجل أن يجعله يعطيه الحياة»، وقد مثل «تحوت» في هذا المنظر في هيئة قرد على رأسه قرص القمر، وقد نقش معه: «تحوت» مرشد الآلهة والإله العظيم رب السماء.

المنظر الثاني يشاهد فيه الإله «أنوريس-شو» يحضر العدالة للإله «أوزير» رب جبانة «العرابة»، وقد نُقش فوقه: «أنوريس-شو» ابن «رع» رب السماء ونقش أمامه: «إعطاء العدالة إلى أنفك يا رب الحياة يقصد «أوزير».»

ويشاهد أمام «أنوريس-شو» الإله «أوزير» واقفًا على هيئة مومية وقد نقش فوقه: «أوزير» أول أهل الغرب، «وننفر» الإله العظيم رب الأرض المقدسة ونقش أمامه: «إني أعطيك كل الحياة والقوة وكل السلامة.»

النقوش التي على الجدار الأيمن في الحجرة الداخلية للناووس:

يشاهد أولًا الملك يقدم العدالة أمام «أوزير» والإلهة «حتحور»، وقد نقش اسم الملك فوقه غير أنه هنا كتب الملك «نقطانب» الثاني، وهاك النص:

رب الأرضين «سنزم أب-رع-ستب-ن-آمون» رب التيجان «نخت حور حبت» محبوب «آمون»، ونقش أمامه: «إعطاء العدالة لوالده.»

ومن جهة أُخرى يشاهد «أوزير» واقفًا في صورة مومية، وقد نقش فوقه «أوزير وننفر» رب الأرض المقدسة (الجبانة)؛ وكذلك يشاهد خلفه «حور» وقد نقش فوقه: «حور وننفر» رب «رستاو» كما نشاهد «إزيس»، وقد نقش فوقها: «إزيس» (ربة) البيت التي ولدت رب السماء وسيدة الآلهة. ويشاهد على الجدار الأيسر من الداخل الإله «أنوريس»، وكذلك نشاهد صورة الملك «نقطانب» الثاني مهشمة، وقد بقي من النقوش التي معه ما يأتي: رب الأرضين «سنزم أب-رع-ستب-ن-آمون». وتدل شواهدُ الأحوال على أن الملك

«نقطانب» الأول هو الذي أقام هذا الناووس ونقشه من الخارج ثم جاء بعده: «نقطانب» الثاني ونقش جدرانه من الداخل.

(راجع: Mariette, Catalogue Abydos p. 552 No. 1424; Mariette Abydos II pl. 42 c.; Roeder Cat. Gen. Naos. pp. 53–5.)

(٦٦) دندرة

يوجد في بيت الولادة المبكر في مَعْبَد دندرة ثلاثة مناظر ولادة في ثلاثة صفوف في المحراب باسم الملك «نقطانب» الأول، وهذه المناظر لم تنشر بعد (راجع: Porter & Moss. VI p. 105)، وهذا هو الأثر الوحيد الذي عُثر عليه في «دندرة» من الأسر ٢٨ إلى ٣٠.

(٦٧) قفط

ناووس صنعة الملك «نقطانب» الأول للإله «مين» في «قفط»، صنع هذا الناووس من الأردواز الأخضر، ويبلغ ارتفاعُهُ ٢,١٨ مترًا، عثر عليه «كارتر» في عام ١٩٠٨ في أكوام السباخ في خرائب «قفط»، وقد نحت في قطعة واحدة من الحجر وصناعتُهُ دقيقةٌ وملساء ونقوشُهُ الهيروغليفية نظيفةٌ، غير أنها نُقشت نقشًا سطحيًّا، وقد كسر منه قطعةٌ كبيرة، (راجع: Roeder, C.Gen. pl. 15).

وقد نقش على عضادتيه المتن التالي:

على الجهة اليمنى: «حور» صاحب الساعد القوي ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع»، لقد عمله بمثابة أثره لوالده «مين» صاحب «قفط» ورب «أبو» (كفر أبو) ورب «سنوت»، لقد عمل ناووسًا من صنع ممتاز للأبدية، ومصراعاه اللذان عليه من خشب «قد» (خشب لبنان) مصفح بالذهب، وقد عمله لأجل أن يُعطَى الحياة أبديًّا مثل «رع».

ونقش على المصراع الأيسر: «حور» صاحب الساعد القوي ابن «رع» «نقطانب» الأول صنعه بمثابة أثره لوالده «مين» «حور» صاحب الذراع المرفوع (صفة من صفات «مين»)، عمل له ناووسًا من حجر «بخن» اللامع (مستخرج من الحمامات) عمله ليُعطى كل الحياة والثبات والقوة وكل السلامة وكل الانشراح مثل «رع» أبديًّا (راجع: Roeder, Cat Gen., Naos p. 55–57 & Pl. 15 & pl. 49-a–c; A.S. 6, p. 122-123).

(٦٨) قفط

قطع مختلفة عليها اسم هذا الفرعون قد استعملت في المباني.
(راجع: Champollion Lettres, p. 75-6; wedemann Gesch. p. 717.)

(٦٩) قفط

وكذلك وجدت في «قفط» قطع باسم «خبر-كا-رع»؛ أي بقلب «نقطانب»، غير أن هذا اللقب يحملُهُ كذلك «سنوسرت» الأول؛ ولذلك يشك في أمر نسبتها إلى صاحبها الحقيقي، (راجع: L.D.T. II, p. 256).

(٧٠) قفط

ووجد في هذه البلدة لوحةٌ وتابوتٌ من الجرانيت الرمادي، لكاهن تمثال الملك «نقطانب» الأول، وهذا الكاهن يُدعى «نس مين»؛ وتفسير ذلك أنه قد عثر الأهالي على مقبرة في بلدة «القلعة»، وقد فتحها «حسن أفندي حسني» مفتش الآثار، وتحتوي هذه المقبرة على حجرة تحت الأرض مساحتها ٢٫٨٠ × ١٫٥٧ × ١٫٧٠ مترًا، وهي مبنية من الحجر الجيري وملونة باللون الأصفر ونقوشها باللون الأحمر، وكانت تحتوي على تابوتين غير أنهما وُجِدَا منهوبين قديمًا، وقد عُثر على لوحة موضوعة على التابوتين مصنوعة من الحجر الجيري، كما عُثر على جعران قلب خالٍ من النقوش، هذا بالإضافة إلى لوحة أُخرى مكتوبة بالديموطيقية غير أن كتابتها غيرُ واضحة.

والتابوت المنقوش مصنوعٌ من الجرانيت الرمادي، وهو على شكل مومية واسم صاحبه «نسن مين» ابن «أرت-ثي-ر-ثاي» الكاتب الملكي، وقد نقش عليها طغراء الملك «نقطانب» الأول، وقد مثل على اللوحة المتوفى يقدم قربانًا للآلهة الأربعة التالية:

«إزيس» و«أوزير» و«آتوم» و«حرمخيس» بالإضافة إلى ستة أسطر أفقية جاء فيها ذكر نفس الاسم، كما جاء على التابوت (راجع: A.S. IV p. 49-50) وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري.

(٧١) وادي حمامات

منظرٌ يمثل «آمون رع» جالسًا ومعه متنٌ مؤرخٌ بالسنة الثالثة من عهد «نقطانب» الأول، (راجع: Couyat & Montet, Pl. VIII, p. 43; L.D. III 286 h).

(٧٢) وادي حمامات

نقش على صخر لمحاربين «مين» و«حاربوخراتس»، ومعهما كبش مقدس، وُجد هذا النقش في محاجر الملك «نقطانب» الأول والثاني أيضًا، (راجع: Couyat & Montet, Pl. VII, Porter & Moss. VII p. 336).

(٧٢) المدمود

وجد في معبد «المدمود» تمثالان لبولهول واحد مهشم، (راجع: Bisson de la roque, rapports sur les fouilles de Medamoud. p. 116 bis 118, No. (2113–16) fig, 66–69)، وقد وجد اسم «نقطانب» الأول عليها.

(٧٤) الكرنك

وجدت طغراء «نقطانب» الأول على الجانب الشرقي لمعبد «آمون».
(راجع: Cham p. Not. Descr., II, 256 & M., IIp. 71.)

(٧٥) الكرنك

البوابة الشرقية، يشاهد الملك على الجانب الخارجي يقدم صورة الإلهة «ماعت» لإله «آمون» والإلهة «موت»، (راجع: L.D. III, p. 284 k; L.D.T. III p. 37–38; Cham p. Not. Descr., II, 261–2, Mon., IV 309 No. 2).

(٧٦) الكرنك

يُشاهَد على خارج الجدار الخلفي لمعبد الإله «خنسو» الملك «نقطانب» الأول يتعبد لعدة آلهة، (راجع: Cham p. Not. Descr. II, p. 240 Wiedemann, Gesch. p. 717; Kienitz Ibid p. 209).

(٧٧) الكرنك

معبد «منتو» وجد اسم الفرعون «نخت نبف» على البوابة التي أقامها «نقطانب» الأول التي توجد داخل السور المحيط.

(راجع: Cham p. Not. Descr. II 273, L.D.T. III p. 3.)

(٧٨) الكرنك

تمثال بولهول جاثم مصنوع من الحجر الرملي، قدمه الفرعون للإله «آمون» صاحب الكرنك ومحفوظٌ الآن بمتحف «برلين»، وقد نُقش عليه يعيش «حور» صاحب الساعد القوي، والسيدتان (المسمى)، مقوي الأرضين «حور» الذهبي العين «المسمى» محبوب الآلهة ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «خبر-كا-رع» بن الشمس رب التيجان «نخت نبف» «نقطانب» الأول … إلخ.

(راجع: L.D. III 286 d–g, Ausf Verz., p. 249: Gauth. L.R. IV p. 189 No. 23.)

(٧٩) الأقصر

أولًا يوجد تماثيل بولهول التي في طريق الكباش بالأقصر، وهي التي كشف عنها حديثًا بجوار معبد الأقصر، أربعة تماثيل بولهول يبلغ طول كل واحد منها ٢٫٧٥ مترًا، نقش عليها اسم الملك «نقطانب» الأول، (راجع: III ustrated London News No. 5736, 26; March 1949 p. 417, with three Photos).

(٨٠) مدينة هابو

في الردهة الأمامية من معبد الأسرة الثامنة عشرة الذي أقامه «تحتمس الثالث» يشاهد منظر للملك «شبكا» اغتصبه الملك «نقطانب» لنفسه، حيث نُشاهد فيه هذا الفرعون الأخير يضربُ عشرةً من الأعداء أمام الإله «آمون»، وبجوار هذا المنظر نقرأُ أسماءَ ثلاثة من الأقوام المهزومين. هذا، وقد أقام الفرعون «نقطانب» الأول بوابةً في الرُّدْهة الخارجية من معبد «مدينة هابو» الواقعة بين الكشك والمعبد الرئيسي، (راجع: L.D.T. III p. 151–3; Daressy Notice explicative des ruines de medinet Habu p. 5–8, Champolion Notice descr. I, 319–321; Mon–II 197, I (196. 1?), rosellini Mon, stor. I, 154, 2).

وقد مثل الفرعون على جانب بوابته أمام الإله «آمون» وهو يقدم ثلاثة من الأسرى في كلا المنظرين.

(٨١) طود

معبد الإله منتو، وجد اسم ملك يلقب «خبر كارع»، وهذا الاسم يطلق على «سنوسرت» الأول، وعلى الملك «نقطانب» الأول — كما ذكرنا من قبل — وقد نقش الاسم على ناووس، وعلى ذلك يمكن أن يكون لأحد الملكين (راجع: Cham p. Not. Descr. I, 292., 6 & 7.; Legrain B.I.F.A.O. 12 (1916) p. 104 No. 6). هذا، ويعتقد «لجران» أن هذه الطغراء هي للملك «سنوسرت» الأول.

(٨٢) الكاب

عثر الأثري «كابار» على قِطَع من الحجر متفرقة، عليها اسمُ الملك «نقطانب» ولقبه «خبر-كا-رع» «نخت نبف»، وهو يتعبد للآلهة «نخبت»، وذلك في معبد «الكاب» الذي قام بأعمال الحفر فيه، وهذا يدلُّ على أن هذا الفرعون قد قام بإنشاء مبانٍ في هذا المعبد، أو أضاف اسمه على جدرانه، (راجع: A.S. 37 (1937) p. 6, & p. 12).

(٨٣) إدفو

انظر رقم ١، ١٢ في قائمة آثار هذا الملك، الذي نحن بصددها الآن.

(٨٤) الفيلة

معبد «إزيس» أقام الملك «نقطانب» الأول لنفسه إيوانًا عند قاعة الدخول للمعبد، أهداه لوالدته «إزيس» المبجلة في «أباتون» (جزيرة سهيل) وسيدة الفيلة وإلى الإلهة «حتحور» صاحبة «سنموت». وتدل شواهدُ الأحوالِ على أن هذا المعبد كان قد اكتسحه ماءُ النيل بعد إتمامه بمدة قصيرة، ولكن «بطليموس» الثاني «فيلادلف» أصلح الإيوان ثانية، وهذا الإيوانُ الصغيرُ الأنيقُ المنظر كان مُقَامًا على أربعةَ عَشَرَ عمودًا ذات تيجان مختلفة من النباتات، وفوق كل عمود تاجٌ على هيئة صُناجة، ولم يبق قائمًا من هذه العمد إلا ستة، وقد اختفى السقف، وكان يوجد بين العمد ستائرُ من الحجر، يبلغُ ارتفاعُ كل منها أكثر من ستة أقدام، ومزينة بكرانيشَ مفرغة وصفوف من الأصلال، وقد اعترض هذه الستائر على الجانبين الشرقي والغربي، وكذلك على الجانب الشمالي؛ أبوابُ الخروج، وهذه الستائرُ قد مثل عليها مناظر يظهر فيها الملك «نقطانب» الأول يقدم قربانًا للآلهة.

ويوجد في متحف «برلين» الآن قطعة منقوشة من هذا الإيوان عليها اسم هذا الفرعون، (راجع: L.D. III 285 a–c, I.D.I. IV p. 130–135 Aust. Verz. p. 246).

(٨٦) الفيلة

أقام كذلك «نقطانب» الأول مدخلًا في البوابة الكبرى لمعبد «إزيس» الكبير، وقد ظهر فيه هذا الملك يتعبد لآلهة مختلفة، ويقدم لهم القربان ويتقبل منهم الحياة والأعياد الثلاثينية، ونخص بالذكر من بين هؤلاء الآلهة «إزيس» و«أوزير» و«ننفر» و«آمون رع» و«ددون» (إله النوبة)، و«رع حور أختي» و«خنوم» و«ساتيس» و«حتحور» ... إلخ، (راجع: Weigall, Report on Lower Nubia, p. 37, 55).

(٨٧) الواحة الخارجة

تدلُّ النقوشُ التي وُجدت في معبد «آمون» صاحب «هيبيس» (هبت) على أن الملك «نقطانب» الأول قد أقام في هذا المعبد إيوانًا، ثم جاء بعده الملك «نقطانب» الثاني، وأضاف إليه أجزاءً.

هذا، وقد وجدت قطع أساس للملك «نقطانب» الأول في هذا المعبد، (راجع: Winlock, The Temple of Hebis in Kharga pl. III & pl. 69 left)، وفي داخل هذا الإيوان يشاهد «نقطانب» الأول بالأعلام وهو يغادر القصر، (Ibid. pl. 70 middle).

(٨٧) الواحة الخارجة

تمثال للملك «نقطانب» الأول بالفاتيكان — يوجد بمتحف الفاتيكان جزع تمثال من الجرانيت جميل الصنع، وقد نُقش على حزامه اسم الملك «نقطانب» الأول كما وجد على ظهر هذا التمثال اسمُ هذا الفرعون وألقابه: «حور» قوي الساعد، السيدتان (المسمى) منظم الأرضين «حور» الذهبي (المسمى) صانع حب الآلهة ملك الوجهين القبلي والبحري «خبر-كا-رع» ابن الشمس «نخت نبف» (راجع: Rec. Trav. 6 (1884) p. 118, Maruc-chi II, Museo egizio Vaticano No. 25 p. 48-49). هذا، ويوجد الجزء الأعلى من تمثال مصنوع من الجرانيت القاتم للملك «نقطانب» الأول، محفوظٌ الآن بالمتحف البريطاني (راجع: Guide British Museum 1909 Sculptures p. 249 No. 924)، كما يوجد تمثالٌ آخرُ في مجموعة «مندوي Manduit» في مدينة «نانت» من أعمال «فرنسا»، (راجع: Wiedemann, Gesch p. 718).

وفي «برلين» يوجد تمثالٌ راكعٌ لهذا الفرعون أصله من «منف».

(راجع: Ausfuhrliches Verzeichniss 1899 p. 247.)

وأخيرًا يوجدُ الجزءُ الأعلى من تمثالٍ ضمن مجموعة مهندس عمارة فرنسي يُدْعَى «فلاندران» (راجع: Gauthier L.R. p. 189, Note 2 b)، نقش عليه اسم هذا الفرعون.

(٨٩) تمثال بولهول

من الحجر الرملي، وهو محفوظٌ الآن بمتحف «اللوفر» (راجع: Louvre A. 29) وهو تمثالٌ جميلٌ برأسِ إنسانٍ، (راجع: De Rougé, Notice des Monuments p. 25, No. 29).

(٩٠) بومبي – تمثال مجيب

وجد للملك «نقطانب» الأول تمثال مجيب في مدينة «بومبي»، وهو محفوظٌ الآن بمدينة «نابولي»، (راجع: Champollion, Figeac, Egypte Ancienne p. 385).

(٩٠ب) رومه

تمثالان من الجرانيت يمثلان أسدين في «رومه»، نقش عليهما اسم «نقطانب» الأول، ومن المحتمل أنه جيء بهما من «عين شمس»، وقد نُصبا في «إزيوم Iseum»، وقد عُثر على واحدٍ منهما «يوجين» الرابع بالقرب من «بانتيون Pantheon»، وقد كشف عنه ثانية مع التمثال الثاني البابا «كلمنت» السابع، ثم نقلها «سكستس» الخامس إلى «فسقبة» بالقرب من حمامات الإمبراطور «دقلديانوس» ثم نقلها «جريجوري» السادس عشر إلى «الفاتيكان»، وهي الآن بمتحف «الفاتيكان» (راجع: Porter & Moss VII p. 414).

(٩١) جعارين «نقطانب» الأول

يوجد في متحف «اللوفر» جعرانان باسم «نقطانب» الأول، كما يوجد جعرانان باسمه في مجموعة «فريزر» (راجع: Petrie scarabs No. 2005-6; Fraser Scarabs p. 50, No. 422-3 & pl. XV).

ومما تَطيب الإشارةُ إليه هنا أن «نقطانب» الأول قد جمع في لقبه في نقوش جعران بين لقب «سنوسرت» الأول و«تحتمس» الثالث.

(راجع: L.R. IV p. 190, No. 27.)

ولا شك أنه كان يرمي بذلك إلى أنه أراد الجمعَ بين عظمتَي هذين الفرعونين اللذَين يُعَدَّان من أعظم فراعنة مصر من حيث السلطان.

(٩٢) اللوحات الصغيرة التي باسم «نقطانب» الأول

توجد لوحةٌ صغيرةٌ مصنوعةٌ من الخزف المطلي في مجموعة «لوفتي» باسم «نقطانب» الأول، وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف البريطاني، (راجع: Hall, Catalogue of Egyptian Scarabs etc. iu the British Museum Vol. I p. 296, No. 2815).

وقد نقش عليها رب الأرضين «خبر-كا-رع» رب التيجان «نقطانب» الأول.

(٩٣) هذا، وقد وُجدت لوحة مشابهة للسابقة، ولكن باسم الملك «نقطانب» الأول فقط، وهي محفوظةٌ في مجموعة «هلتون بريس»، (راجع: Hilton Price, Catalogue p. 46 No. 366 et Planche entre les pages 24-25).

(٩٤) لوحة أساس صغيرة

في هيئة خاتم، عليها اسم الملك «نقطانب» الأول، (راجع: Berlin Ausfuhrliches Verzeichniss 1899 p. 453 No. 1966).

(٩٥) قبضة صناجة

توجد في مجموعة «بتري» قبضة صناجة عليها اسم الفرعون «نقطانب» الأول، محفوظةٌ في مجموعة «فلندرز بتري»، (راجع: Petrie History III p. 386).

(٩٦) قطعة من قبضة صناجة

محفوظة في مجموعة «ناش» عليها اسم «نقطانب» الأول، (راجع: Nash PSBA, 30 (1908), p. 293 No. 26, PL. II).

وقد نقش عليها «خبر-كا-رع» محبوب الإله «أنوريس» و«نقطانب» محبوب الإلهة «حقات».

(٩٧) ثقالة عقد منات

باسم هذا الملك موجودة في مجموعة «بتري»، (راجع: Petrie, Hist. III p. 386).

(٩٨) ختم من الخزف الأخضر

عليه اسم «نقطانب» الأول (Ibid) (انظر كذلك كتاب بتري عن الجعارين والأسطوانات حيث تجد فيها قطعًا صغيرة باسم هذا الفرعون) (راجع: Petrie, Scarabs and Cylinders, p. 33, 40 & pl. L. VII 30, 1 (1–5))، يَبلغ عددُها اثنتي عشرة قطعةً باسم هذا الفرعون،

موجودة في متاحفَ مختلفة، خمسةٌ منها في ينيفرستي كولدج بلندن، وواحدة في المتحف البريطاني، واثنتان بمتحف القاهرة، وواحدة بمتحف ميونيخ.

(٩٩) نموذج باب من الخشب

سفح بالسام على هيئة ناووس محفوظ الآن بالمتحف البريطاني، (راجع: B. Mus. Guide (1909) p. 266 No. 38255).

(١٠٠) إفريز جميل من البازلت

مثل عليه الفرعون «نقطانب» الأول، وهو يقدم القربان لآلهة مختلفة ونقش عليه اسم الملك ولقبه، عُثر على هذا الإفريز في «روما» عام ١٧٠٩م، في خرائب «مونت أفنتن Mont Aventin» وهو محفوظ الآن في متحف «شيفيكو Civico» بمدينة «بولونيا Polonga»، (راجع: Young, Hierogliphic. pl. IX; Lucas Alan Rowe, A.S. 1938 p. 139 & Porter & Moss VII p. 415).

(١٠١) إفريزٌ من البازلت محفوظٌ بالمتحف البريطاني، (راجع: Petrie Hist. III p. 286).

(١٠٢) لوحةٌ صغيرةٌ مكتوبةٌ بالخط الديموطيقي، محفوظة بمتحف «برلين» وقد نُقش عليها اسم الملك «نقطانب» الأول، (راجع: Wiedemann Agyptische Geschichte p. 718).

(١٠٣) قطعة منقوشة من بوابة معبد بالمتحف البريطاني نُقش عليها اسم «جاديانو Gaddiano» بمدينة «فلورنسا» وقد نُقش عليها اسم الملك «نقطانب» الأول، (راجع: Kirscher Oedipus III p. 385; Gauthier L.R. IV p. 190 A. 2).

(١٠٤) قطعةٌ منقوشة من بوابة معبد بالمتحف البريطاني، نُقش عليها اسم «نقطانب» الأول، (راجع: Arundale–Bonomi, Gallery of Antiquities Pl. 45, fig. 167 above).

(١٠٥) تمثال القاضي الأعلى «حورسا إزيس» وكاهن تمثال الملك «نقطانب» الأول، هذا التمثال يوجد بمتحف «برلين» Berlin Museum No. 21596 وقد كتب عنه الأثري «مولر» بمناسبة علامة العدالة عند المصري القديم، (راجع: Möller A.Z. 56 (1920) p. 67, Bosse, Menschliche figur p. 40 No. 92 & Pl. Vc).

(١٠٦) جذع تمثال من البازلت لفرد يُدعَى «حورسا إزيس» الذي عاصر الملك «نقطانب» الأول، وهذا الأثر موجود الآن بمتحف «موسكو» (راجع: Turajeff University of moskau, Egypt, Coll. 1; Ancient Egypt,1920 p. 125).

وقد مثل هذا الرجل بصفته القائد الأعلى، ويحمل حول رقبته صورة العدالة، (راجع: ما كتب عن ذلك في الجزء التاسع مصر القديمة).

هذه هي بعضُ آثارِ الملك «نقطانب» الأول التي كُشف عنها حتى الآن، وفي اعتقادنا أن الجمَّ الغفير من آثار هذا الفرعون لا يزال مختبئًا تحت تربة أرض الكنانة، كآثارِ غيره مِن عظماء ملوك «مصر» الذين بنوا مجدها الغابر، ومهما يكن من أمر فإن ما استعرضناه من آثار هذا الفرعون يدل دلالة واضحة على أنه قد قام بنهضة جديدة في البلاد، بعد النكسة التي انتكستها على أثر دخول الفرس فيها.

ولا غرابة في ذلك؛ فإن ما لدينا من معلومات وصلت إلينا عن طريق الكُتَّاب الإغريق، وما لدينا من الآثار المكتشفة له يدل دلالة واضحة على أنه قام بنهضة جديدة في كل نواحي العمران، وبخاصة في العمارة والفن وإحياء معالم الدين، بعد أن كان قد أصابها الإهمال والعبث، ومن الآثار التي تركها لنا نفهم أنه وثب بالفن وثبة واسعة وضرب بسهم صائب في العمارة، وبخاصة إقامة المعابد التي عفا عليها الزمن.

وتدل شواهد الأحوال بما تركه لنا من آثار على أنه كان يريد مجاراة عظماء ملوك «مصر» الذين سبقوه، وبخاصة أولئك الذين وضعوا الأسس لإحياء مجد «مصر»، والسير بها في طريق بناء الإمبراطورية المصرية، وأكبر دليل على ذلك أنه تَلَقَّبَ بقلب «سنوسرت» الأول واضع أُسُس الإمبراطورية المصرية في عهد الأسرة الثانية عشرة، كما ضم إلى لقبه «تحتمس» الثالث الذي وصلت في عهده الدولة المصرية إلى أوج عظمتها وسؤددها.

والواقع أن «نقطانب» الأول قد جمع في صفاته وأخلاقه ما يجعله يتمثل بهذين الملكين العظيمين، وينحو نحوهما في إحياء مجد «مصر» وإقالتها من عثرتها، غير أنه كان كالقلب السليم في الجسم العليل الذي أضعفتْه الأمراضُ، وقد أراد بَثَّ الحياة في هذا الجسم المتداعي، فلم يكن له قبل بذلك إلا مدةٌ قصيرةٌ لم يلبثْ بعدها الجسمُ أنْ مات، ومعه مات القلبُ الفتي، وذلك على الرغم من مُحاولةٍ خليقةٍ بالسير في الطريق الذي رسمه لمجد بلاده. فقد كانت دولةُ الفرس لا تزالُ قوية، وكانت دولةُ اليونان آخذةً في الظهور بما لديه من قوة فنية، وبخاصة عندما أخذ بنظامها إسكندر الأكبر، الذي قضى على كل الممالك العظيمة في عهده، وأسس أعظم إمبراطورية في العالم القديم.

أسرة «نقطانب» الأول

إن كل ما نعلمُهُ عن أُسرة الملك «نقطانب» الأول «نخت نبف»؛ هو ما وصل إلينا من النقوش التي دُوِّنَتْ على التابوت رقم ٧ بمتحف «برلين»، وهو لقائدٍ أعلى يُدْعَى «نخت نبف» «نقطانب»، عاش في عهد البطالمة الأُوَل، وكان جده لأمه قد تزوج إحدى أخوات الملك «نقطانب» الأول، (راجع: Ausfuhrliches Verzeichniss 1899 p. 272; sethe, hieroglyphische Urkunden der Griechesch Romischen Zeit, p. 24–26).

والده: وقد جاء على هذا التابوت اسمُ الملك «نقطانب» الأول كما يأتي:

ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» ابن الشمس «نخت نبف»، وقد جاء اسم والد «نقطانب» الأول على هذا التابوت، وهو «نخت حور» في المتن التالي:

الأمير الوراثي والحاكم الملكي والد مَلِك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» ابن الشمس «نخت نبف» المرحوم واسمه الكبير = «تحوت حور»؟ وقد أراد الأثري «بركش» أن يرى في اسم والد الملك «نقطانب» الثاني وهو «تحت حرر» أنه هو الملك «زحر» بوصفه أنه هو ابنُ الملك «نقطانب» الأول غير أنَّ الكشوف الحديثةَ قد قلبت الأوضاع — كما ذكرنا من قبل — فقد أصبح «نقطانب» الأول هو «نقطانب» الثاني والأخير هو «نقطانب» الأول.

أخته: وجاء اسم أخت الملك «نقطانب» الأول على هذا التابوت، وهي «مريت حابي».

زوج أخته: وهو الأميرُ الوراثي، والحاكم في المقاطعة، واسمه «نس بادد».

بنت أخته: تُدعى «تيخابس».

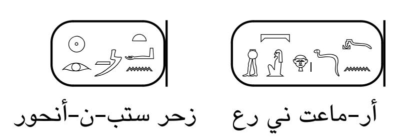
حمو أخته: يُدعَى الأمير الوراثي والحاكم ... «بدي آمون» المرحوم.

حفيد أخته: وهو صاحبُ التابوت، فكان يُدعَى «نخت نبف»، كما جاء في المتن التالي:

الأمير الوراثي وحاكم «ثارو» («تل أبو صيفة» الحالي)، والقائد الأعلى لجيش جلالته وكاهن الإله «بتاح» القاطن في «بنت» المسمى «نخت نبف» المبرأ لدى ...

وكان حاكم «ثارو» هذا هو القائد الأعلى، وكاهن «بتاح»، ويحمل اسم خاله الثاني، وهو الملك «نقطانب» الأول، والواقعُ أنه كان يشغلُ مكانةً عظيمةً في بلاط البطالمة الأول، (راجع: Gauthier, L.R. IV p. 192, Ausf. Verz p. 272; Sethe, Urkunden p. 24–26).

الفرعون «تاخوس» «تيوس» أو «تاوس» باليونانية و«زحر» بالمصرية



أر-ماعت ني رع   زحر ستب-ن-أنحور

أطلق الإغريقُ في معظم كتاباتهم على اسم «زحر» لفظة «تيوس» أو تاخوس، (راجع: Giod. XV. 90 ff. Plutarch, Life of Agesilas Cha p. 36 ff.).

وقد ظن الأثري «بركش» (راجع: Histoire d'Egypte, p. 283)، أن «تيوس» على حسب ما جاء على التابوت رقم ٧ السالف الذكر هو ابن «نقطانب» الثاني، ولكن ذلك رأيٌ خاطئٌ، على أن الحوليات الديموطيقية تقول: إن «تيوس» هو أحدُ أبناء «نقطانب» الأول على حسب الرأي القديم، و«نقطانب» الثاني على حسب الرأي الجديد، والواقعُ أن الكُتَّاب الإغريق لم يُقَدِّمُوا لنا أيَّةَ معلوماتٍ عن علاقته بالنسبة لسلفه، ولكن تقول: إنه ابن أخيه، أما الآثار المصرية — وهي نادرةٌ جدًّا — فلم تحدثْنا قَطُّ عن العلاقات الأُسرية التي كانت بين هؤلاء الملوك المختلفين في هذه الأسرة.

وقد حكم «تاخوس» مدة عامين من ٣٦١–٣٥٩ق.م (راجع: Unger Chron., des Manetho, p. 309).

وتَدُلُّ ما لدينا من معلومات على أن الملك «نقطانب» الأول لم يهاجمه ملك الفرس «منمون» بعد عام ٣٧٤-٣٧٣ق.م، والواقع أننا لم نجد من جهة أخرى أي أثر يُحدثنا أنه فكر حتى في القيام بالهجوم على قواد ملوك «مصر»، ولكن الملك «زحر» أو «تاخوس» الذي

تولى عرش البلاد بعد «نقطانب» الأول، قد اتخذ لنفسه سياسة جديدة مع عاهل الفرس، فنجد أنه لم يتبع سياسة الدفاع عن نفسه وحسب، بل أخذ مهاجمة الفرس، واشترك معه في ذلك قائد أثيني، كما طوى تحت لوائه ملك «أسبرتا» وجلب إلى «مصر» عددًا عظيمًا من جنود الإغريق المرتزقين المشهورين بشجاعتهم؛ ولذلك نجد أنَّ «مصر» في عهد هذا الفرعون الجديد — خلافًا لِما سارتْ عليه في الماضي في عهود «نفريتس» و«أوكوديس» و«نقطانب» الأول، وحتى فيما بعد في عهد «نقطانب» الثاني — كانت هي البادية بالهجوم على أملاك الفرس، وقد ذكر لنا «ديودور» ذلك بوضوح وجلاء، (XV. 90, 2)، يُضاف إلى ذلك أن هذا الاتجاه المصري قد جاء ذكرُهُ في حياة «أجيسيلاس»، (راجع: Ps. Xen. Ages, II, 28).

ولا نِزاع في أنَّ هذا الموقفَ الذي اتخذه «تاخوس» إزاء الفُرس؛ كان أولَ دليلٍ على قوة شخصيته، فقد كان في الحق ملكًا لم تقفْ أطماعُهُ وآمالُهُ عند أفق «مصر» الضيق، ويُلحظ أنه في بحثه للوصول إلى الطُّرُق والوسائل لنيل مآربه لم يتردْ بوحيٍ من مستشاريه الأجانب في تحطيم بعض التقاليدِ الوطنية.

والآن يتساءلُ المرءُ عن الموارد التي ذهب «تاخوس» ليحصل عليها من بلاد الإغريق، والجوابُ على ذلك سهلٌ بسيطٌ؛ إذ نجد أنه نال أولًا معاضدة غير مباشرة من جزء من سكان «آسيا» من الإغريق القاطنين هناك، والظاهرُ أن كلًّا من الطرفين كان على استعدادٍ للاتحاد معًا لمحاربة عاهل الفرس الجبار، ولكن مما يؤسَف له جد الأسف أنه ليس لدينا أية معلومات محددة عن هذا الموضوع، وينحصر ما قاله «ديودور» في هذا الصدد في أن هذه المدن لم تقم بشيء إلا التحريض الذي حثها عليه شطاربة الفرس في «آسيا الصغرى»، وسنرى أن هذه المدن — على العكس — قد ساعدت الحملة التي قام بها «أوكوريس» عاهل الفرس على «مصر» في عهد الملك «نقطانب» الثاني حوالي عام ٣٤٣–٣٤٢ق.م.

وقد كان أول ما عمله «تاخوس» هو أنه ولى وجهه شطر «أوروبا» باحثًا عن حلفاء له، فأرسل حوالي شتاء عام ٣٦٠–٣٥٩ق.م إلى «أثينا» بعثة من أجل ذلك، وقد بقي لنا جزءٌ من نقش يدل على ذلك، (Ig. II 60)، وقد عرفنا منه اسم السكرتير السنوي وأسماء السفراء، وقد كان من بينهم إغريقيٌّ يُدعَى «أبولودوروس»، وهذا دليلٌ على أن «تاخوس» الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، كان له مستشارون إغريق، وكذلك كان له سفراء وقواد من الإغريق.

هذا، ولم يصل إلينا شيءٌ عن الأسباب التي قَدَّمَتْها هذه البعثةُ المصرية، كما لم يصل إلينا الخطب التي كان من الممكن أن تُلقى في الجمعية الشعبية في «أثينا»، وهي التي

تُسَمَّى «إكليزيا Ecclesia»، وكذلك لم تقعْ في أيدينا النقوشُ أو ما قاله المؤرخون والخطباء الأثينيون، ولكن يحدثنا كلٌّ من المؤرخين «ديودور» و«بلوتارخ» عن النتائج الأساسية التي حصلتْ عليها هذه البعثة، وتدل الظواهرُ على أن «أثينا» كادتْ أن تتخذ موقفَ الحِياد في هذا الموضوع، فلم ترسل جنودًا أو بحارة أو قُوَّادًا بصورة رسمية إلى «مصر»، غير أنها لم تحرم على المتطوعين الذهاب إلى «مصر»، وكذلك سمحتْ للقائد «خابرياس» أن يُسافر إلى «مصر»، وذلك بعد أن عرف الفرعون كيف يُمكنُهُ أن يقربه إليه ويجعله يخدم في جيشه، (راجع: Diod. XV, 92, 3; Plutarch. Xgesilas 37–40).

ومن ثم نرى أن «أثينا» بهذه الكيفية لم تقطعْ علاقتَها صراحةً مع عاهل الفُرس، ولكنها في الوقت نفسه جندتْ بطريقة غير مباشرة جُنُودًا مرتزقين حاربوا في صف فرعون «مصر»، وقد ظَلَّ موقف «أثينا» هكذا إلى حَدٍّ يتفق مع موقف «لاسيدمون» التي كانت وقتئذٍ مناهضة لسياسة ولاية «طيبة»، والواقع أنَّ أهالي «أسبرتا» قد انحازوا إلى جانب الفِرْعون «تاخوس»، وكان قد طلب إليهم مساعدتَه على الفرس (Diod., XV, 90, 3).

ويرجع سبب انضمام «أسبرتا» إلى «مصر» إلى عدة أسباب، والسبب الأول — على حسب ما رواه «ديودور» (Diod., XV, 90, 2) — هو ما أظهره ملك الفرس من قبل الأهل «مسيني» بعد موقعة «مانتيني»، وقد كان ذلك صدمة لأهل «أسبرتا» (Diod., XV, 89, 1-2)، ولكن قبل ذلك ببضع سنين؛ أي في عام ٣٦٨–٣٦٧ق.م كان وفد «طيبة» الإغريقية الذي ذهب إلى «سوسا» طالبًا المساعدة الفارسية على الأسبرتيين، قد لاقي نجاحًا عظيمًا، ولَمَّا كانت «أسبرتا» قد فقدتْ صداقة ملك الفرس؛ فإنها انتهزتِ الفرصةَ السانحةَ بسرورٍ بالغٍ عام ٣٦٠–٣٥٩ق.م لتنتقم لنفسها بمساعدة فرعون «مصر» «تاخوس» على الفرس. هذا فضلًا عن أنها لم تكن غافلةً عن الفوائد المالية التي كانت ستجنيها من محالفتها مع فرعون «مصر» (راجع: Plutarch, Ages. 34–40).

وقد حققت الأيام فعلًا أمل ملك «أسبرتا» المسمى «أجيسيلاس»؛ إذ قد قدمت له «مصر» مساعدة مالية وفيرة، ومن ثم قررت «أسبرتا» أن تُرسل ألمع قائدٍ حربي لديها، وهو ملكها «أجيسيلاس»، وقد سافر يصحبه مجلسٌ مؤلفٌ من ثلاثين أسبرتيًّا وجيشًا صغيرًا، (راجع: Diod. XV, 92, 2; Plut. Ages. 36).

ويروي لنا «ديودور» أنَّ تدخل «أجيسيلاس» هذا بهذه الصورة، قد سبب قيامَ عاصفة عاتيةٍ من الشعب الإغريقي؛ فقد قالوا إن مثل هذا التصرُّف يُعَدُّ أمرًا لا يليق بمكانة أحسن قُوَّادِ الإغريق، فقد كانوا يَرَوْنَ أن ذهابَهُ ليحارب كجنديٍّ مرتزق تحت راية ملك أجنبيٍّ

همجيٍّ خارجٍ على سيده ملك الفُرس؛ أمرًا مزريًا بكرامتهم. والواقع أن هذه الضجة لم تكن صادرةً عن إخلاص، بل كان المقصودُ منها أن أسبرتا كانتْ وقتئذٍ مكروهةً كُرْهًا شنيعًا مِن كثيرٍ من الإغريق، وبخاصة من أهل «طيبة» وحُلفائها، وإذا فحصنا تهمة ذهاب «أجيسيلاس» لمعاضدة همجي ثائر على مليكه، فلا يشك الإنسانُ في أن يد الفرس كانت تلعبُ مِن وراء الستار، وبخاصة عندما نعلم أن هذه التهمة كان مصدرها «طيبة» حليفة الفرس وقتئذٍ المتحمسة لمصالحها، وتحال عليها مع الفرعون «تاخوس» وأنصاره.

وفضلًا عن المحالفة التي عقدتْ بين «أسبرتا» و«مصر»، وما جنته «مصر» من انضمام «خابرباس» لها فإن الأخير قد جند لفرعون «مصر» «تاخوس» جيشًا عظيمًا من الجنود الإغريق المرتزقين (راجع: Diod. XV, 90, 2). هذا، ويقول «بلوتارخ» إن «أجيسيلاس» قد جمع في بلاد الإغريق نفسها جُنُودًا لمساعدة «مصر»، وذلك بفضل المدد المالي الذي أرسله إليه الفرعون، (Ages. p. 36).

هذا، ويحدثنا «ديودور» أن «أجيسيلاس»، قد أرسل من قبل «أسبرتا» مزودًا بألف مقاتل كلهم من أهل «لاسيدمونيا» التي كانت تُعَد منبعَ الجُنُود المرتزقين الأبطال، ومما يؤسَف له أن «ديودور» لم يقدم لنا معلوماتٍ محددةً عن هذا الموضوع، ومن المحتمل أن «أسبرتا» لم تُوفِدْ مِن قِبَلِها إلا «أجيسيلاس»، ويجوز كذلك أنها كانت قد أرادت أن تقوي تحالُفها مع «تاخوس» فرعون «مصر» بإرسالِ جيشٍ صغيرٍ وطنيٍّ يمثلها.

وعلى أية حال فإن أَلْفَ المقاتل الذين كانوا مع «أجيسيلاس» لم يكونوا يؤلفون إلا جزءًا من عشرة أو من أحد عشر من الجيش الإغريقي الذي كان قد جمعه ملك «مصر»، (راجع: Diod. XV, 92, 2)، أما الجيش المصري الذي أَعَدَّهُ الفرعون «تاخوس» من المصريين ليحارب جنبًا إلى جنب مع الجُنُود المرتزقين، فكان يبلغ ثمانين ألف مقاتل من المشاة (XV, 92, 2)، وإذا قُرن هذا الجيشُ بالذي جمعه فيما بعد خلفه الملك «نقطانب» الثاني، وهو مائة ألف محارب، من بينهم عشرون ألفًا من المرتزقين وعشرون ألفًا من اللوبيين، وستون ألفًا من المصريين (Diod. XVI, 47, 6)، فإن الإنسان يلحظ في الحال أن العنصر الإغريقي في جيش «تاخوس» كان قليلًا نسبيًّا، ويتساءل المرءُ الآن هل كان «تاخوس» يريد أن يؤلف لنفسه سلطانًا أكثر استقلالًا وأشد قوة؟ وهذا أمر جائز، ولكن لا يغيب عن الذهن أن الجنود المرتزقين كانوا يكلفونه مبالغَ باهظة من المال والعتاد، والظاهر أن «تاخوس» قد صرف — على ما يظهر — أموالًا أكثر من التي صرفها سلفُهُ؛ إذ كان لزامًا عليه أن يمون الحلف الذي كان مُعاديًا لملك الفرس، والظاهر أنه قد أعطاه مبلغ خمسمائة تلنت من الذهب دون نتيجة (Diod., XV, 92, 1).

يضاف إلى ذلك أن ما صرفه على أُسطوله كان أكثر جدًّا من المبالغ التي صرفها «نقطانب» الثاني، أو التي صرفها أيُّ فرعون ممن سبقوه من أُسرته؛ إذ قد أرسل إلى حلفائه خمسين سفينة حربية طويلة، هذا إلى أنه أنزل بوجه خاص في البحر مائتي سفينة حربية (Diod. XV, 92, 1–2).

والواقع أن مثل هذا المجهود الذي بذله «تاخوس» لم يكن مبالغًا في تقديره؛ لأنه كان قد أراد أن يضمن لبلاده مواصلات حرة مع «فنيقيا» و«سوريا»، وينتزع السيادة البحرية من عدوه ملك الفرس الذي كان في استطاعته أن يعبئ ثلاثمائة سفينة حربية، والظاهر — على ما يحتمل — أن الأهمية العددية في الجُنُود المرتزقين في الجيش المصري قد تأثرتْ بعض الشيء.

ولا يخامر المرء أيُّ شَكٍّ في أن جيشًا قويًّا وأُسطولًا عظيمًا يقود كلًّا منهما قائدٌ من أحسن قُوَّاد هذا العصر، كان في استطاعتهما أن يهددا السيادة الفارسية في آسيا الغربية، فقد كان الفرعون «تاخوس» يُساندُهُ القائد «خابرياس» بقوة بأسه، كما كان «أجيسيلاس» ملك «أسبرتا» ورعاياه يعاضدونه بكل قوة وحماس لتنفيذ مأربه ونيل أطماعه.

وقد كان نفوذ القائد «خابرياس» ذا حدين؛ فقد نصب أولًا على رأس الأسطول المصري، (راجع: Diod. XV, 92, 36; Plut. Ages. 37; Neos, Chabrias, 2).

وكذلك نجد أنه قد أدخل تحسينات جيدة في تسليح الجيش كما مرن بمهارة البحارة المصريين (Polyen. Strat. III 7, 13, 14). وثانيًا نجد أن «تاخوس» قد اتخذه مستشارَه المالي، فكانت سياسة البلاد المصرية المالية على حسب توجيهاته، والواقع أنها كانت شديدة الوطأة على المصريين؛ إذ كانت تعتبر نسبيًّا جديدة في بابها، ولكن بواسطتها فقط أمكن الفرعونَ أن يموت مشروعُهُ الضخم لمناهضة الفرس.

(Ps. Aristoteles, Economique II, 25, 37, Polyen. Strat. III 115; Maspero Hist. p p. 759–760; Baillet, Le Regime Pharaon. Dans ces Rapports avec l'evolution de la Morale en Egypte p p. 76, 280; Cavaignac. p. 321, Judeich, p. 321, Judeich p. 165).

وقد كان أول ما فعله «خابرياس» أنه فرض الضرائب على الكهنة، وكان في بادئ الأمر قد اقترح إلغاءَ وظائف الكهنة؛ حتى تضع الحكومةُ يدها على المبالغ التي كانت تُصرف على القربان وعلى تموين المعابد، ولكن لم يجسر أحدٌ على السير قُدُمًا لاتخاذ مثل هذه الإجراءات لتغطية الموقف، ولكن فضل على هذا المشروع الاستيلاءُ على تسعة أعشار

الدخل المقدس خلال مدة الحرب، وفضلًا عن ذلك نصح «خابرياس» الفرعون بأن يزيد من الضرائب التي كانت تُجبى من البيوت، ومن المصانع ومن بيع الغلال والحرف والتجارة النهرية، هذا إلى زيادة في جزية الرءوس. وأخيرًا: أجبر الشعب المصري، ليضمن دفع أجور الجنود المرتزقين، على أن يورد للخزانة كل ما يملكه من ذهب وفضة على أن تُدفع لهم هذه الأموال تدريجًا، وذلك بشروط خاصة، وبالاختصار فإن أملاك المعابد ورءوس المال ودخل الصناعة والأرض والتجارة، وبوجه عام: كل المصادر الرئيسية للثورة المصرية كان لا بد أن تمد بسخاء الجيش والأُسطول ليقوما بأعبائهما.

ولا نزاع في أن هذه الظاهرة كانت أَهَمَّ الأحداث التي وقعت في عهد الملك «تاخوس»، وهذا الإجراءُ الماليُّ القاسي الذي اتُّخذ في عهد «تاخوس» كان يُعَدُّ — من بعض الوجوه — ثورةً في اقتصاد البلاد، ومع ذلك يجدر بنا ألا نبالغ في شيء بالنسبة لهذا الموضوع، فقد أظهر الأثري «ببيه» (Baillet, Ibid., p. 280) ما في تأكيدات «ديودور» في هذا الصدد من مبالغة، والواقع أن الملوك كانوا يأخذون من دخل ضِياعِهِم المال الذي كان يُستعمل في حروبهم، ولإمداد قُصُورهم وبذخهم، وللهدايا التي كانوا يُغدقونها على عظماء الرجال الذين كانوا يشرفون بلادهم بأعمالهم العظيمة، هذا بالإضافة إلى ما كان للمُلُوك من دخل غزيرٍ خاصٍّ، ومن ثم كانوا لا يثقلون عبء الأفراد بالضرائب (Diod. I, 73, 6).

ولا نزاع في أنه كانت توجدُ فعلًا أمثلةٌ عن أملاكٍ خاصةٍ موقوفة على تموين المعابد، وكان عليها — بوجه خاص — أن تقدم لفراعنة مختلفين ضرائب نوعية وأموالًا، (Baillet, Ibid. 76)، ومن ثم استخلص «ببيه» (p. 28) السياسة التي نصح بالسير على مُقتضاها «خابرياس» واتَّبَعَها الفرعونُ «تاخوس»، وهي التي كانت تُعَد تجديدًا وهذا أمرٌ مبالغٌ فيه؛ إذ لم تكن أكثرَ من وضع أساسي للضرائب، ولكن لا نزاع في أنه كان يوجدُ تجديدٌ عظيمٌ على الأقل بالنسبة للكمية التي كانت تُجبى، وكذلك في تنوُّع الدخل المفروض، أو في زيادة الضرائب، وفي الحق نجد أن الملك «تاخوس» قد نشر ونظم سياسةً ماليةً، كانت حتى زمنه غايةً في التردُّد وعدم التماسُك، هذا فضلًا عن أنها كانتْ محدودة.

ومما يدل تمامًا — على أية حال — على الصبغة الثورية للقوانين التي أصدرها «تاخوس»، هو أنها كانتْ مِن صُنع وبإيعاز مواطن أثيني غريب عن «مصر»، لا يربطه بها أيُّ تقليدٍ محلي، حقًّا كان لذلك التقليد سوابقُ، ولكنها كانت متواضعةً جدًّا، والسوابقُ على أية حال ليست بتقليد.

ويُلحظ هنا أن المقاومة التي أبداها أصحابُ الشأن، ويحتمل كذلك التي أظهرتْها الإدارةُ المصرية لم تكن عديمةَ المفعول، بل كان أثرُها ظاهرًا واضحًا، فمِن ذلك إيقافُ المنهج المجحف الذي قدمه «خابرياس» وكان يقضي بمحو كل طوائف الكهنة تقريبًا، والاستيلاء على كل أملاكهم، وعلى أية حال فإن النظام الذي اتبع — بفضل ما أظهره «تاخوس» من صلابة — كان يقرب كثيرًا من هذا المنهج ويبعد عن الامتيازات التي كانت قائمة وقتئذٍ.

وأخيرًا نجد أنه في حين كان بعضُ أسلافِ «تاخوس» مثل «أماسيس» يستعينون على دَفْعِ أُجُور جنودهم المرتزقين الكثيرين بالأخذ من دخل المعابد الرئيسية فقط (Baillet p. 76)؛ فإن «تاخوس» قد استعان في ذلك بما في أيدي الأفراد من ذهب، ومِنْ ثم نرى أن الخزانة العامة كانت تستمد مواردَها من مصادرَ أكثر تَنَوُّعًا وأكثر عددًا مما كانت عليه في عهد الفراعنة القُدَامى، على أن سياسة «تاخوس» المالية كانت في ذلك الوقت محدودةً بدرجةٍ عظيمة.

ومما يجدرُ الإشارةُ إليه هنا أن سياسة «تاوس» مع القائد «خابرياس» كانت ودية، في حين أنها كانت مع «أجيسيلاس» أَقَلَّ مودة، ويدل ما رواه لنا «بلوتارخ» (Ages. p. 36) مما جمعه من الروايات التي تصف الاستقبال الذي أَعَدَّهُ الملك «تاخوس» للملك «أجيسيلاس» المسن، على أنه كان استقبالًا رائعًا؛ فقد كان في استقباله عظماء رجال البلاط الذين أوفدوا خصيصًا لتشريف مقدمه، وكذلك حملة الهدايا الكثيرة القيمة، والجماهير العديدة الذين كانوا ينتظرون مقدمه بشغف بالغ، على أننا لم نلبث أنْ رَأَيْنَا القوم قد ظهرتْ عليهم أماراتُ دهشة ممزوجة باحتقار؛ وذلك لأن المصريين كانوا متعودين على أُبَّهَة الملك الفرعوني وجلاله، فقد استولى عليهمُ الذهولُ عندما رأوا ملكًا حقيرًا رث الملبس غاية في البساطة، وليس في منظره ما يَدُلُّ على أبهة الملك وعظمته.

ومن الجائز أن التناقُض الذي تجلى بين الترف المصري والبساطة الساذجة الإغريقية الصامتة؛ قد أثار غضبَ «أجيسيلاس».

والواقعُ أن اتصال «أجيسيلاس» المباشر مع الفرعون «تاخوس» كان أعمق من مظاهر الأبهة والفخفخة، فقد كان مجيئُهُ لأرض الكنانة ليبحث في موضوعات أكثر خطورة من إذكاء غضبه وحنقه، ويحدثنا في ذلك «بلوتارخ» فيقول: إنه لَمَّا كان «أجيسيلاس» معتزًّا بماضيه الفاخر وشاعرًا بقيمته الحربية العالية؛ فإنه كان يأمل أن يقود العمليات الحربية على الفُرس بوصفه السيد المسيطر عليها، غير أن «تاخوس» لم يمكنه من ذلك فكان مثلُهُ

في هذا كمثل القائد الفارسي «فارنا بازوس»؛ إذ لم يرد أن ينزل عن سُلطانه الفرعوني ليضعه في يد رئيس جنود مرتزقين.

وهذا القرار الذي اتخذه «تاخوس» بالنسبة لقيادة الجيش، وهو قرارٌ يمكن مناقشتُهُ من الوجهة الحربية، ويمكن تفسيرُهُ إلى حَدٍّ ما من الوجهة السياسية، فنجد أنه بينما كان القائدُ «خابرياس» على رأس الأُسطول الذي دَرَّبَ جنوده على فنون الحرب كان «أجيسيلاس»، قد رأى أن وظيفته تنحصر في قيادة الجنود المرتزقين، أما «تاخوس» الفرعون فكان قد حفظ لنفسه القيادةَ الخاصة لجنوده الوطنيين، هذا بالإضافة إلى الإدارة لعامة للحرب كلها، (راجع: Diod. XV, 92, 3 cf; Plut. Ages, 37).

ومن ثم كانت المرارةُ التي أَحَسَّ بها ملك «أسبرتا» «أجيسيلاس»، وقد حاول أن يمحو تأثيرَ القرار الذي اتخذه «تاخوس»، وذلك بأنه نَصَحَ بأن ينظم العمليات الحربية كما يأتي:

لَمَّا كان الغرضُ الأولُ هو القيام بحرب هجومية، فإنه كان على الفرعون أن يبقى في «مصر»، وأن يدير قواده الحرب، ولكن هذا الاقتراح لم يلق أي نجاح في نظر «تاخوس» (Diod., XV, 92–3)، والواقعُ أنَّ الفرعون «تاخوس» كان يقصد أنْ يكون مثله كمثل الملك «أوكوس» فيما بعد؛ أي يكون القائد والملك في آنٍ واحد، ولَمَّا شعر «أجيسيلاس» بأنه قد خُدع لم ير بُدًّا من الخضوع أمام إرادة الفرعون، وعلى أية حال لم يكن هو البادئ بالثورة التي قامتْ فيما بعد.

وفي ربيع عام ٣٥٣ق.م بدأت الحرب بين «مصر» و«فارس»، وقد ابتعد الجيشُ الإغريقي المصري مسافة كبيرة عن الحدود المصرية، ووصل الأسطول إلى «فنيقيا» عن طريق البحر (Diod. XV, 92, 3) وبهذه الحركة قطعت الطريقُ البحرية عن الجيش الفارسي، غير أنَّ العمليات الحربية لم تقتصرْ على دائرة الشاطئ؛ إذ كان «تاخوس» قد أرسل ابن أخيه «نقطانب» على رأس جيش مصري، وقد بدأ هذا الجيش يُحاصر مُدُن هذا الإقليم (Diod. XV, 92, 4)، وقد امتدت الفُتُوحُ المصريةُ نحو الشرق، وكانت هذه المرحلة من الحُرُوب التي نشبتْ بين «مصر» المستقلَّة ألمع مرحلة في حروبها التي شنتها على ملك الفرس العظيم.

وفي غمرة هذا النصر انفجرتْ ثورةٌ على الملك «تاخوس»؛ وذلك أن «نقطانب» ابن أخيه قد استمال إليه ضُبَّاطَ الجيش، بما قَدَّمَه لهم مِن هدايا كما أغرى الجنودَ بالوعود الخلابة، وبذا كسب كُلَّ الجيش إلى جانبه بغية أنْ يساعده على تَوَلِّي عرش ملك «مصر»

وطرد «تاخوس» (Diod. XV, 92–4; Plut. Ages, 37)، غير أن «نقطانب» — في واقع الأمر — لم يكن هو البادئ بالثورة، بل يرجع أصلها إلى مصر نفسها.

وتفسير ذلك أن والد القائد نقطانب الذي كان يقوم بإدارة البلاد باسم «تاخوس» في «مصر» قد نصح لابنه أن يثير جيش «سوريا» على الفرعون، وينتزع منه عرش مصر (Diod. XV, 93, 3)، ومن ثم نفهم أن الثورة على «تاخوس» يرجع منبعُها إلى «مصر» نفسها، ولا غرابة في ذلك؛ إذ لا بد أن الموقف العام في داخل البلاد المصرية عام ٣٥٩ق.م كان متأزمًا؛ بسبب ما أدت إليه الإجراءاتُ الماليةُ التي فَرَضَها «تاخوس» على الأهلين، مما أَدَّى إلى سخط كثيرٍ من طبقات الشعب عليه وغضبها، ونخص بالذكر هنا طبقةَ الكهنة والتجار والصناع وذوي اليسار والأغنياء.

هذا، ولا يفوتُنا أن نذكر هنا أن غياب ملك مكروه من شعب لا بد كان قد أيقظ نار الانتقام في قُلُوب الشعب المثقَل بالضرائب، يُضاف إلى ذلك أن «نقطانب» الذي قام بالثورة، كان من دم ملكي، وكان في الوقت نفسه هو الخلف المعروف لوراثة الملك بعد موت «تاخوس»، ومن ثم نرى أن ثورة قام بها الشعب قد وضعت «نقطانب» على العرش بيد المصريين أنفسهم (Plut. Ages, 37)، وتدل الدسائس التي كانت تتفشى في الجنود المرتزقين على أنها برهان غاية في الأهمية للدور الذي لعبوه في هذه الفتن المصرية، فقد بقي القائد «خابرياس» مخلصًا للملك «تاخوس»، بل والظاهر أنه دافع عنه أمام «أجيسيلاس» بحماس وحرارة (Ages, 37).

ويدلُّ ما كتبه لنا واضعُ حياة «أجيسيلاس» ملك «أسبرتا» على أن الثورة التي قامتْ على «تاخوس» كانت مصرية في أُصُولها، فقد ذكر لنا «أجيسيلاس» أن بلاده قد أوفدتْه لخدمة المصريين، غير أنه لم يدنس نفسه بإعلان الحرب على أولئك الذين أتى لمساعدتهم، اللهم إلا إذا كان أولئك الذين أرسلوه يعطونه أمرًا مخالفًا لذلك (Ages, 37)، وقد أرسل «أجيسيلاس» إلى بلاده «أسبرتا» بعض مستشاريه، وكلفهم — كما يقول المؤرخ «بلوتارخ» — أن يحقروا من شأن «تاخوس» ويمجدوا «نقطانب».

هذا، وقد أرسل كل من الملكين «ناخوس» و«نقطانب» رُسُلًا إلى «أسبرتا»، فكان على رسل «تاخوس» أن يتباهَوا بالإخلاص القديم الذي أظهره لملكة «أسبرتا»، وكان على رسل «نقطانب» أن يقدموا أحسن العون من جانب مليكهم، غير أن أهل «أسبرتا» لبُعدهم عن الموقف وعدم معرفة حقيقة الحالة؛ وكلوا أمر الفصل في هذا الموضوع لملكهم العظيم المسن «أجيسيلاس»، وعلى ذلك لم تحر «أسبرتا» جوابًا لأحد الفريقين.

وقد أرسلت — فعلًا — «أسبرتا» سرًّا للملك «أجيسيلاس» بأنْ ينضم إلى الفريق الذي يكون الانضمامُ إليه أوفقَ لوطنه (Ages, 37)، ومن ثم نرى أن «أسبرتا» لم تكن تبحث إلا عن فائدتها فقط، وقد رأت الانحيازَ فعلًا إلى جانب «نقطانب» الذي كانت له الغلبة. والواقع أن «أجيسيلاس» لم يترددْ في الانضمام إلى «نقطانب»؛ وذلك لأنه أولًا: كان يحمل بين جنبيه حقدًا دفينًا للملك «تاخوس». وثانيًا: لأنه كان يطلب المزيد من المال لإشباع نهمه، وكانت الخزانة وقتئذٍ في يد الملك الجديد «نقطانب».

ولما رأى «تاخوس» أنه قد أصبح وليس لديه جيش وطني ينصره، ولا شعب يعطف عليه، ولا جنود مرتزقة يستنجد بهم؛ فر هاربًا، موليًا وجهه شطر ملك الفرس العظيم ليستجدي منه العفو، (Diod. XV, 92–5, Plut. Ages, 38).

وهكذا تَدَاعَى أضخمُ مشروعٍ قامت به «مصر» منذ استقلالها عن «فارس» للقضاء على عدوها ملك الفرس ودولته، وهذا المشروعُ على ضخامته وبعد مراميه، وتزويده بالطرق الدبلوماسية والحربية في البر والبحر وما أُنفق عليه من أموال وفيرة؛ قد قُضي عليه بالفشل، وذلك لأسباب مختلفة، فنرى أولًا أن ما نُسميه بالرأي العام المصري لم يكن وقتئذٍ قد ارتفع إلى مستوى الأحوال التي كانت جارية في هذه الفترة؛ إذ لم يكن الشعبُ وقتئذٍ يُظهر اهتمامًا خاصًّا إلا بأُمُوره الاقتصادية والمالية، وقد فهم ذلك بصورة ضيقة جدًّا، ولا أَدَلَّ على ذلك من مقاومة الكهنة لِما فرضه الفرعون «تاخوس» عليهم من الضرائب.

وتدل شواهدُ الأحوال على أن «تاخوس» قد اعتقد أنه قد عالج أَمْرَ إرضاء الرأي العام من هذه الناحية برفض اتباع كل نصائح «خابرياس» المتطرفة في مجموعها، ولكن الواقعَ أنه لم يعالج الموضوع بصورة تضمن له استمرارَ الأمن من هذه الناحية، يُضاف إلى ذلك ما أظهره الجيشُ المصريُّ من انحطاطٍ وتفاهة؛ إذ انقلب على مليكه الشرعي «تاخوس» بسبب بعض هدايا قُدِّمَتْ لقُوَّاده وبعض وعود خلابة لأفراد الجيش؛ ولذلك ولى الجيشُ وجهه من ميدان القتال في «سوريا» إلى الدلتا.

وعلى أية حال كانت الكلمةُ الحاسمةُ هي التي سيُدلي بها رئيسُ الجيش الإغريقي، ولكن مما يؤسَف له أَن نجد أن نفس عدم الوفاق الذي حدث بين الفُرس والأثينيين وهو الذي كان من نتائجه شَلُّ حركة استعمال الجنود المرتزقة ونجاة «مصر» في عهد «نقطانب» الأول، هو نفسُ ما حدث في عام ٣٥٩ق.م؛ إذ إن عدم التفاهُم بين الفرعون «تاخوس» وملك «أسبرتا» المسن «أجيسيلاس» لم يكن أَقَلَّ من الذي حدث بين «إفيكراتس» وبين «فارنابازوس» مِمَّا أدى إلى عودة الجنود المرتزقين من «فنيقيا» إلى «مصر»، وقد كان ذلك

بمثابة إجهاضِ مشروع فتح عظيم لمصر، وغلبتها على الفرس، وكان قد بدأ هذا المشروعُ بصورة لامعة تُبشر بنجاح عظيم ونصر مبين.

الآثار التي خلفها «تاخوس» في «مصر»

(راجع: Friedrich, Karl Kienitz, p. 212–214.)

على الرغم من قِصر حكم هذا الفرعون؛ فإنه قد ترك لنا بعض آثارٍ تدلُّ على نشاطه العظيم في جميعِ أنحاء البلاد وخارجها، ونخص بالذكر منها ما يأتي:

(١) فنيقيا

جاء في تاريخ الأثري «فيدمان» (Gesch. Agypt, p. 290) أن اسم «تيوس» «تاخوس» كان قد وُجد على قطعة أثرية منقوشة عُثر عليها في «فنيقيا» عليها اسمه، وقد ذكر بعد الاسم بعض كلمات لم يفهم لها معنًى، كذلك (راجع: L.R. IV 181, A. I).

(٢) بلدة «قنتير» شمالي «فاقوس»

وُجدت قطعتان من الحجر عليهما اسم الملك، محفوظتان الآن بمتحف «ميونيخ» للفن، (راجع: Porter & Moss IV p. 10; Spiegelberg, A.Z. 65 p. 103-4 & pl. VI No. c-d).

وقد نُقش على القطعة الأولى: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «أرماعت لي رع» ابن الشمس «زحر ستب-ن-أنحور».

ونُقش على القطعة الثانية: «زحر ستب-ن»، ومن ذلك يتضح أن القطعة الثانية لم يُذكر عليها إلا جزء من اسم الملك، أما الأُولى فقد نُقش عليها اسمُهُ ولقبُه.

(٣) المطرية

الواقعة بالقرب من بحيرة المنزلة.

وجد الأثري «ادخار» قطعة حجر مبنية في مدخل باب بقرية «المطرية»، الواقعة على بحيرة المنزلة، وقد نُقش عليها طغراء الملك «زحر» «زحر ستب-ن-أنحور»؟ (راجع: A. S. 13, p. 277).

(٤) هذا، ويقولُ الأثريُّ «بركش» إن اسم هذا الملك وُجِدَ في محاجر المقطم في «طرة»، (راجع: L.R. IV p. 183, IV Note 1).

(٥) أتريب (بنها الحالية)

وُجدت قطعة حجر ظهر عليها اسم الملك «تيوس» كتب عنها الأثري «شارب» (Sharpe Egyptian Inscripions Pl. 43)، غير أن ناقلها وهو «هاريس» قد أخطأ في رسم إشاراتها، وهاك المتنُ كما نقله «دارسي»: يظهر مثل «ماعت» مرشد الأرضين (أر ماعت-ني-رع).

(زحر ستب-ن-أنحور) كل الحياة والقوة.

(راجع: A. S. 17 p. 42.)

(٦) منف

عثر على طبق من الخزف الأخضر الغامق، محفوظٌ الآن بمتحف «ينفرستي كولدج» بلندن، ويقول «بتري» عن هذه القطعة من الطبق ما يأتي: إن قطعة الطبق ذات اللون الأزرق القاتم، قد عُثر عليها في الحفرة المقابلة للطريق القديمة العريضة، وهي للملك «زحر» واسمه بالإغريقية «تيوس» الذي لم يُعرف له من الآثار المنقوشة إلا نقشين، والنقشُ الذي على هذه القطعة جاء فيه: «ابن الشمس رب التيجان «زحر ستب-ن-أنحور» ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الشاطئين «أر ماعت-ن-رع» مُعطَى الحياة مثل الشمس المشرقة في السماء (محبوب؟) الآلهة»، (راجع: The Palace of Apries, (Memphis II) p. 11, 12; Fetrie, Scarabs and Cylinders, p. 33, 40 & Pl. LVII 30, 2).

ويقول «بتري» في هذا الصدد إن وُجُود هذا الطبق في «منف» يدل على أن مقر الملك كان في هذه المدينة حتى نهاية الأسرة، ومما يجدر ملاحظتُهُ هنا أنَّ نسبة قطعة الإستراكا التي عثر عليها الأثري «إميلينو» في العرابة المدفونة، (راجع: Amèlineau, Les Nouvelles Fouilles d'Abydos p. 241 Nr. 7, & p. 277; Com p., Gauthier L.R, IV p. 182 Nr, 3 & A. 5; Porter & Moss. V. p. 81) للملك تاخوس فيها شك كبير جدًّا.

(٧) الكرنك

ومن أهم النقوش التي عُثر عليها لهذا الفرعون نقشٌ خاصٌّ بالإصلاح الذي قام به في معبد «خنسو» بالكرنك، (راجع: Bouriant, Rec. Trav. 11, p. 153–4; Com p. L.D.T, III p. 70; L.R. IV p. 182 Nr 1).

ويقع هذا المتن على الوجه الخارجي للجدار الشرقي تحت قاعدة ممحوَّة جدًّا، وهي عبارة عن نقش أُفُقي دُون في سطر واحد بحروف يبلغُ طولُ الواحد منها حوالي نصف قدم، وهو يقصُّ علينا إصلاحاتٍ وتحسينات عُملت في معبد «خنسو»، والمهمُّ في هذا المتن هو اسم الملك الذي نَفذ الأعمال التي ذُكرت في صلب المتن وهو «زحر» المعروف عند الإغريق باسم «تيوس»، والواقعُ أننا لم نعثر على اسم هذا الملك بصورةٍ رسمية في المتون المصرية القديمة كثيرًا. هذا، وقد أشار «ليبسيوس» إلى وُجُود اسم هذا الملك كذلك على الجُزء الخلفي من هذا المعبد، وهاك النص:

يعيش «حور» بوصفه مُظهرًا للعدالة قائد الأرضين والممثل للسيدتين (المسمى) محبوب العدالة ومفخم بيوت الآلهة «حور» الذهبي «المسمى» حامي «مصر» وهازم البلاد الأجنبية ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) رب الأرضين «أر ماعت-ني-رع» ابن رع رب التيجان «زحر ستب-ن-أنحور»، لقد عمله بمثابة أثره لوالده «خنسو-م-واست نفر حتب» لقد جدد معبد والده بشكل ممتاز للأبدية من الحجر الأبيض الجميل الصنع ... على حسب ... إلخ.

(٨) الكرنك

جذع تمثال صغير للملك يُدْعَى «أوزير زحر» (أوزير-تاخوس)، وهو ابن ملكٍ يُدعَى «حورسا إزيس» عثر عليه «لجران» في الكرنك، (راجع: Rec. Trav. 28 (1906) p. 160; Archäol, Report for 1904–5; p. 24; com p. Gauthier, L.R. IV p. 182 Nr. 2 & A. 4).

وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنه ليس للملك «تاخوس»، بل فيه شك كبير، ومن المحتمل أنه كما يقول «جوتييه» لملك صغير من الملوك المتأخرين غير الملك الذي نحن بصدده.

(٩) الكرنك

قطعةٌ مِن ناووس بالمتحف المصري، لم يكن طغراء الملك «تيوس» معروفًا لدينا إلا بالنقش الذي حفر على خارج معبد «خنسو» بالكرنك، وهو الذي أشار إليه الأثري «بوريان Bouriant»، وقد حصل متحف الجيزة (متحف القاهرة الآن)، على حجر مستخرج من أثر كبير، وهو — بلا نزاعٍ — من ناووس نُقش عليها اسمُ هذا الفرعون هو «سيد المملكة … الذي يشرق بالعدل قائد الأرضين، ورب الأرضين «أرماعت-ني-رع» رب التيجان «زحر ستب-ن-أنحور».»

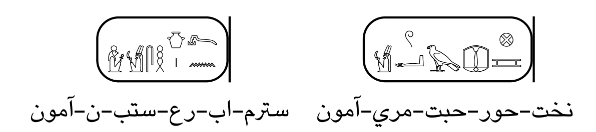
(١٠) أثينا

عملةٌ من الذهب الخالص باسم هذا الملك ووزنها وزن العملة التي ضربها الملك «دارا» الفارسي وقد صور عليها الإلهة «أثينا» بقبعتها وصورة بومة وكتب عليها «تاو»، وهي محفوظة بالمتحف البريطاني، (راجع: Hill. Num. Chron. (1926), p. 130–131; tarn. C.A.H. VI p. 21, A. 1; Fig in plate Vol. II of C.A.M. p. 4h).

(١١) أثينا

نقشٌ تذكاريٌّ خاصٌّ بسفير لشخص يُدعَى «تاخوس»، والظاهرُ أنه هو الفرعون «تاخوس» نفسه، (راجع: Inscripriones Graecae II^2 1, 119).

بداية عهد «نقطانب» الثاني (٣٦٠–٣٤٣ق.م)



نخت-حور-حبت-مري-آمون   سترم-اب-رع-ستب-ن-آمون

حكم نقطانب الثاني ثماني عشرة سنة (راجع: Unger Chronologic des Manetho) — على حسب ما ذكره مانيتون — وهذا يتفق تمامًا مع ما جاء على الآثار في نقش في معبد إدفو.

لا نزاع في أن هرب الملك «تاخوس» إلى بلاط ملك الفرس، كان خدمةً جليلة لتوطيد عرش «نقطانب»، ومن ثم أخذ موقفه باطراد يظهر العداء لملك الفرس، وذلك على حسب التقاليد الموروثة في هذه الفترة مِن تاريخ «مصر» ونِضالها مع الفرس، والواقعُ أن وُقُوف الهجوم الذي قام به المصريون في عهد «تاخوس» على الملك العظيم «منمون» الفارسي لم يكن معناه — بأية حال — عقد اتفاق صامت مع الفرس، بل كان يرجع سببُهُ إلى ما حدث في «مصر» من فتن ومشاغبات جديدة — من جهة — وبسبب السياسة المالية القاسية التي كان قد اتبعها الملك «تاخوس».

هذا، ولم تفقد مصر شيئًا من استقلالها، غير أنها انطوتْ على نفسها كما كانت في عهد «نقطانب» الأول، وعلى أية حال نَلحظ أنَّ فرار «تاخوس» لم يقض على كل خطر كان يُهدد سيادة «نقطانب» الثاني؛ وذلك أنه على أثر فرار «تاخوس» قام مُدَّعٍ جديد لملك الكنانة في «منديس» وأعلن الحرب الأهلية على الملك الجديد «نقطانب» الثاني، (Plut. Ages. 38).

ويتساءلُ الإنسانُ الآن: هل قام هذا المدعي بهذه الثورة لأطماعٍ شخصيةٍ، أو أنه عاد يُطالِب بعرش الأُسرة المنديسية الثانية، وهي الأسرة التي طُردت من الملك عام ٣٧٩ق.م؟ والواقع أن هذا الادعاء كان جائزًا، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أن هذا المدعي قد أراد أن يفيد من التغير الذي وقع حديثًا في عرش «مصر»، وقد أفلح فعلًا في جمع جيشٍ قوامُهُ مائة ألف مقاتل، (راجع: Plut. Ages. 38; Diod XV. 93, 2).

ثم زحف على جنود «أجيسيلاس» و«نقطانب» الثاني، ولدينا روايتان عن موقف هذين الملكين وما أَحَسَّا به عند اقتراب جيش الثائر المنديسي المدعي للملك، والأسباب التي دعتْهما إلى عدم مُنازَلته في العراء، فالروايةُ الأُولى هي ما ذكره لنا «ديودور» (وقد أخطأ في قوله: إنه الملك «تاخوس»)، وقد قال لنا إن الفرعون قد فزع وتحاشى فكرة الالتجاء إلى السلاح، ولكن «أجيسيلاس» نصحه بأن يثق بنفسه وألا يجزع، ولكن «نقطانب» حين وجد نفسه غيرَ قادر على التغلُّب على ما أصابه مِن فَزَع وذُعْر تقهقر بجيشه وتبعه «أجيسيلاس» إلى داخل موقع هام وهناك حاصره العدو، (Diod. XV. 93, 2).

والرواية الثانية ما قصه علينا «بلوتارخ» فيقول على عكس ما قاله «ديودور»: إن «نقطانب» كان مملوءًا ثقة، وقد أظهر كُلَّ احتقار لجيش المدعي الذي كان في الواقع عديدًا، غير أنه كان قد جند بمحض الصدفة، ويتألف من صناع ليس لهم خبرةٌ بالحرب وفنونها، وكان «أجيسيلاس» خائفًا مِن أن عدم الدراية قد تربك العدو، ولا تجعل الإنسان يعرف حيلة يقضي بها عليه، (راجع: Plut. Ages. 38).

وفي نهاية الأمر نجد أن «أجيسيلاس» هو الذي ينصحُ «نقطانب» بالمجازفة بالحرب، وأن «نقطانب» يَتَنَصَّلُ من الدُّخُول بنفسه في واقعة للأسباب التالية: وهي أن هذا الثائر المنديسي لم يجسر على المجازَفة بجيشه غير المدرَّب في واقعة فاصلة، ومن جهة أُخرى نرى — من جديد — أنَّ الدسائسَ بدأت تُحاك كما كانت الحال صباح سقوط الملك «تاخوس» حول قوات الجنود المرتزقة الجبارة؛ وذلك لأن المدعي بالعرش الجديد قد أخذ في فتح مفاوضات.

وقد كان مِن جَرَّاء مناورته هذه أنْ أَخَذَ «نقطانب» الثاني على الأقل يظن الظنون في «أجيسيلاس» ويشك في إخلاصه، وقد بدأ الفرعون يُظهر فعلًا عدم ثقته وضعفه عندما خاطبه «أجيسيلاس» ناصحًا إياه: بأن لا يُرجئ الفرصة تذهبُ صراحة في حربٍ مع الأعداء الذين يجهلون — بلا شك — فن الحرب، ولكنهم سيصلون إذا تركنا لهم الوقت للإحاطة بجيشِ «نقطانب» وإغراقه بعددهم الهائل، وعندما سمع الفرعونُ هذه الكلمات ظَنَّ أنه

قد نصب له فخًّا وبذلك تَنَحَّى عن الدخول في معركة، وتقهقر بجيشه إلى داخل مدينةٍ عظيمة محاطة بجدران جميلة متينة الأركان، وقد كان من جراء ذلك أن هاج «أجيسيلاس» هياجًا عظيمًا بسبب عدم الثقة فيه من جانب حليفه «نقطانب»، ولكن حدثتْ خيانةٌ أُخرى غمرتْه بالعار والخزي، ولم يكن في مقدوره وقتئذٍ أن يغادر البلاد المصرية دون أن يقوم بعمل حاسم تاركًا «نقطانب» والمدعي الجديد للملك وجهًا لوجه، وعلى ذلك اضطر أن يتبع الفرعون إلى المكان الذي كان فيه وحيث جاء المنديسيون في الحال لمحاصرته، (راجع: Plut. Ages. 38).

وإذا فحصنا هاتين الروايتين بدقة؛ نجد أنهما تتحدثان بصراحة عن الأمور الأساسية التالية: كان هناك اختلافٌ في الرأي بين ملك «أسبرتا» والفرعون «نقطانب» فيما إذا كان يمكن الصمودُ للعدو في العراء ومنازلته، ولكن على الرغم من نصائح ملك «أسبرتا» كان الفرعون خائفًا فَزِعًا، ومن ثم أخذ يبحث عن حماية له وراء جدران مدينة كبيرة، وعلى ذلك لا يوجد صراحة تضارُب بين رواية «بلوتارخ» ورواية «ديودور»، غير أننا نجد أن الرواية الأولى، وهي أَتَمُّ وأدقُّ على طابع خاص وتحمل إلينا مجموعة حقائق لا نجدها في رواية «ديودور» مما يجعلها أكثر فهمًا، وبذلك يمكن الأخذ بما جاء فيها بوجه عام، وإذا سلمنا بذلك فإن الفزع الذي استولى على «نقطانب» بسبب اقتراب جيش مناهضه الجبار؛ قد تضاعف بما كان يشعر به من شكوك في إخلاص «أجيسيلاس»، وكان خوفًا لا يكاد يظهره؛ ولذلك لم نجدْه مذكورًا في رواية «ديودور».

وعلى ذلك فإن ما رواه «بلوتارخ» عن الدسائس التي حاكها المدعي المنديسي، وما نتج عن ذلك من مخاوف «نقطانب» وشكوكه؛ يمكن قبولها، وعلى أية حال فإنه ليس لدينا أي برهان يعين على رفضها؛ وذلك لأن الدسيسة التي دبرها المنديسيون لجلب «أجيسيلاس» إلى جانبهم كانت أمرًا عاديًّا جدًّا؛ لأنه لو كان «أجيسيلاس» قد انحاز بجنوده إلى المدعي لعرش لكانت آمالُهُ تزداد في تَوَلِّي عرش ملك «مصر»، وإذا فرضنا أن هذا المدعي لم يكن في مقدوره إغراء «أجيسيلاس» بارتكاب خيانة جديدة فإن مجرد إشاعة هذا النبأ، كان يُزعزع ثقةَ «نقطانب» وينشر الخلاف في معسكر العدو، هذا إلى أن الشكوك كانت قد أدخلت في روع الفرعون عدم إخلاص الملك «أجيسيلاس» وأنه كان قد نال أخيرًا مساعدتَه بخيانة.

ومن الجائز أن نعترض على هذه القصة بأنه يظهر فيها شيءٌ من التفكُّك، حقًّا كان «أجيسيلاس» رافضًا تمامًا العروض التي قدمها له المدعي للملك، ولا أَدَلَّ على ذلك من أنه

قد سار في ركاب «نقطانب»، وعلى الرغم مِن كل أعماله السيئة منحه النصر في النهاية، وعلى الرغم مِن أنَّ شُكُوكَ الفرعون كانت معقولةً جدًّا فإنها لم تحقق، ولكن كيف يمكن أن نفسر أن «أجيسيلاس»، الذي كان قد ظهر بأنه يخشى العدو وأنه قد أجبر «نقطانب» على ثقته المتناهية بنفسه؛ قد أتى ليقدم له النصيحة بهجوم جريء، وذلك على ما يظهر خلاف رأيه الأول؟

والواقعُ أنه لا يوجدُ هنا إلا تناقضٌ ظاهري؛ إذ قد أعلن «أجيسيلاس» أولًا أن عدوًّا غير مدرب كان من الصعب إساءةُ استعمالِهِ؛ لأنه يكون محصنًّا تمامًا بعدم تجاربه حتى أمام خدع العدو فهل غير «أجيسيلاس» رأيه؟ والجواب على ذلك بالنفي؛ لأنه كان دائمًا يأبى استعمالَ الخدع التي لا تُفيد، ويجنح إلى نظام منازلة العدو وجهًا لوجه بكل وحشية وشجاعة، وفضلًا عن ذلك فإنه يلحظ أن بين مقترحاته الأولى وبين نصيحته بالدخول في معركة مع العدو؛ قد حدثتْ محاولة المدعي للعرش لاستمالته إلى جانبه، وهذه المحاولةُ تكشفُ — من جانب صاحبها — على أنه كان مزعزعَ الثقةِ بالنسبة لِما في يديه من مادة يعتمد عليها أو مهارة يتمتع بها.

وقد كان في ذلك ما يكفي لتشجيع «أجيسيلاس» ويحدو به إلى اتخاذ قراراتٍ صارمة وعلى أيَّة حال، فإن هذه كانتْ دائمًا خطته (وعلى أية حال فإنه إذا كان «أجيسيلاس» مخلصًا، وإذا كانت خطتُهُ ليس فيها التواءٌ أو تناقضٌ؛ فإن عدم ثقة «نقطانب» وشكه فيه كانت مفهومة تمامًا، وذلك بالنسبة لِما كان يعلمُهُ من الدسائس المنديسية التي كان يُديرها المدعي للملك، وذلك على أثر الخيانة التي كانتْ قد حدثتْ بالأمس، وكان هو شاهدَها والمستفيدَ منها، وقد نصح له «أجيسيلاس» أن يَتَحَصَّنَ خلف الجدران، وأنه هو الذي — على ما يظن — قد قَرَّرَ ملاقاةَ العدو في السهل في معركة فاصلة).

ومن ثم نرى أن قصة «بلوتارخ» ليست إلا رواية متماسكة جدًّا لما حدث، وأن الرواية التي سار على نهجها «ديودور» لم تحفظ لنا إلا الحقائق الأخيرة — وكانت هي عمليًّا الأهم والفاصلة — وهي الخلاف الذي قام بين «أجيسيلاس» والفرعون عن موضوع الخطة التي تتبع والتقهقر المشترك نحو المكان المحصن.

ومن ثم نرى أن «نقطانب» قد أخلى للعدو الإقليم المكشوف وتبعه «أجيسيلاس» على الرغم منه، ولم يكن وقتئذٍ — بأية حال من الأحوال — هو المسيطر على سير الأعمال الحربية؛ وذلك لأنه كان متهمًا ويُخشى جانبُهُ، ولكنه — بحكم وظيفته — كان مفوضًا على قيادة الجيش المصري.

وقد زحف جيشُ المدعي للعرش لمحاصرة المدينة التي كان الفرعون مختبئًا وراء أسوارها، ونجد في هذه المرحلة أنه قد وجد خلاف جديد بين الرواية التي قدمها لنا «بلوتارخ» وتلك التي ذكرها «ديودور»، وقد ذكر الأول (Ages 39) أن الحصار قد بدأ دون تأخير، وعلى حسب ما جاء في «ديودور» أن الحصار قد بدأ على إثر هجمات دامية، وذلك بأن أخذ المحاصرون في حفر خنادقَ (Diod. XV, 93, 3)، وقد كان العمل الذي أنجزه العمال العديدون سريعًا، وبعد أيام قلائلَ بدأت المواد الغذائية تنفد عند المحاصرين؛ إذ لم يكن لديهم من الغلال إلا كميةٌ قليلةٌ داخل المدينة، وعندئذ أخذ الخوفُ والهلعُ يستوليان على «نقطانب» خشية أن يحاصره العدو حصارًا تامًّا، ومن أجل ذلك فَكَّرَ في الخروج ومقابَلة العدو وجهًا لوجه، وقد كان هذا هو رأي الجنود المرتزقين الذين خافوا على أنفسهم من الموت جوعًا (Ages, 39).

وإذا كان لزامًا علينا أن نصدق ما رواه «أجيسيلاس» عن نفسه في تاريخ حياته، فإنه كان هو الذي وضع هذه الخطة على حسب الموقف للخلاص من براثين العدو، وهي خطة كان قد حفظها في طي الكتمان حتى يضمن لها النجاح، وقد كان من الضروريِّ نجاحُ خطة الهجوم التي أرادها الفرعون، وهي استعمالُ الجنود المرتزقين الذين كانوا وحدهم القادرين على ذلك، غير أن «أجيسيلاس» رفض ذلك، ولا بد أن مثل هذا الرفض قد أثار غضب «نقطانب» وحاشيته، وقد كان في وسعهم بطبيعة الحال أن يفكروا أن «أجيسيلاس» بعد أن يغري حلفاءه بالنزول في ساحة قتال معدة؛ قد عمل على خسارة الموقعة بعدم الاشتراك فيها، مضافًا إلى ذلك القحط الذي كان قد بدأ يعمل في صفوف «نقطانب»، وقد بدأت الشائعاتُ المشينة تنتشر عن «أجيسيلاس» كما كان يُتهم بأشنع التهم.

والواقع أن مثله في هذا الموقف كان كمثل موقف القائد «إفيكراتس» عام ٣٧٤ق.م، غير أنه سواء أكان أعظم سعادة أو أكثر أمانة من «إفيكراتس»؛ فإنه كان عليه أن يخرج لساحة القتال للمغامرة في هذه المخاطرة.

وقد كانت أعمال التحصين التي يقوم بها «نقطانب» تسير بسرعة، فقد حفرت خنادق حول كل المدينة المحاصرة وعندئذٍ أمر «أجيسيلاس» جنوده المرتزقين بحمل السلاح عند دخول الظلام، وقد كان مخفيًا تصميمَه عن «نقطانب»، وكانت الخنادق وقتئذٍ قد بلغت تقريبًا منتهى طولها البعيد جدًّا. هذا، وكان على معظم الجنود المحاصرين أن يحتلوا هذه الخنادق على طول امتدادها، ومن ثم أصبح التفوقُ العدديُّ للمحاصرين؛ وذلك لأن ما كان قد تم حفرُهُ من الخنادق يمنعهم من أن يفيدوا من كثرة عددهم، وعلى ذلك إذا حاول

الإنسانُ الاندفاعَ للهجوم من المكان الخالي من الخنادق؛ فإنه لا يجد أمامه إلا عددًا محدودًا جدًّا من جيش العدو، وقد كان في مقدُور الجنود المرتزقين — بما فُطروا عليه من شجاعة — أن يقضوا عليه بسرعة خاطفة.

وقد اقتنع الملك «نقطانب» هذه المرة بتلك الخطة البارعة، ويتساءل الإنسانُ — كما يقول «بلوتارخ» — هل كان «نقطانب» — حقيقة — مقتنعًا؟ وعلى أية حال فإنه لم يكن لدى الفرعون خيار؛ وذلك لأن المدينة كانتْ محاصرةً تمامًا، وأن خرابها كان محقَّقًا إذا أبدى أي تردد، ومن أجل ذلك جَنَّدَ نفسه في وسط الجنود الإغريق، وبدأ الهجوم وعندئذ أخذ جزءٌ من جنود العدو الذين كانوا على الطريق يَفِرُّون أمام الهجوم المفاجئ وأمام حماس المهاجمين، أما الفئةُ القليلةُ التي وقفتْ في وجه المهاجمين فقد مَزَّقُوها شر ممزق.

ويُلحظ هنا أن «ديودور» لم ينسب إلى «أجيسيلاس» تنظيمًا طويلًا مبيتًا، بل اقتصر على الإشارة إلى أنَّ ملك «أسبرتا» قد هاجم العدوَّ ليلًا، ونجح في خلاص الجنود المحاصرين، على الرغم مِن فقدان كل أمل في خلاصهم. ويجوز لنا أن نتساءل فيما إذا كان «أجيسيلاس» قد دبر فعلًا منذ زمن طويل تصميم هذه الخطة الناجحة، كما أبداها للملك «نقطانب» أو إذا كانت هذه الخطةُ قد اتخذتْ في آخر لحظة؛ أي في اليوم نفسه الذي نفذتْ فيه عندما رأى أنه لم يكن أمامه طريقة أخرى للإفلات من قبضة المحاصِرين له.

والواقعُ أن الميزة الحربية في هذه الموقعة لم تكن تعد شيئًا باهرًا؛ وذلك لأن كلًّا من الملك «نقطانب» والملك «أجيسيلاس» لم يقم إلا بملاحظة توزيع الجنود في ساحة القتال توزيعًا عاديًّا، أما الفضلُ في كسب المعركة التي جاءتْ على أثر ذلك؛ فقد رجع إلى الهجوم الليلي المفاجئ، غير أن هذا النصر كان — من الوجهة الأدبية والسياسية — قد عُدَّ بالنسبة لأجيسيلاس أمرًا هائلًا؛ وذلك لأنه كان قد اتهم في إخلاصه وولائه للملك «نقطانب»، ولكننا الآن نجده قَدْ قَدَّمَ بُرهانًا على ولائه الذي كان لا يقل عن ذكائه الحربي، ومنذ تلك اللحظة أصبحت ثقة «نقطانب» فيه لا حَدَّ لها، ومن ثم تابع «أجيسيلاس» إدارة الحرب على حسب خططه ومشيئته في العراء (Diod. XV, 93, 4).

وقد عَوَّضَ قلةَ عدد جيشه ما كان عليه جنودُهُ من مرونة وخِفَّة حركة وتنفيذه لخططه على حسب مقتضيات الأحوال، فنجدُهُ أحيانًا يَتَصَنَّعُ الفرار أمام العدو فيغريه على متابعته، وأحيانًا ينتقل من مكان إلى مكان، وبهذه المحاولات (المناورات) كان في مقدور «أجيسيلاس» أن يبدد قوة العدو ويستنفدها.

وأخيرًا نجح في سحب الجيش المعادي إلى المكان الذي اختاره للقضاء عليه، وهو إقليمٌ ضيقٌ يقع بين ترعةٍ عميقةٍ واسعةٍ (Diod. XV, 93, 4; Ages 93). ومُنْذُ أَنْ نجحت

تلك الخطةُ البارعةُ أصبح تَفَوُّقُ جيش المدعي المنديسي في العددِ لا يُجدي فتيلًا، وقد مَهَّدَ «أجيسيلاس» لجيشه رقعةً شاسعةً من الأرض تُضارع الطوار الذي كان يسير عليه العدوُّ. هذا، وجعل كل محاولة يقوم بها العدوُّ لتطويق جيشه من الجناحين أو من الخلف أمرًا مستحيلًا، وقد ظلت الغلبةُ في القتال الذي وقع في مُقَدِّمَة الجيش في جانب المشاة الإغريق الشجعان (Diod. XV, 93, 5)، وقد سقط عدد كبيرٌ من القتلى في جيش المدعي على أثر اختراق صفوفه، وبذلك وقعت الكارثة وقُضِيَ على كل آمال المدعي المنديسي.

بعد أن أصبح الملك «نقطانب» موحَّد الأركان بالقضاء على عدوه، أخذ في إغداق الانعامات، وكَيْل الثناء على مخلصه ملك «أسبرتا» واستبقاه في خدمته، ورجاه أن يمضي الشتاء معه، ولكن «أجيسيلاس» بعد أن أحرز هذا النصر المبين الذي طالما عمل من أجله؛ إذ أعاد للجيش اللاسيدموني مكانته بعد أن كان غير معترف به؛ لم يبد أي أسف بلا شك على ترك «مصر» وهو مكلَّلٌ بهذا الفوز العظيم، يُضاف إلى ذلك أن «أسبرتا» كانت وقتئذٍ في حاجة إليه، وإلى المال الذي كان قد جمعه وهو في خدمة الفرعون، وقد أقلع إلى بلاده في خلال شتاء عام ٣٥٨–٣٥٧ق.م حاملًا معه غير هداياه الشخصية مبلغ ٢٣ تلنتًا من الفضة (راجع: Diod. XV, 12, 1).

وقد كان البحرُ هائجًا في خلال رحلته مما اضطر سفينته إلى أن ترسو في «سيريني» حيث أدركه الموت هناك، وبذلك أنزل الستار على مجال حياة «أجيسيلاس» اللامعة بعد أن بلغ من العمر الرابعةَ والثمانين، وقد حُفظت حثته في الشهد، وحملت إلى «لاسيدمون»، وهناك احتفل بها على حسب التقاليد المرعية (Ages, 40; Diod. XV, 93, 6).

وهكذا نُشاهد من عام ٣٦٠–٣٥٩ق.م أن الجُنُود الإغريق قد أثبتوا مهارتَهم وشجاعتهم في المعارك المصرية التي كانت تدورُ رحاها تارة في جانب «مصر» وتارة أُخرى عليها، وذلك بقوةٍ لا تعرف الهزيمة، ونجد أن النصائح الجريئة والتجارب الحربية التي قدمها «خابرياس»؛ قد حققت الحصولَ على مبالغَ طائلةٍ من المال، وكذلك حرية التجارة البحرية والاستيلاء على قاعدة بحرية حسنة لأعمال البحرية في «فنيقيا» ولسنا في حاجة إلى القول — من جهة أُخرى — بأن سفر «أجيسيلاس» ومعه جيشُهُ من المشاة المرتزقين كان الضربةَ القاضية على عرش «تاخوس» الذي كانت قد قوضتْه ثورةٌ وطنيةٌ.

وأخيرًا نلحظ أن قوة إرادة «أجيسيلاس» وفكره وجرأته في وقت واحد، مضافًا إلى ذلك قوة هجوم مُشاتِهِ من الإغريق وسلاحهم الجبار؛ قد تغلب على سوء ظن «نقطانب» وخلصت حياته وحريته، وثَبَّتَتْ له تاجه مدةً طويلة، قام خلالها بأعمالٍ عظيمة في داخل البلاد — كما سنشرح ذلك بعد.

سياسة نقطانب الثاني الداخلية والخارجية

يَدُلُّ تاريخ «نقطانب» الثاني الذي بلغ نحو الثمانية عشرة سنة، أنه كان متبعًا سياسة الدفاع المحض بوجه عام، وبذلك كان يُعتبر سائرًا على خُطَّة مؤسس الدولة السمنودية وتقاليده، وهذه السياسة كانت إذا قُورنت بسياسة «تاخوس» أَقَلَّ لَمَعَانًا وأَقَلَّ قوة، غير أنها كانت على أية حال على ما يظهر؛ تتفق مع مزاج المصريين، ولم نر قط أي ثورة قامت في البلاد لتعكر صفو حُكم هذا الفرعون الذي كانت ماليتُهُ أَقَلَّ بكثيرٍ عن مالية سلفه صاحب الأطماع البعيدة؛ إذ الواقعُ أن «نقطانب» الثاني قد عامل بحذقٍ أو حابى بمهارة طبقةَ الكهنة الذين كانوا معارضين لمشاريع «تاخوس» معارضة صارمة، وقد ربط مشاريعه العامة بما كان يدخل للبلاد من فوائد من التجارة الخارجية والخزانة.

وإذا كنا نراه قد حفظ لنفسه تسع أعشار دخل الضريبة التي كانت تُجبى من بلدة «نقراتيس»؛ فإنه قد منح العشر المتبقي لمعبد «سايس»، وقد كان هذا يعد هدية محضة (راجع: Baillet. p. 77).

وإذا كُنَّا سنرى في عام ٣٤٢-٣٤١ق.م أن سلطانه قد تَدَاعَى وفي الوقت نفسه كذلك ضاع استقلالُ وطنه؛ فإن ذلك كان قد أتى — بوجهٍ خاصٍّ — من ضربة صوبها جيشٌ إغريقيٌّ كان في خدمة العاهل «أوكوس» الفارسي، ولا بد أنْ نَذكر هنا أن «أوكوس» قد بدأ في القيام بأول محاولة قوية لأجل أن يُعيد «مصر» تحت النير الفارسي حوالي ٣٥١ق.م، ويقال: إن التعبئة للقيام بهذه الحملة على «مصر» كانت طويلة الأمد؛ إذ يقال: إنها امتدتْ عدة سنين، وهذه النظرية إن صحت فإنها لا تخرج عن كونها كسابقتها التي قام بها الفرسُ منذ عام ٣٨٠–٣٧٤ق.م في عهد الفرعون «نقطانب» الأول، ومن ثم يكون من الجائز أن الاستعدادات والتجهيزات الحربية والمالية العظيمة التي بدأتْ حوالي ٣٥٤-٣٥٣ق.م في البلاد الفارسية كان المقصود منها على ما يظن غزو البلاد المصرية، وقد يكونُ المقصود بها غزوُ «مصر» وغيرها، وقد بدأ مِلِك الفرس هجومه على «مصر» في عام ٣٥١ق.م، وقد استنبط ذلك من الخطبة التي أُلقيت عن حُرِّية أهل «رودس»، وقد كان ملك الفرس نفسه هو الذي يُدير العمليات الحربية (راجع: Isocrate Phil. 101)، وإذا صدقنا ما حدثنا به «إسوقراط» فإن الملك «أوكوس» كان تحت تصرفه أقوى جيش يمكنُ جمعُهُ، غير أن ما ذكره هذا الخطيبُ لا يمكنُ الاعتمادُ عليه بصفة جدية؛ إذ كان متهمًا بتحقير هذا العاهل على طول الخط، وبخاصة عندما نعلم أنه قد حاول عام ٣٤٦ تحريض الإغريق على الدخول معه في حرب. أما «ديودور» فنجده قد حقر قوله في هذا الصدد في وجود جيش كثير العدد جدًّا.

هذا، ويمكن لنفس السبب كذلك أن ملك الفرس لم يكن هو القائد المقصود الذي أظهره أمامنا «إسوقراط» في هذه الصورة الحقيرة، ولا نزاع في أن ما أجمع عليه في هذا الصدد هو أنَّ هذه الحملة قد لحق بها هزيمةٌ منكرةٌ (راجع: Isocrate Phil. 101, Demosth., XV, 12; Diod. XVI, 40, 3; 44. 1; 48, 1-2).

أما عن تطوُّرات هذه الحملة وسبب هزيمة ملك الفرس فيها؛ فإن ما لدينا من متون لا يوجد فيها — بكل أسف — إلا إشاراتٌ ضئيلةٌ لا تشفي غلة، ومع ذلك فإن بعض الحقائق الهامة تبدو لنا من بين السطور، فنستنبطُ أولًا ما يظهر من متن «إسوقراط» أن المصريين كان لديهم الوقتُ الكافي — كما كانت الحالُ قبل عام ٣٧٤ق.م — لاتخاذ العدة أو لتقوية الدفاع عن شرق الدلتا.

ومن المؤكد أنَّ الحصون الدفاعية التي كان قد أقامها «خابرياس» فيما مضى لم تكن قد هُدمتْ تمامًا، وكانوا يخافون كثيرًا كما يقول «إسوقراط» الخطيب راجين ألا يستولي الملك على معابر النيل، وعلى كل الترتيبات الأخرى للدفاع، ويقول «إسوقراط» إن هذه المخاوف لم تحقق، ومن ثم نفهم أن الفرس قد رأوا أن هجومهم قد أخفق عند سفوح المعاقل التي كانت تعوقهم عبر النيل.

وبعد ذلك — وهذا هو الأمر الرئيسي — نُشاهد أن «نقطانب» الثاني لم يكن يحارب وحده، بل كان إلى جانبه يعاضده قائدان مِن ألمعِ قُوَّادِ العصر؛ لِمَا امتازا به من شجاعة وذكاء فائقين، أولهما القائدُ الأثينيُّ «ديوفانتوس Diophantos» والآخر هو القائد الأسبرتي «لامياس Lamias» وقد كان وجودُهُما — على ما يظهر — إلى جانب «نقطانب» مصدرَ سُرُور عظيم؛ إذ كان كما يقول «ديودور» بصورة مؤكدة من الوجهة الحربية لا كغاية له (Diod. XVI, 48–1) كما شاهدنا ذلك في حربه مع المدعي المنديسي.

والآن يتساءلُ الإنسانُ: هل كان وجود هذين القائدَين في جيش الفرعون يتفقُ مع بعض جفوة أو تحرج سياسي بين بلاد الفرس وبين وطنيهما بالتوالي؟ والغرضُ التالي الذي يرد على الخاطر هو أنه في عام ٣٥١–٣٥٠ق.م قد قامت الحربُ المقدسةُ في بلاد الإغريق.

هذا، ونعلم — منذ ٣٤٦ق.م — أن «أثينا» و«أسبرتا» قد تحالفتا مع الفوسيديين Phocidians، وكانوا أعداء ألداء لطيبة اليونانية منذ عام٣٦٢ق.م، والواقع أن كلًّا من «أثينا» و«أسبرتا» بعد قيام عداوة بينهما وبين ملك الفرس مدة لم يطل أَمَدُها وكان سببها إرسال «بامنيس» وبرفقته خمسة آلاف من المشاة الإغريق إلى الشطربة «أرتابازوس» لمساعدته على ملك الفرس العظيم في عام ٣٥٢ق.م؛ قد أحكما أواصرَ الأُلفة القديمة التي

كانت بينهما، وبين ملك الفرس في عام ٣٥١-٣٥٠ق.م، (راجع: Diod. XVI, 40, 1-2)، ولَمَّا كانت الحربُ القوسية قد أنهكتهما فإنهما طلبتا العفوَ من الملك «أوكوس» الذي لم يَتَوانَ في منحه لهما، وقد أرسل مع عفوه هذا هدية قدرها ثلاثمائة تلنت من الذهب.

ومن ثم يتساءلُ الإنسانُ فيما إذا كانت كُلٌّ مِن «أثينا» و«أسبرتا» بإرسالهما أو بالسماح لقائديهما «ديوفانتوس» و«لامباس» لِمُسَاعَدَةِ المصريين بنجاح؛ لم يكونا قد سُرَّا سُرُورًا عظيمًا بإنزال هزيمةٍ قاسيةٍ بالملك العظيم الذي كان متحالفًا مع أعدائهم أهل «بوشيا»، غير أن مثل هذا الغرضَ تعترضُهُ عدةُ عقباتٍ، ولا بد أن نحترس بوجهٍ خَاصٍّ من الاعتقاد في وُجُود قَطْع علاقات عالميةٍ بين الفرس والأثينيين أو نستنتج وُجُود محالفة بين هاتين البلدين وبين «نقطانب»، فأولًا نجد أن الموقف الذي سلكه «خابرياس» في عام ٣٥٩ق.م يبرهن لنا على أنَّ حكومة إغريقية يمكن أن تكون ذات علاقة طيبة جدًّا دون أن تقطع علاقتها تمامًا مع ملك الفرس، وبدون أنْ تتحالف مع «مصر»، وتسمح لأحد مواطنيها أن يخدم بقوةٍ ولِمُدَّةٍ طويلة دون الموافقة الرسمية من مجلس الأُمَّة (Demos)، وكذلك على حسب ما ذكره «ديمونستين»، وهو شاهدٌ معاصرٌ أنه حدث في عام ٣٥١ق.م أن الشعبَ الأثينيَّ في مجموعه أو أغلبيتِهِ قد رَفَضَ — في صمت — كل فكرة ترمي إلى قطع العلاقات بين «أثينا» وبين ملك الفرس لمصلحة الفرعون، ويقول «ديموستين» (Diod. XV, 5) «إني لَفِي دهشةٍ أنْ أرى نَفْسَ الخطباء الذين كانوا قد حاولوا إغراءَ مدينتنا أن تدخل في حرب مع الملك من أجل معاضدة مصالح المصريين.»

وعلى ذلك كان يوجدُ في غُضُون هذا العهد «حزبٌ مصريٌّ» بصورةٍ ما وإنه لَمِنَ المحتمل إذا كان قد ذهب «ديوفانتوس» بتحريضٍ منه أو بموافقته ليصد التعديَ الفارسيَّ على «مصر»، غير أن المشاريع الرامية إلى عقد معاهدة مع «مصر» وهي التي قَدَّمَها هذا الحزبُ إلى «التربيون» (مجلس النواب)؛ لم تَلْقَ نجاحًا من الشعب الأثينيِّ، على أنَّ ذلك لم يَكُنْ يعني أن أهل «أثينا» كانوا في أغلبيتهم يميلون إلى الفرس، ولكن كان من الممكن أن كثيرًا من المواطنين الآثينيين كانوا يخشون وُقُوعَ ارتباكاتٍ مع الفُرس، كما حدث في عام ٣٥٤-٣٥٣ق.م.

ومن الممكن كذلك أن «أثينا» — مع المحافظة بكل أنفة على كل حقوق الإغريق لحريتهم بالنسبة للملك العظيم — كانت تنشد الموافقةَ على بقاء الحالة كما هي في داخل الإمبراطورية الفارسية؛ ولذلك قد خطأت كُلَّ اضطرابٍ مِن شأنِهِ تمزيقُ أواصرِ هذه الإمبراطورية، وقد كان «ديموستين» من أجل ذلك يرى أن «مصر» كانت تؤلف جُزْءًا من

الإمبراطورية الفارسية، ويُلحظ ذلك من قوله: عندما كان يجيب أولئك الذين يميلون إلى «مصر» لا يجهل إنسان أن هؤلاء (يقصد أهل «رودس» الذين كان يبحث على تأمين حريتهم بتدخُّل الأثينيين) إغريق في حين أن الآخرين (أي المصريين) يؤلفون جُزءًا من الإمبراطورية (Demos., XV, 5).

ومن ثم هل تفهم من عبارة «ديموستين» هذه أنه كان لا يعترف باستقلال «مصر»؟ وبعد هذه العبارة بقليلٍ يضيف قائلًا: إذا كان الملك قَدْ سمح له بأن يكون في مجلسه، فإنه كان يحرِّضُهُ على المحارَبة من أجل ممتلكاته؛ إذ كانت تهاجمها إغريق (Diod. Ibid. XV, 7)، وبعِبارةٍ أُخرى: فإن مهاجمة الملك العظيم أو المساعدة على مهاجمتِهِ كما فعل القائد «ديوفانتوس» بالمحافظة على حرية «مصر» التي كانت فيما سبق ضمن أملاك «فارس»؛ يُعَدُّ شيئًا واحدًا، ومِنْ ثم يظهر أنَّ القائدَ «ديوفانتوس» لم يكن — بأية حال من الأحوال — مبعوث أهل «أثينا» في «مصر» حتى ولو بصفة ودية، بل قد يكون ممثلًا للحزب المصريِّ اليوناني في «أثينا»، هذا بالإضافة إلى أن عمله هذا قد استُنكر رسميًّا بجزء كبير من الرأي العام الأثيني.

هذا، ولدينا ما قد يؤكد هذا الاستنباط: ففي الربيع التالي عام ٣٥٠ق.م تدخل «فوسيون Phocion» الأثيني لمصلحة ملك الفرس على أهل «قبرص» على رأس جيشٍ قِوامُهُ ثمانية آلاف من المرتزقين (Diod. XVI, 42, 7–9)، ومثل هذا التدخُّل لا يقل عن تَدَخُّل «ديوفانتوس».

وعلى أيَّة حال فَإِنَّ مهارة «ديوفانتوس» هذا مضافةٌ إلى مهارة القائد «لامياس» قد ثبتت أحوال الفرعون «نقطانب» تثبيتًا باهرًا، وإذا كانت الجائحةُ التي حَلَّتْ بالملك «نقطانب» الثاني فيما بعد في عام ٣٤٢ق.م، وهي التي على أثرها قد فَرَّ إلى بلاد «كوش» وقد كان مِن جَرَّائِها في المستقبل البعيد أن أُلِّفَتْ روايةٌ خاصةٌ تَحُطُّ من قدره، قاضية بالحق وبالباطل على كبرياء هذا الأمير المهزوم، وما فطر عليه من جبن، (راجع: Revillout, Revue Egyptol. p. 61-2) فإنه مع ذلك يظهر بعد الانتصارات التي أحرزها قُوَّادُهُ الإغريق يستحق بحق المدائح التي أغدقها عليه كهنةُ «سايس» وهم الذين — بطبيعة الحال — كان قد خصص لهم عُشْرَ الضرائب التي كانت تُجبى مِن «نقراش»، وعلى ذلك كان يمكنُهُ أن يظهر كما لم يحدث من قبل بأنه «الملك القوي الذي يمنح «مصر» السلام والجدار البرنزي الذي يحمي بلاد «كمى» والعظيم الشجاعة … ورب السيف الذي يدخل

الرعب في النفوس عندما يصوب نظره نحو الأعداء»، (راجع: Stele de Naucratis, p. I. 2–3; Baillet, 128, Maspero., etc.).

ولكن هذا الجدار البرنزي كان لا بد له أن يهزم يومًا ما، ومنذ السنة التالية لهذا النصر بدأ الحظُّ يقلب له ظَهْرَ المجن، وقد كان للإغريق الذين ساعدوه بنصيبٍ في ذلك أثرٌ واضح، وذلك أنَّ الصدمةَ التي صدم بها «أوكوس» على يد المصريين في عام ٣٥١ق.م قَدْ شجعتْ قيامَ العصيان في «فنيقيا» وفي الدويلات الصغيرة في «قبرص» (Diod. XVI, 40, 5;41 etc.) وقد ولى العصاة وجههم شطر الفرعون سواء أكان قد أراد أم لم يرد أن يمد نفوذه خارج حدود «مصر»، وعلى ذلك أرسلوا رسولًا إلى «نقطانب» لمساعدتهم على الخلاص من يد الفرس، وأن يكون حليفًا لهم، وعلى أثر قبوله أخذ في الاستعداد للحرب (Diod. 41, 3).

ولم يمضِ طويلُ زمنٍ حتى غادر الديارَ المصرية أربعةُ آلافِ جنديٍّ من الإغريق المرتزقين، وعلى رأسهم «منتور» القائد الروديسي؛ وذلك لمساعدة ملك «صيدا» المسمى «تنس Ten nes»، على طرد شطربة الفرس من «فنيقيا» (Diod. 42, 2)، والآن يتساءلُ المرءُ هل كان يجدُ في هذا العمل الأخير أنه كان رجلًا محبًّا للفتح، وبخاصة بعد أن سكر بخمرة النصر الذي ناله على الفُرس، وإن كان ذلك عودة إلى سياسة «تاخوس» الذي كان يرمي إلى توسيع رُقعة بلاده؟ ولا شك أن هذا لم يكن الواقع؛ وذلك لأن المبادرة في هذه الحرب الجديدة لم تكن من جانبه، بل جاءت من جانب الفنيقيين، فهم الذين طلبوا إبرام معاهدة بينهم وبين «نقطانب»، وفضلًا عن ذلك لم نَرَ في مجرى الأمور أن «نقطانب» قد فَكَّرَ في الإفادة لمطامعه الشخصية من هذا النصر المشترك؛ إذ نلحظ أنه لم يغادر «مصر» إلى «فنيقيا»، بل تَرَكَ لقائدِهِ الروديسي قيادةَ الجيش الذي أرسله للمساعدة على هزيمة الفرس، يضاف إلى ذلك أن النجدة التي أرسلها كانت ضئيلة، إذا ما قرنت بالجيش الذي أرسله «تاخوس» عند غزوه «فنيقيا»، و«سوريا» على رأس جيش قوامه ٩٠ ألف مقاتل منهم عشرة آلاف من الإغريق وثمانون ألفًا من المصريين، في حين أن خلفه لم يرسل إلا أربعة آلاف من المرتزقين، وعلى ذلك فإنه من الطبيعي أن ما فعله «نقطانب» الثاني في هذه الحالة لم يكن — في الواقع — للدفاع وحسب، وذلك أن تحرير «فنيقيا» يُبعد عن البحر المتوسط وعن «مصر» تهديد الفرس، ومن ثم تكون انتصارات «منتور»، الروديسي تتويجًا للانتصارات التي أحرزها القائدان «لامياس» و«ديوفانتوس».

ومما يؤسف له جد الأسف أن «نقطانب» بدلًا من أن يحاول بعمله هذا فتحًا جديدًا لمصر، فإنه قد ذهب لخلق تهديد جديدٍ لبلاده على يَدِ حليفِهِ ملك «صيدا»، فقد خانه كما سقط كذلك حربيًّا في أعيُن الجنود المرتزقين الذين أرسلهم إلى «فنيقيا».

ولَمَّا رأى ملك «صيدا» ما سيَحيقُ به من جيش الفُرس الجبار؛ تفاوض سرًّا مع الملك العظيم، وقد عرض عليه أن يسلمه «صيدا» ويساعده على هزيمة «مصر» وإخضاعها للحُكم الفارسي، وذلك لِما لديه من معلوماتٍ دقيقة عن نهر النيل والإقليم الذي يُحيط به، وقد قبل ملك الفرس ذلك على الفور بالفرح والسرور، وقد رأى «تنس» قبل أن يقع فريسة في يد «أوكوس» أن يكاشف القائد «منتور» الروديسي رئيس الجُنُود الإغريق المرتزقين الذين أرسلتْهم «مصر» بالمؤامرة التي دَبَّرَها، وقد انضم إليه الأخيرُ، وبفضل «منتور» هذا الذي كان يُشرف على حراسة جُزْءٍ من المدينة، وكذلك بفضل جُنُوده المرتزقين دَخَلَ الملك العظيم مدينة «صيدا» يرافقُهُ «تنس»، وعلى أثر ذلك انتشر الرعبُ في المدن الأُخرى ووضعت سلاحها أمام قوة الفرس (Diod. XVI, 45, 1–6).

ومن ثم نرى أن تدخل «نقطانب» للمساعدة قد انقلب عليه فحَرَمَه من أربعة آلاف من خِيرة الجنود المرتزقين، وكذلك من مستشار حربي وسياسيٍّ محنك هو «منتور» الذي بخيانته هذه قد فتح للفرس طريقًا إلى «مصر»، أما الطريق الأُخرى المؤدية إلى «مصر» فهي جزيرة «قبرص»، فقد سقطت تقريبًا في نفس الوقت (٣٥٠ق.م)، وذلك بفضل مجهودات إغريقيٍّ آخرَ هو «فوسيون» (Diod. XVI, 42, 7–9).

وهكذا، نجد في مدة سنة واحدة أن شجاعة الجنود والقُوَّاد الإغريق وخيانتهم قد قلبتْ ظهر المجن لمصر، ولعبتْ دورها في تقويض سُلطان الفرعون، وتدلُّ الأحوالُ على أنَّ إخضاع «فنيقيا» وجزيرة «قبرص» قد مَهَّدَ الطريقَ إلى الحملة الفارسية الفاصلة على «مصر»، وقد اتخذت أولًا العمليات السياسية التي سبقت الحملة ومهدت لها، وقد أرسل عاهل الفرس «أوكوس» يطلب مساعدة أهم البلاد الإغريقية على «مصر»، وقد لَبَّى الدعوةَ بعض هذه المدن مثل «طيبة» و«أرجوس»، ووعدتا بإرسال المدد العسكري الذي طلب إليهما (راجع: diod. XVI, 44, 1-2)، في حين أن بعض المدن الأخرى — وبخاصة «أثينا» و«أسبرتا» — قد وعدت باتخاذ خطة الحياد (XVI, 44–1).

ويتساءلُ الإنسانُ هل طلب مبعوث ملك الفرس من «أثينا» و«أسبرتا» نفسَ المساعدة التي طلبها إلى «طيبة» و«أوجوس»، أم كان يرى أن مثل هذا الطلب لا يُمكن أنْ يحوز أيَّ قبول؛ ولذلك طلب إلى كل منهما أن تُحافظ على التقاليد كما أكد لنا ذلك ما ذكره «ديديموس»؟

والواقعُ أنه ليس لدينا أيُّ سببٍ يحملنا على الميل لأيٍّ مِن هاتين النظريتين، بل ينبغي علينا أنْ نَقتصر على الملاحظة التالية، وهي: أن المملكتين القويتين اللتين قد اتخذتا هكذا خطة الحياد بين «مصر» وبلاد الفُرس، ويحافظان في «أوروبا» على قوتيهما البحرية والبرية، هما بالضبط هاتان المملكتان اللتان كان التهديدُ من جانب «مقدونيا» قد ضغط عليهما بخطورة بالغة، فقدْ برهن لنا «ديموستين» (Diod. VI 9, 15–19)، أنه بالضبط في عام ٣٤٤-٣٤٣ق.م كان الملك «فيليب» المقدوني والد الإسكندر الأكبر يتبع نحو «أثينا» خطة عداء خطيرة، وذلك في الوقت نفسه الذي كان يُساعد فيه «مسينا» على «لاسيدمون».

هذا، وتقرأ في نفس الخطبة التي ألقاها «ديموستين» أن «فيليب» كان على وُدٍّ ومصادقة مع «أرجوس» و«طيبة»، وقد أظهر ذلك لهما في خلال الحرب المقدسة، (Diod. VI, 7, 9, 11, 15, 18, 19)، وعلى ذلك كان في مقدور هذَين البلدَين أنْ يَتَصَرَّفَا فيما لديهما مِن جُنُود بإرسالهم إلى ساحة القتال الآسيوية والإفريقية، وبذلك تمتد المحالفة التي جمعت بينهما في مناسبات مختلفة على «لاسيدمون» والفوسيين، وبخاصة في عامي ٣٥٣–٣٤٦ق.م.

وقد وضع الطيبيون تحت تصرف الملك «أوكوس» ألف مقاتل من المشاة، وعلى رأسهم القائد «لاكراتس» وأرسلت «أرجوس» ثلاثة آلاف جندي، وقد تركت لملك الفرس تعيينَ القائد عليهم بنفسه، فنصب عليهم قائدًا يُدعَى «نيكوستراتوس Nicostratos»، وهو شخصيةٌ غريبةٌ في منظرها؛ فقد كان معجبًا بطول قامته الهركولية، وكان يرتدي جلد أسد ويتسلح بمقمعة في ساحة القتال، ومع ذلك فإن «ديودور» يعلن عنه في صراحة تامة «أنه كانت له قيمة محترمة في ساحة القتال وفي المشورة»، وأخيرًا نجد أن إغريق آسيا الصغرى الذين كانوا حلفاء الفرعون «تاخوس» قد أرسلوا ستة آلاف جندي من المرتزقين إلى جيش الملك العظيم، (Diod. XVI, 44, 2–4). على أن جيش الفرس نفسه كان عرمرمًا؛ فقد كان يحتوي على ثلاثين ألف مقاتل من المشاة، وثلاثين ألف مقاتل من الفرسان، وثلاثمائة سفينة حربية، وخمسمائة سفينة من ناقلات الجنود (Diod. XVI, 40–6).

وإذا كُنا نجدُ أنه منذ الحملة العظيمة التي أرسلها ملك الفرس على «مصر» عام ٣٧٤ق.م، وهي التي جَهَّزَها في عدة سنين لم يزد عددُ السفن البحرية؛ فإننا مِن جهةٍ أُخرى نجد أن عدد الجُنُود المشاة، قد زاد على ثلاثة أضعاف ما كان عليه، والآن يتساءل المرءُ: ما هي القوة التي أعدها «نقطانب» لمحاربة القوة الفارسية الإغريقية؟ لقد وضع «نقطانب» في ساحة القتال عشرين ألف مقاتل من الجُنُود الإغريق المرتزقين، ومن المحتمل أنَّ القائدَ الذي كان على رأسهم هو «كلينياس» صاحب «كوس»، هذا إلى عشرين ألفًا من

الجنود اللوبيين، وستين ألفًا من المصريين، وهذا الإحصاء يدل على أن الجنود المصريين كانوا أَقَلَّ بكثير مما كانوا عليه في عهد الملك «تاخوس»، وهؤلاء الستون ألفًا من الوطنيين كان يظهر عليهم أنهم كانوا قد دربوا على فنون الحرب أكثر من الغوغاء الذين كان قد جمعهم المدعي المنديسي.

وأخيرًا لم يظهر أن «نقطانب» قد حاول أن يحافظ على قوته البحرية أو يجعلها متفوقة، ولم يشر المؤرخ «ديودور» إلى أن «نقطانب» قد بنى سفنًا حربية، حقًّا أن ثلاثمائة السفينة الحربية التي كان يملكها عاهل الفرس لم يكن يضارعها أسطول «تاخوس» البحري الذي كان يبلغ مائتي سفينة ولم يكن قد بلغ هذا العدد في عصر أي فرعون من فراعنة هذا العصر، ومع ذلك لم يكن في مقدوره أن يغلق الطريق في وجه الأسطول الفارسي إلا بكل صعوبة، ومن ثم نفهم أن السيادة البحرية، كانت في يد الفرس كما كانت الحال في عهد «نقطانب» الأول (٣٧٢ق.م)، ويُلحظ أن «نقطانب» الثاني قد رفض أي سياسة أو خطة هجومية؛ ولذلك كان عليه أن يقوم ببناء أُسطول نهري ليحارب العدو على النيل، ويقول «ديودور»: إن هذا الأسطول كان يحتوي على عدد من الوحدات لا يمكن تصديقُهُ، وأخيرًا نجد أنه قد ضاعف عدد التحصينات، هذا بالإضافة إلى تحصين كل فُرُوع النيل للدفاع وبخاصة الفرع البلوزي الذي كان مُعَرَّضًا لأول هجوم، وقد أُقيمتْ فيه عدةُ حُصُون وحواجز وخنادق (راجع: Diod. XVI, 46–7, 47, 6–7).

وقد كان كل شيء قد نظم لمجرد الدفاع عن الحدود وحتى في داخل الدلتا، وعلى أيَّة حال لم تتركزْ كل قوة «نقطانب» البالغة مائة ألف مقاتل في كتلة واحدة، بل نجد أن مصبات النيل قد مُدَّتْ بحاميات قوية وقد قاد الفرعون نفسه ثلاثين ألف مقاتل من المصريين وخمسة آلاف من الإغريق وألفين وخمسمائة من اللوبيين لحراسة الأماكن التي كانت هدفًا صالحًا للغزو، (Diod. XVI, 48, 3)، وتدل شواهد الأحوال على أنه من المحتمل أن جيش «نقطانب» الذي كان أمامه جيشٌ من الفرس يَزيد على ثلاثة أضعافه، كان مبعثرًا بعض الشيء، وإذا كانت قد ارتكبت أخطاء في هذا الصدد الآن، وفي العمليات السابقة فمَنْ كان المسئولُ عن ذلك؟ والواقعُ أنَّ ما ذكره «ديودور» يدل على اتهام «نقطانب» في ارتكاب هذه الأخطاء بشدة فيقول لنا «ديودور» إنه في عام ٣٥١ق.م كان الفرعون قد ترك لقائديه الإغريقيين «لامياس» و«ديوفانتوس» الحرية التامة، لكن في عام ٣٤٢ق.م نجد أنه قد ظن في نفسه أنه قائد ممتاز؛ ولذلك لم يشرك أيُّ فرد معه في إدارة الأعمال الحربية؛ وذلك لأنه كان لا يزال سكرانًا بانتصاراته السابقة، وقد كان مِنْ جَرَّاء ذلك أن عدم قدرته الحربية قد

عاقتْه عن اتخاذ أية إجراءات صالحة لقيادة الحرب (Diod. XVI, 48, 1–2)، وهذا الحكم قد يمكن أن يكون سببُهُ الكارثةُ التي حَلَّتْ بالملك «نقطانب»؛ إذ الواقعُ أنَّ التقاليدَ تَميل بسهولة إلى نسبة اللوم إلى المهزومين.

وقد يكون من الممكن جدًّا — وبدون أي شك — أن «نقطانب» بسبب كبرياء نفسه أو لأنه كان يخاف خيانةً كالتي حدثت في عامي ٣٥٩، ٣٥٠ق.م؛ قد وضع تحت تصرفه العمليات الحربية التي كان يقوم بها قواده الإغريق، وبذلك يكون قد ارتكب أخطاء، وهذا جائزٌ جدًّا والظاهرُ أنه كان قائدًا عاديًّا جدًّا في الخطط الحربية، وهذا ما يَميل المؤرخ «بلوتارخ» إلى إظهاره في قصته في الخطط الحربية، وهذا ما يميل المؤرخ بلوتارخ إلى إظهاره في قصته المفصلة التي رواها عن الحرب التي وقعتْ في عام ٣٥٩–٣٥٨ق.م، ولكن من المبالغة أن تتهمه بأنه لم يتخذ أي إجراء مفيد في الحرب، ولا نزاع في أن الوصف الذي تركه لنا «ديودور» نفسُهُ عن الاستعدادات التي قام بها للدفاع عن البلاد تَكفي لبراءته من مثل هذا الاتهام.

كانت الفترةُ الأُولى من عام ٣٤٣ق.م هي الوقت الذي زار فيه سفراءُ الملك «أوكوس» البلاد الإغريقية، وقد كانت مخصصةً للاستعدادات النهائية لإعلان الحرب، وعندما جمع ملك الفرس كل قواه الآسيوية والأوروبية زحف على «مصر» بطريق بادية الشام عام ٣٤٣–٣٤٢ق.م، وقبل أن تصل الحملة إلى النيل الشرقي اعترضتها مستنقعات «سربونيس Serbonis» التي كانت مياهُها البعيدة الغور تظهر في صورة أرض صلبة، وذلك بسبب الموجات الرملية التي نشرها الهواء على سطحها (Diod. 1, 30, 4–6).

وفي هذه الرمال المشبعة بالمياه قد ترك جزء من جيش «أوكوس»، وبعد ذلك زحف حتى وصل إلى أمام «بلوز» الواقعة عند نهاية فم النيل الذي كان محصنًا تحصينًا مكينًا، وقد عسكر الفرس على مسافة أربعين استادًا من هذا المكان، وعسكر الجنود المرتزقة بجانب القناة التي كانت تحمي أطراف «بلوز»، (Diod. XVI, 46, 6).

وكانت قلعة «بلوز» تحتوي على حامية مؤلفة من خمسة آلاف رجل يقودهم «فيلوفرون Philophron»، وقد قال «ماسبرو» إنهم خمسة آلاف إغريقي، وهذا ممكن، غير أن متن «ديودورو» لم يذكر شيئًا عن ذلك، ومما لا شك فيه أنه كان يوجد إغريق في «بلوز» (Diod. XVI, 49–2)، ولكن التعبير الذي يعبر به عن جيش «فيلوفرون» الصغير (Diod. 46, 8)، ليس من الضروري أن ينطبق على الجنود المرتزقة وحسب فقد أطلقه «ديودور» على مشاة الفرعون «تاخوس» مثلًا، (Diod. XV, 92, 2).

وعندما أقام جيش «أوكوس» معسكره على مقربة من «بلوز» لم يكنْ قَدْ قَرَّرَ شيئًا على حسب رواية «ديودور»، ولم تكن قد اتخذت؛ أي استعداداتٍ للهجوم واقتحام مَصَبَّاتِ النيل، وفي صبيحةِ اليوم الذي كان قد نظمت فيه فرق الجيش ووزعت؛ حدث أولُ تصادُم بين حامية «بلوز» والجنود المرتزقين الطيبيين، وهؤلاء كانوا يتحرقون شوقًا لإظهار أنفسهم بأنهم أشجعُ جُنُود إغريق، وهكذا نجدهم وحدهم دون معين يقتحمون الخنادق العميقة التي تفصل معسكرهم عن أطراف المكان وانبطحوا أمام الجدران، وقد خرج عليهم رجالُ الحامية ونشبت بينهم موقعةٌ حاميةُ الوطيس، استمرت طول اليوم ولم تسفر عن نتيجة حاسمة، وقد فصل الظلامُ المتحاربين (Diod. 46, 9)، وفي اليوم التالي فقط (Diod. 47, 1 etc.)، نظم جيش الملك «أوكوس» نفسه للهجوم وقسم جيشه ثلاث فرق.

ويجوز لنا أن نتساءل فيما إذا كانتْ هذه العمليةُ الحربيةُ لم تكن قد سبقتْ وصولَ الجيش الفارسيِّ أمام «بلوز»، وسبقت الواقعة الأولى؟ والواقعُ أن هذه الواقعة قد دارتْ رَحَاهَا في سفح جدران «بلوز» بجنود الفرقة الطيبية التي يظهر أنها كانت منهمكة تمامًا في عمليات الحصار التي كانت قائمةً أمام هذا المكان بجنود الفرقة الأولى التي كانت تحتوي بالضبط على الجنود الطيبيين الذين كان يقودهم القائد «لاكراتس»، وهذه العملياتُ الحربيةُ لم يأتِ ذِكْرُها فيما رواه لنا «ديودور» إلا بعد ذلك بكثير جدًّا، (Diod. XVI, 49–7, etc.).

وهاك ترتيبُ ما ذكره: هجومٌ منفردٌ قام به الطيبيون على «بلوز» (Diod. 46, 8-9)، تقسيم الجيش الإغريقي الفارسي (Diod. 47, 1–5)، تعداد قوات «نقطانب» الثاني، وتقدير خططه وتنظيم دفاعه (Diod. 47, 5–7, 48, 1–3)، العمليات الحربية الناجحة التي قامت بها الفرقة الثانية، وهرب «نقطانب» إلى «منف» (Diod. 48, 3–7)، والأعمال الحربية التي قامت بها الفرقة الأولى — وهي الفرقة الطيبية — التي نصبت الحصار أمام «بلوز» (Diod., 49, etc.)، ومن ثم نفهم أن الحوادث كما وصفها «ديودور» لم يجعل فيها فاصل بين سلسلتي الأعمال الحربية التي قام بها الطيبيون أمام المكان (وهو أولُ تصادُم حدث وجهًا لوجه وأعمال الحصار)، غير أن هذه نظريةٌ يصعبُ فَهْمُها.

أما بقية قصة هذه الحملة فمفهومةٌ تمامًا، فبعد اجتياز الصحراء وصل جيش الملك العظيم «أوكوس» إلى أمام «بلوز» ونصب معسكره، وقبل أن تعمل أية تنظيمات قام جنود «طيبة» مدفوعين بالمحافظة على شهرتهم التقليدية، ويحتمل كذلك رغبتهم في التأكد من اجتياز القناة بسرعة، فعبروها واقتربوا من الجدران، وقد دارتْ بينهم وبين المصريين — في خلال ذلك — معركةٌ كان لهمُ الفوزُ فيها؛ فقد ثبتوا أقدامهم بصعوبة على الشاطئ

الآخر للقناة وحاصروا القلعة عن كثب جدًّا، وفي اليوم التالي قسم قواد الجيش الإغريقي الفارسي جُنُودهم ثلاثة أقسام مؤلفين ثلاث جماعات، وقد ترك الطيبيون بطبيعة الحال في مكانهم مواجهين «بلوز» في ساحة القتال التي اختاروها لأنفسهم، وهناك سنجدهم فيما بعد، (راجع: Diod. XVI, 49–1).

وقد قسمت القوات الإغريقية على حسب المبدأ الآتي: كانت كل فرقة من الفرق الثلاث الإغريقية يقودها قائد إغريقي ومعه قائد فارسي (Diod. XVI, 47–1)، والواقع أن القواد الإغريق هم الذين قاموا بالدور الهام، ولكن ملك الفرس لم يكن يقصد — بطبيعة الحال — أن يترك قيادة هذه الفرق المرتزقة كلية في يد هؤلاء القُوَّاد، بل كان يراقبُهُم عن كثب وبخاصة الأفراد الذين لم يكن يطمئنُّ إليهم «منتور» الروديسي الذي خان الفرعون عام ٣٥٠ق.م — كما رأينا من قبل.

وكانت الفرقةُ الأُولى وهي التي نصبت الحصار أمام «بلوز» تحتوي أولًا على الفرقة الطيبية وعلى رأسها القائد «لاكراتس» الإغريقي والقائد «روزاكس» الفارسي الذي قيل عنه: إنه مِن نَسْل أحد السبعة الذين كانوا قد قلبوا حُكومة «ماجي» وشطربة «أيونيا» وبلاد «ليديا» (Diod. XVI, 47, 2)، وكانت هذه الفرقةُ تحتوي كذلك تحت قيادة «روزاكس» على مجموعة من الخيالة وعدد عظيم من المشاة الآسيويين، أما الفرقةُ الثانيةُ فكانت مؤلَّفة أولًا من الجنود المرتزقين الأرجيين يقودهم «نيكوستراتوس» الإغريقي والقائد الفارسي «أرستازانس»، وكان أقرب الناس ثقة إلى ملك الفُرس بعد «باجواس Bigous»، وكانت هذه الفرقةُ تحتوي خِلافًا لثلاثة الآلاف أرجيني على خمسة آلاف من خيرة الجنود بقيادة «أرستازانس» أيضًا، وقد كان تحت تصرفهم ثمانون سفينة (Diod. XVI, 47, 3).

وأخيرًا كان يرأس الفرقة الثالثة «منتور» الروديسي الإغريقي الأصل، وهو الرجل الذي سلم «صيدا» خيانة، وكان يقود في ساحة القتال جنوده المرتزقين الذين كان على رأسهم في عام ٣٥٠ق.م، وهؤلاء كان الفرعون «نقطانب» الثاني قد اشتراهم، وقد أصبحوا الآن يعملون على خرابه، وقد انتخب على رأس هؤلاء المرتزقين كذلك «باجواس» الذي كان يُعَدُّ أقربَ الناس للملك «أوكوس»، وكان رجلًا جريئًا لا يرعى إلًّا ولا ذمة، وسيجد سيده في شخص «منتور»، وقد كان يسير بأوامرَ خاصة من «باجواس» الرعايا الإغريق الذين في حوزة الملك، هذا بالإضافة إلى عدد عظيم من البربر؛ وكان يقود فضلًا عن ذلك عددًا عظيمًا من السفن، وبالاختصار نلحظ أن القواد الإغريق لم يكن في أيديهم أيَّةُ قيادة على الأقل رسمية أو ظاهرية على الرعايا الإغريق أو البربر التابعين للملك العظيم، أما القُوَّادُ الفرسُ فكان في يدهم جزءٌ من السلطة على الأقل رسميًّا في قيادة الفرق الهيلانية.

هذا، ونجد في النهاية خلف فرق الهجوم هذه احتياطيًّا عظيمًا من الجيش الفارسي مع الملك نفسه، الذي على ما يظهر لم يشترك فعلًا في العمليات الحربية، والدور الذي كان قد لعبه هذا الملك في حروب عام ٣٥١ق.م قد بُولغ فيه كما يدل على ذلك تهكُّمُ الكاتب «إسوكراتس» (Phll. 101)، وعلى أية حال نجد أن ما قام به في عام ٣٤٢ق.م كان دورًا فَعَّالًا محسًّا، وبعد تقسيم الجيش على هذه الصورة بدأت الأعمالُ الحربيةُ، وقد وضح لنا «ديودور» أولًا ما قامت به الفرقةُ الثانيةُ، (Diod. XVI, 48, 3 etc.)، وذلك أن القائد «نيكوستراتوس» كان يرشده في سيره أفرادٌ من الشعب المصري، كان قد أخذ الفرس أطفالهم ونساءهم رهينة إن هم خانوه؛ وقد أفلح بأُسطوله في الاستيلاء على جُزء من التحصينات المصرية، وبهذه الطريقة أمكنه أن يُعسكر في إقليمٍ بعيدٍ عن أنظار العدو، وقد كان لديه كل الوقت الكافي ليتحصن فيه (Diod. XVI, 48, 3)، فهل كان يا ترى يريد أن يهاجم المصريين بعد مدة؟ أو كان يريد أن يسحب الحاميات المجاورة التي كانت في أماكن قوية، ثم يسحقها سحقًّا أو كان يرمي إلى بَثِّ الذُّعر بتهديد قلب جيش العدو وجعله يتقهقر؟

والمؤكد في كل ذلك أن هذا القائد لم يكن المبادر في الدخول في موقعة؛ وذلك أنه عندما علم الجنود المرتزقة الذين كانوا يحرسون الإقليم محمد ريال الله رالمجاور بوجود العدو؛ أسرعوا بقيادة «كلينياس» صاحب «كوسي»، وكان عددُهُم سبعة آلاف مقاتل، وقد نشبتْ موقعةٌ حاميةُ الوطيس، وقد كانت هناك كذلك شجاعة الإغريق فاصلة؛ إذ يقول لنا «ديودور»: إن شجاعة الأرجيين قد منحتهم النصر، ولكن لا بد أن نُضيف أسبابًا أُخرى للحصول على هذا النصر؛ وذلك أن متانة الموقع الذي اختاره وحصنه القائدُ «نيكوستراتوس»، ويحتمل كذلك بعض التفوق في عدد الجنود الإغريقية الفارسية؛ قد ساعد على هذا النصر.

وعلى أية حال فإن الفرقة التي كان يقودها «نيكوستراتوس» بالإضافة إلى ثلاثة آلاف من الأرجيين، قد احتوت خمسة آلاف من خيرة البربر، وقد خر صريعًا من جيش «كلينياس» أكثر من خمسة آلاف رجل في هذه المعركة، وعندما أخبر «نقطانب» بهذه الهزيمة ووجد نفسه قد كُشف خارتْ عزيمتُهُ، وخيل إليه وقتئذٍ أن سائر جُنُود العدو سيذهبون بدون أية صعوبة لاقتحام النهر ويحملون حملة واحدة على «منف»، وهذا هو نفسُ التهديد الذي كان قد حدث في عام ٣٧٤ق.م، وقد جُدد الآن، ولكن في هذه المرة لم يقاوم المصريون؛ إذ في عام ٣٧٤ق.م قد امتد أَمَدُ الغزو بعد الاستيلاء على الحصن مما سمح للملك «نقطانب»

الأول أن يحصن «منف» وأن يقوم بهجوم معاكس باهر، ولكن في عام ٣٤٢ق.م نجد أن «نيكوستراتوس» على الرغم من أنه قد نال النصر لم نشاهده على ما يظهر قد أبدى جرأة أكثر من التي أظهرها «فارنابازوس» بالتقدم إلى الأمام، وفي هذا الموقف نجد أن «نقطانب» بدلًا من أن يقوم بهجوم للانتقام عاد إلى «منف» مع جنوده الذين كانوا تحت إمرته مباشرة، وتحصن هناك ولم يتحرك منها، (Diod. XVI, 48, 6–7).

وهذا التقهقر السريع الحاسم لم يحرم أرض الدلتا من جيش هام وحسب، بل كان من جرائه انهيار ركن من أقوى الأركان للدفاع عن «مصر»، وفي أثناء قيام القائد بتنفيذ حركة التفاف لم يكن القائد «لاكراتس» خاملًا أمام حصون «بلوز»، وقد كان في مقدوره أن يتحرك بحرية في القناة كما كان مسيطرًا على الأطراف القريبة من المكان، غير أنه مع ذلك كان عاجزًا عن القيام بهجوم جبار لكسر قوة الحامية؛ ولذلك نجد أنه صمم على محاصرة القلعة حصارًا منظمًا، (Diod. XVI 49, 1)، ومن أجل ذلك حول جزءًا من مياه القناة، وعمل سدًّا في عرضه، ونقل بواسطته الآلات التي كانت لازمة لتحطيم جدران الحصن، وقد هدمت هذه الجدران إلى مسافة طويلة، غير أن المحاصرين قد تمكنوا من عمل غيرها بسرعة عظيمة، وبنوا برجًا هامًّا من الخشب، (Diod. XVII 49, 1).

وقد استمرت المعركة حول جدران الحصن وشرفاته لمدة مِن الزمن، وقد كانتا لحامية تحتوي في مجموعها — أو بالأحرى في جزء منها — على جُنُودٍ مرتزقين من الإغريق، وهم الذين صَدُّوا هجمات «لاكراتس»؛ غير أن هرب الفرعون إلى «منف» قد كشف الجزء الخلفي من الحصن، وهنا نجد أن الرعب قد استولى على المحاصرين؛ ولذا فإنهم طلبوا المفاوضة مع العدو للتسليم، (Diod. XVI, 49–2).

وعلى ذلك يجوز لنا أن نظن أن مبادرة «نيكوستراتوس» وانتصاره كانا أَهَمَّ بكثير من مهارة «لاكراتس» ونشاطه، وبذلك سقطت «بلوز»، وفي هذه الحالة على الأقل كما قيل قد أدى اندفاع «نيكوستراتوس» الموفق إلى إنزال ضربة قاسية غير مباشرة بالفرعون.

وقد قابل «لاكراتس» بالترحاب مفاوضات المحاصرين ووعد الإغريق بالأيمان أنه عند تسليم القلعة يكون في إمكانهم كلهم العودةُ إلى بلاد الإغريق حاملين معهم أمتعتهم، وبعد ذلك دخل «بلوز»، ولكن كان فتح الإغريق للمدينة لتصير في قبضة الملك العظيم، وعلى ذلك أرسل «أوكوس» إلى «بلوز» «باجواس» الذي كان موضع ثقته يصحبه عدد عظيم من البرابرة ليستولوا على المدينة، وقد وصل «باجواس» في الوقت المناسب ليُسهم في رحيل إغريق الحامية، وقد سلب منهم الفرسُ عددًا عظيمًا من أشيائهم التي حملوها معهم، ولم

يسع «لاكراتس» أمام احتجاجات الإغريق إلا أن يتدخل وأجبر البرابرة على الفرار، بعد أن قتل منهم بعضَ الجنود، وقد عرض «باجواس» هذا الأمر على «أوكوس» متهمًا «لاكراتس» رسميًّا، غير أن الملك «أوكوس» لم يوافقْ على العقاب الذي أنزل بجنود «باجواس» وحسب، بل أمر بقتل السارقين (Diod. XVII, 49, 4–6).

والآن يتساءل المرء: هل هذا الحكم الذي أصدره أمير كان معروفًا عادة بالقسوة والخيانة؛ قد صدر عن شُعُور خالص بالعدالة؟ وعلى أية حال نعلم أن غرضه كان عدم الرغبة في صدم شعور «لاكراتس»، والمهم في كل ذلك كان الاستيلاء على «بلوز» التي عَدَّها الملك منذ ذلك الوقت أحدَ مفاتيح القلعة المصرية، ولكن هناك قد انتهتْ حدود نتائج النصر الذي ناله «نيكوستراتوس» في «مصر» فقد كانت هناك نتائجُ ضخمةٌ وفاصلةٌ في هذه الحملة نال شرفَها رجلٌ آخرُ؛ وأعني به: «منتور» الروديسي الذي قاد بصحبة «باجواس» الفرقة الثالثة من الجيش الإغريقي الفارسي، فإليه يرجع الفضل بما أبداه من سياسة ملتوية أكثر مما أظهر من مهارة أو أعمال حربية قوية، فقد عرف كيف يجمع عددًا عظيمًا من المدن تحت لواء الملك وفي طاعته ونال فخار هذا النصر العظيم، وقد حَصَّنَ مركزه الشخصيَّ بنيل ثقة الملك «أوكوس»، ولما كان يعرف أكثر من القواد الآخرين بما له من تجارب بخدمته تحت إمرة «نقطانب» أنه لن يكون هناك اتحاد تام بين العنصرين اللذين يتألف منهما الجيش المصري، وهما الشعبان اللذان يتألف منهما حاميات المدن المصرية؛ أي الجنود المرتزقة الإغريق والجنود الوطنيين (Diod. XVII, 49–6)؛ فقد أخذ في العمل على بَثِّ الأحقاد وإثارة الفتن بينهما؛ بغية أن ينال فائدة من ذلك، وهكذا نجد أنه بوحيٍ منه أخذت تنتشر شيئًا فشيئًا الشائعاتُ التالية: أن أولئك الذين يسلمون أماكنهم عن طيب خاطر سيعاملهم الملك معاملة سخية، أما أولئك الذين سيلجئون إلى القوة فسيصيبهم ما أصاب صاحب «صيدا» (Diod. XVI, 49, 7–8).

والواقع أن هذا التهديد كان جد حاذق فقد أزعج بطبيعة الحال على الأقل جزءًا محسًّا من المحاصرين، وأصبحوا يرغبون بشدة في التسليم، وقد كان المصريون بوجه خاص أكثر تَعَرُّضًا وأكثر إجرامًا في عيني ملك الفرس من الأجانب الذين كانوا في خدمة الأمير العاصي، وعلى ذلك كان لزامًا عليهم أن يخضعوا مسلمين مدنهم، وسنرى أن هؤلاء هم الذين طلبوا المفاوضات الأولى؛ أما الإغريق فإنهم — على العكس — كان في مقدورهم أن يُنقذوا وظيفتهم بشدة بوصفهم جنودًا مرتزقين، ومن هنا بطبيعة الحال نشأ عدمُ الثقة والخلافات بين الفريقين، مما سبب شَلَّ حركة المقاومة، والواقعُ أنه يُفهم مما جاء في «ديودور» أن الإغريق

قد قاموا من جانبهم بالمفاوضة لصالحهم (Diod. XVI, 49–6)؛ ومن ثم قامت اضطراباتٌ وخلافاتٌ في صالح المحاصر، ولقد كان مِن جراء انتشار الشائعة التي قذف بها «منتور» أن ثبتت في وقت قصير الفرقة بين العنصرين، وزادت شقة الخلاف بينهما (Diod. 49, 8)، وقد أعطت «بوبسطة» المثل في الخُرُوج من الحرب، وذلك أنه عندما كان معسكر كل من القائدين «منتور» و«باجواس» قد نصب أمام تحصينات هذه المدينة بدأتْ مفاوضات التسليم، وقد كانت المبادرة من جانب المصريين، وذلك على حساب الجنود المرتزقين، وكان ما يخشونه من الملك هو انتقامُهُ، وما يرجونه هو تسامحُهُ، وقد خاطبوا ثقته «باجواس» في أمر المفاوضة (Diod. XVI, 50, 1).

غير أن الإغريق كانوا يَشُكُّون في أمرهغير أن الإغريق كانوا يَشُكُّون في أمره، وقد أفلحوا في القبض على الرسول، وانتزعوا منه الاعتراف بالحقيقة، وعندئذ ثار غضبُهُم وانقضُّوا على المصريين فجرحوا منهم بعضَ الأفراد وقتلوا آخرين، ثم قذفوا بالباقين في ناحية من المدينة، وعلى أية حال لم يكن في مقدورهم أن يمنعوا أعداءهم من إخبار «باجواس» بالحادث، ودعوته للحضور والاستيلاء على المدينة بأسرع ما يمكن (Diod. XVI, 50, 2–3)، ولكن الإغريق في قرارة أَنْفُسهم — كما يُفهم مما رواه لنا «ديودور» منذ بداية قصته عن ذلك، (Diod. XVI, 49, 8) — لم يكونوا مدفوعين بعزيمةٍ قويةٍ للمقاومة، وسواءٌ أكانوا يأملون في مفاوضة حاسمة لمصلحتهم الشخصية، أم كانت حالة المصريين قد نزعت من نفوسهم كُلَّ أمل في الخلاص، وأنهم كانوا يخافون عدمَ قُدْرتهم على منع وُقُوع خيانة، فإنهم قد قرروا من جانبهم فتح مفاوضة بوساطة «منتور»، (Diod. XVI, 50, 3)، وقد كان جُلُّ ما يرغب فيه «منتور» هو تسليمُ «بوبسطه» دون حرب، غير أن مفاوضات المصريين مع «باجواس» قد هددت مطامع «منتور» الذي خاف أن تسليم المدينة رسميًّا إلى «باجواس»، وقد كان هذا الروديسي يريد أن يجني لنفسه شرف هذا الفتح، ولكن بمهارة فائقة عرف كيف يتحاشى هذا الخطر.

وفي الوقت نفسه نجد أن هذا الخطر — بعينه — قد جلب عليه فائدة لا تُقدر، وهي الاعتراف بالجميل والمحبة له من جانب أكبر ثقة عند «أوكوس»؛ فقد دعى «منتور» في سرية تامة الإغريق الذين في «بوبسطة» ليتفاوضوا معه، وقد أشار عليهم أن يتركوا «باجواس» يدخل المدينة ثم ينقضون على البربر الذين بصحبته، وقد دخل جزءٌ مِن جُنُوده في داخل جدران المدينة أغلق الإغريقُ الأبواب وذبحوا كل الفرس الذين دخلوا واستولوا على «باجواس» (Diod. XVI, 50, 3–4)، وعلى ذلك لم يكن لدى «باجواس» الذي فاوض

المصريين أي أمل إلا أمل واحد وهو استعمال «منتور» كل ما لديه من نفوذ على الإغريق الآخرين وعندئذ أَذَلَّ نفسه معترفًا بالخطأ الذي ارتكبه، وهو المفاوضةُ منفردًا مع المصريين دون أَخْذِ رأي «منتور»، ووعد أن يستشيره دائمًا في المستقبل، ورجاه أن يخلصه من هذه المصيبة، وعلى أثر ذلك أطلق الإغريقُ سراح صديق الملك بوحيٍ من «منتور»؛ وكذلك كان بفضل «منتور» أن سلم الإغريقُ «بوبسطه».

وهكذا، نرى أن كل فخار تلك العملية قد عاد على الروديسي الماكر، وقد كسب بذلك لُبَّ «باجواس» أبديًّا. ويقول «ديودور»: إنه قد نَشَأَ بين الرجلين محبةٌ وثيقةُ العرى، أكدتْها أيمانٌ متبادلةٌ بينهما، (Diod. XVI, 50, 5–8)، وقد كان من جراء خضوع «بوبسطه» أن سلمت مدنٌ أُخرى استولى عليها الفزع والهلع.

ولَمَّا رأى «نقطانب» ما صارتْ إليه حالُ المدن المصرية، وقد كان يعمل من «منف» على غزو الدلتا؛ فإنه لم يجسر أنْ يخاطر بكل شيء بالدخول في موقعة في العراء، ومن أجل ذلك فَضَّلَ النزولَ عن الملك، ووصل إلى بلاد النوبة حيث حمل معه إلى هناك الجزءَ الأعظمَ من كنوزه، (Diod. XVI, 51, 1)، وبعد ذلك اجتاح الفاتحون الفرس «مصر» فهدمت تحصينات المدن وانتزع كل ما في المعابد من ذهب وفضة، وكذلك سلبتْ سجلاتها التي كان «باجواس» يأمل أن يجبر الكهنة يومًا على شرائها مرة أخرى بمبالغ باهظة، وقد ولي أمر الحكم في «مصر» فرانداتس Phrandates ووضع بذلك «مصر» تحت النير الفارسي في حين أن الجنود المرتزقين قد عادوا إلى أوطانهم محملين هم وقوادهم بالهدايا، وهؤلاء كانوا أحسن صناع للنصر الذي ناله «أواكوس»، (Diod. XVI, 51, 2).

وهكذا قُضي على استقلال المملكة الفرعونية بعد أن تمتعت به أكثر من ستين عامًا بعد طرد الفرس أول مرة، وفي خلال تلك المدة الطويلة كان تأثير بلاد الإغريق يتمثل في صُور متعددة ومتغيرة، وقد كانت في ذلك خاضعة إلى إلهامات متنوعة جدًّا، انتهت بنتائجَ غاية في التنوُّع، وعلى الرغم من هذا التنوُّع البالغ فإنه يجوز لنا أن نضع عن العلاقات الإغريقية المصرية منذ ٤٠٥ق.م إلى ٣٤١ق.م بعضَ نتائج عامة، سنتحدث عنها فيما يلي:

تَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ القصد من هرب «نقطانب» أنه ربما أُتيحت له الفرصةُ بعد مدة أنْ يعود إلى «مصر»؛ غير أن الملك «أوكوس» قد اخترق كُلَّ بلاد «مصر» الوسطى والوجه القبلي، بعد أن استولى على كل الدلتا دون أن يُصادف مقاومةً تُذكر.

وقد قبض الغزاةُ على «مصر» بيدٍ حديدية بعد أن تمتعت باستقلالها مدة تربي على الستين عامًا، وقد كانت «مصر» في تلك الفترة أخطرَ عدو على بلاد الفرس، كما كانت

في الوقت نفسه أعظمَ مُناهض نجح في التغلب على أسرة الأخمينيسيين، ولكن الفرس في آخر المطاف تغلبوا عليها وسلبوها كل ما تملك من استقلال ومال، وقد وصف لنا واضع الحوليات المصرية حالة البلاد بعد الفتح الفارسي الأخير بقوله: لقد كان بحرنا وجزرنا مملوءة بالنبيذ؛ أي أن بيوت المصريين كانت لا تحتوي على أناس سكنوها، ويمكن للإنسان أن يقول عن تلك الفترة بوجه خاص: إن الميديين قد جلبوا إليهم التعاسة، فقد استولوا على بيوتهم وسكنوا فيها، (راجع: Demotische Chronik col. IV 22, 23; Com p., Ed. Meyer Kl. Schr. II, 86, 87).

والواقع أن كل الإجراءات التي اتخذها الفرسُ بعد الفتح كانت شديدة، ولكنها كانتْ لأغراضٍ معينة، وقد كان كُلُّ عصيانٍ جديد لا بد من إخماده بطريقةٍ واضحةٍ سريعة، وعندما نرى فيما بعد أن الكُتَّاب الإغريق يؤكدون أن الملك «أوكوس» قد ذبح العجل «أبيس» — ويضيف إلى ذلك الكاتب «سويداس» أنه ذبح كذلك العجل «منفيس» وكبش «منديس» — وأن هذه الجريمة الشنعاء تُعد من أفظع الجرائم الوحشية في التاريخ؛ فإن ذلك يضع أمامنا السؤال فيما إذا كان ذلك يضع أمامنا صورةً مشابهة للتي رُويت عن «قمبيز»، وقد تحدثنا عنها طويلًا، أو إذا كان لدينا هنا قصة تعسة من القصص التي ترجع إلى أصل مصري، وهذا ما ليس له أساس قط في النقوش المصرية؟ (راجع: Keinitz, p. 108 Note 4).

حالة الدولة الفارسية في تلك الفترة

كانت الحالةُ في الدولة الفارسية في تلك الفترة قد عادت إلى ما كانتْ عليه في أَبْهَى عصورها؛ إذ قد أصبحتْ أَقْوَى مما كانت عليه منذ مائة وخمسين سنة مضت، فقد كانت أحوالها في الداخل ثابتةَ الأركانِ قويةَ الدعائم، وعلى أثر انتهاء الحملة على «مصر» قضى القائدُ «منتور» على كل العناصر الثائرة في آسيا الصغرى وبخاصة الأمير «هرمياس» صاحب «أتارنوس» (Diod. XVI, 52, 5–8).

وكان قد أظهر «أوكوس» هو وجيشُهُ من الوجهة الحربية في أشد المواقف في ساحة القتال مع الجيش المصري تَفَوُّقًا عظيمًا، فقد كانت خططُهُ الحربيةُ تَدُلُّ على مهارة في وضع الخطط الممتازة، كما كان تنفيذ خططه يتم دون احتكاك، وقد كان «منتور» الروديسي وأخاه «ممنون» في المملكة الفارسية يُعَدَّان القائدين الإغريقيين اللذين يقومان بتنفيذ الخطط الحربية بمهارة على أي عدو، وكان «منتور» قد هرب مع «أرتابازوس» إلى

«مقدونيا»، وها نحن أُولاء نرى الآن «منتور» قد رد اعتباره واعتبار زميله بما قام به مِن عظيمِ الأعمال، وكان «منتور» بوجه خاص على أحسنِ ما يكون من الود مع الملك العظيم، (Diod. XVI, 52, 1–4, 50, 8).

أما في السياسة الخارجية فكانت «فارس» بوجه عام أعظم دولة في ذلك الوقت، ولم تكنْ مملكةُ «مقدونيا» في تلك الفترة في عهد ملكها «فيليب» الثاني الذي كان يسير بها نحو المجد قد بلغت المرتبة الأولى، وقد كانت كل أعمال الملك العظيم «أرتكزركزس» «أوكوس» تدل على أنه كان يَفُوقُ كُلَّ حكام الشرق في تاريخ الشرق، على أن شخصية «أوكوس» غالبًا لم تُقدر حق قدرها، كما أنها كانت مجهولة، حقًّا أنه كان رجلًا شديدًا كما كان من وقت لآخر متوحشًا وقاسيًا، ولكنه كان سياسيًّا موهوبًا واستراتيجيًّا وصاحب نشاط ومُثابرة وذكاء، كما كان عادلًا، ولا نزاع في أنه كان الرجل الذي تحتاج إليه دولةُ الأخمينيسيين في ذلك الوقت؛ إذ كانت تصرفاتُهُ غايةً في الجرأة والأهمية؛ وذلك لأنه بعد عهده بسنوات قلائلَ كان ناقوسُ سُقُوط بلاده قد دَقَّ، وفي صيف عام ٣٣٨ق.م قضى بصورة خاطفة على ذلك الفلاح الجديد الذي نالتْه الدولة الفارسية بعد خروجها من حرب «مصر» وقهرها إياها، فقد دس السم «باجواس» لصديقه الحميم «أرتكزركزس الثالث» «أوكوس» ملك الفرس كما قتل كل أسرته تقريبًا، وبعد ذلك ولى أصغر أولاد «أوكوس» المسمى «أرسس» عرش الملك (Diod. XVII 5, 3–4).

غير أن نتيجة ذلك لم تلبث أن ظهرت في الحال؛ وذلك أنه بعد مرور بضعة أسابيعَ على هذه الحوادث نجد أن «فيليب» الثاني المقدوني قد انتصر في موقعة «كايرونيا Chaironeia»، وأصبح سيدَ بلاد الإغريق، ولم تكن بلادُ الفُرس في مركز بعد هذا التغير الأساسي يربطها ببلاد الإغريق، وفي نهاية عام ٣٣٨ق.م كان لا بد من ضياع مصر مرة أخرى من يد الفرس، غير أن الثورة لم يندلع لهيبها في «مصر» نفسها، والظاهر أن أميرًا من بلاد النوبة السفلى، قد أعلن نفسه ملكًا على البلاد، وهو الفرعون «خبا باشا»،[1] الذي يجب أن توضع آثاره في هذه السنة، ومن المحتمل أن الملك «نقطانب» الثاني الذي فر إلى بلاد النوبة قد أوعز إلى «خبا باشا» غزو بلاد «مصر»، وقد كان هذا الفرعونُ الجديدُ يحمل اسم التتويج: صورة الإله «تتن» المختار من «بتاح»، ومن الممكن إذن أن ذلك يدل على أنه

[1] انظر [عصر الملك «دارا» الأول].

كان قد تُوج في عاصمة الملك القديمة «منف» وأنه قد اتخذها حاضرةً لملكه، ولما كان قد مات في السنة الثانية من حكمه عجل «أبيس»، فإن هذا الفرعونُ قَدْ دفنه في تابوت فاخر.

هذا، وتُحدثنا الآثارُ على أن الفرعون «خبا باشا» قد أعاد الأرض التي اغتصبها الفرس من آلهة «بوتو»، وهذا ما نجدُهُ مذكورًا على الآثار البطلمية بعد مُرُور خمسٍ وعشرين سنة على طرد الفرس من «مصر»، وفضلًا عن ذلك عمل هذا الفرعون على أن يحصن بلاد الدلتا ثانية؛ خوفًا مِن غَزْوٍ جديد يقوم به الفرسُ، وعلى أية حال لم ينل أي نجاح في ذلك، ومن المحتمل جدًّا أن الفرس في شتاء ٣٣٦–٣٣٥ق.م قد نجحوا في استرداد «مصر» ثانية تحت سُلطانهم.

هذا، ولا نعلم بعد ذلك ماذا صار إليه أمرُ هذا الفرعون.

ومما يؤسف له جد الأسف أن المصادر التي وصلت إلينا حتى الآن لم تحدثْنا بشيء عما حدث ما بين الاضطرابات التي وقعت في البلاط الفارسي، وكذلك فُقدان «مصر» كرة أُخرى أثناء عام ٣٣٨ق.م حتى ٣٣٦؛ إذ نجد أنه في هذه الفترة كان تاريخ الفرس مبتورًا، وقد كان آخر ملوك الأخمينيسيين الذين حكموا مصر هو «دارا» الثالث «أوكوس» الذي تولى الملك على أكثر تقدير في يناير–فبراير ٣٣٦ق.م، وذلك بعد أن قتل «باجواس» الملك «أرسس».

وعندما نعلم أن الأثر الوحيد الذي جاء ذكر اسمه عليه بالهيروغليفية هو لوحة العجل «بوخيس» مؤرخة بالسنة الرابعة من حكم «الإسكندر الأكبر» ٣٢٩ق.م؛ إذ جاء عليها مهمشًا بعض الشيء ما يأتي: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «دارا» عاش مخلدًا»، فإن ذلك ليس إلا مجرد بيان تاريخي، ولا يمكن استنباطُ شيءٍ من ذلك له قيمةٌ تاريخية، ولم يكن لدى المصريين أيَّةُ وسيلة يؤرخون بها السنين التي ما بين ٣٣٥ إلى ٣٣٣ق.م، إلا الملك الفرعون «دارا» الثالث.

ولدينا مصدرٌ آخرُ نقش بالهيروغليفية، يُلْقِي بعض الضوء على السياسة المصرية التي اتبعها الفرسُ في السنين الأخيرة من حُكمهم، وهذا المصدرُ هو لوحة لأمير من بلدة «هيراكيوبوليس» (إهناسيا المدينة)، يُدعى «سماتوي تفنخت» وهو رجل مِن عِلية القوم تَقَلَّبَ في عدة مناصب إدارية وكهنوتية (راجع: Stele Von Neapel L. Reinsch. Ag. Chiestomathie 1, 16; Brugsch thesaurus. p. 632; sethe Urk. II, p. 1–6; Tresson B.I.F.O. 30 (1931) p. 369–91) والنقش يحتوي على شكر للإله المحلي «حرشفي» الذي حفظه ورعاه مدة حياته، ومن هذا النقش نعلم بعض البيانات عن حياة «سماتوي تفنخت» (راجع: Sethe. Urk. II, 3. L. 11 ff. 4, L. 1 ff.)، وهاك المتن: أنت

«حرسفيس» تعمل الطيبات غالبًا باستمرار؟ وأنت تجعل مدخلي واسعًا إلى بيت الملك، وكان قلب هذا الإله الكامل (الفرعون) فرحًا بذلك بما قلته، وإنك ترفعني أمام الجماهير عندما تُدير ظهرك نحو «مصر» وإنك تضع حبي في قلب حاكم «آسيا» وعظماء رجاله يحترمونني وقد منحني وظيفة الكاهن الأكبر للإلهة «سخمت» بدلًا من أخي أمي «خالي» الكاهن الأكبر لـ «سخمت» في الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «نخت حنب»، وإنك قد حفظتني في الحرب الإغريقية، وذلك عندما قهرت «آسيا» وقد قتل كثير من حولي، ولكنه لم يرفع واحد يده عليَّ، وقد رأيتك فيما بعد في المنام عندما قال جلالتُك لي: أسرعْ إلى «إهناسيا»، تأمل أني معك — ولقد اخترقت وحيدًا الأراضي الأجنبية وعبرت البحر، ولم يَعْتَرِني خوفٌ، وإني لم أتعدَّ أمرك، لقد أتيت إلى «إهناسيا» ولم تنتن شعرةٌ واحدةٌ من رأسي …»

ومن ثم نرى — أن الأمير «سماتوي تفنخت» قد تمتع أولًا بحظوة فرعون وطني، ثم وضع في مكانة رفيعة في عهد الملك العظيم عاهل الفرس، وبعد هزيمة الفرس هزيمة منكرة، وهو يحارب في صفهم على يد الإغريق هرب على أية حالٍ إلى بلادٍ أجنبيةٍ بحرًا، حتى وصل إلى «مصر»، وكذلك نجد أنه في عهد الملك الذي تَوَلَّى عرش «مصر»، بعد ذلك قد حافظ على منصبه وعلى ذلك أمكنه أن ينقش الأثر الذي تركه لنا متحدثًا فيه عن حياته، غير أن الوقت الذي بدأتْ فيه حوادثُ هذه اللوحة على حسب ما جاء فيه؛ لا يمكنُ تحديدُهُ بوجه التأكيد، وقد وضع الأثري «بركش» (راجع: H. Brugsch Gesch. Egy p. 762–4)، الأمير «سماتوي تفنخت» في عهد تغلُّب «الإسكندر الأكبر» على «مصر»، وقد ظن الأثري «كرال» (راجع: A.Z. 16, p. 6–9)، أنه عاش في عهد «أناروس» وقد ظن «فيدمان» أنه عاش ما بين الثورة التي قام بها «أناروس» والثورة التي قامت في ٤٨٦ق.م أما الأثري «أرمن» (راجع: A.Z. 31, p. 91)، فقد أظهر أن اللوحة؛ لما جاء فيها من ذكر هزيمة الفرس والملك العظيم دون ذِكْرِ الألقاب الفرعونية لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى عهد تسلُّط الفرس على «أحمس» الثاني و«قمبيز» و«دارا» الأول، وأنه قد هرب من وقعة «ماراتون» ووضع لوحته في خلال الثورة التي قامت ٤٨٦ق.م.

ومِنْ جِهَةٍ أُخرى نرى أن الأثرى «شيفر» يقول (راجع Agyptiaka festschr. für oeorg. Ebers 1897 p. 92 ff): إن هذه اللوحة يمتد عهدها من ٥٢٥ق.م حتى ٣٨٦ق.م، وكذلك يمكن أن تكون من ٣٤٣ إلى ٣٣٢ق.م، وذلك لأن الكتابة الرمزية التي يحتوي عليها متنُ اللوحة كانت أقرب إلى العهد البطلمي وليس من العهد الساوي، وذلك يقرر أنها كانت من عهد «الإسكندر»، وعلى ذلك تكون الهزيمةُ التي لحقت بالفرس، وهي التي جاء

ذِكْرُها في اللوحة هي واقعة «آسوس»، ويقول الأثري «ترسون» (Tresson B.I. F.O, 30, 1931 p. 387–391) أن هذه الواقعة هي واقعة «جاو جاملا» وبدلًا من «آسوس»، على أنه يعارض ذلك سياحة «سماتوي تفنخت» بحرًا، ولا بد أن يلحظ الإنسان أنه بالنسبة لسماتوي تفنخت لا يوجد أي سبب — بعد عام ٣٣٢ق.م، وهو العام الذي أقام فيه لوحته — لِيَتَمَلَّقَ الفرس، وإذا فرضنا أنه عاش في عهدِ آخرِ ملوكِ الفرس، فإننا نرى أنه حافظ على منصبه العالي، وأنه حارب في جانب الفرس ضد «الإسكندر».

ومن ثم نجد أن «سماتوي تفنخت» لم يكن صنيعة الفرس؛ إذ إنه لم يذكر لنا فقط بنفسه أنه كان قبل ذلك في حظوة حاكمٍ مصري، بل كان أميرًا في «إهناسيا المدينة»، ومن المحتمل إذًا أنَّ جده البعيد كان من أول الرجال الذين عاشوا في عهد «بسمتيك» الأول كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومن المحتمل أنه أَحَدُ أفراد سلالة الملك «بفنفدوباست» الإهناسي من عهد الملك «بيعنخي»، ولدينا أميرٌ آخرُ يُدعَى «سماتوي تفنخت» من «إهناسيا» محفوظٌ إلى الآن تمثالُهُ، ويحتمل أنه مِن عهد الأسرة الثلاثين، وقد يجوزُ أنه كان الأمير «سماتوي تفنخت» الذي من عهد «الإسكندر الأكبر» (راجع: Daressy. A.S. 21, 141) وقد كان جَدُّ الأمير يُدْعَى «زدسماتوي أوف عنخ» (راجع: Sethe. Urk, II, 2 L. 10)، ولدينا قطعة بردي مؤرخة بالسنة الثامنة من عهد «نقطانب» الأول ٣٧٣ق.م، عُثر عليها في «إهناسيا»، وقد جاء عليها ذكرُ اسم فرد يُدْعَى «هرماكوروس» بن «سماتوي تفنخت»، وبعد كسر في الورقة نجد كلمة «إهناسيا» و«سماتوي تفنخت»، وهذا يمكن أن يكون موحدًا مع الذي تحدث عن تمثاله «دارسي» وهو الذي سبقت الإشارة إليه، وعلى ذلك يُمكننا أن نتتبع كيف أَنَّ تاريخ هذه الأسرة قد بقي ممتدًّا على الرغم من كل التقلُّبات التاريخية، مما يدل على أَنَّ الأرستقراطية في هذه الأُسرة كانت قويةَ الأركان تتنقل من نسلٍ إلى نسل، وفي باكورة عام ٣٣٤ق.م عبر الإسكندر المقدوني البوسفور، وفي شهر مايو نال أولَ انتصارٍ عظيم على شطاربة الفرس في «جرانيكوس Granicos»، وفي خريف ٣٣٢ق.م بعد انتصاره على الملك العظيم في «آسوس» انتزع الإسكندر كل عربي آسيا من الدولة الفارسية.

وفي تلك الأثناء كانت «مصرُ» هادئة لم تُبْدِ حراكًا، وكذلك نلحظ أنه لَمَّا سقط الشطربة «سباكس» في موقعة «آسوس» مع الجزء الأعظم من الحُصُون الفارسية؛ بقي كُلُّ شيءٍ هادئًا ساكنًا، ولم يحدث بعد استيلاءِ الإسكندر على «صور» و«غزة» أَيُّ حركة تَدُلُّ على العصيان في «مصر» من جانب المصريين في بقية الحاميات التي كانتْ تحت إمرة القائد «مازاكس»، (راجع: Arrian. Anabasis III 1, 2.)

وهكذا نرى مرة أُخرى أنَّ كل الثورات التي قامتْ على الفرس في خلال المائة والخمسين سنة المنصرمة لم يكن مصدرُها مصريون، وفي هذه المرة لم يكن هناك أميرٌ لوبيٌّ أو نوبيٌّ لينتهز هذا الموقف ويفيد منه ويعتلي عرش «مصر»، وبعد موقعة «آسوس» زحف أمينتاس المنفي على رأس بضعة آلاف من الجنود من «آسوس» عابرًا «فنيقيا» و«قبرص» وموليًا وجهه شطر «بلوز» مؤكدًا أن الملك «دارا» قد عهد إليه أمر «مصر» وقد اخترق بلادَ الدلتا مشيعًا فيها — على يد جُنُوده — السلبَ والنهب، وعندئذ خرج «مزاكس» بجيشه الفارسي والمسلحين من المصريين وهزم «أمينتاس» وشركاءه في الجريمة بعد أن أشاعوا الموت في جماعة منوعة.

(راجع: Arrian. Anabasis II, 13, 2–3; Diod. XVII 48, 2–5; curtius Rufus IV 1, 27–33; Com p. Alexandarreich Bd. II, No. 485, p. 245–6, Mazakes & No. 58, p. 28, 29, Amyntas, bis p. 29, A. I.)

وعندما ظهر الإسكندر في نهاية عام ٣٣٢ق.م في «مصر» سلم له «مازاكس» البلاد دون قتال.

(راجع: Arrian. Anabasis III 1,2; curtius Rufus IV 7, 3–4.)

وهكذا انتقل ملك «مصر» من يد دولة الفرس الغاربة إلى يد دولة الإسكندر العالمية المشرقة.

أهم الآثار التي خلفها نقطانب الثاني

(١) لوحة من الحجر الرملي

المائل إلى الاصفرار مؤرخة بالسنة الثانية، الشهر الرابع اليوم التاسع عشر من حكم الملك «نقطانب» الثاني، وُجدت في دير القديس «أرميا» بمنف، مستعملة عتب باب.

وصف اللوحة: يبلغ ارتفاعُ هذه اللوحة ١٫٦٢ مترًا، وعرضها ٠٫٩٢ مترًا، وسمكها ٠٫٤٠ مترًا، وهي من الحجر الرملي من الجبل الأحمر الواقع بجوار «القاهرة»، وجزؤها الأَعْلَى على هيئة نصف دائرة في حافتها صورةُ السماء منحنية حسب تقويسة اللوحة وتحت نهاية صورة السماء من الطرفين صولجان، وتحت صورة السماء والشمس المجنحة يُحيط بها صلان، وتحت الجناحين المتن التالي: «بحدتي» الإله العظيم، رب السماء، وتحت كل هذا نجد صورة العجل «أبيس» يتعبد له الفرعون وهو راكعٌ أمامه، ويوجد خلف الملك

صورة روحه: روح الملك التي تعيش في «بيت الصباح» وفي «جبات» ويشاهد اسم روح الملك تخرج من ساق تقبض عليه ذراعان، ونقش في المربع الذي يحمله الساق: «حور» محبوب الأرضين.

ويشاهد أمام الملك مائدة قربان نقرأ عليها «قربان من خبز وجعة للعجل «أبيس» المتوفى وهاك النص: «حابي» العائش وقرناه على رأسه.»

المتن الهيروغليفي: (١) في السنة الثانية من عهد جلالة الملك «حور» محبوب الأرضين ممثل السيدتين «المسمى» مهدئ قلب الإلهة «حور» الذهبي (المسمى) مثبت القوانين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) «سنزم-اب-رع ستب-ن-آمون» بن رع (المسمى) «نخت حور حبت نقطانب» الثاني العائش أبديًّا، المحبوب من «أبيس» حياة «بتاح» المتكررة ومُعطى الحياة، (٢) والإله الكامل الحي ابن «أوزير» والذي ولدتْه «إزيس» ليعملَ الشعائر لمعابد الآلهة، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نزم-اب-رع-ستب-ن-آمون» بن رع «نخت حور حبت» العائش أبديًّا، عندما كان جلالتُه في قصره يحكم في حياة وقوة في الجدار الأبيض «منف»، وعندما أراد أن يُتمم أعمالًا فاخرة، (٣) لآلهة «مصر» (؟) أمر جلالتُه بإقامة مكان «أبيس» بناءً فاخرًا للأبدية، وبعد وقتٍ محدد أتى إنسانٌ ليقول لجلالته: إن مكان «أبيس» الحي قد بُني، (٤) وعلى حسب أمر جلالته فإن أبوابه صُفِّحَتْ بالذهب (؟) ومصراعاه وشيا ... بالفضة، ووشيت (...) وكل شيء جميل مشاهدته، وبعد أن سمع جلالتُه هذا ذهب جلالته إلى معبد «بتاح» وعمل، (٥) (...) الذي عمله جلالتُه وبعد ذلك أقام جلالتُه مكانًا لهذا الإله لأجل أن يرتاح فيه (يموت) بشغل فاخر من (٦) ... عمل ذلك في المكان الجميل الذي أقامه جلالتُه، كل شيء في مكان التحنيط من هذا اليوم الجميل حتى يوم الدفن، قائمة بالأشياء التي أمر جلالتُه بإحضارها إلى حجرة التحنيط:

ذهب: ٤٧٦ دبنًا، وثلاث قدات من الذهب.

فضة: ٥٦٩٨ دبنًا، وثلاث قدات من الفضة.

(٧) ... قربان للإله في حجرة التحنيط هذه ١٢٦٦ دبنًا من الماشية (؟) ٣٢٢٦ بخور؟ ١٠٠ دبنًا من المعدن مما يورد البيت الملك من نسيج (؟) ١١٤٠٠ دبنًا من قار بلاد «فنيقيا» وقار من (...) س دبنًا، ومر ٣٠٠٠٠ دبنًا ... «قبرص» ١٠٠ دبنًا، راتنج جديد ١٥٠٠٠ دبنًا وراتنج من الواحة ٢٠٠ دبنًا، وراتنج مصري ١٠ دبنات، ومحصول راتنج (؟) ٢٥ دبنا، وزفت (٩) س دبنًا، نطرون من «وادي النطرون» ٥٩ دبنًا، ونطرون من الواحة ٢٠٠ دبنًا ونطرون من الكاب ١٥٠٠ (؟) دبنًا مع كل (...) كما هو مبين كتابة؟ ودني

٢٠٠٠ دبنًا، وشهد ٢٠٠٠ هنا، وزيت واحات ٢٠ إناء «هنو» زيت الوجه القبلي (١٠) س + ٣٠٩٠ (مكيالًا) وزيت الراتنج ١٢٠٠٠ + س هنا (مكيال) (…) + ١٠٠٠، ٣٩٤ ثورًا، و٢٩ فحلًا، ٧٧٣ إوزة، ٢٨٥ حمامة.

(١١) (…) نبيذ من الواحات ٢٢ هنا، نبيذ جديد من الواحة ٥ (؟) هنات، وتبي ٣٥٠٠٠ دبنًا، ١٠٠ مكي من «قبرص»، وسلات مفعمة (؟) (١٢) (…) وأشياء كثيرة جميلة وحلوة ٢٠ أردبًا (؟) … وكحل من «قفط» ١٠٠ دبنًا، كحل من «ببلوص» (جبيل)؟ ١٠٠ دبنًا وثلاث قدات، وما هو أحسن من؟ … ١٠ دبنات، ومعدن حتم ٥٠ دبنًا ومعدن (خنتي)، (١٣) س دبنًا (…) ٢٥٠ (؟) دبنًا ٥٠٠٠ دبنًا … (؟) … ٣٠٠٠٠ دبنًا، ٢٠٠٠٠ من خشب السنط، و١٥٠٠ أردب فحم بلدي (؟) ٢٠٠٠٠ حزمة من البردي، ٥٠٠ حصيرة من بوص البردي س حزمة من البردي اليانع، (١٤) (…) … (؟) … (؟) … نسيج من عمل الكهنة (؟) والكهنة المرتلين والعمال (؟) الذين يقومون بالتطهير في حجرة التحنيط (؟) وعمل جلالته (قربانًا عظيمًا) … بكل شيء (…) في حجرة التحنيط …؟ وأمر جلالته بتنظيم قربان عظيم لمدة ٤٥ يومًا، وأمر جلالته أن تُعمل تعاويذُ جميلةٌ من الذهب، ومن كل الأحجار الكريمة التي لم يكن قد عُمل مثلها من قبل، وكذلك ملابس، (١٦) … وعمل جلالته التحنيط فعطر أعضاء الإله بالزيت وأمر جلالته بإحضار نسيج من نوع نسيج الآلهة كلهم، وكذلك نسيج من الحجرة الجنوبية والحجرة الشمالية من نسيج الإلهة «تيت» (إلهة النسيج) في ١٩ كيهك (أي الشهر الرابع من فصل الزرع اليوم ١٩)، (١٧) … وقدم جلالته قربانًا عظيمًا من ثيران وإوز ونبيذ وكل شيء جميل في قاعة القربان العظيمة الخاصة بحجرة التحنيط …؟ … وأمر جلالته بإحضار ست آلاف لفافة تعادل ست آلاف دبنًا (؟) إلى السرابيوم، (١٨) وجلالته … دفنه في السرابيوم بجانب جبانة «منف»، وبعد ذلك فإن قداسته (؟) (أي العجل «أبيس») مَرَّ في وسط الباب العظيم وجد جلالته واقفًا هناك مع أتباعه مثل ما يقف الصقر على بيرقه.

مضمون اللوحة

لقد أقام الملك «نقطانب» الثاني في السنة الثانية من حكمه الذي بدأ حوالي ٣٦٠ق.م مأوى العجل «أبيس» الحي، ومن المحتمل أن هذا المبنى موحَّدٌ مع المعبد الذي أقام «نقطانب» في هذه البقعة، وهو المعبد الذي قام بحفره في جنوبي السرابيوم ويسمى معبد «نقطانب» الثاني، وهو معبد لأبيس الحي، (راجع: Le Serapeum de Memphis (Ed.) Maspero

p. 76)، ومن ثم نعلم أن هذا المأوى كان للعجل «أبيس» الحي؛ إذ هناك كانت حظيرتُهُ وحجرة عبادته، وذلك بعد موت سلفه، غير أن الجزء الأكبر من هذا المتن؛ أي من سطر ٥ إلى سطر ١٨ قد خصص لمراسيم دفن هذا العجل «أبيس»، فقد أمر الملك بإقامة حجرة دفنه في السرابيوم وعُني بتحنيط هذا الحيوان في حجرة الطهور (أي حجرة التحنيط)، وهذا ما تُحدثنا عنه الكثيرُ من اللوحات العدة التي وجدناها في السرابيوم، وهي الحجرة التي يجري فيها تحنيطُ عجل «أبيس»، وقد وصفها لنا «ديودور» الصقلي (راجع: .Diod I, 83–5) وقد خصص لهذا الغرض الملك «نقطانب» وقفًا عظيمًا عدد في صلب المتن،[٢]

[٢] وعندما يموت واحدٌ من هذه الحيوانات، فإنهم يَلُفُّونه في كتان جميلٍ، ثم يَنُوحُونَ عليه، ويضربون صُدُورَهم من أجله ويحملونه إلى حيث يحنط، وبعد أن يُعالجونه بزيت الأرز والأفاوية التي تنقل الرائحة العطرية، وتحفظ الجسم لمدة طويلة، يضعونها في قبر مقدس، وأن كل من يقتل واحدًا من هذه الحيوانات عمدًا فإنه كان يُعدم، إلا إذا كان المقتولُ قطة أو طائر أبو منجل «أبيس»، أما إذا قتل أحد هذه الحيوانات سواء أكان ذلك قصدًا أو عن غير قصد فإن القاتل بالتأكيد يعدم؛ وذلك لأن عامة الشعب يجتمعون زمرات ويعاملون المعتدي بمنتهى القسوة، وكانوا أحيانًا يفعلون ذلك دون انتظار لمحاكمة.

وخوفًا من عقاب كهذا؛ فإن أي واحد يقع نظرُهُ على أحد هذه الحيوانات ميتًا فإنه كان يبتعد إلى مسافة بعيدة، فإذا ما رآه القومُ بعد ذلك صاحوا بحزنٍ واحتجاج؛ لأنهم وجدوا الحيوان ميتًا فعلًا؛ ولذلك كانت متأصلةً في نُفُوس الشعب نظرتهم الخرافية إلى الحيوانات. ولقد كان الاحترامُ الخرافيُّ الذي غُرس في نفوس عامة الشعب عميقًا بالنسبة لهذه الحيوانات كما كانت العواطفُ التي يُكنها كل إنسان بالنسبة للاحترام الواجب نحوها في الوقت الذي لم يكن ملكهم بطليموس قد أعطى من قبل الرومان اسم «صاحب» وكان القوم وقتئذٍ يظهرون كل حماس للحصول على كسب حظوة البعث الإيطالي الذي كان يزور مصر وقتئذٍ، وخوفًا منهم كانوا عازمين على عدم إيجاد أي سبب للشكوى أو الحرب، وذلك عندما قَتَلَ أحدُ الرومان قطةً وهجم الشعب في جمع على بيته، ولم يكن في مقدور الموظفين الذين أرسلهم الملك رجاء إخلاء سبيل الرجل ولا الخوف الذي كان يَشعر به كل الناس من رومة كافيًا لخلاص الرجل من العقاب، وذلك على الرغم من أن عمله كان بطريق الصدفة.

ونحن نَقُصُّ هذا الحادثَ لا على أنه مجردُ شائعة، ولَكِنَّا رأيناه رأي العين عند زيارتنا لمصر. (٨٤) ولكن إذا كان ما قِيل يظهر الكثير غير مصدق وأنه يشبه حكاية خيالية فإن ما يأتي هنا سيظهر أكثر غرابة، فقد قالوا: إنه ذات مرة عندما كانت مصر تَئِنُّ تحت عبء القحط، قبض الكثيرون أيديهم في وقت الضيق على زملائهم، ومع ذلك فإنه لم يتهم واحد بأنه اشترك في القبض على الحيوانات المقدسة (لأكلها) وفضلًا عن ذلك فإنه عندما يوجدُ كلبٌ ميتٌ في أيِّ بيت، فإن كل رفيق فيه يحلق كل جسمه ويأخذ في الحزن، وأغربُ من كل هذا أنه إذا حدث أن أي نبيذ أو حب أو أي شيء آخر قد خُزن في المبنى الذي مات فيه أحدُ هذه الحيوانات؛ فإنه لا يخطر على بال القوم قط أنْ يستعملوه بعد ذلك لأي غرض، وإذا اتفق

وهذه هي الأشياءُ التي كانت ضرورية للتحنيط، هذا فضلًا عما يحتاج إليه من قربان يتطلبها العجل «أبيس»، وبعد ذلك أمر الملك بدفن العجل المحنط في «السرابيوم»، وقد اشترك جلالتُه شخصيًّا في الدفن، فقد سار في ركاب الموكب الجنازي حتى ثوى «أبيس» في مأواهُ الأبدي، (راجع: S.9, 1908 p. A. 154–7; Spiegelberg in Quibell Saqqara III 1907–18 p. 89.9903 and Pl. LII, ComP. p. 10).

أن القوم يقومون بحملةٍ حربية في مملكة أُخرى فإنهم كانوا يدفعون دية القطط والصقور المأسورة، ويحملونها ثانية إلى مصر ويفعلون مثل هذا أحيانًا عندما تكون مئونتُهُم من المال لأجل الرحلة قد أخذت في النقصان.

أما عن الأحفال الخاصة بعِجْل أبيس المنفي وعجل منفيس الهليوبوليتي وتيس منديس، وكذلك تمساح بحيرة موريس والسبع الذي حفظ في مدينة السباع (تل المقدام الحالية) — كما تسمى — هذا بالإضافة إلى أحفالٍ أُخرى كثيرة مثلها فإنه يمكن وصفها بسهولة، غير أن الكاتب هنا لا يمكن أن يصدق بسهولة أي إنسانٍ لم يكن قد رآها فعلًا؛ وذلك لأن هذه الحيوانات قد حفظت في حظائرَ مقدسة ويُعنى بها رجال عدة ذوو مكانة يقدمون لها أغلى الطعام؛ لأنهم يقدمون بنظام لا ينقطع أجملَ دقيق قمح أو جريش قمح مذاب في اللبن وكل أنواع الحلوى المصنوعة من الشهد ولحم الإوز المسلوق والمشوي في حين أن الحيوانات التي تعيش على اللحوم كانت تصاد لها الطيور وتُلقَى أمامها بكثرة، وفي العادة كانت تبذل عناية كبيرة ليقدم لها طعام غال.

وكانوا يحمون باستمرار الحيوانات بالماء الساخن، ويدلكونها بأحسن العطور، ويحرقون أمامها كل نوع من البخور العطر، ويمدونها بأغلى الأغطية وبالمجوهرات الفاخرة، ويقومون بعناية عظيمة لأجل أن يتمتعوا بالوظيفة الجنسية على حسب مطالب، وكانوا يسمونها محاظيه وكانوا ينفقون مع كل حيوان أجمل أنثيات من نوعه، وكانوا يسمونها محاظية وكانوا ينفقون عليها مصاريفَ باهظة ويخدمونها بعناية.

وعندما كان يموت أيُّ حيوانٍ فإنه كان يحزن عليه حُزْنًا عميقًا، كما كان يحزن أولئك الذين قد فقدوا طفلًا عزيزًا، وكانوا يدفنونه بصورة لا تتفق مع مقدرتهم المادية، بل كانوا يتجاوزون ثمن ضياعهم، فمثلًا نجد أنه بعد موت الإسكندر وعلى أثر تَوَلِّي بطليموس بن لاجوس عرشَ مصر حَدَثَ أن عجل أبيس في منف مات بالشيخوخة، فصرف الرجل المكلف برعايته على دفنه فضلًا عن كل المبلغ العظيم الذي كان مخصصًا لرعايته مبلغ خمسين تلنتًا من الفضة استلفها من بطليموس.

وحتى في أيامنا نجد أن بعض حُرَّاس هذه الحيوانات قد صرفوا على دفنها ما لا يقل عن مائة تلنت.

ومما سبق يتضح أن ما جاء في لوحة نقطانب يتفق في معظمه مع ما جاء فيما أورده «ديودور» هنا، ولا غرابة في ذلك فإنهما كانا متقاربَين في الزمن.

ومما هو جديرٌ بالذكر هُنا أنَّ مثل هذه المبالغ التي خُصصتْ لدفن العجل أبيس نجد أنها كانت تُصرف مثلُها في العهد البطلمي وما بعده، كما ذكر لنا «ديودور» ذلك (راجع: Diod. 1, 84).

(٢) لوحتان بالديمقوطيقية

محفوظتان في متحف «اللوفر» مؤرختان بالسنة الثانية من عهد الملك «نقطانب» الثاني وقد عُثر عليها في سرابيوم «منف»، (راجع: Mariette No. 3372 et. 199)، وقد ترجمهما الأثري «ريفييو»، (راجع: Notice des papyrus demotiques p. 478 et. 479)، وقد أرخ إحداهما بالثامن والعشرين من شهر بابه والثانية بشهر «مسرى».

(٣) لوحة العجل بوخيس

المؤرخة بالسنة الثالثة؟ السادس عشر من شهر «توت» من عهد الملك «نقطانب» الثاني (حوالي ٣٥٧ق.م)، وهو التاريخُ الذي وُلِدَ فيه العجل «بوخيس» وقد نصب في السنة الثالثة في ١٣ أمشير من نفس السنة، ومات في السنة الرابعة عشرة ٣٠ كيهك عام ٣٤٦ق.م، وقد عُثر على هذه اللوحة في «أرمنت»، (راجع: Mond. Meyers Bocheum Vol. II p. 28, Pl. in Vol. III=XXX VII 1).

(٤) منشور حظر مؤرخ بالسنة الخامسة الشهر الثاني عشر من عهد الملك «نقطانب» الثاني

وفي عام ١٨٩٤ نقل الأثري «دارسي» نقشًا محفورًا على صخرة في الجبل الواقع جنوبي «العرابة المدفونة» في مواجهة قرية «غابات»، وهذا النقش كان محفورًا على ما يظهر في محجر قديم مكشوف، (راجع: Rec. Trav. 16, p. 126–127)، غير أنَّ تجار الآثار قطعوا هذا النقش وباعوه لمتحف «برلين»، ولكن مما يؤسَف له أنه أصابه أضرارٌ عند القطع، وضاع منه جزء.

وقد تناول الأثريُّ «بورخاردت» هذا المنشور بالبحث، (راجعْ: A.Z., 44 (1907–8) p. 55–58)، كما نشر صورة الحجر المنشور بعد قطعه من الجبل.

وصف الحجر: يبلغ ارتفاعُهُ ٧٣ سنتيمترًا وعرضُهُ من ٤٨ إلى ٥٠ سنتيمترًا، وقد ضاع منه بعضُ أجزائه وكتابة النقش على وجه عام خشنة.

يشاهد في أعلى اللوحة أمام الآلهة «أوزير» و«حور» و«إزيس» و«نفتيس» الملك «نقطانب» الثاني ومعه النقش التالي:

(١) «رب الأرضين سنزم-اب-رع ستب-ن-أنحور».
(٢) رب التيجان «نخت حور حبت».
(٣) مُعطَى كل الحياة والثبات والقوة مثل «رع».

وينحصرُ نَشَاطُ الملِك في كونه في هذا المنظر يقوم بتقديم البخور والماء البارد لوالده، ويشاهد خلف الملك الصيغة العادية التالية: «كل الحماية والحياة خلفه مثل «رع»، ويقول «أوزير» سيد أهل الغرب والإله العظيم رب «العرابة» للملك: «إني أُعطيك كل الحياة والقوة»، ويقول «أوزير» حامي والده للملك: «إني أعطيك كل القوة»، وتقف خلف «حور» الإلهة «إزيس» العظيمة المقدسة ربة السماء، ونقش أمام «نفتيس» اسمها «نب حت».

وفي الجُزء الأسفل من اللوحة يأتي متن المنشور الذي يتألف من ثلاثة عشر سطرًا، ويلاحظ أن أحد عشر منها سليمة، أما السطران الباقيان فقدْ ضاعا عند نشر الحجر من مكانه الأصلي، ولكن حفظا لنا في المتن الذي نقله «دارسي» عن الأصل قبل إزالته من مكانه، وهاك الترجمة: (١) السنة الخامسة الشهر الرابع من فصل الصيف في عهد جلالة الملك «حور»، (٢) محبوب الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «سنزم-اب-رع ستب-ن-أنحور» بن رع رب التيجان «نخت حور حبت» عاش أبديًّا، (٣) المحبوب من «أوزير» أول أهل الغرب والإله العظيم رب «العرابة»، لقد أتى إنسانٌ ليقول لجلالة «حور» الملك إن جبل «العرابة» المقدس الذي يقطع منه الحجر هو الذي يوجد بين الصقرين اللذين يحملان هذا الجبل المقدس؛ وذلك لم يحدث قط من قبل، وعلى ذلك أمر جلالة «حور» بأن لا يقطع أي حجر من هذا الجبل المقدس الذي بالمكان المسمى «حامي سيده»، وأن أي إنسان سيوجدُ فيه (أي في مكان «قطع الأحجار») يقوم بقطع حجر من هذا الجبل فلا بد أن ينفذ فيه العقاب بسبب ذلك وهو بتر عضو منه كما يحدث مع كل من يرتكب جريمة ضد مكان مقدس (…) الملك المكافأ بكل (العافية) والصحة …»

تعليق: هذا المنشور — كما يظهر — صدر في السنة الخامسة والخمسين بعد الثلاثمائة قبل الميلاد، والذي أصدره هو الملك «نقطانب» الثاني، ويلاحظ هنا أن «بورخاردت» عندما كتب عن هذا المتن كان المؤرخون والأثريون يعدون الملك «نخت حور حبت» «نقطانب» الأول، ولكن الكشوف الحديثة أظهرت أنه «نقطانب» الثاني، ومِن ثم قلبت الأوضاع والتواريخ في كل الكتب التي كتبت عن هذين الملكين، ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أن الملك «نقطانب» الثاني قد اتخذ لقبه بوصفه «حلو قلب رع» والمختار من الإله «أنحور»، وهذا الإلهُ الأخير كان إله الحرب، وقد اتخذه ملوك الأسرة الخامسة والعشرين إله حرب وتعبدوا إليه كثيرًا، (راجع: مصر القديمة، الجزء الحادي عشر)، ولا غرابة أن يتخذه هنا «نقطانب» الثاني إلهًا له ويضعه في لقبه؛ فقد كان ملكًا حربيًّا قام بحروب طاحنة مع الفرس.

أما موضوع المنشور الذي أصدره «نقطانب» في هذا المتن فهو عبارة عن ظلامة خاصة بقطع أحجار من مكان مُقَدَّس في غرب «العرابة المدفونة»، وهذا المكان يقعُ بين «الصقرين»، ولا بد أنَّ هذا مكانٌ يقعُ بجوار المكان الذي وُجدت فيه هذه اللوحة؛ أي في الجبل الواقع جنوبي «العرابة المدفونة» في مواجهة قرية «غابات» ولا بد أن يتصور الإنسان تحت الصقرين خارجتين لجبلين، ولا شك في أن هذه التسمية قد يرجع اشتقاقُها إلى شكل المكان، أو أنها ترجع إلى خُرافة قديمة.

ومما يَلفت النظرَ هنا أنه لم يذكر اسم صاحب الشكوى غير أنه لا بد أن نفهم أن الظلامة قد أتت من جانب كهنة «العرابة» الذين يسكنون بجوار هذا المحجر، وقد كانوا على يقين من إجابة طلبهم؛ لأن «العرابة» كانت الموطن الأول الذي عبد فيه الإله «أنحور» (أنوريس) الذي اختار «نقطانب» ليكون ملكًا على البلاد في تلك الفترة العصيبة من تاريخها.

وأخيرًا يلحظ أنه لم يذكر العضو الذي كان لا بد أن يبتر كما هي العادة في المتون الأُخرى، ومن ثم نفهم أنَّ أَقَلَّ حَدٍّ للعقاب قد ذُكر، وأن شدة العقوبة قد تُركت لتقدير القاضي الذي كان سيفصل في أي تعدٍّ على هذا المحجر، ومتنُ اللوحة يَدُلُّ على مقدار نُفُوذ الكهنة في هذا العهد.

(٥) لوحةٌ مكتوبةٌ بالخط الديموطيقي

في السنة الثامنة الشهر الثامن من حُكْم الملك «نقطانب» الثاني عُثر عليها في سرابيوم «منف».

(راجع: Revillout. Notices des Papyrus Demotiques archaiques, p. 479; Rev. Egypt. 6, (1891), p. 139–140.)

ويُلحظ في متن هذه اللوحة أن العادة كانت وقتئذٍ أن يُذكر أولئك الذين خدموا «أوزير-أبيس» في وقت حادث ما خاص بهذا الإله، والواقعُ أنه قد جاء ذِكْرُ الأعمال التي تمت في مقصورة «أبيس» كما ذُكر كذلك أولئك الذين خدموا «أبيس» وقتئذٍ.

وقد جاء فيها السنة الثامنة شهر برمودة من عهد الملك «نخت حور حبت»، وهو الوقت الذي بنيتْ فيه مقصورةُ «أبيس» التي قد أُقيمت واسم الرجال الذين خدموا أمام «أوزير-حابي»: «بي أوزير-حابي»، حا ... ابن «عنخ حابي»، وأمه هي شماتى، و«بي «روح» الخاص بأبيس أوزير ... ابن عنخ حابي وأمه هي شماتى، «بي» الخاص بأبيس أوزير «بتوزور-حابي» ابن عنخ حابي وأمه هي شماتى، بي أبيس أوزير بخني حابي ابن عنخ حابي، وأمه هي سيننح Seanx، كتبه بي أبيس أوزير، «بتورسو-حابي» بن «عنخ-حابي».

(٦) لوحةٌ مؤرخةٌ بالسنة الثالثة عشرة من عهد الملك «نقطانب» الثاني

وهي محفوظةٌ الآن في «روما»، وقد أشار إليها «شمبليون» في تاريخ «مصر» (Egypte Ancienne, p. 385) غير أن الأثري «كارل كينتز» يشك في أنها لهذا الملك بل هي للملك «نقطانب» الأول، (راجع: Kienitz Ibid. p. 215).

(٧) السنة الخامسة عشرة من عهد الملك «نقطانب» الثاني الشهر الثالث

يوجَد بالمتحف المصري تابوت لموظف كبير يُدعَى «ثاي حور بتا» ويرجع تاريخُهُ إلى عهد الملك «نقطانب» الثاني، (راجع: Cairo Museum No. 29306)، وقد تناول الكلام عن هذا التابوت ونقوشه عدةُ علماء، (راجع: Maspero, Cat. Gen. Sarcophages des Epoches Persane et Ptolemaiques I, p. 218–315 et Pl. XIX–XXI; Quibell Excavations

at Saqqara 1912–1914, Vol. VI p. 13 & Pl. XXXIV; Spiegelberg, A.Z. 64, 1929, p. 76–83).

وسنتحدث عن صاحب هذا التابوت فيما يلي:

مقبرة العظيم «ثاي-حور-بتا» وقزمه

في عام ١٩١١ عندما كان الأثريُّ «كويبل» يقوم بأعمال الحفر في «سقارة» بجوار منطقة هرم «تيتي» صادفه أثناء الحفر مكانُ مقبرة يرجع عهدُها إلى الأسرة الثلاثين، وجد فيها ما لا يقل عن تسعةِ توابيت، من بينها اثنان من الجرانيت القاتم، وهما الآن بالمتحف المصري.

ولفت النظر أن التابوتين غير متكافئين من حيث الحجم والمنظر؛ إذ إن واحدًا منهما كبيرٌ وفخمٌ، والثاني صغيرٌ ويظهرُ عليه أنه تابوت طفل، والواقعُ أنَّ الفحص دَلَّ على أن واحدًا منهما كان لموظف عظيم يشغل مكانة عظيمة في الدولة، والآخر كان لرجلٍ قصير القامة جدًّا، وبعبارة أخرى: قزم، وسنرى السر في وجودهما معًا من النقوش التي وُجدت على تابوت القزم الذي يحمل رقم ٢٩٣٠٧ وهو الذي سنتحدثُ عنه هنا، والواقعُ أنه لم ينشر بعد ولم يتعرض له «ماسبرو» في كتابه عن توابيتِ العهد الفارسي حتى العصر البطلمي، ولكنه نشر نقوش التابوت الكبير رقم ٢٩٣٠٦، (راجع: Maspero, Cat. Gen. d'Ant. Eg. d. Musée du caire No. 29303–29306).

وهذا التابوتُ الأخيرُ قد عرف منه بعض المتون منذ زمن طويل، ومن بين هذه المتون المتن الصعب الذي يشتمل على تاريخ، غير أن معناه الصحيح لم يعرف بعدُ، وهاك الترجمة الصحيحة بقدر المستطاع:

السنة الخامسة عشرة (حوالي ٣٤٤ق.م)، الشهر الثالث من فصل الفيضان (هاتور) في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري، «نخت-حور-حبت» ابن «رع» محبوب «أنحور» «نقطانب» الثاني العائش أبديًّا.

لقد أخبر كتابة كاتب بيت الغرب بالقائد في حامية «سيله» (تل أبو صيفة الحالي)، والكاهن «خبر» (؟) لمقاطعة «حور» الغربية والكاهن «ورتخنو» الخاص بمقاطعة «حور» الغربية، وكاتب كتاب الإله «حور خب» المعظمين ليكلفوا بحفظ جثة «أوزير»، «ثاي حوبتا» وهو الأمير المشرف على الوجه القبلي ومفتش الأراضي، والمشرف على الحقول المقرب ليجعلوها قدسية في عالم الآخرة حتى يمكنه أنْ يتقمص أي شكل يريده في كل الأبدية.

ومن الألقاب التي يحملها «ثاي-حور-بتا» في هذا المتن، وبخاصة أنَّ المكلف بعمل الرسميات بدفنه كان قائد حامية «سيله»، نعلم أنه كان يشغل مكانةً عظيمةً مِن مناصب الدولة، وهذا بِغَضِّ النظر عن الألقاب التي كان يحملها في كتابات تابوته؛ فإنها لا تحصى، وكذلك بغض الطرف عن ألقابه الكهنوتية التي كان يحملها، فإنَّا نذكر هنا فقط الألقاب الدنيوية التي كان يتمتع بها، والواقعُ أنَّ أَهَمَّ لقب كان يحمله هو المشرف على الحقول، وهي وظيفةٌ يحتمل أنها تقابل وظيفة وزير الزراعة في أيامنا هذه.

هذا، ولدينا متنٌ على تابوته يدلُّ دلالةً واضحةً على أنه كان مقربًا من الفرعون «نقطانب» الثاني، (راجع: Maspero Ibid. p. 223)، وهاك النص: «الأمير الوراثي والحاكم والسمير الوحيد المحبوب، والذي جعله ملك الوجه القبلي والوجه البحري عظيمًا بمعرفته، والذي رقاه ملك الوجه البحري لفطنته والذي جعله سيد الأرضين (واسع النعمة) بما خرج من فمه، والذي مَيَّزَهُ الملك «نقطانب» بجعله أميرًا ومشرفًا على «جبعت» (مدينة في الدلتا) … والذي رفعه ملك الوجه القبلي والوجه البحري»، نخت حور «محبوب» «حور» و«آمون» إلى وظيفة الكاتب الأعلى، والذي يحسب كل شيء في الديوان في حين أنه كان يملأ أذني «حور» (أي الملك) بالعدل، ومن ميزاته أمام الإله الكامل، قد أعلنت بوصفه مفتش الأراضي والمشرف على الحقول وذلك لنصائحه الممتازة.»

هذا، ونقرأ في فقرة أخرى (راجع: Maspero. Ibid. p. 240) «الأمير الوراثي، والحاكم، والسمير الوحيد المحبوب، والذي رفعه رب الأرضين بسبب علمه، والذي مَيَّزَهُ «حور رع» حامي المدينة محبوب الأرضين بوصفه أميرًا وراثيًّا وحاكمًا مشرفًا على الوجه البحري؛ لأنه يملأ قلبه بسبب فطنته، والذي رفعه الملك «نقطانب» الثاني إلى وظيفة كاتب الديوان بسبب فوقان إدارته.» وإذا كانت هذه الوظائفُ في نظر البعض ليست إلا عبارات محفوظة ثابتة تكرر، فإننا من جهة أخرى نرى أنها في هذه الحالة ليست بالجُمَل العادية؛ وذلك لأن هذا الرجل لم يرثها عن أب أو أم ولكن ورثها بما أوتيه من ذكاء وفطنة؛ فقد كان والدُهُ يُدعَى «عنخ حابي» وأمه تدعى «تفنت» وقد ذكر كلًّا منهما بدون أن يصحبه لقب، ومن ثم نعلم أنه لم يكن من علية القوم؛ أي لم يكن من الطبقة الأرستقراطية، ومن أجل ذلك قد نال هذه المكانة وهذه الألقاب؛ بما أوتيه من علم وفطنة.

ومما سبق نعلم أن هذا الرجل قد نشأ من وسط متواضع ثم نال مكانته العظيمة في عهد «نقطانب»، الذي لمح فيه الذكاء والفطنة فقربه إليه وأعلى شأنه.

غير أنه مع أصله المتواضع أخذ يتمثل بعد وُصُولِهِ بعظماء القوم بسرعة، وقد اتخذ لنفسه هواية اقتناء قزم للتسلية؛ والواقع أنه قد وجد تابوت قزم في قبر «ثاي-حور-بتا» (راجع: Cairo 29030)، ومن نقوش هذا التابوت نفهم أنه لم يوجد في قبر «ثاي-حور-بتا» بطريق الصدفة، ولا أَدَلَّ على ذلك من النقش الذي جاء على تابوت هذا القزم حيث يقول: «بيان: «أوزير» القزم «زحر» (تيوس؟) سيد الاحترام ابن المرحوم «بدي خنسو» «بتيخونسيس» الذي وضعته «تارنش» والتي تنادى باسم «تاحابي» المرحومة، يا سيد الأسياد يا «أبيس-أوزير» أول الغربيين ورب الأبدية وملك الآلهة، إني قزم قد رقصت في قم (السرابيوم) حيث كان يدفن العجل «أبيس» وفي «شو-كبحو» (في هليوبوليس حيث كان يدفن العجل «منفيس») في يوم عيد الأبدية، فكل رجاء إليك نَفِّذْهُ لي، ليست روحك تميز الأمير الوراثي والحاكم والمشرف على الوجه القبلي، العظيم الخلق، الحسن الطبع الفهيم اللب، الحلو اللسان؟ … ومن يدخل في الأعماق وأنه ممتازٌ في الحب، منبسط الكف نحو كل إنسان، ومحبوب من الملك المفضل عند الإله والذي يعمل ما تحبه الناس، ومن دفن والده في قبره (في جبانته)، ومن دفن أمه في مثواها والمشرف على الحقول (وزير الزراعة) «ثاي-حور-بتا» صاحب الاحترام ابن «عنخ حبو» المرحوم، والذي ولدته ربةُ البيت «تفنوت المرحومة، ليت جسمي يكون بجواره في مبنى قبره؛ لأن رهبتك (أي رهبة العجل «أبيس») عظيمةٌ في قلبه، امنحه حياةً طويلة، وهي ملكك وسنوات مديدة بصحة بجوارك، وليتك تساعد روحه بين الأرواح العائشة على أن تحترم وأن يصل إلى سن الاحترام في سرور عندما يكون ممتازًا لدى الملك، إنه يرغب أن يدفن بالقربات الملكية، وإنه يرغب في دفنه في جبانة «منف» قبالة رب الآلهة، وليته يدخل ويخرج في حين يخدم روحه، وليته يتسلم قربانًا من مائدة القربان يوميًّا، وليت اسمه يُذكر في معبدك أبديًّا، وليتك تجعلني أمكث بجواره حينما أكون في مبنى قبره، وحينما أخدم روحك يوميًّا جزاء لما قد فعله لي.»

هذا، وقد نقش فوق صورة القزم التي على غطاء تابوته سطران أفقيان، جاء فيهما: «المقرب لدى «أوزير»، أول أهل الغرب الإله العظيم رب «روستاو» القزم الذي يرقص في «قم» في يوم دفن العجل «أبيس-أوزير» الإله العظيم ملك الآلهة الذي يرقص في «ش-كبح» (جبانة العجل «منفيس») في يوم عيد الأبدية «لأوزير منففيس» الإله العظيم

«ب–ون–حتف» واسمه الجميل (أي الاسم الذي يُنادى به) وهو «زحر» (تيوس) ابن «بدي خنسو» والذي وضعته المرحومة «تا أبيس»».

هذا، ويلاحظ وجود صورة قزم على سطح غطاء التابوت الذي عليه هذا النقشُ السالفُ الذكر مصورًا بصورة غريبة، والواقع أنه يمثل صاحب التابوت المسمَّى «ب–ون–حتف» واسمه الذي يُنادى به هو «زحر» (تيوس) ابن «بدي خنسو» وأمه تُدعَى «تاونش» (الذئبة) واسمها الذي تنادى به هو «تاجي»، وعلى الرغم من أن اسمَي والديه لم يوجدا كثيرًا في المتون المصرية، فإنه بكل تأكيد ليس بالقزم الذي يرجع إلى سُلالة الأقزام في أواسط إفريقيا، بل وُلد قزمًا من والدين مصريين، ومع ذلك فإنه قد أسهم في الدور الذي كان يقوم به الأقزام في رقص القبور، وقد رأينا أنه قام بأدوارِ الرقص في الشعائر الجنازية الخاصة بالعجل «أبيس» في مدفن السرابيوم في «منف»، كما قام بالرقص الجنازي الخاص بالعجل «منفيس» في المكان المسمى «ش–كبح» التابع لمدينة هليوبوليس، وكذلك نعلم بأن هذا القزم كالكثير من أمثاله كان ملكًا لأحد أصحاب البيوتات التي تنتمي إلى رجال البلاط، وكان هو بمثابة مُضحك أو مُسَلٍّ لصاحبه، وقد كان «ثاي–حور–بتا» صاحبه يحتل مكانة عالية في بلاط الملك «نقطانب» الثاني، ومن ثم وجدنا هذا القزم مدفونًا معه في قبره، ومن النقوش التي وُجدتْ على تابوت القزم، نعلم أن أكبر أُمنية له كانت أن يُدفن بجوار سيده الذي كان يحبه حبًّا جمًّا.

ومِنْ ثم نراه يوجه دعاءه لأوزير أبيس ويرجوه أن يمنح سيده رضاه وعطفه، وأن يقدر له عمرًا طويلًا في شرف، وأن يضمن له قبرًا جميلًا بجوار السرابيوم، وقد أراد هذا القزمُ أن يُدفن هناك بجوار سيده؛ لأجل أنْ يقوم بخدمته، وذلك إظهارًا واعترافًا بكل الطيبات التي عملها له، ونجد أنه قد نال بُغيته تمامًا كما جاء على تابوته من نقوش تُحدثنا بذلك صراحة.

(٨) قطع بردي بالديموطيقة

مؤرخة بالسنة السادسة عشرة، العشرون من الشهر السابع من حكم الملك «نقطانب» الثاني والخامس والعشرون من نفس الشهر (؟).

عثر في «منف» (سقارة) على قطع من البردي مكتوبة بالخط الديموطيقي تحتوي على حسابات مؤرخة بالسنة السادسة عشرة، وهذه القطع محفوظة بالمتحف المصري

(رقم: No. 30871–3)، (راجع: Spiegelberg Cat, Gen., Demot. PaP. p. 191-2 & Pl. LXVI & pl. LXV.; L.R, 173 No. 4 & A. 1).

(٩) نقوش من عهد «بطلميوس» التاسع

مؤرخة بالسنة الثامنة عشر من عهد الملك «نقطانب» الثاني.

توجد نقوش من عهد الملك بطليموس التاسع، على الجهة الخارجية، شرقي جدار سور معبد «إدفو» تُحدثنا عن هباتٍ مختلفة، أهداها ملوك مختلفون قبل عهد هذا الفرعون، وهذه النقوش تتحدث عن زيادة أملاك معبد «إدفو» بإهداء أراضٍ، وقد ذكر في هذه النقوش الملوك «نقطانب» الأول والثاني والملك «دارا» الفارسي بأنهم قد أهدوا أراضي لمعبد «حور» في «إدفو»، (راجع: L.D.IV 43 a, b, 44 a; L.D.T. IV p. 67; Brugsch Thesaurus III p. 538 ff. Pl. 1, 3, 18; 11, 7, 8; III 19; IV 18; VIII 19 Com p. Otto. Priester und Temple, Bd 1, p. 263 Anm. 2; De Rochemonteix-Chassinat, Le Temple d'Efu VII p. 189 ff; X. Pl, CLXXI–CL.XXVII, XIV Pl, DCXLVI-DCLIV; Porter & Moss. VI p. 167).

(١٠) بتوم (تل المسخوطة)

وجدت في الحفائر التي قام بها «كليدا» قطعتان من الحجر الجيري الأبيض، ونقش على إحداهما جزء من طغراء الملك «نقطانب» الثاني، وعلى الأخرى نقش أول متن معه لقب هذا الفرعون، (راجع: Rec. Trav. 36, p. III No. XI, 1, 2).

وهاتان القطعتان محفوظتان بمتحف «الإسماعيلية» الآن (Comp. Ancient Egypt, 1915 p. 28).

(١١) بتوم

عثر الأثر «نافيل» على قطعة من عمود مذهبة عليها اسم الملك «نقطانب» الثاني في بلدة «بتوم» تل المسخوطة؟ (راجع: Naville, A.Z. 21, p. 43; Naville Pithom, p. 11).

(١٢) بتوم

وكذلك عثر «نافيل» على قِطع كثيرة من الحجر الجيري الأبيض، يشاهد عليها الملك «نقطانب» الثاني يُقدم قربانًا للإله «آتوم»، وهذه القطع وُجدت عند الجدار الشرقي، وعند مدخل معبد «آتوم» وهي الآن بمتحف «الإسماعيلية» (راجع: Naville, Pithom. p. 12; Petrie, Tanis. I. p. 28 & Pl. XII, 7; Neuffer, Bittel. Schott. Mitt. D. Inst. II (1931), p. 58 & Pl. XI. D).

(١٣) قنتير

عُثر في «قنتير» على قِطع من مناظر عليها اسم الفرعون «نقطانب» الثاني، وهي آيةٌ في جمال الصُّنع ومحفوظةٌ في متحف الفن الصغير في مدينة «ميونيخ»، (Spiegelberg A.Z. 65, p. 103–4 & Pl. Vi, No. a & b).

(١٤) الطويلة

وجدت قطعة من الجرانيت الأحمر من عمود عليها اسم الملك «نقطانب» الثاني، وقد عُثر عليها مبنيةٌ في جدار منزل، ويحتمل أن هذه القطعة أتي بها من الكوم الأحمر الذي يبعد حوالي أربعة أميال غربي «الطويلة»، (راجع: Naville Goshen p. 4 & Pl. IX, H).

(١٥) صفط الحناء

وجد في هذه المدينة قطعةٌ من الجرانيت الأحمر، منقوشةٌ باسم الملك «نقطانب» الثاني، وهذه القطعة كانت مستعملة عند العثور عليها بمثابة حجر زاوية، (راجع: Naville Goshen p. 1, 5 Pl. VII C 1, 2).

(١٦) تل بسطة

تُعَد القاعة التي بناها «نقطانب» الثاني في «بوبسطة» من أهم المباني التي أقامها الفراعنةُ الأواخر في «مصر»، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه قد عُني عناية خاصة بمبانيها في «تل بسطة»؛ وذلك لأن العمارة التي أقامها في هذه الجهة تُعَد من أكبر العمائر التي أقامها،

ومِن أعظم الآثار التي تركها لنا، وخرائبُ هذا المبنى تمتد نحو ٥٠ مترًا من جانبٍ واحدٍ، والظاهرُ أن المبنى الأصلي لم يكن أَقَلَّ من ذلك بكثيرٍ، ولا تزال توجدُ قطعٌ كثيرةٌ ملقاةٌ على الأرض هناك، ولكن لأجل أن نتصور المنظر الأصلي لهذا المبنى لا بد لنا أن نفهم أنَّ عشرات القطع الكبيرة من هذا المبنى قد نُقلت إلى أماكنَ أُخرى وإلى متاحفَ عدة، هذا فضلًا عن أنه توجد قطعٌ صغيرةٌ حول الخرائب هناك، وهي مِنْ أنواعٍ عدة من الأحجار المختلفة، وبخاصة الحجر الجيري، وحجر الكوارتز، وهذا يدل على أن المكان قد استُعمل يومًا ما محجرًا بعد أن هجر المعبد.

وقد تكلم «نافيل» عن هذا المعبد، ثم تناول من بعده الكلام عليه الأثري «لبيب حبشي» وأضاف بعض الآراء والنقوش التي غابت عن «نافيل» كما وصف المبنى وحدده بقدر المستطاع على حسب رأيه.

وهاك وصف هذا المبنى مبتدئًا من الجهة الشرقية، ففي هذه الجهة لا تزال توجد أجزاءٌ مِن عتبتي بابين وجدهما «نافيل»، ولعتب من هذين العتبين إفريز محلي بعلامة «خكر» (= زينة) فوق قرص شمس مجنح له ذراعان ممتدتان إلى أسفل، ويوجد بين الذراعين نقشٌ يذكر «حور» رب الحماية، ويشاهد خارج الذراعين صقورٌ بتيجان مختلفة وصلان ويسمى الأول «نخبيت حزيت» والثاني يسمى «اجو» صاحبة «دب» وعلى اليسار بقايا نقش مهشم.

وهذه القطعة يظهر أنها تلتئم مع أُخرى، مثل عليها الملك راكعًا أمام مائدة قربان وبإحدى يديه صولجانٌ وبالأخرى قدح بخور، وقد نقش أمام الملك وفوقه اسمه ولقبه، وسطر عمودي جاء فيه: «كلام «حور» رب الحماية.» وفي أعلى خط عمودي جاء فيه: «بحدتي الإله العظيم، رب السماء، صاحب الريش الملون، والذي أتى من الأفق.» وهذا المتن الأخير يتلاءم مع المتن الذي مع قرص الشمس المجنح الذي على القطعة السالفة الذكر، وهناك قطعةٌ أُخرى قريبةٌ من السابقة، عليها رسمُ مائدة قربان وقطعةٌ من صورة الملك، وعلى ذلك فإن هذه القطع الثلاث تكون وحدةً منسجمة مثل عليها الملك مع موائد قربان تواجه صور صقور بينها.

ويوجد عتبٌ آخرُ لم ينشر بعد، عُثر عليها في الجزء الجنوبي الشرقي من خرائب المعبد، على مقربة من الأجزاء الأخرى من العتب، ويوجد في وسطه أفريز مؤلف من حلية «خكر» رسم تحته شمس مجنحة بذراعين يقبض كل منهما على ريشة ونقش مع القرص: «بحدتي» الإله العظيم رب السماء.

وأسفل من ذلك نسرٌ يلبس تاج «اتف»، ويُلحظ أن النسر يقدم رمز السلطة إلى صقر يلبس تاجًا مزدوجًا (الملك)، وخلف النسر النقش التالي: «نخبيت» (البيضاء) صاحبة «نخن»، صاحبة الذراع الطويلة (سيدة قصر الوجه البحري) سيدة «برنسرت» (= بيت النار).

ويقابل النقش الأخير هذا صورة إله النيل، وعلى رأسه حزمةٌ من البردي، وبين يديه مائدة قربان، عليها فطائرُ وأزهار، ويشاهد عند قدمي «حعبي» عجل محلًّى بالزهور وكتب فوق صورة «حعبي» (النيل) كلام «حعبي»، وأمامه صقرٌ يقف على محراب، وبجانبه قرص شمس بجناح واحد، وهذا المنظرُ يكاد يكونُ أَقَلَّ من نصفه محفوظًا؛ ومن ثم يُمكن أن يكونَ طُولُهُ في الأصل لا يَقِلُّ عن ثلاث أمتار، ويشاهد على وجه قطعة مجاورة جزءٌ من منظر كان يُزَيِّنُ سقف المدخل، ومن هذا الجزء من السقف ومن الأجزاء الأخرى المماثلة على العتبات الأُخرى يفهم أن السقف كان على جوانبه عمودٌ من النقوش، جاء في بدايته: الإله الكامل رب الأرضين «سنزم آب–رع ستب ن انحر» (لقب «نقطانب» الثاني)، وقد مثل بين هذين السطرين على التوالي نسر الوجه القبلي وصل الوجه البحري، وقد نقش فوق النسر: «نخبيت» (البيضاء) صاحبة «نخن»، صاحبة الذراع الطويلة سيدة قصر الوجه القبلي، ليتها تُعطى الحياة والثبات والسلطان لملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم–اب–رع ستب–ن–انحر» بن «رع» نخت حور حبت («نقطانب» الثاني) بن «باستت» محبوب — «انحر»، ونقش فوق الصل «إجو» صاحبة «بي–دبت» سيدة «بوتو» وربة «برنسرت» ليتها تُعطى الحياة والثبات والسلطان لابن «رع» «نخت–حور–حبت–سا–باستت مري–انحر»، «نقطانب» الثاني.

والواقعُ أنه كان يوجدُ على الأقل مدخلان لهذا المبنى في الجهة الشرقية، يؤديان إلى هذه القاعة، وكان لكُلِّ واحدٍ منهما عتب، وكان يلاصق هذين العتبين قطعتان من الحجر يجوز أنهما كانتا تحليان الواجهة، وقد رسم على إحداهما صل على سلة فوق حزمة من البردي، ونقش في الخلف الإلهة «إجو» صاحبة «بي–دبت» صاحبة «برنو» القاطنة في «برنسرت» (= بيت النار) ليتها تُعطى الحياة والسلطة مثل «رع» أبديًّا.

أما القطعة الأخرى فقد رسم عليها الجزء الأعلى من الإلهة «باستت» ومعها النقش التالي: إني أعطيك الحياة كلها والثبات والسلطان مثل «رع» (؟): بيان «باستت» العظيمة سيدة «بوبسطة» التي تخلق التحول في حقل الإله، والواحدة التي على أسرار «آمون».

هذا، وتوجد بجوار هذه القطعة قطعة أخرى يحتمل أنها كانت في أعلى الواجهة.

الجزء الأوسط من الخرائب: اعتقد الأستاذ «نافيل» الذي كشف عن خرائب معبد «تل بسطة» أن القاعة التي أقامها «نقطانب» الثاني لم تكن قد تمت بعد عند وفاة «نقطانب»، ولكن البحث الذي قام به الأثري «لبيب حبشي» يدل على أن هذه القاعة قد تمت — على حسب رأيه — والواقع أنه قد وُجدت أجزاءٌ كثيرةٌ في الجزء الأوسط من هذه القاعة قد تم نقشها، مما يدل على أن القاعة كانت كاملة عند موت «نقطانب»، وهذا فضلًا عن أنه نقل عدد كبير من أجزاء هذه القاعة إلى جهات أُخرى خارج «تل بسطة»، وهذه الأجزاء الباقية يمكن أن تُقدم لنا فكرة لا بأس بها عن هذا الجُزء من المعبد؛ وذلك لأن من الواضح أن هذه الجدران كانت محلاة بصفوف عدة، فصل بعضها عن البعض الآخر بعلامات السماء المزينة بالنجوم، وكان كل صف يحتوي على صور للملك يؤدي شعائرَ أمام آلهة «بوبسطة» الذين كانوا يعدونه بالإنعامات مقابل صنع يده لهم.

ولم يوجد في هذا الجزء من المعبد إلا أجزاءٌ صغيرةٌ من العمد، كانت صالحة لعمل الطواحين؛ ولذلك فإنها كانت تُحمل إلى جهات نائية لهذا الغرض، وقد وُجدت قطع من هذا النوع على مقربة من المعبد نُقش عليها بعض النقوش التي تحتوي على لقب «نقطانب» الثاني، وفي نهاية هذا الجزء من المعبد عثر «نافيل» على قطعتين كبيرتين مع إفريز طويل مزين بعلامات «خكر» (زينة) وفي أسفلها جزء من سطرين أفقيين بحروف كبيرة أولهما يتحدث عن إهداء المعبد للآلهة «باستت»، والثاني عليه نقشٌ جاء فيه: أن «باستت» قد طهرت «رع» في الأزل وأنها ترضع «إزيس» في «تترت» … المحارب»، وقد عثر الأثري «لبيب حبشي» على قطعة ثالثة، عليها نقش يتحدث كذلك عن إهداء المعبد مثل القطعة الأولى: «… محبوب «باستت» سيدة «بوبسطة» الواحدة التي على أسرار «آتوم» وأنه (أي الملك) قد عمله بمثابة أثره، (٢) … سأعمل للمعبد «باستت» كما عمل …»

الجزء الغربي من الخرائب: كشف «نافيل» في خرائب المعبد؛ ناووسين من الجرانيت الأحمر أرسل أحدهما إلى متحف «القاهرة»، والثاني إلى المتحف البريطاني، فالناووس الأول يحتوي على الجزء الأسفل، وقد ظهر على جدرانه صورة الملك مرتين راكعًا وهو يقدم رمز العدالة، وقد نعت على أحد جوانبه بأنه محبوب «اجو» سيدة «نبت» القاطنة في «بوبسطة» وأنها تعطى كل الحياة، أما جزء الناووس الذي في المتحف البريطاني، فقد مثل عليه الملك مرتين أمام الآلهة «باستت» التي تسمى «باستت سيدة الناووس» وعين «حور» البارزة

في حقل الآلهة، ربة السماء، وسيدة كل الآلهة، وفوق ذلك بعض صقور ناشرة أجنحتها حامية طغراء الملك، وفي أسفل ثلاث صور للملك وهو يرفع السماء المحلاة بالنجوم.

وهناك ناووس آخر وجد في «القاهرة» مستعمل في بناء حديث، وعلى حسب نقوشه لا بد أن يكون قد أقيم في معبد «تل بسطة» وقد نعت — على جانبه الأيسر — الملك بأنه محبوب «باستت» العظيمة سيدة «تل بسطة» و«عين رع» سيدة السماء وربة كل الآلهة، ونعت على الجانب الأيمن بأنه محبوب «حرسفيس» ملك الأرضين الذي يسكن في «بوبسطة»، (راجع: Roeder, Cat. Gen. p. 44-5).

ولا بد أن نضيف إلى هذه النواويس الثلاثة أربعة أخرى وجدت أجزاؤها في مكان آخر، وعلى ذلك كانت توجد على أقل تقدير سبعة نواويس في البناء الذي أقامه «نقطانب» الثاني في «تل بسطة»، ومما لا شك فيه أن ملوك الأسرة الثلاثين كانوا مغرمين بإقامة النواويس، ونحن نعلم أن من بين النواويس التي في المتحف المصري أحد عشر من أعمال ملوك هذه الأسرة، وقد تحدث «نافيل» عن البناء الذي أقامه «نقطانب» الثاني في «تل بسطة» على أنه قاعة، وقد عارضه الأثري «لبيب حبشي» الذي فحص المعبد من جديد، وأورد حججًا على أنه معبد قائم بذاته، (راجع: A.S. Cahier No. 22, p. 85 etc).

ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أن الملك «نقطانب» الثاني قد وجه عناية خاصة لعبادة الإلهة «باستت» ولا أدل على ذلك من أنه اتخذ نعت «ابن باستت» بدلًا من «ابن إزيس» في طغرائه.

هذا فضلًا عن أنه قد أراد على ما يظن أن يقوي مكانته في الجزء الغربي من الدلتا، حيث كان يوجدُ بعضُ الخطر من غزو جديد للبلاد، ومع ذلك فإن هذا مجرد زعم قد يُصيب أو يخطئ.

تل بسطة

(١٧) وفي نهاية القاعة وجد ناووس من الجرانيت الأحمر أقامه «نقطانب» الثاني للإلهة «باستت» وكان ارتفاعه في الأصل ١٫٥٣ مترًا (راجع: Roeder, Cat. Gen. Näos, p. 49)، ولم يبق منه إلا الجزءُ الأماميُّ من القاعدة، وكذلك بَقِيَ جزءٌ من الزَّاوية الأمامية، وقد مثل على هذا الجزء الأمامي من الجهة الشمالية الملك يقدم العدالة لآلهة لم تمثل وقد ركع على طوار، ويرفع الملك في يده اليسرى إلهة العدالة، ويده اليمنى إلى الأمام، وقد نقش معه

المتن التالي: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم آب-رع ستب-ن-أنحور» (٢) ابن رع من جسده على عرشه رب التيجان «أخت حور حبت» ابن «باستت» محبوب «أنحور»؟ محبوب «وازيت» ربة القوة نزيلة «باست»، ليتها تعطى كل الحياة.»

ونقش أمام الملك: «يعطي العدالة أمه وتعطيه الحياة.»

ونقش على الجزء الأيمن متن مهشم بعض الشيء، ويحتوي على علامات غامضة، (راجع: Ausf. Verz. p. 246).

(١٨) ويوجد في المتحف البريطاني قطعةٌ من ناووس نُقش عليها «حور» الذهبي وطغراءه تشملان لقب الفرعون «نقطانب» الثاني واسمه، ويشاهد صورة الملك يتعبد للإلهة «باستت» واسمه وألقابه، كما تُشاهد صورة الملك يؤدي حفلًا دينيًّا، وهذا الأثر عُثِرَ عليه في «تل بسطة» ويبلغ ارتفاعه خمسة أقدام وست بوصات، (راجع: Egyptian Galleries Sculprure p. 248).

ويُقال إن هذا الجُزء من الناووس والجزء السابق له من ناووس واحد وقيل من ناووسين، (راجع: L.R. IV p. 176; Kienitz Ibid. p. 217).

(١٩) بوبسطة

جزء من تمثال للملك «نقطانب» الثاني، ومن المحتمل أن هذا التمثال كان يمثل الفرعون جالسًا، وبالقرب منه شخص آخر صغير الحجم، وقد نقش على جانبي التمثال، وعلى ظهر العرش موكبٌ من الصورة، ونقش يشير إلى أعياد، وتواريخها، (راجع: Naville, Bubastis, p. 58 & Pl. XLIII … F.F.F.). ٣,١ تجاه تماثيل معبد أمه «وسرت» (القوية) «باستت»، (…) ٤,١ رب التيجان في عيد أول يوم في الشهر وفي عيد نصف الشهر، (…) ٥,١ في الخامس من شهر طوبة، وهو اليوم الذي نحت فيه التمثالُ.

(٢٠) تل بسطة

وجد في «تل بسطة» قطعةٌ من تمثال مصنوع من الجرانيت القاتم، محفوظة الآن بالمتحف المصري، وهذه القطعةُ هي عبارة عن القدم اليمنى للملك «نقطانب» الثاني، وقد نُقش عليها جُزءٌ من اسمه، (راجع: Kienitz, Ibid. p. 217).

(٢١) بسطة

وُجد في «بوبسطة» ناووسٌ من الجرانيت القاتم المبرقش، ويبلغ ارتفاعُهُ ١٫٩٥ مترًا، وُجد في «القاهرة»، ولكنه — على حسب نقوشه — لا بد كان قد أُتي به من «بوبسطة»، وقد نقش على عضادتي بابه المتن التالي:

على المصراع الأيمن: حور «محبوب» الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم آب-رع ستب-ن-أنحور» ابن رع رب التيجان «نخت حور حبت» ابن «باستت «محبوب» أنحور» ومحبوب «حرشف» ملك الأرضين القاطن «باست»، ليته يُعطى الحياة مثل «رع» أبديًّا.

ونقش على المصراع الأيسر: «حور» محبوب الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري، رب الأرضين «سنزم آب-رع ستب-ن-أنحور» ابن «رع» رب التيجان «نخت-حور-حبت» ابن «باستت» محبوب «أنحور» محبوب «باستت» العظيمة ربة «بوبسطة» وعين «رع» رب السماء وسيدة الآلهة «ليته يُعطَى كل الحياة مثل «رع» أبديًّا»، (راجع: Koeder, Cat. Gen. p. 44–45; Maspero Guide (1914) p. 194, No. 820, Daressy, Rec. Trav. 14 (1893) p. 29, No. XLIII).

(٢٢) تل بسطة

يوجد بالمتحف المصري منظر نحت في الجرانيت الأحمر مستخرج من «تل بسطة»، ويرجع إلى عهد الملك «نقطانب» الثاني، (راجع: Maspero-Quibell, Guide p. 169–170, No. 646; G.L.R. IV p. 176 No. 3).

(٢٣) تل بسطة

وعُثر في «تل بسطة» على الجزء الأسفل من مسلة من الجرانيت، محفوظةٌ بالمتحف المصري (f. 17631)، (راجع: Kuentz. Cat. Gen. Obelisques. p. 62–63; Maspero-Quibell, Guide. p. 197 No. 751).

وقد نقش عليها اسم الملك «نقطانب» ويحتمل أنها من «هربيط» (؟).

(٢٤) تل بسطة

عُثر في «تل بسطة» على جذع تمثال صغير لحامل خاتم الوجه البحري المسمى «عنخ حاب»، وهو مصنوعٌ من الشست الأسود (راجع: J.D.E 41677)، وقد عاش هذا العظيم في عهد الملك «نقطانب» الثاني، والمتن الذي على هذا التمثال يشبه المتن الذي على لوحة «مترنيخ» التي سنتكلم عنها بإسهاب فيما بعد، والواقع أن الحالة التي وُجد عليها هذا التمثالُ تجعل من الصعب ترتيب متونه وأشكاله، وقد حاول نقلها الأثري «دارسي» دون التعرض لحلها، (راجع: A.S., II p. 187–191).

وعلى أية حال فإن المتن كله عبارة عن تعاويذ سحرية تتفق مع ما كان شائعًا في ذلك العصر. ويلاحظ أن صاحب التمثال قد مثل قابضًا على ناووس عليه نقوش سحرية.

(٢٥) تل بسطة

وجد في بلدة «دنديط» مركز ميت غمر قطعة من حجر الكوارتزيت عليها اسم الفرعون «نقطانب» الثاني، ويقال إن هذه القطعة قد جيء بها إلى «دنديط» من «تل بسطة» التي لا تبعد كثيرًا عنها، وهذه القطعة كان قد استعملها أهالي «دنديط» بمثابة حجر طاحون، (راجع: A.S. XIII, p. 123).

(٢٦) هربيط

وجد في معبد «هربيط» قطعٌ كبيرةٌ مبنيةٌ فيه عليها اسم الملك «نقطانب»، (راجع: Naville, Goshen p. 4).

(٢٧) بلبيس

عثر على من الأثريين «نافيل» (Mound of the Jews p. 22 Pl. 11, a, b, c)، «وإدجار» على عدة قطع منقوش عليها اسم «نقطانب» الثاني، وهي من حجر الجبل الأحمر ويُلحظ هنا أن الإلهة «باستت» كانت الإلهة الرئيسية التي كان يقدم لها القربان.

هذا، وقد رأى الأثريُّ «إدجار» في بيت في وسط المدينة قطعتين من الجرانيت الأسود لنفس الملك، وهما مِن ناووس للملك «نقطانب» الثاني، ويلاحظ هنا أن النقوش الهيروغليفية قد نُحتت بدقة ولُوِّنَتْ باللون الأحمر، وجاء عليها:

(١) محبوب الأرضين ممثل السيدتين (المسمى) المفرح قلب الإلهة، «حور» الذهبي (المسمى) المثبت …

(٢) «محبوب» الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «سنزم-اب-رع» الذي اختاره «أنحور» بن «رع» رب التيجان «نخت حور حبت» ابن «باستت» محبوب «أنحور».

هذا، وقد وُجدت قطعتان منقوشتان في منازل الأهالي، الأولى قطعةٌ من الجرانيت يظهر أنها من ناووس أو باب، وهي من الجرانيت الأسود، وهي بلا نزاعٍ موحدة بالقطعة التي وجدها «نافيل» في «تل اليهودية»، (راجع: Mound of the Jews Pl. 11-a).

والقطعة الثانية من الحجر الأحمر، وكلاهما قد نقش عموديًّا، والإله «منتور» الذي ذكر هنا معروف من النقوش أنه كان يعبد في «بوبسطة» مع الإلهة «باستت» (راجع: Naville, Bubastis p. 24; A.S. XIII p. 124 No. 1).

والنقش الذي على القطعة الأولى هو: «حور» محبوب الأرضين ممثل السيدتين (المسمى) المفرح قلب الإلهة «حور» «الذهبي».

(٢) وجاء على القطعة الأخرى: محبوب «منتو» عظيم القوة القاطن في «بوبسطة»، ليته يُعطَى كل الحياة وكل الثبات وكل القوة وكل السلامة مثل «رع» أبديًّا، (راجع: Naville, Mound of the Jews p. 22 & Pl. 11. a. b, c; Edgar, A.S. 13, p. 279–280; Junker, Mitt. D. Inst. I, (1930) p. 30–32, p. 3 Abb. 3-a, b, d).

وقد شرح الأثري «ينكر» كل الكتابات التي على هذه الأحجار التي وجدت في «بلبيس» شرحًا وافيًا، وتناول الأثري «لبيب حبشي» كل القطع التي عُثر عليها في «بلبيس» وأورد حججًا على أنها كلها كانت في الأصل في «تل بسطة» ثم نقلت إلى «بلبيس» لأغراض أخرى، (راجع: A.S. Cahier 22, p. 123–140).

(٢٨) البقلية

يوجد بالمتحف البريطاني الآن مسلتان من البازلت الأسود، ضاع الجزء الهرمي منهما، وقد أهديا للإله «تحوت» المضاعف العظمة، وقد أهداهما الملك «نقطانب» الثاني ملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم-اب-رع» المختار من «آمون» بن رع «نخت حور حبت» محبوب «آمون».

وقد أخذت هاتان المسلتان من بلدة في الدلتا، ويحتمل كثيرًا أنها بلدة «البقلية» الحالية خلال القرن الثامن عشر لتُقام أمام أحد جوامع «القاهرة»، وقد أُخذتا فيما بعد إلى المتحف البريطاني عام ١٨٠٢م.

وتُحدثنا النقوشُ التي عليهما أنهما كانتا قد أُقيمتا عند باب محراب حجرة من معبد «تحوت»، (راجع: Descr. De l’Egypte, V. Pl. 21–22; X, p. 486–7 Guide Brit, Mus. p. 395, fig. 218; Guide Brit, Mus. Sculptures. p. 247 No. 919–20; G.L.R. IV p. 178 No. 30; Porter & Moss. IV 72–3 p. 168).

(٢٩) سمنود

معبد «أنوريس-شو» في «سمنود» جدده «نقطانب» الثاني، احتفظت بلدة «سمنود» باسمها القديم فهو محرف عن المصرية القديمة «ثاب نتر»؛ أي «بلدة العجل المقدس» ومن ثم اشتق الاسم الحالي من «سابنوتي» البابلي والقبطي «تمنوتي» والعربي «سمنود»، و«سمنود» عاصمة المقاطعة الثانية عشرة من مقاطعات الوجه البحري، وكان معبودُها هو الإله «أنحور = أنوريس»، وكان في المدينة معبد لعبادة الإله «أنحور» هذا، وكانت تعبد فيه كذلك الإلهة «حتحور» باسم «حوريت» محبوبة «أنحور»، وكانت أم «أنحور» هي الإلهة «تفنت»، وهو نفسه ابن الإله «شو»، وتدل شواهدُ الأحوال على أنه في هذه المدينة قد أقام الملك «نقطانب» الثاني معبدًا لهذا الإله؛ فقد وجد فيه «نافيل»، (راجع: Naville, Mound of the Jews Pl. VI).

قطعًا من الجرانيت باسم نقطانب الثاني، واحدةٌ منها عليها صورة إله النيل، ووُجدت قطعةٌ باسم هذا الملك، وعليها حامل قربان بنيت في جامع، (راجع: Porter & Moss IV p. 43)، أما الأثري أحمد كمال فقد عثر على قطعتين من الجرانيت الرمادي عرض الأولى ١,٢٠ مترًا وطولها ٠,٨٠ مترًا وسمكها ٠,٦٠ مترًا، وقد مثل عليها الملك واقفًا يقدم قربانًا

ونقش لقبه «سنزم–اب–رع» المختار من «أنحور»، ثم مثل الملك ماشيًا أمامه الحياة والثبات والعافية، ثم بقية ثلاثة أسطُر جاء فيها:

(١) … «شو» ابن «رع» رب «سمنود» إنه يحفر لك …
(٢) …
(٣) كل … وكل السلامة وكل فرح القلب مثل «رع» أبديًّا.

والقطعة الثانية: من الجرانيت الرمادي عرضها ١,٢٥ مترًا وطولها ٠,٨٠ مترًا باسم «نقطانب» الثاني، وقد نُقش عليها لقب هذا الفرعون، ثم قربان يقدمه الملك، ولدينا بعد ذلك ثلاثة أسطر جاء فيها:

(١) نخت حور حبت «محبوب» «أنحور» إنك تعطيه حماية الأراضي عندما يظهر على عرش «رع» عائشًا مثل «رع» أبديًّا.
(٢) «حور» قوي الوجه والساعدين القاطن في «نبو» (تل أدفينا)، إنه يمنحك كل شيء طيب يخرج من الأرض.
(٣) «سنزم–اب–رع» المختار من «أنحور» لقد أحضر إليك بيت «شو» ابن «رع» رب «سمنود» …

هذا، وقد ذكر «نافيل» (راجع: Rec. trav. X. p. 57)، أنه من بين قطع هذا المعبد يوجد بقايا قائمة بأسماء المقاطعات من عهد الملك «نقطانب» الثاني.

والظاهر من النقوش السالفة الذكر هنا أن المحراب الجديد الذي أقامه هذا الفرعون كان يسمى بيت «شو» وهو بالإغريقية Pherso وفي عهد الملك «نقطانب» الثاني قد عملت إصلاحاتٌ في المعبد القديم، وأُضيف إليه جزءٌ جديد، والظاهرُ أنه كان قد تم الإصلاحُ والإضافة في السنة السادسة عشرة من حكم هذا الفرعون، ولكن قد بقي نقش الرموز الهيروغليفية الخاصة بالمحراب.

والظاهرُ — على حسب القصة الإغريقية — أن الموظف الذي كان مكلفًا بهذه الأعمال قد تَوانى كثيرًا في انجازها، وعلى أثر هذا الإهمال ظهر الإله «أنوريس Ares»، وهو إله الإغريق، في المنام للفرعون وخاطب «إزيس» شاكيًا «ساموس Samous» الذي كان قد وكل إليه أعمال المعبد، وقال الإله إن الحاكم قد أهمل معبدي، وإن أعمال المحراب قد بقيتْ

لهذا السبب لم يتم غيرُ نصفها، وعندئذٍ استيقظ الملكُ من نومه وأمر بأن يرسل على وجه السرعة إلى «سمنود» في أعماق الإقليم في طلب الكاهن الأعظم وكاهن «أنوريس»، وعند وصولهما إلى القصر سأله الملك: ما هي الأعمال الباقية التي لم تتم في معبد «فرسو» (معبد شو)؟ فأجابه أن كل شيء قد تم إلا حفر الهيروغليفي على الجدران المصنوعة من الحجر، وبإذن من الملك كلف مهندس العمارة «بتيزيس» أحد مواطني بلدة «أفروديت» بإنهاء هذه الأعمال في مائة يوم، (راجع: Naville, Mound of the Jews p. 25–26, Pl. VI A; Ahmed Kamal A.S. 7 (1907) p. 88–89).

(٣٠) سمنود

الجزء الأعلى من ناووس من حجر الديوريت الأخضر، مثل عليه قربانٌ من النبيذ للآلهة «شو» و«باستت» و«أنوريس» محفوظٌ بالمتحف المصري، (راجع: Cairo Museum No. 70015)، ونقش فوق صورة الملك اسمه ولقبه ونصبتْ أمامه مائدة قربان عليها آنية خمر …

ونقش أمام الإله «شو»: «بيان: إني أعطيك المملكة العظيمة بقلب فرح.»

ونقش أمام الإلهة «باستت»: «بيان: لقد منحتك كل القوة وكل النصر، الإلهة «باستت» ربة «بوبسطة» وعين رع ربة السماء.»

ونقش أمام «أنوريس»: «بيان: لقد منحتك كل الحياة وكل الثبات وكل القوة وكل السلامة «أنحور» قوي الساعد الإله العطيم ورب السماء.»

(راجع: Roeder, Cat. Gen Naos. p. 47–48 & Pl. 63 c, d; Naville. Details Relevés dans les ruines de quelque tomples Egyptiens Pl. 17, A. 1, 2.)

(٣١) سمنود

ناووس الإله «أنوريس» من الشست الأخضر محفوظ بالمتحف المصري ولم يتم صنعه، (راجع: Cairo Museum No. 70012).

وجد في مستشفًى بالقاهرة، ويبلغ ارتفاعُ هذا الناووس ٢,٠٣ مترًا، ورسم فوق فتحة الباب قرص الشمس المجنح يكنفه صلان، والمتن الذي على مصراع الباب الأيمن هو الذي

نقش وهو: «حور» محبوب الأرضين ... ممثل السيدتين «المسمى» مهدئ قلوب الآلهة، والذي يضرب البلاد الأجنبية، ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) «سنزم آب = رع» المختار من «أنحور» ابن رع (المسمى) «نقطانب» محبوب «أنحور» و«إزيس» مُعطَى الحياة مثل «رع» محبوب «أنحور-شو» بن رب «سمنود» و«محيت» بوبسطة، (وجه إلهة في صورة لبؤة) ... (راجع: Roeder Ibid, p. 42-43, 14; Porter aud Moss. II, p. 44).

(٣٢) بهبيت الحجر: معبد الإلهة «إزيس» (أزيوم)

تدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه قد أُقيم للإلهة «إزيس» معبدٌ يرجعُ تاريخُهُ للملك «نقطانب» الأول (نخت نبف)، وقد يجوزُ أنه يرجع إلى ما قبل ذلك، غير أننا لم نعثرْ على ما يُثبت ذلك.

ولكن من المؤكد أن الملك «نقطانب» الثاني قد أقام محرابًا لهذه الإلهة، وجاء بعده ملوكُ البطالمة وزادوا فيه، وبخاصة «بطليموس» الثاني والثالث.

وقد أشار الجغرافي الفرنسي «إنفيل»[٣] منذ زمن بعيد إلى معبد «بهبيت الحجر» «بالدلتا ووحده بالمعبد الذي جاء ذكره في «بليني» المسمى Isides Appldum.

(راجع: Hist. Natur. Ed. Ludov. Janus p p. 5, KaP. 11.)

كما أشار إليه «ستيفان» البيزنطي باسم Iseum هذا، وقد أشار إليه الإنجليزي Recard Pocoke في كتابه «وصف الشرق»، (راجع: A. Descripition of the East and some other countries (London 1743) Vol. I, 21).

هذا، وقد وصف هذا المعبد للمرة الأولى في كتب الآثار في مجموعة وصف «مصر» التي يرجع عهدها إلى حملة «نابليون»، (راجع: Description de l'Egypte Tome. 5 (paris 1826) 160–166 et Tome 15 (paris 1826) p.p. 202–205).

وقد تكلم طويلًا «السير جاردنر ولكنسن» عن «بهبيت الحجر».

(راجع: Wilkenson Modern Egypt and thebes (London 1843) Vol. 1, 434–37.)

---

[٣] راجع: Memotre aur l'Egypte Ancienne et Moderne, Paris 1766. p. 86.

وقد أحضر «لبسيوس» من «بهبيت» رسومًا من مناظر ودون بعض الملاحظات، (راجع: L.D. III 287 b; L.D.T.I. p. 5 & 220; L.D. III 301 No. 83, 84; Piehl, A.Z. 26 (1888) p. 109–111).

وقد بقي في أنقاض المعبد بقايا منظر للملك «نقطانب» الأول وهو يقرب كتانًا، هذا بالإضافة إلى صورة إله من منظر آخر.

(راجع: Naville. Details relevés dans les ruinesde quelques Temples Egyptiens, p. 6 A, 7 A.B.C.; Com p. Röeder, A.Z. 46, p. 62 ff.).

هذا، وقد نقل جزءًا كبيرًا من نقوش هذا المعبد الأثري «رويدر» والأثري «إدجار» ومعظمها من آثار الملكين «بطليموس» الثاني والثالث، أما عن آثار «نقطانب» الثاني، فقد نقل «رويدر» نقوش حوالي ١٤ قطعة، قد ترجم معظمها، وكل ما جاء فيها لا يخرج عن كونه صيغًا عادية مما يُنقش على المعابد.

ويعتقد الأثري «إدجار» أنه من الممكن إنقاذ جزء كبير منه، ووضع الأحجار في أماكنها الأصلية، والظاهر — على حسب رأيه — أن المعبد كان يواجه الغرب، وقد وُجدت النقوشُ القديمةُ في النهاية الشرقية، أما النقوش الحديثة؛ أي التي مِن عهد البطالمة، فقد وُجدت في النهاية الغربية من التل.

هذا، ويكتفي «إدجار» بالقول: إن في الشمال الشرقي توجد عدةُ قِطع مبعثرة، يحتوي الكثير منها على اسم الملك «نقطانب» الثاني، أما على الحافة الشرقية من المعبد فنجد صفًّا من الأحجار عليها طغراءات «بطليموس» الثاني، أما طغراءات «بطليموس» الثالث فتوجدُ عند النهاية الغربية من الخرائب.

هذا، وقد عُثر على بعض قطع في قرية «بانوب» القريبة من «بهبيت»، جاء عليها اسمُ «نقطانب» الثاني.

وقد ذكر على أحجار هذا المعبد آلهةٌ عدةٌ، نخص بالذكر منها «إزيس» و«أوزير» و«رع حور آختي» و«آتوم» و«آمون» و«سبك» و«تانن» و«أمست» و«حعبي» و«نفتيس» و«نيت» و«محيت» و«ورت حكاو» و«وازيت» و«نخبيت» وغيرها، كما هي العادة في نُقُوش المعابد؛ إذ يذكر عليها معظم الآلهة المصريين، وبخاصة في العهد المتأخر.

(راجع: Rec. Trav., 35 (1913) p. 89 ff; A.Z., 46, p. 62, ff.).

(٣٣) بهبيت الحجر

يوجد في «روما» صور أربعة آلهة من عهد الملك «نقطانب» الثاني «يُقال إنها من بهبيت غير أن ذلك فيه بعض الشك»، (راجع: Porter & Moss; IV p. 40; Sphinx 18, p. 67–9).

(٣٤) بهبيت الحجر

قطعة نحاس متداخلة (عاشق ومعشوق) عليها طغراء «نقطانب» الثاني اشتريت من «بهبيت الحجر» في عام ١٨٠٢م، وهي موجودة في فالنتيا Valentia (جزيرة صغيرة وقرية في غرب أرلندا)، (راجع: Voyages and Travels (1809) II Pl. 23, 2; III p. 438).

(٣٥) بهبيت الحجر

قطعة من تابوت مصنوع من البازلت لصاحبه «حور سا إزيس» وزير الملك «نقطانب» الثاني، وذكر عليها كذلك اسم «نقطانب» الأول، (راجع: Spiegelberg, A.Z. 64 (1929) p. 88–89; p. & M. IV p. 42).

ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أن الأثري «آرثر فيل» في قائمته عن وزراء العصر المتأخر قد ذكر وزراء كثيرين بهذا الاسم، غير أنه لم يمكن تحديد عهد كل واحد منهم بصفة قاطعة، ومن أجل ذلك فإن وُجُود النقش الذي نحن بصدده الآن مؤرخًا بعهد الملك «نقطانب» الثاني وباسم وزيره «حورسا إزيس» قد جعل له قيمة عظيمة.

وهذا الأثر الذي عليه هذا النقشُ يحتمل أنه قطعة من البازلت الأسود مساحتها (٤٥ × ٦٢) سنتيمترًا، وهي محفوظةٌ الآن في متحف «القاهرة».

(٣٦) المحلة الكبرى

وعُثر في «المحلة الكبرى» على قطعةٍ من تمثال صقر ضخم مصنوع من الجرانيت الأسود نقش عليه اسم الملك «نقطانب» الثاني «نخت حور حبت».

(راجع: Porter & Moss IV p. 42.)

(٣٧) الإسكندرية

تابوت الفرعون «نقطانب» الثاني، عُثر على هذا التابوت في «الإسكندرية»، وهو محفوظٌ الآن بالمتحف البريطاني، وهو مصنوعٌ من حجر البرشيا، ومزيَّن من الداخل بصور آلهة الموتى، ومعظمها الآن قد مُحي، ومن بين هؤلاء الآلهة أولاد «حور» الأربعة وهم «أمستي» و«حابي» و«دواموتف» و«قبح سنوف»، هذا بالإضافة إلى «أنوبيس» إله الموتى والتحنيط.

كما يُشاهَد على التابوت — عند رأس المتوفى وقدميه — صورتا الإلهتين «إزيس» و«نفتيس» ناشرتين أجنحتهما، وكل منهما راكعةٌ على رمز الذهب، ويشاهد حول حافة التابوت مِن أعلى شريطٌ مؤلفٌ من رموز الثبات والحماية، وخارج التابوت مغطًّى بسلسلة مُتُون ورُسُوم منقوشة من الفصول: الأول والثاني والثالث والسادس والثامن والتاسع، من الكتاب الذي يحمل عنوان: «ما يوجد في العالم السفلي»، وهذا الكتاب يُفسر لنا سير الشمس ليلًا في أقسام العالم السفلي الاثني عشر، وقد كان المقصودُ منها أنْ تكون بمثابة مرشد في هذا العالم الآخر، وتساعد أرواح الموتى لتمر من هذا العالم إلى العالم الآخر.

والقسم الأول: قد حفر في رأس التابوت المستدير، وهو يصفُ عالم الآخرة الذي مَرَّ فيه إلهُ الشمس في أول ساعة من ساعات الليل، وهذا الإقليمُ يُسَمَّى «نت رع»، ويشاهد في الصفين اللذَين في الوسط سفينة «رع» ومعه أتباعُهُ من الآلهة، وكذلك سفينة «أوزير» ومعه أتباعُهُ من الآلهة، وفوق هذا المنظر وأسفله نُشاهد آلهةً تغني أناشيد المديح للإله «رع» وهو في رحلته السفلية.

القسم الثاني: ويمثل إقليمًا في العالم السفلي، وهو محفورٌ في الجانب الأيمن من التابوت، ويحتوي على السفن السحرية التي يسبح بها «رع»، وهي تحتوي على القمر ورمز «حتحور» والإله الذي في صورة «ورل» وإلهة الحبوب، وفوق هذا المنظر وأسفله يوجد آلهةٌ مختلفةٌ يُشرفون على فُصُول السنة والحصاد … إلخ، وكذلك الذين يقومون بأداء حاجات إله الشمس، وينيرون طريقَه ويُهلكون أعداءه.

والقسم الثالث: يمثل إقليمًا يُدعَى «نت نب رع خبر أوت» حفر في الجانب الأيسر للتابوت ويحتوي على ثلاثة سُفُن، يوجد فيها آلهةٌ ساعدوا إله الشمس، وفوق هذه السفن وأسفلها يوجدُ الآلهة الذين أهلكوا العدو «سبا» وأتباعه وحرقوا بالنار الخارجة من أجسامهم كُلَّ أولئك الذين حالوا دون طريق إله الشمس، وهذه الآلهة جعلت النيل يجري.

القسم السادس: ويمثل الإقليم الذي يسمى «مجت-مو-نبت-دوات».

وقد حفر في الجانب الأيمن للتابوت بالقرب من موضع القدمين، ويحتوي على مسكن الملوك وأرواح العظماء وحجرات «رع»، والكائنات التي في هذا الإقليم قد عادتْ إلى الحياة عندما سمعتْ كلمات إله الشمس، وقامت له بخدمة.

والقسم الثامن: هو الذي يمثل الإقليم «تبات-تترو-س».

حفر على الجانب الأيسر للتابوت بالقرب من القدمين، ويحتوي على عدة دوائر أو مساكن للآلهة الذين عادوا إلى الحياة عندما ظهر إله الشمس، وأَدَّوْا خدماتهم، وناحوا عاليًا عندما غادرهم.

القسم التاسع: ويمثل الإقليم الذي يسمى «بست-عارو-عنخت-خبرو» وقد حفر على قدم التابوت، وفيه سكنُ الآلهة الذين كانوا يقدمون نورًا جديدًا ونارًا لإله الشمس، وجهزوا صورته المادية لولادة جديدة.

والفصول الستة الباقية من كتاب ما يوجد في عالم الآخرة «دوات»، يحتمل أنها كانت قد نُقشت على غطاء التابوت الذي هشم في الأزمان القديمة.

هذا، ويحتوي الجزء الأسفل من كل جانب من جوانب التابوت — وكذلك عند الرأس والقدم — على منتخب من كتاب المدائح الخاص بأشكال إله الشمس «رع» الخمسة والسبعين، وبه سبعٌ وثلاثون صورة من هذه الأشكال.

وهذا التابوتُ كان قد عُثِرَ عليه في ردهة عمارة بالإسكندرية، وكان قد أُهدي إلى «سنت أثناسيوس St. Athanasius»، حيث كان يستعمل بمثابة حمام منذ مائة سنة مضت، قبل نقله إلى المتحف البريطاني، وقد عمل فيه اثني عشر ثقبًا في جانبيه وطرفيه؛ ليتسرب الطين الذي كان يتخلف من مياه النيل في قاعه من الداخل، ويزنُ هذا التابوت الضخم ستةَ أطنان وحوالي ثلاثة أرباع الطن وطوله ١٠ أقدام وثلاث بوصات ونصف، وعرضه خمس أقدام وثلاث بوصات وثلاثة أرباع البوصة وارتفاعه ثلاث أقدام وعشر بوصات وثلاثة أرباع البوصة.

راجع: Description de l’Egypte V. Pl. 40–41, X. p. 525–9; Guide Brit, Mus. p. 396, Fig. 219, p. 87 Fig. 33, p. 215 Fig. 115; Guide Brit, Mus. Sculptures, p. 248–9, No. 923 & Pl. XXXII, XXXII; Budge, Egypt, Sculptures in the Brit, Mus. p. 20–21, Pl. XLIV.

لوحة «مترنيخ» السحرية

هذه اللوحة التي ترجع نقوشُها إلى عهد الملك «نقطانب» الثاني، عُثر عليها في مدينة «الإسكندرية» في أوائل القرن التاسع عشر، وكان قد أهداها «محمد علي» والي «مصر» للأمير «مترنيخ» النمسوي الذي بدوره حافظ عليها في قصر «كينجز وارت» في «بوهيميا» ولم ينشر متن هذه اللوحة إلا في عام ١٨٧٧م، وقد قام بذلك الأثري العظيم «جولنشيف»، (راجع: Meltiernicshtele in folio Texte et 9 Planches).

ويبلغ ارتفاع هذه اللوحة ٨٢ سنتيمترًا، وعرضها ٢٦ سنتيمترًا، وسمكها ٨ سنتيمترات، وهي مصنوعةٌ من حجر الثعبان، وقد حُفرت نقوشها حفرًا بديعًا؛ كما كانت العادة في هذا العصر الذي أُحيي فيه الفن.

موضوع المتن

دل الفحص اللغوي على أن متن هذه اللوحة هو عبارة عن تعاويذَ سحريةٍ، كان المصريون يضعونها في منازلهم، أو يحملونها معهم؛ ليكونوا في مأمن من الحيوانات والحشرات الضارة بوجه عام؛ وقد أَطلقوا على مثل هذه اللوحات اسمًا أصبح اتباعيًّا، وهو «لوحات حور على التماسيح»، وهذه التسميةُ تمتازُ بأنها مختصرةٌ مفيدة. غير أنه يجب علينا أن نلحظ أن المتون التي على هذه اللوحات خاصةٌ بالثعابين والعقارب أكثر منها بالتماسيح، وعلى أية حال فإن أهمية هذه اللوحات الأسطورية يتخطى كثيرًا حدودَ الحماية السحرية من الحيوانات المؤذية.

وتوجدُ أمثلةٌ كثيرةٌ من هذه الآثار الصغيرة الحجم، والواقعُ أنها كلها تكاد تكون من العصر المصري المتأخر، الذي يقع بعد الأُسرة السادسة والعشرين (٦٦٣–٥٢٥ق.م)، وأقدم مثال لدينا من هذه المتون يرجع إلى عهد الأُسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠–١٢٠٠ق.م).

وتدلُّ محتويات الأوراق البردية والتماثيل الصغيرة التي تقدم لنا أحيانًا نفس المتون التي على هذه اللوحات أنها من عصر بعد العهد الطيبي.

هذا، ولدينا — من جهة أُخرى — لوحاتٌ من هذا النوع تؤرخ بالعهد الروماني.

(راجع: Daressy, Textes et Dessins Magiques Catalogue du Caire No. 9403–9413.)

وعلى الرغم من أن البلاد المصرية كانت مملوءة بأنواعٍ من الحشرات السامة أو الخطرة في بداية تاريخها أكثر منها في نهايته؛ فإن هذه المتون انتشرتْ في العهد المتأخِّر، والواقعُ أن المكانَ العظيمَ الذي تأخذُهُ التماسيحُ والعقاربُ وبنوعٍ خاص الثعابين في الأساطير المصرية؛ يشهد بما كانت تحدثه هذه الحشراتُ من خوف وفزع في نفوس المصريين الأُوَل.

وتدلُّ الوثائقُ التي في متناولنا على أن السحرة في عهد الدولة القديمة كانوا يهتمون اهتمامًا بالغًا بمحاربة هذه الزواحف، ولا غرابة في ذلك؛ فإن أكثر من ربع «متون الأهرام» وعدد كبير من «متون التوابيت» في الدولة الوسطى وطائفة عظيمة من فصول «كتاب الموتى» قد خُصصت لمحاربة هذه الحشرات الضارة لإبعادها عن «أوزير» وعن المتوفين عامة، كل ذلك بتعاويذَ سحرية، ومِن ثم نفهم أنَّ ظُهُور لوحات «حور» على التماسيح»، في العُهُود المتأخرة لم يكن سبُبُه كثرةُ الحشرات في هذا العهد، بل كان لأسبابٍ أُخرى، سنذكرها فيما بعد.

مصادرُ دراسة اللوحة

ولوحة «مترنيخ التي نحن بصددها تُعَد طرازًا وافيًا للصيغ التي كانت تُتلى لإبعاد الحشرات المؤذية، والواقعُ أنها تُعَد مثلًا من حجمٍ خارقٍ للمألوف، كما أنها تُعَد أكثرَها تَطَوُّرًا من حيث الصور التي رُسمت عليها، ومن حيث المتن الذي تحتويه. وأخيرًا: تُعتبر أحسن لوحة محفوظة لدينا حفظًا تامًّا، وأقلها من حيث الأخطاء التي تعتور مثل هذه المتون المتأخرة.

وقد تناول هذه اللوحة بالبحث أثريون عظماء نذكر منهم:

(١) جولنشيف: (راجع W. Golenischeff, Die Metterichestele Leipzig 1877).

(٢) موريه: (راجع Moret. Revue de l’Histoire des religions 36). وقد نقل اللوحات التي رسمها «جولنشيف» وهي الخاصة بمتن لوحة «مترنيخ».

(٣) نورا سكوت: (راجع: Norn E. Scolt in the Metropolitan Museum of Art Bulletin, April 1951, p. 201 ff).

ولم تترجم «سكوت» من هذه اللوحة إلا بعض فقرات.

هذا، وقد قام الآتي ذكرهم بترجمة نصوص هذه اللوحة:

(١) بركش: (راجع: A.Z. 17 (1969), p. 1, ff).

(٢) ريدر: (راجع: G. Roeder, Urkunden Zur Religion des Ahen Agypten (Jena 1915 (Ubersetzung)).

(٣) فرنسوا لكسا: (راجع: François Lexa, La Magie dans l'Egypte Antique (1925)).

(٤) كلاسنز: (راجع: Klasens, A. Magical Statue, base Leiden 1952)، حيث نجد بعض مقتطفات مترجمة.

(٥) ساندر هانسن: (راجع: Analecta Aegyptiaca, Vol. VII Die Texte Der Met-ternichstele (Sander-Hansen)).

عصر اللوحة

نُقشت هذه اللوحة في عصر الملك «نقطانب» الثاني، وذلك لحساب كاهن يُدعَى «نستوم» الذي قال: إنه أخذ صورة منها من نسخة محفوظة في معبد جبانة ثيران «منفيس» بمدينة «عين شمس»، كما جاء في السطر ٨٧ وما بعده من المتن، ومن ثم نفهم أنَّ هذه الوثيقةَ خارجةٌ من مدارس لاهوت «عين شمس»، أو على الأقل منسوبةٌ إلى الوجه البحري، وهذا ما يؤكد الأهميةَ التي يُشير إليها المتنُ للآلهة الذين من أصل دلتوي مثل «رع» و«أوزير» و«إزيس» و«حور» وغيرهم من الذين جاء ذكرُهُم في سياق الكلام.

الفكرة العامة عن المتن: والفكرةُ العامة عن متن هذه اللوحة هي أن كُلَّ رجل قد هاجمتْه أو لدغتْه حشرة؛ فإنه في هذه الحالة كان يوحد نفسه بإله مثل «رع» أو «أوزير» أو «حور» أو «مين» أو بإلهة مثل «إزيس» أو «باستت» أو «سلكت»؛ وذلك لأن هذا الإله أو هذه الإلهة كان يزعم في سالف الزمان أنه قد هُوجم أو لُدغ بنفس الطريقة، ولكنه كان قد أُسعف بسحر «رع» أو أي إله آخر، وعلى ذلك فإن الرجل المصاب الذي تُقرأ عليه نفسُ التعويذة السحرية التي قُرئت على الإله كان يُشفى في الحال مثله.

ويُلحظ أن المتون وصور الآلهة التي مُثلت على اللوحة قد وزعت بطريقة منظمة.

وصف اللوحة

الوجه الأمامي (Pl. 1–11).

تعبد للإله «رع» (cf, Pl. 1).

يشاهد في وسط الجُزء الأعلى المقوس من اللوحة قُرصُ الشمس يرتفع في السماء، وقد مثل الانحناء برمز السماء المقوسة، ويشاهد في القرص إله عاري الجسد وقاعدًا القرفصاء بجسم إنسان، ويقبض بيده على عصا الحكم والدرة، وقد ثبت في رقبة هذا الإله أربعة رءوس لكبش، اثنان يتجهان شمالًا واثنان يتجهان يمينًا، أو بعبارة أَصَحَّ تتجه هذه الرءوسُ نحو الجهات الأربعة الأصلية، أو على حسب ما جاء في الصيغة السحرية نحو أربعة (بيوت العالم)، وهذه الرءوسُ مغطاةٌ بأصلال وتيجان شمسية، ويوجدُ قرصُ الشمس في إطارٍ كأنه محمولٌ في الهواء بذراعين ترتكزان على قاعدة مؤلَّفة من العلامة الدالة على الأرض والعلامة الدالة على الماء. ويشاهد على يمين هذا القرص وشماله أربعةُ قردة في صفين واحدٌ منهما فوق الآخر (ويُلحظ أن القردين الأولين لكل منهما عضو تذكير منتشر) واقفة تتعبد للشمس.

هذا، ويشاهد الملك «نقطانب» على اليسار يقوم بنفس التعبُّد راكعًا للإله «تحوت» الذي يُشاهَد واقفًا في الجهة اليُسرى من اللوحة، ويوجد متنٌ يشرح هذا المنظر فنشاهد فوق قرص الشمس متنًا جزءٌ منه في الجهة اليُمنى والآخرُ في الجهة اليسرى، ويحتوي كُلٌّ منهما على نفس الألقاب في كِلْتَا الحالتين وهو:

التعبُّد لرع «حرمخيس» الإله العظيم رب السماء «الصقر» ذي الريش المختلف الألوان خارجًا من الأُفُق.

ونشاهد أمام الإله «تحوت» الذي مثل برأس «أبي منجل» وجسم إنسان رمز الإله «نفرتم» وهو زهرة لوتس مفتحة وتخرج منها ريشتان، وكذلك يَتَدَلَّى منها ثقالتا عقد «منات»، وساق اللوتس يرتكز على خاتم ومعه المتن التالي:

بيان يقوله رب الأرضين «سنزم-اب-رع ستب-ن-آمون» (لقب «نقطانب» الثاني): يا سيد اللهيب والموقد والنار! دع لهيبك يذهب حتى حدود العالم، ولكن لا تحرقني!

والمنظر غايةٌ في الوُضُوح، وذلك أن الإله «رع حور أختي» ليس إلا إله مُركَّب يجمع في شخصه قوة الشمس و«حور الكبير» يرتفع في الأفق، وهذا الإلهُ يمثل النور والنار، وكانت أعداؤه التقليديةُ عند كل الأقوام هي المردة والحيوانات المؤذية، غير أنه يُرسل عليها لهيبًا يمثل في صورة الصل «نسرت» (النار)، فيقضي عليها، وسنرى فيما بعد ما هو الدور الذي

يلعبُهُ هذا الصل، غير أنه يطلب إلى «رع» ألا يرسل هذا الصل دون تروٍّ؛ وذلك لأنه من الممكن أن قوة طبيعية أو سحرية قد تكون ضارة للمحسن وللمسيء، وتذكر الصيغة التي جاءت مع «تحوت» الإله «رع» أنه من فائدته أن يمد يد المساعدة للملدوغ على الأرض؛ وذلك لأن نفس هؤلاء الأعداء يهاجمون سفينة الشمس في دورتها اليومية، وعلى ذلك فإنه إذا حارب من أجل البشر، فإنه يُحارب من أجل نفسه.

نعود الآن إلى وصف الصورة التي تتوسط اللوحة، فنشاهد صورةَ هذا الإله له أربعةُ رُءُوس كباش، قاعدًا في الشمس، وهو الذي تمثِّلُهُ الآثار في صورة «رع» أو «آمون»، ففي ورقة «هاريس» السحرية نَقرأُ في الفصل الخاص بمحاربة التمساح: تتلى على صورة لآمون له أربعة رءوس كباش، برقبة واحدة، ويدوس تحت قدميه تمساحًا، وعلى شماله ويمينه آلهة الأشمونين (وهم القردة الثمانية) تقوم له بالتعبد! (راجع: Chabas, Le Papyrus M. giques, Harris p. 90, IV 6).

وتوجد آثارٌ كثيرةٌ تؤكدُ هذا التفسير، ولكن تعزو إلى أربعة رءوس الكباش أسماء الآلهة الخاصة بالعناصر الأربعة، وهي: النار (= رع) والأرض (= جب) والماء (حعبي = النيل) والهواء (= شو) (راجعْ: عن هذا الموضوع: Brugsch, Thesaurus p. 735 ff.).

هذا، ويُلحظ في الصورة أنَّ التعبُّد قد قام به القردةُ الثمانيةُ، وهي أربعةٌ من الذُّكُور وأربعٌ من الإناث، وهذه تمثلُ أربعة الأرواح من الآلهة الأزلية، وبذلك يكمل معنى اللوحة الدنيوي.

ولكن ما معنى وجودها في بداية متن سحري؟ وتفسير ذلك أن الدنيا جميعها بعناصرها الأربعة لها منفعةٌ في شجار الساحر مع الحشرات المؤذية، وذلك أن السحر أو الساحر يظن أنه في مقدوره أن ينجي الإنسان بأنْ يجعل هناك صلة بين بقاء الإنسان غير الثابت وحياة العالم الأبدية، والساحر يربط كل العالم بأعماله (راجع: Hubert. p. 1510)؛ ولذلك فإن حالة أي إنسان آذاه حيوانٌ مضرٌّ تكبر بصورة غير عادية، حتى إنها تتطلب محاربة إله النور، وخالق العالم للقوى المخربة ومردة الظلم، كما سنرى في سياق المتن، وهذا هو السبب في أنه منذ البداية نجد أن الساحر المصري يحث الشمس «رع» التي تعد الإله الأزلي رب العناصر الأربعة أو أجزاء العالم لأجل أن تقتنع بالأهمية البالغة للحالة الراهنة وبالقوة التي لا تقهر للصيغ الشافية، وهذا ما يدل عليه كذلك وُجُود رمز الأرض ورمز الماء، وهما اللذان ترتكز عليهما صورة الكا (القرين) التي تحمل الشمس في

الفضاء، وهي تَدُلُّ على الحماية، ومِن ثم نفهم أن الطبيعة تعبد وتحمي خالقها وتنتظر منه بدورها سلامتها؛ وذلك لأن القوة السحرية (حكا) هي مادة روح «رع».

أما عن الشخصين الآخرين اللذين نجدهما هنا في هذه الصورة فهما «تحوت» رسول «رع» ورب «السحر» بين الآلهة، ثم الملك الذي يُعدُّ وسيطًا بين الناس والآلهة كما يُعدُّ ساحرًا عظيمًا على الأرض، (راجع: Moret, Au Temps des pharaons. p. 276; et Mysteres Egyptiens p. 217).

واللوحات التي تحت هذا المنظر تمثل صورًا إلهية مستعملة تعاويذ.

ونشاهد في وسط هذه اللوحة ما يشبه الناووس مثل إطاره الخارجي، ويشاهد فيه «حور» عاريًا تمامًا، وعلى جبينه الصل وخصلة الشعر المتدلية التي تدل على الطفولة، ويدوس بقدميه تمساحين يلتفتان برأسيهما، ويقبض بيده اليُمنى على ثعبانٍ وعقرب وغزال، وفي يده اليُسرى سبعٌ وعقربٌ وثعبانٌ، وفوقه يُشاهَد رأس عظيم للإله «بس» مبتسمًا وقد رُسم هذا الرأس بصورة يظهر أنه عبارة عن غطاء وجه قد أعد ليوضع على رأس «حور»، ويُلحظ أنه على الوجه الخلفي للوحة نجد صورة الإله «شو» وهو ابن الإله «رع» وغالبًا ما يقرن بحور ابن «أوزير»، ويظهر هناك «شو» برأسه مغطًّى بغطاء الرأس هذا الذي يمثل «بس» وهو الذي يظهر أن «حور» هنا مستعدٌّ لاستعماله.

وليس من شك في أن صورة الإله «بس» لا بد من وُجُودها؛ وذلك لأنه تكاد تكون كل اللوحات التي من هذا الطراز التي فيها وجه «حور» الطفل يكون مركبًا عليها قناع ممثلًا بوجه «بس»، وهاك السببُ في وُجُود «بس» هنا؛ ذلك أن حور الممثل هنا قد وُلد في بطاح غاب «بوتو» والإله «بس» كان قريبًا منه في دوره الذي يقوم فيه بوصفه حامي الولادة، وهذا كما يظهر لنا في معبد الولادة «مميزي» حيث تضع الملكة الفرعون الطفل، وحيث وضعت «إزيس» «حور»، ونجد أنه في هذا المكان تصاحب «بس» الإلهة «تواريت» التي في صورة فرس البحر وتحمي الطفل من شر الشياطين الضارة.

والواقع أننا نجد أن «بس» ترافقه فرس البحر إما واقفًا، وإما قاعدًا القرفصاء في هيئته الخاصة على الصفين الأفقيين اللذَين يكنفان اللوحة التي نحن بصددها (راجع: Ibid. Pl. Reg. VI, VIII)، وعلى ذلك فإن لدينا تحت بصرنا إذن ولادة لحور مساوية للتي مثلت في «مميزي Mamise» (= بيت الولادة)، ووجود الإله «بس» والإلهة «تواريت» يمثل بنفس الطريقة، ومن جهة أخرى يلحظ أن «بس» هو إله اللهيب؛ ولذلك نجد في حجرة الولادة أنه قد وضع حول الطفل إله اللهيب الذي يبعد عنه الإله «ست» والأرواح الشريرة، ولا شك أن

لوحتنا توضح أن لهب الشمس يُعدُّ من أحسن الأسلحة ضد الشياطين والحشرات المؤذية، وأخيرًا نجد أن الإله «شو» في الصور السحرية يقوم بدور خاص له صبغةٌ تتسم في الوقت نفسه بالبهجة والتهديد، وبالاختصار نجد أن «بس» هنا هو حامي الطفل «حور» واللهيب الذي يؤكد الحماية والمخلوق المكشر عن أنيابه أو المنشرح الذي يبعد عدو الإله والناس.

ويوجد خلف «حور» في الصورة الإله «رع حر مخيس» في صورة إنسان برأس صقر مُزَمَّل بعباءة «أوزير» وعلى رأسه قرص الشمس، ويدوس بقدمه ثعبانًا مطويًّا مثل المصارين، وهو خلفه «حور» لحمايته، ويوجد رمزان لحور المولود، فعلى اليسار نُشاهد الصقر خارجًا من زهرة اللوتس، وعلى اليمين رمز الإله «نفرتم»، ويُلحظ هنا أن ريشتَي تاج الشمس خارجتان من زهرة اللوتس، هذا بالإضافة إلى ثقالتي العقد منات اللتان تكنفان الصورة المتوسطة، ويشاهد خارج الناووس آلهةٌ أُخرى تؤكدُ حماية «حور»، فنجد أولًا العينين المقدستين مجهزتين بذراعين تتعبدان، ثم نُشاهد على يمين «حور» «إزيس» تدوس بقدميها ثُعبانًا مطويًّا ومطعونًا في رأسه بسكين.

ويُلحظ أن الآلهة التي تلبس على رأسها قرص الشمس بين قرنين تحمي بيديها ناووس «حور»، ويشاهد خلفها ساق زهرة اللوتس مزهرة عليها إلهةُ الجنوب في صورة رخمة «نخبيت»، وقد نقش سطرٌ عموديٌّ خلفها جاء فيه: «بيان لإزيس العظيمة أم الإله: لا تخف! لا تخف! يا بني «حور» لأني خلفك بحمايتي مخضعة كل البلاد الأجنبية لوجهك، ولكل رجل قد جرح بالمثل»، وعلى الجهة اليمنى من اللوحة خارج الإطار نُشاهد على يسار «حور» صورة الإله «تحوت» برأس الطائر «أبو منجل» وجسم إنسان وهو يدوس بقدمه ثعبانًا في رأسه سكين، وخلفه نشاهد على ساق من البردي الإلهة صل الشمال؛ أي «وازيت» وقد نقش خلفها «تحوت»، بيان لتحوت رب «الأشمونين»: «لقد أتيت من السماء بأمر من «رع» لأجل أن أقوم بالحماية بالقرب من سريرك كل يوم ولحماية كل رجل قد جُرح بالمثل.»

الوجه الخلفي للوحة

يوجد في أعلى اللوحة منظر ومتون تابعة للمنظر الذي يمثل «رع» على الوجه الأمامي للوحة، ونرى في هذا الوجه من اللوحة صورًا مركبة، لها جسمُ إنسانٍ واقفًا يرتدي قميصًا قصيرًا، ويحتذي نعلين والذراعان تقبضان على صولجان الملك ورمز الحياة، ويَتَدَلَّى من رقبته تعويذةٌ في صورة القلب، وقد وضع على وجهه قناع في صورة الإله «بس» ولباس الرأس معقدٌ جدًّا وقد مثل في هيئة ناووس يعلوه قرنَا كبشٍ، وصورة تمثل إله ملايين

السنين في وسط مجموعة من المدى، وتخرج من الناووس بنصف جسمها بقرةٌ وغزالةٌ تهدداها من جهة اليسار سكين الضحية.

هذا، ويُلحظ أنه في ظهر الإله ريش طائر (= با) وهي أربعةُ أجنحةٍ منتشرة، وذراعان إضافيتان منبسطتان أيضًا، ومجموعة في حزمة واحدة سيوف «حور» وسكاكين وعلامات الحياة والثبات والقوة، وكل يكنفها ثعبانان، ويُلحظ أن هذا الإله يدوس بقدمه نوعًا من الوكر مغلقًا حبس فيه سبعة أنواع من الحيوانات الخطرة، وهي أسد وثعبانان وذئب وتمساح وعقرب وخنزير وسلحفاة، ويرتفع وينخفض حول الآلهة لهيب، كما نُشاهد العينين المقدستين على يمين الآلهة وعلى يسارها، وكل منهما مجهزة بذراعين تتعبدان، ويوجد متن خلف كل عين.

فعلى اليمين نقرأ: أن العين اليمنى مليئةٌ بذخائرها وبمؤنها، وكذلك تمثال الإله قد ثبت بإحكام على مقعده، وصلال التاج تضيءُ الأُفُق الغربي للسماء متعبدة لمن في السماء وهم الآلهة الذين رفعوا وجههم بالتاج الأبيض والتاج الأحمر.

يا أيها الروح الحية إذا عاش «رع» فإن ملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم-اب-رع-ستب-ن-آمون» سيحيا أيضًا، والعكس بالعكس.

وعلى الجهة اليسرى نقرأ: أن العين اليسرى مجهزة بجمالها وأنها تولد ثانية كل شهر وكل نصف شهر، وأن الذي يضم ذراعه خلف نفسه فإن الإله «شو» يحمله في الهواء على سفينة العين المقدسة، والآلهة في أسفارهم، وإذا كانت العين سليمة فإن ابن «رع» نقطانب الثاني يكون سليمًا والعكس بالعكس.

ويُلحظ هنا أن العين اليُمنى هي الشمس والعين اليسرى هي القمر:

وقبل أن نبدا ترجمة النصوص نجد أنه من الصواب أن نضع ملخصًا للمتن بأكمله تسهيلًا لفهم الترجمة المفصلة.

يحتوي متن هذه اللوحة على أربع عشرة تعويذة، أو تعزيمة، أو رقية:

التعويذة الأُولى: لإبعاد إله الشر «أبو فيس».

التعويذة الثانية: خاصة بالتعزيم على السم بوساطة الإله «حور».

التعويذة الثالثة: خاصة بشفاء قطة لدغت، وفي هذه التعويذة يلحظ أن السم قد سرى تمامًا في جسمها، فيتدخل الساحر بأن يوحد كل عضو من أعضائها بكل عضو يُقابلُهُ من أعضاء إله، كما يحدث في متون الحماية المشابهة، وقد حدث له ذلك وشفي، هذا، ويختار في كل حالة الإله الخاص بها.

التعويذة الرابعة: هذه التعويذةُ خاصةٌ بنفس الغرض الذي ذُكِرَ في التعويذة السابقة؛ أي حماية القطة التي وحدت بالإلهة «باستت»، ونجد أنها قد نَجَتْ بوساطة الإله «رع» والإله «شو» والإلهة «إزيس».

التعويذة الخامسة: خاصة بنداء إله الشمس للتعزيم على حيوانات الماء، والأُسطورة التي بُنيت عليها هذه التعزيمةُ هي موت أوزير وغرقه في الماء، وقد نجي من الغرق بعين «حور» والجعران الذي يمثل الشمس، وذلك حينما كان في طريقه إلى «بوصير»، ومن جهة أُخرى يلحظ في هذا الفصل توحيدٌ بعيدُ المدى، فعين «حور» تعتبر بداهة بمثابة العين الوحيدة للشمس التي بكت على أوزير والسمكة «أبدا»، وهي التي كانت تعتبر مرشدة سفينة الشمس وحاميتها، قد وحدت أحيانًا بالشمس، وفي هذا المتن تعني ولادتها في شروق الشمس، وقد ربط مصيرها بالإله «أوزير» في أحوال مُعَقَّدَة، وقد أَلحق بكل منها الإلهُ «ست» أضرارًا، وكان يهددهما دائمًا في الماء.

التعويذة السادسة: خاصة بفرد لدغة عقرب، والسابقةُ الأسطوريةُ لذلك مأخوذةٌ عن قصة «أوزير»، وكانت «إزيس» قبل أن تهرب من السجن الذي وضعها فيه «ست» قد وضعت ابنها «حور»، وقد ظهر لها الإله «رع»، ونصحها بكلماتٍ حكيمة، وأشار عليها أن تبحث لنفسها عن مخبأ تأوي إليه إلى أن يشتد عضُد صغيرها، ويصبح قادرًا على أن يقبض على زمام الحكم في البلاد، وعلى ذلك ولَّتْ وجهها شطر «بوتو» يُرافقها سبع عقارب لحراستها، وفي أثناء سيرها على الطريق فرضتْ سيدةٌ عليها أن تُدخلها بيتها، وقد أهاج ذلك العملُ غضبَ العقارب التي في حراستها، وانتقمت إحداها لها بأنْ لدغت ابن هذه السيدة.

وهذا الحادثُ قد تبعهُ ثورةٌ في الطبيعة، وخرجتْ هذه السيدةُ هائمةً على وجهها، غير أن «إزيس» أو الأم الإلهية قد أخذتْها الشفقةُ على الطفل المتألم الملدوغ، فرَقتْه بسحرها وأعادتْه إلى الحياة، ومنذ تلك اللحظة طلبت «إزيس» إلى حُرَّاسها من العقارب بألا يقوموا بعمل أي سوء خلال هربها، وبعد ذلك ذهب الخطرُ وذهب غضب الطبيعة وهدأ، وعادت السيدة إلى بيتها وقدمت للآلهة كُلَّ ما تملك هدية، في حين أن الخادمة قد كوفئت بسخاء.

ثم يختتم المتن بتعليمات طبية، ومن ثم نجد أن العلاج كان يجمع بين الطب والسحر، كما يُشاهَد ذلك في معظم الكُتُب الطبية المصرية القديمة؛ ولهذا السبب فإنه لا يُمكن أن يُعتبر هذا المتن خياليًّا تمثيليًّا كما ادعى «دريتون» في مقاله عن المسرح المصري (راجع: Drioton, Le theatre Egyptien, Le Caire (1942), p. 82, f).

ومن ثم فإن الموضوع في هذا الفصل لا يدور حول «حور» الطفل، وإن الملاحظات التي نجدُها في الرقى الخاصة بشفاء «حور» ليست سؤالًا وجوابًا، ومما هو جديرٌ بالملاحظة أنه ليس في المتن ما يَدُلُّ على أن «إزيس» هنا هي زوجُ «أوزير»، بل على العكس نجدُ أنها قد ذُكرت بوصفها محبوبة «رع» مما يَزيد في الرأيِ القائل: إنها هنا تمثل «حتحور» بوصفها عين الشمس، وتقدم لنا مثلًا من أمثلة توحيد الآلهة الواحد بالآخر.

التعويذة السابعة: هذه التعويذةُ عبارة عن سحر للحماية من السم، ونجد فيه أن «إزيس» يلجأ إليها لشفاء كل من «حور» والمريض، وهنا يلحظ التوحيد القويُّ الذي نجده بين «حور» ابن «إزيس» و«حور» الكبير ابن إله الشمس، هذا فضلًا عن أننا نجده، قد دعى «حور» ابن الإله «جب».

التعويذة الثامنة: وهي عبارة عن تعويذة للحماية من سم الثعبان، والحامي هنا هو إله الشمس «رع» الذي استغاثتْ به «إزيس»، أما المحميُّ هنا فقد مثل بحور بن «إزيس»، وقد ظهر ثانية بوصفه «مين–حور»، وقد قام بدور المنفذ للاتقاء من لدغة الثعبان وسمه الإله «تحوت».

وفي هذه التعويذةِ نجد اسم الكاهن الذي نقل هذا الكتاب من جديد، بعد أن كان في بيت العجل «منفيس» في «عين شمس».

التعويذةُ التاسعةُ: هذه التعويذةُ عملت لحماية «حور» والمريض الذي كان يلدغ، والسابقة الأسطورية لذلك هي أن «حور» في غياب والدته كان قد لُدغ، وكان قد وقع هذا الحادث بجوار مدينة «عين شمس» وقد أمر إله الشمس الإله «أوزير» رب النوم أن يرسل دواء شافيًّا للملدوغ.

التعويذة العاشرة: تحتوي هذه التعويذةُ على تعبُّد للإله «حور» لأجل أن يحمي الناس من شر الحيوانات المؤذية برًّا وبحرًا، مثل الأسود والثعابين والتماسيح، ويُلحظ في هذا الفصل أن «حور» يظهر هنا من جهة بوصفه ابن «أوزير وإزيس» (سطر ١٠٦)، ومن

جهة أُخرى (سطر ١١٠-١١١) يظهر بوصفه ابن الإله «نون» والإلهة «نوت» وأخو إله بلدة «ليتوبوليس» (= أوسيم الحالية) ومن ثم نفهم أن «حور» ابن «إزيس» و«حور» الأكبر لا فرق بينهما من جديد في هذا المتن.

التعويذة الحادية عشرة: ١٢٦–١٣٧، هذه التعويذةُ تشتمل على رقية ضد الثعابين في أحجارها وعلى الطريق، ويوحد هنا المحمي بالعجل «ممفيس» والإله «سبا» وبثعبان ذكر لم يعرف من قبل وبالإله «رع» والإله «تحوت» والإله «نفرتم» وأخيرًا يوحد بابن «أوزير».

التعويذة الثانية عشرة: تحتوي هذه التعويذةُ على رُقية لطرد سُمِّ العقرب مِن جسم «حور» ومن جسم المريض بوساطة الإله «تحوت» الذي نزل من السماء لهذا الغرض، وهذه التعويذة تختلف عن السحر الخاص بحماية المريض الذي ورد في التعويذة الثالثة، وهو الذي كان الغرض منه أن يصل بوساطة الموازنة بين كل عضو من أعضاء كل إله بكل عضو من أعضاء المصاب، إلى أن أعضاء «حور» هنا في هذه التعويذة جميعها ملكه، وأنه مسيطرٌ عليها، يستعمل كل واحد منها فيما خُصص له، وهنا نلحظُ أن صورة «حور» بهذا الوصف ليستْ متجانسةً قط؛ فهو الإله والملك على الوجه القبلي، (سطر ١٤١) بوصفه ابن «جب»؛ أي «حور» الكبير إله الشمس، ثم نراه بوصفه ابن «أوزير» (أسطر١٤٤–١٤٨) وقد نصبه «بتاح»، وكذلك نُشاهده «حور» الكبير بوصفه ابن الإله «رع» (سطر ١٤٣-١٤٤)، وقد وحد كذلك بإله الشمس كما سمي بوالد أولاد «حور»، وأَخيرًا نسبتْ إليه صفات «حور» ابن «إزيس»، ولكن على غير العادة (أسطر ١٥٨-١٥٩).

التعويذةُ الثالثة عشرة: تحتوي على رقية لحماية قطة ملدوغة، وقد وحدت بالإلهة «باستت»، وهذه الرقية متصلة بالرقية رقم ٤ في التعويذة الرابعة، ويجب أن تُقرأ معها.

التعويذة الرابعة عشرة: (١٦٨–٢٥١)، وهي رقيةٌ للحماية من لدغة العقرب، وترتكز السابقة الأسطورية، لهذه الرقية على أُسطورة «إزيس» وقصة «حور».

وذلك أن «إزيس» قد وضعت ابنها «حور» في خبيئة خوفًا من أخيها «ست»، وقد طافتْ به في صورة متسولة طالبة النجدة لها ولابنها في كل مكان، وعندما عادت إلى بيتها وجدت ابنها مريضًا وفاقدَ النطق، فكان لا يجيب وليست له شهيةٌ للأكل، وقد كان فزعُ الأم

عظيمًا؛ إذ كان أهلُها وزوجها قد ماتوا، وأخذتْها الحيرةُ في أنْ تجد مَنْ يُساعدها في موقفها هذا، وقد كان سُكَّانُ الدلتا الذين أسرعوا لنجدتها لا يعرفون الرُّقَى السحرية، ولكن امرأةً ذكية الفؤاد واستْها وعرضتْ عليها أن تفحص طفلها بدقة؛ إذ من الجائز أن ثعبانًا قد لدغه، وقد اتضح لها فعلًا حقيقةُ ذلك، وقد حركت الإلهة الطفل وهزتْه ثم صرختْ صرخةً مدويةً نحو إله الشمس، وعلى ذلك حضرت الإلهتان الحارستان «نفتيس» و«سلكت» وقد أخذت الأولى في النحيب، أما الأُخرى فقد أتت بنصيحة طيبة، وهي أن تجبر سفينة الشمس على الوقوف، وكذلك تخضع الإله الذي فيها، وقد وقع ذلك فعلًا؛ إذ إن السفينة قد أصبحتْ غيرَ قادرة على الإبحار، وقد وصل الإله «تحوت» ليضع الأُمُور في نصابها بما له من قوةٍ جَبَّارَة، وبعد تبادُل إيضاحات منوعة أصبح بها محميًّا مثل إله الشمس نفسه.

وحدث أن الطفل انتعش، وذهبتْ حدةُ السم الذي كان في جسمه تمامًا، لدرجة أنه أصبح لا ينتظر أيَّ اضطرابٍ في الطبيعة.

وعلى ذلك اختفى المرضُ وطلب «تحوت» إلى المجتمعين أن ينصرفوا، غيرَ أن «إزيس» لم تكن بعدُ سعيدة، وطلبتْ أمانًا مستديمًا لهذا الطفل إلى أنْ يمكنه من اعتلاء عرش الملك، وقد مُنحت كل ما أرادت، وبذلك أمكن «تحوت» أن يرجع حاملًا لسيده الأخبار السارة، وعلى ذلك أمكن لسفينة الشمس أن تُبحر مرة ثانية.

ويُلحظ في هذا المتن أن «حور» هو «حور بن إزيس» والمنتقم لوالده، وقد جاء ذكرُهُ مرة واحدة بوصفه «حور» بن «رع» وأن «ست» أخاه، وهذا خلطٌ لا يتفق مع الحقيقة.

متن لوحة مترنيخ

الفصل الأول

(١) تقهقر يا «أبو فيس» أنت يا عدو «رع» يا لفافة الأمعاء تلك، والذي لا ذراعان له، ولا رجلان له، أنت ليس لك جسم وجدت فيه، ومن ذيله طويل في حجره، أنت أيها العدو هناك اخضع لرع، ليت رأسك قطع عندما ينفذ إعدامك، يجب ألا ترفع رأسك، وإذا يكون لهيبه في روحك ورائحة مكان إعدامك في جسمك.

ليت صورتك تقطع بسكين الإله العظيم، ليت «سلكت» تسحرك وتحول قوتك، ابق واقفًا! ابق واقفًا! بعد أن سلمت أمام سحرها.

الفصل الثاني (أ)

تدفق أنت يا سم! تعال اخرج على الأرض، ليت «حور» يسحرك، ليته يعاقبك بعد أن يكون قد بصقك، يجب عليك ألا ترفع إلى أعلى، بل يجب أن تسقط إلى أسفل، يجب أن تصير ضعيفًا، ويجب ألا تكون قويًّا، يجب أن تصير جبانًا، ويجب ألا تحارب، يجب أن تصير أعمى، ويجب ألا تبصر، يجب أن تقف رأسًا على عقب، ويجب ألا ترفع رأسك، ويجب أن تضل، ألا تجد الطريق، يجب أن تحزن، ويجب ألا تفرح، يجب أن تخطئ، ويجب ألا ترشد، وإن ما قاله «حور» الفاخر في السحر عال.

الفصل الثاني (ب)

إن السم الذي كان في فرح، والذي حزنت به (٦) كثيرٌ من القلوب، يجب أن يقتله «حور» بقوته، وبذلك يصبح الحزن فرحًا، قِفْ أنت يا من كنت في حُزن بعد نقلك «حور» إلى الحياة، (٧) تعال يا من تصير محملًا، اخرجْ من تلقاء نفسك وأسقط العدو العاصي، (٨) إن جميع من يتهمهم «رع» ليتهم يمدحون ابن «أوزير»، تحول أنت أيها الثعبان واسحب سمك الذي في أعضاء كل مريض، تأمل أن قوة سحر «حور» منتصرة عليك.

ليتك تسيل إلى الخارج أيها العدو.

تحول أنت أيها السم.

الفصل الثالث (أ)

(٩) فصل في رقي القطة.

بيان: يا «رع» تعال لابنتك.

بعد أن لدغها عقربٌ على طريق منفردة، ليت صياحها يصل إلى السماء، وعلى ذلك تسمع على طريقك، وعندما يسري السم في أعضائها، ويتغلغل في لحمها، وتفغر فاها عليه (لتخرجه)، (١٢) تأمل أن السم كان في جسمها، تعال، إذن بقوتك وبغضبك في حمرتك، (١٣) تأمل أنه أمامك مختبئ، ومع ذلك فإنه قد سرى في كل أعضاء هذه القطة تحت أصابعي، (١٤) لا تخافي، لا تخافي يا بنتي الفاخرة، تأملي أني خلفك (لحمايتك)، لقد هزمت السم، (١٥) الذي كان في كل عضو لهذه القطة، أنت أيتها القطة إن رأسك رأس «رع» سيد الأرضين الذي يضرب كل الناس الثائرين.

ولذلك فإن خوفه في كل البلاد وفي كل الأحياء أبديًّا.

أنت أيتها القطة، إن عينيك عين رب العين الفاخرة.

الذي يضيء الأرضين بعينه، والذي يضيء الوجه على الطريق المظلمة.

(١٨) أنت يا هذه القطة، إن أنفك هو أنف «تحوت».

صاحب العظمة المزدوجة، ورب الأشمونين، والرئيس الأعلى لأرض «رع» والذي يمنح النفس لأنف كل رجل.

(١٩) أنت يا هذه القطة إن أذنيك أذنا رب الكل.

ويسمع بهما صوت كل إنسان عندما يناديه، ويفصل في الأرض قاطبة.

أنت يا هذه القطة، إن فمك فم «آتوم» رب الحياة الذي يوحد الأشياء.

(٢١) وهو الذي جعل توحيد الأشياء، والذي خلا من كل سم.

أنت يا هذه القطة إن رقبتك هي رقبة الإله «نحبكاو» الذي قرب في البيت العظيم.

(٢٢) والذي تحيا الناس بقوة ساعديه.

أنت يا هذه القطة مَن قلبك هو قلب تحوت رب العدل.

(٢٣) لقد أعطاك هواء وجعل زورك يتنفس.

ومنح دخله هواء.

أنت يا هذه القطة إن قلبك هو قلب «بتاح».

(٢٤) لقد أشفي قلبك من السم الخبيث الذي في كل عضو من أعضائك.

(٢٥) أنت أيتها القطة هذه، إن يديك يدا التاسوع الكبير والصغير، لقد خلصت يدك من سم الثعبان كله.

(٢٦) أنت أيتها القطة هنا، إن بطنك بطنُ «أوزير» رب «بوصير»، إنه لم يسمح أن يعمل هذا السم كل ما يُريد في بطنك.

(٢٧) أنت أيتها القطة هنا: إن فخذيك فخذا «منتو» (إله الحرب) إنه أوقف فخذيك.

(٢٨) وأحضر هذا السم إلى الأرض.

أنت أيتها القطة هنا، إن ركبتيك ركبتا خنسو (إله القمر).

(٢٩) الذي يخترق الأرضين ليل نهار.

لقد جعل هذا السم يقفز على الأرض.

(٣٠) أنت أيتها القطة هنا إن قدميك قدما آمون العظيم رب طيبة، وإنه يثبت قدميك على الأرض.

وجعل هذا السم يسقط.

(٣١) أنت أيتها القطة هنا إن فخذيك فخذا «حور» الذي انتقم لوالده «أوزير».

وعلى ذلك فإن «ست» تَنَحَّى عن الشر الذي عمله.

أنت أيتها القطة هنا، إن نعليك نعلا «رع».

إنه كنس هذا السم الذي على الأرض.

(٣٢) أنت أيتها القطة إن أمعاءك هي أمعاء «محيت ورت».

ليت هذا السم الذي في أحشائك يسقط ويمزق إربًا إربًا من كل أعضائك، ومن كل أعضاء الآلهة الذين في السماء، ومن كل أعضاء الآلهة الذين على الأرض.

(٣٣) ليته يسقط كل سم فيك.

ليس فيك عضو خالٍ من الإله.

(٣٤) ليتهم يهزمون وليتهم يمزقون سم كل ثعبان ذكرًا كان أم أنثى، وكل عقرب وكل دودة تكون في كل عضو لهذه القطة أصابه المرض.

تأمل أن ما نسجت «إزيس» وما غزلت «نفتيس».

ضد السم.

(٣٥) ليت هذا الرباط الفاخر، وهذا السحر يطرده بما قاله «رع حور أختي» الإله الرفيع الذي يسيطر على الشاطئين.

أنت أيها السم الخبيث الذي توجد في كل عضو من أعضاء هذه القطة المريضة، تعال اخرج على الأرض.

الفصل الرابع

فصل آخر (تعويذة) بيان:

(٣٦) يا «رع» تعال لابنتك.

يا «شو» تعال لزوجتك.

يا «إزيس» تعال لأُختك.

نَجِّها من هذا السم الخبيث.

الذي في كل عضو فيها.

(٣٧) أنتم أيها الآلهة تعالوا هنا.

وبذلك تهزمون هذا السم الخبيث.
الذي في كل عضو من أعضاء هذه القطة المريضة.

الفصل الخامس

(٣٨) يا أيها الشيخ الذي تَصَبَّى في زمنه.
والمسن الذي عاد شابًّا.
ليتك تجعل تحوت يأتي على صوتي.
وبذلك يَرْتَدُّ عني «نحا-حر».
(٣٩) إن أُوزير على الماء في حين أن عين «حور» معه.
وجعران الشمس الكبير ناشرًا جناحيه فوقه (حماية له).
أنت يا من قبضتُهُ عظيمة.
أنت يا من خلقت الآلهة وأنت صغير.
ليت الذي في الماء يخرج سالمًا.
وعندما يقترب (بسوء) ممن هو على الماء.
فإنه يقترب من عين «حور» الباكية.
(٤٠) ابتعدوا أنتم يا من في الماء.
أنت أيُّها العدو هناك «ميت» و«ميتة»، وخصم وخصمة وهلم جرًّا.
لا ترفعوا وجوهكم يا من في الماء حتى يمر بكم «أوزير».
تأملوا أنه في طريقه إلى «منديس».
(٤١) ليت فمُكُم يصبح مسدودًا، وزوركم يصير مغلقًا.
تقهقر أنت أيها العدو.
لا ترفعوا وجهكم على مَنْ هُمْ في الماء.
إنهم «أوزير».
إن «رع» قد نزل في سفينة ليرى تاسوع «مصر القديمة» (خر عحا).
في حين أن أرباب العالم السفلي يقفون لمعاقبتك.
(٤٢) وإذا أتى «نحاحر» إلى «أوزير».
فإن عين «حور» تكون عليه؛ لتقلب وجهكم.
حتى تكونوا على ظهوركم.

أنتم يا من في الماء إن فمكم سيسده «رع».

وزوركم سيغلق بالإلهة سخمت.

(٤٣) ويقطع لسانكم تحوت.

ويعمي أعينكم حكا (إله السحر).

هؤلاء الآلهة الأربعة العظام الذين يقومون بحماية أوزير، عليهم أن يقوموا بحماية جميع الذين في الماء.

(٤٤) وكل الحيوان الذي على الماء في يوم الحماية هذا.

أنتم يا من في الماء.

إن السماء ستصير محمية عندما يكون رع فيها.

إن الإله الرفيع الذي كان في الماء، سيحفظ في التابوت.

إن صوتًا صاخبًا قويًّا في بيت «نيت».

وإن صوتًا عاليًا في البيت العظيم.

وإن صوت حزن قوي في فم القطة.

ويقول الآلهة والإلهات.

انظر انظر! إلى سمكة «أبد».

عندما ولدت.

أقص عني خطوتك أيها العدو.

إني خنوم رب «حر-ور» (الشيخ عبادة الحالية).

(٤٦) احذرْ أنْ تكرر الشر مرة ثانية بما عمل معك في حضرة التاسوع العظيم، يجب أن تُسيطر على نفسك، وأن تخضع أمامي.

إني إله.

(٤٧) ها، ها، لقد قلت نعم، ألم تسمع صوت العويل العظيم عندما جاء الليل من شاطئ «نديت» (= المكان الذي مات فيه «أوزير» غرقًا)، وهو الصوت المدوي العظيم لكل الآلهة وكل الإلهات بمثابة حزن على الشر الذي عملته بخبث أيها العدو.

(٤٨) تأمل لقد اهتاج «رع» من الغيظ بسبب ذلك.

وأمر بتنفيذ إعدامك.

ارتد أيها العدو، ها، ها.

الفصل السادس

إني إزيس.

(٤٩) عندما خرجت من بيت الغزل الذي وضعني فيه أخي «ست»، وقد قال لي تحوت الإله الرفيع المشرف على العدالة في السماء والأرض.

تعالي إذن يا إزيس الإلهية.

إنه لحسن كذلك أن يسمع الإنسان، وأن يعيش الفرد.

عندما يرشده آخر.

(٥٠) خبئي نفسك إذن مع الابن الصغير.

وبذلك يأتي إلينا.

عندما تكون أعضاؤه صلبة (منتعشة).

وعندما تتكون كل قوته.

وتجعليه أنت يجلس على عرشه.

لأنه قد منحت له وظيفة حكم الأرضين.

(٥١) وعندما خرجت في وقت المساء حدث.

إنه خرجت سبعة عقارب خلفي.

وقامت بخدمة لي.

وقف.

وفي حين كان «تفن» و«بفن» خلفي.

كانت «مستت» و«مستتف» تحت محفتي.

وكانت «بتت» و«ثتت» و«ماتت» تمهد الطريق.

(٥٢) وناديت عليها بإلحاح جدًّا.

وقد دخل كلامي في آذانها:

لا تعرفي الأسود.

ولا تحيي الأحمر (لأنه يشبه الإله «ست»).

لا تعملي أية مفاضلة بين ابن الرجل (أي الغني) وبين المعتر.

وطأطئ رءوسك على الطريق.

واحذري أنْ تأتي بمن قد بحث عني.

(٥٣) إلى أنْ نصل إلى بيت التمساح.

(أي) مدينة الأختين التي في بداية الدلتا.
وهي مستنقع «بوتو».
ولكني وصلت بعد ذلك إلى بيوت السيدات المتزوجات.
فلمحتْني سيدةٌ من بعيد.
(٥٤) وأغلقتْ أبوابها في وجهي.
لأنها خافت من مرافقاتي، (= العقارب).
وعندئذ تآمرت فيما بينها لهذا السبب.
ووضعت اسمها على شوكة «تفنت».
وعندما كانت عذراء من الدلتا تفتح بابها لي.
(٥٥) وكانت قد اقتحمت بيتها الحقير.
وكانت حينئذٍ «تفنت» قد دخلت تحت مصراعَي بابها.
ولدغت ابن الأميرة.
وعندما اندلعت النار في بيت الأميرة.
ولم يكن هناك ماءٌ لإطفائها بدأت السماء تمطر في بيت الأميرة.
وعلى الرغم من أنه لم يكن أوانٌ لذلك (للمطر).
لأنها لم تفتح لي.
وكان قلبها تعسًا.
لأنها لم تعرف إذا كان حيًّا (أي «حور»).
فطافت مدينتها معولة.
ولكن لم يأت فردٌ على صوتها.
ولم تألم قلبي للصغير بسبب ذلك.
(٥٧) أي لإحياء الطفل البريء.
ناديت عليها.
تعالي إليَّ! تعالي إليَّ.
تأملي، إن فمي فيه الحياة.
وإني ابنةٌ معروفة في مدينتها.
تخضع الحشرة المؤذية لرقيتها.
وهي التي علمني والدي أن أعرفها (أي الرقية).

(٥٨) وإني ابنتُهُ المحبوبة من ظهره.

وبعد ذلك وضعت «إزيس» يديها على الطفل لإحياء المخنوق، (وقالت).

يا سُمُّ «تفنت» تعال.

اخرج على الأرض.

يجب ألا تسري.

يجب ألا تنفذ.

ويا سم «بفنت» تعال.

اخرج على الأرض.

إني «إزيس» الإلهية ربة السحر، والتي تزاول السحر، والممتازة في الرُّقَى، ومن ثم يُصغي إليَّ كلُّ ثعبان لادغ.

فيجب أن تسقط يا سم «مستت».

ويجب ألا تسرع.

ويا سم «مستتف» يجب ألا ترتفع.

ويا سم «بتت» و«ثتت» يجب ألا تنفذ.

(٦٠) ويا سم «ماتت»، اسقط أنت يا فم اللادغ.

وهكذا تكملت «إزيس» الإلهية عظيمة السحر التي على رأس الآلهة، والتي أعطاها «جب» قوته الروحية لتطرد السم بقوتها.

تحول.

انصرف.

تقهقر.

إلى الوراء أيها السم.

لا تقفز إلى أعلى.

هكذا قالت محبوبة «رع» وبيضة الإوزة (سمن) التي خرجت من شجرة الجميز.

هكذا كلماتي التي أمر بها منذ المساء.

وسأقولُ لكم.

عندما أكون منفردة.

لا تمح أسماءنا من المقاطعات.

لا تنكح السوداء.

ولا تحيي الأحمر.
ولا تنظر إلى سيدات في بيوتهن.
وليت وجهك يكون إلى أسفل على الطريق (أي غُضَّ بصرك).
(٦٥) إلى أن نصل إلى المختبئ في «خميس» (كوم الخبيزة الحالية في شمالي الدلتا).
آه ليت الطفل يعيش.
ويموت السم.
ليت «رع» يعيش.
ويموت السم.
(٦٦) وإذن ليت «حور» يشفى لوالدته «إزيس».
وكذلك ليت المريض يشفى بالمثل.
(٦٧) وعندما أُطفئت النار.
وهدأت السماء برقية «إزيس» الإلهية.
وعادت الأميرة.
أحضرت إلى رزقها.
(٦٨) بعد أن ملأت (أولًا) بيت العذراء بالطعام، لأجل العذراء التي فتحت لي بابها.
في حين كانت السيدة مريضة وتطوف وحدها في الليل.
بعد أن أغلقت بابها أمامي.
(٦٩) وعلى ذلك لدغ ابنها.
وقد أحضرت متاعها.
مقابل أنها لم تفتح لي.
ليت الطفل يحيا.
وليت السم يموت.
وبذلك يشفى «حور» لأمه «إزيس».
وبذلك يشفى كل مريض بالمثل.
إن عيش الشعير يطرد السم.
وبذلك يرتد.
إن حمن وهو أحسن (؟) ما في الثوم يطرد النار من الأعضاء.

الفصل السابع ٧١–٨٣

(٧١-٧٢) يا «إزيس» يا «إزيس»! تعالي إلى «حورك» (إلى ابنك حور).
أنت يا من تعرفين رقيته، تعالي إلى ابنك.
هكذا قالت الآلهة الذين بجوارها.
(٧٣) لأن عقربًا قد لدغه.
ومن ثم تخلى العقرب من أجلها.
ومن أجلها هرب «أنتشت» (اسم حيوان).
(٧٤) ليت «إزيس» تخرج.
ولباس «مسدت» على صدرها.
وذراعاها منبسطتان.
(وتقول) إني هنا يا بني «حور».
لا تبتئسْ، لا تبتئسْ! يا بن قوية الروح.
لن يحدث لك أيُّ شيءٍ مؤذٍ.
(٧٦) لأن الماء الذي فيك (أي بذرتك) هو الذي قد صنع ما هو كائنٌ.
إنك الابن القاطن في «مسقت»،[٤] والذي خرج من «نون».
وإنك لن تموت بلهيب السم.
(٧٧) وإنك الطائرُ «بنو» العظيم الذي وُلد على شاطئ البوص في «البيت العظيم» في «عين شمس».
(٧٨) إنك أخو السمكة «أبدو» التي أعلنت ما هو كائنٌ.
(٧٩) لقد ربيت القطة في بيت «نيت» (الإلهة «نيت»).
في حين أن الخنزيرة[٥] و«حيت» (إلهة) كانتا تحميان جسمك.
(٨٠) يجب ألا يقع رأسك بمثابة عدو لك.
ويجب ألا يأخذ جسمك نار سمك.
ويجب ألا تتقهقر على الأرض.

[٤] مكانٌ في العالم العلوي والعالم السفلي.
[٥] الخنزيرة هنا هي «إزيس» في دور الأم، وقد أخذته عن «توت».

(٨١) ويجب ألا تكون متخاذلًا على الماء.
ولن يكون ثعبان لادغ له قوة عليك.
(٨٢) ولن يصير لأي أسدٍ قوةٌ عليك.
لأنك ابن الإله الفاخر الذي خرج من «جب».
إنك «حور».
ولن يسيطر السم على أعضائك.
إنك الابن الإلهي الفاخر الذي خرج من «جب».
وكذلك المريض بالمثل.
وإن أربع الآلهات المعظمات حماية جسمك (= «إزيس» و«نفتيس» و«نيت» و«سلكت»).

الفصل الثامن

إني (أنا) الذي إشراقُهُ في السماء.
وغروبُهُ في العالم السفلي.
وكينونتُهُ في بيت التل الأزلي.
وعندما يفتح عينيه يوجدُ النور.
وعندما يغمض عينيه يصيرُ الظلام.
(٨٤) وتتلاطمُ أمواجُ النيل على حسب أمره.
والآلهة لا تعرف اسمه.
إني أنا الذي يضيء الأرضين، ويمحو الظلام، والذي يُشرق يوميًّا، وإني ثور «بخن» (الجبل الشرقي) وأسد «منو» (الجبل الغربي) الذي يخترق السماء يوميًّا دون أن يمل.
(٨٥) إني آتٍ على صوت ابن «إزيس».
تأمل لقد لدغ ثور.
يا ثعبان كُن أعمى، يا سم زُلْ من كل عضو في المريض.
تعال على الأرض.
(٨٦) إنه ليس المريض الذي لدغ.
إنه «مين» رب «قفط» ابن الخنزيرة البيضاء (أي إزيس) التي في «عين شمس»، الذي لُدغ.

يا «مين» رب «قفط» أعطِ المريض نفسًا، وعلى ذلك يجب أن تعطي نفسًا.

(٨٧) إن كاهن «نب ون» (المسمى) «نست آتوم» ابن كاهن «نبون».

وكاتب الفيضان (المسمى) «عنخ بسمتيك» الذي وضعتْه «ربة البيت» «تنت حتنوب»، قد جَدَّدَ هذا الكتاب.

بعد أن كان قد وجد بعيدًا في بيت العجل «منفيس».

(٨٨) وبذلك سيبقى اسمه، وبذلك فإنه سيؤجل الموت، وكل ضرر يفرضه الإله، وسيعطي نفسًا كل من يحتاج نفسًا.

وعلى ذلك فإن اتباع كل الآلهة يبقون.

وإن سيدة «أوزير منفيس» تجعل عمره طويلًا في سرور.

ويمنح دفنًا جميلًا بعد شيخوخة بسبب هذا الذي عمله لبيت «أوزير منفيس».

الفصل التاسع

(٨٩–٩٠) عندما لدغ «حور» وهو في حقل «هليو بوليس» شمالي «حتب».

(٩١) وكانت والدته «إزيس» في البيوت العليا تصب قربان الماء لأخيها «أوزير».

(٩٢) وعندما دوى صوت «حور» في الأفق.

فإن «أميو بنو» (= إله الشمس) قد سمع (وقال):

(٩٣) افتحوا يا حراس الأبواب الذين في شجرة «أشد» من أجل صوت «حور».

(٩٤) صيحوا من أجله حزنًا.

ومُرُوا السماءَ أن يشفي «حور».

(٩٥) وأن يحفظه حيًّا.

(٩٦–٩٧) واجعل «أسدن» إلهي (= تحوت) الذي في إقليم «خوس» يقول:

هل يجب أن تنام؟

(٩٨) اذهب إلى رب النوم.

ويتألم الإنسان حقًّا يا بني «حور»، ويتوجع الناس حقًّا يا بني «حور».

(٩٩–١٠٠) فأحضر كل شيء لأجل أن تطرد به السم، الذي في كل من أعضاء «حور» بن «إزيس» وفي كل عضو من أعضاء المريض بالمثل.

الفصل العاشر

(١٠١) صلاةٌ لحور لأجل أن يصير منعمًا (أي روحانيًّا).

(١٠٢) تُقال على الماء، وعلى الأرض.

بيان من «تحوت» مخلص هذا الإله.

مرحبًا بك أيها الإله ابن الإله.

(١٠٣) مرحبًا بك أيها الوارثُ ابنُ الوارث.

(١٠٤–١٠٥) مرحبًا بك أيها الثور (أي السيد) ابن السيد الذي وضعتْه البقرة المقدسة.

(١٠٦) مرحبًا بك يا «حور» الذي أنجبه «أوزير» ووضعتْه «إزيس» الإلهية.

(١٠٧) لقد تكلمت بقوتك الروحانية.

(١٠٨) وعزمت بكلماتك.

(١٠٩) التي خلقت في صدرك.

إن كل سحر يخرج من فيك.

(١١٠) فإن والدك «جب» قد أمر لك به (أي نقله لك).

(١١١) ومنحتْه إياك والدتُك «نوت».

وقد تعلمه أخوك «خنتي خم» (إله بلدة أوسيم الحالية = حور الكبير).

ليعمل على حمايتك.

(١١٢) ويكرر المحافظة عليك.

(١١٣–١١٤) ويختم على فَمِ كل الثعابين التي في السماء، والتي في الأرض، والتي في الماء، لتحفظ الناس أحياء وتسعد الآلهة.

(١١٥) ولأجل أن ينعم «رع» بمدائحك.

(١١٦) تعال إليَّ مسرعًا! تعال إلي مسرعًا! في هذا اليوم كما فعل لك الذي يجدف في سفينة الإله.

(١١٧–١١٨) ليتك تطرد من أجلي كُلَّ أسد في الصحراء، وكل تمساح في النهر، وكل ثعبان لادغ في جحره.

(١١٩) ليتك تجعلها لي مثل حجر الصوان الصحراوي، ومثل أواني فخار الشارع.

(١٢٠) ليتك تسحر لي السم الذي يقفز، والذي في كل عضو للمريض.

(١٢١) احذرْ أن يهمل كلامك في هذا الصدد.

تأمل أن اسمك سَيُنادى اليوم.
(١٢٢) ليت هيبتك توجد لك عالية بقوتك الروحانية.
(١٢٣) ليتك تحيي المختنق.
(١٢٤) ومن ثم يقدم لك الناس المديح.
ويجب أن تمدح العدالتان في صورك.
(١٢٥) ويجب أن تنادى كل الآلهة مثلك.
تأمل أن اسمك سينادى في هذا اليوم.
إني أنا مخلص «حو» (كلام تحوت).

الفصل الحادي عشر

(١٢٦) آه أنت يا من تكون في الجحر، آه أنت يا من تكون في الجحر.
(١٢٧) آه أنت يا من تكون على مدخل الجحر.
آه أنت يا من تكون على فم الطريق.
(١٢٨) إنه العجل «منفيس» (أي عجل عين شمس المقدس).
(١٢٩) الذي سيقترب من كل إنسان، ومن كل حيوان بالمثل.
إنه «سبا» (اسم إله).
إنه (في طريقه) إلى «عين شمس».
(١٣٠) إنه العقرب.
الذي في طريقه إلى البيت العظيم.
يجب عليك ألا تلدغه.
(١٣١) إنه «رع» ويجب عليك ألا تلدغه.
(١٣٢) إنه «تحوت» يجب عليكم ألا تصوبوا السم نحوه.
إنه «نفرتم» الذي يأكل ثعبانًا ذكرًا.
(١٣٣) ويأكل ثعبانًا أنثى ويأكل حيوان «أنتش» (= اسم حيوان).
(١٣٤) التي تعض بفمها، وتلدغ بذيلها.
(١٣٥) يجب ألا تلدغيه بفمك ويجب ألا تلدغيه بذيلك.
(١٣٦) ابتعدي عنه ولا تجعلي لهيبك عليه.
(١٣٧) إنه ابن «أوزير» ليتك تقذفينه إلى الخارج (تكرر الجملة أربع مرات).

الفصل الثاني عشر

(١٣٨) إني «تحوت».
إني آتٍ من السماء؛ لأقوم بحماية «حور».
(١٣٩–١٤٠) ولأجل أن أطرد سُمَّ العقرب الذي في كل عضو من أعضاء «حور».
إن رأسك ملكك يا «حور».
ليته (أي الرأس) يثبت تحت التاج الأبيض.
(١٤١) وعينك ملكك يا «حور».
(١٤٢) وأنت «حور» ابن «جب» ورب العينين بين التاسوع.
(١٤٣) وإن أنفك ملكك يا «حور».
وأنت «حور الكبير» ابن «رع».
(١٤٤) ويجب ألا تستنشق ريحًا ملتهبًا.
وساعدك ملكك يا «حور».
(١٤٥) وليت قوتك تعظم لتذبح أعداء والدك.
وذراعاك ملكك.
(١٤٦) يا «حور».
(١٤٧) ليتك تستولي على وظائف والدك «أوزير».
(١٤٨) لأن «بتاح» يقضي لك في يوم ولادتك (بأنك ابن أوزير).
إن قلبك ملكك يا «حور».
(١٤٩) و«آتون» ليته يقوم بحمايتك.
إن عينك ملكك يا «حور».
(١٥٠) في حين أن عينك اليمنى هي الإله «شو».
وفي حين أن عينك اليُسرى هي الإلهة «تفنوت».
(١٥١) طفلا «رع» (أي العين اليُمنى والعين اليُسرى هما طفلا رع).
إن جوفك ملكك يا «حور».
(١٥٢) الذي فيه أولادُ الآلهة.
فيجب ألا يأخذوا سُمَّ العقرب.
(١٥٣) إن مؤخرك ملكك يا «حور».
ولن تنشأ قوة «ست» ضدك.

(١٥٤) إن ذكرك ملكك يا «حور».

(١٥٥–١٥٦) وأنت ثور أمك، الذي انتقم لوالده والذي يجيب أولاده يوميًّا، إن ركبتيك ملكك يا «حور».

(١٥٧) وبقوتك تقتل أعداء والدك.

(١٥٨) إن ساقيك ملكك يا «حور»، لقد سواهما (خنوم).

(١٥٩) وكُسيتا «بأزيس».

(١٦٠) إن نعليك ملكك يا «حور».

(١٦١) في حين أن الأقواس التسعة تكون تحت قدميك بوساطتهما.

(١٦٢) ليتك ترى مثل «رع» (تكرر الجملة أربع مرات) والمريض بالمثل.

الفصل الثالث عشر

(١٦٧) فصلٌ آخرُ مماثلٌ للسابق.

لا تخافي لا تخافي يا «باستت» يا قوية القلب، يا من تُشرف على الحقول النضرة.

فأنت هناك مسيطرةٌ على كل الآلهة.

ويجب ألا يسيطر عليك.

(١٦٨) تعال إلى الخارج على حسب رقيتي أنت أيها السم الناقع الذي في كل أعضاء القطة المريضة.

الفصل الرابع عشر

إني «إزيس».

عندما كانت حاملًا في طفلها.

ورزقت «بحور المقدس».

وقد وضعت «حور» بن «أوزير» في عش في «خميس».

وقد فرحت بذلك كثيرًا جدًّا وقلت.

(١٦٩) لقد رأيت من سيُجيب والده.

وقد خبأته.

وأخفيه خوفًا من ذلك المتسول للشحاذة ومن فاعل السوء، وبحثت أثناء النهار عما هو مفيد، واهتممت بحاجياته.

وبعد ذلك عدت لأبحث عن «حور».

(١٧٠) ووجدته «حور» الجميل الذهبي الطفل اليتيم الأب.

وكان قد بلل الشواطئ بدموع عينه وبريق شفتيه.

وكان جسمُهُ ضعيفًا وقلبُهُ متعبًا.

ولا حركة في عروق جسمه.

فأرسلت صيحة حزن وقُلت:

أنا (هنا) أنا (هنا).

وكان الطفل ضعيفًا ليجيب.

وعلى الرغم من أن ثديي تفيضان.

فإن المعدة كانت خالية.

والفم متلهف لطعامه.

وعلى الرغم من أن البئر كانت فائضة.

فإن الطفل كان عطشان.

وعندما رغبت في أن آتي لحمايته.

فإن المصيبة كانت كبيرة.

(١٧٢) فقد رفض الطفل البريء الزجاجة.

لأنه ترك طويلًا وحده.

(١٧٣) وكم كان خوفي عظيمًا؛ لأنه لم يكن أحدٌ هناك يمكن أن يأتي على صوتي.

فقد كان والدُهُ في العالم السفلي.

وأمي في الخيانة.

(١٧٤) وأخي الكبير في التابوت (تقصد أوزير).

في حين كان الآخر عدوًّا (تقصد الإله «ست»).

(١٧٥) وكان قلبه غاضبًا عليَّ طويلًا.

والأصغر مني في بيته.

(١٧٦) فمن يجب عليَّ أن أناديه من بين الناس.

وبذلك يلتفتون إليَّ بقلبهم.

(١٧٧) سأنادي سكان الدلتا.

وسيخدمونني في الحال.

(١٧٨) وعندما أتى إليَّ سكان البطاح من بيوتهم.
(١٧٩) قفزوا نحوي على صوتي.
وصاحوا سويًّا قائلين:
ما أعظم حزنك.
(١٨٠) ولكن لم يكن واحدٌ منهم ... في فيه.
وكل واحد منهم تَوَجَّعَ كثيرًا جدًّا (وحسب).
(١٨١) ولكن لم يكن واحدٌ من بينهم يعرف الإحياء ثانية (بالسحر).
(١٨٢) وقد أَتَتْ إليَّ سيدةٌ معروفةٌ في بلدتها، أميرةٌ في إقليمها.
وقد أتت إليَّ.
(١٨٣) وفاها مملوءٌ بالحَيَّاة، وكان يوثق بها تمامًا في علاجها.
لا تخف لا تخف أيها الابن «حور».
(١٨٤) لا تبتئسي لا تبتئسي يا أم الإله.
لأن الطفل محمي مِن شَرِّ أخيه.
(١٨٥) وبما أن العشب مخفيٌّ فإن العدو لا يمكنه أن يقتحمه.[٦]
(١٨٦) وبعد أن يسحره «آتوم» والد الآلهة الذي في السماء، والذي صنع حياتك.
فإن «ست» لا يمكنه أن يدخل هذا الإقليم.
(١٨٧) ولا يمكنه أن ينفذ إلى «خميس».
وعلى ذلك حمى «حور» من شر أخيه.
(١٨٨) ومن ثم لا يمكن أتباعه الإضرار به.
وإذا بحث السبب الذي من أجله حدث ذلك، فإنه يجب أن يعيش «حور» لأمه.
(١٨٩) فمن المحتمل أن عقربًا قد لدغه.
(١٩٠) أو شيطانًا قد جرحه.
(١٩١) وعندئذٍ وضعت «إزيس» أنفها على فيه وعرفت رائحة من في تابوته.
وقد تحققت من الضرر (الذي لحق) بالوارث الإلهي.
(١٩٢) وقد وجدت أنه وقع تحت السم.

[٦] أي المكان المعشب الذي اختفى فيه حور خوفًا من «ست» الشرير.

(١٩٣) فاحتضنته بسرعة وقفزت به هنا وهناك كما تقفز السمكةُ التي وُضعت على موقد.

(وقالت) لقد لدغ «حور» يا «رع».

لقد لدغ ابنك.

(١٩٤) لقد لدغ «حور» وريثك الذي ضم (وَحَّدَ) مملكة «شو».

(١٩٥) لقد لدغ «حور» الطفل الخميسي، والصغير الذي من بيت الأمير.

(١٩٦) لقد لدغ «حور» الطفل الجميل الذهبي، والصغير اليتيم الأب.

(١٩٧) لقد لدغ «حور» ابن «وننفر» (= أوزير)، والذي وضعته النائحة (= إزيس).

(١٩٨) لقد لدغ «حور» الذي لا ذنب له، والابن الصغير للآلهة.

(١٩٩) لقد لدغ «حور» الذي أثريت متاعه بالنظر لما أجابه عن والده.

(٢٠٠) لقد لدغ «حور» الذي يعني بالسر، وهو الابنُ الذي خِيف منه وهو في بطن أُمِّه.

(٢٠١) لقد لدغ «حور» الذي احترست من نظرته والذي من أجل قلبه أحببت الحياة.

(٢٠٢) عندما بكى البريء بسبب المغرق «أوزير»، وأصبح حراس الطفل في نصب.

(٢٠٣) وقد أتت إليه «نفتيس» باكية وعويلها طاف مناقع الدلتا، وعندئذٍ قالت «سلكت.»

(٢٠٤) ماذا؟ ماذا؟ ما الذي ضد الابن «حور»؟ تَضَرَّعِي يا «إزيس» إلى السماء.

(٢٠٥) وبذلك يحدث الركود بين بحارة «رع» فلا تسير سفينة «رع».

(٢٠٦) عندما يكون «رع» على جانبه (أي مُلقًى على جانبه مريضًا).

(٢٠٧) وعلى ذلك أرسلت «إزيس» صوتها إلى السماء وصراخها إلى «سفينة ملايين السنين».

ومن ثم فإن «آتون» التفت تجاهها، ولم يتحرك من مكانه في حين كان «تحوت» مقبلًا.

(٢٠٨) ومجهزًا بسحره وبمرسومه العظيم في شرعيته (الصادق القول).

(٢٠٩) (وقال) ماذا؟ ماذا؟ يا «إزيس» الإلهية المنعمة التي تعرف رقيتها لن يكون شر للابن «حور»؛ لأنه قد حفظ بسفينة الشمس.

(٢١٠) ولقد أتيت اليوم من السفينة المقدسة.

و«آتون» (الشمس) في مكانه الذي كان فيه البارحة.

(٢١١) وقد نشأ الظلام وزال النور.
(٢١٢) إلى أن يشفى «حور» لأمه «إزيس».
وكذلك كل مريض بالمثل.
وبعد ذلك تكلمت «إزيس» الإلهية.
(٢١٣) «قائلة» يا «تحوت» ما أعظم إرادتك (قلبك).
ومع ذلك ما أبطأ مسلكك.
هل أنت آت؟
(٢١٤) وأنت مجهز بسحرك، ومعك المرسومُ العظيمُ القانونيُّ الذي فيه الرقية تلو الرقية التي لا حصر لها؟
(٢١٥) تأمل أن «حور» في ضائقة بسبب السم الذي شره مُؤْذٍ جدًّا (لا مثيل له).
(٢١٦) لدرجة أن ألمه مميتٌ تمامًا.
آه، ليته مع والدته دون أن أرى ذلك وراءه.
(٢١٧) وإذن يفرح قلبي بذلك قبل أن أقترب في سرعة للإجابة عنه (أي للدفاع عنه).
يا «حور»! يا «حور»! ابق على الأرض.
(٢١٨) ومنذ اليوم الذي استقبلت فيه «حور» رغبت في التضرُّع إلى روح والده.
(٢١٩) وعندما كان الطفلُ مريضًا بعض الشيء فلا تخافي، لا تخافي يا «إزيس» الإلهية.
ويا «تفتيس» لا تولولي حُزْنًا.
(٢٢٠) لقد أرسلت من السماء بنفس الحياة لأجل الطفل، ولتفرح أمه.
فيا «حور»! يا «حور» إن قلبك باقٍ، دون أنْ تهدمه النار (أي السم).
(٢٢١) إن حماية «حور» هي التي في قُرص الشمس، وبالمثل حماية المريض.
(٢٢٢) إن حماية «حور» هي حماية بكر السماء الذي ينظم ما هو كائنٌ وما لم يكن بعد، وحماية المريض بالمثل.
(٢٢٣) إن حماية «حور» هي ذلك القزم العظيم الذي يخترق الأرضين في الظلام وحماية المريض بالمثل.
(٢٢٤) إن حماية «حور» هي أسد الليل الذي يخترق جبال «مانو» (الغرب) وحماية المريض بالمثل.
(٢٢٥) إن حماية «حور» هي الكبشُ العظيمُ الخفيُّ الذي يدور مع عينيه وحماية المريض بالمثل.

(٢٢٦) إن حماية «حور» هي الباشق العظيم الذي يطير في السماء وعلى الأرض، وفي العالم السفلي، وحماية المريض بالمثل.

(٢٢٧) إن حماية «حور» هي الجعران الفاخر الذي يحلِّق في السماء، وحماية المريض بالمثل.

إن حماية «حور» هي الجثة السرية في احترامها، والتي تسيطر في تابوتها، وحماية المريض بالمثل.

(٢٢٨) إن حماية «حور» هي سكان العالم السفلي للأرضين الذين يخترقون النصف الأعلى بأشياء سرية، وحماية المريض بالمثل.

(٢٢٩) إن حماية «حور» هي الطائرُ المقدَّس «بنو» الذي يطير في داخل عينيه («بنو» = صورة من صور «رع»)، وحماية المريض بالمثل.

(٢٣٠) إن حماية «حور» هي جسمُهُ،[٧] الذي سحرتْه أُمُّه «إزيس».

(٢٣١) إن حماية «حور» هي أسماء والده التي تقودُهُ في المقاطعات، وحماية المريض بالمثل.

(٢٣٢) إن حماية «حور» هي عويلُ أُمِّه ونَحيب أخواته، وحماية المريض بالمثل.

إن حماية «حور» هي «رنف جسف» الذي تخدمه الآلهة وتقوم على حمايته، وحماية المريض بالمثل.

(٢٣٣) استيقظ يا «حور» إن حمايتك ثابتة.

ويجب عليك أن تسر قلب أمك «إزيس».

(٢٣٤) لأن كلمات «حور» ترفع القلب (تنعشه)، وهو الذي هدأ من كان في حزن، فلتكونوا فرحين يا من في السماء.

(٢٣٥) فإن «حور» قد انتقم لوالده.

فَلْتتقهقرْ إذن أيها السم، ويجب أن تسحر بفم «حور».

(٢٣٦) ويجب أن تطرد بلسان الإله العظيم.

عندما تكونُ سفينةُ الشمس واقفةً دون أن تسبح، ويكون قرص الشمس في مكانه بالأمس.

---

[٧] «خنف جسف» (= جسمه نفسه) وهو تعبيرٌ في العصور المتأخرة عن اسم إله الشمس، ولكن هنا يعبر عن «أوزير».

(٢٣٧) إلى أن يشفى «حور» لأمه «إزيس».

وإلى أن يشفى المريض لأمه بالمثل.

(٢٣٨) فلتخرج على الأرض؛ «أي السم» حتى تسافر السفينة ثانية، ويقلع بحارة السماء.

(٢٣٩) فليت طعام القُرْبان يمنع ويغلق المعبد إلى أن يشفى «حور» لأمه «إزيس» وإلى أن يشفى المريض لأمه بالمثل.

(٢٤٠) وعندما يصل ذلك الأذى.

(٢٤١) ليت الاضطراب (إذن) يعود إلى مكانه بالأمس.

(٢٤٢) إلى أن يشفى «حور» لأمه «إزيس» ويشفى المريض لأمه بالمثل.

(٢٤٣) وليت الشرُّ يدور دون أن يفصل الزمن، ودون أن يرى ذلك النور أكثر من الظل يوميًّا إلى أن يشفى «حور» لأمه «إزيس» وإلى أن يشفى المريض بالمثل.

(٢٤٤) وليت منبعي النيل يُسَدَّان، ويجف النبات وتذهب الحياة الأحياء.

(٢٤٥) إلى أن يشفى «حور» لأمه «إزيس» وإلى أن يشفى المريض بالمثل، فلتخرجْ إذن إلى الأرض أيها السُّمُّ، وبذلك تفرح القلوب وينتشر النور.

إني «تحوت» بكر «رع».

وقد أمرت «آتوم» والد الآلهة أن يشفي «حور» لأمه «إزيس»، ويشفي المريض بالمثل.

يا «حور»! يا «حور»! إن روحك هي حمايتُك.

في حين أن صورتك تعمل على حمايتك.

فليمت السم وليطرد لهيبه؛ لأنه لدغ ابن القوية (= إزيس).

(٢٤٦) فاذهبوا إذن لبيوتكم فإن «حور» يعيش لوالدته والمريض بالمثل.

وبعد ذلك قالت «إزيس» الإلهية: ليتك إذن تزكيه عند أولئك.

(٢٤٧) اللاتي في «خميس» وهن المرضعات اللاتي في «ب» و«دب»، ليتك تأمرهن كثيرًا جدًّا، ليحفظن الطفل لأمه وليحفظن المريض بالمثل، ولا تجعلهن يعرفن حضرتي في «خميس» بوصفي قروية قد هربتْ من قريتها.

وبعد ذلك تكلم «تحوت» للآلهة.

وقال الذين في «خميس»: أنتُنَّ يا أولئك المرضعات اللاتي في «ب»، واللاتي يضربن بيدهن، ويحاربن بسواعدهن؛ من أجل ذلك العظيم الذي خرج من بيتهن.

(٢٤٨) اسهرن على هذا الطفل، واحرسن طريقه بين الناس.

وحَوِّلْنَ طريق الأعداء عنه، لأجل أن يتسلم عرش الأرضين.
و«رع» في السماء يُجيب عنه، ووالده يسهر عليه.
وسحر أمه حمايته، والحب له، وليجعل الخوف منه بين الناس.

(٢٤٩) لقد انتظر مني أن أبعث سفينة الليل وأن أجعل سفينة النهار ترحل، وعلى ذلك يملكها «حور»، وبذلك سيمنح الحياة.

(٢٥٠) وعندما أنقل الحياة لوالده ويفرح سكان سفينة الليل، فإنه بذلك يسافر البحارة و«حور» هناك يعيش لأمه، وكذلك يعيش المريض لأمه بالمثل، ويصير السم لا قُوَّةَ له.

(٢٥١) وعندئذ سيمدح المفتن في زمنه؛ لأنه أجاب من أرسله.
ليت قلبك يا «حور أختي» يفرح؛ لأنه بذلك يمنح ابنك «حور» الحياة.

تعليق: لست في حاجة إلى القول إن محتويات متن لوحة مترنيخ هذه تدل دلالة واضحة على أن كل تعاويذها تنطوي على معانٍ إنسانية غاية في الرقي، كما أن أساس العلاج بها لا يختلف كثيرًا عما نُسميه الآن: العلاج النفسي بالإيحاء، والدور الهام في علاج المريض في كل حالة كان يرجع في أُصُوله إلى العلاج الذي عُولج به الآلهةُ في قديم الزمان، عندما كانوا يحكمون العالم وتصيبُهُمُ الأمراض التي أصابت البشر مِن بعدهم، ومن ثم اتخذ السحرةُ أو الأطباءُ الآلهةَ نموذجًا يسيرون على نهجه فما كان شافيًا للإله أصبح يداوى به بنو البشر، وبه يتم شفاؤه وتذهب عِلَّتُهُ، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن هذه الطريقة كانت ناجعةً إلى حَدٍّ بعيدٍ في الأزمان الأولى، حتى تَقَدَّمَ الفكرُ الإنسانيُّ والبحثُ العلميُّ، فأخذ القومُ في مصر يَستعملون العقاقيرَ جنبًا لجنب مع التعاويذِ السحرية إلى آخر عهد الفراعنة.

وقد استمر العلاج بالسحر والرقى بعد ذلك، وبقي حتى زمننا هذا في مصر الحديثة، ولم تتمكن المدنيةُ الحديثةُ مِن قَلْع جُذُوره، بل على العكس نجد أَنَّ الطب النفسانيَّ قد أخذ ينتعشُ من جديد، ويأخذ مكانةً مرموقةً في نُفُوس القوم لا في مصر وحسب، بل في كل أُمم العالم، وما التنويمُ المغناطيسيُّ إلا صورة من صور السحر عند قُدماء المصريين.

هذا، وقد فَصَّلْنا القول بعض الشيء عن السحر في غير هذا المكان، (راجع: مصر القديمة الجزء السابع).

(٣٩) تل أتريب (بنها)

توجدُ في متحف «بروكسل» قطعةٌ من نقش غائر من الحجر الأزرق، عليها بقايا طغراء الملك «نقطانب» الثاني «نخت حور حبت»، (راجع: Speleers, Rec. des. Insc. Egypt, p. 88 (336); Porter & Moss IV p. 66).

(٤٠) هليوبوليس

عُثر في معبد «حتبت» بالقرب من «هليوبوليس» على قاعدة تمثال صقر، باسم الملك «نقطانب» الثاني، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «برلين»، (راجع: Ausfutirliches Verze-ichniss (1899) p. 248, No. 11577).

(٤١) هليوبوليس

مائدة قربان من الجرانيت أُسطوانية الشكل للملك «نقطانب» الثاني، عُثِرَ عليها في معبد الشمس بمدينة «هليوبوليس»، وهي الآن في متحف «تورين» تحت رقم (No. 1751)، وقد مثل على هذه المائدة الأسطوانية الملك «نقطانب» ومعه كاهن يقدم قربانًا سائلًا، وتدل شواهد الأحوال على أن مؤلف هذه المتون التي على المائدة هو كاهن «هليوبوليس» الأكبر المسمى «باكننف»، ونقش حول الجزء الأُسطواني سبعةٌ وستون إلهًا، والنظام الذي اتُّبع في نقش أسماء هذه الآلهة هو نظام الجهات الأربع، على حسب الطريقة المصرية، وذلك بتقديم الجنوب على الشمال؛ لأن النيل كان قبلة المصريين.

ويلفت النظر في هذا الأثر أنه كان موضوعًا بحيث تكون جوانبُهُ الأربعةُ مواجهةً للجهات الأصلية الأربعة، وهذه الجهات قد تدل عليها — فضلًا عن ذلك — بدقة وضع إشارات هيروغليفية مواجهة آلهة كل جهة، في حين أنَّ النقوشَ الأُخرى وضعت مواجهة جهة أُخرى.

والمنظرُ الذي يسبقُ كُلَّ صَفٍّ من صفوف آلهة الجهات الأربع واحد، فيُرى أولًا كاهن يُقدم قُرْبَانًا سائلًا، وقد مثل لابسًا تاقية وجلد فهد، والنقوش التي أمامه هي: «تقديم قربان بوساطة الكاهن»، وبعد ذلك يُرى الملك «نقطانب» الثاني وبيده مبخر، وقد مثل لابسًا «النمس»! (= لباس رأس)، الذي يعلوه الصل الملكي ويرتدي قميصًا، وقد نقش أمامه

اسمه ولقبه: «الإله الكامل رب الأرضين — نخت حور حبت أنحور (أنوريس)»، والسطر الذي فوق رأسه جاء فيه: «القيامُ بالشعائر الإلهية في الجنوب.»

وبعد ذلك تأتي أسماءُ آلهة الجنوب، وهم ثلاثةٌ وعشرون إلهًا.

ثم يكرر نفس المنظر السابق لآلهة الغرب، وعددهم اثنا عشر إلهًا.

ثم يُكرر نفس المنظر لآلهة الشرق، وعددهم عشرةُ آلهة.

ثم يكرر نفس المنظر لآلهة الشمال، وعددهم اثنان وعشرون إلهًا.

ويأتي في آخر المتن اسمُ الكاهن «باكننف»، وقد لقب الأمير الوراثي والحاكم والرائي العظيم لـ «أون» «باكننف».

ويقول الأثري «بركش» عند التحدث عن محتويات هذه المائدة: «إنني لا أُريد أن أمر في صمت دون أن أقول: إن مؤلف هذا المتن، وهو الكاهن الأكبر للشمس في مدينة «هليوبوليس» وهو «باكننف»؛ قد وضع هذه القائمة بأسماء الآلهة، ومكان عبادة كل منهم، وفقًا للجهات الأربع الأصلية، مُبتدئًا إياها بالجنوب ومنتهيًا بالشرق، وذلك على غِرار عددٍ كبيرٍ من المتون الأُخرى التي وُجدت على الآثار.» (راجع: Brugsch, Dict. Geogr. p. 1055 ff; Bonomi, T.S.B.A. 3/1874, p. 422–424 with Plates: Farbretti, Rossi, Lanzone, Regio, Museo di Torino I. p. 202; wiedemann, Aegypt, Gesch. p. 288; suppl–707; petrie Hist, III p. 379; Gauth., L.R. IV p. 177–8, Nr. 28).

(٤٢) هليوبوليس

تمثال للملك «نقطانب» الثاني مثل بين مخلبي صقر، وهو محفوظٌ الآن بمتحف «مترو بوليتان» بمدينة «نيويورك»، (راجع: Bosse. Menschliche Figur. p. 70 No. 187 & pl. VIII, c. Winlock, Bull. Metro p. Museum, 1934 N. 11, p. 186–7, With fig. p. 187, fg, 2; Portrait 178 Breasted–Ranke, Geschichte Agyptens).

(٤٣) هليوبوليس

الجزء الأسفل من تمثال للملك «نخت حور حبت» مصنوع من حجر السربنتين الأخضر وهو محفوظ الآن بمتحف «جلاسجو»، (راجع: Petrie & Mackay, Heliopolis, p. 7 & Pl. VIII No. 12; Porter & Moss. IV p. 61).

(٤٤) محاجر «طره» و«المعصرة»

عُثر في محاجر «طرة» على لوحة للملك «نقطانب» الثاني، وتمثله وهو يقدم رمز الحقل للإله «تحوت» والإلهة «نحمت عاوي» والإله «نفرحور»، كما وُجدت كذلك لوحةٌ مشوهةٌ لنفس الملك (؟) قدم فيها رمز الحقل كذلك الإله، يُضاف إلى ذلك أن اسم هذا الفرعون قد نُقش على صُخُور محاجر «طرة» بالديموطيقية، (راجع: Porter & Moss, IV p. 75; Gauth. L.R. IV O, 175 A. 3; A.S., 6, p. 222 No. 2).

(٤٥) منف (السرابيوم)

أقام الفرعون «نقطانب» الثاني معبدًا صغيرًا بالقرب من السرابيوم له مدخل وبوابة، (راجع: Mariette, Serapeum 1, p. 18; Mariette Serapeum Ed. Maspero 15, 36, 76; Wilcken Urkunden der Ptol. Zeit 1, p. 10; Wiedemann Die Agypt. Gesch. p. 705–6, & Supple. 76 zu p. 706, A. 1; Porter & Moss III p. 205 & Plan. p. 204; Gauthier–L.R. IV p. 175, A. 3).

وهذا المعبد أقامه الملك «نقطانب» الثاني على شرف العجل «أبيس» المقدس.

(٤٦) منف (السرابيوم)

وقد وجد قبل البوابة التي أقامها «نقطانب» الثاني، وهي التي تؤدي إلى السور الخارجي لمدفن السرابيوم في النهاية الغربية من الطريق؛ أسدان باسم «نقطانب» الثاني، وهما مصنوعان من الحجر الجيري، ويبلغ طولُ الواحد منهما ١٫٢١ مترًا، وهما محفوظان بمتحف «اللوفر».

وهذان الأسدان قد مثل كل منهما رابضًا على جانبه، ورأسه مُلتَفٌّ إلى جنبه، ومخالبه اليسرى ملفوفةٌ أو متقاطعةٌ مع مخالبه اليُمنى الملتفة، مما يُبرز لنا تأثيرًا فنيًّا يمتاز بالقوة والهدوء معًا، مما يجعل طرازَ هذا الأسد أَحَدَ الاختراعات ذات الأهمية البالغة في الفَنِّ المصري في هذا العصر المتأخر.

(راجع: Chassinat, Rec. Trav. 21, p. 57 No. 432)، وقد ذكر هذا المؤلف أنه وجد ثلاثة أسود.

(راجع: Boreux, Guide Catalogue paris 1932, I, p. 169 & Pl. 21 Com p., Scharff, Bemerkungen zur kunst der 30 Dynastie, Vatikan-festschrift (1941) p. 195 ff. fig. II p. 197).

ونقش على قاعدة التمثال المتن التالي: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري.» «سنزم-اب-رع ستب-ن-أنحور» بن «رع» رب التيجان «نخت حور حبت مري أنحور» عاش أبديًّا، «حابي» العائش من جديد «بتاح» (؟).

(٤٧) منف (السرابيوم)

وكذلك وجدتْ زاويةُ عارضةِ بابٍ، مصنوعة من الحجر الجيري، عليها اسمُ هذا الفرعون، وهي محفوظةٌ بمتحف «اللوفر»، (راجع: Chassinat Ibid. p. 57 No. 402; Gauthier L.R. IV p. 175, A. 3; Wiedemann, Gesch. Agyptens p. 288 & Aegypt. Gesch. p. 706).

(٤٨) منف (السرابيوم)

منظر مثل فيه الملك «نقطانب» الثاني أمام العجل «أبيس»، وهو محفوظٌ بمتحف «اللوفر»، (راجع: Louvie, Serapeum No. 119; chassinat Rec. Trav. 21. p. 57 No. 423; L.R. IV 175, A. 3).

(٤٩) منف (السرابيوم)

قاعدة تمثال «بولهول» عيها اسم الفرعون «نقطانب» الثاني، محفوظةٌ الآن بمتحف «اللوفر»، (راجع: Chassinat Ibid. p. 57 no. 424; L.R. IV p. 175, A. 3).

(٥٠) منف (السرابيوم)

لوحة الكاهن «وننفر»

هذه اللوحةُ موجودةٌ الآن بمتحف «اللوفر» وقد عُثر عليها في سرابيوم «منف»، وهي مصنوعةٌ من الحجر الجيري، ويبلغ ارتفاعُها ٠٫٥٤ مترًا، وقد كُتب متنُها أولًا بالحبر الأحمر، ثم أُعيد عليها بالحبر الأسود، وجُزْؤُها الأعلى مستديرٌ، وقد مثل فيه من اليمين العجل «أبيس» واقفًا ونقش أمامه: «أبيس–أوزير» أول أهل الغرب … ويشاهد أمام العجل في صفين ثمانيةُ أشخاصٍ يتعبدون، وهذا المنظرُ قد مُحي نحو نصفه.

وفي الجزء الأسفل متنٌ مؤلفٌ مِن اثني عشر سطرًا، جاء فيه ألقابُ الكاهن «وننفر» وهو والد كاهن قُربان الإله «بتاح»، والكاهن المطهر لمعبد «الجدار الأبيض» «منف»، وكاهن «أوزير» في مثواه وكاهن تماثيل الملك «نقطانب» الثاني في نفس المعبد، وكاهن الإله «أنوبيس»، وكان كذلك كاهن ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مينا»، وكاهن ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تيتي»، ومن هذا نفهم أن الملك «نقطانب» الثاني، كان يُعَدُّ ضمن الملوك الذين أُلِّهوا بعد موتهم، وقد جاء منهم في هذه اللوحة اثنان، وهم الملك «مينا» والملك «تيتي»، وقد جمع من هؤلاء الملوك الذين كانوا يُعبدون، وتُقام لهم شعائر على ما يظن الأثري «أرمان» ثمانية ملوك، وكلهم في منطقة «سقارة» أو «الجيزة».

وعلى أيَّةِ حالٍ فإن لوحتنا هنا تدل دلالةً واضحةً على أن «نقطانب» الثاني كان من بين الملوك الذين كانوا يُعبدون بعد مماتهم، وتُقدم لهم القربان، (راجع: A.Z. 38, p. 122; Rec. trav. 21 p. 69–70).

ويُلحظ أنه قد كتب في نهاية هذه اللوحة سطرٌ واحدٌ بالديموطيقية.

(٥١–٥٣) منف (السرابيوم)

انظر رقم ١، ٣، ٥ من قائمة آثار هذا الملك.

(٥٤) أبو رواش

عُثر في «أبو رواش» على قطعةِ حجر عليها اسم الملك «نقطانب» الثاني وُجدت في مقبرة صخرية، (راجع: Eisson de la Roque, Rapport sur les fouilles d'Abou-Roash 1, (1922-3), Pl. XXXV, (4) & p. 4, 65-6).

(٥٥) أبو رواش

مائدة قُربان من الجرانيت لفرد يُدعَى «عان-م-حر».

يوجد بالمتحف المصري مائدةُ قربان باسم الملك «نقطانب» الثاني، وهي مصنوعةٌ من الجرانيت، ويبلغُ طولُها ٠٫٢٤ مترًا وعرضها ٠٫٢٩ مترًا … وهي صورةٌ لكلمة «حتب» المصرية، ومعناها القربان، وقد نقش حول حفرة المائدة المتن التالي:

يعيش «حور» محبوب الأرضين حامي «مصر» ممثل السيدتين (المسمى) مهدئ قلب الآلهة والذي يهاجم البلاد الأجنبية، «حور» الذهبي (المسمى) مثبت القوانين وضارب الأقواس التسعة، ملك الوجه القبلي والوجه البحري ورب الأرضين «سنزم-اب-رع ستب-ن-آمون» ابن «رع» المُسَمَّى «نخت حور حبت» محبوب «ماعت» عاش مثل «رع» محبوب «أوزير» تزيل «ليتوبوليس» (= أوسيم) «حور» محبوب الأرضين حامي «مصر»، وممثل السيدتين (المسمى) مهدئ قلوب الآلهة، والذي يهاجم البلاد الأجنبية «حور» الذهبي مثبت القوانين وضارب الأقواس التسعة ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين «سنزم آب-رع ستب-ن-آمون» ابن رع رب التيجان «نخت-حور-حبت» محبوب «ماعت» عاش مثل «رع» محبوب «حور».

ونقرأ الصيغتين التاليتين المنقوشتين حول المائدة من اليمين:

إني أقدم لك يا ملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم-اب-رع ستب-ن-آمون» شعائر يومية — قربانًا يقدمه الملك ألفًا من الخبز، وألفًا من الجعة، وألفًا من البقر والإوز، وألفًا من النسيج وألفًا من العطور، وألفًا من الخبز، وألفًا من الماء البارد، وألفًا من النبيذ وألفًا من اللبن؛ وعلى اليسار تكرَّر نفس الصيغة.

(راجع: A. Kamal. Tables d'Oifrarodes. Cat. Gen. p. 94-5 No. 23115).

(٥٨) منف (سقارة)

انظر ما كتب عنهما في رقمي ٧، ٨.

(٥٦–٥٧) منف (سقارة)

لوحة «عان-م-حر» كاهن «نقطانب» الثاني والملكة «أرسنوي» الثانية، عاش هذا الكاهن في عهد ملوك البطالمة الأربعة الأول، وقد ترك لنا هذا الكاهن لوحة عُثر عليها في السرابيوم، وهي محفوظة في متحف «فينا» تحت رقم ١٥٣، (راجع: Reinisch, Aegyptische Chrestomathie, Pl. 18; text. Brugsch Thesaurus, 852 & 902–6; B.ugsch, R.C. du. Mon. 1, Pl. IX).

وقد كُتب مع هذه اللوحة متنٌ بالديموطيقية مختصرٌ جاء فيه: الكاهن «ستم» المُسَمَّى «عان-م-حر» الذي وضعتْه «نفر سبك»، وكان يومُ ولادته هو اليوم الرابع من الشهر الثالث من فصل الشتاء، وقد غادر بيته في اليوم السادس والعشرين من الشهر الرابع من فصل الشتاء، ومدة حياته اثنتان وسبعون سنة وشهر وثلاثة وعشرون يومًا.

والمتن الهيروغليفي المقابل لذلك هو: «الكاهن «ستم» «عان-م-حر» الذي وضعتْه «نفر سبك» في السنة السادسة عشرة الشهر الثالث من فصل الشتاء مِن حُكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري «فليبوس» بن «رع» «بطليموس»، ومات في السنة الخامسة، الشهر الرابع من فصل الشتاء، اليوم السادس والعشرين من حكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري «بطليموس» «يورجتس»، ومدة حياته على الأرض هي اثنتان وسبعون سنة وشهر وثلاثة وعشرون يومًا.» (راجع: Rec. Trav. 30 p. 148–9).

أما اللوحةُ الكبيرةُ المحفوظةُ في متحف «فينا» فقد ترجمها الأثري «بركش»، وهي في الواقع لا تحتوي على معلوماتٍ تاريخية أكثر مما جاء في النص الديموقيطي — على الرغم من طولها.

والمهم في النص هو ما نلحظُهُ من اهتمام البطالمة بملوك «مصر» السابقين، والمحافظة على إقامةِ شعائِرهم على الرغم من طولها، وهاك النص:

قربانٌ يُقدِّمه الملك لأوزير أول أهل الغرب لأجل أن يقدم خُبزًا ونبيذًا وثيرانًا وإوزًّا وعطورًا ونسيجًا (لأجل) دفنة جميلة من كل شيء حسن وطاهر وحلو مما تُعطيه السماء

وتنبته الأرض، مما يعيش منه الإلهُ وروح «أوزير» الكاهن والد الإله المحبوب والكاهن «ستم» للإله «بتاح»، والكاهن العظيم للأرواح، (ثم يستمر المتن فِي ذِكْر ألقابه بوصفه كاهنًا لعدة آلهة، ثم كاهنًا للملك «نقطانب» الثاني والملكة «أرسنوي» الثانية)، وينتهي المتن بذكر تاريخ موته وعدد سني حياته، كما ذكرنا من قبل.

(راجع: Rec. Trav. 30 p. 148–9 cf.; thesaurusp. 902–6.)

(٥٩–٦٢) منف (سقارة)

مدفن الملكة «خدب نيت أري نبت» زوج الملك «نقطانب» الثاني.

تَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ الملكة «خدب نيت أري نبت» هي زوج الملك «نقطانب» الثاني، وقد ترجم «بركش» اسم هذه الملكة بأنه يعني: الإلهة «نيت» التي تعاقب المذنب، وقد شَكَّ الأثريُّ «فيدمان» في أول الأمر في نسبتها للملك «نقطانب» الثاني، عندما لم يجد اسم هذا الملك على غِطَاءِ التابوت الجرانيتي الذي وُجِدَ في بئرٍ جنازية في «سقارة»، وهو الآن محفوظٌ بمتحف «فينا»، غير أن الكشف عن تمثال مجيب لنفس الملك في هذه البئر قد جعل «ماسبرو» يرجح كثيرًا أنها زوج هذا الملك.

هذا بالإضافة إلى وجود أواني الأحشاء الخاصة بهذه الملكة مع غطاء التابوت، وقد نقش على هذه الأواني اسمها كما يأتي: «أوزير» الابنة الملكية وزوج الملك «خدب نيت أري نبت».

والظاهر أن الأمر الذي دعا إلى الشك في نسبة هذه الملكة هو وجود دفنة أخرى معها لعظيم يُدعَى «بسمتيك»، حامل أختام الملك، وقد دُفن في الجزء الشرقي لهذه البئر، (راجع: Mariette, Mon. Divers, textes Maspero p. 29; V. Bergmann, Rec. Trav. 12 p. 23, No. XXIV; Wreszinski Aegypt. Inschr. Aus dem K.K. Hof. Museum in wien, p. 151–2; Brugsch Rec. du. Mon. I., pl. 7–2 & 2; Porter and Moss. III p. 178).

وغطاء التابوت الذي عُثِرَ عليه لهذه الملكة نُقش في وسطه خمسةُ أَسْطُر عمودية، جاء فيها:

بيان: إن والدتك «نوت» تنشر نفسها عليك باسمها أسرار السماء، وأنها لن تفصل نفسها عنك باسمها السماوية، وأنها تحفظك؛ لأنك إله، وأن أعداءك لن يكونوا، الأميرة

الوراثية القوية جدًّا، الزوجة الإلهية، والأم «خدب نيت أري نبت» المرحومة، تعالي إلى «نوت»، التي ستضمك بقوة جسمك وتتحد معك مثل ما اتحدت بالعين اليُسرى «لأوزير بوصفها القمر»، وإن جسمها مثل نُور الأفق، وإنها تطرد الظلام بمحياها.

(٦٣) منف (السرابيوم)

لوحة باسم الملكة «خدب–نيت أري نبت»، ويقول الأثري «فيدمان» (راجع: Wiedemann, Aegypt. Gesch. p. 659)، إن المتحف المصري فيه لوحةٌ عُثِرَ عليها في السرابيوم مُثلت عليها هذه الملكة واقفةٌ تتعبد أمام الإله «بتاح» والإلهة «إزيس» غير أنَّ هذه اللوحة قد أَصَابَهَا تلفٌ كبير جدًّا.

هذا، وقد نسب كل من «لبسيوس» (Konigsbuch No. 680) و«بركش» و«بوريان»، (راجع: Livre des Rois. No. 738)، هذه الملكة بأنها امرأة «نقطانب» الأول ومن جهة أُخرى فضل الأثري «بدج» أنْ تكون زوجة «نقطانب» الثاني، وهذا ما يتفق مع اقتراح «ماسبرو» كما ذكرنا من قبل، (راجع: L.R., IV p. 181).

(٦٤) منف

قطع أحجار منقوشة، عُثر على عددٍ من الأحجار المنقوشة باسم الملك «نقطانب» الثاني في «ميت رهينة»، وهي مبنيةٌ على هيئة حَوض، غير أن شواهد الأحوال تَدُلُّ على أنها مأخوذةٌ من مبنى لهذا الفرعون، ولكن لم يُعرف كُنهها حتى الآن.

(راجع: A.S. II p. 241–243.)

(٦٥) منف

تمثالٌ لفرد يُدعَى «خبواسو» وهو والد وأخو ملك، والبقيةُ الباقية التي على العمود الذي يستند عليه هذا التمثالُ يغلب على الظن كثيرًا أنه للملك «نقطانب» الثاني، وكان يلقب الأمير الوراثي والحاكم والقائد الأعلى للجيش، والتمثالُ مصنوعٌ من حجر البرشيا، وكان يبلغ طولُهُ وهو سليمٌ حوالي ٣٨ بوصة؛ أي أكثر مِن نِصف الحجم الطبيعي، وقد صُنع

بإتقان، ولكن تمثيل تشريح جسمه عادي، وقد نُقش على حزامه الإلهان «بتاح» و«سوكر»: «لأجل الأمير الوراثي والحاكم والأخ الملكي لوالد الملك.»

هذا، ويُلحظ في السطر الثالث من النقش الذي على ظهر التمثال بقايا طغراء يُحتمل — في أغلب الظن — أنه للملك «نخت حور حبت»، وهذا يفسر لنا كيف أنه كان أخًا ملكيًّا لوالد الملك، وليس أَخَا الملك.

والواقعُ أن «نخت حور حبت» لم يكن مِن أُسرةٍ ملكية، وأخوه لم يكن ملكًا، وعلى ذلك فإن العَمَّ كان له الحقُّ أن ينسب نفسه لابن أخيه، الذي كان ملكًا وهذه الوظيفةُ العاليةُ تفسر لنا توليه أعظم المناصب في الدولة، وأسلوبُ صناعة التمثال تتفقُ مع فن الأسرة الثلاثين، والتمثال الآن موجودٌ «بنيويورك» في متحف «متروبوليتان».

(راجع: Petrie. Memphis I, p. 13 & 20–1 and Pl. XXXI; Bosse Menschliche figure, p. 16 No. 11.)

(٦٦) إهناسيا المدينة

قطعةٌ مِن ناووس من الجرانيت الأحمر

عُثر على قطعة من ناووس في معبد «إهناسيا المدينة» على اسم الملك «نقطانب» الثاني، وهذه القطعةُ تُبرهن على أن الناووس الذي تؤلف هذه القطعةُ جُزْءًا منه كان عُمقه ٤٣ بوصة من الداخل، ومن الخارج خمسُ أقدام، (راجع: Petrie, Ehnasya p. 12 & 17).

(٦٧) أبو صير الملق (مصر الوسطى)

بقايا معبد للإله «بتاح سوكاريس أوزير»

يوجد هذا المعبد تحت جامع بقرية «أبو صير الملق»، وقد وُجدتْ بعضُ قطعٍ منه في مكانها الأصلي، وهي مبنيةٌ في جدران الجامع، وقد وُجد عليها اسمُ الملك «نقطانب» وألقابه.

(راجع: Möller–scharff, Archeol. Ergebnisse des Graberfeldes Von Abu-sir El Meleq p. 102 & Pl. 77.)

(٦٨) هرموبوليس (الأشمونين)

ناووسٌ مِن الجرانيت الأسود المبرقش للإله «تحوت»

عثر الأثري محمد شعبان في مبنًى باللبنات على هذا الناووس على حافة الصحراء في «تونة الجبل»، وهو الآن بالمتحف المصري، وصناعة هذا الناووس رديئة، غير أنه عُمل بأسلوبٍ حَسَن معتنًى به، وهو في حالة جيدة، ولا يوجد فيه نقشٌ، غير ما وجد على عارضتيه، ونقوشُهُما موحدةٌ، وهي: «حور» محبوب الأرضين حامي «مصر» ملك الوجه القبلي والوجه البحري رب الأرضين الذي يؤدي الشعائر «سنزم آب رع ستب–ن–أنحور» ابن «رع» من جسده محبوبه (نخت حور حبت) ابن «إزيس» ومحبوب «أنحور»، عاش محبوب «تحوت» مُعطي الفخار لكل الآلهة، ليته يُعطَى كل الحياة وكل الثبات والسلطان مثل «رع» أبديًّا. (راجع: Roeder, Cat. Gen. Naos. p. 45–6, Pl. 11, B. 49 d, e; A.S. 8. p. 222, 1.)

(٦٩) العرابة المدفونة

جذع تمثال من الحجر الجيري لامرأة، وعلى القاعدة تضرعات للملك.

كما وجد كذلك رأس تمثال للملك «نقطانب» الثاني، وكلاهما بمتحف «القاهرة» وقد عُثر عليهما في حفائر العرابة المدفونة، (راجع: Petrie, Abydos I. p. 33 & Pl. LXX, No. 12; Ayrton, Abydos III Pl. XXVIII, No. 4, & p. 52; Bissing Denkmäler Text Pl. 73 A B, S p. 5–6; (K. Bosse Die Menschliche Figur in der Rundplastik der Agyptischen Spätzeit von der XXII bis XXX Dynast., Ag. Forsch, 1, 1936. p. 66 No. 179 & p. 77 No. 215).

ويقول: «بتري» عن صناعة هاتين القطعتين — وغيرهما — من عهد «نقطانب» الثاني ما يأتي: كانت أعظم نتيجة غير منتظرة في هذا العام هو الكشف عن أُسلوب النحت الرفيع في الحجر الجيري في عهد الملك «نقطانب» الثاني؛ فإنه قد أبقى على تقاليد الأُسرة الثامنة عشرة دون تغيير فيها تقريبًا، ولم يظهر فيه أثرٌ ما من تأثير الفن الإغريقي الذي كان يُحيط به؛ ففي الكتلة المربعة مِن خرائبِ المعبد وجدتْ قطعٌ أربع من تمثال من الحجر الجيري الصلب معظمُها مشوهٌ، وقد كشف عن الجزء الأعظم من تمثال جالس، رقم ١٢،

ويَدُلُّ ما تَبَقَّى من هذا التمثال على حُسْنِ التنسيقِ ومراعاة النسب والتمثيل التي نعرفها في جذوع تماثيل «نفرتيتي» وغيرها من عمل الأسرة الثامنة عشرة، (راجع: Petrie, Abydos I p. 33).

(٧٠) العرابة المدفونة

ناووسٌ مِن الجرانيت الأحمر المبقع

عُثر على هذا الناوُوس في «العرابة المدفونة»، في عام ١٨٩٨م، في المعبد الصغير غربي «شونة الزبيب»، ولم يَبْقَ منه إلا جزءٌ صغيرٌ مِن جانبه الأيسر، وقد نقش عليه من الخارج اسمُ هذا الفرعون ولقبه، ومن الداخل يشاهد الملك واقفًا أمام ثالوث «طيبة» وبيده رمزُ العدالة يقدمه لهم، ومع كل واحد من هذه الآلهة وهم «آمون» و«موت» و«خنسو» متن خاص، فأمام «آمون» نقش المتن التالي مخاطبًا به الملك: «إني أعطيك الأراضي كلها في سلام.»

ونقش أمام «موت»: «إني أمنحك عمر «رع» في السماء.»

ونقش أمام «خنسو»: «إني أعطيك سني «شو».»

(راجع: Reoder. Naos., Cat, Gen. p. 50–52.)

(٧١) العرابة المدفونة

عثر على ناووس آخر كالسابق باسمي «نقطانب» الأول والثاني معًا، وقد تحدثنا عنه عند الكلام على «نقطانب» الأول.

(٧٢) العرابة المدفونة

تابوت كاهن تماثيل الملك «نقطانب» الثاني، وهو مصنوعٌ من الحجر الجيري، ومحفوظٌ الآن في متحف «فتزوليام»، وقد جاء عليه النقشُ التالي: «كاهن تماثيل الفرعون نقطانب.»

(راجع: Randall, Mac lver und Mace, El-Amrah and Abydos p. 85, 96 and Pl. XXXV.; Gauthier, L.R. IV p. 180 No. 44; Porter & Moss V. p. 76.)

(٧٣) غابات

الواقعة جنوبي «العرابة المدفونة»، (انظر رقم ٤ من آثار نقطانب الثاني).

(٧٤) قفط

توجدُ في المعبد الجنوبي في «قفط» بوابةٌ باسم الملك «نقطانب» الثاني، ويشاهد على الجزء الأسفل من عارضتَي البوابة من الجهة اليسرى؛ الملك يقف أمام الإله «مين» رب هذه الجهة، وكذلك أمام «سا إزيس»، ويشاهد على الجهة اليمنى الملك «نقطانب» الثاني أمام الإله «مين» وأمام الإلهة «إزيس».

(راجع: A. Reinach, Rapports sur les fouilles de Koptos, Bull. de a société FranÇaise des Fouilles Archeologiques, 1910, Tom. I, p. 2.)

(٧٥) قفط

قطعةٌ من مسلة مصنوعة من الجرانيت البني، وهي لشخص يُدعَى «أرتراثا» من عهد «نقطانب» الثاني، وقد جاء عليها لقبُهُ، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن «أرتراثا» هو الذي صنعها.

(راجع: Petrie, Koptos, p. 17 & Pl. XXVI, 2; L.R. IV p. 174; Porter & Moss V. p. 134.)

ويُلحظ أن «بورتر» و«موس» قد نسبتا هذا الجزء من المسلة للملك «نقطانب» الأول وهذا خطأ.

(٧٦) قفط

توجدُ مقصورةٌ صغيرةٌ على مسافةٍ من جنوب بوابة المعبد بالقرب من جدار المدينة، وتحتوي هذه المقصورة على صورة الملك «نقطانب» الثاني.

(راجع: Petrie Koptos. p. 17.)

(٧٧) قفط

قاعدة تمثال من المرمر للملك «نقطانب» الثاني، من المعبد الصغير، من العهد البطلمي والروماني، وقد وُجدت مستعملة ثانية في الباب الغربي للمعبد، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «اللوفر»، (راجع: A.S. XI, p. 119).

(٧٨) قفط

وُجد في جهة «قفط» مائدةُ قُربان من المرمر باسم الملك «نقطانب» الثاني، وقد رسم على جوانبها الأقواسُ التسعة؛ أي أن «نقطانب» قد هَزَمَ قبائلَ الأقواس، وأصبحوا تحت سلطانه.

(راجع: Reinach, Rapports sur les Fouilles des koptos Bull. Soc. Fran. Des Fouilles Archeologiques. 1910 p. 6 & 13.)

(٧٩) وادي حمامات

يوجد في «وادي حمامات» نقشٌ على صخر مثل فيه الملك «نقطانب» الثاني يحرق البخور أمام الآلهة «مين» و«حربوخراد» و«إزيس»، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على أن هذا الملك كان يرسل بعثاتٍ إلى محاجرِ هذه الجهة لاستثمارها بقطع الأحجار منها.

(راجع: L.D. III 287 a; Couyat-Montet, Les Inscriptions du Ouadi Ham-mamat p. 44, No. 29 et Pl. VIII.)

(٨٠) وادي حمامات

يوجد في محاجر «وادي حمامات» نقش باللغة الديموطيقية (راجع: L.D. VL. t9, No. 167)، وأول ما يلحظ في هذا النقش الذي يرجع إلى عهد الملك «نقطانب» الثاني هو أن كلمة الميديين تعني الفرس، وفي هذا النقش نجد أن أحد الموظفين المكلفين بقطع الأحجار يقول إنه كان مكلفًا بالتفتيش على قطع الأحجار من المحاجر في عهد الملك «نقطانب» الثاني، وفي عهد الميديين (أي الفرس)، وفي عهد الأيونيين؛ أي الإغريق، ومن ثم نفهم أن هذا الموظف باشر عمله هذا في عهد الفرعون «نقطانب» الثاني، وفي عهد ملك الفرس «أرتكزركزس» (أوكوس) وفي عهد «الإسكندر الأكبر»، وخليفته في «مصر» «بطليموس» الأول.

هذا، ويُلحظ هنا أن الملك «تاخوس» (تيوس) الذي خلف «نقطانب» الأول، ولم يمكث على عرش الملك إلا سنتين لم يذكر اسمه في هذا النقش.

(راجع: Die Sogenannte Demotische Chronik, p. 6, 94, Fig. No. 332.)

(٨١) الكرنك

نقش اسم الفرعون «نقطانب» الثاني على البوابة التي أقامها «نقطانب» الأول، (راجع: Porter & Moss. II, p. 5).

(٨٢–٨٣) الكرنك

نقش الملك «نقطانب» الثاني اسمه على عضادة باب معبد الكرنك الصغير، (راجع: LDIII, 287 c, d.).

وقد مثل وهو يقدم قربانًا، ويُلحظ أن اسمه الحوري قد هشم وهو «حور» محبوب الأرضين حامي «مصر»، (راجع: L.D. III 287 f; L.D. r, p. 3). وقد مثل الملك في صورة «بولهول» أمام الآلهة «آمون» و«خنسو» و«تحوت».

(٨٤) الكرنك – معبد الإله خنسو

يشاهد عند مدخل قاعة العمد الخارجية طغراء الملك «نقطانب» الثاني، (راجع: ChamP., Notices Descr. II, 232, 238, 240.)

ويشاهد على عِضَادَتَي الباب كذلك في الصف الثاني من النقوش الملك «نقطانب» الثاني أمام الإله «خنسو».

هذا، ويشاهد في أسفل الجدار متن مجدد في عهد البطالمة.

(راجع: L.D. III 287, B.)

وكذلك يشاهد على عضادة الباب الثاني في الصف الأسفل الملك «نقطانب» الثاني أمام الإله «خنسو» رب هذا المعبد، كما يشاهد على القاعدة متن مجدد.

(راجع: L.D. III 287, G.)

(٨٥) الكرنك

أقام الملك «نقطانب» الثاني معبدًا في الجهة الشرقية من معبد الإلهة «موت»، ولم يَتَبَقَّ منه إلا نقشٌ صغيرٌ في أسفل عضادة باب، جاء فيه اسم هذا الفرعون، وهاك ما تَبَقَّى من النقش:

رب التيجان «نقطانب» الثاني عمله بمثابة أثره لأمه (أي «موت») (راجع: Cham p. Not. Descr. II p. 264; Porter & Moss II, p. 97).

(٨٦) الكرنك

تمثال «أحمس» بن «سمندس» من عهد الملك «نقطانب» الثاني، من بين التماثيل العدة التي عُثِرَ عليها في خبيئة الكرنك التمثال الذي يحمل رقم ١٩٧ ورقم ٣٧٠٧٥ في سجل المتحف المصري، ويعد من أجمل التماثيل وأهمها؛ فهو في حالةٍ جيدةٍ جدًّا، ولا ينقصُهُ إلا جزءٌ من طرف الأنف، وهو لفرد يُدعَى «أحمس سمندس» الذي كان كاهنًا للملك «نقطانب» الثاني المقدس، ومِنْ ثَمَّ نفهم أنَّ «نقطانب» — على ما يظهر — كان قد تُوُفِّيَ عندما صنع هذا التمثال، ويمكننا أن نؤرخه — بحقٍّ — ببداية عهد البطالمة، أو بأول حُكم «الإسكندر الأكبر»؛ وقد صُنع هذا التمثال من حجر الشست، ويبلغُ ارتفاعُهُ ٩٥ سنتيمترًا، وقد مثل «أحمس» هذا في هيئة رَجُلٍ في ريعان الشباب واقفًا، قدمه اليسرى تخطو إلى الأمام قليلًا، وظهره متكئٌ على عمود في هيئة مسلة، ويرتدي فقط قميصًا قصيرًا، ورأسه حليق تمامًا.

والتمثالُ في منظره يُعَدُّ الطرازَ الخاصَّ بالعهد البطلمي الأول، والواقعُ أن القوة والصبغة اللتين تُمَيِّزَان الكثيرَ من تماثيلِ العهدِ الساوي معدومتان هنا، وليس أمامنا إلا صورةُ إنسانٍ تقليدية مرسومة، وعلى شفتيه بسمةٌ صغيرةٌ متكلفةٌ، وساقاه غيرُ مُتْقنتين في صناعتهما، وكتفاه قد بُولغ في تمثيلهما، والجسمُ قد صُنعتْ تفاصيلُهُ باختصار.

ومِن المحتمل أن «أحمس» هذا كان أولَ كاهن عرف لنا عن العجل «بوخيس»، وأقل ما يُقال هنا إن من المؤكد أن واجباته الرسمية قد جعلتْه على صلة مع «هرمنتس» (وبخاصة في استعمال لقب «حنك» وهو الذي يحمله كهنة آخرون للعجل «بوخيس»)، عجل «مدمود وامنمؤبت»، ولهذه الأسباب — وغيرها — فإنه من الصواب أن نفرض أنه كان متصلًا بعبادة العجل «بوخيس»، الذي ظهرتْ عبادتُهُ في عهد الملك «نقطانب» الثاني.

النقوش التي على وسط التمثال

من اليمين: يعيش والد الإله وكاهن «أوزير» والمحنط والمطهر الإلهي «أحمس» المبرأ.

من اليسار: يعيش الكاهن والد الإله، وكاهن «آمون» في «ابت سوت» «طيبة»، والمحنط والمطهر الإلهي «أحمس» المبرأ.

النقوش التي على العَمُود الذي على هيئة مسلة، ويستند عليه التمثالُ:

ظهر السنادة: الجزء الأعلى

يشاهَد في الجُزء الأعلى في الوسط قرص الشمس المجنحة، يتدلَّى منه تسعةُ رموز للحياة «عنخ»، في ثلاثة صفوف كل صف مؤلَّف من ثلاثة رموز، وأسفلُ من ذلك يشاهَد «أحمس» يتعبد لـ «آمون» و«أوزير» على اليمين وعلى الشمال بالتوالي، وقد نقش أمام «آمون».

«آمون–رع» ملك الآلهة، والواحد الأزليُّ للأرضين، صاحب اليدين المرفوعتين، وكتب كذلك: «الخادم الذي يمجد سيده، والكاهن والد الإله «أحمس» المبرأ.»

ونقش أمام «أوزير»: «أوزير وننفر» والتابع لأوزير في «برشتان» (؟) والكاهن والد الإله «أحمس» المبرأ.

النص الرئيس الذي على ظهر التمثال:

(١) الكاهن والد الإله، وكاهن «آمون» في «طيبة» «أحمس» المبرأ يقول: يا «آمون–رع» ملك الآلهة، والواحد الأزلي للأرضين، وموجد نفسه؛ إني خادمك الذي يتبع روحك (كا) وواحد محترم يرى سيده، امنحني حياتك في ركاب جلالتك، ليتني لا أُصبح سائمًا من رؤية وجهك، ومحنطًا تحنيطًا طيبًا ومزينًا بصفة ممتازة، وجبانتك بجوار «يات جامت» (= مدينة هابو)، ليتك تضع أطفالي في مدينتك كأولئك الذين نصبهم الآلهة.

(٢) الكاهن المحنط والمطهر لآمون «أحمس» المبرأ يقول: يا «نون» القديم الذي جاء إلى الوجود في البداية، والواحد الأزلي للأرضين بذراعيه مرفوعتين، إن قلبي موالٍ لك، ليتني أكون في ركابك، وليتني أمدحُ جمالك في محرابك الشريف، وليتك تثبت صورتي في مكانك المقدس، وليت اسمي ينطق به خدمُك وأطفالي في معبدك، وفي ركاب جلالتك كل يوم دون انقطاع في طيبتك (أي مدينة طيبة مُلكه).

(٣) كاهن «آمونت» التي في «طيبة» «ابت أسوت» «أحمس» المبرأ، يا «موت» التي أتت إلى الوجود قبل الزمن إني طفلك في بلاطك، إني لم أرتكبْ جُرْمًا (؟) بيدي اليُسرى في حق المعبد خائفًا من «خنسو» (؟) إن قُرباناً عظيمًا في عيده الكبير للسنة الجديدة محتويًا على بخور «بنت» لأجل أن تكون مكافأتي منك يا سيدة الآلهة والآلهات تكون حياةً طويلةً، مع حظ كل يوم دون انقطاع في طيبتك (أي مدينة طيبة ملكك).

(٤) أمير مقاطعة «منف» وحاكم مقاطعة «الأرنب» «أحمس» المبرأ يقول: لقد ذهبت إلى مقر الحكم وأقلعت إلى «الأشمونين» ومعي مكتوب ملكي، ولقد حنبت ذراعي إلى خدمة الآلهة وكهنتها، وقد عملت خيرًا لمواطنيهم، وكانت المكافأة على ذلك أن الإله «تاتنن» والإله «تحوت» جَعَلَاني أصلُ إلى «طيبة» بوصفي واحدًا محترمًا، ليتني أُكمل حياتي على الأرض في ركاب «آمون» بوصفي كاهنًا مطهرًا إلهيًّا في قصره العظيم.

(٥) كاهن «سوكاريس» «أحمس»: المبرأ يقول: إني خادمك يا ملك الآلهة في معبدك (؟) إن مبخرتك ممدودةٌ نحوي، وإني محنطٌ في «بر-عنخ-أرو» «الجبانة» والذي يحيى من جديد «أوزير» في «حت نب» ليتك تضعُني بين الأرواح الممتازة الذين في ركابك والمنعمين «سعحو»؟ الذين بجوارك، ليت روحي لا تفنى وليت جسمي لا يموت … ثانية، وليتني أجيء وأروح على الأرض كل يوم، وليتني أدخل إلى الإله ولا أصد.

(٦) كاهن «أمنمؤبت» صاحب «آخ سوت»، (هرم الملك «منتوحتب» الرابع والجبانة التابعة له) «أحمس» المبرأ يقول: الحمد لوجهك يا ذكر الإلهة «آمنمؤبت»، يا أيها الثور ذو الذراعين المرفوعتين وصورة «رع» في «هرمنتس» (و«أمنبؤبت» هو الإله وريث ثامون الأشمونيين)، الذي يمنح المأكولات لمن في حظوته، ليتك تعطيها إياي يا سيدي العظيم؛ لأني مُوالٍ لجلالتك، تفضل بأن يكون في استطاعتي رؤية روحك الشريفة عندما تقلع إلى «روستاو»، ليتني أعيش على قُربانك الذي عمل لك.

(٧) كاهن «خنسو» «آمنمؤبت» «أحمس» المبرأ يقول: إني أنقش بوابة «خنسو» في «طيبة» والشريف «سخم» الشريف في «بننت» (بننت = معبد «خنسو» في الكرنك)؟ وإني أُمَجِّد رهبتَه، وأُعَظِّم جلالتَه وأكتب على جدار معبده، ليته يعمل مكافأة لي بإطالة حياتي، بوصفي فردًا محترمًا وفردًا ذاهبًا إلى روحه (كا)، ليته يمنحني أنْ أرى جلالتَه عندما يَعْبُرُ غربي «طيبة» ليتسلم خبز سنو في صالحه.

النقش الذي على الجانب الأيسر للعمود

قربان يقدمه الملك «لآمون رع» ملك الآلهة، ولأوزير «قفط» الذي يسكن في «حت نب» لأجل أن يعطي كل شيء يخرج على مائدته في خلال كل يوم للكاهن والد الإله، وكاهن «آمون رع» في معبده المقرب (حنك)، في «أرمنت»، والمحنط والمطهر الإلهي الذي يقلع إلى الجبانة «إيات جامث» (= مدينة هابو)، والذي يرى الروح الخفية في صورته وكاهن «سبك»، رب «مرف»، وكاهن «نخت حور حب» والكاتب المقدس والخازن المقدس «لآمون» للطبقة الثانية من الكهنة، وكاهن «خنسو امنمؤبت» (المسمى) «أحمس» المبرأ ابن الموالي للملك «سمندس» المبرأ، والذي ولدتْه ربةُ البيت ومغنية «آمون» المسماة «تي–نوب» المبرأة.

النقش الذي على الجهة اليمنى من العمود

قربانٌ يقدمُهُ الملك «لآمون رع» الواحد الأزلي للأرضين لأجل أنْ يعطي كل شيء يقدم على مائدته كل يوم لروح الكاهن والد الإله كاهن «أوزير» والمحنط والمطهر الإلهي، والذي يدخل مكان الدفن للعجل الذي في المدمود، والذي يرى سر الأزلي الأول كاهن «آمونت» الذي في «طيبة»، والكاهن «ماجر عنخ» (المسمى) «سمندس» المبرأ الذي أنجبه راقص «آمون رع» كمفيس، «تي–نوب» المبرأة.

ويُلحظ أن التمثال ليس بواقفٍ تمامًا منفردًا، بل توجدُ هناك قطعةُ حجر رقيقة، توصله بالقاعدة، والأجزاء الأُخرى الخالية من هذا الحجر قد استعملت لنقش كتابات أُخرى عليه:

على الجهة اليمني: يشاهد بكر أولاد «أحمس» هذا واقفًا، مرتديًا لباسًا فضفاضًا، يصل من صدره إلى ما تحت الركبتين، والمتن الذي يصحبه هو.

ابنه البكر، والابن المحبوب كاهن «أوزير» «سمندس»، الذي أنجبتْه سيدة البيت ومغنية «آمون» (أحيت) «تشريت–مين» المبرأة، ومِن ثم نعرف اسمي والد «أحمس» وابنه، وكلاهما كان يُدعَى «سمندس» وأُمُّهُ كانت تُدعَى «تي–نوب» وزوجُهُ كانت تُدعَى «تشريت–مين» ولا نعرف حتى الآن تفاصيلَ عن هؤلاء الناس ولا عن «أحمس» نفسه.

وعلى الجانب الأيسر: يشاهد «أحمس» راكعًا بوجهه نحو اليسار، ويداه مرفوعتان تَعَبُّدًا، ويشاهد فوق رأسه وأمامه نقشٌ قصير: الكاهن «ساست (لقب كاهن)» في سيدة المدن «طيبة» وكاهن «أوزير» «أحمس» المبرأ.

ويوجدُ تحت صورة «أحمس» نقشٌ مؤلفٌ من ستة عشر سطرًا.

كاهن «آمون رع» في معبده «أحمس» المبرأ يقول:

يا «عزوتنر» (لقب كاهن)، ويا كهنة الروح العظيمة، وأنتم أيها المحنطون لعين رع الذين يدخلون السماء التي على الأرض (اسم لمعبد الكرنك) على أقدامهم عندما يؤدُّون واجباتهم هناك، مُدُّوا أذرعتكم إليَّ بقربان يقدمه الملك، مدوا أذرعتكم إليَّ قائلين: ليته يمدحك في سلام؛ أي «آمون رع» الروح الشريفة ورئيس كل الآلهة، وليت روحك تعيش في السماء أمام «رع» وليت قرينك (كا) يكون مقدسًا أمام الآلهة، وليت جسمك يبقى في العالم السفلي أمام «أوزير»، وليت موميتك تكون فاخرة بين الآحاد المشرقين، وليت روحك الشريفة تذهب إلى «منديس»، وإلى المقاطعة «طينة» في يوم عيد «سوكر»، أنت يا فاعل الخير ومن يُفعل له الخير، ومَن لا ينتقم (؟) ومن يمضي الليل في أخذ الرأي (؟) ليت قلبك الحقيقي يكونُ مرتاحًا لي (؟) لأن قلبي مُوَالٍ لجلالته، وميلي طاهرٌ وبعيدٌ عن الشر، (وإني) أكرهُ الخطأَ (؟) … يا سيدي، ويا إلهي، ويا والدي، ويا حاميَّ الذي لا يناله النصب من حاميه (خادمه)؛ ليت اسمي ينطق به هؤلاء الذين على الأرض بسرور، بوصفي إنسانًا محترمًا في حظوة آلهة.

ولا ريب أن هذا المتن الديني يُلقي أضواءً على معتقدات هذا العصر، وهي في كنهها لا تخرجُ كثيرًا على المعتقَدات القديمة؛ غير أنها في الوقت نفسه توضح — بجلاء — الفرق بين عبادة «رع» و«آمون» الخاصة بالروح وعبادة «أوزير» الخاصة بالجسم وبقائه سليمًا في عالم الآخرة؛ أي في الجبانة، (راجع: J.E.A. vol. XX. p. 1–4).

(٨٧) الكرنك

تمثال الكاهن «نسمين»

عُثر في خبيئة الكرنك على تمثال لفرد يُدعَى «نسمين» ويحمل لقب الكاهن الأول لبيت: نقطانب «الأول» عاش مخلدًا، (راجع: A.S.T. VOl. VII p. 43. 186).

(٨٨) أرمنت

انظر رقم ٣.

(٨٩) أرمنت

وُجِدَ اسمُ «نقطانب» الثاني على بعض الأعمدة، على مسافة من المعبد الرئيسي، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوالِ على أنه أقام معبدًا جديدًا، ويُحتمل أنه معبدٌ صغيرٌ وتدلُّ النقوشُ على أن أول وأغنى مدفن في «البوخيوم» كان قد أُقيم في عهد ذلك الملك، وكانت عبادة «بوخيس»،[٨] كما نعلم قد بدأها هو، ومن المحتمل إذن أن هذا المعبد كان أول مسكن لـ «بوخيس» المتجسد.

(راجع: Mond-meyers., The temple of Armant, The test, p. 4.)

(٩٠) أرمنت

إناء نمست: عُثر في البوخيوم على إناء نمست من القاشاني الأخضر، وقد نُقش تحت المفرهة سطران عموديان جاء فيهما: ابن رع رب التيجان «نقطانب» الثاني محبوب «آمون رع» ومحبوب «أوزير-بوخيس» مُعطي الحياة، (راجع: Mond-meyers, the Bucheum vol. II, p. 20; Ibid. III Pl. LXIII, No. 1, 2).

هذا، وقد عُثر على رأس من الحجر الرملي في البوخوم، يحتمل أنه للملك «نقطانب» الثاني، محفوظةٌ في المتحف البريطاني.

(راجع: Ibid. l. p. 79–82, III Pl. LXIII No. 3; Com p. Porter & Moss V. p. 159).

[٨] راجع: Ibid. II p. 38 عن أسماء العجل «بوخيس» (باخ أو باخ-حر-خات) إلخ.

(٩١) أرمنت

وعثر كذلك في البوخيوم على قطعة من الحجر الرملي مُثل عليها «نقطانب» يقدم حقولًا للإله «تحوت» المزدوج العظمة رب «الأشمونين»، (راجع: Ibid. II, p. 50)، وهذه القطعة محفوظة الآن بالمتحف البريطاني.

(٩٢) إدفو

انظر رقم ٩.

(٩٣) إدفو

ناووس من حجر الجرانيت الأسود للملك «نقطانب» الثاني.

يوجدُ في معبد «إدفو» حتى الآن ناووسٌ مؤلفٌ من قطعةٍ واحدةٍ، وهذا الناووسُ كان بلا نزاعٍ يحتوي على صورة إله الشمس «حور» الذي مُثل برأس صقر، ومن ثم كان يوضعُ في أقدسِ مكانٍ بالمعبد؛ أي في قدس الأقداس وهذا الناووس يحدثنا بنقوشه على أنه كان موجودًا في هذه البقعة قبل عهد البطالمة؛ وذلك لأنه يوجد على أحد جانبَي باب الناووس نفسه جاء فيه أن الملك «نقطانب» الثاني قد أهدى هذا الناووس، (راجع: Duemichen tem p., Inschr. I, Taf. 3).

وفي هذا النقش يقول «نقطانب» الثاني للإله «حور»: «إن هذا الأثر الذي أقمتَه هنا لك قلبي فرح به أبديًّا.» وبعد ذكر الألقاب الرسمية للملك يقول المتن: لقد عمله بمثابة أثره لوالده «حور بحدتي» الإله العظيم رب السماء، وقد عمل ناووسًا فاخرًا مِن حَجَر الجرانيت، وباباه من خشب الأرز، ومصفحان بالبرنز، وموشيان بالذهب، وعليهما نقشُ الاسم العظيم لجلالته، ليجزى على ذلك ملايين الأعياد الثلاثينية من ملايين السنين الأبدية. (راجع: Porter & Moss. VI p. 146).

(٩٤) الكاب

تدل النقوش والأحجار التي وجدت في معبد «الكاب» على أن الملك «نقطانب» الثاني قد قام ببعض إصلاحات في هذا المعبد؛ إذ وجدت فيه طغراءاته على قطع من كورنيش عُثر عليه في الزاويتين الشمالية والغربية، وكذلك في الزاويتين الجنوبية والغربية، (راجع: A.S. 37, p. 9).

(٩٥) الكاب

تدل النقوش التي عُثر عليها في «الكاب» على أن «نقطانب» الثاني، قد أقام معبدًا صغيرًا في منطقة «الكاب»، وهذا المعبدُ يقعُ مباشرة خارج البوابة الشرقية أو الصحراء، (راجع: Porter & Moss. V. p. 178; J.E.A., 8 p. 40).

(٩٦) الفنتين

أقام الملك «نقطانب» الثاني معبدًا للإله «خنوم» في «الفنتين»، وقد جاء اسمُهُ على الجدار الغربي، كما مُثل وهو يقدم القربان للإله «خنوم»، ونقوشُ هذا المعبد تُعَد مِن أحسنِ النقوشِ التي أخرجها المفتن المصري؛ فهي تُضارع نقوشَ الأُسرة الثامنة عشرة في حُسْنِها وأَنَاقَتِها، وقَدْ دَلَّ البحثُ على أن بعض أحجار هذا المعبد قد أُخذت من معبد الأسرة الثامنة عشرة، الذي كان قائمًا في ذلك المكان، ومن حُسن الحظ عُثر على نقش من عهد البطالمة يدلُّ على مقدار اعتنائهم بهذا المعبد، وقد وجدتْ آنيةُ نبيذ عظيمة من الجرانيت نُقش على حافتها متنٌ يدل على أن «بطليموس» الأول قد أهدى هذه الآنية الفخمة للمعبد، وكذلك في العهد الروماني أضاف القياصرةُ لهذا المعبد بعض النقوش والمباني تعظيمًا للملك «نقطانب» الثاني، (راجع: A.Z. 46, p. 54–59).

وكذلك عُثر على ناووس عظيم من قطعة واحدة عليه اسم هذا الفرعون، غير أنه لم يتم نقشه، (راجع: Ibid. p. 57).

(٩٨) الواحة الكبرى (الواحة الخارجة)

معبد هبيس

وُجد في معبد الهيبة ودائع أساس باسم الملك «نقطانب» الثاني، مما يَدُلُّ على أنه أقام هناك أثرًا، (راجع: Spiegelberg Demotische Chronik p. 6).

(٩٩) الواحة الخارجة

معبد هبيس

أقام «نقطانب» الثاني بوابة في معبد «هبيس»، وهذه البوابةُ إضافة للمعبد الذي أقامه «دارا» الأول و«دارا» الثاني.

(راجع: Lepsuis. A.Z. 12 p. 73–74; Brugsch, A.Z. 13 p. 54.)

وقد نقش على هذه البوابة: «حور» محبوب الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «سنزم-اب-رع سبت-ن-أنحور» ابن رع «نخت حور حبت» محبوب «أنحور».

هذا، وقد عُثر في هذا المعبد على تاج عمود باسم هذا الملك، وهو الآن موجودٌ بمتحف «متروبوليتان» بمدينة «نيويورك».

(راجع: Bull. Of the metro p. Mus. IX., May 1914 No. 5 p. 113, With Note 3.)

(١٠٠) واحة آمون

معبد «آمون» بسيوة

أقام الأمير «ونأمون» معبد الوادي في «أم عبادة»، وقد نقش عليه اسم هذا الفرعون «نقطانب» الثاني.

وقد عُثر على قطعة حجر عليها نفس الاسم، (راجع: Steindorff, Berichte über die Verhandlungen der Sachsischen Gesellschaft der wissens-chaften, Phil. Hist. Kl. p. 218; kienitz, Ibid. p. 228–9).

(١٠١) وقد عُثر لهذا الملك على عدد كبير من التماثيل المجيبة في «ميونخ» و«تورين» و«فينا» في مجموعة الأثري «فلندر زبتري».

(راجع: Brugsch Thesaurus VI p. 1438; Fabretti Rossi, Lanzone, Regio Museo di Torino, I, p. 307 No. 2509; L.R. IV p. 179, No. 39.)

(١٠٢) وكذلك توجد عدة لوحات صغيرة منقوش عليها اسم هذا الفرعون في متاحف مختلفة، (راجع: Kienitz Ibid. p. 229).

(١٠٣) يوجد بالمتحف البريطاني جزءٌ من تمثال من الجرانيت الأسود للإله «آمون»، ممسكًا أمامه صورةً تُمَثِّل الملك «نقطانب» الثاني واقفًا، (راجع: Guide to the Egyptian Galleries (Sculpture) p. 247).

(١٠٤) رأس الملك «نقطانب» الثاني موجود الآن بمتحف جامعة «موسكو» في المجموعة المصرية غير أن الأنف قد هشم، (راجع: Ancient Egypt, 20, p. 125).

(١٠٥) تمثال صغير للملك «نقطانب» الثاني، وقد مثل واقفًا بين ساقي صقر، (راجع: Tresson, Kemi 4, p. 144 & Pl. VII a).

(١٠٦) العتب الأسفل لمحراب من الجرانيت نُقش عليها اسم «نقطانب» الثاني محفوظ الآن بالمتحف المصري، (راجع: Petrie Hist, III p. 379).

(١٠٧) لوحة عليها نقش بإهداء أرض محفوظة بالمتحف البريطاني، (راجع: Ibid. p. 379).

(١٠٨) عمود مغتصب نقش عليه اسم «نقطانب» الثاني محفوظ بالمتحف البريطاني، (راجع: Ibid. p. 379).

(١٠٩) قردة من البازلت، منقوش عليها اسم «نقطانب» الثاني، محفوظٌ الآن في «أزيوم روما» يبلغُ ارتفاعُ الواحد منها ١,٥ مترًا، (راجع: Sehiaparelli, Bull. Dell. Cam-miss. Achaeol di roma. 1883, II, p. 9–14; Schiaparelli, monumenti egiziani dell. Isio 1883, III–IV).

(١١٠) لوحة من الحجر بمتحف «الإسكندرية» نُقش عليها اسم «نقطانب» الثاني ولقبه غير أن الجزء الأول من كل من الاسم واللقب قد هشم، (راجع: A.S. V. p. 122).

(١١١) قطع من الحجر الجيري والفخار في متحفي «القاهرة» و«مرسيليا» نُقش عليها اسم هذا الفرعون، (راجع: Wiedemann, Agyptische Gesch. p. 707).

(١١٢) طابع ختم من البرنز، يظهر أنه للملك «نقطانب» الثاني، ومحفوظ بالمتحف البريطاني، (راجع: Hall. Scarabs I. p. 285 No. 2745).

(١١٣) طابع خاتم من الفخار باسم «نقطانب» الثاني على ما يظهر محفوظ كذلك بالمتحف البريطاني، (راجع: Ibid. 292, No. 2793).

(١١٤) قطعة من عقد «منات»، وهي تعويذةٌ مصنوعةٌ من القاشاني، محفوظة بمتحف «فلورنس»، (راجع: Schiaparelli, Musio. Archeologico di Firenee p. 181 No. 1452, L.R. IV p. 179 No. 36).

(١١٥) إناء صغير من القاشاني في مجموعة «ناش»، عليه اسم هذا الفرعون، (راجعْ: Nash, p. S.B.A. 31 (1909), p. 255 & Pl. XXXVII No. 29; L.R. IV p. 179 No. 37).

(١١٦) كتاب الموتى بالهيراطيقية، لصاحبه «خنسو» كاهن «نقطانب» الثاني، ويوجدُ اسم هذا الفرعون فضلًا عما ذكرنا على آثارٍ أُخرى عدة في أنحاء كل القطر، كما توجد له آثارٌ أُخرى غير ما ذُكر في متاحف العالم.

أحوال الجيش المصري بعد طرد الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد

كانت «مصر» في خلال القرن الرابع قبل الميلاد في نظر العالم، وبخاصة في نظر ملك الفرس العظيم مجرد شطربية فارسية فصلت عن الدولة الفارسية، وهذا يعني أن البلاد كانت طوال المدة من ٤٠٤–٣٤٢ق.م في حالة حرب مستمرة، غير أن هذه لم تكن الحقيقة الواقعة؛ لأن بلاد الفرس لم تكن دائمًا طليقة اليد لتنفرد بشن الحروب على «مصر»، هذا بالإضافة إلى أنه لم يحدث تَغَيُّرٌ في تولي عرش ملك «مصر»، دون أن يكون اغتصابًا، ومن ثم كانت تقومُ حروبٌ داخليةٌ مما جعل للشئونِ الحربيةِ أهميةً ملحوظة، وهذا ما لم يحدث نظيرُهُ قط في مدى عهود التاريخ المصري.

وقد كان فراعنةُ الأُسَر المصرية، من الثامنة والعشرين حتى نهاية الأسرة الثلاثين؛ عليهم أن يضطلعوا بواجبٍ شاقٍّ، فلم يخطر ببالهم — كما كانت الحال في عهد «بسمتيك» الأول — أن يُجَنِّدُوا جيشًا من الفلاحين المصريين أو من سُكان المدن المصرية، وقد كان لديهم من هؤلاء — في الواقع — عددٌ عظيمٌ للانخراط في الجندية، وكانوا عند الحاجة يسارعون إليها، غير أنهم لم يكونوا جُنُودًا مُدَرَّبين على الحرب، وقد كان تحت تصرُّف الفراعنة من جهة أُخرى جنود «المشوش» الذين لم يصلْ مستواهم إلى مستوى الجُنُود الفرس، ولكن استولوا عليهم واستخدموهم كما استخدمهم الساويون من قبل.

يُضاف إلى ذلك أنه كان في الإمكان جلبُ جنود من بلاد «لوبيا» المجاورة؛ ليعملوا في الجيش المصري (Diod., 16, 47, 6) حيث نجد أن المؤرخ «ديودور» يفرق في جيش «نقطانب» الثاني بين المشوش المصريين وبين اللوبيين؛ فالفريق الأول كان في «مصر» منذ

مائة سنة بوصفهم جنودًا يقيمون في مستعمراتهم في حين أن الفريق الآخر قد وفد على «مصر» منذ زمن قريب.

ومِمَّا لا نزاع فيه أن موقعتي «ماراتون» و«بلاتا» كان لهما نتائج في العالم الشرقي أكثر أهمية من كل النتائج الأُخرى في توضيح العلاقات الكبيرة بين الفُرس والإغريق؛ إذ قد كشفت النقاب تدريجًا عن التفوُّق المطلَق الذي كان يمتاز به مُشَاةُ جُنُود الإغريق على الجنود الشرقيين، وقد كان منذ عهد العاهل أرتكزركزس الأول (٤٦٥–٣٢٤ق.م) أن بدأ شطاربةُ آسيا الصُّغرى يستخدمون الجنودَ المرتزقة، ولكن على الرغم مِن أنه خلالَ كل القرن الخامس لم تدخل أَيَّةُ تغيرات هامة في الأحوال الحربية في الشرق إذ بقي كل شيء على ما هو عليه؛ فإنه من الثابت أنه في خلال النصف الثاني من القرن الخامس لم تدخل أية تغيرات هامة في الأحوال الحربية في الشرق؛ إذ نجد أنَّ الفرس كانت تتدخل فيها بوجهٍ خاص بالطُّرُق الدبلوماسية والمالية.

على أنَّ هذه الحال قد تَغَيَّرَتْ منذ قيام «كيروس» (كورش) الفتى بمشروعه الضخم في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، فمِن جهةٍ نجد أنَّ تَفَوُّقَ الجُنُود الإغريق في الطرق الحربية قد ظهر في موقعة «كوناكسا Kunaxa» (٤٠١ق.م)، وقد ظهرت قُوَّتُهُم فعلًا هنا أكثر من ذي قبل بصورة بارزة، مما أوضح أنَّ كل عدد الجيش الفارسي لم يكن من القوة بحيث يقف «كيروس» في وجه الثلاثة عشر ألف إغريقي في الطريق من «مسو بوتاميا» حتى «طرابزوند»، ومِن جهةٍ أُخرى فإنه منذ واقعة «كوناكسا»، قد كَثُرَ إعلانُ الحرب التي كانت تَشُنُّهَا الفرس في داخل بلادهم وفي خارجها.

ومن هذه الحالة يُمكن الإنسانَ أن يستنبط سيرَ الأُمُور في بلاد الفرس؛ ففي خلال القرن الرابع قبل الميلاد أخذ الفرس يكثرون من استخدام الجُنُود الإغريق في الجيش الفارسي، وقد كان هؤلاء الجنود هم النواة في قلب الجيش الفارسي وإليهم كان يرجع الفضلُ في كل الانتصارات التي أحرزها ملوكُ الفرس، ومن ثم أخذ الفرس يفيدون — على أحسن وجه — من علاقتهم بالعالم الإغريقي في فُنُون الحرب، فمنذ القرن الخامس حتى القرن الرابع الميلادي نجد أن الفنون الحربية الإغريقية، قد أحدثت انقلابًا عظيمًا، وذلك من تكتيكات مركبة وفنون حربية جديدة قد حلت محل الفنون الحربية القديمة البسيطة الكلاسيكية، وذلك منذ أصبح الجندي أو الضابط يتخذ الجندية حرفة، وقد أُضيف إلى ذلك شيءٌ آخرُ، وذلك أنه منذ الحرب البلو بونيزية (٤٣١ق.م) حتى فتوح «الإسكندر» المقدوني كانت «هيلاس» خارجة من حروب داخلية واضطرابات وثورات

— اللهم إلا فترات سِلْمٍ قليلة — وقد كانت الأحوالُ السياسيةُ والاجتماعيةُ سببًا في ازدياد الفوضى، ومن ثم ازداد — باستمرار — عددُ جيشه المهاجرين والمطرودين، وكذلك ازداد عدد المخاطرين، وكان على أثر ذلك التطوُّر أن ازداد لزامًا عدد الراغبين في الأسفار، كما ازداد عدد القراصنة.

وقد كان فراعنة «مصر» يعتمدون بدرجة أكثر من الدولة الفارسية على الجنود الإغريقية المرتزقين؛ فقد كانت أَهَمُّ أعمالهم الحربية منذ القرنين السابع والسادس؛ تتوقف على الجُنُود الأجانب، يُضاف إلى ذلك أن قيمة جُنُود المشوش في النصف الثاني من القرن الخامس — ولم يكونوا قد نازلوا العدو حتى الآن مرة واحدة — قد ظهرت.

ولا نعرف قط إلى أي حد قد استعمل كل من الفراعنة «أمير تايوس» الثاني و«نفرتيس» الأول و«بساموتيس» الجنود الإغريق المرتزقين، على أن هؤلاء الفراعنة لم يستعملوا فِرَقًا عظيمة من الجيوش قط؛ وذلك لأن مواردهم كانت محدودة، وقد كان المؤسسُ الحقيقيُّ للجيش الإغريقي الذي حارب أعداء «مصر» هو الفرعونُ «أوكوريس» وهو الذي دعا في عام ٣٨٩ق.م القائد الأثيني «خابرياس» ليكون في خدمته، وقد كانت جهودُ «خابرياس» بوصفه منظمًا للجيش وقائدًا في الميدان يرجع إليها الفضلُ في كل شيءٍ في إخفاق أول حملة فارسية ضخمة عام ٣٨٥–٣٨٣ق.م على «مصر».

وهذا يدلُّ أحسنَ دلالة على سبب طلبهم إبعاد «خابرياس» عن «مصر» عندما شرعوا في القيام بحملتهم الثانية على أرض الكنانة، ومنذ هذه اللحظة أخذ الإغريقُ يلعبون أَهَمَّ دورٍ في الحروب التي كان يشترك فيها الفرعون، ومما يستحق الإشارة إليه هنا أن آخر حرب عظيمة قامت بين «أرتكزركزس» المسمى «أوكوس» وبين الفرعون «نقطانب» الثاني كانت في كل أطوارها الحاسمة — في كلا الطرفين — تتوقف على الفرق الإغريقية التي كانت تحارب فيها؛ إذ كان الجُنُودُ الفُرس والمصريون هناك مجرد عَدَدٍ لا قيمةَ لهم، ويظهر من أول نظرة من حيث الموقف الحربيِّ في العهد الساوي أنَّ الجُنُود الأجانب كانوا هم النواةَ الصالحة في الجيش المصري، وهذا الموقف بعينه نجده مكررًا في القرن الرابع قبل الميلاد، غير أنه مع ذلك كانت توجدُ فروقٌ عميقة الأثر.

أولًا: من حيث قيادة الجيش نجد أن كل الفرق الأجنبية كانت برياسة القائد الأعلى المصري، ولم نجد أي أجنبي أو أي إغريقي قد قام بدور رئيسي في عهد الأسرة السادسة والعشرين، ولكن نجد الآن أن «خابرياس» الأثيني كان وزير الحربية والقائد الأعلى للجيش المصري، ولم يكن مرءوسًا لأحد قط إلا للفرعون «أوكوريس» نفسه، وبعد مرور عشرين

عامًا على ذلك نجد أن القائد «أجيسيلاس» قد غضب غضبًا شديدًا على الفرعون «تاخوس»؛ وذلك لأن الأخيرَ قد حفظ لنفسه القيادة العُليا للقوة المحاربة في «مصر»، وترك لأجيسيلاس قيادة الجُنُود الإغريق وحسب، في حين كان «خابرياس» الذي كان في ذلك الوقت قد جاء من جديد إلى «مصر» ليقوم بقيادة الأسطول، وفي عهد الملك «نقطانب» الثاني كان القائد «ديافونتوس» الأثيني والقائد «لامياس» الأسبرتي هما القائدان الرئيسيان في الجيش المصري، وفي الحرب التي قامت في عام ٣٤٠ق.م في «فنيقيا» على الفُرس كانت الفرقة المصرية التي أُرسلت لمساعدة الفنيقيين بقيادة الروديسي «منتور»، وفي الحملة النهائية التي قام بها «أوكوس» على «مصر» كانت المراكز الرئيسية موكلة للجنود الإغريق، فقد وكل أمر الدفاع عن «بلوز» للقائد الإغريقي «فيلوفرون Philohron»، ووكل الدفاع عن الحصن الذي عند مصب النيل إلى القائد «كوير كليناس Koer Klinias» وهو الحصن الذي انقض منه كل من «نيكوستراتوس Nikostratos» و«أريستوزانس Aristozanes» على «مصر».

وهذه الأحوالُ ترتبطُ ارتباطًا وثيقًا مع حقيقة أُخرى، وهي أنه في عهد الفرعون «بسمتيك الأول» وأخلافه كان الإغريقُ يأتون إلى «مصر» كأفرادٍ لم يكن لهم مكانٌ في بلادهم يَأْوُون إليه؛ ولهذا السبب كانوا مضطرين أنْ يَجِدُوا لأنفسهم وطنًا جديدًا في البلاد الأجنبية، ومن ثم نجد أن الجُنُود الأجانب في العهد الساوي كانوا يندمجون في البلاد المصرية، وذلك عندما كانوا يقطنون في مستعمرات حربية على غرار جنود المشوش بالضبط، وهذا يعني مجرد امتداد لا تغيُّر في النظام الذي كان قائمًا، وبهذه الكيفية وجد الإغريق أن ما يبحثون عنه هو مستعمراتٌ يسكنونها. هذا، ولن يغير هذا الموقف مجيء تجار إغريق لمصر من حيث المبدأ.

وقد كانت حالة الجُنُود المرتزقة في القرن الرابع تختلف عن ذلك؛ وذلك لأن المهاجر الإغريقي في ذلك الوقت لم يكن يبحث عن أرض يستوطنها، بل كان يهاجر في طلب المال، ففي المكان الذي كان يجد فيه الربح الوفير كان يَحُطُّ رحالَه ليقدم خدماته، والواقعُ أنهم كانوا يُهاجرون من بلادهم لأسبابٍ مختلفةٍ، أَهَمُّها طلب الرزق وكسب القوت، ويرجع سبب ذلك إلى الحروب الداخلية التي كانت مستمرة مدة طويلة في بلاد الإغريق.

هذا بالإضافة إلى أن الحالة الاجتماعية في تلك البلاد — الضيقة المساحة — كانت مِن أهم الأسباب التي دعت إلى هجرة هؤلاء الجنود المرتزقين، وقد كان مطمح آمالهم أن يعودوا إلى بلادهم بعد الحصول على الثروة مِن أي بلد يعملون فيه لمدة محددة، والأمثلة على ذلك

لا تعوزنا، فلدينا القائدُ العظيم «خبرياس» الذي جاء إلى مصر في شتاء ٣٨٠–٣٧٩ق.م، وذلك عندما أعلنتْه أثينا بتوقيع العقاب عليه إن هو بقي فيها.

هذا، ولدينا مثالٌ آخرُ، وهو ملك أسبرتا «أجيسيلاس» الذي استأجر نفسه بمثابة جندي مرتزق للملك نقطانب، ثم دعت الأحوال في بلاده — فيما بعد — إلى عودته فورًا، وكان قد وصل وقتئذٍ إلى ما يرغب فيه من مال وفير جمعه، فعاد إليها ولم ينفع رجاء الملك نقطانب الثاني في جعله يمكث يومًا واحدًا أكثر من اليوم الذي أزمع السفرَ فيه إلى بلاده، والواقعُ أننا نرى في هذه الفترة مجيءَ جُنُود ومغادرة آخرين باستمرار في الجيش الإغريقي الذي كان يخدم في مصر، ومن ثم كان لا بد — على الأقل — مِن تجنيدِ جُزْءٍ جديد في كل حربٍ هامة، تقوم بين مصر والفرس، وعلى ذلك كانت المدة الطويلةُ اللازمةُ لتجهيزِ كُلِّ حملة يقومُ بها الفرسُ على مصر لها أهميةٌ خاصةٌ عند الفرعون؛ ليكون على استعداد لملاقاة عدوه.

وهذه الأحوالُ كان لها تأثيرٌ على الفرعون نفسه، فلقد كان لجماعة الضباط المصريين أثرهم في الجيش في العهد الساوي، كما أنَّ الجنود الأجانب كانوا ذوي فائدةٍ عظيمة لملوك الأسرة الساوية؛ إذ كان يُرتكز عليهم في استتباب الأمن في داخل البلاد، وبذلك نالوا حظوةً عظيمة لدى فراعنة هذه الأسرة.

ولكن الحال كانت غير ذلك في العهد الأخير من الحكم الفرعوني، فالعلاقاتُ وقتئذٍ لم تكن بين الجُنُود المرتزقة والفرعون، بل كانت بينهم وبين رئيسهم المباشر الذي كان يقودُهُم إلى ساحة القتال، وإذا كان هؤلاء المرتزقة قد حاربوا مع «تاخوس» أو نقطاب الثاني أو في صف أعدائهما الذين كانوا يناهضونهما؛ فإن ذلك كان يتوقفُ فقط من جهة الجُنُود المرتزقة على أجيسيلاس أو على من يقدم لهم أحسن أجر، ولا نزاع في أننا نجد في ذلك السبب أن المملكة الفرعونية التي قامت في القرن الرابع قبل الميلاد كانت غير مملكة الأُسرة الساوية التي كانت راسخة القدم في أحوالها الداخلية؛ إذ كان يئول عرشها عند تغير الحاكم لمن في يده القوة والمال.

ومِن ثم قامت صعوبةٌ مثل التي وُجدت في المملكة الفارسية، التي كانت كالمملكة المصرية في استخدامِ جُنُودٍ مرتزقين بصورة غير مستديمة، وتفسير ذلك أن الإغريق الذين كانوا يعملون في الجيش المصري في العهد الساوي؛ كانوا يتسلمون أُجُورهم أراضي ومحاصيل طبيعية، وكانت مصر تمنح هذه الأشياء لوفرتها فيها، ولكن إغريق القرن الرابع قبل الميلاد كانوا يريدون تسلُّم أُجُورهم نقدًا، ويرجع السببُ في ذلك إلى أنهم كانوا

يُريدون — عند انتهاء مدة خدمتهم وعودتهم إلى وطنهم في بلاد الإغريق — أن يكون هذا الأجرُ النقديُّ تحت تصرُّفهم؛ أي كانوا يريدون أن يتسلموا أُجُورهم بالنقد الذهبي، الذي كان مستعملًا في بلادهم، ولكن مصر كانت منذ القدم تُعتبر أرضَ المحاصيل الزراعية التي كانت وسيلتها الرئيسية في التعامل، ولم يكن النقدُ فيها مستعملًا، وهذه كانت نفسُ وسيلتِهِم في التعامُل في مصر، في العهد الفارسي؛ وذلك لأن الفُرْس — في خلال حُكمهم لمصر — لم يُغيروا شيئًا يلفت النظر في أُمُورها الداخلية من حيث التعامل، حقًّا عُثر في مصر على عدد من كنوز العملة الإغريقية في خلال نهاية القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد؛ غير أن هذه الكنوز كانت بقدر ما وصلت إليه معلوماتُنا تحتوي على نُقُودٍ من الفِضَّة الخالصة التي يتعامل بها على حسب الوزن، (راجع: J. Grafton Milne, The Beni-Hassan Coin-hoard. J.E.A. 19, 1933, p. 119–121; 25 (1939), p. 178).

والواقعُ أنَّ دَفْعَ أُجُور الجنود المرتزقين بقِطَع من المعدن الثمين المعلومة الوزن لم تكن — قَطُّ — أَمْرًا موفقًا؛ إذ أقل ما يُقال عن عدم صلاحية هذه الطريقة إنها كانت غير عملية. والآن يتساءل الإنسانُ كيف أمكن حَلُّ هذه المسألة؟ والحقيقةُ أنه قد وُجدتْ في «منف» قطع نُقُود كثيرة، تحمل صورًا وكتابات هيروغليفية، وكانت هذه النقودُ تحملُ على كِلا وجهيها علامتين هيروغليفتين، وهي «نب نفر»؛ أي الذهب الجميل، وأحيانًا كان يُرسم على وجهٍ واحدٍ من النقد علامةٌ واحدةٌ، وهي صورةُ حصانٍ يَثِبُ، وتنطق بالمصرية «نفر» = أي «طيب» أو «حسن».

وتأريخُ هذه النقودُ بالقرن الرابع قبل الميلاد ليس فيه أيُّ شك، وذلك عندما يعوزُنا أي مستند ظاهر يدلُّ على تاريخ ضربها، وقد اقترح «مسبرو» أنَّ مثل هذه النقود قد ضُرِبَ في عهد الملك «تاخوس»، ومن ثم يُمكننا أن نؤكد أن فراعنة القرن الرابع قبل الميلاد قد بدءوا يضربون النقود لدفع أُجُور الجُنُود الإغريق المرتزقين، وقد بقي كل الشعب المصري كما كان من قبل يتعاملُ بالمبادَلة كالمعتاد غيرَ أنَّ هذه النقود التي ذكرناها هنا لم تكن الوحيدةَ من نوعها التي ضربتْ في مصر، فقد وُجد في المتحف البريطاني نقدٌ من الذهب وزنه دريكا، عليه صورة الإلهة أَثينا على أحد وجهيه، وعلى الوجه الآخر صورة بومة، ومع ذلك الحُرُوف الهجائية «ت ا و»؛ أي الفرعون «تاخوس».

وفضلًا عن ذلك؛ وجدت عدةُ قطع نقود من التي تساوي أربعة درخمات في مصر، وأخيرًا عُثر في بني حسن في مصر الوسطى على كنزٍ غريبٍ في بابه يحتوي على أربعةٍ وخمسين قطعة نقد من ذوات أربع الدرخمات، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنها كلها ضربتْ

في مصر مثل النُّقُود السالفة الذكر في عهد الملك «تاخوس»؛ ففي هذا الوقت إذا كانت تضرب نقودٌ في مصر على الطراز الإغريقيِّ الخالص.

ومِنَ المحتمل أن يحق للإنسان أن يضيفَ الاقتراحَ التاليَ، وهو أنَّ النقود التي عليها النقوشُ الهيروغليفيةُ كان مثلها بالضبط كمثل النقود المضروبة في بلاد اليونان؛ أي لم تكن مصكوكة لمصر، بل كانت مصكوكةً لبلاد الإغريق، وعلى ذلك يَميل الإنسان إلى الظن أن النقود المصكوكةَ بالإشارات الهيروغليفية كانتْ أقدمَ، والظاهرُ أنها لم تكن مقبولة؛ أي أنَّ الإغريقَ لم يكن في استطاعتهم أن يتعاملوا في بلادهم بمثل هذه القطع الغريبة على مواطنيهم؛ إذ كانوا لا يعتبرونها قانونية، ويُعَاضِدُ هذا الرأي أنَّ هذه القطع النقديةَ لم يوجد منها قَطُّ خارج مصر، وعلى ذلك فإن الجزء الأعظم منها قد صُهر؛ لأنه لم يكن صالحًا للاستعمال في المعاملة وأُفيد منه في أغراضٍ أُخرى، ومن أجل ذلك أمسك الفراعنةُ عن ضرب النقود بالطابع المصري، وأخذوا يضربونها على الطراز الإغريقي الأصيل؛ إرضاء للجنود المرتزقين.

وإذا كان هذا الاقتراحُ قد أصاب كبدَ الحقيقةِ فإن النقود التي تحمل طابعًا هيروغليفيًّا تكون قد ضُربتْ في الزمن الذي سبق «تاخوس»؛ أي في عهد «أوكوريس» ونقطانب الأول، على أنَّ ضرب النقود مهما كان شكلها يتضمنُ مقدمًا معالجة موضوع آخر، وذلك أنَّ ضرب النقود كان يحتاج إلى معادنَ ثمينة غير أنَّ الوقت الذي كانت تُعَد فيه مصرُ أعظمَ بلاد منتجة للذهب في العالم القديم قد وَلَّى وانقضى منذ زمن بعيد، وقد كانت هذه الشهرةُ التي كانت تتمتعُ بها مصرُ يرجع الفضل فيها إلى مناجم الذهب في بلاد النوبة (راجع: مصر القديمة الجزء الثاني).

وهذه المناجمُ كانتْ قد نُزعت من يد مصر منذ مائة سنةٍ مضتْ، وفي القرن الرابع قبل الميلاد لم يكن لفراعنة مصر أيُّ نُفُوذ على هذه المنطقة قَطُّ، وإذا حدث أنَّ هذه المناجم حُفرَت فإنها — بوجهٍ عامٍّ — كانت تحتاج إلى تعب كبير ومشاقَّ جَمَّةٍ؛ بسبب طُرُق التجارة بين هذه البلاد ومصر، وكان المنجمُ الوحيدُ الذي تحت تصرُّف المصريين في القرن الرابع قبل الميلاد هو الذي يقعُ في صحراء العرب في الجهة الواقعةِ شرقي «قفط» و«إدفو»، وهذا المنجمُ لم يكن غنيًّا بالذهب،[1] وقد كان الموقفُ بالنسبة للفضة أسوأ؛ وذلك أن الفضة

---

[1] وقد استولى بطليموس الثاني على بلاد النوبة؛ لأجل أن يستخرج من مناجم وادي علاقي الذهب، قاصدًا بذلك إعادةَ السيادة المصرية، والمشاق التي تفوق حَدَّ المألوفِ التي بذلها البطالمةُ في مناجم الذهب النوبية

لم تكن توجد في مصر إلا بقلة؛ إذ كانت تُستورد من آسيا الصغرى بكميةٍ قليلة، وكانت التجارةُ فيها قد انقطعتْ عن مصر لأسبابٍ سياسية.

هذا، وكان في كُلٍّ من العصر الساوي والعصر الفارسي تصديرُ الغِلال المصرية عظيمًا في مقابل النُّقُود الإغريقية التي كانت تُستعمل في مصر بمثابة مادة غفل، قد انقطعت في القرن الرابع قبل الميلاد تقريبًا، وقد استولت أثينا على هذه التجارة في القرن الخامس واحتكرتها لنفسها، وكانت تجلب الآن معظم غلتها من بونتوس (J.E.A. 25 (1939), p. 177–183)، أما ما كانت تتسلمُهُ الحكومةُ مِن ضرائبَ، فكان يجبى من اقتصاديات البلاد الطبيعية، وهنا قامتْ صعوبةٌ عظيمةٌ أمام رِجَال القرن الرابع قبل الميلاد كان يتوقف عليها مصيرُ مصر.

وما لدينا مِن مَصَادِرَ يسمحُ لنا أن ندرس المشروعَ العظيمَ الذي قام به الملك تاخوس في بلاد سوريا لِضَمِّهَا وتأليف إمبراطورية عظيمة تُحاكي إمبراطورية تحتمس الثالث، وقد تَحَدَّثْنَا فيما سبق عن التجهيزاتِ الحربية الجَبَّارة التي قام بها هذا الفرعون، أما السياسةُ الماليةُ الخاصةُ بهذا المشروعِ وما اتُّخذ فيها من إجراءاتٍ فتتلخص في الأُمُور الآتية:

رُوي عن أرسطو (راجع Oikonomika II, 2, 25 p. 1350 b.L. 33 ff; 1351 a, L. 1, ff; Kienitz Ibid. p. 119):

إن الملك تاخوس قد استعمل لحملته الحربية على سوريا الذهب، ونفذ نصائح القائد «خابرياس» باتخاذ الإجراءات الآتية لجمع المال اللازم:

أولًا: فرض ضريبة غلة.

ثانيًا: فرض ضريبة رءوس.

ثالثًا: فرض ضريبة على بيع وشراء الغلة وتُقدر بفلسين عن كل أردب؛ أي فلس من البائع وفلس من الشاري.

رابعًا: فرض ضريبة مقدارُها عشرة في المائة على كل سفينة تجارية تدخل الموانئ المصرية؛ أي ضريبة دخولية.

تُشيرُ إلى قِلَّة أهمية المناجم التي في الصحراء الغربية في ذلك العهد (راجع: M. Rostovtzeff, Social and Economis History of the Hellenic world I, p. 382). ولكن من البدهي أن مناجم وادي علاقي لم تكن كافية لسد حاجة الذهب الذي يحتاجه البطالمةُ (راجع: Ibid. p. 381–3).

خامسًا: فرض ضريبة مقدارها عشرة في المائة على مصنوعات المصانع ويُستثنى من ذلك صناعاتُ أصحاب الحِرَف.

سادسًا: مصادرة كل المعادن الثمينة غير المضروبة في كل البلاد، وذلك مقابل تعويض أصحابها مِن دَافِعِي ضريبة الأطيان، (وهذه النقطةُ قد وضحت ببيانٍ ذَكره المؤرخُ بولونيوس)؛ فقد نَوَّهَ كذلك عن مصادرة المعادن الثمينة قائلًا عنها: إن التعويض لا بد أن يُقيد لحساب صاحب هذا المال من الضرائب المُستحَقَّة عليه؛ أي أنها لا تُدفع إليه وقت الطلب.

سابعًا: يمكن الفرعون بسبب قيام الحرب أن يُوقف دفع المعونات التي يدفعها لصيانة المعابد ومعاونة الكهنة، ولهذا السبب كذلك يمكن الفرعون أن يأخذ من الكهنة قيمة هذه المعونة ذهبًا، وفضلًا عن ذلك يمكن للفرعون بسبب هذه الحرب أن ينزل عن العشر لمصاريف المعابد وتخصص تسعة الأعشار الباقية للحرب، ومِن ثم نفهم أنَّ الفرعون «تاخوس»، وقد اتخذ إجراءاتٍ صارمةً تجعل المعابدَ تُوَرِّدُ كُنُوزَها للحكومة.

يُضافُ إلى ذلك ما قِيلَ إن القائد «خبرياس» كان لديه جنود مائة وعشرين سفينة، ولكنه سَرَّحَ نصفهم، وقد اضطر إلى هذا العمل؛ ليكون في مقدوره تموين الباقين مِن رِجَالِ الأُسطول بصورة مرضية، (راجع: Pseudo-Aristotles Oikonomika, 11, 2, 1353 a. L. 19 ff).

والآن يتساءل المرء كيف نتناول بحث كل نقطة من هذا التقرير؟[٢]

أولًا نعلم من لوحة نقراش التي كُتبت في السنة الأُولى مِن عهد نقطانب الأول أنَّ العشرة في المائة التي كانت تُجبى بمثابة دخل، وكذلك العشرة في المائة التي كانت تُحَصَّل ضريبة على الصناعات كانتا قائمتين في عام ٣٨٠ق.م، ففي هذا الوقت كان الفرعونُ يهب بعض دخل ضرائب الدولة، من ذلك عشر دخل ما كان يصل من موانئ بحر إيجه، وعشر الضرائب التي كانت تُجبى من مصانع نقراش للإلهة نيت صاحبة سايس، ولكن من حيث

[٢] (راجع عن ذلك: Erman-U. wilcken, Die Naukratisstele A.Z. 38, (1900) p. 127–135; k, Riezler, Das Zweite Buch der pseudoarisotelischen Oikonomika Diss. München, Berlin (1906) p. 27-28 b. s. w. Finanzen und monopole im alten Griechenland. p. 31-32; W. Schur, Klio 20 (1926) p. 282–286; Ernst meyer, A.Z. 67 (1931) p. 68–70 & R.E., 2 reihe, IV 2. p. 1992-3 “Tachos”; J. Graftor-Milne J.E.A. 19, (1931) p. 119–121).

ضريبة المباني وضريبة الرءوس وضريبة البيع والشراء؛ فإن هُنَاك شَكٌّ كبيرٌ إذا كان ذلك دخلٌ جديدٌ فرضه الملك «تاخوس»، ولكن مِن المحتمل أنه زاد فيها وحسب، أما النُّقْطَتان السادسة والسابعة في هذا التقرير، وهما مصادرةُ المعادن الثمينة التي يَمْلِكُها الأفرادُ، ونزع أملاك المعابد فقد اتخذ فيهما قرارٌ فاصلٌ، وذلك أن الإجراء الذي عمل هنا كان يتطلبُهُ الموقفُ الحرجُ الذي كانت فيه البلاد وقتئذٍ.

غير أن طريقة تنفيذ هذا الإجراء تدلُّ على أن الذي قام به هو القائدُ «خبرياس»، كما يُشير إلى ذلك ما جاء نقلًا عن أرسطو Pseudo Aristotles، والواقع أن كلًّا من الإجراءين كان غرضُهُ واحدًا؛ أي أكبر كمية مُمْكِنة من المعادن الثمينة في أَقْصَر وقتٍ ممكن؛ وذلك لأن مشروع غزو بلاد سوريا كان ممكنًا فقط إذا جُمع عددٌ كافٍ من الجُنُود الإغريق المرتزقين لهذا الغرض، وهم الذين كانوا يتطلبون أُجُورًا باهظةً، ولا شك أنَّ النُّقُود التي ضربها الملكُ «تاخوس» كان معظمُها من المعادن الثمينة التي ذكرناها هنا، على أن الحُصُولَ على نقودِ المعابد الأثينية والصور أمرٌ يدلُّ — من جديد — على الدور الذي قام به خبرياس في هذا الإصلاح الاقتصادي.

ولا شك في أنَّ الاستيلاءَ على المعادن الثمينة التي يَمْلِكُها الأفرادُ مقابل تعويضِ أصحابها كان يُعتبرُ إجراءً صحيحًا وهدفًا مفهومًا، اقتضته ظروفٌ قاهرةٌ لها ما يبررها، وذلك على الرغم مِن أنَّ هذا الإجراء قد سبَّبَ بعضَ الامتعاضِ في البلاد، وقد كان الاستيلاءُ على ممتلكات المعابد أخطرَ إجراءٍ قام به الفرعون، وذلك أن مثل هذه المعاملة لرجال الدين تَتَنَافَى تمامًا مع التقاليد الفرعونية التي سبقتْ عصر تاخوس في خلال القرن الرابع قبل الميلاد، على أنَّ إقبالَ «تاخوس» على مثل هذا العمل كان يدل — على الرغم من ذلك — على حَرَج موقفه وقتئذٍ، والواقعُ أنَّهُ لم يكن لديه وسيلةٌ للقيام بتنفيذ مَشْرُوعِهِ في بلاد سوريا إلا باتخاذ إجراءات صارمة، ومع ذلك فإنه خاب في هذه الإجراءات، وعندما قامت الثورة في مصر التي كان من جرائها سقوطُهُ، وتولى «نقطانب» الثاني عرش الملك؛ فإنا نجد هنا تفسير هذا السقوط؛ إذ أَقَلُّ ما يُقال في هذا الصدد: إن الكهنة قد جعلوا كُلَّ نُفُوذهم القوي في كفة الملك المغتصب.

وقد عَلَّقَ على هذا الحادث بعد انقضائه بمائة سنة كاهنٌ بقوله: وقد اصطدم اليسارُ مع اليمين، وذلك يعني: تصادُمَ الشر مع الخير، فكلمةُ اليمين هنا تعني مصر كما تعني كلمة اليسار الأراضي الأجنبية، (راجع: Kientz, Ibid. Chapter 7 & p. 97, Note 6).

ومن هذه الحالة التي وصفناها يستنبط الإنسانُ مجرى سياسة الفراعنة في خلال القرن الرابع قبل الميلاد؛ وذلك أن الفرعون تاخُوس كان يُريد أن يجعل لموطئ قدميه مكانًا ثابتًا في آسيا، وأن يُعيد لمصر مجدها الغابر وأملاكها الشاسعة هناك، على أنه لا الفرعون «أوكوريس» ولا الفرعون نقطانب الأول قد فكرا بانتصاريهما في عامي ٣٨٣ و٣٧٣ق.م مثل تفكير «تاخوس»، أما نقطانب الثاني فإنه في عام ٣٥٠ق.م — على ما يظهر — قد أراد أن يستولي على فلسطين وفنيقيا وسوريا، ومن المحتمل كذلك قبرص، ولكن بدلًا من ذلك فإنه أرسل عددًا من الأسرى الفرس الذين وقعوا في قبضته إلا أربعة آلاف رجل.

والواقعُ أنَّ الدولةَ الفرعونيةَ كانتْ مِن الوجهة الحربية في القرن الرابع قبل الميلاد، وكذلك من الوجهة الاقتصادية ومن حيث تكوين سياستها الداخلية؛ لم تكن على استعداد للقيام بهجوم حربي واسع النطاق. والواقع أن سياسة الفراعنة في تلك الفترة كانت التكتُّل مع كُلِّ بلاد شرقي البحر الأبيض المُعَادِينَ لبلاد الفُرس، ومع ذلك فإنه على الرغم من ذلك لم يجسر أيُّ ملك من فراعنتها أنْ يَتَخَطَّى الحدودَ الشماليةَ لبلاده، بل اتخذوا خُطةَ الدفاع، اللهم إلا الملك «تاخوس» الذي سار بجيشه على سوريا وحاول الاستيلاء عليها؛ غير أنَّ الثورة التي قامت في قلب البلاد قضتْ على آماله وأفقدتْهُ عرش المُلك.

المباني الدينية في عهد فراعنة القرن الرابع قبل الميلاد

لاحظنا فيما سبق تَعَدُّد قيام الثورات في مصر في خلال القرن الرابع قبل الميلاد بسبب تَوَلِّي عرش الملك، فلا نكادُ نرى مَلِكًا استمر على عرشه حتى مات حتف أنفه، وقد كان السببُ الأساسيُّ لهذا الشر المستطير في البلاد يرجع إلى أنَّ ملوك هذا العصر لم يكن لديهم جيشٌ قائمٌ يُعتمد عليه عند هبوب أيَّةِ ثورة، ومن أجل ذلك كان الفراعنةُ في مثل هذه الحالةِ السيئةِ يبحثون عن قوة يركنون إليها إذا ما قامت ثورةٌ عليهم، أو نشبت بينهم وبين جيرانهم حربٌ، وتدلُّ الأحوالُ على أن الفراعنة قد وَجَدُوا ضالتهم المنشودةَ ودرعهم القوي في رجال الدين الذين كانوا أصحابَ الكلمة العُلْيا في مصر في كل عُصُور تاريخها تقريبًا.

ومن أجل ذلك كان الفرعون كُلَّما وَجَدَ مركزَه حرجًا وعرشه في خطر أخذ في إقامة المعابد وحبس الأوقاف عليها؛ إرضاء للكهنة، وبذلك كان في مقدوره أن يكسب المساعدة الأدبية، بل والمادية التي كان ينعم بها رجالُ الدين في البلاد، وتلك كانت عظيمة إلى حد بعيد جدًّا عند قيام ثورة عليه، يضاف إلى ذلك أنه في كثير من الأحوال كان المغتصب للعرش يخفي مقاصده وأطماعه تحت ستار الدين، والواقع أن ما ذكرناه عن تنصيب الكهنة وحالة تفكيرهم في العهد الساوي وما كان لهم من قوة وسلطان ينطبق تمام الانطباق كذلك على هذه الطائفة في خلال القرن الرابع قبل الميلاد، وعلى ذلك كان على الفرعون أن يراعي رغائبهم ويحترم وجهة نظرهم ومقاصدهم، سواء أكانت حسنة أم سيئة.

ولا بد لنا هنا أن نتحدث — باختصار — عن مصادر هذه المسألة، ومن الغريب أن الكُتَّاب الإغريق الذين نَدِينُ لهم بكل ما نعرفه عن السياسة الخارجية المصرية لهذا العهد، وكذلك عن الحروب التي شَنَّهَا الفراعنةُ خارج البلاد وداخلها؛ قد التزموا الصمتَ التامَّ

عن هذا الموضوع؛ في حين نجد على العكس أنَّ النقوشَ الهيروغليفية قد قَدَّمَتْ لنا بعضَ المعلومات في هذا الصدد، وبخاصة عندما نجد في نُقُوش المعابد ما يُحَدِّثُنا عن اهتمام الملك وعنايته بالآلهة.

وأولُ فرعون حكم مصر بعد طَرْدِ الفُرس في عام ٤٠٤ق.م هو أمير تايوس الثاني، ولم يترك لنا أيَّةَ مبان تذكارية، وما ذلك إلا لأن موارده كانت قليلة.

وفي عهد خَلِفه الفرعون «نفريتيس الأول» نجد بعض الانتعاش المتواضع؛ من حيث إقامة المباني الدينية، وبخاصة في معبد الكرنك — كما ذكرنا آنفًا — على أن أول ما يلفت النظر بصورة هامة من حيث إقامة المباني؛ ما شاهدناه في عهد الملك «بساموتيس»، وقد كان مدعيًا للمُلك عندما قامت الاضطراباتُ والثورةُ بعد موت «نفريتيس الأول»؛ إذ الواقعُ أنَّهُ في مُدَّةِ حكمه القصيرة التي لم تتجاوزْ عامًا قد وَجَدَ من الوقت والمال لإقامة مبانٍ تلفتُ النظر في معبد الكرنك، وقد كان غرضُهُ من ذلك أن يكسب لجانبه طائفةَ الكهنة هناك، وسبب ذلك أنه قد وجد أنَّ ذلك له أهميةٌ كُبرى؛ إذ بهذه الوسيلةِ يُمكنُهُ أن يضم إلى جانبه أجنادًا كثيرين لمحاربة المناهضين له في تَوَلِّي عرش الملك.

أما الفرعون «أوكوريس» الذي خلفه على العرش؛ فقد ترك — بعد حكم دام ثلاث عشرة سنة — عدةَ مبانٍ في طُول البلادِ وعرضها، ويَدُلنا على ذلك ما تركه مِن نُقُوش في محاجر طرة والمعصرة في السنين الأُولى مِن حُكمه بوجهٍ خاص، وذلك عندما كان عرشُهُ مهددًا من جانب الذين كانوا يَدَّعُون وراثةَ العرش، ولا بد أنْ نضع نُصْبَ أَعْيُنِنَا أنه لم يقم ببناء هذه المباني الدينية وحسب، بل كان يحبسُ عليها الأوقافَ والرجال والماشية؛ وغير ذلك مما يلزم لخدمة المعابد وإقامة الشعائرِ فيها.

أمَّا في عهد الأُسرة الثلاثين فنَعرفُ الكثيرَ عن المباني الدينية التي خَلَّفَها لنا الفراعنةُ، فَفِي صيف وخريف عام ٣٨٠ق.م قضى نقطانب الأول على آخر مُلُوك الأُسرة التاسعة والعشرين، وأَخَذَ في يده مقاليدَ الحُكْم في أرض الكنانة، وسَارَ بها نحو المجد، ولم تَمْضِ إلا بضعةُ أَشْهُر وأسابيع على تَوَلِّيهِ الحُكم حتى أصدر مرسومًا ملكيًّا دَوَّنَه على اللوحة المعروفة بلوحة نقراش المشهورة وتتمدح نقوشُ هذه اللوحة بقوة هذا الملك بثرائه، وتُشيد بخدماته للآلهة والمعابد والكهنة، ثم تتحدث عن تَوَلِّي الفرعون الحُكْم باحتفالٍ عظيمٍ في سايس «صا الحجر» العاصمة القديمة لمُلُوك الأُسرَة السادسة والعشرين وتنصيب نقطانب في معبد «نيت»، ثم يأتي بعد ذلك المرسومُ الذي أُقيمتْ مِن أجله اللوحة، وقد قَرَّرَ فيه أن عشرةً في المائة من ضريبة دخل ميناء «هنون هنت» وعشرة في المائة من ضريبة النسيج

من كل المصانع التي في نقراش تنقل من ميزانية الخزانة العامة، وتُصبح وقفًا على الآلهة نيت ربة سايس، وبذلك يُصبح لها يوميًّا ثورٌ عظيمٌ وقربانٌ مِن النبيذ، ولا نِزَاع في أن تلك كانت حقًّا هدية ملكيةٌ عظيمةٌ، ويلفت النظر بوجه خاص أنَّ المتن في كلا الضريبتين اللتين خُصصتا للآلهة نيت، قد جاء فيه ذكرُ الذهب والفضة، ونلحظ في كلا الحالتين أن الموضوع خاص بالضرائب التي كانت تفرض على التجار الإغريق الذين كانوا يعيشون في مصر ويجلبون البضائع إليها من الخارج، وهؤلاء التجار كان في مَقْدُورِهِم أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم بالعملة الإغريقية.

وعلى الرغم مِن أنَّ هذه الضرائب كانت مصدر دخل للحكومة من المعادن الثمينة استعملتْها الحكومةُ عند الحاجة المُلِحَّة؛ فإن نقطانب الأول قد نقلها لكهنة نيت إرضاء لهم، وبذلك أصبح مَدِينًا بعرشه بدرجةٍ كبيرةٍ للقائد خبرياس وجُنُوده المرتزقين، ولم تكن الإلهةُ «نيت» المعبودَ الوحيدَ في «سايس» التي قدم لها الهدايا عند تَوَلِّيهِ عرش الملك مباشرة، بل نجد أن هذا الفرعون قد قَدَّمَ هدايا للمعبود «حور» في معبده بإدفو، وقد جاء ذكرُ ذلك في عهد الملك بطلميوس العاشر (سوتر الثاني) كما وَضَّحْنَا من قبل، ومن ثم نجد أنَّ السنة الأُولى مِن عهد الملك نقطانب الأول قد لعبت دورًا خاصًّا في حياته.

إذ الواقعُ أنَّ هذا الفرعون قَدْ قَدَّمَ هدايا عظيمةً من الأرض في مقاطعتَي باتيريس (الجبلين) وإدفو، وهذه الأراضي التي وهبها كان بعضها قد انتُزِع من أملاك عظيم مناهض يُدعَى أحمس، (راجع: Brugsch, Thesaurus III p. 538, Pl. 1, 9 & p. 551).

وعلى الرغم من ذلك فإن الأراضي المُهداة قد بقيت ملحوظة، وتظهر كيف أن الملك من الوجهة السياسية كان يهتم بالكهنة في الوجه القبلي، على الرغم مِن أهميةِ هذا الجُزء من البلاد بالنسبة له — إذا ما قُرن بالوجه البحري.

ويَدُلُّ ما لدينا مِن آثارٍ باقية على أنَّ نقطانب الأول قد غمر البلاد المصرية بفيض من المباني العظيمة، وهي التي أوردْنا بعضها عند التكلُّم على آثاره بشيء من التفصيل، ففي معبد «الفيلة» أقام بناءً للإلهة إزيس، ولا يزال بعضُهُ قائمًا حتى الآن، وهذا المعبدُ كان له شهرةٌ عظيمةٌ في العهد الإغريقي الروماني، بل امتدت هذه الشهرة إلى العهد المسيحي مدة عدة قرون.

وفي معبد الكرنك أقام «نقطانب الأول» بوابةً ارتفاعُها تسعة عشر مترًا في السور الذي يُحيط بمعبد آمون الكبير في اتجاه معبد الإله «منتو»، وقد أَتَمَّ هذه البوابة الملك «نقطانب الثاني».

هذا، ونجدُ لهذا الفرعون في «الكاب» و«طود» و«مدينة هابو» و«قفط» و«دندرة» و«العرابة المدفونة»، نواويس وقِطَعًا من أحجارٍ منقوشةٍ، ومناظر غير ذلك، عليها اسم هذا الفرعون.

هذا، وعثر في «الأشمونين» على لوحة مؤرخةٍ بالسنة الثامنة من حكمه، تُحدثنا عن إقامته مباني، وحبس أوقاف من السنة الرابعة إلى السنة الثامنة في ثلاثة أماكن مختلفة في أنحاء هذه المدينة.

هذا، وقد أقام بولهول لنفسه أمام البوابة التي أقامها رعمسيس الثاني في معبد الأشمونين، وفضلًا عن ذلك نحت لنفسه بعضَ تماثيل أكبر من الحجم الطبيعي. هذا، وقد عُثر له على آثار عدة في منف وضواحيها.

أما في الدِّلتا التي كانت تُعَد أَهَمَّ جزء في البلاد في هذا العهد، فإنها على الرغم مِن أن أرضها لم تحفظ ما أُقيم فيها من آثار لكثرة الرطوبة فيها؛ فإنها كانت مفعمة بمباني هذا الفرعون، ومن أهم الآثار التي خَلَّفَها لنا في الدلتا هذا الفرعون ناووس صفط الحناء المشهور، وهو قطعةٌ واحدةٌ من الجرانيت الأسود، أُقيم في معبد الإلهة «سبد» في بلدة صفط الحناء الحالية، وقد تكلمنا عنه.

وفي تأنيس في عام ١٩٤٦ كشف عن بقايا معبد للملك نقطانب الأول، وهذه المباني العظيمة كان الغرض منها أولًا سياسيًّا؛ أي أنها كانت بمثابة هدايا للكهنة، ليكونوا في جانبه وعونًا له عند اشتداد الخطوب وقيام الثورات، وذلك أنَّ الفرعون كان في استطاعته أن يأمل في حكم البلاد ويحافظ على عرش الكنانة الأيام المليئة بالثورات والاضطرابات بمساعدة رجال الدين الروحية.

والواقع أن هذا الموقف من رجال الدين كان هو نفس الموقف الذي وقفه الفراعنةُ في العهد الساوي، وذلك بأن يظهروا التُّقَى المتناهِي ليكسبوا لأنفسهم ميل الكهنة ومساعدتهم لهم لدرء خطر الغزو الفارسي، ومن أَجْلِ ذلك كان لزامًا على الفرعون ألا يترك تقديمَ أيِّ قُرْبَانٍ أو عمل أي شيء يكون من ورائه كسب رضاء الكهنة وجذبهم إلى جانبه، ومن ثم كان لزامًا على أيِّ مغتصب أن ينهج هذه السياسة؛ ولهذا فإن كل فرعون في هذه الفترة كان يجتهد أن يفوق سلفَه ليحفظ لنفسه عرش الملك بإرضاء طبقة الكهنة ورجال الدين عامة.

ولدينا — بوجه خاص — بعض كتابات في المحاجر مليئة بالمعلومات، من السنين الثالثة والرابعة والسادسة، من عهد الملك نقطانب الأول (وهي السنين ٣٧٨ و٣٧٧ و٣٧٥

من حكمه)، هذا بالإضافة إلى نشاطه في العمارة في الأشمونين (من السنة الرابعة إلى السنة الثامنة من حُكمه؛ أي من ٣٧٧–٣٧٣ من سني حكمه)، وهذا يدلُّ — بوجه خاص — على أنه في السنة التي كان قد أَتَمَّ فيها الشطربةُ الفارسيُّ فارنابازوس الحملة الثانية لغزو مصر؛ أي في عام ٣٧٣ق.م لم يحول كل موارده لتجهيز الجيش لمحاربة الفرس، بل على العكس خصص في تلك اللحظة الحرجة جزءًا قد يكون كبيرًا لإقامة المعابد.

أما الملك «تاخوس» الذي خلف نقطانب الأول على عرش الملك، فإنه لم يلتزم خُطَى والده من حيث إقامة المباني الدينية، حقًّا لدينا نقشٌ يقرر لنا فيه أنه قام بإصلاحاتٍ في معبد «خنسو» بالكرنك، هذا بالإضافة إلى بعض قطعٍ منقوشةٍ ونقش في محجر، مما يدل على أنه كان يقوم بمجهود متواضع في بناء المعابد، ولكن من جهة أُخرى نجد أن استيلاء الفرعون تاخوس هذا على ممتلكات المعابد كشف النقاب للكهنة عن سُوء نيته بالنسبة لهم ولمعابد الآلهة، وقد كان مِن جَرَّاء ذلك أنْ قامتْ ثورةٌ في البلاد أفضتْ إلى سُقُوطه، وما ذلك إلا لأنه أراد أن يخصص كُلَّ موارد البلاد لشئون الحرب والسياسة الخارجية.

وقد كان سقوطُهُ درسًا لخلفه نقطانب الثاني الذي اغتصب عرش البلاد في شتاء ٣٦٠–٣٥٩ق.م بعد أن حارب «تاخوس» ومدعٍ آخر منديسي، فقد سار على السياسة التي رسمها نقطانب الأول منذ بداية حُكمه في مصادقة الكهنة ومهادنتهم والعمل على ما يُرضيهم بكل الوسائل، وقد واتَتْهُ الفرصةُ في الحال لإظهار شُعُوره الديني؛ إذ بعد انقضاء بضعةِ أسابيعَ على إخماد الثورة مات في منف عجل أبيس المُقَدَّس، وقد كانت عبادةُ الحيوان في العصر المتأخر قد بُولغ فيها إلى حَدٍّ بعيد جدًّا، وقد كانت عبادة العجل أبيس تُعد في المرتبة الأولى بين عبادة الحيوانات الأُخرى؛ فقد اشترك الفرعون شخصيًّا في الاحتفال بدفن هذا العجل، وقد أمر الفرعون في نفس الوقت بإقامة معبد فاخر لهذا الإله، وقد حدث ذلك أثناء أن كان ملك الفرس «أوكوس» على رأس جيش لغزو مصر، وكان على المصريين وقتئذٍ أن يكونوا على أحسنِ ما يكونُ من الاستعداد الحربيِّ واليقظة لدرء هذا الخطر الفارسيِّ.

وبعد انقضاء عام على هذا الحادث؛ أي في باكورة عام ٣٥٨ق.م أدخل هذا الفرعون — على ما نعلم — عبادةَ العجل بوخيس في بلدة أرمنت التي تقع في الجزء الجنوبي من البلاد المصرية، وقد كان العجلُ بوخيس — حتى هذه اللحظة — يعتبر إلهًا محليًّا قليل الأهمية، غير أن نقطانب الثاني رفعه إلى مرتبةٍ أَعْلَى وجعله في صف ثور «أبيس» وثور «منفيس»، والواقع أنه لم يدفن ثور من ثيران «بوخيس» باحتفالٍ عظيم كالذي دفن في السنة الرابعة عشرة من عهد الملك نقطانب الثاني؛ أي في عام ٣٤٧ق.م.

وقد حذا «نقطانب الثاني» حذو «نقطانب الأول» في معبد الإله «حور» في «إدفو»، فقد أهدى له ضياعًا في مقاطعات «باتيرس» (السلسلة) و«أسنا» و«إدفو» وعلى ما يظهر كذلك في مقاطعة الفنتين، ومما يؤسف له جد الأسف أننا لا نعلم في عهد من منهما حدث ذلك، ونحن نعلم أن المعبد كان يملك ١٣٠٩ ½ أرورًا من الأرض المنزرعة، وهذا يعني ما لا يقل عن ٣٦ ½ كيلومترًا مربعًا في أراضي الصعيد، وعلى حسب الضريبة المفروضة كان قد خصص مقدار في المائة منها للمعبد.

وقد فاقت مباني نقطانب الثاني بعض الشيء مباني الملك نقطانب الأول، كما يلاحظ ذلك من قائمة المباني التي أوردناها لكل عند التحدث عن آثارهما، فقد بدأ نقطانب الثاني إقامة المعبد الكبير الذي خلفه لنا في الفنتين للإله خنوم رب منطقة الشلال، وقد عُثر فيه على ناووسٌ لم يتم نقشه بعد صنعه من قطعة واحدة، وفي «الكاب» أقام مباني، وفي «إدفو» أقام ناووسًا من الجرانيت الأسود، وفي الكرنك أتم البوابة التي بدأها نقطانب الأول كما أقام مباني أخرى، ونفذ إصلاحات في مبانٍ كان قد عفا عليها الدهر.

وكذلك نجد أن هذا الفرعون أقام مباني في الواحة الخارجة من بينها بوابة باسمه.

هذا، وقد ظهر نشاطه في المباني التي خلفها لنا في قفط، أما في العرابة والأشمونين وإهناسيا المدينة، فقد وُجد له فيها محاريبُ، وفي أبيدوس (أبو صير الملق الحالية عند مدخل الفيوم)، أقام نقطانب الثاني معبدًا للإله بتاح وللإله سوكاريس والإله أوزير، أما في منف فقد أقام — بوجه خاص — مباني تحدثنا عنها.

وتَدُلُّ الآثارُ المبعثرة في أنحاء الوجه البحري في أماكن عدة على مقدار ما أقامه نقطانب الثاني مِن آثار في الوجه البحري مسقط رأسه، ويكفي أن نذكر هنا ما أقامه في تل المسخوطة (بتوم) وقنتير والطويلة وصفط الحناء وبوبسطة وهربيط وبلبيس وأزيوم (بهبيت الحجر) وسمنود، مما فَصَّلْنَا فيه القول سابقًا. وقد استعمل في كثير من المباني التي تركها لنا في هذه الجهات جرانيت أسوان الثمين، ولا تزال توجدُ قطعٌ ضخمةٌ حتى يومنا هذا في هربيط والطويلة.

هذا، ويطيب لنا أن نذكر هنا أن كل معبد «بهبيت الحجر» قد أُقيم من الجرانيت ولا بد أنَّ نَقْل هذه الأحجار من أسوان كان يتطلب مجهودًا جبارًا.

هذا، ولدينا منشورٌ صدر في الشهر الثاني عشر من السنة الخامسة من عهد هذا الفرعون (أكتوبر–نوفمبر عام ٣٥٦)، وهو يقدم لنا شاهدًا صامتًا عن نُفُوذ الكهنة في هذا العهد ومعاقبة كُلِّ مَنْ تَعَدَّى على حُقُوقهم بأشدِّ العقاب.

وأخيرًا نُشاهد أن الملك خبا باشا قد حاول في مدةِ حكمه القصيرة، أن يكسب الكهنة إلى جانبه، ولا أَدَلَّ على ذلك من التابوت الفاخر الذي أَهْدَاهُ للعجل أبيس، هذا بالإضافة إلى إشادة كهنة بوتو باسمه بعد موته بخمسٍ وعشرين سنة، وعلى العكس من ذلك نرى أنه لم يقم أيُّ ملك من ملوك الفُرس المتأخرين بأي عمل يدل على اهتمامه بالمعابد المصرية، ومن أجل ذلك تَسَلَّمَ الإسكندرُ الأكبرُ البلادَ دون مقاومة تُذكر، وبخاصة أنه اعتنق دين البلاد وأكرم رجال دينها.

تاريخ بلاد كوش (السودان) من بداية العهد الفارسي في مصر حتى عهد فتح الإسكندر الأكبر لأرض الكنانة

تَحَدَّثْنَا في الجُزء السابق من «مصر القديمة» (مصر القديمة، الجزء الثاني عشر)، عن تاريخ بلاد كوش المستقلة حتى عهد الملك «أماني-نتكاي-لبتي» بقدر ما تسمحُ به المصادرُ التي في متناولنا؛ وسنُحاول الآن أن نُتابع الحديثَ عن آثار هذه البلاد وما خَلَّفَهُ مُلوكُها لنا مِن تُراث حتى فَتْح «الإسكندر الأكبر» للبلاد المصرية؛ أي إلى العهد الذي فقدتْ فيه مصر استقلالها نهائيًّا، ولم يعد أحدٌ مِن أبنائها يسيطر على شئونها الداخلية والخارجية حتى عام ١٩٥٢م.

والواقعُ أنه على الرغم من أن بلاد «كوش» أو «إثيوبيا» — كما كانت تُدعى وقتئذٍ — لم تكن متصلةً سياسيًّا بالبلاد المصرية في الفترة التي نحن بصددها، على ما يبدو مما وصل إلينا من معلوماتٍ أثرية؛ فإن أهلها — وبخاصة ملوكها — كانوا يقلدون المصريين في كل مظاهر حياتهم الدينية تقليدًا تامًّا لا لبس فيه ولا إبهام، كما يُبرهن لنا على ذلك مدافنُ مُلُوكهم وما بقي فيها من آثار، فقد برهنتْ محتوياتُها على أنَّ الكوشيين كانوا يُقيمون كُلَّ شعائرهم الدينية على حسب التقاليد والشعائر المصرية، حتى بعد القرن السادس المسيحي، وذلك على الرغم من الحملات المتكررة التي شَنَّتْها القبائلُ والأقوامُ المختلفةُ التي غَزَتْ هذه البلاد واستوطنتْها.

يُضاف إلى ذلك أنَّ اللغةَ المصريةَ القديمة قد بقيت اللغةَ التقليديةَ حتى الأزمان المتأخرة جَنْبًا إلى جَنْبٍ مع اللغة المروية التي ظهرتْ في البلاد واستعملتْ قبل العهد المسيحيِّ وظلتْ عدةَ قُرُونٍ يتحدثُ بها القومُ، على أن هذه اللغة — على ما يظهر — قد أخذت حروفها

الأبجدية من اللغة الديموطيقية بصفة مختصرة؛ ولا يزال كنه هذه اللغة غامضًا إلى حد كبير، على الرغم من المجهودات التي بُذلت في الوصول إلى كشف النقاب عن أُصُول ألفاظها ومعانيها، وعلى أية حال لم يمكن حتى الآن نسبةُ هذه اللغة إلى إحدى اللغات المعروفة التي تُحيطُ بالبلاد الكوشية، فلا هي بالمصرية القديمة ولا هي بالسامية، بل تعد نسيجًا وحدها حتى الآن.

مدينة «مرو»:[١] وتدل شواهد الأحوال على أن العهد الثاني من تاريخ بلاد «كوش»؛ أي منذ أن فقدتْ سيطرتها على مصر وطردت منها على يد «بسمتيك الأول»؛ قد بدأ حوالي عهد الملك «انلاماقي» الذي تَوَلَّى زمامَ الحُكم في «كوش» حوالي ٥٣٨ إلى ٥٣٣ق.م — كما ذكرنا في الجُزء السابق من «مصر القديمة» — ومن المحتمل أنَّ عاصمة البلاد ومقر الملك كان قد انتقل إلى مدينة «مرو» التي كانتْ تقع على الشاطئ الشرقيِّ للنيل، ما بين الشلالين الخامس والسادس، على مسافة أربعة أميال تقريبًا شمالي محطة سكة حديد، «الكابوشية» الحالية الواقعة في مركز «شندي»، وضواحي هذه المدينة كانت تمتدُّ حتى «الكابوشية» نفسها؛ لأنه يوجد موقع معبد على مسافة ميل شرقي محطة السكة الحديدية الواقعة على شاطئ وادي «هواد» العظيم، هذا بالإضافة إلى وُجُود معبدٍ آخرَ في «همداب» بين «الكابوشية» وقرية «البجراوية» الحديثة، وتقع في امتداد قلب المدينة القديمة.

ومن المحتمل أن كلمة «البجراوية» تشتمل في ثناياها كلمة مروية، تكتب عادة «باكار»، ومعناها: «ولي العهد»، وأقدم صورة معروفة لدينا لاسم مدينة «مرو» وصل إلينا عن طريق الإغريق هي كلمة «بروات»، وقد حدد الموقع الأصلي لهذه البلدة، وذلك أنها كانتْ فيما سبق مرسًى صالحًا للسفن، فعثر الأثري «جارستانج» على آثار مرسى مقامة بالحجر فيها؛ يُضاف إلى ذلك أنه تقعُ مباشرة فوق مستوى النيل العالي على شاطئ النهر قصورٌ مسورةٌ، يوجدُ في شمالها ما يحتمل أن يكون سرادقًا عظيمًا كان يجلس فيه الملك أثناء الأحفال الرسمية؛ وفي شمال هذا السرادق يشاهد كذلك عمودٌ منفردٌ من مبنًى صغيرٍ ينسب إلى عهد الملك «تهرقا».

(راجع: Garstang (1913), Third interim report on the Excavationvs at Meroe, Liverpool Annals of Archeology and Anthropology p. 77.)

---

[١] راجع عن أصل هذه الكلمة وخلطها مع «مروى» التي عند الشلال الرابع. The Temples of Kawa II, p. 238, ff.

هذا، وتقعُ شرقي رُقعة القصر الملكي خارج جداره من الجهة الشرقية على مسافة مائة وعشرين مترًا دمن معبد عظيم للإله «آمون» في جبل «برقل»، (راجع: Arkell, A History of the Sudan Pl. 15 a).

وهذا المعبد قد بني على الطراز المصري الأصيل؛ والواقعُ أنه أُقيم على طراز معبد «نباتا» الذي يقع تحت جبل «برفل»، ويُلحظ أنه على جانبَي موقع المعبد من الشمال والجنوب على مسافة نصف ميل أو يزيد، تمتدُّ خرائب بلدة «مرو»؛ وفضلًا عن ذلك فإن هذه الخرائبَ تمتدُّ شرقًا حتى خط السكة الحديدية.

ويُشاهَد السائحُ المدققُ أثناء زيارته لهذه الجهة عدةَ تلال سوداء اللون، يخترق أحدَها الآن خطُّ السكة الحديد، وهذه التلال السوداء هي رواسبُ أكوام الحديد الشهيرة التي تمتاز بها تربةُ «مرو»، (راجع: .Ibid. Pl. 15 b).

وقد وصف الأستاذ «سايس» مدينة «مرو» بأنها لا بد كانت يومًا ما «برمنجهام» بلاد السودان الشمالية من حيث شهرتها بالحديد، (راجع: Sayct–1912. Second interim report on the Excavations at Meroe in Ethiopia II The Historical Results. A.A.A. IV 53–65).

ولا نِزَاعَ في أنَّ هذا كان وصفًا حقيقيًّا؛ إذ لا مراء في أنه يوجدُ حديدٌ بكثرة في تلال بلاد النوبة المكونة مِن أحجارٍ رملية، وعند تأسيس مدينة «مرو» لا بد كان يوجدُ خشبٌ وفيرٌ لصهر هذا الحديد في حُفَر صغيرة في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة التي يُسميها «هردوت» عند وصفه معبد الشمس؛ «مرعى»؛ حيث لا يزال الكلأُ والأعشابُ تحاول جاهدة أن تنبت هناك.

ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أنَّ خرائبَ اثنين أو ثلاثة معابد صغيرة لا تزال تُشاهَد شرقي خط السكة الحديدية، ويرجعُ تاريخُ واحدٍ من هذه المعابد — على وجه التأكيد — إلى عِدَّةِ قُرُونٍ خَلَتْ قبل سقوط «مرو»، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه كان قد أُقيم على تَلٍّ مُغَطًّى برواسب الحديد؛ وإذا سَلَّمْنَا بصحة هذا الرأي فإنه يُعَدُّ شاهدًا عدلًا على قيام صناعة الحديد في هذه المنطقة، ولا نِزاعَ في أن «مرو» كانت المصدرَ الذي انتشرت منه هذه الصناعةُ إلى الجنوب والغرب في كل بلاد «إفريقيا» السوداء، (راجع: Wainright. Iron in the Napatan and Meroitic ages. Sudan Notes and Records Vol. XXVI, 5–36).

وقد أُقيم على السهل الواقع شرقي المعبد السالف الذكر الطوار الضخم الذي بُني عليه معبدُ الشمس الشهير، ثم يأتي بعد ذلك أهرامُ الجَبَّانة الغربية التي دُفن فيها أشرافُ مدينة

«مرو» طوال مدة احتلالها، هذا، ويشاهد على مسافة ميل أو يزيد من الشرق صفُّ الأهرام الملكية بصورة جلية مُقامة على ربوةٍ عالية تمتد من الشمال إلى الجنوب، وقد دُفن في هذه الأهرام الملوكُ والملكات الذين حكموا في «مرو» من حوالي عام ٣٠٠ق.م وما بعده؛ وعندما يصل الإنسان إلى هذه الربوة يرى عبر وادٍ رَمْلِيٍّ صغير في الجنوب الشرقي، عددًا صغيرًا من الأهرام عند سفح تل أسود صغير، (راجع: Arkell. Ibid. Pl. 13)، وهذه هي الجَبَّانةُ الجنوبيةُ القديمةُ التي كان قد دُفن فيها أقاربُ الأُسرة الخامسة والعشرين الذين حكموا «مرو» منذ أقدم عهودها، وهذه الأهرام أقامها ملوكٌ دُفنوا في «مرو»، وذلك بعد أن بطلتْ عادةُ دفن هؤلاء الملوك في «نباتا» بالقرب من جبل «برقل» المقدس بعد عام ٣٠٨ق.م.

ويُمكنُ مشاهدةُ المحاجر التي كانت تؤخذُ منها الأحجارُ الرمليةُ لكل هذه الأهرام في التلال الواقعة شرقي هذه الأهرام في حين أنَّ المحاجر التي كان يجلب منها الأحجار لبناء المدينة نفسها تقع حول «أم علي» شمالًا. وعلى أية حال فإن كل مباني هذه الجهات كانت من الحجر الرملي — كما سنرى بعد.

وتدلُّ الظواهرُ على أنَّ سُكَّان «نباتا» لا بد كانوا قد جمعوا لأنفسهم قطعانًا وفيرة العدد جدًّا من الماشية والغنم والماعز، كما أنهم لا بد كانوا على جانبٍ عظيم من الثراء في أيام عز دولة «نباتا» وسؤددها، وقد كانت النتيجةُ الحتمية لذلك أنْ أخذتْ أرضُ المراعي تنقص لكثرة الرعي فيها على شاطئ النهر في منطقة «دنقلا» مما أدى إلى ظُهُور القحل في هذه الجهة وتحويل المراعي إلى صحراءَ جرداء، وعلى أثر شيوع هذه الظاهرة أصبح من البدهي أنْ يكون موقعُ مدينة «مرو» أحسنَ ملاءمةً لقيام عاصمة المُلك فيه.

وقد كان موقعُ هذه المدينة — على أية حال — بعيدًا من جهة الشمال عن نقطة الجاذبية للمملكة الكوشية بعد أن فقدت سلطانها على مصر، ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أن «مرو» فضلًا عن أنها كانت أكثر صلاحية لرعي الماشية؛ فإنها كانت في الوقت نفسه مركزًا عظيمًا لصناعة الحديد التي نشأتْ فيها وقتئذٍ، ولم تكن طُرُق صناعة المعدن هناك تُعَد سِرًّا ملكيًّا يُحافظ عليه بكل تَكَتُّم كما كانت الحالُ مِن قبل، بل كانت على مقرُبة من قلب السودان حيث كانت الأمطارُ الصيفيةُ الموسميةُ غزيرةً، تساعد على نُمُوِّ محاصيل الغلال الكثيرة.

والسببُ الرئيسيُّ الذي أَدَّى إلى الظن أن عاصمة الملك قد نُقلت من «نباتا» إلى «مرو» في القرن السادس وليس في القرن الرابع قبل الميلاد، هو أنه بعد حُكم الملك مالناقن (٥٥٣–٥٣٨ق.م) كان متوسط عدد الملكات اللائي دُفِنَّ في «نباتا»، و«الكورو» و«نوري»

قد انخفض فجأة إلى أكثرَ من أربعٍ لكل مدة حكم ملك، فصار أَقَلَّ مِن واحدٍ ونصف لمدة حكم كل ملك؛ ثم بقي بعد ذلك ثابتًا، والظاهرُ أنَّ السبب في ذلك لم يكن الفقر؛ لأن هناك دلائلُ فقر متزايد توحي بأنه قد جاء شيئًا فشيئًا، ففي الجبانة الغربية نُشاهد مجموعةَ مقابر كبيرة على غير المُعتاد يبلغُ عددُها أكثرَ مِن عشرين من هذا العصر بعينه، وسواءٌ أكانت مصاطبَ أم أهرام فإنه من المستحيل علينا أن نُحدد نوعها؛ وذلك لأن كثيرًا مِن أحجارها كانت قد نُقلت مِن أماكنها الأصلية، ويحتمل أنها للملكاتٍ مفقودة لنا.

وقد كانت العادةُ وقتئذٍ أن نصف الملكات كُنَّ يُدْفَنَّ في «مرو»، ويرجع السبب في دفنهن هناك إلى أهمية «مرو» المتزايدة، وطول إقامة الملِك فيها، مما أوحى إلى الأخير أن يتزوج من ملكات مِن عِلْيَة القوم في «مرو»، وكانت هؤلاء الملكات يُفَضِّلْنَ — بطبيعة الحال — أن يُدْفَنَّ في مسقط رءوسهن، (راجع: Dunham, Dows. Ouuine cf the Ancient History of the sudan V. S. N.R. XXIII, 1–10).

هذا، وقد أُقيم معبد «آمون» العظيم في «مرو» في خلال هذا العهد، وكان معبد الشمس في هذه الفترة قد أَخذ شهرةً واسعة، وتَدُلُّ الظواهرُ على أنه كان قد أُقيم بصورة ما حوالي عهد الملك «أسبالتا» (٥٩٣–٥٦٨ق.م) والظاهرُ أن هذا المعبد كان معروفًا لدى «هردوت» فقد أورد ذكره عند التحدث عن حملة «قمبيز» المزعومة على بلاد «إثيوبيا»، (راجع: Herod. III 18)، وهذه الحملةُ لا يوجد ما يثبتها لا في التاريخ المصري، ولا السوداني، وقد وصف لنا «هردوت» مائدة الشمس كما يأتي: توجد مرعى في الضواحي مملوءةٌ بأنواع اللحم المطبوخ من كل أصناف من ذوات الأربع؛ وفي هذا المرعى كان حكام المدينة العديديون لغرض ما يضعون اللحم أثناء الليل والنهار هناك لكل من يريد أن يأكل منها، ويقول السكان: إن الأرض نفسها كانت — من وقت لآخر — تُنتج هذه الأشياء، وهذا هو الوصف الذي أُعطي لما يُسمى «مائدة الشمس»، وهذا حقًّا وصفٌ لائقٌ لموضع معبد الشمس الذي يقع خارج مدينة «مرو» في الجانب الشرقي على حافة منخفَض من الأرض؛ وقد وُصف حقًّا بأنه مرعًى؛ وذلك لأنه حتى يومنا هذا ينمو فيه الكلاء والأعشاب أحسن مما تنبت في سهل الحصباء المحيط به، وفي مكان آخر يؤكد لنا «هردوت»، (راجع: Herod. II, 29)، أنه في عصره؛ أي حوالي ٤٥٥ق.م كانت «مرو» عاصمة «الإثيوبيين جميعًا»، وكان معبد الشمس في صورته الأخيرة يحتوي على محرابٍ مُقام على طوار مبنًى يصل إليه الإنسانُ بمنحدر.

وأُقيم فوق الطوار رواقٌ يحتوي على صفٍّ واحد من العمد تدور حول المحراب؛ وكان الإنسان يصل إليه بسُلَّم مؤلف من تسع درجات، وكانت جدرانُهُ ورقعتُهُ مكسوةً بقوالبَ مِن الخزف المطليِّ، وكانت التي تكسو الجدار ذاتَ لونٍ أزرقَ خفيف كلون السماء، وفي الجدارِ الغربيِّ المواجِهِ للمدخل صورُ قرص شمسٍ أصفرَ ذهبي اللون كبير، والنقوشُ التي فيه نُقشتْ باللغة المروية، غير أنها لم تَتِمَّ في مكانٍ واحدٍ.

وعلى الجدار الخارجي للطور مثلت هزيمة الأعداء الذين ذُبحوا بطُرُق مختلفة، كما مُثل موكب نصر ومناظر أخرى يُرى فيها أن بعض الأسلحة كانت غريبة وتُوحي بأنها — على ما يظن — كانت أسلحةً خاصة ببدو توارج Tuareg الذين كانوا يقطنون الشمال الغربي لإفريقيا.

هذا، ويشاهد على جُزء من جدار المحراب قدم الفاتح يطأ رأس أسير يلبس قبعة إغريقية، وهذه القطعةُ محفوظةٌ الآن بمتحف «الخرطوم» تحت رقم ٥٠٩٢، وقد ظن الأثري «سايس»، (راجع: Garstang, sayce and Griffith Ibid. 1911. p. 29)، أن هذا النقش يبرهن على تأثير إغريقي؛ وأشار إلى أن «هومر» قد أظهر أن إغريق عصره كانوا يعرفون بلاد «كوش» التي كانوا يسمونها «إثيوبيا».

هذا، ونجد في كل من «الإلياذة» و«الأوديسي»، وصفًا لكوش بأنها الأرض التي ذهب إليها الآلهة لإقامة عيدٍ سنوي، وجاء كذلك في «الإلياذة» ذكرُ هجرةٍ سنوية للبجع الأُوروبي كان يقوم بها إلى أواسط «إفريقيا» أرض الأقزام، وقد أصاب الأستاذ «سايس» عندما قال إن كل ذلك يوحي بأن التجارة الإغريقية مع «مرو» يحتمل أنها ترجع إلى هذا العهد، والواقعُ أن التجارة تتبع غالبًا علم البلاد أينما رُفع، وإن كانت كذلك تسبقه أحيانًا كما حدث في «كرمة»؛ وعلى ذلك فإن هناك أكثر من الاحتمال أن بعض التجار الإغريق الذين صاحبوا الجنود المرتزقين من «الكاريين» حتى الشلال الرابع والخامس — على ما يظن — قد ذهبوا إلى «نباتا» و«مرو».

وعلى أيَّة حال فإن معلوماتنا عن تاريخ هذا العصر قليلةٌ جدًّا، وكُلُّ ما نعرفه ينحصرُ فيما استخلصناهُ من مقابر الملوك وما تركوه لنا في بعض المعابد القديمة من نقوش تذكارية، وسنُحاول هنا أن نصف مقبرة كل ملك من هؤلاء الملوك، وما تركه فيها من آثار، وكذلك ما عثرنا عليه من مخلَّفات في جهات أُخرى، ثم نُتبع ذلك بترجمة ما جاء في اللوحات التي خلفها لنا بعضهم، وما نستخلصُهُ منها من نتائجَ تُساعد على فَهْم حالةِ هذه البلاد في ذلك العصر الغامض من تاريخها.

الملك كاركاماني (٥١٣–٥٠٣ق.م)



كاركاماني

حكم هذا الملك على حسب رأي ريزنر عشر سنوات — على وجه التقريب — ولم يعثر على لقبه في النقوش التي وُجدتْ له، كما لا نعرف مما بقي له من آثار صلةَ نسبه بالملوك الذين سبقوه.

وأقام هذا الملك لنفسه هرمًا مدرجًا من الحجر الرملي في «نوري» (رقم ٧)، (راجع: Royal Cemeteries of Kush, Vol. II Nuri 7, fig. 121, Pl. XLVID).

وقد أُقيم حرمُهُ من الحجر الرملي أيضًا.

ومقصورةُ هذا الهرم بسيطةٌ في مَبْنَاها، وليس هناك ما يدل على وجود نقوشٍ فيها، وهي مبنيةٌ بالحجر الرملي المحلى.

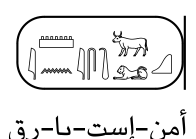
ودائع الأساس

وجد لهذا الملك ودائعُ أساس في أركان هرمه الأربعة، وتشمل: عظام ثور – وهاون – ومدقة، ومدلاك – وطاحونة – وجرار من الفخار – وكئوس – وأقداح – وطغراءات منقوشة وغير منقوشة من الخزف المطلي، وكذلك وجد فيها قطعٌ من النحاس والقصدير الغفل.

ويؤدي إلى البناء السفلي للهرم سلمٌ يحتوي على خمس وخمسين درجة أُقيم أمام المقصورة والحرم، ويشملُ هذا الجزءُ من الهرم ثلاثَ حجرات تتألفُ رُقعتُها من طوار منخفض من الجرانيت.

وحجرة الدفن وُجدت منهوبة؛ غير أنَّ وُجُود قطعة مطعمة بالإضافة إلى العُثُور على عيني مومية؛ يدلُّ على أن صاحب الهرم قد دُفن في تابوت من الخشب بوجه إنسان مزين. هذا، ولم يوجد أيُّ أثر لحجرٍ يَدُلُّ على أنه كان هناك تابوتٌ من الحجر في حُجرة الدفن، ويُلحظ أنه قد وُجد في القبر عدةُ أشياء صغيرة من الذهب والفضة والأحجار المختلفة، كما وجدت لوحة صغيرةٌ من الذهب وتماثيل مجيبة عدة، سبعةٌ منها في حالة جيدة، هذا إلى بقايا ثلاثة وخمسين تمثال مجيب أُخرى لهذا الملك، (راجع: Royal Cemeteries of kush, Vol. II p. 161–164; J.E.A vol. 35, p. 144, Pl. XV. No. 32).

الملك أماني إستابارقا (٥٠٣–٤٧٨ق.م)



أمن-إست-با-رق

لم نعرف نسبة هذا الملك لِمَنْ سبقه من الملوك.

وقد أقام هرمًا لنفسه في نوري رقم ٢، والظاهرُ أنَّ جُزءَه الأعلى لم يبن، والهرمُ مقامٌ من الحجر الرملي ومجاديلُهُ منحدرةٌ ومدرجةٌ ومقامةٌ على قاعدة، وحجمُهُ ٢٧,٩٠ مترًا مربعًا (راجع: Ibid. Nuri 2, Fig. 126, Pl. XLVIII A. pp. 168–171).

وحرمُ هذا الهرم مهشم، ومقصورتُهُ مقامةٌ من الحجر الرملي ولها بوابةٌ، وقد وُجد على جُدرانها نقوشٌ متآكلةٌ، ويشاهد على الجدار الجنوبي مِن داخلِها صورةُ الملك جالسًا متجها نحو الشرق.

ودائع الأساس

وقد عُثر في حُفَر الأساس التي عُملت في زوايا الهرم الأربع على عِدَّة أشياء أَهَمُّها عظامُ عِجْل وجِرَار من الفخار، وأقداحٌ وأطباقٌ وهاونٌ من الحجر الرملي ومدقة، كما عُثر على طاحونة ومدلكة، ولويحات من المعدن وأُخرى من الحجر، وطغراء للملك من الخزف المطلي منقوشة، ونماذج لبنات، وحجر الدم، كما وُجدت في حفرة واحدة فأسٌ من الشبه والخشب.

ويؤدي إلى المبنى السفلي لهذا الهرم سلمٌ أُقيم في الجهة الشرقية، ومكونٌ من ٥٥ درجة والاثنتا عشرة الأُولى منها مبنيةٌ، وسدادةُ الباب مبنية أيضًا.

ويؤدي البابُ إلى ثلاث حجرات: الأولى مساحتها ٤,٩٠ × ٤,٣٠ مترًا وسقفها مُقَبَّبٌ، وكان كُلٌّ من جداريها الجانبيين منقوشًا بالألوان، غير أن الكتابة مُحِيَتْ تقريبًا، والحجرة الثانية مساحتها ٥,٥٠ × ٥,٩٠ مترًا والثالثة ٧,٨٠ × ٦,١٠ مترًا وسقفها مقبب. هذا، ويوجد في محور الحجرة طوار كان معدًّا لوضع التابوت عليه، (راجع: Ibid. Pl. XLIX, F).

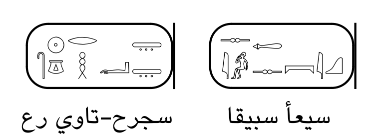
وقد وُجدت حجرةُ الدفن منهوبة تمامًا، وعُثر فيها على عيني مومية، كما عُثر على تماثيلَ مجيبة مهشمة من الخزف المطلي نُقش على بعضها الفصل السادس من «كتاب الموتى»، (راجع: Ibid. fig. 197 & Fig. 202).

ووُجد لهذا الملك لوحةٌ من الجرانيت، قيل: إنها كانتْ في المقصورة، ولكنها نُقلت فيما بعد إلى الكنيسة القبطية في تلك الجهة رقم ١٠٠، وقد استُعملت هناك بمثابة بلاطة في رُقعة الكنيسة، ويبلغ ارتفاعُها ١٣٧ سنتيمترًا وعرضُها ٧٠ سنتيمترات، (راجع: Ibid. Subsidiary Building 100, 4; Ibid. p. 267, Fig. 211, Pl. LXVIII).

هذا، وعثر على عدة أشياء في المبنى السفلي لهذا الهرم، في حجرة الدفن وخارجها، من بينها تعويذةٌ مصنوعةٌ من الزبرجد، نقش فيها عمودٌ من البردي بالنقش البارز، ودُوِّنَ عليها الفصلُ المائة والستون من «كتاب الموتى»؛ غير أنها ليستْ كاملة، ويبلغُ ارتفاعُها ٦,٢ سنتيمترًا وعرضها ٤,٥ سنتيمترًا وسُمْكها ١,٤سنتيمترًا، (راجع: Ibid. Pl. CXVIIh, i J; Text Fig. 128).

وأخيرًا عُثر على كثيرٍ من التُّحف الصغيرة مما تركه اللصوص وراءهم، مبعثرة في القبر وحوله، (راجع: Ibid. p. 168, Fig. 127 & 128).

الملك «سيعأ سبيقا» (٤٧٨–٤٥٨ق.م)



لم يعرف للملك «سيعأ سبيقا» صلةُ نسب بالملك الذي سبقه.

أقام هذا الملكُ لنفسه هرمًا في نوري رقم ٤ من الحجر الرملي، ويتألفُ مِن مَدَامِيكَ مدرجة، على قاعدة مكونة من مدماك واحد، وكذلك أقام حرم هرمه من نفس الحجر السابق، وقد هدم ولم يَبْقَ منه إلا الأساسُ، وحجمُ هذا الهرم يبلغ ٢٦٫٩٥ مترًا مربعًا.

وقد أقام له مقصورة من الحجر الرملي لها مدخلٌ ذو قنوات وبوابة، وقد هُدم هذا المبنى ولم يبق من مبانيه إلا مدماكان، ويدلُّ ما بقي منه على أنه كان مزينًا بالنقوش المكتوبة على ملاط أبيض مُذَهَّب ومُلَوَّن، وعثر في هذه المقصورة على لوحة من الجرانيت ساقطة على الأرض من كوتها وجزؤها الأعلى مُذَهَّبٌ. وتدل شواهدُ الأحوال على أنه كان يوجد أمام هذه اللوحة مائدة قربان من الجرانيت، هذا بالإضافة إلى قاعدتين من الجرانيت للقربان أيضًا.

ودائع الأساس

وجد في أركان هرم هذا الملك — كما هي العادة في معظم أهرام هذه المنطقة — ودائعُ أساس تحتوي على عظام عجل، وجِرَار من الفخار وأقداح وأطباق وهاون ومدقة من الحجر الرملي، وطاحونة من الحجر ومدلاك، ولويحات من المعدن والحجر عارية عن

النقش، وطغراء من الخزف المطلي منقوشةٌ باسم الملك، ولوحةٌ من حجر الدم (همتيت)، وكتلةٌ من الراتنج.

ويؤدي إلى المبنى السفلي لهذا الهرم سلمٌ مؤلفٌ من تسعة وأربعين درجة، ويشمل هذا الجُزْءُ السفلي ثلاث حجرات، الأولى مساحتها ٤٫٩٠ × ٤ مترًا، وهي مسقوفةٌ ورقعتها مكسوة، والثانية مساحتها ٥٫٨٠ × ٥٫٩ مترًا، وهي مسقوفةٌ أيضًا؛ والثالثةُ مساحتها ٦٫٥٠ × ٦٫٦٥ مترًا، وكل هذه الحجراتُ عاريةٌ عن النقوش.

هذا، وقد عُثر في حجرة الدفن على قِطَع مرصعة من غطاء مومية المتوفَّى، والظاهرُ مما لدينا مِن بقايا الدفن أن تابوت المومية كان على شكل إنسان ومرصع بالأحجار، أما اللوحةُ المصنوعةُ من الجرانيت التي وُجدت ملقاةً على الأرض في المقصورة فيُشاهَد في جزئها الأعلى قرصُ الشمس المجنح الذي يَتَدَلَّى من أسفله طغراء الملك وصلان، وفي أسفل من هذا منظرٌ مثل فيه أوزير على عرشه تحرسه «إزيس» و«أنوبيس»، وأمامه مائدةُ قربان، ويشاهد على اليمين وعلى اليسار الملك «سيعأ سبيقا» يتعبد إلى «أوزير»، وفي أسفل المنظر متن مؤلف من ٢٧ سطرًا تتحدث عن القربان التي قدمها هذا الملك للآلهة المختلفين، ويبلغُ ارتفاعُ هذه اللوحة ١٣٠ سنتيمترًا، (راجع: Nuri, Ibid, Pl. LXIX. Inscription fig. 212).

واللوحةُ محفوظةٌ الآن بمتحف «الخرطوم»، تحت رقم ١٨٥٨.

وقد عُثِرَ في هذا الهرم على بقايا مما نهبه اللصوصُ، وتنحصرُ في أشياء جنازية تدل على أن هذا القبر كان مُجَهَّزًا بجهازٍ فخم، مِمَّا يوحي بأن بلاد «كوش» كانت وقتئذٍ غنية، ونذكر من الأشياء التي بقيت لنا ما يأتي:

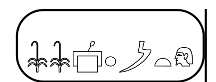
حوالي ٢٨٣ قطعة مطعم بعضها باليشم، وجزءٌ منها من اللازورد، وآخرُ من الزبرجد والأردواز، وكذلك وُجدتْ بعضُ عيونٍ مصنوعة من المرمر وحجر الأبسديان، كما عُثر على تعويذةٍ من الذهب الخالص، وجعرانُ قلب من حجر الثعبان نقش عليه أحد عشر سطرًا بالمصرية القديمة، وهي عبارةٌ عن الفصل الثلاثين من كِتَاب الموتى، هذا بالإضافة إلى أَحَدَ عَشَرَ تمثالًا مجيبًا باسم الملك صاحب الهرم.

وقد وجدتْ مائدةُ قُربان مبنيةٌ في الجدار الشمالي الغربي للكنيسة القبطية، هذا إلى قاعدتي مائدتي قربان في المقصورة، وقد نُقش على كل منهما طغراء الملك.

(راجع: Ibid. Nuri 4, p p. 176–180; J.E.A. Vol. 35, p. 147.)

ومن المحتمل أن الملكة (؟) «بيعنخي قوقا» صاحبة الهرم رقم ٢٩ في «نوري» هي زوج هذا الملك، (راجع: Nuri. Ibid. Fig. 137, Pl. XLVII & p. 180–182).

الملك ناساخما (٤٥٨–٤٥٣ق.م)



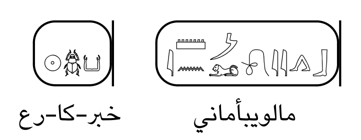
خلف الملك «ناساخما» الملك سيعأ سبيقا (؟) على عرش المُلك، وقد أقام لنفسه هرمًا في نوري (رقم ١٩) من الحجر الرملي على قاعدة مؤلفة من مِدماك واحد، ومداميك وجه هذا الهرم منحدرة ومدرجة، وبناؤه رديء، وقد أُقيم كل من حرمه ومقصورته من الحجر الرملي، ولم نعثرْ على ما يدل على أنَّ المقصورةَ كانت مزينةً بمناظرَ أو نقوشٍ، وحجم هذا الهرم ٩٫٧٣ مترًا مربعًا.

ودائع الأساس

لم يعثرْ في ودائع أساس هذا الهرم على عظام حيوان — كما هي العادة — ولكن وُجد فيها هاون من الحجر الرملي ومدقةٌ وجرةٌ من الفخار، وآنيةٌ وأطباقٌ وقدحٌ من الخزف المطلي عارٍ من النقوش، كما وُجدت طغراءاتٌ من الخزف المطلي منقوشةٌ باسم الملك، هذا إلى لويحات غير منقوشة من الخزف والمعدن والحجر وعجينة الزجاج، وكذلك أطباقٌ من الشبه ونماذج آلات، (راجع: Nuri. Ibid. Pl. LIF. (sw.)).

ويؤدي إلى المبنى السفلي لهرم هذا الملك سلمٌ مؤلفٌ من ثلاثين درجة، ويحتوي هذا الجزءُ السفليُّ على ثَلَاثِ حجرات متوسطة الحجم، وقد وُجدت حجرةُ الدفن منهوبةً تمامًا، وليس لدينا ما يَدُلُّ على دفن الملك في حجرته إلا الطوار الذي كان يُوضع عليه التابوت والتماثيلُ المجيبة، (راجع: عن الأشياء التي وُجدت في هذا الهرم، Nuri 19, p. 184–186; J.E.A. Vol. 35 p. 145).

الملك مالوييأماني (٤٥٣–٤٢٣ق.م)



مالوييأماني خبر-كا-رع

يُحتمل أن هذا الملك هو ابن الملك «ناساخما» السالف الذكر وابن الملكة «ساكاعايا» صاحبة الهرم رقم ٣١ بجبانة «نوري»، (راجع: Nuri. Ibid. p. 199, ff).

أقام هذا الملك لنفسه هرمًا في نوري رقم ١٩ (راجع: Nuri. Ibid. 194)، من الحجر الرملي على قاعدة مؤلفة من مدماك واحد، ومداميكُ وجهِ هذا الهرم منحدرةٌ ومدرجة، وكذلك أُقيم حرم الهرم ومقصورتُهُ مِن نفس الحجر الذي بُنِيَ منه الهرمُ، والمقصورةُ لها بوابةٌ لا تزالُ تُرى بقايا مناظر على كلا وجهيها من الشرق، منها صورةُ أقدامِ رجلين يواجهُ الواحدُ منهما الآخر، وكذلك لُوحظ ما يدل على وُجُود حيوانٍ بينهما، (Ibid. Pl. LIII, A).

هذا، وتوجد كوةٌ في الجدار الغربي للمقصورة خاوية، واللوحةُ التي كانت في هذه الكوة وُجدت في الكنيسة القبطية، (راجع: Nuri 100, No. 3, PL. LXX. A)، وهي مصنوعةٌ من الجرانيت، وهي مستديرةٌ في أعلاها، وصُوِّرَ عليها الملكُ يقدم القربان للإله «أوزير» الذي مثل فوقه قرص الشمس المجنح وقد نُقش عليها ٢٧ سطرًا، غير أنَّ نُقُوشها تآكلتْ، ويدعي «ريزنر» أنه قرأ اسمَ هذا الملك عليها.

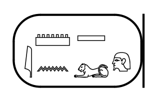
ودائع الأساس

وُجد في الحفر التي فيها ودائعُ الأساس عظامُ ثور ومدلاكٌ من الحجر الرملي وطاحونةٌ وهاونٌ ومدقةٌ من الحجر، كما وُجدت جِرَار من الفخار وأقداح وأطباق، هذا بالإضافة إلى لويحات من الحجر والمعدن غير منقوشة، وطغراءات من الخزف المطلي، ونماذج آلات من المعدن، (راجع: Ibid., PL. LIII F, G).

البناءُ السفليُّ للهرم: يؤدي إلى البناء السفلي الذي تحت الهرم سلمٌ مؤلفٌ من خمس وستين درجة، أُقيم أمام كُلٍّ من مقصورة الهرم وحرمه، ويحتوي هذا البناءُ على ثلاث حجرات كبيرة الحجم ليس لها أسكفات، وقد وُجدت حجرةُ الدفن منهوبةً تمامًا، ويدلُّ ما وُجد في مكانِ الدفنِ من قِطَع مطعمة من الحجر وعين مومية من المرمر على أنَّ المتوفَّى كان قد دُفن في تابوتٍ من الخشب على هيئة إنسان.

هذا، وقد عُثر على عدة قطعٍ أثرية صغيرة مما تركه اللصوص بعد نهب حجرة الدفن والمقصورة، نذكر منها أواني من الفخار في أحجام مختلفة وخرز، وحوالي مائتين وخمسين تمثالًا مجيبًا من الخزف المطلي، بعضها سليمٌ وبعضها الآخر مهشمٌ، ونقش على كل منها الفصل السادس من كتاب الموتى بخط خشن، والمتن الذي عليها غيرُ عادي، (راجع: Ibid. 196–197; L.E.A. Vol. 35, p. 145. PI. XVI No. 44).

الملك تالخاماني (٤٢٣–٤١٨ق.م)



من المحتمل أن «تالخاماني» خلف أخاه الملك «ماليو بأماني» (راجع: Nuri 16, Ibid. Fig. 159 Pl. L.V.A. p. 206, 88).

أقام هذا الملك لنفسه هرمًا من الحجر الرمليِّ على قاعدة مؤلفة من مدماك واحد في جبانة «نوري» رقم ١٦ ومداميك وجه هذا الهرم منحدرةٌ ومدرجةٌ وكسوتُهُ قد تآكلتْ وحجمُهُ ١١,٨٠مترًا مربعًا، ويُلحظ أن هذا الهرم صغيرٌ جدًّا بالنسبة لسُلَّمه ومبناه السفلي؛ ولذلك يظن أن التصميمَ الأصليَّ له كان أكبرَ من مساحته الحالية.

وحرم هذا الهرم ومقصورتُهُ مَبْنِيَّان بالحجر الرملي، ووُجدت لوحةٌ من الجرانيت الخشن في كوة في الجدار الغربيِّ للمقصورة، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف «بوسطن»، (راجع: J.E.A., Vol. 35, p. 147; Nuri. Ibid., Pl. L.V.B. p. 206).

ودائعُ الأساس

وُجد في أمكنة ودائع أساس هذا الهرم جمجمةٌ وربعُ ثور. هذا، ولم يعثر فيها على فخار، ولكن وجدت لويحاتٌ صغيرةٌ خاليةٌ من النقوش مصنوعةٌ من المعدن والحجر، كما وُجدت قطعةٌ من حجر الخلدكوني (العقيق الأبيض)، ويؤدي إلى المبنى السفلي لهذا الهرم، وهو الذي يحتوي على حجرات الدفن؛ سلمٌ مؤلفٌ من سبع وأربعين درجة، ويحتوي هذا المبنى

على ثلاث حجرات كبيرة الحجم، ويوجد في الحجرة الثالثة منه مصطبةٌ من الصخر. هذا، وليس لدينا دلائلُ واضحةٌ تدل على دفن المتوفَّى في هذا الهرم.

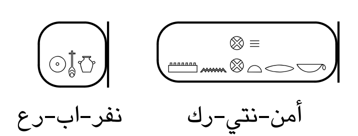
ويلفت النظر أنه قد عُثِرَ على جعران قلب من الحجر الرملي المائل للصفرة، باسم الملك أماني-ناتاكي-لبتي، (راجع: Ibid. fig. 160; Pl. CXXIV C.)، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ قبر هذا الملك الأخير كان قد نُهِبَ قبل عهد الملك تالخاماني.

وقد وُجدتْ عدةُ آثارٍ صغيرة في قبر الملك «تالخاماني» من السام والمرمر، كما وُجِدَ له ستٌّ وثمانون زهرة على هيئة أزرار من السام المذهب، وكذلك وجدتْ له أشياء كثيرةٌ أُخرى مذهبةٌ في أشكالٍ مختلفة، (راجع: Ibid. Fig. 160).

أما اللوحة التي وُجدتْ في مقصورة هرمه، وهي التي سبق ذِكْرُها فقد نُقشتْ نقشًا سطحيًّا، وقد تآكل بعضُ أَجْزَائِهَا، ويشاهد في أعلاها المستدير قرصُ الشمس المجنح، وتحته منظرٌ يمثل الملك يقدم القربان لأوزير قاعدًا يحرسه إله وآلهة، وفي أسفل هذا المنظر متنٌ مؤلفٌ من عشرة أَسْطُر هيروغليفية، جاء فيها: طاهر، طاهر قُربان الإله الفاخر «أوزير خنتي أمنتي» الإله العظيم رب «العرابة»، طاهر طاهر قربان أوزير الفاخر الملك «تالخاماني» المرحوم مما يعطي الماء ومما تُعطي الأرض، ومما يُعطي التاسوع الأكبر والتاسوع الأصغر، ومما تعطي معابدُ الوجه القبلي، ومما تعطي معابد الوجه البحري، ليتهم يعطون فيضًا إلخ، (راجع: J.E.A. Vol. 35, p. 174).

وسنرى مِن نُقُوش خلفه الملك «أماني-نيتي-يريكي» أنه مات وهو في السنة الواحدة والأربعين من عمره في قصره بمدينة «مرو».

الملك «أماني نيتي يريكي» (٤١٨–٣٩٨ق.م)



يحتمل أن الملك أماني-نيتي-يريكي هو ابن الملك «مالويبأماني» وهو يُعدُّ مِنَ المُلُوك القلائلِ الذين تركوا لنا آثارًا هامةً غير هرمهم.

أقام هذا الملك لنفسه حرمًا في «نوري» (رقم ١٢) (راجع: Nuri. 12, Fig. 162, Pl. Lv. Dl p. 211, ff)، ويبلغ حجمه ٢٦٫٤٥ مترًا مربعًا، ويمتازُ هذا الهرم بأنه أُضيف إلى حجمه الأصليِّ زيادةٌ ثانيةٌ من الخارج، ومما هو جديرٌ بالمُلَاحظة أن قاعدة المدماك الخارجي للهرم أعلى بنحو ثلاثين سنتيمترًا عن قاعدة الهرم الأصليِّ الداخليِّ قبل الزيادة، وهذا الهرم مبنيٌّ كباقي الأهرام الأُخْرَى التي في هذه المنطقة من الحجر الرملي المحلى.

وحرم هذا الهرم ومقصورتُهُ أُقيما كذلك من نفس الحجر الرملي المحلى والمقصورةُ لها بوابةٌ، وقد حُفظت جدرانُها إلى ارتفاع حوالي مترين، غير أنها لم تتزين بنقوش، ووجدتْ أحجارٌ منقوشةٌ في سلم الهرم الذي يؤدي إلى المبنى السفلي. هذا، وقد وُجد على قطع العتب وغيرها ألقابُ هذا الفرعون، (راجع: Nuri, Ibid. Fig. 162, I'I. LVI DE.)، ومما تجدرُ ملاحظتُهُ هنا أنَّ ألقاب هذا الملك التي وُجدت في مبنى هرمه تختلف عن التي وُجدت له في معبد الكوة — كما سنرى بعد — وقد وُجدت في الجدار الغربي للمقصورة كوةٌ خاليةٌ، وكان أمامها في الأصل مائدة قربان من الحجر زُحزحتْ عن مكانها إلى الرُّكن الجنوبيِّ الشرقي للمقصورة.

هذا، وقد عُثر على الأشياء التالية في مكانها الأصلي في المقصورة: (١) قاعدتا مائدتين للقُربان على هيئة سيقان بردي ذات قنوات على قاعدتين مستديرتَين كُسر أعلاهما وفُقد، (٢) حوضٌ بيضيُّ الشكل من الحجر الرملي في هيئة طغراء، (٣) قطعةٌ مكعبةٌ من الحجر الرملي في طرفها الغربيِّ بالوعةٌ مستديرة، (راجع: Nuri., Ibid. Pl. L.V.F).

ودائع الأساس

وُجد في أركان الهرم في أماكن ودائع الأساس عظامُ ثور، وهاون من الحجر الرملي، ومدقة، ومدلاك من حجر الدم وطاحون، وجَرَّة من الفخار وأطباق، وإناء من الشبه في ثلاثة أركانٍ مِن أركانِ الهرم ولوحةٌ صغيرةٌ عاريةٌ من النقش مصنوعةٌ من الخزف، هذا بالإضافة إلى لويحات من الحجر والمعدن غير منقوشة، وكانت في الأصل موضوعة في لبنة مُذَهَّبَة، ونماذج آلات من الشبه، وقصدير غفل، وشمع شهد، وكتلة من الراتنج، والأخيرة وُجدت في رُكنين مِنْ أركان الهرم.

والمبنى السفليُّ لهذا الهرم يؤدي إليه سلمٌ مؤلفٌ من سبعٍ وأربعين درجة، ويحتوي على ثلاث حجراتٍ كبيرة لم يكشف عنها تمامًا خوفًا مِن تَدَاعِي بناء الهرم نفسه، ولم يكشف حتى الآن عما يَدُلُّ على وجود دفن في هذا الهرم، ووجد في دمن هذا الهرم عدةُ أشياء نخص بالذكر منها مائدة قربان صورت عليها قربان بالنقش البارز في وسطها، ونقش على حافتها متنٌ يحتوي على طغراء صاحب الهرم، (راجع: Nuri. Ibid. Fig. 163, Pl. LXXXI. No. 2).

وكذلك وجد لهذا الملك جزء من تمثال مجيب نقش نقشًا خشنًا يحتوي على صيغة القربان في أربعة أسطر، (Ibid. fig. 197, fig 203, Pl. CXi).

جاء فيها: قربانٌ ملكيٌّ يعطي أوزير أول أهل الغرب ليمنح قربانًا لأوزير الملك «أماني-نيتي-يريكي» المرحوم.

هذا، وقد وُجدت له عدةُ أوانٍ من الفخار ذات أشكال مختلفة في دمن الهرم، (راجع: Nuri. Ibid. 12, p. 211–215, fig. 163; J.E.A. Vol. 35, p. 142).

الآثارُ التي خَلَّفَها هذا الملكُ في معبد الكوة[١]

عاصر الملك «أماني-نيتي-يركي» العهد الفارسي الأول في مصر؛ أي عهد الأسرة السابعة والعشرين، وقد ترك لنا نقشًا طويلًا مؤرخًا بالسنة الأولى والثانية من حكمه، وهو في قاعة العمد لمعبد آمون الذي أقام تهرقا، وهذا المتنُ الطويلُ يقصُّ علينا انتخاب «أمانى-نيتي-يريكي» ملكًا على بلاد النوبة، وقمع فتنة قامت بها قبيلة «رهرهس» على أثر موت الملك «تالخاماني»، وبعد أن توج الملك الجديد في جبل «برقل» حارب قوم «المجا» في واقعة خلال سفرة قام بها لتفقُّد أحوال البلاد، وقد وصل في أثناء هذه الرحلة إلى مدينة جماتون ثم «بنوبس»، وفي عودته أقام عيدي الشهر الثاني من فصل الفيضان في جماتون (الكوة)، ومَهَّدَ طريق مدخل المعبد بوساطة الأهالي والجيش، وكانت الرمال قد غمرتْها، وكان يعمل بنفسه على رأس جيشه مدة عدة أيام.

وبعدَ ذلك يَقُصُّ علينا المتنُ قصةَ موكبٍ فاخرٍ أُقيم ليلًا، وكذلك رحلة الأم الملكية كما وصفت القربان لنا التي عملت للمعبد والإصلاحات التي نفذت فيه، وهذا ما سنشرحه هنا، والمتن الذي نحن بصدده طويلٌ ويتألفُ مِن ستة وعشرين ومائة سطرًا، دونت أسفل المنظر الذي يظهر فيه الفرعون «تهرقا» يقدم المعبد للإله «آمون»، وتبلغ مساحة هذا النقش ١٠,١٠ × ٧,٢٢٧ مترًا، والمتنُ مفهومٌ في ألفاظه إلى حَدٍّ ما، وهو يقدم لنا عدةَ نقاط من المعلومات الهامة عن حالة بلاد النوبة في نهاية أسرة «نباتا»، وهذه المعلومات تكاد تُعَد الوحيدةَ التي في مُتَنَاوَلِنَا عن المدة التي تقعُ بين بداية القرنِ السادس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد، يضاف إلى ذلك أن هذه النقوش تقدم لنا تاريخًا لتَوَلِّي هذا الملك عرش المُلك، ويُمكنُ تحديدُهُ فلكيًّا بعام ٤١٥ق.م على أساس التواريخ التي وضعها الأثري «ريزنر» لهذا العهد، ومن ثم يمكنُ أن نضع تاريخ ولادة «أمان-نيتي-يريكي» حوالي عام ٤٥٦ق.م.

وتسهيلًا لفهم هذا المتن الطويل نقسمه فقرات بعناوينَ مختصرة: (١) تاريخ الملك ولقبه: موت تالخاماني – ثورة قوم رهرهس – انتخاب أماني نيتي – يريكي ملكًا.

[١] راجع: Kawa 1,Text. p. 50 ff.

الترجمة:

(أ) (من عمود ١–٢١):

(١) السنة الأُولى، الشهر الثاني من فصل الصيف، اليوم الرابع والعشرون في عهد جلالة حور (المسمى) كانخت-خع-م-واست، والسيدتان (المسمى) المستولي على الأراضي كلها، حور الذهبي (المسمى) وعف خاسوت-نبوت، (٢) ملك الوجه القبلي (المسمى) نفر-اب-رع، ابن رع (المسمى) «أمانى-نيتي-يريكي»، ليته، يعيش أبد الآبدين محبوب آمون رع الذي في «جمأتون» (الكوة الحالية).

(٣) والآن حدث في عهد جلالته أن جلالته كان (قاطنًا) بين الإخوة الملكيين، وهو شابٌ لطيفٌ جذابُ المحبة، وهو كهلٌ في الواحدة والأربعين من عمره، عندما صعد الصقر إلى السماء؛ أي مات الملك «تالخاماني» المرحوم، (٥) في قصره الذي في «مرو»، في الوقت الذي ثار فيه سُكَّان الصحراء، وهم الأعداء من قوم «رهرهس»، على جلالته، (٦) في شمالي هذه المقاطعة (أي مقاطعة «مرو»)، حاملين معهم كل ما يمكن أن يجدوه من ماشية وقطعان ورجال.

وعندئذ ذهب إلى القصر جيشُ جلالته وضباطُ جلالته، وقال هذا الجيشُ لضباط، (٨) جلالته: إلى أين نحن ذاهبون؟ إنا جائلون كقطيع من غير راع، و(٩) ورئيسنا ليس في وسطنا في حين أن (أعداء) الصحراء … (١٠) إن رغبتنا هي أن نقدم له عرش (هذه الأرض)، إن والده «آمون» قد نصبه (ملكًا) وهو في فرج (أمه) ابن رع «أماني-نيتي-يريكي»، (١١) ليته يعيش أبديًّا، إنه سيدنا … (١٢) الابن (؟) الممتاز لآمون، «مالويبأ ماني»[٢] «المرحوم» وإنه هو الذي يغذيك … (١٣) قطيع، سيد الـ … النوبة … «بانيامثل» (١٤) عارفًا النصائح مثل «تحوت» …

وبعد ذلك فإن (ضباط) (١٥) هذا الجيش (قالوا): «إن كل ما قلته حقًّا»، وهكذا … الجيش … (١٦) في داخله، فذهبوا إلى الضباط … (١٧) في وسط الجيش وعمدوا (؟) إلى قصر جلالته … (١٨) سيد الأراضي، وقال جلالته لأحد رجال البلاط عند لحظة الـ … (١٩) إن رغبتي هي أن أُشاهد والدي «آمون رع» (رب عروش الأرضين) الذي في (الجبل) المقدس لبلاد النوبة … ملك … لأنه (٢٠) قد أعطاني … فقالوا له: إن والدك «آمون» يعطيك كل …

[٢] لا بد أن السبب في ذكر «مالويبأ ماني» هنا أنه كان له صلةٌ بالملك «أماني-نيتي-يريكي»، فقد كان: إما والده أو أخاه.

(٢١) الأُعجوبة الجميلة التي حققها لي والدي «آمون» في الـ … شهر الشتاء اليوم التاسع عشر (اليوم) الذي ظهرت فيه بوصفي ملكًا.

(ب) هزيمة قوم «رهرهس» والشكر على ذلك (من عمود ٢١–٣٥):

(٢١) … الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم الثاني (؟) في (الصباح) وبعد ذلك (٢٢) أتوا ليخبروا (جلالته قائلين): «إن سكان الصحراء الثائرين الذين في شمالي هذه المقاطعة، وهم الذين ثاروا على جلالته، زاحفون، (حول) هذه المقاطعة بكل أنواع الماشية والقطعان وكل أنواع الرجال والمتاع معهم بعدد لا يُحصى.» وقالوا لجلالته: «إنهم أهل الصحراء هم الذين يحاصرون (٢٥) هذه المقاطعة: وإنهم أكثر عددا من الرمل.» (فقال) جلالته: «تعال إليَّ يا والدي «آمون»، إنك أعطيتني الملك حقًّا، (٢٦) امنحني قوتك وسلطانك في وسط أعداء الصحراء الذين حول هذه المقاطعة.»

وبعد ذلك أرسل الجيش (٢٧) ليلتحم معهم في معركة، في حين أنه بقي في قصره ولم يذهب لِمُنازلتهم، وعندئذٍ أوقع (٢٨) جيش جلالته مذبحة عظيمة (بينهم) … فهو أهل الصحراء ووَلَّوُا الأدبار فارِّين، ودخل جيشُ جلالتِه في وسطهم، مُوقِعًا (٣٠) القتل فيهم، واستولى كل الرجال الشباب وكل النساء الذين كانوا في هذه المقاطعة، (٣١) على كل الغنيمة التي يرغبون فيها من ماشية … من كل الأنواع، وقد سُرَّ جلالتُه لذلك، (٣٢) غاية السرور قائلًا: «إن والدي «آمون» … (قد سمح) لي أن أُشاهد سلطانه هذا اليوم، و(٣٣) فرحت الأرض قاطبة (قائلة): مرحبًا بالملك الجديد! (٣٤) إنه جميل المحيا حقًّا، وإن مثيله لم يولد من قبل، وإن «آمون» (والده) «وموت» أمه، و«إزيس» أمه، (٣٥) وإنه «حور» حقًّا … لم يحدث في زمنه.»

(جـ) سياحة الملك إلى «نباتا» وتتويجه، (الأعمدة من ٣٥–٤٣):

(٣٥) … السنة الأُولى، الشهر الثالث من فصل الصيف، اليوم التاسع عشر، (٣٦) ذهب جلالتُه إلى الجبل المقدَّس (ليؤدي شعائر) لوالده «آمون رع» رب عروش الأرضين، (٣٧) ووصل إلى الجبل المقدَّس في الشهر الثالث من فصل الصيف، اليوم الثامن والعشرين، وذهب جلالتُه إلى القصر الملكي، (٣٨) وأُعطي القبعة الرسمية (؟) الخاصة ببلاد النوبة (؟) وذهب إلى معبد والده «آمون»، (٣٩) «رع» الذي في الجبل المقدس، وقال جلالتُه في حضرة هذا الإله، «لقد أتيت أمامك، يا والدي الفاخر، يا والد الآلهة لتعطيني المُلك بوصفي سيدَ الأرضين (لأنك) الملك المحسن بين الآلهة والناس»، وعندئذ قال هذا الإله الفاخر: إني أمنحك الملك (٤١) بوصفك سيد الأرضين، وإني أضع الجنوبَ والشمال والغرب والشرق

وكل ... و(كل) الممالك الجبلية تحت نعليك.» وبعد ذلك قدم له (٤٢) وليمة عظيمة من الخبز والجعة والثيران والطيور وكل الأشياء الطيبة، وقدم خدامًا وخادمات ... (٤٣) وكثيرًا من كتان الوجه القبلي والوجه البحري (أمام) هذا الإله.

(د) زيارة بلدة «قرثن» – معركة مع «البيجا»، الوصول إلى «جمأتون» – ثلاثة أيام أعياد – (الأعمدة من ٤٣–٥٥):

(٤٣) ... السنة الثانية الشهر الأول من فصل الفيضان اليوم التاسع.

(٤٤) انحدر جلالتُه في النهر واضعًا النظام في كل مقاطعة وصل إليها، و(جاعلًا) كل الآلهة والإلهات يظهرون (في موكب)، ثم وصل إلى هذه المقاطعة المسماة «قرش» (بين «نباتا» و«جمأتون»).

الشهر الأول من فصل الفيضان، اليوم السابع عشر في الصباح، كان جلالتُه في قصره، وحدث هجومٌ من جانب سُكَّان الصحراء الغربيين الذين يُطلَق عليهم اسم مدد (= البيجا)، وبعد ذلك شاهدوا جلالتَه وهربوا؛ لأن الخوف من جلالته (٤٧) دخل في قُلُوبهم، وانقض جيش جلالته في وسطهم، وأوقع مذبحة عظيمة فيهم لا يُحصى عددُها، ولم يحزن على شاب من جيش جلالته (أي لم يمت من جيشه فرد).

(٤٩) الشهر الأول من الفيضان اليوم السادس والعشرون في وقت المساء، وصل جلالتُه (إلى معبد) والده «آمون رع» صاحب «جمأتون»، (وقدم) (٥١) قربانًا عظيمًا من الخبز والجعة والثيران والطيور وكل (شيء) طيب وأمر بمنح هذا الإله عيدًا مدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك قال له (هذا الإله): «إني (أعطيك) (٥٢) كل أرض الجنوب والشمال والغرب والشرق.» ثم أعطاه قوسًا وسهامه من البرنز ... الجنود (؟) (٥٣)، وهذا الإله قال له: «إني أعطيك هذا القوس (ليذهب) معك في كل مكان ستذهب إليه.» (و)قال (جلالتُه له) (٥٤) «امنحني حياة طويلة على الأرض، وأعطني كما فعلت للملك «لارا».» (المرحوم) فقال له، (٥٥): «إني أفعل لك كل شيء ترغب فيه.» وقال جلالتُه لهذا الجيش: «مَجِّدُوا أنتم والدي «آمون» صاحب «جماتون».»

(ذ) زيارة «بنوبس» – تقديم الأقاليم المستولَى عليها «لآمون رع» صاحب «بنوبس»:

الشهر الثاني مِن فصل الفيضان، (٥٦) اليوم الأول، وبعد ذلك وصل جلالتُه إلى مقاطعتِهِ المُسَمَّاة «بنوبس» وذهب إلى معبد والده، (٥٧) «آمون رع» الذي في «بنوبس» وقدم قُربانًا عظيمًا من الخبز والجعة والثيران والطيور وكل شيء جميل لوالده «آمون»؛ وأمر (٥٨) بظهور هذا الإله، ثم قال له هذا الإله: «إني أمنحك المُلك، وإني أعطيك كل

أرض الجنوب والشمال والغرب والشرق.» وأقام له، (٥٩) خمسة أيام أعياد وقدم اثني عشر خادمًا وخادمة، ولفة (خرد) من الكتان ولفة نسيج «هرت» وآلة؟ (وشب) كبيرة من الشبه، و(٦٠) أربعين ماشية أمام هذا الإله، وعلى أثر ذلك قال هذا الإله لجلالته: «امنحني»[٣] الأقاليم التي استولي عليها بمساعدتي، فقال جلالتُه، (٦١) في حضرة هذا الإله: «إني أُعطيك كل الأقاليم التي أستولي عليها بمساعدتك هذا اليوم، وكذلك كل الناس.»

قائمة بهم (٦٢):

«جر-امن-ست».

سكت.

ثرهت.

وأسر «مورس» وهم (٦٣) حاملو الصناجات أمام هذا الإله.

(هـ) العودة إلى «جمأتون» – أعياد شهر بؤنة – تقديم الأقاليم المستولى عليها – الحفائر عند مدخل المعبد، موكب الليل – موكب النهار (الأعمدة من ٦٣–٨١):

(٦٣) في … الشهر الثاني من فصل الفيضان اليوم الثالث والعشرين أقلع جلالتُه مصعدًا في النيل إلى «جمأتون» وأمر، (٦٤) بظهور هذا الإله الفاخر، وبقي جلالتُه في هذه المقاطعة جاعلًا هذا الإله يظهر في كل عيد من أعياده في الشهر الثاني من الفيضان، (٦٥) وقال هذا الإله الفاخر لجلالته:

«امنحني أنت الأقاليم والناس الذين استوليتَ عليهم بمساعدتي.» وقال جلالتُه في حضرة، (٦٦) هذا الإله: «إني أُعطيك الأقاليم والناس الذين أستولي عليهم بمساعدتك هذا اليوم قائمة بهم!»

«مركر».[٤]

(٦٧) أرثكز.

أشمث.

جركن.

أسر «أرم» (٦٨) وتاي-ا-نبت وأسر «أر …»

وإناء قبي من البرنز.

---

[٣] يظهر من هذا الطلب جشعُ الكهنة وما كانوا عليه من قوة في تلك الفترة.

[٤] كل هذه البلاد التالية مجهولةٌ لنا تمامًا، وكذلك أنواعُ الهبات من النسيج والآلات.

وثلاث أوان «ثاب».

(٦٩) خمسة وعشرون رجلًا.

وأربع لفات «خرد» من الكتان.

و«برهق» مصري.

وقد وَجد جلالتُه أنَّ طريق (٧٠) هذا الإله قد استولى عليه الرمل مدة اثنتين وأربعين عامًا، وأن هذا الإله لم يَسِرْ على طريقه … (٧١) هذه المقاطعة، وعلى ذلك استخدم (؟) الجيش والرجال والنساء مع الأولاد الملكيِّين والعظماء، (٧٢) لنقل الرمل، ونقل معهم جلالته الرمل بيده هو في مقدمة جيشه لمدة (٧٣) أيام عدة، وهو واقف على سلم (؟) هذا الإله يقوم بالعمل أمامه؛ وفتح طريق هذا الإله.

الشهر الثاني من فصل الفيضان، اليوم الأخير من الشهر أمر بظهور هذا الإله الفاخر، وخرج هذا الإله، ولف هذا الإله حول مدينته في موكب؛ وهذا (٧٦) الإله الفاخر فرح فرحًا شديدًا في وسط هذا الجيش، وقلبه فرح (؟) أمام والده هذا الإله الفاخر، وصاح الرجالُ والنساءُ (٧٨) قائلين: إن الابن قد اتحد مع والده! وذهب هذا الإله ليستريحَ في داخل قصره.

الشهر الثالث (٧٩) مِن فصل الفيضان، اليوم الأول من الشهر، أمر بإظهارِ هذا الإله الفاخر في الصباح، وذهب حول مدينته، وهذا الإلهُ الفاخر فرح، (٨٠) فرحًا عظيمًا في وسط الرجال والنساء، ورفع جلالتُه يديه في فرح أمام هذا، (٨١) الإله الفاخر، والرجال والنساء صاحوا ورجع هذا الإله إلى بيته.

(و) زيارة الملكة – الملك يتحدث مع «آمون» ويُقَدِّمُ قربانًا: (الأعمدة من ٨١–١٠٦):

(٨١) … والآن فإن جلالته … (٨٢) أخت ملك وسيدة مصر وأم الملك … و(فرحت) وسعدت عند (٨٣) رؤية ابنها متوجًا ملكًا … «مان نيتي-يريكي» (٧٤) ليته يعيش أبديًّا متوجًا على عرش «حور» مثل «رع» أبد الآبدين.

الشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم السابع، جلالته … (٨٥) (قال؟): «تأمل إنك منبطح …» … قائلًا: «تعالَ إلى مساعدتي، يا والدي آمون، أعطني»، (٨٦) كل البلاد الأجنبية التي تثور … أَصْغِ إلى ودع، (٨٧) هذه الأرض تسعد في زمني … افعل … ووقف (جلالتُه) ولم يكن هناك آخرُ غيره معه، (٨٨) ولكن هو وحده، وأغلقت البواب عليه عندما تلي (؟) … في الصباح وفي المساء، (٨٩) ولم يعطر نفسه بالمر لمدة أربعة أيام، و(الجيش وحتى الرجال) والنساء، والأطفال الملكية، (٩٠) وكل رجال بلاط القصر انبطحوا أمام هذا الإله، ولكن لم يعطروا، (٩١) أنفسهم بالمر، والرجال والرؤساء التابعين لجلالته عبدوا …

لأجل أن يجعلوا قلب، (٩٢) هذا الإله مُرْتاحًا مع جلالته ويجعلونه يصغي لكل ما قاله جلالتُه.

الشهر الثالث: من فصل الفيضان، اليوم ... قدم جلالته قربانًا عظيمة أمام هذا الإله، وأغلقت أبواب هذا المعبد ... (ثم دخل جلالته و) قال كل ما كان، (٩٤) في قلبه أمام هذا الإله، وفتحت أبواب هذا المعبد، وقال جلالته لرجال بلاط القصر: قدموا (٩٥) المديح لوالدي «آمون» لأنه يعطيني ... بدون ... وحياة طويلة؟ دون ألم (٩٦) فيها ويعطيني كل مملكة تثور على ... جلالته ... «أخباماني»،[٥] والكهنة خُدَّام الإله وكتبة سجلات المعبد ذهبوا ... المعبد ... قولوا أنتم كل (شيء) قاله والدي «آمون» لي، (٩٨) في وسط كل جنوده، وعلى ذلك (ذهبوا) وقَصُّوا كل شيء (في وسط) هذا (الجيش)، جلالته (٩٩) والحاشية وكل جنود جلالته ... (هذه) المقاطعة (؟) ... هذا (؟) الإله (؟) «ودخل جلالتُه المعبد (١٠٠) ليقدم قربانًا أمام والده «آمون» وقد أَدَّى جلالتُه شعيرة طلق البخور أمام أنف (والده) هذا الإله؛ وهذا الإله (قال): «إني أمنحك كل الحياة (١٠١) وقال جلالتُه لرجال حاشية القصر وللكهنة والكاهنات خدام الإله وللكهنة المرتلين: قَدِّمُوا الثناء (١٠٢) لوالدي آمون (وزَيِّنُوا أنفسكم؟) عند وقت طلق البخور لأنفه ... فإنهم لا يأتون» (؟) وإني أقول (١٠٣) أمام والدي آمون «مر أن يأتي إليَّ فعلًا ... وأنا أتكلم في هذه اللحظة.» وقد أمر كل الناس أن يقولوا لي (١٠٤): «إنك ستعيش، وإنه يعطيني كل الحياة من نفسه.» وعلى ذلك قاموا بالخضوع لجلالة ابن «رع» «أمان-نيتي-يريكي» في حضرة والده (١٠٥) «آمون رع» صاحب «جمأتون» لأجل أن يمنحه كل الحياة و(كل) الثبات والعافية، وكل الصحة وكل السعادة، وكل ... ملايين الأعياد الثلاثينية العديدة جدًّا والظهور على عرش «حور» (١٠٦) مثل «رع» أبد الآبدين.

(ز) الإصلاحات البنائية – وقف المعبد، الجزء الختامي (من العمود ١٠٦ إلى ١٢٦):

(١٠٦) ... والآن وجد جلالته أنه (بعض المقاصير) (؟) قد أصابها البلى في هذه المقاطعة (١٠٧) وأقامها من جديد، والآن فإن جلالته ... طيب ... «آمون» (؟) (١٠٨) جزية الـ ... (بلاد لوبيا؟) تأتي إلى ... ذهب وفضة (؟) (١٠٩) وشبه وملابس ونبيذ إلى ... (١١٠) أعطى أوقافًا منها ... (١١١) واحد كبير ... وخمس أوانٍ «دنت» ... «جاتي» ... (١١٢) نبيذ طيب منوم ... ١٣ (؟) ... ملابس حور ... ودخل جلالتُه (١١٣) المعبد

[٥] أحد الأشراف الذين اشتركوا في الحفل.

لِيُقَدِّمَ قُرْبَانًا ... جميع ... (١١٤) وقال جلالتُه أمام هذا الإله ... إلى (؟) ... الممالك ... اعملْ مِن أجلي (١١٥) كما فعلت للملك «كشتا» المرحوم ... وقال هذا الإله الطيب «إني أعطيك» (١١٦) له.

وقال له: «إني أعطيك» (كل) أرض (الجنوب والشمال) والغرب والشرق، وإني أُعطيك كما أعطيت (؟) الملك («كتشا» المرحوم) (١١٧) وهذا الإله الفاخر قال لجلالته: «... للقصر» ... قال ... (١١٨) أمر كاهنًا ليحمله للقصر ... قال ... للقصر، وقال هذا الإله إن (١١٩) لا يحملُهُ رَجُلٌ للقصر، ولكن الملك نفسه ... خرج إلى ... (هذا) المعبد (؟) ... معه، (١٢٠) في وسط جيشه ... أخذ ... ذهب رجال البلاط ... (١٢١) إني أقول لك (؟) إن والد «آمون» قد أعطاني ... معك إلى (؟) ... وجلالته يفعل (؟) بالمثل (؟) ... (١٢٢) الشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم الثالث والعشرون ... هذا الإله ... (قال؟) جلالتُه في حضرة هذا الإله (١٢٣) «تأمل (؟) إنك ستحضر كل الأشياء بقوة ساعدك ... «آمان-نيتي-يريكي» (١٢٤) قائمة بما وضعه جلالته أمام (هذا الإله) ... (١٢٥) مع ... (؟) ... (١٢٦) اثنان وأربعون خادمًا وخادمة و...»

(٢) نقش آخر للملك «أمان-نيتي-يريكي»، دُوِّنَ على جدران المعبد على هيئة حرف (r) الذي أقامه «تهرقا» على الواجهة الجنوبية من عارضة الباب الشمالية بين الردهة الأولى وقاعة العمد.

وهاك النص:

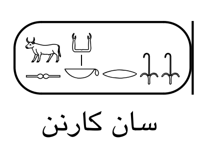
(١) السنة ... شهر ... يوم ... في عهد جلالة «حور (المسمى)» «كا-نخت-خع-م-واست»، (٢) السيدتان (المسمى) أث-تاو-نبو، حور الذهبي (المسمى) قاهر كل البلاد الأجنبية، ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) «نفر-اب-رع»، (٣) ابن «رع» (المسمى) «أمان-نيتي-يريكي» ليته يعيش أبديًّا محبوب (آمون رع) الذي في «جمأتون»، (٤) مُعطَى الحياة مثل رع أبد الآبدين، والآن تَكَلَّمَ جلالتُه في حضرة هذا الإله الفاخر، (٥) لوالده «آمون رع» الذي في «جمأتون» المحبوب ومُعطَى الحياة مثل رع أبد الآبدين. والآن تحدث جلالتُه في حضرة والده (؟) (٦) «آمون رع» صاحب «جمأتون» قائلًا: «إني أعطيك (؟) ... (٧) ... مجموع ٧٢ صلا (؟) وصلي من أجل، (٨) كل شيء (؟) طيب، وحياة طويلة وصحة حسنة وسعادة عظيمة، لملك الوجه القبلي والوجه البحري نفر-اب-رع، (٩) ابن «رع» «أماني-نتي-يريكي» ليته يعيش أبد الآبدين.»

(٣) ويوجد نقشٌ ثالثٌ لهذا الملك كذلك في معبد «تهرقا» (T) على الوجه الشمالي لعارضة الباب الواقع بين الردهة الأُولى وقاعة العمد، وهاك النص:

السنة ٢٥ + س، الشهر الثاني من فصل الفيضان، اليوم العاشر، في عهد جلالة (حور كانخت-خع-م) واست (٢)، السيدتان (المسمى) «أث-تاو-نبو»، حور الذهبي (المسمى) قاهر البلاد الأجنبية كلها، ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) «نفر-اب-رع» مُعطَى الحياة مثل رع أبد الآبدين، الواحد المختار، الملك صاحب الآثار الجميلة في «جمأتون» ... التاسوع، ابن «آمون» محبوب «آمون رع» صاحب «جمأتون»، (٤) «رع» «أماني-نيتي-يريكي» ليته يعيش أبديًّا، وهو واحد في مقدمة مليون رجل في (عظم) رغبته ليعمل مقرًّا لكل الآلهة، مُعطَى كل الحياة والثبات والفلاح منه، (٥) وكل السعادة منه (والظهور على) عرش «حور» أبديًّا، وقال جلالته في حضرة (هذا الإله): «إني أعطيك مائة وواحد وأربعين عجلًا ومائتين وعشرين ثورًا بالغة تمامًا، (٦) ... «لآمون رع» صاحب «جمأتون»، يا أيها الآلهة ويا أيتها الإلهات ... (٧) ... (؟) ... «آمون رع» صاحب «جمأتون»، «برع» ... (٨) ... هم ... هو ... الـ (٩) ... قائلًا: «يا آمون رع» صاحب «جمأتون» ... (١٠) ... أنت ... «آمون رع ...»

وهذان النقشان ليس فيهما ما يلفت النظر أكثر من، أن هذا الملك أراد أن يُظهرَ استعدادَهُ لخدمة الإله «آمون» والإلهات، وتقديم القربان إرضاء للكهنة، وتَقَرُّبًا من الآلهة، وفضلًا عن ذلك قصد بتدوينهما تخليد اسمه — كما هي العادة.

الملك «باسكاكرنن» (٣٩٨-٣٩٧ق.م)



سان كارنن

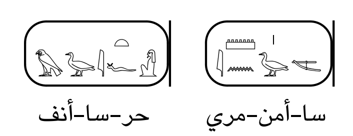
لم يُعرف لقبُ هذا الملك في النقوش التي خَلَّفَها لنا، وهو ابن الملك «ماويبأ ماني» الذي تَحَدَّثْنا عنه سالفًا، والأخ الأصغر للملك «أماني-نيتي-يريكي».

وقد دفن في هرمه الذي يحمله رقم ١٧ في جبانة «نوري»، وقد أُقيم هذا الهرمُ من الحجر الرمليِّ، على قاعدةٍ مؤلفةٍ من مِدْماك واحد، وقد أصاب كسوته العطب؛ وجوفه محشوٌّ بالحصا والتراب، ويبلغ حجمُهُ ١٢,٣٠ مترًا مربعًا، وأُقيم كذلك كل من حرمه ومقصورته من الحجر الرملي، ويوجدُ في الجدار الغربي للمقصورة كوةٌ لها كورنيش وقرص شمس وأطلال، وكان قد أُقيم فيها لوحةٌ مِن الجرانيت، وُجدتْ ملقاة على الأرض، (راجع: Nuri, Ibi. Pl. LVII E)، وأمامها مائدةُ قربان من الفخار الخشن مكسورة؛ والمبنى السفلي لهذا الهرم يؤدي إليه سلمٌ يحتوي على اثنتين وثلاثين درجة في شرقي المقصورة، وبعض درج هذا السلم مبنيٌّ من الحجر في الجزء السفلي، والباب الذي يؤدي إلى هذا المبنى السفلي مستديرٌ، ويحتوي على حجرتين الأُولى مساحتها ٤,٦٠ × ٣,٨٠ مترًا والثانية مساحتها ٥,٣٠ × ٣,٦٠ مترًا، وبها مصطبةٌ في محورها يحتمل أنه كان يُوضع عليها تابوت المتوفَّى.

والظاهر أن حجرة الدفن قد نُهبتْ نهبًا تامًّا ولم يَبْقَ بها إلا غطاء إصبع وإناء أحشاء مهشم، وهذان هما الشيئان الوحيدان اللذان يَدُلَّان على أنه قد حدث دفنٌ في هذا الهرم.

هذا، وقد وُجدت في أنحاء الهرم من الداخل والخارج أشياءٌ صغيرةٌ مما تركه اللصوصُ، نخصُّ بالذكر منها بعضَ قطعٍ من آنيةٍ من المرمر وقاعدة آنية من المرمر أيضًا، هذا إلى بعض أوان من الفخار وقِطَع تماثيل مجيبة، وجدتْ في رقعة حجرة الدفن الثانية، وأخيرًا وجدتْ لوحةٌ من الجرانيت محفوظةٌ الآن بمتحف «الخرطوم» مصنوعةٌ من الجرانيت الرمادي وجُزْؤُها الأعلى مستديرٌ مرسومٌ عليه قرصُ الشمس المُجَنَّح، وفي أسفله يُشاهَد من جهة اليمين الملك يَتعبد أمام مائدة عليها خبزٌ، وفي الجِهَة اليُسري يشاهَد الإلهُ «أوزير» والإلهة «إزيس»، وفي أسفل هذا المنظر نُقشت سبعةُ أَسْطُر بالخَطِّ الهيروغليفي، جاء فيها: «قربانٌ يقدمه الملك لأوزير أول أهل الغرب، والإله العظيم رب الشرق؛ لأجل أن يعطي كل شيء طاهر جدًّا ... أوزير الملك «باسكاكرنن» المرحوم إلخ، وارتفاع هذه اللوحة ٦٥,٥ سنتيمترًا وعرضها ٣٥ سنتيمترًا وسمكها سنتيمترين، (راجع: Nuri, Fig. 168. Pl. LVII D. p. 218 ff; J.E.A. Vol. 35, p. 142).»

الملك «حرسيوتف» (٣٥٩–٣٦٢)



من المحتمل أن الملك «حرسيوتف» هذا هو ابن الملك «أمان-نيتي-يريكي» السالف الذكر، وقد أقام لنفسه هرمًا من الحجر الرملي، على قاعدةٍ مؤلفةٍ من مدماك واحد في جبانة نوري، ويحمل رقم ١٣، وواجهة الهرم ذات مداميك مدرجة، ويبلغ حجمه ٢٦٫٤٠ مترًا مربعًا، ومما يجب ملاحظتُهُ أن بناء هذا الهرم رديء، وقد تداعى بنيانه بدرجةٍ عظيمة.

وقد أقام صاحبُهُ حوله حرمًا من الحجر الرملي، ورصف المساحة التي بين الحرم والمقصورة من الجهة الشرقية.

ومقصورةُ هذا الهرم مبنيةٌ كذلك من الحجر الرمليِّ، وقد خرب معظمها، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنه كان لها بوابةٌ مستديرٌ أعلاها، وقد لاحظ الأثري «ريزنر» كاشف الهرم أن المقصورة كانت مزينةً بالنُّقُوش الهيروغليفية، وكذلك بصور ملونة بالألوان الأحمر والأزرق والأصفر، وقد عُثر فعلًا على قطعة حجر من هذه المقصورة نُقش عليها جزءٌ من طغراء هذا الفرعون.

ودائع الأساس

تشتملُ ودائعُ هذا الهرم — التي كانت في حُفَر في أركانه الأربعة — على جمجمة وربع ثور، وطاحون من حجر الدم، ومدقة، وجرة من الفخار وصحن عميق، وأطباق، ولوحاتٌ صغيرةٌ من المعدن والحجر والزجاج، وكلها عاريةٌ عن النقوش، كما وُجدت آلاتٌ من النحاس والحديد، وكتلةٌ من النحاس الغفل، ويلفت النظر أن الحفر التي كانت فيها هذه الودائعُ خارجةٌ عن أركان الهرم، مِمَّا يوحِي أنَّ تصميمَ هذا الهرم كان في الأصل أكبرَ مِن هيكل الهرم الحاليِّ.

ويؤدي إلى المبنى السفليِّ لهذا الهرم سلمٌ يقعُ كُلُّهُ شرقي حرم الهرم، ولم يتم كشفُ هذا المبنى السفلي حتى الآن تمامًا؛ لأن مبانيه خطرةٌ وآيلةٌ للسقوط.

وعُثر في حجرة الدفن على غطاءي إصبعين من الذهب، يشتملان على عظام إصبعين، كما وُجد جعران قلب وصورة درة من التي تكون عادة في قبضة «أوزير»، وهي من الذهب؛ يُضاف إلى ذلك بعض قطع مطعَّمة، مما يَدُلُّ على أنه كانت توجدُ مومية بجهازها، ويحتمل أن الصندوق الذي كانتْ فيه كان على صورة إنسان، وقد ترك لنا اللصوصُ بَعْضَ قطع من متاع المتوفَّى من الذهب، نَخُصُّ بالذكر منها جعران قلب مصنوع من الحجر الرملي نقش على قاعدته الفصل الثلاثون من «كتاب الموتى» في عشرة أَسْطُر باسم ملكة لم يُعرف اسمها بعدُ، ونقش على ظهر هذا الجعران اسم الملك «حرسيوتف»، (راجع: Nuri, Ibid. 171, Pl. CXXV. B).

والظاهر أن هذا الجعران كان مخصصًا لهذه الملكة المجهولة، ولكن الملك «حرسيوتف» قد اغتصبه لنفسه، كما يحدث كثيرًا في الآثار المصرية والنوبية، ومما هو جديرٌ بالذكر أنه قد وُجدتْ عدةُ أَجْزَاء مِن جُمْجُمة هذا الملك، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه قد مات في سن مبكرة، وأنه كان قَوِيَّ الجُمجمة، وأن سلالته ترجع إلى بقايا الجنس الأبيض الذي كان الشمال الغربي من «إفريقيا»، (راجع: Nuri, Ibid. p. 222)، وقد عُثر لهذا الملك على عدة أوان من الفخار، كما وُجدت قطعٌ من المرمر والفضة والذهب في هرمه مما تركه اللصوصُ، (راجع: Nuri Ibid. pp. 221–224.: J.E.A. Vol. 35, p. 143).

آثار الملك «حرسيوتف» في «الكوة»

وجد اسمُ هذا الملك على عمودين من عمد الردهة الثانية من معبد «ب» في «الكوة»، وكذلك وُجدت صورةٌ لهذا الملك في معبد T بالكوة؛ إذ نجد على الجدار الجنوبي لحجرة العرش في هذا المعبد بجانب كرسي العرش صورةٌ للملك «حرسيوتف» حُفرت بإتقانٍ، وقد نقش أمامها طغراؤه، وقد مثل مرتديًا على رأسه الريشتين الطويلتين وعصابة الرأس والصل المزدوج وتعويذة في هيئة رأس عند الرأس والرقبة؛ ويَتَحَلَّى بشريط رقبة على كتفه اليُسرى، وجلد فهد وقميص طويل محلًّى بهداديب (راجع: Temple of Kawa, II p. 98, fig. fig. 31)، راجع كذلك مصر القديمة جزء ١١.

زوجه

وقد تزوج الملك «حرسيوتف» من ملكة تُدعَى «باتاهاليا»، أقامتْ لنفسها هرمًا في «نوري» رقم ٤٤ يبلغ حجمه ١٢,١٠ مترًا مربعًا، وهو على غرار هرم زوجها، (راجع: Nuri, Ibid. p. 228)، وأهم أثر عُثر عليه لها بعد هرمها لوحةٌ من الجرانيت الرمادي أقامتْها في مقصورة هرمها، وقد مُثل على الجزء الأعلى منها قرصُ الشمس المجنح وصلان، وأسفل هذا المنظر يُشاهَد منظرٌ مُثل فيه من جهة اليمين الإلهة «إزيس» واقفةٌ والإلهُ «أوزير» جالسًا على عرشه وأمامه مائدةُ قربان، والملكة تتعبد إليه، وفي أسفلِ هذا المنظر نقشُ متنٍ مؤلف من ثمانية أَسْطُر هيروغليفية، يحتوي على صيغة القربان المعروفة نُقشت بخطٍّ رديء، (راجع: Ibid. Fig. 177).

لوحة الملك «حرسيوتف»

عُثر للملك «حرسيوتف» على لوحة من الجرانيت في جبل «برقل» نقشت على جوانبها الأربعة، ويبلغ ارتفاعُها حوالي سبعُ أقدام، وعرضها قدمان وأربع بوصات، وسمكها ثلاث عشرة بوصة. وقد عُثر عليها مع لوحة الملك بيعنخي، وهي الآن بالمتحف المصري، وقد نُقش على الجُزء الأعلى منها صورةُ قرص الشمس المجنح يَتَدَلَّى منه صلان بينهما طغراء الملك «حرسيوتف»، وفي أسفل هذا يُشاهَد منظران، يرى في المنظر الذي على اليمين الملك واقفًا يقدم قُرْبَانًا يشتمل على خيط من الخرز وعقد وصدرية لآمون رب «نباتا» الذي مثل هنا برأس كبش وجسم إنسان، وتقفُ خلفه الأم الملكية والأخت الملكية وسيدة كوش المسماة

«أتاسامالي»، وفي المنظر الذي على اليسار يُشاهَد الملك وهو يقدم نفس القربان للإله «آمون الكرنك»، وقد صُوِّرَ الأخيرُ هنا في هيئة إنسان وخلف الملك ترى الأخت الملكية «باتاهاليا».

ويشملُ متنُ اللوحة واحدًا وستين سطرًا، جاء فيها أَهَمُّ الحوادث التي وقعتْ في حياة هذا الملك، ومما يَجْدُرُ ملاحظتُهُ هنا قبل البدء في إعطاء مُلَخَّص عن هذه اللوحة ثم ترجمتها؛ أن نُشير هنا إلى أن معظم المؤرخين وضعوا تاريخ هذا الملك في القرن السادس قبل الميلاد؛ والواقعُ أنه عاش في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد — على حسب تأريخ الأستاذ «ريزنر»، وغيره (راجع: Nuri, Ibid. p. 221, ff.).

وهاك ترجمة النص:

(١) السنةُ الخامسةُ والثلاثون، الشهر الثاني مِن فصل الزرع، اليوم الثالثُ عشر في عهد جلالة «حور» الثور القوي، المتوج في «نباتا» السيدتان (المسمى) حامي الآلهة، حور الذهبي (المسمى) قاهر كل الأراضي الأجنبية (؟) ملك الوجه القبلي والوجه البحري (المسمى) «سامري أمن» (المسمى) رب الأرضين جميعًا ورب التيجان ورب الشعائر، ابن «رع» من صلبه ومحبوبه (المسمى) «حرسيوتف»، مُعطَى الحياة أبديًّا، محبوب «آمون رع»، رب تيجان الأرضين القاطن في الجبل المقدس (٤)، إنا نعطيه الحياة والثبات والقوة كلها والسلامة وانشراح القلب كله مثل رع أبديًّا.

الحلم: لقد رأى حلمًا وهو أن «آمون» والدي الطيب صاحب «نباتا» منحني أرض «نحسي» (السودان)، وفي الحلم شد عقد تاجي لي، وفي الحلم نظر إليَّ بعينيه برحمة، (٧) وتحدث إليَّ قائلًا: «اذهب إلى معبد «آمون» صاحب «نباتا» في داخل قاعة الأرض الشمالية.»

«حرسيوتف» في حيرته يسأل شيخًا عن تفسير هذا الحلم، فأخذني الخوفُ ورجوتُ بشدة رجلًا مسنًّا، (٩) وقدمت له الاحترام فتحدث إليَّ قائلًا: ابحثْ عن منفعةِ يديك، فَإِنَّ مَنْ يُقِيم مباني سيحفظ، وقد عملوا، (١١) على أن أذهب أمام «آمون نباتا» والدي الكامل قائلًا: أرجو أن يعطيني تاج أرض «نحسي»، (١٢) فقال لي «آمون» صاحب «نباتا»: لقد منحتك تاج أرض السود ووهبتُك أركان الدنيا الأربعة طرا، وأعطيتك الماء العذب، وإذا حاول عَدُوٌّ الإتيان بالقرب منك فإنه لن يُفلح، (١٦) والعدو الذي تأتي إليه بيديك فإنه لن يفلح، (١٧) ولن يفلح بساقيه وقدميه، وعندما رأيته صببت قربانًا عظيمًا من أجل ما أعطانيه «آمون نباتا» والدي الطيب، وأنا واقفٌ في داخل حرم «آمون نباتا»، (١٩) في أعماق المحراب.

زيارة آمون لجهات مختلفة: وبعد ذلك قمتُ برحلة إلى آمون رب «جمأتون» وتحدثت قائلًا: «يا آمون صاحب نباتا»، (٢١) ثم قمتُ برحلة إلى «آمون رع» القاطن في «بنوبس»،

وتحدثت قائلًا: «يا آمون» صاحب «نباتا» ثُم قمت برحلة إلى «باستت» صاحبة «ترت» = بلدةٌ في بلادة النوبة العُليا عند إقليم الشلال الرابع، يُقال إنها «راداتا» التي جاء ذِكرُها في «بليني»، (راجع: Pline VI, 35)؛ وتحدثت قائلًا: «يآمون صاحب نباتا.»

عمل إصلاحات في الجهة الجنوبية من معبد «آمون»:

وبعد ذلك تحدثوا إليَّ قائلين (٢٣) فليذهبْ إلى معبد «آمون ثار … رسيت»؛ لأن الناس يقولون: إن بناءَه لم يَتِمَّ، فالتفت ثانية وبنيتُهُ وزينتُهُ وأكملتُهُ في خمسة أشهُر.

تذهيب معبد «ابت سوت» من جديد:

وعندما رأيت أن معبد حريم «آمون نباتا» ينقصه التذهيب (٢٦) أعطيتُ معبد الحريم ما يأتي: أربعين دبنًا من الذهب، وذهبًا مصنوعًا خمسة آلاف وعشرين قضيبًا.

ثم تحدثوا إليَّ أن «بيت شنوت» (المكان الذي يرتاح فيه الإله، يُحتمل أنه مستشفًى).

ينقصه الذهب (٢٨)، وأمرت بأن يحضر إليه خشب سنط وخشب «أركارت» (بلدة من بلاد النوبة العُليا مشهورةٌ بخشب السنط)، بكثرة، وجعلته يحضر إلى «نباتا»، وأمرت بوضع ذهب على جانبيه (٣٠) وزنُهُ أربعون دبنًا، وأمرت بأن يُعطَى المعبد من الخزانة ذهبًا مقدارُهُ عشرون دبنًا، ومائة دبن من الذهب المشغول، (٣١)، «يآمون نباتا إني (٣٢) أمنحك قلادة … أربع دبنات، وصورة (٣٤) «آمون المدينة» (؟) قد صيغت (٣٥) من ذهب، وثلاثة آلهة (٣٦) صيغت من ذهب (٣٧) (وصورة) «رع» صيغت من ذهب (٣٨) وثلاثة رءوس كباش من الذهب، (٤٩) صدريتين من الذهب، (٤٠)، ومائة وأربعة وثلاثين شريطًا (؟) من الذهب، (٤١) ومائة دبن من الفضة (٤٢)، وإناء لبن من الفضة، وآنية «هار» (٤٣) من الفضة، وآنية سكار (٤٤) من الفضة عددها أربع، وإناء لبن من الفضة، (٤٥)، وآنية ماهن من الفضة، (٤٦) وإله من الفضة، (٤٧) ويمامة، فيكون المجموع تسع أوان من الفضة.»

(٤٨) وأربع أوان «كارو» من الشبه، وآنية «مجتامي» من الشبه، وآنيتين «حنت–حر مايو» من الشبه، وحاملي مصباح من الشبه (٥١) وحامل بخور من الشبه وخمسة عشر كأسًا من الشبه، و(٥٢) خمس أوان «بادنو»[١] من الشبه، و(٥٣) وإناءين كبيرين للغسل من النحاس.

[١] جاء ذكر أسماء أوان وآلات لم يُعرف كُنْهها ولا استعمالها حتى الآن في هذا المشهد.

المجموع اثنان وثلاثون إناءً.

و(٥٤) مائتي دبن من المر، وثلاث أوان كرر (٥٥) من البخور، وثلاث أواني شهد.

مبان منوعة وهدايا «لآمون».

(٥٦) وفي فرصة أُخرى (٥٧) عندما بدأ بيت ألف السنة ينهار (٥٨) عملت على بنائه لك (٥٩) فأقمتُ لك عمده، (٦٠) وبنيت لك حظيرة للثيران (٦١) طولها ٢٥٤ ذراعًا، وجددت لك معبدًا (٦٢) كان مخربًا مطمورًا، وسجدت (٦٣) متضرعًا، ونطقتُ بالتعبُّد لك وتكلمت (٦٤) قائلًا: «إني ملك مصر وقد بنيت (٦٥) لك وأمرت بتنظيم قربانك، (٦٦) ومنحتك من جديد خمسمائة ثور، وأعطيتك قعبين من اللبن (٦٨) يوميًّا، وإني أمنحك عشرةَ كهنة، وأهب لك (٦٩) أسرى (٧٠) خمسين رجلًا وخمسين امرأة (٧٠) والمجموعة هو مائة (أسير).»

تقديم الثناء: «يآمون صاحب نباتا» (٧١) ليس هناك حساب (أي لما قدمته لك) وإني رجل … (٧٢) قدمت لك كل ما هو ممدوحٌ.

أول واقعة حربية: … في السنة الثانية، الشهر الثالث من فصل الشتاء، اليوم ٢٣ من الشهر، أمر بالذهاب في وجه الأعداء، وذبح قوم «رهرهس»، (٧٥)، وقطع إربًا إربًا «آمون» السواعد التي (٧٦) امتدت عليَّ، وقمت بأعمال شُجاعة بينهم، (٧٧) وهزمتهم طرا.

الواقعة الحربية الثانية: وفي السنة الثالثة، الشهر الثاني من فصل الشتاء اليوم الرابع، (٧٨) قمتُ بأعمالِ بطولةٍ بين قوم «مدد» (البيجا) الثائرين (٧٩) وهزمتُهُم عن آخرهم، وأنت الذي فعلتَ ذلك لي.

الواقعةُ الثالثةُ: السنة الخامسة الشهر الثاني من فصل الصيف، اليوم الحادي عشر من حُكم ابن «رع» «حرسيوتف» له الحياة والصحة والسلامة أبديًّا، (٨١) لقد أمرت رُمَاتِي وفرساني بأن يسيروا على قوم «مدد» (البيجا) (٨٢) فقاموا بالقُرب من مدينة «أنروار» بهجوم عليهم وقتلوا عددًا عظيمًا منهم، (٨٣) أسروا سيدهم، (٨٤) وأوقعوا مذبحةً عظيمة بين قوم «أروجا …» (٨٤).

الواقعةُ الرابعةُ: السنة السادسة، الشهر الثاني من فصل الصيف، من حُكم ابن رع «حرسيوتف» عاش مخلدًا، لقد سيرتُ حشدًا من الجُنُود على قوم «مدد» «البيجا» (٧٦)، وشنيت الحرب عليه وعلى بلاده، وألحقت به الهزيمة، والمذبوحون منه كانوا كثيرين في … (٨٧)، واستوليت على ثيرانه وبقره وحميره وغنمه ومعزه وعبيده وجواريه،

وأن رهبتك العظيمة هي التي عملت ذلك لي، (٨٩) وبعد ذلك أرسل إليَّ عظيم «مدد» (البيجا) وقال: «إنك إلهي وإني خادمك، (٩٠) وإني امرأة تعال (أي لا حول له ولا قوة) (٩١) ثم جعل النوابُ يأتون إليَّ بوساطة مبعوث، وذهبتُ وأديتُ الشعائرَ إليك «يآمون صاحب نباتا» والدي الطيب، (٩٢) وإني أمنحك ثيرانًا عدة.»

الواقعة الخامسة: السنة الحادية عشرة الشهر الأول من فصل الزرع اليوم الرابع: (٩٣) لقد أمرت رُماتي بالزحف على بلدة «عقنات» بقيادة خادمي «قاسو»، (٩٤)؛ لأن جُنُود الرئيسين «برجا» و«سأمنسا» قد وصلوا «أسوان»، (٩٥) وقد قام بأعمال بطولة على (٩٦) وقتل «برجا» و«سأمنسا» سيديهما، وإن رهبتك العظيمة «يآمون» هي التي عملت لي (ذلك).

الواقعة السادسة: السنة السادسة عشر الشهر الأول، من فصل الشتاء اليوم الخامس عشر، (٩٧) أمرت بإرسال رُماتي وفرساني على العدو في بلدة «خردف»، فأَدَّوْا أعمالَ بطولة في وسطهم، وأوقع الرُّمَاةُ مذبحة ... (٩٩) وغنموا أحسن ثيرانهم.

الواقعة السابعة: السنة الثامنة عشرة، الشهر الأول مِن فصل الزرع، اليوم الثالث عشر من عهد ابن «رع» «حرسيوتف» عاش أبديًّا، (١٠٠) زحف عليَّ ثائرو «رهرهس» واسم رئيسهم خروات؟ (١٠١) في بلدة «باروات» (= مرو) فعملت على صدهم؛ وذلك لأن رهبتك العظيمة وقوة ساقيك «يآمون» قد فازتْ عليهم بشجاعة (١٠٣)، وأوقعتْ مذبحةً بينهم، وكانت مذبحةً عظيمةً، وجعلتهم يتقهقرون، وأنت الذي عملت لي ذلك «يآمون» (١٠٤) حتى إن الأجانب هَبُّوا في وسط الليل، وَوَلَّوُا الأدبار.

الواقعة الثامنة: (١٠٥)؟ السنة، الثالثة والعشرون، الشهر الثالث مِن فصل الصيف، اليوم التاسع والعشرون من عهد ابن «رع» «حرسيوتف» عاش أبديًّا، (١٠٦) أتى رئيس البلاد الأجنبية «رهرهس» (المسمى) «أرو»، ومعه كُلُّ رؤساء بلدة باروات (مرو) (١٠٧)، وقمت بأعمال بطولة عليهم وهزمته هزيمة منكرة، وصَدَدْته (١٠٨)، وجعلته يولِّي الأدبار، وعملت على هزيمة «شابكارو» الذي أتى إليَّ (حاربني)، (١٠٩) وعقدت معه معاهدة، وإنها رهبتك العظيمة وساقيك القويتين التي هزمت ... الرئيس وقد فر أمام رماتي وخيالتي.

الواقعة التاسعة: (١١١) السنة الخامسة والثلاثون، الشهر الأول من فصل الزرع، اليوم الخامس من عهد ابن «رع» «حرسيوتف» عاش أبديًّا (١١٢) أمرت بأن يرسل إليه؛ أي «آمون» صاحب «نباتا» والدي الطيب قائلًا: (١١٣) هل يجب أن أُرسل رُماتي على بلاد «مختي»؟ فأرسل إليَّ «آمون» صاحب «نباتا» (١١٤) قائلًا: اجعلْه يرسل، فأمرت بإرسال (١١٥) خمسين من الطلائع مع خيالة، وعلى ذلك فإن أربعة أقوام «مختي» الذين كانوا (١١٦) قد تجمعوا عليَّ هزموا، ولم يبقَ واحدٌ منهم (١١٧)، ولم يُفلتْ واحدٌ منهم، ولم يبقَ (١١٨) واحدٌ من رؤسائهم، ولم يَبْقَ لواحدٍ منهم سهمٌ، وقد صاروا كلهم غنيمة.

مبان منوعة: وفي حلم حدثني إنسان (١٢٠) قائلًا: (١٢١) لقد أصبح المعبد آيلًا للسقوط، وفي الشهر الثالث من فصل الزراع في يوم «بتاح» أقمتُهُ ثانية لك (١٢٢)، وأقمت المعبد (المسمى) «ذهب (١٢٣) الحياة»، الذي يتألف من ست حجرات (١٢٤)، وأربعة عمد من الحجر.

وفي حلم آخر (١٢٥) تحدث إليَّ واحدٌ (١٢٦) قائلًا: إن بيت الملك يئولُ إلى الخراب ولا أحد، (١٢٧) يُمكنُهُ الدخولُ فيه، (١٢٨) فبنيت بيت الملك و(١٢٩) أربعة بيوت في «نباتا» وكذلك ستين بيتًا، (١٣٠)، وأمرت بإحاطتها بجُدران، و(١٣١) فضلًا عن ذلك أنشأت حديقة (١٣٢) طول الجانب منها خمسون ذراعًا (١٣٣) مجموع أضلاعها مائتا ذراع.

الأشجار والهدايا الأخرى

(١٣٤) وفضلًا عن ذلك أمرت بأن تغرس لك (يخاطب آمون) (١٣٥) ست حدائق نخل، (١٣٦) في كل واحدة كرم في «نباتا» والمجموع ست و(١٣٧) منحتك حدائق النخل المزدوجة (١٣٨) التي في «باروات» ومجموعها ستة (١٣٩) وأمرت بتقريب قربان لمدة ليلة و(١٤٠) يوما، مقدار مائة وخمسة عشر مكيالًا من القمح، وثمانية وثلاثون مكيالًا من الشعير (١٤١) مجموعُها الكُلِّيُّ ١٥٣ مكيالًا من القمح والشعير، (١٤٢) وأمرتهم بألا يتركوا (١٤٣) بلادًا مستثناة دون (١٤٤) أن أكون قد أصلحتها إلا إذا (١٤٥) كانت خالية من السكان.

مواكب أعياد لآلهة مختلفين

(١٤٦) وقد أعطوا الكلمة (١٤٧)، وأمرت بإقامة عيد لأوزير في … (١٤٨) وأمرت بإقامة عيد لأوزير في «باروات» «مرو» (١٤٩) وأمرتُ بإقامة عيد «لأوزير» و«إزيس» في «مرتا» (١٥٠) وأمرت بإقامة عيد «لأوزير» أربع مرات ولإزيس (١٥١) في «جررت»، وأمرت بإقامة (١٥٢) عيد «لأوزير» و«إزيس» و«حور» صاحب مدينة «سهراست» (١٥٣)، وأمرت بإقامة عيد «لأوزير» و«آمون (١٥٤) ايدي» صاحب مدينة «سكرجات» (١٥٥)، وأقمتُ عيدًا لحور في «كرتا» (١٥٦)، وأقمت عيد «رع» في «مشات» (١٥٧)، وأقمت عيدًا «لأنحور» في «ارتانيت» (١٥٨)، وأقمت عيدًا «لأوزير» في «نباتا» (١٥٩) وأقمت عيدًا «لأوزير» في «نهانات» (١٦٠)، وأقمت عيدًا «لأوزير» و«إزيس» في «باجمت»، (١٦١)، وأقمت ثلاثة أعياد «لأوزير» في «بنوبس» أبديًّا، (راجع: Urkunden Der Alteren Athiopenknige, p. 113–136; Budge. Annals of Nubian Kings p. 117–139).

تعليق

إن كل ما لدينا من معلومات عن تاريخ هذا المِلك الذي عمر طويلًا على عرش الملك — على حسب نظرية الأستاذ ريزنر، وأولئك الذين كتبوا في تاريخ بلاد السودان في تلك الفترة، أمثال «ماكادام» و«دنم» — ينحصر فيما خلَّفه لنا في جَبَّانة «نوري» وهو هرمه وملحقاتُهُ، وما تركه من نقوش على جدران معبد «تهرقا» في «الكوة»، وكذلك اللوحةُ التي وُجدتْ في الجبل المقدس؛ أي جبل «برقل»، وأول ما يَلفت النظرَ في مُدَّةِ حُكْمه الطويل أَنَّ البلاد — على ما يظهرُ — كانت هادئة نسبيًّا، على الرغم من الحروب التي شَنَّها هذا الملكُ على القبائل الخارجة، والواقعُ أن هذا الملك كان شديدَ البأس، وأن حملاته على بلاد أعدائه قد أتاحتْ فرصة لشغل جنوده من جهة، كما أن الغنائم التي رجع بها منها قد عادتْ على بلاده بالخير العميم، كما أرضت كهنة آمون، وغيرهم من كهنة الآلهة الآخرين، وبذلك لم يكونوا حربًا عليه.

ولا نكونُ مبالِغِين إذا قَرَنَّا هذا الملك من حيث الحملات الحزبية التي سار على رأسها واتساع فُتُوحه بالفرعون تحتمس الثالث، مع الفارق أَنَّ الأخيرَ كان يحكمُ إمبراطوريةً مترامية الأطراف، وأن الأول كان ينحصر مُلكه في بلاد السودان وحسب.

والمتنُ الذي نحنُ بصدده الآن نجد فيه — بعد سرد أسماء الملك «حرسيوتف» وألقابه — أنه يصف لنا حُلمًا رآه في منامه ظهر له فيه الإلهُ «آمون رع»، ومنحه أرض النحسي

«السودان». والظاهر أن مصر في تلك الفترة كانت دولةً قويةَ الجانب، فلم يطمع هذا الملك في فتحها،[٢] ومن ثم جعل وِجهتَه فتحَ أقاليم «النيل الأزرق» و«النيل الأبيض»، وذلك بوحيٍ مِن آمون جاءه في رؤيا رآها، وفي خلال هذه الرؤيا وضع «آمون» تاجَ الملك على رأس هذا الملك، وبعد أن شَجَّعَه بنظراتٍ مِلؤُها الحنان والمحبة؛ أخبره أن يذهب إلى معبده في «نباتا»، وعندما استيقظ الملك من نومه سأل شيخًا مسنًّا عن تفسير رؤياه، فنصحه الشيخ بأنْ يُقيم مبانيه بسرعة وبقوة، وعلى أثر ذلك سافر إلى «نباتا»، وتَوَجَّهَ إلى معبد «آمون رع» وطلب إلى الإله أنْ يمنحه أرض «نحسي»، فأجابه الإله إجابة مرضية، ووعده أن يمنحه مُلْكَ هذه الأرض وأركان العالم الأربعة، وأن يُغدق على البلاد غيثًا عميمًا وماءً غزيرًا، وأن يقضي على أسلحة أيِّ عدو، وعلى كل عدو يجسر أن يُغير عليه، وفي أثناءِ وقوفِ الملك في المحراب يظهر أن الإله قد منحه بعض أشياء، غير أن معنى المتن هنا غامضٌ؛ فلم يمكنْ فَهْمُ كنهه.

وبعد أن تسلم هذا الملك عرش بلاد «النوبة» من «آمون رع صاحب نباتا» بدأ يزور محاريب آلهة المديريات الرئيسية في البلاد؛ لأجل أنْ يحصلَ على بركاتهم ومساعدة كهنتهم التي كانت ذاتَ قيمة عظيمة في تلك الفترة من تاريخ وادي النيل كله، كما نَوَّهْنَا عن ذلك في غير هذا المكان من هذا الكتاب، ومِنْ أجل ذلك ذَهَبَ إلى محراب «آمون رع صاحب جم آتون» (سدنجا؟) ومحراب «آمون رع صاحب بنوبس» ومحراب الآلهة «باستت صاحبة تارت»، وفي كُلِّ محراب ذهب إليه أخبر إلهه ما قاله له «آمون صاحب نباتا»، وقدم ضحايا وتَعَبَّدَ إليه، والظاهرُ أنَّ الكهنة لفتوا نَظَرَه إلى معبد «آمون-صاحب تار الجنوب» الذي كان جاريًا بناؤُهُ، والذي كان ينقصُهُ المالُ — على ما يظن — لإتمامه، وعلى أثر ذلك تَوَلَّى — في الحال — أَمْرَ هذا المعبد بنفسه، فلم يلبث أنْ أَتَمَّ بناءَ المعبد وتزيينه في مدى خمسة أشهُر بعد ذلك.

ولَمَّا عاد إلى «نباتا» وجد أنَّ معبد «ابت سوت» كان في حاجة إلى المال، فمنح الخزانةَ أربعين دبنًا مِن الذهب لتنفق على هذا العمل، وهذا المبلغ يُساوي الآن حوالي ٤٢٠ جنيهًا، ثم أخبر بعد ذلك أن بيت المرضى — ويحتمل أن يكون مستشفى الكهنة وأُسَرِهم — كان بدون مال، وأن المبنى نفسه كان في حالة خربة، وعلى ذلك أرسل — في الحال — إلى إقليم

[٢] لم تتعد جنودُهُ أسوان؛ كما جاء ذلك في المتن الذي نحن بصدده.

«أركات» للحصول على خشب السنط لبنائه من جديد. والمتن هنا ليس واضحًا تمامًا، غير أنه من المؤكد أن الملك صرف أربعين دبنًا (= ٤٢٠ جنيهًا) أُخرى على هذا البناء، وليس من المعقول أنه صرف كُلَّ هذا المال في تزيينه، وعلى ذلك فإن المبلغَ الأخيرَ قد صرف على إحضار الخشب من «اركارت»، وموقعُ هذا الإقليم مجهولٌ لدينا، غير أنَّ خشب السنط كان — على ما يظن — قد أُحضر من مكانٍ ما جنوبي بلدة «الخرطوم»، ويُلحظ كذلك أن الملك «حرسيوتف» قد مَدَّ هذه المؤسسة بهبة من المال قدرها عشرين دبنًا (= ٢١٠ جنيهًا).

والأسطر الخمسة والعشرون التي تلي ذلك تحتوي على قائمة بالأشياء التي وهبها الملك «حرسيوتف» «لأمون صاحب نباتا»، وتحتوي على قلائدَ من الذهب للإله، وأشكال للإله «آمون» ولآلهةٍ أُخرى من الذهب، وصدريات، وخرز بكميةٍ كبيرةٍ من الفضة، وتسع أوان من الفضة، ومصابيح وقواعد مصابيح إلخ ... والجملة ٣٢ إناءً من الشبه، وخلافًا لهذه الأشياء قدم مقادير كبيرة من عُطُور المر والشهد والبخور.

وبعد ذلك وجه «حرسيوتف» نشاطه وماله لإصلاح بيت الألف سنة الذي كان قد أصبح خربًا، فأعاد بناءَه وأضاف له خارجةً ذات عمد وحظيرة للماشية طولها ١٥٤ ذراعًا (؟) ثم أَعَادَ بناء مبنًى صغير خاص بالمعبد، وفي مناسبة أُخرى أهدى الإله خمسمائة ثور، وجراية يومية تتألف من وطابين كبيرين من اللبن وعشرة خُدَّام ومائة عبد وخمسين أَمَة. وكُلُّ هذه الهبات قد قدمها الملك في خلال السنة الأولى مِن حُكمه، وبعد أن جازى الإله آمون وكهنته بسخاء لانتخابه ملكًا، وأرضى كل آلهة المديريات في مملكته؛ فإنه كان في استطاعته أن يُحول عنايته للقيام بحملاتٍ كان القصدُ منها الإغارة والحرب لتأديب القبائل المُغيرة على أملاكه؛ ففي حملته الأُولى التي وقعتْ في السنة الثانية من حكمه هاجم قوم «رهرهس» الذين يحتمل أنهم كانوا يسكنون الصحراء الشرقية، وكانوا قبائل بدو يعيشون على سلب القوافل ونهبها، وذلك أنه على الرغم من أن الملك «حرسيوتف» قد ذبح منهم خلقًا كثيرين فإنه لم يعد بغنائمَ تستحقُّ الذِّكْر.

ووقعتْ حملتُهُ الثانيةُ في السنة الثانية مِن حُكمه، وكانت موجهةً على قوم «مثث»، وقد ذبح منهم عدد عظيم، غير أنه لم يَعُدْ بغنيمةٍ ذات أهمية، وقد بدأ هاتين الحملتين في أثناء فصل الشتاء، والظاهرُ أن الغرض منهما كان لتطهير الصحاري من اللصوص، وكذلك لتدريب رجال جيشه على الكرِّ والفر.

وفي الحملة الثالثة التي وقعتْ في السنة الخامسة من حكمه أرسل رماته وخيالته على قوم «مثث» فحاربوا في موقعة مع أهل هذه الأرض عند «نروات» وغلبوهم، وذبحوا أعدادًا كبيرة منهم، كما قتلوا أميرًا منهم.

وفي السنة السادسة من حُكْمه قامت الحملةُ الرابعةُ، وكان مرماها بلاد «مثث» أيضًا، وفي هذه المرة نجدُ أنه لم يكتفِ بهزيمة جيش «مثث» وقتل عدد عظيم منه، بل فضلًا عن ذلك خَرَّبَ مُدُنَهم، واستولى على كل أنواع الماشية والعبيد والذهب، وقد ألقى ملك «مثث» السلاح وقَدَّمَ خضوعه قائلًا: «إنك إلهي وإني خادمك، وإني امرأة.»

وعندما عاد ملك بلاد «النوبة» من «نباتا» ذهب توًّا إلى معبد «آمون» وقَاسَمَهُ الماشيةَ التي استولى عليها.

وبعد فترة خمس سنوات زَحَفَ في حملته الخامسة في السنة الحادية عشرة من حُكْمه ووَجَّهَ هُجُومَه على مكانٍ يُدعَى «عقنات» وحاصره القائدُ النوبيُّ المسمى «قاسو»، وقد هرب كل من الرئيسين الثائرين «برقا» و«سأمنسا» إلى «أسوان»، ولكن القائد «قاسو» اقتفى أثرَهُما وذبَحهُما، وأهلك مِن قَومِهما خلقًا كثيرين، وبعد ذلك بخمسة أعوام في السنة السادسة عشرة من حُكمه قام الملك «حرسيوتف» بحملته السادسة، فهاجم مختمي (؟) بنجاح، وقتل رُماتُهُ عددًا عظيمًا من سكانها، وساق أمامه غنيمةً تشمل أحسن ماشيتهم.

وفي السنة الثامنة عشرة من حُكْم هذا الملك؛ قام الأميرُ «خروا» حاكم «باروات» (مرو) لمهاجمته على رأس جيشٍ مؤلفٍ من بدو قبائل «رهرهس»، فقام «حرسيوتف» لمقابلته، وفي القتال الذي نشب بينهما هُزم «خروا» وقُتل من جيشه عددٌ عظيمٌ، وتشتت شملُ الباقي، وهرب هو في جنح الظلام، وهذه كانت الحملة السابعة التي قام بها الملك «حرسيوتف»، وبعد انقضاء خمسة أعوام على هذه الحملة؛ أي في السنة الثالثة والعشرين من حُكمه قام بحملته الثامنة، وكانت موجهةً على رئيس آخَرَ يُدْعَى «أروا» الذي كان قد جمع جيشًا عَرمْرمًا من بين قبائل «رهرهس» وعسكر في «مرو»، وهناك نشب قتالٌ عنيفٌ، ولكن النوبيين هزموا جُمُوعَ العَدُوِّ المتحدة من أهل الصحراء الشرقية، وقتلوا منهم خلقًا كثيرين.

وتَدُلُّ شواهدُ الأحوالِ على أن «أروا» كان يُساعدُهُ رئيسٌ محلي يُدعَى «شيكار» (؟) الذي كان قد أحضر قوةً معه، ولكن في هذه الحالة — كما كانت في الحالات السابقة — نجد أن ساعدي آمون القويتين قَصَمَتا ظهرَ قوةِ العدو، وانتصر رماة النوبيين وخَيَّالتهم انتصارًا عظيمًا تامًّا عليهم، وبعد مُضِيِّ عشر سنين على ذلك؛ أي في السنة الثلاثين من حكم «حرسيوتف» قام الأخيرُ بحملته التاسعة والأخيرة، وكان بصحبة خَيَّالَتِهِ خمسون كَشَّافًا

وانقضوا على رجال «بلدة خروت» (؟) عند «تقت»، والظاهر أنهم ذبحوا كل قوة العدو؛ إذ لم يترك منهم واحدٌ على قيد الحياة، ولم يفلت واحدٌ منهم، ولم يَستعمل واحدٌ منهم قدميه ثانية، وأسر النوبيون — فضلًا عن ذلك — ضباطَهم.

وبانتهاء هذه الحملة انتهتْ غزوات الملك «حرسيوتف» التي وصلت إلينا عنها معلوماتٌ، ولا بد أن الملك في هذا الوقت قد أخذ يَتَقَدَّمُ في السن، وإنه لَمِنَ المستحيل علينا أن نُحقق مواقعَ البلاد والممالك التي هاجمها «حرسيوتف»؛ وذلك لأنه لم يذكر إلا القليل جدًّا منها في النقوش النوبية الأُخرى التي وصلتْ إلينا، غير أنه ليس من الصعب أن نُشير هنا إلى الأقاليم التي سارتْ فيها جيوشُهُ، والتي عاش فيها أعداؤُهُ؛ فمن المحتمل أن أَلَدَّ أعدائه كانوا هم قبائل الصحراء الشرقية، وهم الذين عُرفوا فيما بعد بقبائل «البلمي» والقبائل التي كانت تَدين بالطاعة لأمير «مرو».

وفي الجنوب الشرقي من «مرو» كان يقطن الأقوام الذين على حدود «إثيوبيا» والقبائل المحاربة القاطنة في الشرق والجنوب من «سنار»، وفي الغرب كانت تَقطُن قبائلُ صحراء «بيوضا»، وإلى الجنوب من هؤلاء كان يسكن القومُ الذين اشتهروا شهرةً عظيمةً بتربية الماشية، وهم الذين يمثلهم الآن قبائل البقارية، وكان السطوُ على القوافل وقتئذٍ، كما هي الحال في الأزمان الحديثة جدًّا؛ سبب كل حرب، ولم تدم قط أية مملكة سنين عديدة في بلاد النوبة، لم تكن محكومة بملك نشيط له جاه عظيم في الحرب.

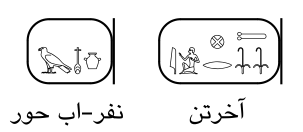
ولا نزاع في أن الغارات التي قام بها المهدي والخليفة عبد الله التعايشي في أنحاء أجزاء السودان هي كالتي قام بها الملكُ «حرسيوتف»، وإذا أمكن يومًا من الأيام أن نصل إلى تحقيق أسماء البلدان التي جاءتْ في حُرُوب «حرسيوتف»، فمن المحتمل جدًّا أن سكانها كانوا أجدادَ القوم الذين ثاروا مع محمد علي وإسماعيل باشا حديثًا، والبقيةُ الباقية من متن «حرسيوتف» تُحدثنا عن أعمالِ البناء التي قام بها، فقدْ أَعَادَ بناء معبد «بتاح» و«بيت الإله من الذهب للحياة»، ويحتوي على حجرات وقاعة عمد، وكذلك أعاد بناء قصر «نباتا» وحرمه، كما أعاد إقامة بناء كان مربعًا كل ضلع من أضلاعه خمسون ذراعًا طولًا.

وقد غرس للإله «آمون» ستة خمائل من النخيل وستة كروم، وأعطاه — يوميًّا — مائةً وخمسة عشر مكيالًا من القمح، وثمانيةً وثلاثين مكيالًا من الشعير، ومائةً وثلاثة وخمسين مكيالًا من و«مرتت» و«قررت» و«سهرست» و«سورقات» و«كارتت» الحبوب، وأخيرًا أسس أعيادًا للآلهة في أُمَّهَات بلاد النُّوبة مثل «مرو» و«مشات» و«ارتنايت» و«نباتا» و«نهانات» و«بر–قمت» و«بر–نبس».

وتدل البحوثُ التي عُملت حتى الآن على أنَّ الملك الذي خلف «حرسيوتف» قد حكم مدة تقرب من عشرين سنة؛ أي من ٣٦٢–٣٤٢ق.م؛ أي أن نهاية حكمه كانت تُقابل في مصر العهدَ الذي فتح فيه «الفرس» أرض الكنانة مرة أُخرى، ومما يؤسف له جد الأسف أن اسم هذا الملك مجهولٌ لنا حتى الآن، والظاهرُ أنه دُفِنَ في الكورو، (راجع: J.E.A. Vol. 35, p. 149; Royal Cemeteries of kush Vol. II, p. 3. Kuru l.).

ثم خلفه على العرش ملك يُدعَى «أخراتان».

الملك أخراتان (٣٤٢–٣٢٨ق.م)



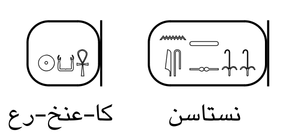
من المحتمل أن الملك «أخراتان» هو ابن الملك «حرسيوتف».

أقام هذا الملكُ لنفسه هرمًا في «نوري» يحمل رقم ١٤، ويبلُغ حجمُهُ ٢٦٫٢ مترًا مربعًا، وهو مقامٌ بالحجر الرملي على قاعدة مؤلفة من مدماك واحد، وبناء هذا الهرم رديء؛ إذ قد أُقيم على أتربة مفككة لا على أرض صلبة، ومن أجل ذلك تداعى وأصبح من الصعب الكشفُ عنه بصورة مُرْضية، ومن ثم لم يعمل له تصميم دقيق، يضاف إلى ذلك أن حرمه لا وُجُود له، كما أن مقصورتَه قد تداعتْ فوق الحُجُرات التي في مبناه السفلي.

هذا، ولم تُعرف شخصية هذا الملك إلا من قطعة حجر واحدة نُقش عليها اسمُهُ، عُثر عليها في أنقاض مقصورته، (راجع: Nuri, Ibid. Fig. 188, Pl. LXIB)، وجد في ودائع الأساس التي في أركان هرم هذا الملك جمجمةُ عِجْل، وربع عجل أيضًا. هذا، ولم يوجدْ بينها فخار، ولكن وُجدت أقداحٌ من الخزف المطلي عاريةٌ عن النُّقُوش، وكذلك وُجدتْ لويحاتٌ مِن الخزف المطليِّ والمعدن والزجاج.

وعثر لهذا الملك على تمثال فقد رأسه، من الجرانيت الرمادي بين المعبدين ٥٠٠ب و٩٠٠، في جبل «برقل»، وهو الآن في متحف بوسطن (راجع: Boston Museum No. 23735; J.E.A. Vol. VI. p. 253; A.Z. LXVII p. 83; Nuri. Pl. LXI A & p. 241; J.E.A. Vol. 35, p. 141 & Pl. XV; Porter and Moss VI p. 288, 222).

الملك نستاسن (٣٢٨–٣٠٨ق.م)



تولى الملك «نستاسن» عرش بلاد النُّوبة بعد الملك «أخراتان»، ومن المحتمل أنه ابنُ الملك «حرسيوتف»، وأعلى سنة ذُكرت لنا على الآثار في سِنِي حُكْمه هي السنةُ الثامنةُ، وأُمُّهُ هي الملكة «بلخا» التي يُحتمل أن تكون أُخْت الملك «حرسيوتف».

أقام هذا الملك لنفسه هرمًا في نوري رقم ١٥ بُني بالحجر الرملي المحلي، على قاعدة مؤلَّفة من مدماك واحد، ومداميك وجه هذا الهرم منحدرةٌ ومدرجةٌ، ويبلغُ حجمُهُ ٢٦٫٠٤ مترًا مربعًا.

وحرمُ هذا الهرم ومقصورتُهُ مبنيَّان من الحجر الرملي أيضًا، والأخيرة لها بوابةٌ وقد وُجدت في الكوة التي تكون فيها عادة اللوحةُ الجنازية في المقصورة خالية، وقد نقرت هذه الكوة في الجدار الغربي، ويُلحظ أن مبانيَ هذه المقصورة قد حُفظ منها سليمًا ما يقرب من سنتيمترين، ويشاهد في الجدار الجنوبي الداخلي منها منظرٌ يظهر فيه الملك على عرشه، وأمامه مائدة قربان من الجرانيت ويقترب منه صَفَّان من حاملي القربان، (راجع: Nuri, Ibid. Pl. LXXI, E–I)، كما وُجدت كذلك قطعةُ حَجَرٍ مِن عَتَب الباب نُقش عليها جزء من لقب هذا الملك، (راجع: Ibid. Fig. 191 & Pl LXII J)، وفضلًا عن ذلك وُجدت قاعدةٌ من الجرانيت، يُحتمل أنها لمائدة قربان، عُثر عليها في وسط المقصورة.

ودائع الأساس

وُجدت في ودائع الأساس عظامُ حيوان وأواني فخار وأطباقٌ وأقداحٌ من الخزف المطلي، ولويحاتٌ من المعدن والحجر، وكذلك يحتمل لوحة صغيرة من الزجاج عارية من النقوش، هذا بالإضافة إلى قطع قصدير غفل.

ويؤدي إلى المبنى السفليِّ للهرم سلمٌ منتظمٌ مؤلفٌ من إحدى وستين درجة، ويُلحظ أن حجرات هذا المبنى لم يكشف عنها لخطورة الوصول إليها، ويدلُّ العُثُور على ورق من الذهب وتعاويذَ على أنه قد أُودع في هذا الهرم موميةٌ مزخرفةٌ بزينة من الذهب، وعثر كذلك على مرآة من البرنز حافتها السفلى مصفحةٌ بإطارٍ من الفضة، كما نُقش عليها طغراء الملك «نستاسن»، وقد مثل على مقبض المرآة الآلهة «خنسو» و«موت» و«آمون» والإلهة «حتحور» (راجع: Ibid. Pl. XCII, B–F). هذا، ووجد له تماثيل مجيبة عددها سبعة في إحدى حجر الدفن، وهي من الخزف المطلي الرديء الصنع، ونقش على كل منها سطران بالهيرغليفية بالمداد الأسود يمكن قراءة بعضها، (راجع: Ibid, Fig. 197 & Fig. 203 Pl. CXL).

آثار الملك نستاسن غير هرمه

لوحة دنقلة: إن أهم أثر معروف لدينا لهذا الملك هو لوحتُهُ الضخمةُ المصنوعةُ من الجرانيت، وهي محفوظةٌ الآن بمتحف برلين ويبلغ ارتفاعُها خمس أقدام وثلاثُ بوصات وعرضها أربع أقدام وبوصتان، وقد نُقش على كلا وجهيها متنٌ باللغة المصرية القديمة، ويُسَمِّي الأثري «بركش» هذه اللوحة لوحة «دنقلة»، وجاء في ملحوظة عند نهاية الترجمة التي عملها «لبسيوس» لهذه اللوحة أنه قد حصل على هذه اللوحة بوساطة «جراف ولهلم فون شليفن» الذي قَدَّمَها له «محمد علي باشا» هدية لمتحف برلين في عام ١٨٥٤ ميلادية، غير أنَّ هذه الملحوظة خاطئة؛ لأن محمد علي توفي عام ١٨٤٩ ميلادية، وقد فسر هذا الخطأ جزئيًّا بما جاء في الخطاب الذي أرسله «الجراف ولهلم» للدكتور «شيفر» الأثري المعروف حيث يقول فيه: إنه رأى اللوحة أولًا في «دنقلة الجديدة» ملقاة على الأرض عام ١٨٥٣م، وقد أزال عنها التراب وأخذ طابعًا لأحد وجهيها، وعندما عاد إلى القاهرة في الشتاء التالي أخبره القنصل البروسي في مصر أنه حصل على اللوحة من «عباس الأول» الذي كان واليًا على مصر وقتئذٍ، وقد أهداها «عباس» للملك «فردريك وليم الرابع» عاهل «بروسيا»، وقد بقيت اللوحة

في «دنقلة الجديدة» حتى عام ١٨٦٩م، عندما اهتم بأمرها ولي عهد «بروسيا» «فردريك وليم» ونقلها للقاهرة؛ وفي عام ١٨٧١م نُقلت إلى متحف «برلين» (راجع: Ausführliches verzeichniss p. 402).

وقد نشرها نشرًا عمليًّا الأثري شيفر (راجع: Urkunden der Alteren Athiopenkonige p. 137 ff; Budge Annals of Nubian Kings. p. CXVIII–CXXXII & text p. 140–169; L.D.V. 16).

وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ المكان الأصليَّ لهذه اللوحة هو «جبل برقل» مثل لوحة «بيعنخي» وغيرها من اللوحات التي وُجدت في هذه البقعة المقدسة، (راجع: Budge, Ibid. p. CXIII ff).

وصف اللوحة

الجُزء الأعلى من هذه اللوحة مستديرٌ، ويُشاهَد فيه قرصُ الشمس المجنح، نقش في أسفله مرتين المتن التالي، بحدتي الإله العظيم رب السماء مُعطَى الحياة، ونقش بين الصلين اللذَين يَتَدَلَّيَان مِن قُرص الشمس اسمُ الملك «نستاسن» وقد مثل تحت قرص الشمس هذا منظران أحدُهما على اليسار والآخر على اليمين، فيرى في الأول منهما الإله «آمون» ممثلٌ برأس إنسان وأمامه النقش التالي: «آمون رع رب تيجان الأرضين، المشرف على الكرنك مُعطَى الحياة والثبات والسلطان كله مثل رع أبديًّا.» ونقش خلف «آمون» بيان: «إني أُعطيك كل الأراضي والبلاد الأجنبية الخاصة بالأقواس التسعة جميعها تحت قدميك مثل رع أبديًّا.»

وقد مثل الملك أمام «آمون رع» يقدم صدرية وقلادة ونقش فوقه: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «عنخ–كا–رع» بن رع «نستاسن»، ونقش أمامه: «إعطاء … والده»، وتقف خلف الملك أُمُّهُ، وفي إحدى يديها صناجةٌ وفي الأُخرى إناءٌ تصب منه قربانًا، ونقش فوقها: الأخت الملكية والأم الملكية سيدة «كوش» المسماة «بلخا» لقد أعطيت تاج «نباتا»؛ لأن والدها قد ثبت محراب تاج «حور أختي» … ونقش أمامها: «إني ألعب بالصناجة لك.»

وقد مثل في الجُزء الأيمن من هذا المنظر ما يأتي: يشاهد الإله «آمون» برأس كبش ونقش أمامه: «آمون صاحب «نباتا» القاطن في المطهر (أي الجبل المقدس في «نباتا» وهو جبل «برقل») الإله العظيم المشرق على بلاد «النوبة» مُعطَى الحياة والقوة كلها أبديًّا.»

ونقش خلفه ما يأتي: «بيان: إني أُعطيك الحياة والقوة كلهما والثبات كله والعافية كلها، وانشراح الصدر، كما أمنحك سنينًا أبدية على العرش أبديًّا.» ويشاهد الملك أمامه ممثلًا كما مثل في المنظر الذي على اليسار، وقد نقش فوقه: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري ابن «رع»، «نستاسن» ونقش أمامه: «إعطاء–والده»، إني أقدم لك … دبنًا من الذهب في الشهر الأول من فصل الصيف.»

وخلف الملك نُشاهد الابنة الملكية والزوجة ملكة مصر «سخمسخ» تلعب بالصناجة وتصب قربانًا.

وفي أسفل هذا المنظر نجد متن اللوحة، ويحتوي على ثمانية وستين سطرًا، تتلخص فيما يأتي:

يبتدئ متن اللوحة باليوم التاسع من الشهر الأول من فصل الزرع (حوالي ٢٤ نوفمبر) من السنة الثامنة من سني حكم الملك «نستاسن»، ثم نجد في الأسطُر القليلة الأُولى التي تلي سلسلة الألقاب يشبه فيها الملك بثورٍ هائجٍ وأسد هصور، ثم يقرن بالإله «تحوت» من حيث «الحكمة» وبالإله «بتاح» بوصفه مهندس عمارة و«بآمون» بوصفه يمد الإنسان بالطعام، ثم نقرأ بعد ذلك أنَّ الملك «نستاسن» ملك الجنوب والشمال يُنَادِي كُلَّ فرد لينصت لِمَا سيقولُه، ثم ينطلق في سرد أهم الحقائق في حياتِهِ، ويصف الحملات التي شَنَّهَا على أعدائه، فعلى حسب القصة التي رواها عن نفسه يُحَدِّثُنا أنه عندما كان صبيًّا طيبًا في «مرو» ناداه الإله «آمون» صاحب «نباتا» وأمره أن يأتي إليه هناك.

وقد دعى كل أقارب الملك أن يأتوا معه ولكنهم أَبَوْا ذلك قائلين: إنه هو حظي «آمون رع»، وعلى ذلك أخذ في السير في صباح يومٍ من الأيام، ووصل إلى «استرسات» حيث كان هناك على ما يظن قارب عبور، وهناك أمضى ليلته، وسواء أكانت هذه البلدة على الشاطئ الأيسر أم الشاطئ الأيمن للنيل؛ فإنه لا يُمكن البَتُّ في ذلك، ولكن كما لاحظ الأثريُّ «شيفر» لا بد أنه كان قد أتى إلى المكان الذي كان قبل بدايته لا بد من اختراق إلى «نباتا»، ثم تابع سيرَه في اليوم التالي، واخترق الصحراء إلى بلدة «تاقات» التي كانت على النيل على مسافة قريبة من «نباتا»، ومن المحتمل أنَّهُ سافر على جزء من الطريق القديم الذي يمتد من النيل حتى نقطة قبالة قربة «بكراوير» الحديثة إلى قرية قريبة بين «نباتا» وموقع قرية «كاسنجار» الحديثة.

ويُحَدِّثُنا الملك «نستاسن» أن بلدة «تاقات» كانت مسقط رأس الملك «بيعنخي–آلارا»، الذي لا يُعرف عنه شيء على وجه التأكيد، ولم يُذكر إلا في هذا المتن، وعندما وصل الملك «نستاسن» إلى «تاقات» أتى إليه القوم وأخبروه أن «آمون صاحب نباتا» قد وضع ملك «نباتا» عند قدميه وأرسلهم إلى معبد «آمون»، ثم ذهب بعد ذلك إلى النهر، وعبر إلى الشاطئ الآخر، وامتطى صهوة جواد، وأخذ طريقه إلى المعبد، حيث وَجَدَ الكهنةَ والأشرافَ على استعدادٍ لمقابلته، وبعد أن مر أمام المعبد دخل القاعة، وبعد أن أقام فيها كُلَّ الشعائر المفروضة ذهب إلى «بيت الذهب» أو المحراب، وأخبر الإله كل ما في صدره، ويذكر لنا استرابون (Strabo XVII 2, 3)، المحراب الذهبي في «مرو»، ولا بد أنه كان محرابًا مِن الخشب مصفح بطبقة سميكة من الذهب.

وقد كان الإله «آمون» رحيمًا وأعطى «نستاسن» ملك بلاد «النوبة» وتاج «حرسيوتف» وسلطان الملك «بيعنخي آلارا»، وبعد ذلك أمر «نستاسن» بإقامة عيد عظيم على شرف «آمون» في اليوم الأخير من الشهر الثالث من فصل الشتاء، وقد ظهر الإله بنفسه في موكب العيد، وفي هذا العيد أعطى «آمون» العاهل «نستاسن» ملك بلاد «النوبة»، وكانت «آلوت» أو «آلواه» هي العاصمة وتقع على «النيل الأزرق» على مسافة عشرة أميال فوق «الخرطوم»، كما منحه أُمم الأقواس التسعة والأراضي التي على كلا ضفتي النهر، وأركان العالم الأربعة، وقد رقص «نستاسن» فرحًا وقدم الشكر لآمون، وفرح كل الناس غنيُّهم وفقيرُهُم فرحًا عظيمًا، ثم ذهب بعد ذلك إلى مكان التضحية وأخذ ثورين وذبحهما وصعد على العرش الذهبي في «بيت الذهب» في الظل هذا اليوم.»

ولما كان «آمون نباتا» قد أصبح راضيًا، فإنه كان من الضروري أن يذهب «نستاسن» ويقدم صلاته للآلهة الذين يحملون اسم «آمون» في بلاد «النوبة»، وعلى ذلك فإنه ذهب إلى بلدة «برقم–آتون» (بالقرب من «سواردا» أو «سدنجا»)، وأقام عيدًا على شرف «آمون» الذي كان يُعبد هناك، وتحدث مع الإله هناك الذي اعترف بملكه، وأعاد كلمات «آمون صاحب نباتا» ومنحه قوسًا جبارًا، وبعد هذه المحادثة صعد «نستاسن» على العرش الذهبي واتخذ مقعده عليه، ثم ذهب إلى برنبس (بنوبس التي ذكرها بطليموس)، وأقام عيدًا على شرف «آمون» هذه البلدة، فظهر إليه الإله وتحدث معه، واعترف بملكه وأهداه بعضَ آلة حرب يحتمل أن تكون درعًا.

وبعد الفراغِ مِن هذه الأُمُور عاد «نستاسن» إلى «نباتا»، وأقام عيدًا عظيمًا على شرف «آمون»، وقَدْ خرج الإله من المعبد، وأخبره «نستاسن» بكل ما حدث بينه وبين «آمون برقم-اتن» (جمأتون) و«آمون» صاحب برنبس، والآلهة الآخرين، وبعد أن رقص الملك أمام الإله ذهب إلى مكان التضحية وأخذ ثورين وذبحهما، ثم نزل إلى حُجرة «جات» حيث مكث مُدَّةَ أربعة أيام وأربع ليال، وعندما خرج منها مرة أُخرى ذبح ثورين آخرين.

هذا، ولا نعلم شيئًا في الشعائر عن هذه الحجرة ومكث الملك فيها، وبعد التضحية الثانية بثورين ذهب «نستاسن» إلى المعبد وأجلسَ نفسه مرة أُخرى على العرش في «بيت الذهب»، وبعد ذلك بأيام قلائلَ ذهب إلى بلده «تارت» ليُقدِّم للإلهة باستت «والدته الطيبة» ولاءَهُ، وقد استقبلتْه «باستت» بلُطْف ووعدتْ أن تمنحه الحياة والعمر الطويل، ثم ضَمَّتْه إلى صدرها وأعطتْه عصًا قوية، ولا بد أن بلدة «تارت» كانت تقع حوالي الشلال الرابع؛ وذلك لأن الملك لم يأخذْ أكثر من خمسة أيام ذهابًا وإيابًا.

وقد ذكر المؤرخ «بليني» — كما أشار إلى ذلك الدكتور شيفر (راجع: Pliny, Book VI, Chapter 35) — أن قطةً مصنوعةً من الذهب كانت تُعبد في بلده «راداتا Rhadata» وهي بلدةٌ على الجانب الغربيِّ لبلاد إثيوبيا، غير أنه لا يُمكن تحديدُ موقعها، وعندما عاد «نستاسن» إلى «نباتا» أقام عيدًا آخرَ على شرف «آمون».

وعند هذه النقطة من المتن نأتي على قائمتين تُعَدِّدَان هدايا قَدَّمَها الملك «لآمون»، وتشملان أربع حدائق وستة وثلاثين رجلًا لصيانتها وصورة لآمون صاحب «بر-جم-اتن» وصورتين للإله «حور» من الذهب والفضة والنحاس وأواني شهد من النحاس وأفاويه ومر، وثيران وبقرات وعجول وغنم إلخ … ويبتدئ المتنُ في السطر التاسع والثلاثين يَقُصُّ علينا تاريخَ حملةٍ قام بها رجلٌ يُدعَى «كامبا سودن» على «نستاسن»، وقد ظن بعضُ الأثريين أن هذا الاسم مُحَرَّف اسم «قمبيز» ملك الفرس الذي عاش في أواخر القرن السادس، في حين أن «نستاسن» — على حسب أحدث البحوث — عاش في أواخر القرن الرابع بعد الميلاد.

وقد أرسل «نستاسن» جيشه من بلده «جارت» التي لا يُعرف موقعها، وقد انقض على «كامبا سودن» وقتل عددًا عظيمًا من الغُزاة، واستولى على كل مستودعاتِهم وسُفنِهم وأسلحتهم وشَتَّتَ شملهم وأجلاهم عن «كارتبت» (؟) إلى «تاروتيجت»، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن قوم «تارومن» قد ساعدوه؛ لأنه أعطاهم اثني عشر ثورًا، أمر بإحضارها من «نباتا»، وفي يوم عيد ميلاده الذي أتى بسرعة بعد ذلك أعطى ستة ثيران إلى بلدة

«ساكساكتت»، وفي يوم عيد تتويجه قدم «لآمون» نصيبًا من المحاصيل التي استولى عليها بين «كارتبت» (؟) و«تاررقت» وهو ثلاثمائة ثور وثلاثمائة بقرة وماعز … إلخ، ومائتي رجلٍ، وفيما بعد أهداه مائة وعشرة امرأة، أما باقي المتن فيحتوي على مُلَخَّص مختصر للحملات التي شَنَّهَا «نستاسن» على أجزاء مختلفة في السودان، ويُمكنُ تلخيصُها فيما يأتي:

كانت الحملة الأُولى على قومٍ بلدة أو مركز «مخنتقننت» التي يحتمل أنها واقعةٌ جنوبي «نباتا»، ويُحتمل أنها على جزيرة «مرو» نفسها، وقد استولى «نستانس» على مدينة «ايهقا» وذبح خلقًا كثيرًا من السكان، واستولى على غنيمة عظيمة من النساء والماشية، وعلى ذهب وفير، وتشتمل غنيمتُهُ على ٣٠٩٦٥٩ من الماشية و٥٠٥٣٤٩ من الغنم والماعز … إلخ و٢٢٣٦ امرأة و٣٢٢ صورة من الذهب، ويقول «نستاسن» في ختام قصته عن الحرب: لقد تركت للدود كل شيء أنتجتْه الأرض للطعام؛ أي أنه لم يترك سُكَّانًا لتأكل هذا الطعام؛ لأنه قتل كل رجل، ثم أهدى بمثابة قربان للشكر سراجًا واثنتي عشرة صورة «لآمون صاحب كاتارتيت» وقاعدتي سراج في «واست» واثنتي عشرة صدرية في «كاتارتيت» وفتح «بيت العجل المصنوع من الذهب» الذي كان يُعبد فيه «آمون صاحب نباتا» في صورة ثور.

أما الحملةُ الثانيةُ فكانتْ على قوم «ربهر» و«اكاركهار» الذين هزمهم «نستاسن» في مذبحة عظيمة، وأسر أميرهم «ربهدن» واستولى منهم على ذهب وفير حتى إنه كان من المستحيل حصرُهُ، كما استولى على ٢٠٣٢١٦ ثورًا و٦٠٣١٠٧ رأسًا من الغنم والماعز، وعلى كل النساء وكل المواد الغذائية التي في البلاد، أما الأمير فأعطاه آمون صاحب «نباتا» وقد ضَحَّى به بلا نزاع للإله؛ إذ كان من المستحيل السماح له بالحياة.

هذا، وتدل الكمية العظيمة التي استولى عليها «نستاسن» من الذهب في هذه الحملة على أن بلدتي «ربهر» و«اكارخار» لا بد تقعان على النيل الأزرق، ومن المحتمل في الجنوب الشرقي من مدينة «سنار»، والواقع أن كميات كبيرة من الذهب يُمكن الحصولُ عليها حتى يومنا هذا من جيوب في التلال هناك كما يحصل الإنسان كذلك على تبر كثيرٍ بعد غَسلِه من الطين في مجاري الأنهار.

والحملة الثالثةُ كانتْ على قوم «أررست» الذين هزمهم «نستاسن» في مذبحة عظيمة، فاستولى على «أبسة» أمير بلدة «ماشات» وعلى كل النساء وعلى ٢٢١٢٠ ثورًا و٥٥٢٠٠ رأس غنم وماعز ١٢١٢ دبنًا من الذهب؛ أي حوالي ٢١٧٢٦ جنيهًا مصريًّا، وقد أعطى الأمير للإله «آمون صاحب نباتا» على ما يظهر مقدارًا معينًا من أملاكه الخاصة.

وقد استولى «نستاسن» في حملته الرابعة التي شَنَّهَا على «مخشر خرت» على كل النساء والمواد الغذائية، وعلى ٢٠٣١٤٦ ثورًا وعلى ٣٣٠٥٠ رأسًا من الغنم والماعز، ولم يذكر اسم أمير الإقليم، ولم يتسلم آمون أي شيء من غنيمة هذه الحملة؛ وذلك لأن الملك يقول لنا إنه قد حفظها كلها لنفسه.

وفي الحملة الخامسة حارب «نستاسن» قوم «ميهكا» الذين قابل جنودُهُم جموعَه، والظاهرُ أنهم قدموا خضوعهم بوساطة شجرة جميز من بلدة «سار سارت»، ولكن المتن استمر يقول إنه حاربهم وقتل منهم خلقًا كثيرين، واستولى على أمير يُدعَى «تامخيت» وعلى كل النساء وكل المواد الغذائية وعلى ٢٠٠٠ دبنًا من الذهب (٢١٠٠٠ جنيهًا) وعلى ٣٥٣٣٠ ثورًا وعلى ٥٥٥٢٦ رأس غنم وماعز.

ويختم «نستاسن» متنه بِذِكْر عملين صالحين أداهما خدمة للدين، وذلك أن جماعة من الرجال من بلاد «مثي» التي تقع — على ما يحتمل — شرقي النيل، قد قاموا بغارةٍ على بلدة «جمأتون»، واستولوا من معبد آمون على أشياء كثيرة غالية، كانت قد أُهديت للإله من الملك «أسبالتا» فاستنجدوا بالملك «نستاسن» لمعاقبة المغرين، ولكن يظهرُ أنهم كانوا قد فَرُّوا؛ لأن متاع الإله لم يُرَدَّ إليه ثانية، ولَمَّا كان «نستاسن» لا يُريد أن لا يحرم المعبد متاعه فإنه ضَحَّى ببعض ماله مقابل الأشياء التي سُرقتْ ونُهبتْ، وفي ذلك يقول: إن آمون «نباتا» قد منحني الكنز وإني رددته «لآمون» صاحب «برجمأتون».

هذا، وقد وقعتْ حادثةٌ أُخرى مماثلة للتي نحن بصددها في بلدة «تارت» أو «ثرت»، وهي — كما رأينا من قبل — كانت تحتوي على مِحْرَاب للإلهة «باستت» وكان الملك «اسبالتا» قد أهدى بعض أشياء لمعبدها في نهاية القرن السابع، وقد بقيت في أمان حتى عهد «نستاسن»؛ أي أكثر من حوالي ٣٠٠ سنة، وفي خلال حكمه على أية حال قامت جماعةٌ من المغيرين من إقليم «متيت» واقتحموا معبد الإلهة «باستت» وسرقوا بعض الأشياء التي كان قد أهداها الملك «اسبالتا» للإلهة، والظاهرُ أن المغيرين قد أفلتوا وهربوا ولم تُرد الأشياء التي سُرقت فعوضها الملك «نستاسن» الذي دفع ثمن الأشياء الجديدة من ماله الخاص.

وفي مُقَابِلِ هذه الهدية أُرسلت بعضُ أشياء للملك، تَحمل في طياتها بركةَ هذه الإلهة وحمايتها له، وتختم النقوش بتَأَمُّلٍ ملؤُهُ الصلاحُ والإيمانُ من جانب «نستاسن» يُشيرُ فيه إلى دوام كلمة آمون وإلى الاتكال المطلق الذي يتكله الناسُ عليها لبقائهم، والآن يتساءلُ المرءُ: ما الذي نخرج به من متن هذه اللوحة الطويل، من حيث حالة البلاد بوجه عام في تلك الفترة من تاريخها؟

والواقعُ أنَّ مقدار الغنائمِ التي تدفقتْ على «نباتا» عاصمة الملك في مُدَّةٍ تَقِلُّ عن ثمانية أعوام نتيجة الحملات الخمس التي قام بها على الأقاليم المجاورة لملكه؛ كانت عظيمة جدًّا، ولا بد أن كهنة آمون وآلهتهم كانوا راضين بذلك أشد الرضا، فإذا جمَعْنا الأرقام التي ذكرها لنا، وهي الممثلة لما كسبه في الحرب فإنا نجد أنه غنم ٦٧٣٤٧١ ثورًا و١٢٥٢٢٣٢ رأس غنم وماعز … إلخ، و٢٢٣٦ امرأة و٣٢٢ صورة من الذهب أو حلقات من الذهب، و٢٣١٢ دبنًا من الذهب؛ أي ٣٣٧٢٦ جنيها، هذا فضلًا عن الذهب الذي يخطؤه العَدُّ والنساء اللاتي لم يُمكن إحصاؤهن، وكذلك المواد الغذائية والمستودعات.

ومن ثم نفهم أن فكرة «نستاسن» في شَنِّ الحرب كانت بسيطة، تنحصر في ذَبْحِ الرجال وأَسْرِ النساء والاستيلاء على الماشية والذهب والطعام، ثم ترك البلاد قاعًا بلقعًا وجَعْل الجراد يلتهم ما تُنبت الأرض، وعلى أية حال فإن حُكمه لم يكن — بحالٍ — ثابتَ الأساس؛ وذلك لأن المغيرين من الصحراء الشرقية كان في استطاعتهم أن يسرقوا متاع معبدَي «آمون» و«باستت» ويفرون بغنيمتهم دون اللحاق بهم، وقد طلب كهنة هذين المعبدين إصلاحَ ما أفسده هؤلاء المغيرون بإرجاع المتاع المفقود وحمايتهم في المستقبل، وقد أجابهم هذا الملك إلى طلبهم وأعاد للمعبدين رونقهما.

وقد كان الغرضُ الأولُ للملك مِن تعويض المعبدين عما سُرق منهما هو أن يتحاشى غضب الكهنة وتلافي عدم مساعدتهم له عند الحاجة، وبخاصة عندما نعلم أن الملوك في كُلٍّ من مصر وبلادِ النوبة كانوا يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على رجالِ الدين في تلك الفترة مِنْ تاريخِ البلدين؛ وذلك لأن زمام الشعب كان في يدهم، وكانوا قادرين على خَلْعِ أيِّ ملك وتنصيب غيره، وبخاصة في هذا العهد المليء بالمؤامرات والدسائس والحروب الصاخبة، كما تحدثنا عن ذلك في مكانه من هذا المؤلَّف.

الخلاصة

والآن بعد سَرْدِ تواريخ هؤلاء الملوك الذين حكموا بلاد السودان وهم بمعزل عن البلاد المصرية — بقدر ما وصلت إليه معلوماتُنا — نرى من الواجب علينا الاعترافُ هنا بأن المادةَ التاريخيةَ التي بَيْنَ أيدينا حتى الآن لا تَخرج عن سرد تواريخ حُكْمِ هؤلاء الملوك، وما كانت عليه مقابرُهُم المنهوبةُ مِن فقرٍ أو غِنًى، هذا بالإضافة إلى بعض لوحاتٍ أقامها بعضُ المُلُوك في المعابد التي أقامها ملوكُ الأسرةِ الخامسة والعشرين العظام بمثابة تذكار لهم وحسب، ذاكرين في النقوش التي خَلَّفُوها حُرُوبَهم وما قاموا به من أعمال جليلة لآلهتهم ومعبوداتهم في أنحاء البلاد، ونرى من خلال هذه النقوش؛ أنها كانت ترمي إلى غرضٍ واحد، وهو إرضاء الآلهة، أو بعبارة أخرى: إرضاء الكهنة الذين كانوا أصحاب القوة، وبخاصة كهنة الإله آمون.

هذا، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الشعب في ذلك الوقت لم يكن في بحبوحةٍ من العيش، فقد رأينا أنَّ الملوك كانوا يقومون بحملاتٍ تأديبية لقهر المغيرين من أهل الصحراء والبدو، وكذلك لقهر بعض الأقاليم السودانية نفسها عندما تشق عصا الطاعة، وفضلًا عن ذلك يلحظ من الأشياء التي تركها اللصوصُ الذين نهبوا مقابر الملوك والملكات الذين دفنوا في «نوري» وفي «مرو» أنه كان هناك انحطاطٌ تدريجيٌّ في الثقافة التي ورثها هؤلاء الملوك عن المصريين؛ فنجد أولًا أنه كان هناك نقص ظاهر في معرفة اللغة المصرية القديمة، وذلك أنه على الرغم من عِظم هرم الملك مالويبأماني نسبيًّا وغنى أثاثه الجنازي؛ فإنه يظهر من جهةٍ أُخرى أنه كان ملكًا ثريًّا ميسورًا، ولكن نجد بعد عصره حتى نهاية العهد المروي أن الأواني الفخارية التي وُجدتْ في مقابر مَنْ خلفه من الملوك كانت مصنوعة صناعة رديئة، كما أن صياغة الذهب كانت خشنة وغير مُتْقَنة.

يُضاف إلى ذلك أن مقابر الملوك، لم تكن تحتوي إلا على القليل من الأشياء المصنوعة من الخزف المطلي، وعلى النادر من جعارين القلب التي كانت مكتوبةً كتابةً رديئة خاطئة.

هذا، ولم تعد بعدُ الأواني المصنوعة من الحجر تُصنع محليًّا، والقليلُ الذي وُجد من الأواني المصنوعة من المرمر في مقابر الملوك والملكات؛ فإنه — على ما يظهر — قد جُلب من مصر!

أَمَّا النقوشُ التي كانت تُنقش على جدران مقاصير الملوك وحُجَر دفنهم؛ فكانت آخذةً في الانحطاط لدرجة أنَّ بعضها كان غاية في الرداءة والخشونة، أما اللغةُ المصرية فلم تكن تُفهم بعدُ، فكانت ثلاثة الأسماء الأولى من أسماء الملوك الخمسة التي كان يحملها عادة ملوك مصر؛ قد أصبحت ثابتة، وأصبحت تُنقل من ملك لآخر بوصفها جزءًا من الألقاب الملكية.

وليس لدينا من هذا العصر إلا ثلاثة نقوش تاريخية حتى الآن، أقدمها نقش الملك «أمان-نيتي-يريكي» الذي وُجد — كما ذكرنا من قبل — على جدران معبد الملك تهرقا «الكوة»، وقد كُتب باللغة المصرية القديمة، غير أن شكل الإشارات كان قد تدهور، ومِن الواضح أنه على الرغم من أن اللغة المصرية كانت لا تزال اللغة الرسمية للكتابة فإنها لم تكن لغة الكلام، ولا أَدَلَّ على ذلك من اسم هذا الملك الفَظِّ في نطقه وشكله، ويعني: «المولود من آمون «ني» (وكلمة «ني» معناها هنا البلد، وهو لقبٌ كان يُطلق على مدينة «طيبة»)، ومن المحتمل أنَّ هذا اللقب قد أتى مع آمون إلى «نباتا» وأصبح يُطلق على «نباتا».

وقد وصفت «نباتا» في هذا المتن بأنها الجبلُ المقدس لأرض «نحسي»؛ أي أرض الجنوبيين دالة بذلك على أنه كان يُنظر إليها فعلًا من قبل «مرو» بأنها إقليمٌ ناءٍ عنها، وهذا النقشُ قد ألف فيها. ويحدثنا النقشُ — كما ذكرنا سابقًا — كيف أن الملك كان في الواحدة والأربعين من عمره، عندما خلف الملك «تالخاماني» على عرش المُلك بعد موت الأخير في «مرو»، وهذا يؤكد أن ملوك السودان كانوا يقطنون «مرو» منذ زمن طويل قبل أن أصبح دفن الملوك فيها عادة متبعة، وفي زمنه كان قوم «رهرهس» — ويحتمل أنهم جزءٌ من «البيجا» — يغيرون على الإقليم الذي يقع بين النيل و«العتبرة» فأغاروا على الماشية واستولوا على بعض أسرى.

وقد أرسل الملك أولًا الجيش على «الرهرهس» وصدهم، ثم زحف — على ما يظن — بطريق البر من «مرو» إلى «نباتا» لأجل أن يتوج هناك، فوصل إلى «نباتا» في تسعةِ أيامٍ، وذهب إلى قصره في جبل برقل، وهناك أعطى القبعة الرسمية لأرض «النوبة» وهي التي

بقيت تُستعمل في بلاد النوبة حتى القرن الثالث عشر الميلادي، (راجع: Arkell, A History of the sudan, p. 192, Fig. 24).

ثم ذهب إلى معبد «آمون رع» الذي يقطن الجبل المقدس حيث اعترف به «آمون» ملكًا على البلاد، وبعد ذلك انحدر الملك في النهر إلى «كارتن»، وهي أكبر بلد بين «نباتا» و«الكوة»، وموقع هذه البلدة لم يُحقق حتى الآن (كورتى؟) ومن المحتمل أنها كانت تقع على المنحنى العظيم للنيل، وقد أغار عليها سُكَّان الصحراء الغربية، وهم الذين يسمون «مدد» ويحتمل أنهم نفس «البيجا» (وبالمصرية مجو) مرة أخرى، وعلى ذلك أرسل عليهم الملك حملةً تأديبيةً قبل أن يسير إلى «الكوة» التي وصل إليها بعد سبعة عشر يومًا من مغادرته «نباتا»، وفي «الكوة» قدم له الإله قوسًا وسهامًا أطرافُها من البرنز، ثم غادرها إلى «بنوبس» التي كانت على مقربة من «الكوة».

ومن المحتمل أنها كانت المعبد الذي في جزيرة «أرجو»، والظاهرُ أنه قطع الرحلة في يوم واحد، وعند وُصُوله ذهب إلى معبد «آمون رع» في «بنوبس» وقدم له الإله أربعة أقاليم هدية كان قد استولى عليها بمساعدة آلهة هذه الأقاليم، وهي — كما جاءت في اللوحة التي ترجمناها — «جم-امن-ست»، «سكست» و«ترهت» «مورس»، ولم يعرف أماكنها، ولكن يظن أنها في أرض «المدد» (البيجا) الذين غزوا «كار تن»، ثم عاد بعد ذلك الملك إلى «الكوة» حيث أهداه الإله هناك سبعة أقاليم استولى عليها وهي «مركر»، «ارتكر»، «اشمت»، «جركن»، «ارم»، «تاي-نبت» و«ار»، وفي «الكوة» نظف الطريق المؤدي إلى معبد «آمون»، وكان قد طغى عليه الرمل لمدة اثنين وأربعين عامًا، وهناك زارتْه أُمُّهُ كما زارتْ تهرقا أمه في مصر، ثم تحدث مع الإله آمون وأمر بإصلاح بعض المباني.

والنقشُ الثاني هو لوحة الملك «حرسيوتف» التي ترجمناها في مكانها عند التحدُّث عن هذا الملك، ويرجعُ تاريخُ هذا المتن إلى السنة الخامسة والثلاثين من حُكم هذا العاهل، وقد عُثر عليها في «جبل برقل» وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري، ويُحدثنا المتنُ عن تِسعِ حملات قام بها هذا الملكُ على أعدائه في الأراضي المجاورة له، كما ذكر لنا أسماء أماكن مختلفة، ربما يُمكن تحديدُ موقعها يومًا من الأيام بدرجةٍ أكبرَ من الدقة، أكثر مما نعرفُهُ هنا الآن على ضوءِ كُشُوف حديثة.

فقوم «مجو» (وهم البيجا الحاليون) الذين يسكنون في الأراضي شبه القاحلة الواقعة في شرقي النيل، وقد حاربوا الملك «حرسيوتف» في ثلاث حملات قام بها عليهم كما نازله في ثلاث حملات أخرى قوم «رهرهس»، هم الذين غزو جزيرة «مرو» قبل عهده كما أسلفنا،

وفي حملة أخرى هرب بعض الثوار من «اقنا» وهي في نطقها تشبه بلد: «اكن» وهي الميناء الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل على مقربة من الشلال الثاني بالقرب من «بوهن»، إلى «أسوان»، وهذا يوحِي بأنه في هذا الوقت كانت بلاد النوبة السفلى (أي إقليم وادي حلفا – الشلال) لم تكن تابعةً لأحد، بل كانت مشاعة بين مملكة «كوش» وبلاد مصر.

ويُحدثنا «حرسيوتف» في أول متنه كيف أنه علم في منام رآه أن «آمون» قد منحه عرش البلاد، ثم سافر بعد ذلك إلى «نباتا» وقد استقبله «آمون» راضيًا عنه، ثم زار بعد ذلك معابد «جمأتون» «الكوة» و«بنوبس» (يحتمل أنها أرجو) ومحراب الآلهة «باستت» في «تار» (لم يحدد مكانها، ولكن يظهر أنها تقع بين «نباتا» و«مرو»)، وقد ذكر لنا نشاطه في إقامة المباني في «نباتا» وغيرها، كما ذكر الأعياد التي أسسها في اثنتي عشرة بلدة.

ومما يلفت النظر في نقوش هذه اللوحة أنها تُشبه ما جاء على لوحة «أمان-نيتي-يريكي»؛ وذلك لأن هؤلاء الملوك كانوا يُقَلِّدون بعضهم بعضًا، من حيث الفُتُوح والمباهاة في التغالي في خدمة الإله «آمون» والخضوع لكهنته، وهذه كانت عادةً أصيلة عرفناها في ملوك مصر، عندما كان الفرعون منهم ينقل البلاد التي فتحها أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة نقلًا أعمى وينسب فتحها لنفسه دون استحياء.

والنقش الأخير هو الذي تركه لنا الملك «نستاسن» (٣٢٨–٣٠٨ق.م)، وهذا الملكُ هو آخرُ عاهل لكوش دُفن في جبانة «نوري»، وقد تَحَدَّثْنَا عن هذا المتن طويلًا فيما سبق، والخلاصةُ أنه قد تولى عرش المُلك حوالي الوقت الذي ضم فيه «الإسكندر الأكبر» أرض الكنانة إلى إمبراطوريته المنقطعة النظير. وتقصُّ علينا لوحة «نستاسن» كيف أنه طلب إليه وهو في «مرو» الذهاب إلى «نباتا» حيث نصبه آمون على «الت» التي يحتمل أنها «ألوا» وهي الإقليم الذي يقع حول الخرطوم، وكانت «صوبه» (التي تقع على بعد اثني عشر ميلًا فوق الخرطوم) عاصمته، ولم يعمل في «صوبه» هذه أعمال حفر علمية إلا مجسات قليلة غير أنه يوجد الآن في أرض كتردائة «الخرطوم» تمثال كبش عليه نقش باللغة المروية وكان قد أوتي به من صوبه إلى الخرطوم، والذي أحضره هو غوردون، وهذا يدل على أن بلدة «صوبه» في هذا الوقت كانت ذات أهمية ملحوظة.

وقد زار «نستاسن» معابد «الكوة» و«بنوبس» و«تار» عند تَوَلِّيهِ عرش الملك، كما فعل ذلك من قبل «حرسيوتف»، كذلك قام بعدة حملات حربية في أنحاء بلاده مِمَّا يُوحِي بِأَنَّ البلادَ لم تكن في سلام، بل كانت الأخطارُ تزداد فيها بدرجةٍ عظيمة، والواقعُ أنه كان

في مقدور قوم «البيجا» أن يسرقوا من معبدَي «الكوة» و«تار» أشياءَ من الذهب كانت في أمان منذ عهد الملك «اسبالتا»، وفي كلا الحالتين لم يقبض على اللصوص، واضطر الملك أن يصنع بدلًا منها من ماله الخاص في معبدي هذين الإلهين.

وبعد عهد هذا العاهل تبتدئ بلاد كوش عهدًا جديدًا، خارجًا عن نطاق هذا الكتاب.

لمحة في تاريخ مملكة «فارس» وتكوينها

مقدمة

تحدَّثنا فيما سبق عن مملكة «آشور» ونشأتها وفتحها بلاد «مصر»، ثم أَلَمْحنا إلى زوالها من عالم الوجود، وتحرير «مصر» من سلطانها الغاشم، وطبعي أن نتحدث الآن عن المملكة التي احتلت مكان «آشور» في العالم المتمدين وقتئذٍ، ومَدَّتْ نُفُوذَها وسلطانها على أرض الكنانة، وأعني بذلك: دولة «فارس» التي قامت على أنقاض دولتَي «عيلام» و«ميديا»، وهما المملكتان اللتان كانتا تُعَدَّان أكبرَ منافس لدولة «آشور» وقت أن كانت في عِزِّ مجدها وسؤددها، وسنحاولُ هنا أن نضع مختصرًا عن أصل قوم «فارس» وعن نشأتهم وامتدادِ فُتُوحِهِم؛ حتى يسهل علينا فهمُ العلاقات التي كانت بين وادي النيل وبلاد الفرس، عندما غزت الأخيرةُ واديَ النيل وحَكمتْه مدة طويلة من الزمان.

فقد بدأت تسيطر «فارس» على «مصر» منذ ٥٢٥ق.م، واستمرتْ تحكمها حتى عام ٤٠٤ق.م، عندما انتفضتْ «مصرُ» انتفاضتها الأخيرة، وطردتِ الفرس، واستقلتْ بشئونها، وظلت عزيزة الجانب حتى عام ٣٤١ق.م، عندما دخلها الفرسُ ثانية لكن لفترة قصيرة استمرتْ حتى دخلها «الإسكندرُ» المقدونيُّ عام ٣٣٢ق.م، ولم تَذُقْ «مصر» بعد ذلك حلاوةَ الاستقلال حتى عام ١٩٥٢م، عندما تولى شئونَها مصريٌّ صميمٌ، أعاد لها استقلالَها الغابر ومجدها التليد.

«عيلام» و«آشور»

ذكرنا عند البحث في تاريخ «أور»،[1] الدور الذي قامت به «عيلام» في مناهضة مُلُوك «آشور»، وذلك في سبيل المحافظة على استقلالها وحُريتها، ولكن لدينا فترةٌ في تاريخ «عيلام» — وهي المدةُ التي تقعُ بين القرن الثاني عشر ومنتصف القرن الثامن قبل الميلاد — لا نعلم خلالها شيئًا تقريبًا عن أحوالها وسَيْر الأُمور فيها اللهم إلا إشارات عابرة جاء فيها أنها كانت في حروبٍ مستمرة من وقت لآخر مع دولة «آشور».

وينسب غُموض تاريخ مملكة «عيلام» وقتئذٍ؛ أولًا: إلى عدم وجود مصادر يُعتمد عليها، ويرجع سبب ذلك إلى الحوادث الخارجية والداخلية التي نتج عنها قلبُ نظام الحكم وارتباك الأحوال بصورة مُفْزعة، فمن بين الحوادث الخارجية ما شُوهِدَ من استقرار عناصر سلالات جديدة في تلك البلاد مما أَثَّر في إضعافها، ونخص بالذكر من بين هذه السلالات القبائل الفارسية، وكذلك قوم الآراميين الذين كانوا يسكنون فعلًا منذ زمن طويل على شاطئ نهر «دجلة» الأيسر.

وقد وجدنا قوم «فارس» يقطنون فعلًا حوالي عام ٧٠٠ق.م في «بارشوماش» الواقعة على جانب جبال «بختياري» في الجهة الشرقية من «شوشتار»، في الإقليم الواقع على نهر «قارون» بالقُرب من الحلقة العظيمة التي يؤلفُها هذا النهر العظيمُ قبل أَنْ يَتَّجِهَ نحو الجنوب.

ولم تكن «عيلام» وقتئذٍ من القوة بحيث تقف في وجه استيطانهم في هذا الإقليم الذي كان — على أية حال — يؤلف جُزْءًا من ممتلكاتهم، وكان الفرس مع اعترافهم — على أغلب الظن — بسيادة «عيلام» عليهم؛ قد أسسوا بقيادة ملكهم «أخامنيس»،[2] مملكتَهم

---

[1] راجعْ مصر القديمة الجزء ١١.

[2] كان مؤسس المملكة الفارسية يُدعَى «هاخامانيش» أو «أخامنيس» وكان في الأصل أمير قبيلة «باسارجادا Pasargade»، وكانت عاصمته تحمل نفس اسم القبيلة، ولا تزال بعضُ مدنها باقية حتى الآن من عهد «سيروس» العظيم (أو «كورش» العظيم)، على أنه ليس لدينا معلوماتٌ أكيدة أكثر عن أعمال «أخا منيس» هذا الذي تنتسب إليه كل ملوك الفرس القدامى، لكن احترام ذِكْراه بدرجةٍ عظيمةٍ قد يبرهن على أنه — في واقع الأمر — قد صهر القبائل الفارسية الخشنة الأصل إلى أُمَّةٍ قبل أن تظهر على مرسح التاريخ، وقد ظن البعضُ أن اسم «أخامنيس» إن هو إلا حديث خرافة (راجع: Sir Perey sykes: A History of Persia Vol. I. p. 142).

الصغيرة وأطلقوا عليها اسمه، وقد شاءت الأقدارُ فيما بعد أَنْ يَلْمَعَ اسمُهُ في عالم التاريخ بصورةٍ منقطعة النظير؛ فقد أُطلق على دولة «فارس» اسمه وأصبحت تذكر في التاريخ بالدولة الأخمينيسية.

وكانت الحروبُ في خلال تلك الفترة بين «آشور» و«عيلام» لا يخمد أوارها سنويًّا — كما أسلفْنَا من قبل — بسبب ما كان للعيلاميين مِن مكانة بارزة في الشئون البابلية، فمِن ذلك أن ملكهم «هوبان أمان» جمع جيشًا عظيمًا (٦٩٢–٦٨٨ق.م) عندما أراد أن يُعاضد الأطماعَ المشروعةَ التي كان يَدَّعِيها ويسعى لتحقيقها أمير «بابل» لمساعدته على «آشور»، وفي خلال الحروب التي نشبتْ بينَ هاتين الدولتين؛ سمعنا للمرة الأُولى عن الفُرس وعن «بارشوماش».

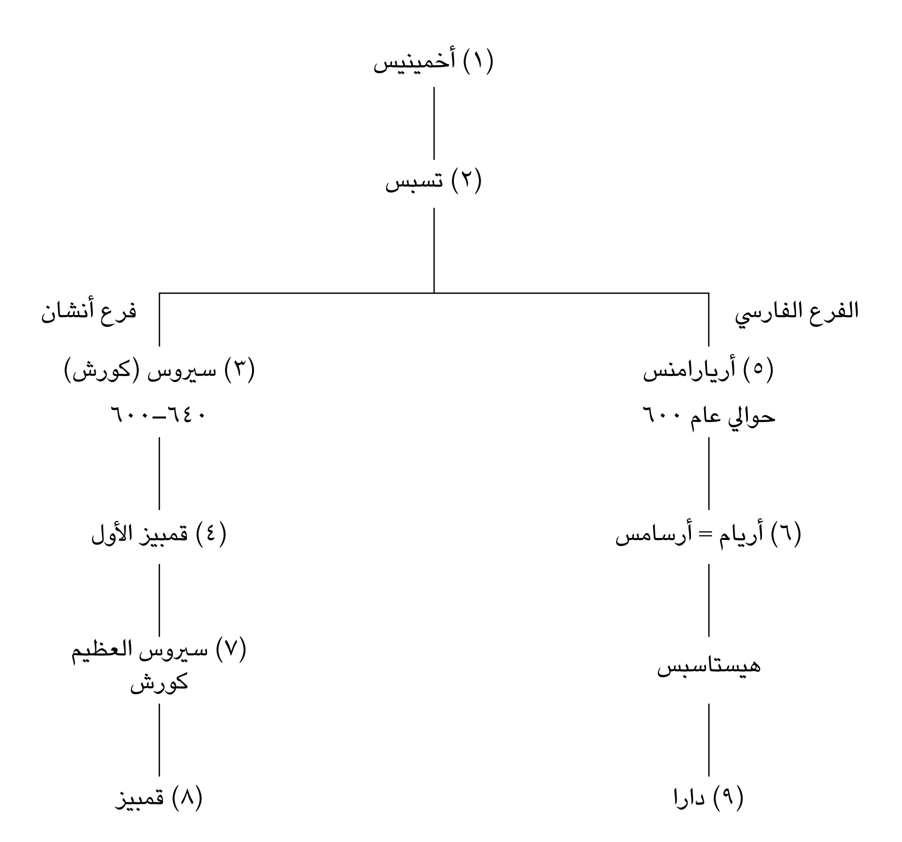
وعلى أية حال حارب هذا الملكُ الآشوريين في موقعة دامية في «هللولي» غير أنها لم تكن حاسمةً، وبعد هذه الموقعة بقليلٍ نجح «سنخرب» ملك «آشور» في الاستيلاء على «بابل»، ومن ثم أُجبرتْ مملكة «بابل» مرة أُخرى على الانزواء في عقر دارها.

ولما كانت بلاد «آشور» تُتابع إخضاعَ أعدائها فإنها بذلك أثقلتْ كاهل بلاد «عيلام» من الوجهتين الحربية والسياسية، وبخاصة أن نجمها كان قد آذن بالأُفُول، وتفسيرُ ذلك أن سياسة «آشور» من جهة كانت ترمي إلى تمزيق البلاد المجاورة لها، ومن جهة أُخرى كانت خُطَّتُها معاضدة الأمراء المجاورين لها، غير أنها كانت تخص بهذه المعاضَدة الأقوامَ الذين كانوا يأخذون على أنفسهم المواثيقَ أَنْ يَبْقَوا على الولاء للعرش الآشوري، وقد دَلَّت الأحوالُ على أَنَّ مُلُوكَ «آشور» كانوا يُنَصِّبون ويعزلون ملوكَ «عيلام» على حسب إرادتهم ومقتضيات الأحوال الملائمة لسياستهم، وفي خلال هذا الجو القاتم انقسمت بلادُ «عيلام» على نفسها، فكان فريقٌ مِن أهلها يُشايع «آشور» وفريقٌ يناهضها، وكانت مملكةُ «فارس» الصغيرة في تلك الفترة مستمرةً في تثبيت سلطانها ومَدِّ نُفُوذها شيئًا فشيئًا.

وقد أَشَارَ ملك الفرس «دارا» في نقوش «بهيستون Behistun» إلى تقسيمِ مملكة «فارس» إلى هذين الفرعين، حيث يقول: «يوجدُ ثمانية من نسلي قد تولوا الملك من قبلي وأتى تاسعهم فكنا في فرعين ملوكًا».

وهذا يتفق مع القائمة التي أوردناها هنا: (راجع: Lehmann–Haufst Klio VIII 495; Skes: A History of persia p. 142–143).

وسنورد هنا قبل الكلام عن حكم أسرة أخمينيس سلسلة نسبه



«تسبس» ملك «أنشان» (٦٧٥–٦٤٠ق.م)

كان «تسبس» بن «أخمينيس» وقتئذٍ يحمل لقب ملك مدينة «أنشان»، ويُسيطر على الإقليم الذي يقع في الشمال الغربي من «بارشوماش»، وإذا كان هذا الملك الصغير قد أفلت من سيادة «عيلام» عليه فإنه كان مضطرًّا — على حسب رأي «هردوت» — أن يعترف (حوالي ٦٧٠ق.م) بسيادة «ميديا» عليه في عهد ملكها «فراأورتا-كاستراتا Phraorta-kastrata» وهذا الأخيرُ كان قد أَلَّفَ حِلْفًا عظيمًا غرضه القيام بهجوم على «آشور»، غير أن خيبة هذه المحاولة مضافة إلى موت «كاسترانا» عام ٦٥٣ق.م — وقد جاء ذلك على أعقاب غزو السيثيين والميديين مدة عشرين سنة — قد مهد الطريق للملك «تسبس» للاستيلاء على «ميديا»، ومن ثم أصبح «تسبس مواجهًا لدولة «عيلام» التي كانت سائرة نحو التدهور التام، فأخذ يمد في حدود بلاده فأضاف إليها «بارسا» أو «فارس» الحالية.

وقد دلت شواهد الأحوال على أن سياسة «تسبس» الحازمة المنطوية على الصبر والأناة كانت ذات أثر عظيم في مستقبل مملكته الفتية التي زاد في حُدُودها ووَسَّعَ رقعتها، وعلى الرغم من سياسته الجريئة فإنه كان في الوقت نفسه حازمًا؛ إذ قد تجنب — بقدر المستطاع — الدخول في الحروب التي كانت دائرة بين الممالك العظمى وقتئذٍ، وعندما استنجدت «عيلام» بالملك «تسبس» لمناصرة ملك «بابل» «شاماش-شوم-أوكيد» الذي خلعه «آشو بنيبال» رفض رفضًا باتًّا الدخول في مثل هذه المغامرة.

وكانت مملكة «فارس» عند موت «تسبس» تحتوي على إقليم «بارشوماش» مضافًا إليه إقليمي «أنشان» و«بارسا»، وقد قسم هذا العاهل بلاده بين ابنيه «أريارمن» الذي ولد في أحضان الملك حوالي عام ٦٤٠–٥٩٠ق.م، وقد أصبح ملكًا عظيمًا ولقب «ملك الملوك» وملك بلاد «بارسا»، وبين «سيروس» الأول (حوالي ٦٤٠–٦٠٠) وهو الذي أصبح فيما بعد يلقب «بالملك العظيم» ببلاد «بارشوماش»، وقد عُثر له على أثر هام بطريق الصدفة في

«حمدان»، وهو لوحة من الذهب نُقش عليها بالخط المسماري وباللغة الفارسية القديمة ألقاب الملك «اريارمن» ويقول فيها هذا الملك: «إن بلاد فارس هذه وهي التي يمتلكها مجهزةً بخيل جميلة ورجال طيبين، وإن الإله العظيم «أهورا مازدا» هو الذي أعطانيها وإني ملك هذه البلاد.»

ولا نزاع في أن هذه اللوحة تُقَدِّم لنا أقدم أثر أخمينيسي معروف حتى الآن، منقوشٌ عليه أقدم متن فارسي، وهذا المتن يكشف لنا — بلا ريب — عن التقدُّم الهام الذي كان قد تم فعلًا منذ أوائل القرن السابع قبل الميلاد على يد القبائل الفارسية التي لم تكد تنتقل من حياة الجولان إلى حياة شبه مستقرة، وتُعَبِّر حروفُهُم الأبجدية — بمساعدة بعض العلامات المسمارية — عن وُجُود تقدم فعلي مُحَسٍّ بالنسبة للكتابات الرمزية المقطعية الآشورية أو العيلامية التي بقيت مستعملة، وهي التي أوحت بتكوينها وإبرازها إلى حَيِّزِ الوجود.

هذا، ونجد أن الفرس في فجر تاريخهم عندما كانتْ مملكتُهُم الصغيرة لا تزال في عز نشأتها وتأليفها؛ قد حققوا ما كان من الصعب أن يصل إليه سكانُ الهضبة الإيرانية في مدة قُرُون، بل وفي مدة آلاف السنين، وأعني بذلك: التعبير عن لغتهم بوساطة كتابة خاصة بهم، على أن لوحة «اريارمن» السالفة الذكر لم تكن الوحيدةَ مِن نوعها التي كشف عنها كما سنرى بعدُ، وقد كانت — على ما يظهر — تَفُوقُ حَدَّ المألوف من حيث كتابتها، لدرجة أن بعض العلماء قد شَكُّوا في قِدَمِها وادَّعَوْا أنها محضُ تزييف.

والواقع أن الفرس — منذ بداية تاريخهم — قد برهنوا على عبقرية وقوة ابتداع، كما برهنوا على أنهم تَبَنَّوْا فكرةً جاءت إليهم من الخارج، كانوا يعرفون كيف يشكلونها على حسب عبقريتهم ومزاجهم، فتبرز في ثوب جديد مميز.

وقد وقعتْ في «عيلام» حوادثُ أَدَّتْ إلى إعلانِ «آشور» الحرب عليها، وذلك أن «تماريتو» ملكها الذي كان يُعِدُّ نفسه مواليًا لدولة «آشور» قد خُلع عن عرشه على يد قائدٍ مِن أهالي البلاد فهرب، ولكنه وقع أسيرًا في أيدي الجُنُود الآشوريين، وقِيدَ إلى «نينوه»، ولم يمضِ طويلُ زمنٍ حتى ظهر أن ملك «عيلام» الجديد كان متأرجحًا بالنسبة لولائه لدولة «آشور»، وقد زاد الطين بلة أن «آشور بنيبال» كان قد قَرَّرَ أن يضرب في تلك اللحظة ضربته القاصمة «لعيلام».

وقد كان أمام القيادة الآشورية في هذه الحالة غرضان، وهما: الزحف على «سوس» في الجنوب و«ماداكتوا» في الشمال بوادي «الكرخ» الأوسط، وقد كان مصير «ماداكتوا» أن استولى عليها كما سقطت عدة مدن أُخرى عيلامية تقع على امتداد هذا النهر، وبعد

هذا النصر ولَّى العاهل «آشور بنيبال» على البلاد العيلامية ملكًا جديدًا يُدعَى «تماريتو» في بلدة «سوس»، على أن هذه الحال لم تدم طويلًا؛ إذ خلع الملك الجديد الذي كانت تحميه «آشور»، وقد طلب النجدة من «آشور بنيبال» ثانية، فسار لنجدته على رأس جيش عظيم، وكان عازمًا في هذه المرة القضاء على «عيلام» قضاء مبرمًا، وقد تم له ما أراد.

والواقعُ أن دولة «آشور» التي كانت وقتئذٍ تنحدر نحو الأفول؛ إذ لم يكن قد بقي من عمرها أكثرُ من ربع قرن من الزمان، قد قضتْ على «عيلام»، وذلك أن «آشور بنيبال» قد استولى على «ماداكتوا»[١] كرة أخرى وعبر «نهر الكرخ» إلى «سوس»، إلى «سوس»، ثم قفا أثر ملك «عيلام»، وكذلك استولى على عددٍ عظيمٍ من القُرى العيلامية، وبعد ذلك تابع الآشوريون زحفهم حتى عَبَرُوا نهر «أديدي» وهو نهر «أيئدين» الحالي، ووصلوا في زحفهم حتى بلدة «هيدالو» التي يجبُ أنْ تكون واقعةً في إقليم «شوشتار»، وقد اندفع القائد الآشوري في زحفه نحو الشرق حتى وصل إلى بداية جبال «بختياري» وهي التي تعد الحد الغربي لملكة «بارشوماش». وقد أطلق الكُتاب الآشوريين على ملك هذه البلاد اسم «كورش» وهو «سيروس» الأول ابن الملك «تسبس»، وقد رضي هذا العاهلُ أن يقدم ابنه الأكبر المُسَمَّى «أروكو» رهينة على ولائه لملك «آشور» عندما ظن الأخير به الظنون.

وهذا الحادثُ الذي يضع أمامنا أول اتصال مباشر بين «فارس» و«آشور»؛ يقدم لنا معلومات غاية في الأهمية عن تحديد إقليم «بارشوماش» الذي يحتوي على المركز الذي يوجد فيه الآن «مسجد السليمان»، الذي يعد مركزَ إنتاجِ البترول. والواقعُ أنه في هذا المكان بعينه يشاهد بقايا مدرج هائل صناعي مرتكزًا على الجبل، وقد ظن بعضُ العلماء الذين أثر عليهم وُجُود البترول تحت أرض هذا الوادي أنه كان يوجدُ هنا معبدٌ للنار كانتْ شعلتُهُ الأبدية تغذى من الغاز الذي ينبع من جوف الأرض، وقد دلت أعمالُ الحفر التي عُملت في هذه البقعة على أنه كان قد أُقيم على هذا المدرج مبان حكومية لا يزال ظاهرًا منها إيوانٌ ثلاثيُّ الشكل حتى الآن.

وقد كان من الطبيعي أن يمتد سلطان «سياركزريس Cyaraxris» ملك «ميديا» الذي قهر الآشوريين واستولى على «نينوه» إلى مملكتي «فارس» الصغيرتين، في حين أننا نجد

---

[١] تقع هذه المدينة على منتصف «نهر الكرخ»، وكانت تُناهض مدينة «سوس» في القوة والأهمية (راجع: Sykes: A Histiory of Persia I p. 44).

— على حسب اتفاق تقسيم بلاد «آشور» بين «ميديا» و«بابل» — أن «سوس» أو «سوسيان» قد أصبحت ضمن أملاكهما.

وقد خلف «اريارمن» ابنه «أرسام» الذي عُثر له منذ زمن قريب على لوحة من الذهب يظهر أنه كشف عنها في «حمدان» في الوقت الذي عُثر فيه على لوحة أبيه السالفة الذكر وهو يقول فيها: «الملك العظيم، ملك الملوك، ملك «فارس» ابن «اريارمن».» وهذا المتنُ لا يختلف عن متن والده.

وتَدُلُّ الظواهرُ على أن هذين الأثرين — لا بد — كانا محفوظين في السجلات الملكية الخاصة، وقد نقلهما «سيروس» العظيم إلى «أكبتان» أو: «حمدان»، وقد عرفنا ذلك مما جاء في التوراة، والظاهر أنَّ الحفائرَ التي عُملت في «سوس» و«برسيليس»؛ تؤكد ذلك أيضًا، والواقع أن الوثائق التي عُثر عليها في الحفائر التي أُجريت في هاتين العاصمتين القديمتين، وهي تعد بعشرات الألوف من اللوحات كانت — بلا شك — ضمن السجلات الملكية أو — على الأقل — لها صلة بالمهام الإمبراطورية، وهكذا يظهر أن لوحة الملك «أرسام» تبرهن على أنه قبل أن يفقد سُلطانَه كان يحكم بلاد «فارس» بعد موت «اريارمن».

ومن المحتمل كذلك أن الملك «قمبيز الأول» كان قد خلعه عن عرش الملك حتى إنه قد اضطر إلى التقهقُر، ويُحدثنا «هيرودوت» أن ابنه «هيستاسب Hystaspe» كان حاكمًا على الفُرس في أوائل حُكْم «سيروس» العظيم ملك «ميديا»، والظاهر أنَّ فرع «اريارمن» لم يفقد إلا التاج وبقي يحكم بلاده تحت إمرة الفرع الذي ينتمي إلى «سيروس»، والواقع أنه لدينا متنٌ كشف عنه من عهد الملك «دارا» في مدينة «سوس» يقول فيه صراحة: إنه في اللحظة التي كان يكتب فيها هذا المتن كان والده «هيستاسب» وجده «اريارمن» لا يزالان على قيد الحياة.

وقد تزوج «قمبيز الأول» ملك «بارشوماش» و«أنشان» — ويُحتمل كذلك أنه كان ملك بلاد «بارسا» — من ابنة الملك «أستياج» ملك «ميديا» وسيدة تُدعى «ماندان Mandane» ولا بد أن هذا الزواج كان قد رفع من شأن فرع أسرة «أخمنيس»، وبذلك اجتمع مجدُ الدولتين تحت لواءٍ واحدٍ، وقد كان نتيجة هذا الزواج أنْ أنجب الزوجان الملك «سيروس» العظيم الذي اتخذ عاصمةً لملكه مدينة «باسارجاد»، ثم شرع في بناء مجمع من القصور والمعابد، وقد نعت في النقوش التي أمر بحفرها على عمد قصره بأنه ملك «أخمينيس» العظيم، ولم يمض طويل زمن حتى أخذ يخضع لسلطانه القبائل التي من أصل إيراني أو آسيوي، وهي القبائل التي كانت تقطن الشرق والجنوب الشرقي والشمال الشرقي من مملكته التي ورثها عن أبيه.

وقد أَحَسَّ عندئذٍ ملك «بابل» «نابونابد» عِظَم مطامع «سيروس»؛ ولذلك فإنه قام بحركة سياسية ماهرة وصل بها إلى الاستيلاء على «جران» من يد الميديين الذين كانوا يسيطرون على الطريق المؤدية إلى «سوريا»، وذلك بمساعدة «سيروس»، وقد فطن «أستياج» ملك «ميديا» لقيام هذا الحلف المعادي له، فطلب إلى «سيروس» الحضور إلى «أكبتان» (حمدان) عاصمته، غير أنَّ الأخير رفض طلبه، فلم يكن لدى ملك «ميديا» إلا الزحف على هذا العاصي لإخضاعه بالقوة، وقد نشبتْ بينهما حربٌ طاحنةٌ فصل فيها في موقعتين، قاد الأخيرة منهما «أستياج» نفسه، وقد دارتْ عليه الدائرةُ ووقع أسيرًا في يد «سيروس»، ولكنه عامله أنبل معاملة، وقد اختار «سيروس» «أكبتان» عاصمةً لمُلكه الموحد.

وبانتصار «سيروس» على «أستياج» بدأت صفحةٌ جديدةٌ في تاريخ الفرس الذين قُدر لهم أن يتحدوا مع الميديين ويؤلفوا دولة واحدة.

الدولة الأخمينيسية

يبتدئُ التاريخُ الحقيقيُّ للإمبراطورية الإيرانية التي أسستها أسرة الأخمينيسيين بحد سيوفهم؛ في خلال الثلث الثاني من الألف الأُولى قبل الميلاد، والواقعُ أننا نجد أقوامًا ومدنيات أُخرى في العالم قد استمرَّ وُجودُها في تلك الفترة، ولكن نجد بوجه عام في العالم المعمور وقتئذٍ أن دولة «إيران» كانت تحتل بين هذه المدنيات المكانة الأولى دائمًا.

ويرجع الفضلُ دائمًا إلى ملوك أُسرة الأخمينيسيين في فكرة تكوين دولة «إيران» وتنشئتها، ولا نزاع في أن طول عمرها المديد واستقلالها الطويل يعدان إرثًا خلفه هؤلاء الملوك لمن بعدهم من أكاسرة «فارس» بسبب ما اتبعوه من سياسة حكيمة تنطوي على التسامح والمهارة في فن الحكم.

ومما يلفت النظر هنا أن السياسة الحكيمة الداخلية التي أنتجها ملوكُ الأخمينيسيين لا تشبه — بحال — السياسة التي قام بها أباطرة الرومان الذين أجبروا الأقوام المغلوبين على أن يرتقوا إلى مستوى ثقافتهم، وأن ينضموا إلى اقتصادهم الجماعي؛ فقد كان الرومان يتطلبون السمو إلى هذا المستوى العالي في معظم الأحيان من أُناس من أُصول مختلفة جدًّا في الثقافة، بالإضافة إلى اختلاف تقاليدهم وإمكانياتهم، ولكن نجد أن الحال كانت تختلف تمامًا بالنسبة لما قام به كل من «سيروس» و«دارا» ملكَي الفرس؛ وآية ذلك أنهم قد ضموا إلى إمبراطوريتهما، وهي الأولى من نوعها في تاريخ العالم من حيث عظم ضخامتها، عدا بعض أقاليم شاذة ذات حضارة منحطة المستوى؛ عدةَ عناصر من المدنيات القديمة، فكانت تحت سيادتها بلاد «مسوبوتاميا» (ما بين النهرين) و«سوريا» و«مصر» و«آسيا الصغرى»، هذا إلى مُدُن وجُزُر إغريقية وجُزْء من بلاد الهند.

وقد رأى ملوك «فارس» أن محاولة وضع هذه البلاد في مستوى حضارتهم يعني جعلَهم يرجعون إلى الوراء؛ وذلك لأن ملوك أسرة الأخمينيسيين قد فطنوا أنهم يعدون أنفسهم أقوامًا دخلاء جدًا في المجتمع العالمي القديم، ومن ثم لم يكن في مقدورهم أن يتجاهلوا أن ما كان للحضارات القديمة من نُفُوذ وسلطان على حضارتهم يرجع إلى آلاف السنين.

ومن أجل ذلك نرى أن «كورش = سيروس» قد منح البلاد التي تحت حوزته حُكْمًا ذاتيًّا، كما نجد أن «دارا» قد سار في حُكْم مملكتِهِ بسياسةٍ حكيمةٍ، وبمثل هذه الخطة حُفظت الثقافة القديمة، بل نجد أكثر من ذلك: أن أباطرة الفرس قد حابوها على حساب بلادهم.

غير أن عدم التكافؤ بين الدولة الحاكمة والدولة المحكومة من حيث المدنية والعادات كان سببًا في وجود مرض خفي في جسم الإمبراطورية، كان يشتد أحيانًا، وقد مكث طول حياة هذه الإمبراطورية ينخر في عظامها.

يضاف إلى ذلك أن هذا المرض كان يعد أمام سياسة التوسُّع التي كان يسير على نهجها قومُ الفرس الشجعان من الأسباب التي أنزلت بهم الكوارث، وانحدرت بهم إلى الحضيض، وقادت بلادهم إلى الخراب في آخر الأمر.

وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الإمبراطورية الرومانية كانت ثمرةَ عملٍ إنشائيٍّ جاء على مهل وأناة، وامتد عدة قرون؛ ولذلك فإن تكوينها الذي جاء متأخرًا قد ضمن لها القوة والثبات، ولكن نجد من جهة أُخرى أن ارتقاء أسرة الأخمينيسيين السريع الذي حدث في مدة جيل واحد من الزمان هو الذي جعل من أمة صغيرة جدًّا كانت ضائعة في السهول والوديان الواقعة في الجنوب الغربي من «إيران» إمبراطوريةً ضخمة لا يمكن أن يكون لها توازن يشبه التوازن الذي وصلت إليه دولة الرومان في بادئ أمرها.

ولقد حدث — فعلًا — أولُ ارتباك فيها عند موت الملك «كورش = سيروس» وقد وقع بشدة وعنف حتى إنه لم يكن في مقدور أحد أن يعيد الأُمُور إلى نصابها، اللهم إلا إذا كان بطلًا من طينة الملك «دارا الأول»، وقد يجوز لنا أن نوازن بين هذا العهد المحزن — تقريبًا — من تاريخ أسرة الأخمينيسيين وعهد الحروب الداخلية التي وقعت في «روما» على أثر موت «يوليوس قيصر»؛ فنجد في هذه الموازنة أنه في عهد «أغسطس» في «روما» وفي عهد «دارا» في بلاد الفرس قد بدأ بعد الهزيمة العنيفة في كيان كل من الدولتين عملٌ إنشائيٌّ يمكن أن يعبر عنه بعد صهر البلاد سياسيًّا من جديد وإعادة تنظيم الإمبراطورية بصفة عامة، وبخاصة تجديد الأحوال الإدارية والخُلُقية والاجتماعية.

وعلى الرغم من التدابير المتناهية في الحكمة البالغة؛ فإن القوة الحيوية التي كانت تدفع بالأمم التي تحكمها «فارس» إلى الأمام، ونحو الرُّقِيِّ الطبعي لم تقفْ عند حد، مِمَّا أَدَّى في نهاية الأمر إلى انفصالها عنها، ومن ثم كان سقوطُها المحتوم ونيل تلك الأمم حرياتها واستقلالها.

الملك «كورش» «سيروس» (٥٥٩–٥٣٠ق.م)

عندما أراد الملك «سيروس» شَنَّ حرب سافرة على بلاد «ميديا»؛ لم يكن في استطاعته أن يُفَكِّرَ في مساعدة حليفه ملك «بابل» الذي كان بعيدًا عنه، ومِنْ أجل ذلك كان عليه أن يعتمد على ما لديه من قوة وعتاد.

وتدل الأحوال على أنه كان يعتمد وقتئذٍ على معاضدة عدة قبائل، بعضُها من أصل إيراني وبعضها الآخر من قبائل أخرى غير إيرانية، وقد قدم لنا «هردوت» قائمة بأسماء هؤلاء الأقوام الذين كانوا يقطنون من أول بداية الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين حتى المحيط الهندي، وهؤلاء الأقوام كانوا يؤلفون النواة التي تتكون منها مملكة «فارس».

ومما هو معترَف به أنه منذ ذلك العهد قد ظهرت جماعة سبعة الأمراء، الذين كانوا يؤلِّفون مجلسًا ملكيًّا لبلاد «فارس» على رأسه الملك، ومن ثم نجد أنه قد تَأَلَّفَ داخل حدود «إيران» نفسها اتحادٌ كان فيه رؤساء العشائر، يشتركون — اشتراكًا فعليًّا — في تأليف الحكومة، مع محافظة كل عشيرة على طابعها البدوي أو الحضري.

ومما يطيب ذكره هنا أن النصر الذي أحرزه الفرس على الميديين لا يمت بصلة إلى هذا النصر الدامي المخرب الذي وَطَّدَ به الآشوريون والبابليون والعيلاميون والقرطاجنيون سلطانَهم على البلاد التي قهروها واستولوا عليها؛ فنجد أن الأمر لم يقتصر من جانب الفرس على عدم مساس مدينة «اكبتان (= حمدان)» المغلوبة على أمرها بسوء، بل نرى أنَّ مُلُوك الفرس اتخذوها عاصمة لملكهم كما كانت قبل الفتح، وقد حفظ فيها «كورش» سجلاته، ومن المحتمل أنه نقل إليها لوحتَيِ الملكين «اريارمن» و«أرسام» مع وثائق أخرى، يُضاف إلى ذلك أنه أبقى على الموظفين الميديين القُدامى في وظائفهم وأضاف إليهم بعض الموظفين من الفرس.

والواقعُ أنه قد تَمَّ انتقالُ الحُكم بحزم وحكمة وروية مِن أيدي الميديين إلى أيدي الفُرس حتى إن أقوام الغرب قد ظنوا أن الدولة الفارسية قد بقيت في ظاهرها دولة ميدية، وقد اتحدت المملكتان تحت سلطان «كورش» في سلام، وقد وجد نفسه في نهاية الأمر على رأس إمبراطورية فرضت عليه ثروتُها الطبيعيةُ الهائلة ومركزها الجغرافي الممتاز القيامَ بدور الوسيط في العالم المتمدين، فقد كانت بلادُ الفُرس بمثابة عامل اتصل بين المدنيات الغربية والشرقية.

ولا نزاع في أن الدور الذي لعبته «إيران» في تاريخ العالم ينحصر في هذه الرسالة التي حتمت الأحوالُ أن تقع على عاتقها، في خلال حكمها الطويل المليء بالأحداث الجسام.

وتتمثلُ سياسةُ هذا القائد العظيم والحاكم صاحب القدرة المهيمنة في غرضين؛ فقد كان يريد أولًا أن يستولي في الغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهو الذي تنتهي عند ثُغُوره كُلُّ طُرُق التجارة العظيمة التي تخترق بلاد «إيران»، وكانت بلادُ الإغريق تملك على هذا الساحل من جهة بلاد «ليديا» قواعدَ بحريةً عظيمةً، وكان ثانيًا يرمي من جهة الشرق إلى تأمين ممتلكاته، ومن ثم كانت النتيجة تأليف دولة عظيمة منقطعة النظير في زمنه.

الملك «قمبيز»

على أثر وفاة الملك «كورش = سيروس» تولى بعده عرش الملك بِكْرُ أولاده «قمبيز» عام ٥٢٩ق.م، وأمه هي الملكة «كاساندان Cassandane»، ولما كان قد نشأ في أحضان الملك فإنه كان — بلا ريب — يُعتبر الوريثَ المختار للإمبراطورية الشاسعة التي أنشأها جَدُّهُ العظيم. والواقع أنه كان مشتركًا مع والده في الحكم بوصفه ملك «بابل»، غير أن «كورش» على الرغم من ذلك كان قد قرر صراحةً قبل وفاته أن يشرك مع «قمبيز» في حكم البلاد أخاه «بارديا» الذي يسميه اليونان «سمرديس»، فولاه ملكًا على المديريات الشرقية من الإمبراطورية الفارسية، ولكن هذا النظام في الممالك الشرقية كاد يكون ضربًا من المستحيل على أية صورة من الصور، يضاف إلى ذلك أن طبيعة «قمبيز» الجامحة ونفسه التي تنطوي على الغيرة، قد جعلته يصمم على التضحية بأخيه إن عاجلًا وإن آجلًا، حتى ولو لم يقم بثورة تبرر القضاء عليه، وبذلك يصفُو له الجو ويحكم منفردًّا.

وقد زاد من حقد «قمبيز» على أخيه أنه كان محبوبًا لدى الشعب في حين أنه كان معروفًا باسم «السيد الغليظ الطباع»، ولا أدل على قسوته من القصة التي رواها عنه المؤرخ «هردوت»: وذلك أن «قمبيز» بعد أن ثبت له أن القاضي «بركزاسبس Brexaspes» كان مرتشيًا، وكان أحد القضاة السبعة للمحكمة العليا، فإنه حكم عليه بسلخ جلده، غير أنه لم يكتفِ بذلك؛ إذ أمر بأن يُكسى كرسي القضاء الذي كان يجلس عليه بجلده، ثم أمر بأن يجلس على هذا الكرسي ابن القاضي الظالم خليفة لوالده أثناء فصله في قضايا الناس، (راجع: Herodotus V, 25).

ولم يلبث أنْ حانتْ له فرصةُ قتل أخيه، وذلك أنَّ الملك «كورش» كان يستعدُّ منذ سنين لتنظيمِ حملة على «مصر»، غير أنه في بداية عصر «قمبيز» قامت ثوراتٌ في أنحاء الإمبراطورية جعلتْه يُحوِّل كل نشاطه لإخمادها، ولم يفرغ من ذلك إلا في العام الرابع من

حُكمه، ومن ثم كان على استعداد للقيام بغزو «مصر»، غير أنه رأى أنه ليس من الحكمة في شيء أن يترك بلاده وفيها أخوه «بارديا» المحبوب من الشعب ملكًا على المديريات الشرقية.

هذا، ويمكننا أن نتخيل كيف كان رجال بلاطه يحرضونه على التخلُّص من أخيه قبل مغادرته عاصمةَ بلاده إلى «مصر»، ومن ثم أعطى الأمر لقتله خلسة، وعلى الرغم من بشاعة الجريمة في نظرنا فإنها كانت في هذا العهد لا يُنظر إليها بهذه النظرة؛ إذ الواقع أن تاريخ بلاد الفُرس وغيرها من الممالك الشرقية كان مُفعَمًا بمثل هذه الجرائم.

سار بعد ذلك «قمبيز» لفتح «مصر» وقد تحدثنا عن ذلك في موضعه، ولقد كان من نتائج الحملة على «مصر» وفتحها سقوط ثالث مملكة عظيمة في العالم القديم، والواقع أن «مصر» في تلك الفترة كانت أقل قوة من الوجهة الحربية من ممالك واديي «دجلة» و«الفرات»، غير أنها كانت بوجه عام تقوم بدور رئيسي في الحروب، ويرجع الفضل في ذلك إلى بعدها ووعورة الوصول إليها، ولا نزاع في أن «قمبيز» باستيلائه على مصر قد وسع رقعة بلاده وجعلها أكبر إمبراطورية عُرفت في التاريخ القديم حتى عهده، فقد امتدت من «نهر النيل» حتى نهر «سردايا (= سيحون) Jaxartes»، ومن البحر الأسود حتى الخليج الفارسي، وكانت تشمل ممالكَ قديمةً مثل «ليديا» و«بختريان».

انتحار قمبيز

وفي عام ٥٢١ق.م انتحر «قمبيز»، وذلك أنه كانت تنتابه نوباتٌ عصبيةٌ منذ طفولته وبعد فتح «مصر» بأربع سنين انتحر، وقد عزي ذلك لإخفاقه في حملتيه على بلاد النوبة وواحة «سيوة»؛ إذ انهارت أعصابُهُ مِن أجل ذلك، وقد ترك «مصر» في عام ٥٢١ق.م إلى عاصمة ملكه، وفي أثناء سيره في «سوريا» سمع بقيام ثورة على رأسها ماجوسيا مدعيًا عرش الملك، وذلك أن هذا الرجل كان يشبه كثيرًا أخاه المقتول «بارديا»، ولم يكن قتله معروفًا لأمه وأخته كما كان مجهولًا لدى عامة الشعب، وقد كان «قمبيز» في طريقه لمقابلة الثوار، ويُقال إنه لما سمع بتحول هام في صفوف جيشه قتل نفسه يأسًا.

وبموت «قمبيز» انتهى آخرُ أفراد فرع «كورش». هذا، وتقول أُسطورةٌ عن سبب موته إنه جَرَحَ نفسه عندما أراد امتطاءَ صهوة جواده ومات متأثرًا مِن جرح في فخذه، غير أن «دارا» قَصَّ علينا سبب موته في نقوش «بهيستون».

جوماتا» أو «سمرديس» (عند اليونان)

كان هذا الماجوسي الذي ادعى أنه «بارديا» اسمه «جوماتا»، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أن الشعب قد اعترف به عن طِيبِ خاطر، ولا غرابة في ذلك؛ لأنه بعد موت «قمبيز» كان لا بد أن يئول الحُكمُ إلى «بارديا» الذي كان قتله سرًّا حكوميًّا لا يعرفه إلا القليل جدًّا، وقد كان هذا المغتصبُ للملك غايةً في الذكاء؛ فقد قضى على كل من له علم باغتيال «بارديا»، هذا فضلًا عن أنه قد كسب رضاء الشعب أكثر من سلفه، بإعلانه حرية عدم التجنيد والتراخي في جمع الضرائب، يُضاف إلى ذلك أنه احتجب عن أعيُن الناس بقدر المستطاع وأمر نساءه أن يقطعن كل علاقاتهن بالعالم الخارجي، وكذلك ببعضهن بعضًا، وهذه أُمُور كانت بطبيعة الحال من الصعب تنفيذُها وبخاصة في الشرق، والواقعُ أنه نتيجة ذلك كانت زيادة الشكوك والظنون حوله، وكانت قد سرت فعلًا في نفوس الأشراف فكرةٌ مُؤَدَّاها أنَّ هذا الملك لم يكن مِن نسل «كورش»، بل إنه مغتصبٌ وحسب.

وقد كان هناك — كما نعلم — فرعٌ آخرُ من نسل «أخمينيس»، وهو فرع «دارا» ابن «هيستابس» وكان يعاضده رؤساءُ العشائر الفارسية الست العظيمة، ومِنْ ثَمَّ انتهى الأمرُ بهؤلاء الرؤساء أنْ دخلوا على هذا المغتصب وقتلوه كما قتلوا أتباعه، وبعد ذلك أسرعوا إلى «أكبتان» (= حمدان) حاملين رأس هذا المحتال، وقاموا بحملة على الماجوس الذين كانوا يساعدونه، ومِن الجائز أن آمال هذه الفئة كانت ترمي إلى إعادة قوة طائفة الكهنة من جديد، غير أن «دارا» لم يكن بالرجل الذي يميل إلى الانتقام، ومن أجل ذلك انتهى التقتيلُ في أتباع هذا المغتصب عند حلول الظلام.

ومن المحتمل جدًّا أن «دارا» قد اعتلى عرش الملك بعد موت المغتصب بوصفه وارثًا للملك «قمبيز»، ويُقال: إنه قد تغاضى عن تولي والده الملك لكِبَر سِنِّهِ.

تولى «دارا» الملك عام ٥٢١ق.م

لقد قُوبل ادعاء «دارا» عرش الملك بشيءٍ من المعارضة، وذلك أن «جوماتا» المغتصب كان قد اجتذب إليه حُبَّ الشعب بإعفائه من الخدمة العسكرية، وبالتراخي في جمع الضرائب، هذا فضلًا عن أنَّ حُكَّامَ الأقاليم النائية قد أرادوا أن يكونوا مستقلين في أقطارها، وقد نتج عن ذلك أن اضطرَّ «دارا» أن يُعيد فتح مديريات كثيرة من جديد، حتى لم يَبْقَ له من الولاء على جيشه وممتلكاته إلا القليل.

وقد كان أولُ مَنْ قام بثورة على «دارا» مديريتي «عيلام» و«بابل»، وذلك بعد موت المغتصب للعرش مباشرة، ففي «عيلام» أُخذ أميرها «أرتينا» أسيرًا ثم أُرسل إلى «دارا» فقتله بيده، أما في «بابل» فقد ادعى فردٌ يسمى «نيدينتوبل» أنه ابن الملك «تابونيد» وسَمَّى نفسه باسم «نيوخد ناصر» الشهير فسارع إليه في الحال «دارا»، وبعد مناورات أفلح في عُبُور «الفرات»، وهناك هزم جيش العاصي في موقعتين، وبعد ذلك هرب «نيدينتو بل» إلى «بابل»، وقد اضطر «دارا» إلى حصاره، وفي هذه الأثناء انتهزت بلاد «ميديا» فرصةَ قيام هذه الثورات على «دارا» بقَصْدِ استرجاع استقلالها بقيادة فردٍ يدعي أنه من نسل «سياكزرس Cyaxres»، كما قام مدعٍ آخرُ في «عيلام» يُريد ملكها، غير أنَّ الملك «دارا» أرسل فرقتين من جُنُوده إلى «ميديا» و«أرمينيا» دون أن يفك حصار «بابل»، وقد انتصر في «أرمينيا» انتصارًا باهرًا، إلا أنه لم يلبثْ أن فوجئ بقيام ثورة في «ساجارتيا Sagartia» في مديرية «هيركانيا»، وهي الإقليمُ الذي كان يحكمُهُ والدُهُ «هيستابس»، ولم يقتصر الأمرُ على ذلك بل قامت ثورةٌ في «فارس»؛ إذ قام فيها محتالٌ آخرُ ادعى أنه «بارديا»، ولكن

عبقرية «دارا» وشجاعته قد تَغَلَّبَتَا على كل ذلك بجيشه وقُوَّةِ شخصيته، فقد سقطتْ في يده «بابل» بعد حصار سنتين في عام ٥١٩ق.م، وبعد ذلك أصبح «دارا» حُرًّا في ملاقاة أعدائه كل على انفراد، فسار بجيشه المدرَّب فقضى بسرعة على الميديين وأسر «فرا أوتس Phraotes» في «الري» وقطع أنفه وأذنيه ولسانه ثم اقتلع عينيه، ثم سيق بهذه الحالة البشعة إلى الباب الملكي في السلاسل والأغلال حيث أُقعد على خازوق، وبعد ذلك توالت انتصاراته في «أرمينيا»، ثم على المدعي البابلي، وقد كان من جراء ظهور مدعٍ آخر بابلي أن هددت «بابل» ثانية بالسقوط، ولكن حاميتها كانت قوية لقمع الثورة التي انتهت بالقبض على «سمرديس» الكَذَّاب الثاني في عام ٥١٨ق.م وانتهت هذه الثورات التي أظهرت «دارا» أمام العالم أنه رجل قيادة عظيم، ومن ثم خيم السلام على ربوع إمبراطوريته الشاسعة الأطراف بفضل مهارته وقوة شكيمته.

وبعد أن استتب الأمن أخذ «دارا» المنتصر يُعاقب أولئك الحكام الذين أحفظه سلوكهم ويكافئ الذين مَدُّوا له يدَ المساعدة في وقت المحنة، وفي تلك الفترة زار هذا الملكُ العظيمُ «مصر» بعد أن قتل حاكمها فأخذ يعمل على استرضاء كهنة البلاد وجلب محبتهم، وذلك بالإنعام عليهم بكل أنواع الهدايا والمنح كما شرحنا ذلك في موضعه.

وبعد أن هدأت الأحوال في المديريات البعيدة أخذ في تنظيم إمبراطوريته المترامية الأطراف في ظل إدارة موحدة، وقد كانت الطريقة القديمة التي أدخلها «تجلات بليزر»، وهي التي بقيت منذ عهده مستعملة؛ ترتكز جزئيًّا على ترحيل آلاف الأسرى إلى أقاليم بعيدة عن أوطانهم، وجلب آخرين ليأخذوا مكانهم، وقد كان المواطنون الجُدُد يُنظر إليهم على أنهم أجانب عن أهل البلاد، وكانوا — بطبيعة الحال — يعاضدون الحاكم الآشوري، وكذلك كانت كل مملكة تُفتح تُضاف إلى مديرية مجاورة لها، أو كانت تؤلف مديريةً منفصلة تُجبى منها الضرائبُ على طريقة بدائية.

على أنَّ «بابل» لم تهضم قط بهذه الحالة، والواقعُ أنَّ هذا النظام كان غيرَ كامل إلى حَدٍّ بعيد؛ وذلك لأن الحُكَّام في كل مديرية كانوا مستقلين تمام الاستقلال، وقد كان هذا النظام ممكنًا فقط طالما كانت الإمبراطوريةُ غيرَ مترامية الأطراف، وقد برهنت الثوراتُ المستديمة على أن القبض على زمام الأُمور في «آشور» كان من الصعب الوصول إليه.

الشطربيات

أما في عهد «دارا» فقد كان المبدأُ المتبع بكل دقة هو «فَرِّقْ واحكم»؛ ولذلك فإن أي ميل إلى الاتحاد كان لا بد من تَجَنُّبه، وقد رأى «دارا» تفاديًا من تجمع كل القوة في يد رجل واحد أن يعين شطربًا، (معنى كلمة شطرب: سيد البلاد)، وقائدًا ووزيرًا في كل إقليم، وهؤلاء الموظفون الثلاثة كانوا مستقلين بعضهم عن بعض، كما كانوا يقدمون تقاريرهم مباشرة للإدارة الرئيسية.

ولا نزاع أنه في ظل هذا النظام الذي ينطوي على سُلُطات مقسمة كان من الجائز جدًّا أن يكون هؤلاء الموظفون بعضهم بعضًا، وعلى ذلك فإنهم — على أغلب الظن — لم يكن في مقدورهم تنظيمُ ثورة على الملِك، يُضاف إلى ذلك أن «دارا» قد اتخذ احتياطًا أكثر من ذلك، وهو أنه كان يُرسل مفتشين من أعلى الدرجات في فتراتٍ غير منتظمة يصحبهم قواتٌ من الجند عظيمة البطش ومزودة بنفوذ عظيم يخول لهم فحص؛ أي موضوع ومعاقبة؛ أي خروج على القانون، هذا إلى أنهم كانوا يقدمون تقاريرهم عن الشطرب والموظفين الآخرين.

وقد يعترض على هذا النظام بأنه يشل يد الحاكم في الحالات الخطرة المفاجئة عندما يقتضي الأمر سرعة البت، ولكن في الواقع كان هذا النظام يسير سيرة حسنة بشرط يقظة الموظفين القائمين عليه، وقد كان دارا مُحِقًّا عندما قال: إنَّ أعظم خطر يهدد بلادَه هو الثورةُ المنظمة التي ينظمها حاكمٌ من حُكَّام الأقاليم النائية.

وكان عددُ الشطربيات التي تتألف منها الإمبراطورية يتراوح ما بين عشرين وثمانية وعشرين في عُهُود مختلفة في مدة حُكْم أيِّ ملك، ولم تكن «فارس» مهد سلالة الملك تعتبر على وجه عام شطربية، وكان سكانها لا يدفعون ضرائبَ، غير أنهم كانوا مرتبطين بتقديم هدايا للملك عندما كان يمر في البلاد، ويمكن تقسيم المديريات إلى: شرقية، وهي الواقعة على الهضبة الإيرانية، وغربية وهي الواقعة غرب «فارس» نفسها، وعلى رأس الشطربيات الفارسية «ميديا» ثم يأتي بعدها «هركانيا Hyrcania» و«بارثيا Parthia» و«زارانكا Zaranka» أو «زارانجيا Zarangia» و«آريا Aria» و«خوارزم Khorasmia» و«بكتريا Bactria» و«سوغديانا Soghdiana» و«جاندارا Ganadara» وبلاد «ساكا Sakae» و«ستاجيديا Sattagydia» و«أراخوزيا Arachosia» وبلاد «ماكا Maka»، ومن ثم يحتمل أن الكلمة الحديثة «ماكران» قد أتت منها.

وفي الغراب تقع «أوفايا Uvaja» أو «عيلام» (سوسيانا)، ثم «بابل» و«كالديا»، و«أثورا Athura» (آشور القديمة)، وبلاد العرب (وتشمل معظم سوريا وفلسطين)، و«مصر» (وتشمل الفنيقيين والقبرصيين وسكان الجزر اليونانية)، و«ياونا Yauna» أو «أيونيا» (وتشمل «ليسيا Lycia»، و«كاريا» والمستعمرات الإغريقية التي على الساحل)، و«سباردا Sparda» (أي «ليديا»)، والأراضي التي غرب «هاليس Halys» و«أرمينيا»، و«كابادوشيا Cap padocia».

وكانت تُجبى الضرائب من هذه الشطربيات، إما نقدًا وإما عينًا، وكان أقل دخل في الضرائب يُجبى هو الذي يحصل من البلاد التي تسمى حديثًا «بلوخستان» لفقرها، فقد كان يُجبى منها ١٧٠ تالنتا من الفضة في حين كان يُجبى من «بابل» ألف تالنتا، ومن «مصر» ٧٠٠ تالنتا من الذهب، وقد كان مجموعُ الدخل يساوي بالنقد الحالي ٣٧٠٨٢٨٠ جنيهًا، وكان «دارا» أول ملك ضرب النقود، فقد كان النقد المسمى «دارك» — وهو عملة ذهبية تزن ١٣٠ حبة — مشهورًا بنقائه، ولم يلبثْ أنْ أضحت العملةَ الذهبيةَ القديمة الوحيدة في العالم القديم، وكذلك كانت تضرب العملة الفضية. وإنه لمن المهم حقًّا أن نعلم أن الجنيه الإسترليني والشلن الإنجليزي يكادان يساويان الدرك والشكل الفارسيين على التوالي، (راجع: Journal of Hellenic Studies Vol. XXXIX. 1919).

وقد كانت الضرائبُ العينية فادحة، فقد كانت «بابل» تطعم ثلث الجيش والبلاط في حين كانت «مصر» تقدم غلالًا لإطعام جيش مكونٍ من ١٢٠ ألف رجل، وكانت «ميديا» تورد الخيل والبغال والأغنام كما كانت «أرمينيا» تقدم المهارى وتورد «بابل» الخصيان وغيرهم، وفضلًا عن ذلك كان على المديريات تقديم هذه الضرائب الملكية، وأن تعول الشطرب وبلاطه وجيشه.

ولما لم تكن هناك مرتبات مربوطة للموظفين وهم الذين كانوا فضلًا عن ذلك يشترون وظائفهم؛ فإن العبء الذي كان يقع على كاهل المديريات فادحًا إن لم يكن لا يُحتمل، ولكن من جهة أُخرى كانت هناك قوانينُ رادعةٌ ذُكرتْ من قبل كانت تجعل كل شطربة يقف عند حده، وبخاصة إذا كان المتربِّعُ على عرش المُلك قادرًا وحازمًا.

ولا بد أن نذكر أنَّ الطبقة السفلى في كل بلاد كانت متعودة أن تُجبر على دفع أقصى ما يمكن من الضرائب على يد الحكام الوطنيين، هذا فضلًا عن أن النظام الجديد قد منح الملك ميزانية منتظمة، وبذلك قَلَّت الطلبات الباهظة على أية مديرية منفردة، وأخيرًا كان النظام الجديد أحسن بكثير من النظام الذي سبقه. حقًّا كان هذا النظام ناقصًا من

الوجهة الحربية، كما أشار إلى ذلك «ماسبرو»؛ فقد كان للملك «دارا» حرسٌ يتألف من ألفي فارس وألفين من المشاة كانت حرابهم تحمل تفاحات من الذهب أو الفضة، وكان يأتي بعدهم عشرة الآلاف الخالدون، وكانوا ينقسمون عشر فرق كانت الأولى منها حرابها مزينة برمانات من الذهب، وهذا الحرس كان هو نواة الجيش الإمبراطوري، وكان يُعاضدُهُ جنودٌ من الميديين، وكذلك حامياتٌ كانت توضَع في مراكزَ هامة مختلفة، تتألف من جُنُود إمبراطورية مميزة عن الجنود المحلية، وعندما كانت تشعل نار حرب عظيمة، كانت تتدفق على الجيش الفارسي آلافٌ من الجُنُود غير المدربين والمختلفين عن بعضهم بعضًا من حيث اللغة وأساليب الحرب والمعدات، وقد كانت هذه القوة غير المنظمة هي السبب الرئيسي في سقوط الإمبراطورية الفارسية في نهاية الأمر.

الطرق الملكية

ولقد فطن الملك «دارا» من بادئ الأمر إلى ما للطرق المعبدة من أهمية في تسهيل المواصلات، ومن أجل ذلك نقرأ عن الطريق الملكية التي أنشأها ما بين «سارديس» و«سوسا» وهي التي بوساطتها أصبح الموظفون على اتصال سهل بالبلاط الملكي، وقد كانت المسافةُ بين البلدين حوالي ١٥٧ ميلًا، وكانت تقطع قبل تعبيد هذه الطريق في ثلاثة أشهر مشيًا على الأقدام، ولكنها في عصر «دارا» أصبحت تُقطع بالخيل على الطريق المعبدة في مسافة خمسة عشر يومًا.

ولا بد أن الطريق الملكية كان لها أثرٌ عظيمٌ في توسيع أُفق المديريات التي كانت تخترقها، وقد ظهر أهمية هذه الطرق لأعيُن الإغريق عندما أبرزوها بجلاء في أول مصور جغرافي وضعوه للعالم.

ولقد كان «دارا» يحس أن اسمه لن يبقى على مدى الدهور إلا إذا زاد في مساحة إمبراطوريته المترامية الأطراف؛ ولذلك كان لزامًا عليه أن يجعل جيوشه دائمًا في حُرُوب مستمرة، كما كانت الحالُ في الممالك القديمة، وقد كانت حدود بلاده مثبتة بحدود جغرافية طبيعية معينة كان من الصعب تعديها كسلسلة جبال «القوقاز»، وهي التي لا تزال تتحدى المهندس الروسي للسكك الحديدية بوعورتها، وكذلك بحر «قزوين»، ومراعي أواسط آسيا، وفي الجنوب كان يحدها صحراء إفريقيا وبلاد العرب والمحيط الهندي، وعلى ذلك فإن الجهات التي كان يمكن التوسع لمد سلطانه فيها كانت محدودة.

حروب «دارا»

الحرب مع «سيثيا»: كانت أول حملة قام بها «دارا» هي الحملة التي جهزها لمحاربة قوم السيثيين، وقد اختلف المؤرخون في الأسباب التي أدتْ إلى قيام «دارا» بهذه الحملة الفاشلة، فقد وصفها المؤرخ «جروت»، (راجع: Grote, History of Greece Vol. IIII p. 188)، بأنها حملةٌ «جنونية» في حين أن المؤرخ «رولنس» قال عنها إنها كانت حملة قد دبرت بروية؛ إذ كان الغرض منها حماية خط المواصلات عند الهجوم على بلاد الإغريق، أما «مسبرو» فكان من رأي «رولنس»، غير أنه — على ما يظن — قد زود «دارا» بمعلومات خاطئة عن بعض بلاد «سيثيا» بالنسبة لخط سيره، وقد ذكر المؤرخ «نولديكه Noldeke»، أن هذه الحملة لم يكن لها غرضٌ غير الرغبة في فتح بلاد مجهولة.

وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أن «دارا» لم يكن غرضُهُ من هذه الحملة الاستعداد لفتح بلاد الإغريق، ولكن في الواقع كان هدفُهُ أن يضم «تراقيا» إلى مُلكه حتى نهر «الدانوب»، وأن يغزو السيثيين الذين خربوا الشرق الأدنى منذ قرنٍ مضى، وظهروا بكثرة في الإمبراطورية الفارسية. يُضاف إلى ذلك أنه كان هناك دافعٌ آخرُ أغرى «دارا» على غزو هذه البلاد، وأعني بذلك: الذهب الذي كان يوجد فيها بكثرة، ومن الجائز أنه كان لديه أسبابٌ أخرى لا نعرفها، فمن المحتمل أنه كان يخشى انقضاض هؤلاء الأقوام على بلاده وأنه بعمله الذي قام به أراد أن يبعد الخطر عنه.

هذا، ونعلم أن «السيثيين وراء البحار»، قد ذكروا في نقوش «ناخشي روستام»، ومن ثم نعلم أن هجوم «دارا» على هؤلاء الأعداء كان يُضيف إلى شُهرته وفخاره وأماني بلاده.

وقد بدأت الحملة في عام ٥١٢ق.م، وقد عبر «دارا» البوسفور على قنطرةٍ بالقُرب من «القسطنطينية»، ثم سار محاذاة البحر الأسود، وقد خضعتْ له في أثناء سيره «تراقيا»، ثم سارتْ جيوشُهُ الضخمةُ حتى وصلتْ دلتا نهر «الدانوب»، فعبر النهر، ثم سار في مجاهل الصحراء، وبعد السير نحو مدة شهرين كانت خسائرُ جيشه في خلالها عظيمة، بسبب قلة المئونة وفَتْك الأمراض.

عاد الجيش الفارسي إلى نهر «الدانوب»، وهناك أراد السيثيون أن يغروا الإغريق على هدم القنطرة التي كان لا بد أن يعبر عليها الجيش الفارسي، غير أن الإغريق لم يقبلوا ذلك، وبقوا على ولائهم للفرس، وقد عبر «دارا» «الدانوب» في أمان، غير أنَّ نُفُوذَه بسبب خيبته في عدم إخضاع السيثيين قد ضعُف، ولكنه في عودته إلى «سارديس» أرسل قطعة من جيشه قوامها ٨٠ ألفًا للحرب في أُوروبا، وقد أفلحت هذه القوة في إخضاع «مقدونيا»،

وبذلك جعلت حدود الإمبراطورية الفارسية ملاصقة لبلاد الإغريق الشمالية. والواقعُ أنَّ فتح «تراقيا» كانت النتيجة الهامة الرئيسية في هذه الحملة.

الحملة على بلاد الهند

وفي عام ٥١٢ق.م بدأ الفرس في فتح أجزاء من بلاد الهند، وبخاصة في البنجاب وحوض السند، وقد ذكرنا في غير هذا المكان أن «سيلاكس» أمير البحر الفارسي انحدر في نهر «السند»، غير مرتاع من مده وجزره، وسار في المحيط الهندي وجَابَ سَوَاحِلَ بلاد العرب و«مكران»، وقد تألفت شطربيةٌ من هذه الفتوح تدفقتْ منها كمياتٌ هائلةٌ من الذهب على بلاد «فارس»، وقد كان لهذه الحملة على بلاد الهند أهميةٌ عظيمةٌ، لدرجة أن تاريخ هذه البلاد يؤرَّخ بتعاليم «بوذا» وبهذا الحادث.

ومما يؤسف له جِد الأسف؛ أننا لا نعلم إلا القليل جدًّا عن هذه الحملة لدرجة أن صحة حُدُوثها وما قام به «سيلاكس» قد خيم عليه الشكُّ (راجع: Herod, IV 44)، ولكن الآن قد دَلَّت البحوثُ على أنها حقيقةٌ لا ريب فيها، وقد تَحَدَّثْنَا عنها في الملحق الخاص بقناة السويس.

وخلاصة القول أننا قد تتبعنا مصائر الإمبراطورية الفارسية منذ أن ضمت «مصر» إلى ممتلكاتها، وقد كانت آخر مملكة عظيمة فتحها الفرس، كما تتبعنا عصر الثورة اليائس الذي جلبه على البلاد «قمبيز» بجنونه، وما وصل إليه من نجاح «جوماتا» الدجال الماجوسي، ثم رأينا بعد ذلك الملك «دارا» يُعيدُ تنظيم الإمبراطورية الفارسية، وذلك بلم شعث أجزاءِ ممتلكاته المتفككة، ثم إخراج نظام جديد لم يكن في الواقع مثاليًّا، غير أنه يُعَدُّ تحسنًا عظيمًا بالنسبة للنظام الذي كانت عليه البلادُ من قبل.

ويلاحَظ أنه لولا ما قام به «دارا» الذي يستحق لقب «العظيم» لذابت الإمبراطورية الهائلة، كما تلاشت بسرعة مملكة «ميديا» من قبل، وأخيرًا نجد أنَّ بلاد «البنجاب» ومعها «السند» في الشرق، و«تراقيا» و«مقدونيا» في الغرب؛ قد أُضيفتْ إلى مُلكه دون أية صعوبة تُذكر، ومن ثم نرى إمبراطورية فارسية كانت تشمل كل العالم المعروف، هذا بالإضافة إلى عدة أقاليم لم تكن معروفة من قبلُ تمتد مِن أول رمال «إفريقيا» المحرقة حتى حدود الصين المحاطة بالثلوج تخضع لسلطانه، على الرغم من اتساع رقعتها وتعدد أجناسها ولغاتها. وعلى ذلك يُمكننا القول — بحق — إنه في هذه الفترة قد وصلت دولةُ الفُرس

سمت عظمتها واتساع رقعتها، وأنها كانت أعظمَ إمبراطورية عرفها التاريخ حتى هذه اللحظة.

ومع ذلك فإنه كان يوجد في «هيلاس» بعض آلاف قليلة من المحاربين، وكانوا — على ما يظهر — معاكسين للملك «دارا» وهؤلاء المحاربون القلة كان مُقَدَّرًا لهم أنْ يصدُّوا القوة الهائلة المتجمعةَ التي كانت تفخر بها هذه الدولةُ الضخمةُ في عدد جنودها والمترامية الأطراف في حدودها، ثم لم يلبثوا أن كوفئوا على شجاعتهم بما لم يكن في الحسبان؛ فقد امتد سلطانُهُم في البر والبحر، وكَوَّنوا إمبراطوريةً عظيمة، كانت في النهاية السببَ في سقوط الفرس، وضياع ملكهم على يد أحد أبناء جلدتهم وهو «الإسكندر الأكبر».

ديانة الميديين والفرس

مقدمة

تدل أول بادرة لاحت لنا عن الشعب الآري على أنه كان من طبقة عباد الطبيعة؛ فقد كان يعبد السماء الصافية والنور والنار والرياح والغيث التي تمنح الحياة بوصفها كائنات مقدسة، في حين أنه كان يعد الظلام والقحط شيطانين. وقد كان للسماء في تعداد المعبودات المكانة الأولى، وكانت الشمسُ تدعى «عين السماء»، كما كان البرق يدعى «ابن السماء»، وقد يدعي البعضُ أنَّ معظم الديانات تحتوي على هذه الأساطير التي نجدها في واقع الأمر منتشرةً انتشارًا واسعًا، ولكن نجد في حالة الآريين أنه لا يوجدُ استعطافُ الأرواح الشريرة، كما هي الحال عند السوماريين، بل على العكس كان لا بد من مواجهتها والتغلُّب عليها بالأرواح الخيرة الطيبة التي كانت بدورها تستندُ كثيرًا في نجاحها على الصلوات والقربات التي يقدمها الإنسان، وعلى ذلك كان بدهيًّا — من بادئ الأمر — أن مكانة الإنسان كانت ذاتَ قدر مَكِين، كما كانت حالُهُ تَدُلُّ على الرجولة نحو آلهته الذين كان يتعبد إليهم طلبًا للمساعدة، يُنشد لهم أناشيدَ المدح والثناء، ويقدم لهم الضحايا، وفوق كل ذلك كان يصب لهم شرابًا مقربًا من «الهاؤما Haoma»[1] المقدسة، وكان الآري يشعر بأنه بمثل هذه الصلوات وبمثل هذه القربات قد ساعد الآلهة الأبرار على أن يحاربوا في جانبه قوى القحط والظلام، وإنه لمن الأهمية البالغة حقًّا أن نقرأ كيف أن إله أسماء «فارونا Varuna» وهو «أورانوس Ouranos» عند الإغريق كان يُعبد بوصفه الإله الأعلى الذي كان لزامًا على الناس

---

[1] الهاؤما نباتٌ جبليٌّ مُقَدَّس موحدٌ مع «السوما» الهندية غير أن أصل حقيقته يعترضه بعض الشك.

أنْ تُوَجِّهَ إليه الصلوات، وكيف أن الصفات الخلقية قد تجمعتْ حوله، وكيف أنه بوجه خاص قد مقت الكذب، وتلك حقيقةٌ كان لها تأثيرُها العميق على الإيرانيين، كما يمكن أن يشاهد في نقوش الملك «دارا الأول» وكذلك في صفحات تاريخ «هردوت».

وكان يشترك مع السماء الأثير الوضاء الذي كان يشخص باسم «مترا»، فكانا يحرسان سويًّا القلوب وأعمال البشر، وكان كُلٌّ منهما يرى كل شيء، ويعرف كل شيء، وكذلك النار كانت تلعب دورًا بارزًا في صورتها الأصلية بوصفها البرق في الصراع الأبدي الذي يشنه باستمرار آلهة النور على قوى الظلام، وقد ذكر لنا «هردوت» (راجع: Herod. 1, 131) أنهم (أي الفرس) كانوا معتادين صعود أعلى الجبال وتقديم القربان إلى «زيوس Zeus»، وقد أطلقوا اسم «زيوس» على كل الدائرة السماوية، وفضلًا عن ذلك كانوا يُقَرِّبُون القربان إلى الشمس والقمر والأرض والنار والماء والرياح.

ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أن عبادة قُوى الطبيعة التي ذكرها لنا «هردوت» كانت مِنْ خَوَاصِّ كُلِّ السلالات الآرية، ولكن يلفت النظر هنا كذلك أن الآريين الهنود والإيرانيين كانوا يشتركون في ديانةٍ واحدةٍ وثقافةٍ واحدةٍ لمدة طويلة من الزمن انتهت قبل الوقت الذي نتناولُ البحث فيه بفترة قصيرة نسبيًّا.[٢]

والواقع أن آريي الهند كان لهم كتاباتٌ مقدسةٌ أُوحي بها تدعى «فيداس Vedas» أو «المعرفة» وتشتمل على مجموعة من الأناشيد يبلغُ عددُها أكثرَ مِن ألف أُنشودة، قد حافظ عليها الآريون القدامى الذين فتحوا بلاد «البنجاب»، ونجد الآن بوجهٍ خاص أن عصر «فيداس» المبكر بين أهل «البنجاب» في نفس درجة التطور العام التي نجدها في إيران، كما نجد كذلك نفس عبادة قوى الطبيعة.

هذا، ونجد تعابيرَ مماثلة في البلدين فمثلًا نجد اسم «آسورا Asura» (وباللغة السنسكريتية Asura, Avesto Ahura، ويعني: السيد)، واسمًا آخر هو «دايفا Daiva» (وباللغة السنسكريتية Deva, Avesta, Daeva) وهو مشتق من الكلمة الهندو-أوروبية التي تعني: «الآحاد السماوية»، وقد استمر الاسمُ الأخيرُ بوصفه كلمة تعبر عن لفظة إله في الآرية في صور مثل «تيوس Theos» أو «ديوس Deos» وقد اشتق من اللفظ الأخير اللفظة المعروفة التي تعبر عن إله Dieu في الإغريقية واللاتينية والفرنسية على التوالي.

---

[٢] راجع عن هذا الفصل: Williams Jackson, Zoroaster the Prophet of Ancient Iran; J. Moulton Early zoroastrianism.

هذا، ونلحظ في عهود الفيديين المبكرة أن طبقتي الآلهة «أهوراس Ahuras» و«دائفاس Daevas» كانتا تعدان مناهضتين الواحدة للأخرى بالنسبة لتقديسهما عند رجال القبائل، فنجدُ أنَّ فِي الهند كان أتباعُ «دائفاس» يعتَبرون أصحاب الكلمة العُليا، وفي عهد «فيدا Veda» المتأخر كان «الأسوراس Asuras» يعدون شياطين، ولكن في «إيران» من جهة أُخرى كان «الأهوراس» في المكانة العُليا، ومن ثم نجدُ أن الوعي الديني عند الإيرانيين بعلاقته مع «أهورا» قد نما وتطور، أما «الدائفاس Daevas» فقد انحط إلى المنزلة التي كانت أعطيت «آسوراس» في الهند.

الأساطير الهندية الإيرانية – «جاما» أو «جامشيد»

توجدُ كذلك أساطيرُ مشتركة في كِلتا البلدين، ويُحتمل أن يكون من أهم هذه الأساطير أُسطورة البطل «جاما» وهو اسمٌ كان يُطلق — في الأصل — على الشمس الغاربة، وكان يعتبر أنه أول من «أرشد الكثيرين إلى الطريق»، وكان أول من وصل إلى «قاعات الموت الفسيحة» وقد تحول — بطبيعة الحال — إلى ملك الموتى، وهنا نلحظ تشابُهًا كبيرًا بينه وبين الإله «أوزير» عند قدماء المصريين، وكان يملك كلبين أسمرَي اللون عريضَي الخطم، ولكل منهما أربعُ عيون، وكانا يخرجان يوميًّا ليقتفيا رائحة الموتى ويسوقونهم إلى حضرة مليكهما، ويمكن أن نتتبع ذكرى هذين الكلبين في بلاد الفرس في العادة الزورواستية المعروفة باسم «ساجديد»؛ أي «رؤية الكلب».

هذا، وقد وصف «الأفستا» أنه يؤتى بكلب أصفر له أربع أعيُن، أو كلب أبيض له أذنان بيضاويتان بجوار كل شخص ميت؛ وذلك لأن نظرته تطرد بعيدًا الشيطان الذي يسعى لدخول الجثة، وهذا يشبه بعض الشيء الإله «أنوبيس» إله الموتى عند قُدماء المصريين؛ فقد كان يعد حارس الموتى وإله التحنيط.

ويُلحظ في أيامنا هذه أن الفرس، الذين يجهلون القدم العظيم لهذه العادة يضعون قطعةً من الخبز على صدر الرجل الذي فارق الحياة، فإذا أكلها الكلبُ فإن الرجل يعتبر ميتًا حقًّا ويُحمل إلى «البراخما» أو «برج التعريض»، وذلك بوساطة أعضاء الهيئة الذين كانوا يعتبرون نجسين أبدًا وحكم عليهم بحياة تعسة.

زورواستر نَبِيُّ «إيران»

كان «زورواستر» هو المؤسس للديانة الفارسية القديمة، وهو الذي تَجَمَّعَ حول اسمه وشخصيته آراءٌ متناقضةٌ جدًّا، فقد أنكر عليه أنه شخصية تاريخية، ومنذ زمن غير بعيد كان من بين النظريات التي قِيلت إنه نتاجُ أُسطورة العاصفة التي توجد في كل مكان، وهنا نجد كذلك كما في حالة الآرية أنه قد حدث تَقَدُّمٌ هائلٌ على نظريات الباحثين الأُوَل الذين يُعْزَى إليهم كل شرف السبق — على أية حال — في هذا الموضوع، ولكن على الرغم من الأسطورة والخرافة اللتين جعلتا صورته مبهمة؛ فإن مصلح «إيران» العظيم ونبيها قد برز الآن من غيوم الماضي السحيق، بوصفه شخصية تاريخية وحقيقة بارزة.

أصل الاسم «زاراتوسترا»

واسم «زورواستر» هو مجرد تحريف لاتيني — لم يعرف تفسيرُهُ بأكمله، ولكنه يشتملُ على الكلمة «أوسترا»؛ أي «جمل» وهي كلمةٌ لا تزال باقيةً في الفارسية الحديثة بصورةٍ مختلفةٍ بعض الشيء، وهناك سببٌ يحملنا على قَبُول الرواية القائلة: إن هذا النبيَّ كان مِن أهل «أذربيجان» وهي «أتروباتن Atropatene» القديمة وفي كِلا الاسمين يُمكنُ التعرفُ على الكلمة القديمة «أثار Athar» ومعناها «النار» وفيها نجد ارتباطًا فيما بما أيام ظهور الزورواستية باسم «زورواستر» وهو أن الكاهن في ديانة القوم كان يُعرَف باسم «أثارفان Atharvan» أو «حارس النار»، والمعتقد أن مسقط رأس «زورواستر» هي بلدة «أوروميا Urumia» الواقعة على البحيرة التي بهذا الاسم، وقد وهب شبابه للتأمل والعزلة، وفي خلالها رأى سبعة أحلام ومر بإغراءات منوعة وفي نهاية الأمر أعلن رسالته، غير أنه مكث عدة سنين لم يُصِبْ من النجاح إلا شيئًا يسيرًا؛ إذ الواقعُ أَنَّهُ في العشر السنوات الأولى لم يعتنقْ مذهبه إلا فردٌ واحد.

«جوشتاسب» هو أول من اعتنقَ مذهبَه من الملوك

وبعد ذلك ألهم «زورواستر» السفر إلى شرق بلاد الفرس، وقد تقابل في «كيشمار»[٣] الواقعة في إقليم «خورسان» مع «فيستاسب Vistasp» الذي ذكره الفردوسي في ملحمته باسم

[٣] راجع: Journal. R. G. S. for January and February 1911.

«كوشتاسب»، وقد أفلح في بلاط هذا الحاكم في ضم ابنَيِ الوزير ثم الملكة إلى دعوته، وقد كانتْ هناكَ مناقشةٌ نفسيةٌ بين هذا النبي والحكماء، وفي خلال هذه المناقشة حاول الحكماءُ التغلُّب عليه بسحرهم، ولكن «زورواستر» فاز عليهم، ومِنْ ثَمَّ أصبح الملك نفسه تابعًا متحمِّسًا لهذا الدين الجديد، وهاك اقتباسٌ من كتاب «فارقادين باشت» عن ذلك: «إنه هو الذي أصبح المساعدَ والمعضد لديانة «زورواستر» و«أهورا»، وهو الذي خلص من السلاسل الديانة التي كانت مغلولةً في القيود، ولم تكن قادرةً على التحرُّك.»

وقد تبع اعتناق «جوشتاسب» وبلاطه ديانةَ «زورواستر» غزو القبائل التورانية القاطنة في أواسط آسيا، وهذا الغزوُ — على ما يظهر — كان المحرض عليه محاربة المعتنقين للدين الجديد، وهذه الحروبُ المُقَدَّسَةُ، كما يمكن أن نعتبرها كانت قد نشبت — بوجه خاص — في «خورسان»، وإذا صَدَّقْنا ما جاء في الأسطورة الخاصة بها؛ فإن الواقعة الفاصلة قد وقعتْ بالقرب من مدينة «سابزاوار» الحالية.

وقد ذُبح «زورواستر» في «بلخ» بعد أن عاش عمرًا طويلًا وكسب شرفًا عظيمًا، وذلك عندما قام التورانيون بغزوتهم الثانية، وتقولُ التقاليدُ إنه مات عند المحراب يُحيط به تلاميذه.

تاريخ ميلاد «زورواستر» ومماته

كان «زورواستر» من أهل «أذربيجان» ومن المحتمل أنه كان ماجوسيًّا، وإن كان ذلك فيه شك.

وهناك كذلك شكٌّ كبيرٌ في العصر الذي عاش فيه، ويعتبر بعض الثقاة أن هذا النبي قد وُلِدَ في عام ١٠٠٠ق.م، في حين أن الرأي التقليدي يقول: إنه وُلِدَ في عام ٦٦٠ق.م، ومات في عام ٥٨٣ق.م، ويعضد الرأيَ الأخيرَ ما قِيل من أن الملك «دارا الأول» كان أولَ ملك متحمس لمذهب «زورواستر»، ولكن نظرًا لهذه الآراء المتباينة عن حياة هذا النبيِّ يُستحسن أن ننتظر براهينَ جديدةً عن هذه المسألة الهامة الصعبة الحل.

الأفستا Avesta

يعتبر المسلمون سكان العالم منقسمين قسمين، وهما أصحاب الكتب المنزَّلة والذين لم ينزل عليهم كتابٌ، وأتباع «زورواستر» يُعتبرون أهل كتاب؛ وذلك لأن لديهم كتاب «أفستا» الذي كان قد أنزل بعضه أو كله على «زورواستر»، وهذا الكتابُ المقدس قد كُتب بلغةٍ تُدعى — بوجه عام — «أفستك»، وهي لغةٌ تختلفُ عن اللغة التي استعملها الأخمينيسيون في نقوشهم، ويعتقد أنه كان يحتوي على واحد وعشرين كتابًا، نقشت بحروفٍ من الذهب على اثني عشر ألف جلد ثور، ومن المفهوم أنه قد أتلف بعد سقوط الدولة الأخمينيسية، وأنه لم يعثر إلا على جُزء صغير منه، ويقال إن «فولا جاسس الأول Volagases 1» ملك «بارثيا» الذي حكم حوالي منتصف القرن الأول بعد الميلاد؛ قد بدأ في إعادة جمعه، ولكن في الواقع قام بجمع معظمه الملك «أردشير» الفارسي مؤسس الأسرة الساسانية، ومن المحتمل أنه قد أُدخلتْ عليه إضافاتٌ في الجيلين أو الثلاثة التي تلت ذلك.

يميلُ الإنسانُ — بطبعه — إلى الآثار القديمة — على ما يظهر — ولذلك فإنه عندما نذكرُ أنَّ مذهب «زورواستر» الذي لا يزالُ يُعَدُّ ديانةً حية؛ قد عاصر ديانات «بعل» و«آشور» و«زيوس»، وهي التي قد أصبحتْ في عالم النسيان منذ عِدَّة قرون مضتْ، فإنه يحق لنا أن نُشاطر عواطفَ العلماء الباحثين، الذين وهبوا حياتهم للبحث والتدقق؛ في تأثُّر هذا المذهب إلى الوراء حتى أبعد موردٍ له في وسط سحب الأساطير والخرافات التي تغمرُهُ، والجزءُ الباقي من كتاب «أفستا» يحتوي على كتابٍ واحدٍ فقط وهو «فنديدات» أو — على الأصح — «فيدفات» أو «القانون ضد الشياطين».

ويدخلُ بعضُ الأجزاء من الفصول الأُخرى في تأليف «ياسنا Yasna» أو الشعائر، وقد حفظت قطع أخرى في كتب «باهلوفي Pahlovi» والأخيرُ تشبهُ علاقتُهُ كثيرًا بالأفستا كما يشبه في اللاهوت الكنسي كتاب «العهد الجديد»، وما بقي من كتاب «أفستا» ينقسم أربعة أقسام كما يأتي:

(أ) قسم «يانسا Yansa» وينقسم بدوره اثنين وسبعين فصلًا، ويحتوي على أناشيدَ، بما في ذلك «جاتاس».

(ب) الـ «فيسبرد Vispered» أو مجموعة تسابيح تُستعمل مع «يانسا».

(ج) الـ «فيديداد»، وهو كتاب القانون الكنائسي، الذي يبين العقوبات الدينية، والتطهيرات، والتكفير عن الذنوب.

(د) الـ «ياشتس Yashts» أو الأناشيد التي ترتل على شرف الملائكة الذين يترأسون أيام الشهر المختلفة.

وقد وُجد جزءٌ في «أفيستا» يمثِّلُهُ كتاب «جاتاس»، وهو الذي قد قرن — بحق — بكتاب المزامير العبري، والمعتقَد أنه يمثل التعاليمَ الفعلية وكلمات «زورواستر» ومَن أتى بعده مِن أتباعه مباشرة، ونجد في هذه التعاليم أنَّ هذا النبيَّ يتمثل لنا في صورة شخصية تاريخية تلقي دروسًا أخلاقية محضة، ولا بد أنها قد نالت احترامًا عميقًا، وبخاصة عندما نذكر مقدارَ عُمْق ما كان حوله من ظلام دامس.

«أورموزد» الإله الأعلى

لقد أشرنا بالنسبة لعلاقة موضوع الأساطير الآرية لإله السماء القديم الإيراني المسمى «فارونا Varuna» Uranus وقد أصبح «فارونا» موحدًا بالإله «أهورا» (السيد) أو بعبارةٍ أَعَمَّ: «أهورامازدا» (أورموزد) رب المعرفة العظيمة والإله الأعلى وخالق العالم، وذلك بعد التأثير الروحاني لتعاليم «زورواستر» التي يمكن أن تُعرف بأنها عبارة عن نسبة صفة خلقية إلى قوى الطبيعة، وقد بَدَتْ هذه الظاهرةُ في إحدى محادثات «زورواستر» التي تنطوي على الوحي الذي كان قد أُنزل عليه، فيقول «أهورامازدا»: «إني أحفظُ السماء هناك في أعلى منيرة ومرئية بعيدًا وتحيط بكل الأرض، وأنها ترى كأنها قصرٌ قد أُقيم من مادة سماوية، ثابتة تمامًا بأطراف واقعة على بعد، مضيئًا في جسمه الأزرق على العوالم الثلاثة، وأنه كمثل ثوب مرصع بالنجوم مصنوع من مادة سماوية يرتديه «مازدا» (ياشت ١٣ Yasht 13).»

وإنه لَمن المهم في هذا المختصر عن الديانة الفارسية أنْ نُميز بين فكرة الإله الأعلى — كما جاءتْ فِي تعاليمِ «زورواستر» — وبين الفكرة التي سادتْ في العُصُور المتأخرة، وذلك أنَّ الفكرةَ التي وردتْ في كتاب «جاتاس» الذي يُشبه المزامير هي عبارة عن روح منعمة؛ أي أنه الخالقُ العظيمُ الأوحدُ. والواقع أن صفات «أهورامازدا» — وهي الروح الطيب؛ أي العدل والقوة والصلاح والصحة والأبدية — تُمَيَّز دائمًا وتُخاطب كأنها منفصلةٌ عن

«أهورامازدا»، ومع ذلك فإنه يُشار إليها بوصفها أسماء معنويةٌ عامةٌ، وليست بوصفها شخصيات منفصلة، ومن ثم نجد تحت الفكرة «الجاتيه Gatia» الوحدانية الإلهية التي لا شك فيها، ونجد في «الأفستا» المتأخرة أن «أهورامازدا» لا يزال الإله الأعظم، ولكنه ليس بالإله الأحد الذي يعبد، وفي هذا الوقت أصبحت الصفات الست؛ أي «الآحاد الأبدية المقدسة»، وكانت تعبد بهذه الصورة.

وفضلًا عن ذلك فَإِنَّ كل آلهة الطبيعة الذين محاهم المصلح العظيم قد أُعيدوا ثانية وعبدوا جنبًا لجنب مع «أهورامازدا» ورؤساء الملائكة، ويمكن أن تقتبس الآلهة «مترا» بوصفها مثالًا لهذا الدور، وكذلك يلحظ أن عبادة «أناهيتا Anahita» التي على نموذج «أشتار» آلهة الإخصاب الآسيوية، كانت قد أُدخلت في العبادة في تلك الفكرة، وهكذا نجد أن الإصلاحات والتوحيد الذي كان يدعو إليهما «زورواستر» قد تُركا جانبًا شيئًا فشيئًا وعادت الحال إلى تَعَدُّد الآلهة.

وبقي علينا أن نذكر هنا الإله «أهورامازدا» الذي كان الإله القَبَلِي عند ملوك الأخمينيسيين؛ قد مثل في صورة محارب واقف في صورة قرص شمس مجنح «أو على هيئة طائر بذيل»، كما مثل في صورة لوحة «بهيستون»، وصورة الإله هذه تسمى «فرور»، وهي صورةٌ طبق الأصل للإله الآشوري المسمى «آشور»، وهو بدوره قد اشتق من صورة الشمس المجنحة عند المصريين.

أهريمان روح الشر

هذا، ونجد على قدم المساواة مع «أهورامازدا» إلهًا آخر، كان في الأصل معاديًا له ويتمتع بقوة تفوق أعماله الخيرة، وهو روح الشر «أنجرا ماينو Angra Mainyu» أو «أهريمان» الذي كان يحد من سلطان «أهورامازدا»، وهو كما يقول «ادوردز» «الستار الأسود» الذي يجب أن توضع عليه فكرتنا العالية عن الإله «أهورامازدا»، ونجد فيما بعد أنه عندما شخصت الأرواح الطيبة ووجدت الأرواح الشريرة لمقاومتها ومعارضتها، ومن ثم نشبت الحرب بين قوى الشر وقوى الخير بشدة، وكانت الحرب سجالًا، وعلى أية حال يجب أن نذكر أن «دروج» أو الكذب كان جماع كل الشر، كما اعتقد بذلك الملك «دارا» وأن فكرة «أهريمان» قد أتتْ بعد ذلك بزمنٍ قليل.

مبادئ «زوروASTر» الثلاثة

يوجد في كتاب «فنديداد» ثلاثة مبادئ أساسية ترتكز عليها مجموعةٌ ضخمةٌ من الشعائر الكهنوتية والنظام، وهي: (أ) أن الزراعة وتربية الماشية هما المهنتان الوحيدتان الشريفتان، (ب) وأن كل الخليقة في حرب بين الخير والشر، (ج) وأن العناصر الأربعة وهي الهواء والماء والنار والأرض طاهرةٌ، ويجب ألا تدنس، وتفسيرًا للمبدأ الأول ليس هناك أفضل مِن وصف ما يسمى: الحياة المثالية على حسب عقيدة «زوروASTر».

فردًّا على سؤال وضعه هذا النبيُّ نعلم أنه حيث «يقيم أحدُ المؤمنين بيتًا بماشية وزوجة وأطفال، وحيث تكون الماشية في ازدياد، والكلب والزوجة والطفل والنار تكون ناجحة … وحيث يزرع أحد المؤمنين كثيرًا من الغلة والكلأ والفاكهة، وحيث يروي أرضًا تكون جافة أو يجفف أرضًا تكون مبللة.»

وهذه التعاليمُ سليمةٌ صحيحةٌ بصورة غريبة، ونجد من الأشياء التي تتضمنها أنها تحرِّم الصوم بسبب: أن كل من لا يأكل فإنه لن يكون لديه قوةٌ يؤدي عملًا جريئًا من أُمُور الدين أو يشتغل بشجاعة … وأنه بالأكل يعيش العالم، ويموت بدون غذاء، ويرجعُ السببُ في أن أتباع «زوروASTر» في القرى أصحاب أجسام قوية؛ إلى انعدام كل القيود غير الطبيعية.

هذا، وكان الزواجُ محتمًا كما كان كذلك تعدُّد الزوجات، ويقول «هردوت»: إن الملك كان يمنحُ مكافأة سنوية للفرد الذي يكون له أكبرُ أُسرة، والمبدأ الثاني هو عبارةٌ عن بيان طبيعة العقيدة الزوروASTية، وذلك أن «أهورامازدا» قد خلق كل ما هو طيبٌ مثل الثور والكلب والديك، وهي التي كان من واجبات كل مؤمن أن يعزها، أما «أهريمان» فإنه — من جهة أخرى — قد خلق كل المخلوقات المؤذية؛ مثل الحيوانات المفترسة والثعابين وكل الذباب والحشرات، وهي التي كان من الواجب المحتم على كل المؤمنين أن يهلكوها، ومن بين هذه الطبقة الأخيرة النملة التي يستحب قتلها؛ لأنها تأكل حب الفلاح، وكذلك الورل والضفدع، أما مكانة الماشية فلا تحتاج إلى شرح؛ وذلك لأنها قد وُصفت بالقداسة التي لا تزال مرتبطةً بالماشية في الهند.

وتفسير مكانة الكلب في مذهب «زوروASTر» كما جاء على لسان «أهورا» شعري بهج إذ يقول: «لقد جعلت الكلب في غير حاجة إلى ملبس أو نعل، وأنه شديد الحراسة، يقِظٌ ذو أسنان حادة، وُلد ليأخذ طعامه من الإنسان ويحرس متاع الإنسان … وأن أي فرد سيستيقظ على نباحه فإنه لا اللص ولا الذئب سيسرق شيئًا من بيته دون أن يحذر، والذئب

سيُضرب ويمزق إربًا إربًا … على أنه لا يمكن أن يبقى بيت على الأرض عمله «أهورا» إلا بسبب كلبي هذين وهما كلب الراعي وكلب البيت.»

وقد غالت هذه التعاليم أحيانًا بوضع الكلب على قدم المساواة مع الرجل، ويظهر هذا في العبارة التالية: «قتل كلب أو رجل.» كما نشاهد ذلك أيضًا في الحياة المثالية في تعاليم «زورواستر» التي اقتبسناها فيما سبق؛ حيث ذكر الكلب قبل زوج الرجل وأولاده.

أما المكانة التي مُنحتْ للديك الذي يوقِظُ الخمولَ هي: «الطائر الذي يرفع صوته على الفجر الجبار … وأن من سيهدي كرمًا وتدينًا إلى أحد المؤمنين زوجًا من طيوري هذه، فإنه يكون كمن أهدى بيتًا يحتوي على مائة عمود.» ومن المحتمل أن هذه العبارة قد تُشير إلى أن الدجاج كان نادرًا في بلاد الفرس في ذلك الوقت.

هذا، وكان كلب الماء يُعتبر غاية في القداسة؛ فقد كانت عقوبةُ قتل واحدٍ منها عشر جلدات، وهي أعظم عقوبة على أيِّ جريمة، أما المبدأ الثالثُ فكان مرتبطًا بقداسة النار بوصفها رمزًا، وقد كان على الكاهن أن يغطي فَمَه عندما كان يقومُ بواجبه الدينيِّ عند المذبح، يُضاف إلى ذلك أنه كان يرشد للقواعد الخاصة بعدم تلويث الماء الجاري، وهي لا تزال متبعةً في بلاد فارس على حسب تعاليم الإسلام.

وثانيًا: كان الفردُ المعتنق تعاليم «زورواستر» تعرض جثته على برج لتمنع تدنيس الأرض، يضاف إلى ذلك أنه لَمَّا كانت كُلُّ الأمراض يُنظر إليها بأنها ملك قوى الشر؛ فإن معتنق مذهب «زورواستر» كان غالبًا ما يهملُهُ أفرادُ أُسرته وهو يموت، بل أكثر من ذلك: كان يحرم من ضروريات الحياة، وقد كان من مساوئ هذا الدين المدهش أن معالجة المرضى بالغسل والتطهير ببول البقرات.

التأثيرُ التوازنيُّ على مذهب «زورواستر»

من المستحيل — في نظرةٍ عامةٍ كهذه عن المذهب الزورواستري — أن نهمل مسألة تأثير الشعب التوراتي على الديانة الآرية؛ إذ من الطبعي بل من المحتم على القبيلة التي تغزو بلادًا جديدة وتستولي عليها دون أن تقضي على أهلها جملة أو تطرد سُكَّانها الأصليين أنْ تتأثر إن قليلًا أو كثيرًا بعقائدها الدينية، وأفضلُ مثالٍ لدينا على ذلك تاريخُ قبائل بني إسرائيل، وأبرز مثل نجدُهُ في العقيدة الزورواستية هو الاحترامُ العميقُ الذي كان يُقَدَّمُ للنار؛ وذلك لأن هذا الشعور كان قد زِيدَ فيه بسببِ أن الآريين الذين كانوا يقطنون في البلاد الواقعة غربي «بحر الخزر» قد وجدوها تتفجَّر من خلال الأرض ويُقدِّسها السكانُ المجاورون.

والواقعُ أن بعض مَنْ زاروا «باكو» وشاهدوا هذه الظاهرةَ كانوا في دهشةٍ عظيمةٍ عندما رأوا عند غُرُوب الشمس هذا المكان المُغَطَّى بالثلج، ومع ذلك كان لهيبُ النار يندلعُ مِن جوف الأرض، مما جعل المنظر يتركُ في النفس تأثيرًا سحريًّا عظيمًا يفوق حد الوصف، وهكذا قد أوعزت طبيعةُ الأرض تمامًا إنشاءَ نيرانٍ مقدسة، وقد كان لزامًا على الإنسان أن يشعر بأن هذا العنصر النقي إن هو إلا رمزٌ لخالق العالم، ولا شك أنه بمرور الزمن قد ازداد الاحترامُ لها بدرجةٍ عظيمة حتى إن لقب «عباد النار» قد أصبح يُطلق على أتباع «زوروواستر»، وهذه العبادةُ قد بقيت حتى يومنا هذا؛ إذ لا نجد فارسيًّا «بارسي» يطفئ شمعة أو يخمد نار قطعة خشب مشتعلة، يضاف إلى ذلك أن التدخين محرمٌ في هذه البلاد.

واستعمالُ حزمة البرسيم يحتمل أنها مأخوذةٌ من عصا السحر التورانية، ولا نزاع في أنَّ جماعات الأرواح الشريرة التي تُهاجم البشر باستمرار، والتعاويذ الطويلة الضرورية لهزيمتها والخرافة القائلة إن قصاصة الأظافر لا بد أن تُدفن بصلوات لتمنع انقلابها إلى حراب وسكاكين وأقواس وسهام في صورة صقور مجنحة وحجارة مقاليع في أيدي الـ «دائفاس Daevas»؛ كل هذه كانت خرافات يرجع تاريخُها إلى ما قبل ظهور «زوروواستر»، ونجد في بلاد فارس الحديثة أن المسلمين يدفنون قصاصات الأظافر بعناية تحت عقب الباب؛ وذلك لأنه يعتقد أنها إذا وضعت هكذا تكون حاجزًا مانعًا للأسرة من الانضمام إلى المسيح الدجال عندما يظهر على الأرض، ومن المحتمل أن هذه الخرافة قد انحدرت من الخرافة القديمة.

الماجي أو الماجوس

يُظنُّ أن الماجوس لم يكونوا من أصل آري، بل يحتمل أنهم من سلالة قبيلة التورانيين (وراء نهر الأكسوس) التي هضمها الآريون الفاتحون.

هذا، ونجد أنهم في العهد التاريخي قد أصبح مثلهم في المذهب الزوروواستري كمثل اللاويين عند اليهود، وأنهم وحدهم الذين كانوا يذبحون ضحية ويحضرون «الهاؤما المقدسة Haoma» ويحملون حزمة البرسيم، هذا فضلًا عن أنهم كانوا متعمِّقين في علم التنجيم وبوساطة هذا العلم كان لهم علاقة — في أُسطورة الرجال الحكماء من الشرق — بولادة المسيح، وقد أصبح تأثيرُهم بمرور الأجيال عظيمًا جدًّا، ومن المحتمل أنه بالنسبة لهذه الحقيقة أنَّ العقائدَ النقيةَ التي لقنها «زوروواستر» الذي كان — على أية حال — يعتقد أنه من أصل ماجوسي، قد أدخل عليها الخرافات، كما أدخل عليها المحافظة على

القوانين الجامدة، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ الفُرس لم يكونوا مستعدين لاعتناق الشعائر الماجوسية في الحال، والظاهرُ أن هذه الديانة لم تُعتنق بأكملها إلا في العهد الساساني.

عقيدة القيامة

كان الاعتقادُ بوجود حياة أُخرى بعد الموت يُثاب فيها الإنسانُ أو يعاقب؛ من العقائد الأساسية في الديانة الآرية، والواقع أن هذا المذهب لم يكن محددًا بوضوح في كتاب «جاتاس» ولكن في كتاب «فنديداد» نجد أن الإبهام الذي في الـ «جاتاس» قد انقشع وأصبح أكثر تحديدًا. وهذه العقيدة موضوعةٌ في صورة الوحي العادية؛ ففي جواب عن سؤال خاص بما إذا كان المؤمن والكافر كذلك عليهما أن يتركا المياه التي تجري والقمح الذي ينمو وكل باقي ثروتهم فيقول «أهورا»: إن الأمر كذلك، وإن الروح تدخل الطريق التي عملها «الزمن» فتكون مفتوحةً لكُلٍّ من الشقي والعادل، وكذلك نعلم أن الروح بعد انقضاء ثلاثِ ليالٍ على موت الإنسان تأْخُذُ مقعدها بجوار رأس المُتوفَّى الذي كانت قد تركته، وكانت على حسب فضائلها تتمتع بالنعيم أو الشقاء إلى درجة قصوى.

وعندما ينبلج فجر اليوم الرابع يهب ريحٌ عبقٌ من الجنوب، وتقابل روح المؤمن عند جسر «شينفات Chinvat» أو «جسر الوداع» الذي كان يقام عبر هوة الجحيم بوساطة عذراء جميلة بيضاء الذراع «وجمالها كأجمل شيء في هذه الدنيا»، وتسأل الروح من هي وتتلقى الجواب التالي: «يا أيها الشاب صاحب الفكر الطيب والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة إني ضميرك.» وبعد ذلك يقود هذا الدليل الجميل روحَ المؤمن إلى حضرة «أهورا» وهناك يرحب بها بوصفها ضيف مكرم، أما الروحُ الشريرةُ فإنها بعد أن تقابل امرأة قبيحة الخلق لا يُمكنها أن تعبر الجسر وتسقط في مأوى الكذب لتكون هناك أمة «أهريمان».

هذا، ونجد في «هردوت» (Herod. III 62)، فقرة غاية في الأهمية لها علاقةٌ بالموضوع الذي نحن بصدده، وذلك أنَّ «قمبيز» الذي سمع بالعصيان عليه في صالح «بارديا» المزعوم الذي قد قتله أخذ يوبخ «بريكزاسبس Prexaspes» الذي كان قد أمره «قمبيز» بتنفيذ حُكْم الإعدام على أخيه «بارديا»، وقد دافع «بريكزاسبس» عن نفسه بقوله: إن هذا الخبر عارٍ عن الصحة ثم نطق بالبيان التالي: «إذا كان حقًّا أنَّ الموتى يُمكنُهُم تركُ قُبُورِهِم فانتظر «أستياجس» ملك «ميديا» أن يقوم ويحاربك، ولكن إذا كان مجرى الطبيعة هو نفسه — كما كانت الحال من قبل — فكن إذن متأكدًا أنه لن ينالك شرٌّ من هذه الناحية.» وفي الحق هذه فقرة تلفت النظر بالنسبة للعقائد الإيرانية.

الجنة الإيرانية

تقع جنة أتباع «زورواستر» على جبال «هارا-برزايتي Hara-berzaiti» أو الجبل الشامخ المعروف في العصر البهلوي باسم «البورج» وهو الذي يُسَمَّى الآن «البورز»، وهذا الجبل السري يرتفعُ من الأرض فوق النجوم إلى دائرةٍ نُورُها لا نهايةَ له إلى جنة «أهورامازدا» مأوى الفتوة، وهو أم الجبال، وقمتُهُ تسبح في الفخار الأبدي حيث لا ليل ولا زمهرير ولا مرض، حقًّا إن هذه المثالية الشعرية لقمة جبل «دمافاند» المنقطعة النظير يمكن أن تجد لها مكانةً في أنفسنا، ويحتمل أن تكون هذه المكانةُ كبيرة عند من شاهدوها وشعروا بعظمتها ورهبتها.

تأثير ديانة «زورواستر» على الديانة اليهودية

قد يَطُولُ بنا البحثُ إذا تَعَمَّقْنَا في موضوع تأثير ديانة «زورواستر» على ديانة اليهود، وبالطبع على الديانة المسيحية، ولكن مما يستحق الإشارة إليه أن «أهريمان» في ديانة «زورواستر» يكادُ يكون موحدًا بالشيطان في ديانة اليهود وبـ «إبليس» في الدين الإسلامي، فنجدُ في كل الديانتين شياطينَ مؤذيةً لا يُمكنُ للإله الأعلى أن يقضي عليهم في الحال كما يُريد بداهة إذا أمكنه، يُضاف إلى ذلك أن صفاء «أهورامازدا» وسموه في علاه كما لقنهما «زورواستر» تَفُوقان فكرةَ «يهوه» الإله القبلي عند اليهود والذي قد مثل صائحًا: «إذا شحذت سيفي البارق، وأمسكت بيدي على القضاء، فإني أُرسل النقمة على أعدائي، وأُجازي مبغضي، وسأُسكر سهامي بالدم، وسيلتهم سيفي لحمًا بدم القتلى والسبايا ومن رءوس قواد العدو» (كتاب التثنية، الإصحاح ٣٢ الأسطر ٤١ و٤٢).

ومن جهة أخرى نجد أن الإله الذي طبيعتُهُ السامية قد وضعت في الفقرات الرفيعة في كتاب «أشعيا» تفوق أعلى تصور جاء على لسان «أهورامازدا».

والآن ننتقل إلى مسألةٍ أَهَمَّ بكثيرٍ من السابقة، وذلك أنه من المحتمل أن نكون قد غَالَيْنَا كثيرًا إذ ادعينا أنَّ عقيدةً أبديةَ الروح قد بشر بها أولًا «زورواستر»، ثم نقلها عنه اليهودُ الذين وضعهم «سرجون الثاني» في مُدُن الميديين، وكانوا قد اختفوا، وعُدُّوا مفقودين بالنسبة لإسرائيل.

ونحن نعلم — على أية حال — أن الأسر الكهنوتية والأرستقراطية من اليهود الذين يمثلون الصدوقيين (الكفار باليوم الآخر)، قد قالوا في بداية العصر المسيحي إنه لا يوجد في

الكتب المنزلة ما يثبت الاعتقاد في وجود ملائكة وأرواح أو قيامة، وعلى ذلك فإنه لدينا من جهة الزورواستريين الذين كانت عقيدة أبدية الروح في نظرهم من الأمور الأساسية، ومن جهة أخرى لدينا اليهود الذين انقسموا على أنفسهم بسبب هذه العقيدة الحيوية الهامة، وذلك بعد مضي عدة قرون على موت نبي «إيران» العظيم.

هذا، ويَضيق بنا المقام في هذا المختصر أنْ نُضيف أكثر مما سبق على التأثير الهائل الذي أحدثَتْه ديانةُ «زورواستر» على اليهودية سواءٌ أكان ذلك بطريقٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرة، وبقي علينا أنْ نُشير إلى أن نغمة الأنبياء اليهود نحو الفرس تلفتُ النظر في تسامُحها، ولنعطِ مثالًا واحدًا من بين كثير فنقرأ في «أشعيا»: «هكذا قال الرب إلى معطرة إلى «كورش» والواقعُ أن الفرس وحدهم من بين السلالات المتسلطة لم يحكم عليهم بدخول النار من جانب أنبياء اليهود، وقد اعترف بهم اليهودُ إلى حَدٍّ ما بأنهم قوم تقرب ديانتهم من الديانة اليهودية.»

وخلاصة القول أننا قد رأينا هؤلاء الإيرانيين في أول أمرهم قد بدوا أجلافًا يعبدون الطبيعة، ثم يظهر بينهم بعد ذلك «زورواستر» في جلاله وعظمته، فحَوَّلَ أساطير قومه إلى رُوح طيبة، وبعث فيهم الشعورَ بوُجُود إله يقرب سموه ورفعته مِن سُمُوِّ عيسى ورفعته، وأنه «زورواستر» الذي نادى بالاعتقاد الآري في خلود الروح، وكانت رسالته التي قوامُها الأمل قد أتت — بلا شك — من الماضي البعيد، مارةً بمسارح الزمن الهامسة، تاركة أثرها في نفوس أهل القرن العشرين الذي نعيش فيه بصفة مباشرة وغير مباشرة.

فعلى حسب تعاليمه نجد الإنسانَ في صراعه الأبدي بين الخير والشر، قد تُرك ليختار لنفسه ما يحلو له، فالأرواحُ الخَيِّرةُ تعاضدُهُ، والأرواح الشريرة تهاجمه، غير أنه يعلم أن الغلبة ستكون للخير على الشر كما يقهر غيثُ السماء القحطَ.

وفي رأيي أنه من الصعب أن يكون في قدرة الإنسان الزيادة في تحسين عقائد هذه الديانة، وهي التي يرددها كل صبي عندما يصبح في سن كافية «لشد حزامه»، ويقول بعد أن يتعلم على يد مَنْ هو أكبر منه سنًّا: «أفكارًا طيبة وكلمات طيبة وأعمالًا طيبة» وتلك هي تعاليمُ هذا الدين القويم.

الديانةُ المصرية القديمة والديانة الفارسية

وقبل ختام هذه العُجَالة عن الديانة الفارسية، يَجْدُرُ بنا أَنْ نُلْقي نظرةً على أَوْجُه الشبه بين هذه الديانة والديانة المصرية القديمة، والواقع أَنَّ هذين الشعبين هما من بين شُعُوب العالم اللذان نجدُ في ديانتيهما أن الثنائية الخُلُقية قد اتخذت مكانة هامة؛ ففي «مصر» نراها بوضوح، ومع ذلك نجد أنها لم تصل إلى نقطة التحرُّر التام من المادية، ومن النضال بين العناصر الدنيوية، في حين نجد في «فارس» أن عنصرَي الخير والشر باسميهما «أورموزد» و«أهريمان» قد أصبحا وحدتين خلقيتين، كلٌّ منهما منفصلةٌ عن الأُخرى تمام الانفصال، وفضلًا عن ذلك قد أصبحتا — بصورةٍ ما — مرتفعتَين عن الطبيعة المادية. ويُلحظ في المذهب الزوروواستري أن الخير المادي هو المظهر للخير، وهو يُعَدُّ أَقَلَّ درجة من الخير الخُلُقي الذي هو أسمى منه، كما يلحظ أن الشر الماديَّ هو بمثابةِ نتيجة للشر الخُلُقي.

ومن الجائز — على أية حال — أن الفرس قد أتوا بعد المصريين للإعلاء من شأن الثنائية الخلقية التي كانت موجودة منذ زمن بعيد في «مصر»، ومهما يكن مِن أمر فإنه ليس مِن باب المبالغة أنْ نعترفَ أن «امبيدوكل» الإغريقي، قد تأثر في وقت واحد بمصر وبالفرس، كما تأثر «هيراكليت» اليوناني بالأفكار المصرية والفارسية معًا.

العادات واللغة والعمارة في بلاد «فارس» القديمة

مقدمة

تدلُّ ظواهرُ الأحوال على أن الميديين والفرس كانا يعيشان في الأزمان القديمة عيشةً متشابهة، ولما كانت الأحوال الجوية والاجتماعية لم تتغيرْ في كلا البلدين؛ فإننا لن نكون قد ذهبنا بعيدًا عن جادة الصواب إذا قلنا: إنهم كانوا قومًا أحرارًا محاربين، يَتَّسمون بسمات الرجولة التي يتسم بها البدوُ في أيامنا، وإن بعضهم على أية حال قد انحدر من أصلاب أجدادهم القدامى. وهذا الرأي عن أخلاقهم كان يعترف به الإغريقُ، وإذا كان الإغريقُ قد نالوا شهرةً أبديةً في الدفاع عن «هيلاس»؛ فإن جزءًا من هذه الشهرة، قد ناله الفُرس الشجعانُ الذين على الرغم من انحطاط نوع الأسلحة والدروع التي كانوا يُدافعون بها في حُرُوبهم مع الإغريق الذين كانوا قد سُلِّحوا بأحسن الأسلحة؛ حاربوا في موقعة «بلاتا Plataea» ليقتحموا صفوف الإغريق ويجدوا لأنفسهم طريقًا غير مبالين بحياتهم.

عادات الفرس

مما لا نزاع فيه أن الحيوية التي يُعَبَّر عنها بالشجاعة والعزيمة هي أحسن ذخر تستند عليه الفضائل الإنسانية الأخرى، ولا نِزاع في أن الفرس القدامى قد تعلموا بوجه خاص «امتطاء صهوة الجواد، ونزع القوس والتحلي بقول الصدق»، وكذلك كانوا يتحاشون ذل الدين كما كانوا كرماء لضيوفهم، وقد ضرب لنا «هردوت» مثلًا في كرمهم، وذلك أن إغريقيًّا كان قد حارب حتى غطى جسمه بالجروح دفاعًا عن سفينته، ولما أعجب الفرس بشجاعته ورأوا أن جروحه لم تكن مميتة ضمدوها وعاملوه معاملة الشجاع المغوار، وقد كانوا يعتبرون

البيع والشراء في السوق سُبَّة، وحتى اليوم لا نجد فارسيًّا ذا مكانة يتنازل بالدخول في حانوت لشراء حاجياته.

ولكن نجدُ مقابلَ هذه الصفات الحسنة أنَّ الفارس كان ينقصُهُ ضبطُ النفس، سواء أكان ذلك في السراء أم في الضراء، يُضاف إلى ذلك أنه كان محبًّا للزهو والصلف إلى حَدٍّ كبير، كما كان محبًّا للبذخ، وهذه صفات نجدها في كل الأمم ذات الثراء، والفرس كسلالة كانوا — ولا يزالون — مشهورين بحدة البصيرة وسرعة الجواب، والنكات التي تكون أحيانًا في منتهى المكر.

هذا، وكان الفرس معروفين بإسرافهم وبخاصة في الطعام، وقد ذكر لنا «هردوت» أنهم كانوا يأكلون ألوانًا قليلة أصيلة، ولكن كانوا يقدمون ألوانًا كثيرة بمثابة حلوى، غير أن ذلك لم يكن دفعة واحدة، أما ولائمُهُم وفخامتها وبذخها فسنشيرُ إليها عند التحدث عن حياة ملوكهم.

هذا، وقد كان الفُرس مثل الإغريق والسيثيين يعكفون على الكاس والطاس، ويقول «هردوت» إنهم كانوا يستقرُّون على مسافة هامة، وهم سكارى في المساء، وبعد ذلك في الصباح إذا رأوا أنه لا داعي لتغيير رأيهم الذي استقروا عليه فإنهم ينفذونه، وكان الفارسي يعتبر إنجاب ذكور عدة ثروة، وأكبر مثال على ذلك أن «فتح علي شاه» قد ترك بعد مماته ثلاثة آلاف مِن نسله، وقد كان ذلك سببًا في رفع مكانته بدرجة تفوق المألوف بين رعاياه.

القوانين

كان قانون الميديين والفرس الذي لم يتغير — على ما يظن — غايةً في الصرامة، غير أنه لم يكن أحزم من قوانين الإمبراطوريات التي سبقتْها على وجه التأكيد، فكان الملك يفعل ما يريد غير أنه لم يكن في استطاعته أن يغير أمرًا كان قد أصدره، وكانت حياة رعاياه وأملاكهم تحت رحمته، ولكن في الوقت نفسه كان الخوف من القتل هو الذي يخفف من حدة إساءة استعمال الحقوق، وكان القانون الجنائي، وهو الذي جعل الموت — وذلك بحق — عقابًا على القتل وهتك الحرمات والخيانة، وما شابه ذلك من جرائم فظيعة. ويظهر أنه كان يطبق كذلك على الجرائم الأقل قسوة، ولكن من جهة أُخرى نجد أن في معاملة بلد فطري أهله متوحشين لا سجون منظَّمة فيه؛ كان من المستحيل الحكم بالموت أو التشويه في حالة محاكمة اللصوص وغيرهم من أصحاب الأخلاق الفاسدة، وقد كانت العقوباتُ

بالإلقاء في النار ودفن الفرد حيًّا وسلخ الجلد والصلب شائعةً في ذلك الوقت كما كانت في «آشور» من قبل.

مركز المرأة

كان تعدُّد الزوجات مباحًا، وكانت الطبقات العُليا يضعون نساءَهم في الخُدُور كما كانت المحفات المستورة تستعمل لحملهن في الأسفار.

هذا، وكانت المرأة لا تظهر في الكتابات ولا في النقوش المصوَّرة، ولكن من جهة أُخرى لم تكن المرأةُ الريفيةُ محجبة، ومن المحتمل كان مركزها أحسنَ حالًا من أخواتها اللاتي كان محرمًا عليهن الظهورُ في المجتمعات أو استقبال آبائهن أو إخوتهن.

ولما كانت هذه هي القاعدة العامة في الشرف؛ فإن نساء الفرس كن يشاطرنهن فيها، غير أن سبب انحطاط الفرس كدولة عظمى يكمن في أنها كانت تصرف طول يومها في الغزل وفي الأعمال المنزلية الأخرى، الفرس كانوا يعتقدون أن المرأة إذا قامت بعمل ما فإنه يُعَدُّ حَطًّا من قدرها، وقد كان مثلهم الأعلى في هذا الصدد أقل بكثير من المثل الأعلى للمرأة الإغريقية، وذلك أن المرأة الإغريقية على الرغم من أنها كانت حبيسة في بيتها فإنها كانت تصرف طوال يومها في الغزل وفي الأعمال المنزلية الأخرى.

الملك وبلاطه

ليس هناك دولةٌ في العالم كانت حياتُها متركزة حول الملك أكثر من الفرس،[١] وعلى ذلك فإن وصف مركز الملك وحياته يقدم لنا صورة حقيقة عن الأحوال في «إيران» بعد أن أصبحت الإمبراطوريةُ الفارسيةُ قائمةً على أساسٍ مكينٍ، كان الملكُ هو الحاكمَ المطلقَ والموردَ الوحيدَ للقانون والشرف، فقد خَصَّ نفسه بالعظمة، فكان هو الرجلَ الوحيدَ الذي على أخلاقه وقدرته تتوقفُ سعادةُ البلاد وشقاؤها؛ لذلك كان المنتظر منه أن يراعي عادات البلاد، وكان عليه أن يستشير الأشراف، كما كان لزامًا عليه أن يحترم القرارات التي أصدرها، وكان ثوبه الملكي الأرجواني الذي يرتديه هو الثوب الميدي الموقر الفضفاض، وكان يلبس

[١] يُستثنى من ذلك الفرعون في مصر فإنه كان إلهًا، والإله لا مَرَدَّ لقوله؛ لأنه يحكم على حسب شريعة «ماعت» التي شرعها إله الشمس «رع» عندما حكم على الأرض («ماعت» معناها العدالة).

على رأسه عمامة عالية ذات لون بَرَّاقٍ (لا يلبسها إلا الملك)، وقد جاءت صورتها في نقوش مدينة «برسيبوليس Persepolis»، وكان يحلِّي أذنيه بقرطين ويديه بأساورَ، كما كان يَتَحَلَّى بسلاسلَ وحزامٍ كُلُّها من الذهب، وقد ظهر في النقوش قاعدًا على عرش منمَّق، وله لحيةٌ طويلةٌ وشعر مجعد ويقبض في يده على صولجان مدبب مُرَكَّب في نهايته تفاحةٌ من الذهب، ويقف خلفه تابعٌ وفي يده المروحة اللازمة، ويقف عند رأس البلاط قائدُ الحرس الذي كانت رتبتُهُ — بطبيعة الحال — من أهم الرتب، وكان كبار الموظفين يشملون المدبر الأول للقصر، ورئيس البيت، والخصي الأول، يُضاف إلى هؤلاء عينا الملك وأُذُناه أو الشرطي السري، والتشريفاتي، وحامل الكأس والصيادون والرسل والموسيقيون والطباخون، وكلهم كانوا ضمن رِجَال البلاط.

وقد ذكر لنا المؤرخ «كتسياس Ctesias» أنَّ الملك كان يُطعم يوميًّا خمسة عشر ألفًا من الشعب، وأنه كان يقدم في طعامهم الغنمَ والماعزَ والجمالَ والثيرانَ والخيلَ والحميرَ، وكانت النعام والإوز تؤكل أيضًا، كما كانت تؤكل لحوم كل أنواع الصيد. وكانت تُقَدَّم للملك مائدةٌ منفردةٌ، غير أن الملك أحيانًا، وكذلك أولادُهُ المقربون يُسمح لهم بالأكل معه، وهذه العادةُ لا تزالُ شائعةً في «فارس» حتى الآن، وقد كان الملك يمعن في السكر وهو متكئٌ على الأرائك الذهبية، وفي الولائم الكبيرة كان يرأسها بنفسه، وكانت أطباقُ الذهب والفضة عديدةً معروضةً بأُبَّهة وفخار — كما هي الحال في البلاط الإنجليزي الآن.

وكانت الحرب والصيد من دأب ملوك الفرس، وما دامتا مستمرتين فإن شباب المِلك كان دائمًا محفوظًا، وكان من عادة المِلك أن يحتل وسط خط القتال، وكان يُنتظر منه أن يُظهر شجاعة وبطولة، أما في الصيد فكان الملك يطارد الحيوان المفترس بمساعدة الكلاب، وكان من عادته أن يتبع في صيده الطرق الآشورية، فكان الحيوان يحفظ في سياج ضخمة تُدعى «بيري-داساه» ومنها اشتقت كلمة الفردوس التي سمي بها الشاعر المشهور، وقد سبقهم في هذا النوع من الصيد قدماء المصريين.

هذا، وكان صيدُ الحمير البرية من أنواع الطرد المحبب لدى الملوك، فكانوا يطاردونها بالخيل التي عمل لها محاط، إلى أن تقع فريسة في أيدي الصيادين، (راجع: Xenophon Anabasis 1, 5, 2).

أَمَّا في داخل القصرِ فَكَانَ الملك يسلي نفسه بلعبة الشطرنج، ولقد كان من المفروض أن الملوك الذين تركوا كل شيء لوزرائهم يشعرون بالسأم، كما هي الحال الآن مع طلاب

اللهو، ومن ثم نقرأ عن حالات نشاهد فيها أنَّ الملك كان يُسَلِّي نفسه بهواية مثل الحفر أو حتى مسح الخشب بالفارة.

ومن الغريب أنَّ مُلُوك «فارس» على وجهٍ عام، كانوا أُميين على خلاف ملوك «آشور»، ومن المدهش أن هذه العادة لا تزال موجودةً حتى يومنا هذا في بعض كبار الموظفين! وكان يأتي بعد الملك رؤساء الأُسر الذين يُعرفون باسم «الأمراء السبعة»، وكان من حقهم طلب الدخول على الملك في أيِّ لحظة، إلا إذا كان في خدر نسائه، وقد كانوا — في العادة — يشغلون وظائفَ عالية، ويؤلفون مجلسًا مستديمًا، ومِنْ بعدهم تأتي فروعٌ صغيرةٌ، وأتباعٌ من الأُسر الكبيرة.

هذا، وقد كانت جماعة التجار يُنظر إليها بعينٍ مِلْؤُها الاحتقارُ الشديد، ومِن ثم نفهم أنه لم تكن هناك طبقةٌ متوسطةٌ بين الأشراف وعامة الشعب، وكان الفردُ من الرعية إذا سُمح له بالدخول في المجلس ينبطح على الأرض عند الدخول على الحضرة ويداه مختفيتان عن الأنظار، وهذه العادة لا تزال موجودة حتى الآن.

وقد حَدَّثَنا هردوت عن تسليحِ الفُرس، فيقول إنهم كانوا يلبسون على رءوسهم عمامةً ناعمةَ الملمس تُسَمَّى Tiaraويرتدون قمصانًا من ألوانٍ مختلفةٍ لها أكمامٌ تظهر في شكلها أنها مؤلفةٌ مِن قُشُور من حديد مثل قشر السمك، وكما كانوا يرتدون سراويلَ، وبدلًا من الدرع العادي كانوا يلبسون درعًا من البوص المجدول تحته قوس، وكانوا يتسلحون بحرابٍ قصيرة وخناجرَ معلقة على الفخذ الأيمن من الحزام.

وكانت الملكة سيدة في حريمها، وكان من حقها أن تلبس الإكليل الملكي الذي يجعلها سيدة على زوجات الملك الأخريات، وكان لها دخلٌ عظيمٌ خاصٌّ بها، كما كان لها موظفون وخدم خاصُّون بها، وعندما كانت ملكة ذات خلق عظيم تحتل هذا المنصب فإن نفوذها يكون عظيمًا، أما النساء الثانويات فلم يكن لهن نفوذ يُذكر نسبيًّا، وكانت مئات الحظيات تأتي كل واحدة منهن ليلة إلى فراش الملك اللهم إلا إذا اجتذبت إحداهن قلب الملك بصفة خاصة.

وقد كان مركز الملكة نفسُهُ عرضةً لأنْ يخسف بوساطة أم الملك التي كانت لها المكانة الأُولى في البلاط، ولا أَدَلَّ على ذلك من الأعمال التي أتتها «أمستريس Amestris»، زوج الملك «أكزركزيس الأول» — كما سنرى بعد — وكان الخصيان عديدين في القصور الملكية، وعندما كانت تنحدر الأسرة المالكة في طريق الترف والنعيم فإن نفوذ هؤلاء الخصيان

السيئ كان يفسد الأمراء الصغار الذين كان يقوم على تربيتهم هؤلاء الخصيان، ولا بد أنَّ تكاليف بلاطٍ كالذي وصفناه كان حملًا ثقيلًا على الإمبراطورية، وقد ظل كذلك حتى الآن.

هذه كانت العاداتُ الهامةُ الشائعةُ في أُمَّة الفُرس، ولا نِزَاعَ في أنَّ الطيب منها يربي على السيئ، وعندما نأخذ — بعين الاعتبار — ما لديانتهم من مبادئَ ساميةٍ سليمة؛ فإنه لا يُدهشنا قَطُّ أنَّ هؤلاء القوم الآريين قد أسسوا إمبراطورية عظيمة، وسيطروا على ما فيها مِن أقوامٍ ينتسبون إلى السلالتين السامية والتورانية، وهضموا مدنيتيهما.

لغة الفرس القديمة

يرجع الفضل في حل معميات اللغة الفارسية إلى مجهودات «جروتنفند ولاسن» وبصفة خاصة إلى «سير هنري رولنسن»، وهي اللغةُ التي كان يتحدث بها «كورش»، وإنه لمن المهم — بنوع خاص — أنْ نَعلم أن الكثير من كلماتها مثل الكلمة الدالة على حصان وجمل … إلخ التي استعملها الفرسُ الأقدمون؛ لا تزال باقيةً في الفارسية الحديثة، والواقعُ أن اللغة كانت فارسيةً قديمة، والنظرية القائلة إن الكتابة الفارسية مشتقةٌ من الكتابة الآشورية مقبولةٌ عندما نعلم ما كان للآشوريين من تأثير على بلاد «ميديا» و«فارس».

نقش «دارا» الثلاثي في «بهيستون Behistun»

ترك لنا الملكُ «دارا» نقشًا على صخرة عالية من صخور سلسلة جبال بالقرب من «همدان»، ويرجعُ الفضلُ في التعرُّف على هذا الأثر وحَلِّ رُمُوزه إلى الأثري «رولنسن» الذي عانى كثيرًا في نقله مِن على الصخرةِ التي يبلغ ارتفاعُها حوالي أربعة آلاف قدمٍ، وقد ترجم المتن أخيرًا كل من «كنج» و«طومسون»، وهذه هي أحدثُ ترجمةٍ يُعتمد عليها حتى يومنا هذا.

وقد مثل على هذه اللوحة الملك «دارا» يتبعُهُ موظفان عظيمان من رجال دولته، ويظن أن أحدهما هو حموه المسمى: «جوبرياس Gobryas» وهو منتصر على أعدائه، ويظهر الملك وهو يطأ بقدمه اليسرى «جوماتا» الماجوسي، وهو ممثل ملقًى على ظهره وذراعُهُ مرفوعة تضرعًا للملك، ويشاهد في الأمام سبعةُ عصاة رُبطوا معًا بأيديهم مغلولة، وقد ذكر اسم كل واحد منهم معه، وفوق ذلك يرفرف الإله «أهورامازدا» وقد رفع له الملك «دارا» يده اليمنى تَعَبُّدًا وخشية.

نُقش هذا الأثر الخالد بثلاث لغات، وهي: الفارسية والعيلامية الجديدة، ثم البابلية، ويقدم لنا ألقاب الملك «دارا» واتساع مملكته، ثم يشير بعد ذلك إلى موت «بارديا» أو «سمرديس» على يد «دارا»، والثورة التي قام بها «سمرديس» الدجال، وهو «جوماتا» الماجوسي في أثناء غياب «قمبيز» في «مصر»، وقد جاء ذِكْرُ موت هذا المدعي على يد «دارا» بشيءٍ من التفصيل، ثم يأتي بعد ذلك الثورات التي قامتْ على «دارا» بالتطويل وينتهي النقش باستحلاف الحُكَّام الفُرس المقبلين أن يحذروا الدجالين كما يستحلف القارئ أن يحفظ النقش من العطب.

وقد صب الملك العظيم اللعنة على كل من يخرب هذا الأثر في الكلمة التالية: يقول «دارا» الملك: إذا نظرت هذه اللوحة وهذه النقوش وكسرتها ولم تحافظ عليها طوال استمرار نسلك؛ فإذن ليت «أهورامازدا» يذبحك، وليت نسلك يُمحى، وكل شيء تعمله ليت «أهورامازدا» يقضي عليه.

وإنه لَمِنَ المستحيل أن نقدر هنا ما لهذا النقش الثلاثي من أهمية؛ إذ لا تقتصر أهميتُهُ على ما له مِن قيمةٍ أثرية وحسب، بل أكثر من ذلك وبخاصة لما يُلقيه من أضواء على الكتابة المسمارية والبابلية والآشورية، وهي التي أصبح حَلُّها ممكنًا بوساطة شرح هذه الوثائق الفارسية.

باسارجادا (مورغاب)

كانت «باسارجادا» عاصمة بلاد الفرس وتُعرف كثيرًا باسمها اليوناني «برسيس Persis» وموقع هذه العاصمة يختلف عن العاصمة الحديثة التي جاءتْ بعدها، وهي «برسيبوليس» وذلك أن «باسارجادا» تقعُ في مكانٍ منعزل في وادٍ صغيرٍ، في حين كانت «برسيبوليس» تطل على سهلٍ فسيحٍ وتقعُ الأُولى في الشمال الشرقي من الثانية، وتحتوي «باسارجادا» على آثارٍ قيمةٍ نَخُصُّ بالذكر منها «تخت سليمان»، وهو عبارة عن طوار مُقام على قمة تل صغير، وهو مبنيٌّ بأحجارٍ ضخمةٍ من الحجر الأبيض، كان بعضُها متصلًا بالبعض الآخر بوساطة مشابكَ من حديد، وقد وجد فيها قطعة واحدة ضخمة من الحجر الجيري مُثل عليه صورةُ الملك «كورش» العظيم وروحُهُ، وقد نُقش عليها: «إني «كورش» الملك الأخمينيسي»، وقد مثل الملك في هذا الحجر بصورة أكبر من الحجم الطبيعي … وتدلُّ

صناعة نحته على أنه يرجع إلى الفن الآشوري من حيث الجناحين وثوبه المهذب[٢] ووجهه آرِيُّ الملامح، ومن المحتمل أن هذه أول صورة آرية لملك عظيم حُفظت لنا على مدى الدُّهور، وقد عُثر على قبر «كورش» في هذه المدينة أيضًا، ويُقال إن الذي وضع تصميمه مهندسٌ إغريقيٌّ، وكان القبرُ في الأصل مُحاطًا بقاعة عمد لا تزال قواعدُ بعضها باقيةً حتى الآن في مكانها.

وهذا القبرُ يُعرفُ باسم «مشهد أُمِّ سليمان» والقبر قد أُقيم على مبنًى يتألف من سبعة مداميك من الحجر الجيري الأبيض، ويقول: «آريان Arrian» إن النقش التالي قد كُتب عليه: يا أيها الإنسان إني «كورش» بن «قمبيز» الذي أسس دولة الفرس وكان ملك «آسيا»، لا تحقد عليَّ إذن بسبب هذا الأثر (راجع: Ten Thousand Miles etc, p. 328). ويقول المؤرخ «سيكس Sykes»: إنه يشك في وجود أثر آخر له أهميةٌ عُظمى من الوجهة التاريخية، يُمكنُ أن يفوق في نظر الآريين قبر مؤسس الإمبراطورية الذي دُفن منذ حوالي ٢٤٤٠ سنة خلت.

قصور «برسيبوليس»

تقع «باسارجادا» على الجُزء الأعلى من نهر «بولفار Polvar» ويفصلها عن «برسيبوليس» سلسلةُ جبال شامخة، وسهل «مرداشت Merdasht» الذي تقع فيه «برسيبوليس» وهو خصبُ التربة وحَسَنُ الموقع؛ إذ كان يزوره في فصل الربيع الملك العظيم، وتحتوي «برسيبوليس» على عدة آثار هامة أهمها «تخت جامشيد Jamshed» أو عرش جامشيد الذي أشار إليه «عمر الخيام» في شعره حيث يقول:

يقولون إن الأسد والضب يحرسان القصور التي نعم فيها «جامشيد» وثمل

وهذا التختُ الجبار يبلغُ ارتفاعُهُ حوالي ٤٠ قدمًا عن رقعة الوادي الذي يُطِلُّ عليه، ويبلغُ طولُهُ حوالي ١٥٠٠ قدم، في حين أنَّ تخت «باسارجادا» لا يَزيد طولُهُ على ٣٠٠ قدم، ويبلغ عرضُهُ حوالي ٩٠٠ قدم، وهو في صناعته يُشبه تخت «باسارجادا» ويُشاهَد فوق هذا الطوار أو التخت خارجةٌ مدهشةٌ، أقامها الملك «أكزركزس» الأول ببوابتها الضخمة

---

[٢] انظر [ملحق الصور].

تكنفها ثيرانٌ مجنحةٌ، يُلمح في صنعتها الفنُّ الآشوريُّ، وقد جاء في النُّقُوش التي نُقشتْ فوقها ما يأتي: «أتى «أكزركزس» الملك العظيم، ملك الملوك، ملك ممالك عدة ذات ألسُن مختلفة، ملك هذا العالم، ابن «دارا» ملك الأخمينيسيين، أن «أكزركزس» الملك العظيم يقول: إنه بفضل «أورموزد» أقمتُ هذه البوابة التي مثل عليها كل الممالك.» ولا تزال بعض أعمدة هذه الخارجة وتماثيلها باقية وإن كان الدهر قد براها.

ولا نزاع أن هذه الخارجة تؤلف المدخل إلى القصر العظيم، الذي كان يُعَدُّ مفخرة «برسيبوليس»، وهو الذي كان قد أقامه «أكزركزس»، ويحتوي على قاعاتٍ عدة، وبخاصة قاعة «أكزركزس» التي كانت تحتوي على اثنين وسبعين عمودًا، لم يَبْقَ منها إلا اثنا عشر عمودًا، وقد عُثِرَ فيها على نُقُوش هامة. وكذلك وجد على هذا الطوار قصر الملك «دارا»، وعلى الرغم من أنه أصغرُ من قصر «أكزركزس» فإنه ذو أهمية، ومن المحتمل أنه كان يحتوي فقط على الحجرات التي كان يسكن فيها الملك.

ولكن يوجد خلف الطوار قاعة مائة العمود، وكانت أكبر المباني في هذه المدينة، ولها خارجةٌ عظيمةٌ في الجهة الشمالية، وكان يحرس هذه الخارجةَ تماثيلُ ضخمةٌ وبابان يؤديان إلى داخل القاعة، والنقوش التي على العرش غايةٌ في الجمال، وهي تمثل الملك العظيم على عرشه يحمله صفوفٌ مِن رعاياه، في حين يرفرف فوقه الإله، ومن المحتمل أن ما جَعل لقاعة مشورة «دارا» الفخمة هذه أهمية أكثر مِن أيِّ مبنًى غيرها؛ هو أنها كانت نفس القاعة التي كان يولم فيها «الإسكندرُ» ولائمَه عندما دخل «فارس» فاتحًا.

المقابر المنحوتة في الصخر

لقد أظهرتْ قصور مدينة «برسيبوليس» ما كان للملك العظيم من عظمة وقوة، ولكن المقابر الصخرية التي تقع في غربها، وهي التي نقلت عن طراز المقابر المصرية؛ لها جلالٌ أكثرُ روعة ورهبة، والواقعُ أنه لا نزال نُشاهد أربع مقابر منحوتة في واجهة جبل عمودي، لكلٍّ منها بابها المصنوعُ من الحجر على الطراز المصري؛ إذ يمثل واجهة قصر له أربعة عمد، يقع بينها المدخل وفوق هذا المدخل يشاهد عرشٌ يتألفُ من طبقتين كل منهما محمولٌ بسور من الأعمدة من طراز عمد قاعة المائة عمود، ويُشاهَد الملك قابضًا على قوس بيده اليسرى في حين أنَّ يده اليمنى مرفوعة تضرعًا للإله «أهوراماذدا» الذي يرفرف فوقه، ومن بين هذه المقابر مقبرة الملك «دارا» الأول وتبلغ مساحتها ٦٠ × ٢٠ قدمًا، وكانت قد بُنيت لتسع ثماني جثث.

الآجر المشغول بالميناء

عُثر في مقبرة الملك «أرتكزركزس» (منمون) في «سوس» على إفريزين فخمين وهما إفريز الرماة، وهو يؤلف أجمل مثال من الميناء ذات الألوان المختلفة المشغولة على الآجر وارتفاعه حوالي ٥ أقدام، وهو يمثل موكبًا من المحاربين نقشوا نقشًا بارزًا بالحجم الطبعي، وهؤلاء المحاربون من كل لون، وتدل حرابهم ذات العقد الذهبية على أنهم «الخالدون»، وهم الذين يمثلون في نظر العالم المتمدين فخار وأبهة وقوة الملك العظيم، والثاني هو إفريز الأسود، وهو كذلك ذو ألوان مختلفة، وقد مثلت الأسود وهي تخطو إلى الأمام فاغرة أفواهها.

الصياغ الأخمينيسيون

كشف عن كنز على شاطئ نهر «أموداريا» منذ عهد قريب جدًّا، موجود الآن بالمتحف البريطاني، ويلفت النظر في هذا الكنز نموذج عربة فارسية قديمة من الذهب، وكذلك صورٌ من الذهب Armilla، وهي تدلُّ على ما وصل إليه فَنُّ الصياغةِ من الإتقان في عهد الأخمينيسيين.

صناعة البرنز

هذا، وقد عُثر في بلدة «خينامان» الواقعة غربي «كرمان» على عدة آلات من البرنز، منها بلطةٌ رسم عليها صور دب ونمر ووعل.

والخلاصةُ من كل ما سبق في هذا الفصل هي أن بلاد «فارس» قد قلدت بحرية من حيث فنونها ومبانيها الممالكَ العظيمة التي احتكت بها، وبخاصة أخذت عن «بابل» و«آشور» و«مصر» و«هيلاس»، غير أنها لم تقلد هذه البلاد تقليدًا أعمى، ويُلحظ ذلك حتى في تقليدها التماثيل الضخمة التي أخذتها عن «آشور» فإنها لم تأخذ إلا مكانًا ثانويًّا في القصور البديعة التي أقامها ملوك الأخمينيسيين، وهي التي نُشاهد فيها الروعةَ والجلال عندما تكون مزدحمةً برجال الجيش والقصر، ولا بد أنها كانت تؤثر في نفس أعظم ناقد من المواطنين الآثنيين، وذلك على الرغم من أن الغرض من إقامتها هو تفخيمُ الملك العظيم وإظهار عظمته.

«فارس» و«هيلاس» في عهد الملك «دارا الأول»

مما لا نِزَاعَ فيه أنَّ غزو الفُرس لبلاد «هيلاس» بآلافٍ مؤلفةٍ من جُنُودهم ثم صَد الإغريق لهم يُعَدُّ حادثًا لا يُضارع في تاريخ العالم من حيث الأهمية والعظمة؛ إذ إن هذا الحادث يُعتبر أولَ محاولة قام بها الشرقُ المنظم لفتح الغرب الذي كان أَقَلَّ منه نظامًا، على أنَّ الدولةَ الفارسيةَ لم تَقُمْ في المرحلة الأخيرة من مراحل حياتها بغزو «هيلاس» وحسب، بل قامتْ «قرطاجنة» بنفوذ الفرس وتحريضًا منها بهجوم مميت على مستعمرات الإغريق في «صقلية»، ولكن كان مِن حُسْن حَظِّ الإنسانية أنَّ كلًّا من الغزوتين باءت بالفشل الذريع.

الرعايا الإغريق في بلاد الفرس

كان مِن جراء فتح الفرس للبلاد والجزر الإغريقية في «آسيا الصغرى» ثم ضمها لـ «تراقيا» و«مقدونيا»؛ أن أصبح سلطانُ الفُرس يشمل — على الأقل — ثلث السلالة الإغريقية، وهؤلاء الإغريق كانوا يؤلفون قوةً هائلة جبارة بما أُوتُوه مِن مران وسلاح حربيين، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يملكون أُسطولًا بحريًّا يُعادل أُسطول «فنيقيا» التي كسروا شوكة احتكارها للتجارة.

وفي الوقت نفسه نجد أن حب الإغريق المتناهي للحرية، وما اتصفوا به من صفاتٍ أُخرى منحتهم قوةً عظيمة وجعلت من الصعب السيطرة عليهم، ومما لا شك فيه أنه لم يكن هناك ملك من ملوك الفرس الأُول قد فهم مزايا هذا الشعب أو الطرق التي يجب أن يُعامل بمقتضاها لاختلافه اختلافًا تامًّا عن أيِّ شعبٍ آخرَ من الذين أخضعتهم «إيران»

لسلطانها، وفضلًا عن ذلك نجد أن الإغريق كانوا يقطنون في أقاصي حدود الإمبراطورية الفارسية، ومِن ثم فإنه يحتمل أنهم لم يلفت الفرس أنظارهم إليهم إلا بعد فوات الوقت، وحتى شعروا بقوتهم ومزاياهم.

العلاقات بين «هيلاس» و«آسيا الصغرى»

كانت علاقات الفُرس من كل نوع مع «هيلاس»، وبخاصة فيما يخص التجارة والسياحة والزواج لم تتأثرْ بحلول شطربة الفرس اللين العريكة محل ملك ليدي يقطن في «سرديس»؛ إذ الواقعُ أنَّ اللاجئين من «آسيا الصغرى» كانوا لا يزالون يجدون مساعدة من «هيلاس» كما كانت الحالُ في عهد الملك «كروسوس» ملك «ليديا»، وقد لجأ حُكَّام إغريق معزولون إلى إخوانهم في «آسيا الصغرى» أو إلى الشطربة الفارسي، وقد أصبحت هذه الحالة التي كشفت عنها رسالة «أسبرتا» للملك «كورش» لا يمكن تَحَمُّلُها في نظر إمبراطورية عالمية كإمبراطورية الفُرس حتى انتهت بالثورة التي قامت في «أيونيا»، وفي الوقت نفسه كانت الاستغاثاتُ المستمرة من جانب «هيلاس» بطبيعة الحال مغريةً لشطربة طموح لنيل شُهرة عظيمة لا بتوسيع نفوذه وحسب، بل بتوسيع ممتلكات الملك العظيم، والظاهرُ أنَّ شطربة «سرديس» قد فكر في مثل هذا التوسُّع، ومن المحتمل أن «دارا» نفسه هو الذي فكر في هذا منذ بضع سنين.

الموقف في بلاد الإغريق قبل الغزوِ الفارسي

إن «أثينا» التي كانت الهدف والمفتاح لبلاد «هيلاس» في حالة تفكُّك منذ سنين عدة؛ فقد هرب «هبياس» الحاكم المطلَق الذي ينتسب لأسرة «بيزستراتوس» إلى «سيجوم Sigeum» في «طروادة»، وهناك طلب مساعدة شطربة الفرس في «سرديس» وقاما بِدَسِّ الدسائس على «أثينا» بكل الطرق المُمْكنة.

وبعد سُقُوط الملكية المطلقة أصبح «كليستنيس» الحاكم المطلق المنتسب إلى أسرة «الكماينيد» الشريفة، دستور «أثينا» على أسس ديموقراطية، وقد أثار ذلك حنق وعداوة الحزب الأرستقراطي الذي استعان «بأسبرتا» بوصفها المملكة صاحبة القيادة في «هيلاس»، وقد أجابتْ «أسبرتا» بغزو «أثينا» مما اضطر «كليستينيس» إلى التسليم للقوة، وعلى أثر ذلك ثارتْ ثائرةُ الأثينيين وقاموا على الأسبرتيين المعسكِرين في «أثينا» فسلموا لحلفائهم

الأثينيين وغادروا «أتيكا»، غير أنهم لم يلبثوا أنْ عادوا بقوة أكبر عددًا مِن حُلفائهم البلوبونيزيين، ولما يئست «أثينا» من موقفها أرسلت سفراء إلى شطربة «سرديس» الذي طلب إليهم التراب والماء اعترافًا بسيادة الفرس.

وقد قبل السفراء هذا الشرط، غير أنهم عند عودتهم في عام ٥٠٨ق.م رفض الأثينيون الإذعان لطلب الفرس، وفي تلك الأثناء كانت بلاد «أتيكا» قد ضربها البلوبونيزيون إلى أن تَفَكَّكَ حلفها، عندما انسحبتْ منه «كورنثا»، وفي عام ٥٠٦ق.م أرسل الأثينيون سفراء إلى «سرديس» ليرجوا «أرتافرنس Artaphernes» الشطربة أن يقلع عن معاضدة «هبياس»، وإجابة على ذلك طلب إليهم بقوة إعادة «هبياس»، وقد كان رفضُهُم لذلك يكاد يكون بمثابة إنذارٍ نهائيٍّ محقق لغزو بلادهم، وقد كان الفرس يتحينون الفرص لغزو «هيلاس».

ثورة جزر الأيونيان: ٤٩٩–٤٩٤ق.م

وقد جاءت الفرصةُ لغزو الفرس لبلاد «هيلاس» عندما قامت الجزر الأيونية بثورتها، وقد قامت هذه الثورة بسبب أطماع حاكمين مستبدين من الإغريق، أهمهما هو «هيستياوس Histiaeus» ملك «ميليتوس Miletus» وهو الذي كان موكلًا بحماية قنطرة الدانوب، وقد كافأه «دارا» على ذلك بمدينة من مُدُن «تراقيا»، غير أنه لما أثار ظنون ممثل الفرس بما قام به من تحصينات في هذه البلدة طلبه «دارا» إلى «سوس» وحبسه هناك، ولكنه عامله معاملة حسنة، وكانت «ميليتوس» يحكمها «ربيبه «أريستاجوراس Aristagoras»»، وقد أرسل إليه «هيستياوس Histiaeus» عبدًا قال لا بد من حلق شعر رأسه سرًّا، وعندما حدث ذلك وُجدت رسالة قد رسمت على جلد رأسه جاء فيها الحث على القيام بثورة على «فارس»، وقد وصلت هذه الرسالة بمهارة في الوقت المناسب، وعلى ذلك فإن الهجوم الذي كان أغرى به «أريستاجوراس» الشطربة الفارسي لمحاربة «ناكسوس» قد خاب بسبب خيانة، وعلى ذلك كان هذا الإغريقي الخائن ينتظر كل يوم فصله من وظيفته إن لم يكن الحكم عليه بالإعدام.

وقد كان لا بد من وجود حزب في كل مدينة — صغيرة كانت أو كبيرة — تميل إلى رفع نير الفُرس عن عاتقها، وعندما أقصي «أريستاجوراس» عن حكم «ميليتوس» نجد أنها انضمت إلى الرأي العام، وقد قبض الثائرون على حُكَّام آخرين غيره كانوا على ظهر سُفُن الأسطول عائدين من «ناكسوس»، وقد زار «أريستاجوراس» «أسبرتا» وطلب

مساعدة الثورة، ولكن دون جَدْوى، وعلى أيَّة حال فإن الأثينيين مدوا الثوار بأُسطول قوامه ٢٠ سفينة، كما أمدهم أهالي «إريتريا» بخمس سفن، وقد شجع الثوار هذا المدد الضئيل فقاموا بهجوم في عام ٣٩٨ق.م على مدينة «سرديس» واستولوا عليها، غير أنهم لم يمكنهم الاستيلاءُ على قلعتها الشهيرة، ولم يمكنهم في آخِرِ الأمر أنْ يستبْقوا المدينة في أيديهم، واضطروا إلى التقهقُر، وقد لحق بهم الفرسُ — على ما يظهر — بالقرب من «أفيسوس Ephesus» وهزموهم، وعلى أثر هذه الهزيمة تخلت «أثينا» عن «أيونيا»، ولقد كان للاستيلاء على «سرديس» رنينٌ هائلٌ في كل «آسيا الصغرى»، مما شجع البلاد اليونانية على الثورة، ومن جهة أُخرى أثار هذا الحادثُ حنقَ العاهل «دارا» لدرجة أنه عند كل وجبة كان على عبد من عبيده أن يَصيح قائلًا: «سيدي تذكر الأثينيين.»

وعلى أية حال فإن هذه الخرافة وردت على هذه الصورة، والواقع أن هذه الثورة لم تقم على أساسٍ صحيحٍ من الوجهة الحربية؛ وذلك لأن الفرس كانوا يعملون على حسب خُطُوط داخلية، ويمكنهم أن يهاجموا على انفرادٍ أية مدينة أو مجموعة مُدُن أرادوا مهاجمتها، تاركين المدن الأخرى تنتظر عقابها بدورها، وفي الوقت نفسه كان الثوارُ قد أحرزوا بعضَ الانتصارات، وبخاصة في «كاريا» حيث هزم جيش «فارس» هزيمة منكرة.

موقعة «لاد» وسقوط «ميليتوس» ٤٩٤ق.م

وقعت الواقعةُ الفاصلةُ في البحر؛ وذلك أن أسطولًا إغريقيًّا مؤلفًا من ثلاث وخمسين وثلاثمائة سفينة قد تجمع في عرض البحر، ولكن عندما هاجمه أسطولٌ فنيقي وقبرصي يتألف من ستمائة سفينة تعمل تحت أوامر الفرس؛ فإن قطع أسطول «ساموس» ومعها قطع أسطول «لزبوس» تخلت عن الأسطول الإغريقي، وبذلك انتصر الفرس في موقعة «لاد Lade» (وتقع قبالة «ميليتوس»)، وقد استولى الفرسُ على «ميليتوس» التي كانت ترأس الثورة، كما كانت تُعد أهم مدينة في العالم الهيلاني، وقد قتل كل الذكور الذين فيها تقريبًا، أما النساء والأطفال فقد نقلوا إلى بلدة «أمبه Ampe» الواقعة على مصب نهر «دجلة»، وبهذه الكيفية فشلت الثورة، وقد كانت نتيجتُها المباشرة أن شددت «فارس» الخِنَاقَ على حريات أهل «أيونيا» الإغريق القاطنين في «آسيا الصغرى»، وهم الذين أظهروا أنفسَهم بمظهر الفرقة وعدم القدرة والخيانة التي بررت للملك «دارا» ومستشاريه الاعتقاد بأن فتح بلاد «هيلاس» لا يتكلف مشقة خارقة لحد المألوف، ومن جهة أُخرى فإن الثورة سمحت لـ «أثينا» بالوقت الكافي لبناء أُسطول كان مصيره أن يكون عاملًا حاسمًا في

الحرب العظمى التي نشبت بين الدولتين ونجاة بلاد «هيلاس» من الدمار الشامل، وفضلًا عن ذلك قد أفادتْ كل من «تراقيا» و«مقدونيا» من هذه الحرب؛ إذ أمكنها أن تنسحب مِن أملاك الفُرس، وبذلك نالت حريتها.

حملة «مردونيوس» في «تراقيا»

بعد أن انتصر «دارا» على الإغريقِ في «أيونيا» صَمَّمَ على غَزْوِ كُلٍّ من «ترقيا» و«مقدونيا» وعلى معاقبة كُلٍّ مِن «أثينا» و«إريتريا» ظاهرًا، وقد كان مفتوحًا أمام الفُرس طريقان أقصرُهُما يقع عبر البحر الإيجي الذي كان مملوءًا بالجُزُر على طول الطريق إلى «أثينا» ويبعد حوالي مائتي ميل عن شواطئ «آسيا الصغرى»، وقد كانت بلا نزاعٍ أسهل الطريقين، ولا شك أن خطر نقل قوة ضخمة من الرجال والخيل والعتاد والمؤن؛ كان عظيمًا جدًّا بوساطة أساطيل «هيلاس» التي لم تُهزم، وكانت الطريقُ البرية من جهة أُخرى معروفة من قبل.

ومعلومٌ أنَّ الفرس في ذلك الوقت كما هم الآن لم يكن لهم كفايةٌ في الفُنُون البحرية، وقد كانوا مُحِقِّينَ في اعتبارهم أن قوات الملك العظيم لا تُهزم في البر، وقد كانت أول خطوة في هذه الخطة هي إرسال «مردونيوس» صاحب «تراقيا» وابن أخ «دارا» إلى تلك البلاد، فقد ثبت سلطان الفرس هناك وأجبر «الإسكندر» ملك «مقدونيا» على أن يجدد المواثيق التي كانت قد أُخذت على والده «أمينتاس Amyntas»؛ وقد عزم «مردونيوس» أن يسير بجيشه إلى «هيلاس»، غيرَ أنَّ عاصفةً هوجاء سببتْ ضياعَ نصف أُسطوله الذي كان يُغذى جيشه بوساطته، وبذلك لم يحدث أي تقدُّم، وقد سحبه «دارا» جريًا على خطته في عدم إبقاء أي قائد دائم في القيادة في عام ٤٩٢ق.م، وأسند قيادة العمليات الحربية التي حدثت بعد ذلك إلى «دتيس Datis» و«أرتافرنس Artaphernes» والأخير هو ابن شطربة «ليديا».

الحملة التأديبية على «أثينا» و«إريتريا» ٤٩٠ق.م

بعد أن فشلت حملة «مردونيوس» في تأديب كُلٍّ مِن «أثينا» و«إريتريا» قَرَّرَ الفرسُ إرسالَ حملةٍ ثانية، وقد كان الغرضُ منها وضع «أثينا» في قبضة الحاكم المستبد «هبياس» الذي كان مستعدًّا للقضاء على قُوَّاد الحزب المعادي لمِلك الفرس فيها وينتقم للملك العظيم من

«إريتريا»، ولقد كان تحطيمُ الأُسطول الفارسي على مسافة من رأس «مونت آنتوس» سببًا في جعل الفُرس يتفادَون هذه الطريق، يضاف إلى ذلك أن «أجينا» ومُدُنًا أخرى خضعت، ومن ثم لم يكن هناك مَفَرٌّ من اتباع الجيش الفارسي العظيم طريق البحر المباشرة، وقد انتخب سهل «أليان Aleian» في «سيليسيا» لتجمع القوة الفارسية التي بعد نُزُولها من حاملات الجُنُود عمدت إلى «أيونيا»، على أن تكون جزيرة «ساموس» مكان التجمع، فعبر أُسطول الفرس المؤلف من ستمائة سفينة بحر «إيكاريان Icarian» إلى «ناكسوس» التي حول سكانها إلى عبيد، وبعد هذا النصر الابتدائي سارت الحملةُ إلى «ديلوس» التي تركت بسبب وجود محراب مقدس فيها ثم إلى ساحل «أيوبوا Euboea» بدلًا من الذهاب مباشرة إلى «أتيكا» كما تُمْلِيهِ التدابيرُ الحربية السليمة.

وعندما وصل الأُسطول اليابسةَ تَحَرَّكَ إلى الخليج الذي يفصل «أيوبوا» عن «أتيكا»، ثم نزلتْ قوةٌ إلى الأرض وحاصرت «إريتريا» وحرقتها وقد فَرَّ الكثيرُ مِن أهلها إلى الجبال، أما من أُسروا فأرسلوا إلى «عيلام»، والظاهر أن «أثينا» لم تمد يد المساعدة لتلك المدينة التي شربت كأس غضب الفرس حتى الثمالة.

موقعة «ماراتون» ٤٩٠ق.م

ويُلحظ أن قُوَّاد الحملة بدلًا مِن جعل «أثينا» غرضهم الأول فإنهم ضيعوا وقتًا ثمينًا في تحويل كُلِّ قوتهم إلى عملية ثانوية كان من جرائها أن أهاجت عدوهم الرئيسي وجعلوه يتحد عليهم، وذلك أن «هبياس» الذي كان في هذه الآونة قد انضم إلى جيش الفُرس الجرار؛ نصح الغزاة أن يسيروا حول جون «ماراتون» الذي يقع على مسافة تقرُبُ من ٢٤ ميلًا من الشمال الشرقي من «أثينا»، وقد كان الاقتراحُ سليمًا؛ وذلك لأنها كانت مرسًى حسنة للأسطول، كما كانت على مقربة من «الأكروبول» حيث كان يأمل «هبياس» أن يكون لأتباعه اليد العُليا، وهذا الموقعُ كان — فضلًا عن ذلك — يمتازُ بأَنَّ أرضه كانت غيرَ صالحة للخيالة، غير أنه في هذه اللحظة الحرجة لم تَقُمْ أَيَّةُ ثورة في صالح «هيباس»، وقد كان مِن جَرَّاءِ ذلك أن قوة قوامها ما بين تسعة وعشرة آلاف رجل كان يُعَزِّزُها قبل الموقعة فرقةٌ من جنود «بلاتا»؛ أصبح في مقدورها أن تتجمع في صعيد واحد دون مقاومة.

وقد سار الجيشُ الأثينيُّ لُمقَابَلَة الغُزَاة، وانتصر عليهم انتصارًا رائعًا — كما تحدثنا عن ذلك في غير هذا المكان. (راجع: مصر القديمة الجزء ١٢.)

ومن المحتمل أنه ليس لموقعةٍ حربيةٍ في تاريخ العالم الأهمية الخلقية كموقعة «ماراتون»، حتى ولو كانت هناك مبالغاتٌ في الروايات التي وصلتْ إلينا عنها؛ وذلك أنه حتى هذه اللحظة كانت قوة الفرس تعتبر أنها لا تُقهر، وقد كان الجنود الإغريق دائمًا في آخر الأمر تلحق بهم الهزيمة.

الثورة في «مصر» ٤٨٦ق.م

ومن المحتمل أنه كان أول نتائج هزيمة «ماراتون» قيام ثورة في «مصر» — كما فَصَّلْنا القول في ذلك في غير هذا المكان.

موت «دارا» ٤٨٥ق.م

وقد كان «دارا» الذي عاش عظيمًا حتى النهاية يجهز للقيام بضربة قاصمة تقضي على «هيلاس»، وفي الوقت نفسه يُخمد نار الثورة في «مصر»، وإذا كان قد امتدَّ به الأجلُ مدة خمس سنوات أكثر لَكان وبالًا على الإغريق، ولكن المَنِيَّةَ عاجلتْ هذا الملك العظيم في السنة السادسة والثلاثين مِن حُكْمه، ولقد كان مِن حُسْن حَظِّ «فارس» أن أنعم الله عليها بملكين عظيمين في جيلين متتاليين، فقد كان «كورش» العظيم هو الفاتح والمؤسس للإمبراطورية الفارسية، وقد استحق «دارا» كذلك لقب «العظيم» وذلك أنه فضلًا عن أنه كان منتصرًا على كل أعدائه، فإنه أظهر عبقرية عظيمة في تنظيم إمبراطوريته، وقد كانت أخلاقُهُ الشخصيةُ سامية، فقد كان ذكيًّا إلى حد بعيد كما كان عاقلًا، ولا أَدَلَّ على ذلك مِن أنَّ ألد أعدائه الإغريق قد كتبوا عنه بكل احترام، في حين أن أشراف الفُرس الذين حد من طغيانهم وأوقفهم عند حدهم لَقَّبُوهُ: «بائع الخردة».

غير أنَّ هذا النعتَ كان مديحًا عظيمًا له، والواقعُ أنه لولا عبقريتُهُ في التنظيم مضافًا إلى ذلك قدرتُهُ البارزة في الحرب؛ لَمَا عاشت الإمبراطوريةُ الفارسيةُ تلك المدة الطويلة من جيل إلى جيل حتى هزم «الإسكندر الأكبر» «دارا» المخبول الذي كان وقتئذٍ يحتل عرش أجداده العظماء، ولا نزاع في أن عدد الملوك العظماء الذين حَكَمُوا الفُرس لم يكن قليلًا، غير أننا لو حَكَمْنا على حسب مقتضياتِ الأحوال التي وُجد فيها «دارا» فإنه يُعَدُّ من بين أعظمِ ملوكها قدرًا ومكانة.

صد الفرس على يد «هيلاس»

تولِّي «أكزركزس» عرش «فارس» ٤٨٥ق.م

تزوج الملك «دارا» — كما هي العادة الفارسية — من عدة نساء، ومن بين هؤلاء ابنة «جاوباروفا أو جوبرياس Gaubaruva or Gobryas» وهو أَحَدُ المتآمرين على قتل «جوماتا» الدجال الماجوسي، وقد رُزق منها ثلاثة أطفال أكبرُهُم يُدْعَى «أرتابازانس Artabazanes»، وكان دائمًا يُنظر إليه بأنه هو وريثُ العرش، غير أن «أتوسا Atossa» زوجه وابنه الملك «كورش» كانت لها المنزلةُ العُليا والنفوذُ الأعظمُ عليه وهو في شيخوخته، لدرجة أنها قبل وفاته بفترة وجيزة جعلتْه يُوصي لابنها «خاشا يارشا» وهو المعروف عند اليونان باسم «أكزركزس» بعرش البلاد بعد موته، وفعلًا تَوَلَّى الملك بعد أبيه دون معارضة، وكان هذا الملك الجديد الذي يُعرف في سفر «أستر» في التوراة باسم «أحشويروش Ahasueros»، مشهورًا بجماله البارع وحسن قوامه، غير أنه كان كسولًا ضعيفًا يخضع بسهولة لمستشاريه. وهذه النقائصُ في أخلاقه جعلتْ بلاد اليونان مدينة له بخلاصها ونجاتها من يد الفُرس، وقد لُوحظ أنه منذ بداية حُكمِهِ كان لا يكترث بإخفاق حملة «هيلاس» وعدها في نظره أمرًا قليل الأهمية، غير أن «مردونيوس» قد صمم على إنقاذ شرف الفُرس وسُلطانها من هذا الحادث، وقد دافع عن ذلك بشدة حتى نال في النهاية ما يرمي إليه، وهو الانتقامُ لبلاده وإعادة نفوذها.

وعلى ذلك بدأ الشروع في الاستعداد للغزوة العُظمى لبلاد اليونان.

الثورة في «مصر» ٤٨٤ق.م

ولكن «أكزركزس» أمر — أولًا — بالزحف على «مصر»؛ لقمع الثورة التي شبتْ فيها على يد «خبا باشا» (؟) فهزمه في نهاية الأمر — كما أسهبنا القول في غير هذا المكان.

الثورة في «بابل» ٤٨٣ق.م

على أن «مصر» لم تكن السببَ الوحيدَ في خوف «أكزركزس»؛ إذ كانت قد قامتْ في «بابل» ثورةٌ قصيرةُ الأمد، وذلك أن مدعيًا لا يُعرف أصلُهُ يُسمى «شاما شريب Shamasherib» قد توج في هذه البلدة ملكًا، وعلى ذلك حاصرها الملك «أكزركزس» مدة بضعة أشهُر لم تلبث بعدها أن سقطت وخربت كما نُهبت معابدها وحمل أهلها أسرى، ولم يُظهر الملك «أكزركزس» أيَّ خوف من الإله «بل-مردوك» الذي نُهبتْ كنوزُهُ وحمل تمثاله المذهب غنيمة، ولم تَسترد «بابل» بعد هذه الهزيمة قَطُّ مَجْدَها؛ وذلك أنه منذ زمن هذا الخذلان نجد أنه قضى شيئًا فشيئًا على ديانتها، ونفوذها وفخارها، غير أنَّ رسالة هذه البلدة العظيمة للمدنية كانت قد تَمَّتْ، فعندما نُعَدِّدُ ما تَدِينُ به مدنيتنا الحديثة إلى «بابل»؛ نجد أننا مدينين لها بأشياء مدهشة.

تأليف الحملة العظيمة على بلاد اليونان

كان «أكزركزس» يستعدُّ لغزو بلاد اليونان كَرَّةً أُخرى، وفي عام ٤٨١ق.م تمت الاستعداداتُ لأكبر حملة عُرفتْ في الأزمان القديمة، وفي خريفِ هذه السنة تجمعت الفِرَقُ المختلفة في مديرية «كابادوشيا»، ثم سارتْ إلى «ليديا» حيث أَمْضَى «أكزركزس» فصلَ الشتاء، وقد كانت الجيوشُ التي تجمعت تحت إمرته من كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف ضخمةً جَبَّارة مما جعلها فيما بعد ضربًا من الخرافة المبالغ فيها، والواقع أن أحسن بيان وصل إلينا عن العناصر المختلفة التي كان يتألف منها جيشه هو ما جاء على لسان «هردوت».

وهذا البيانُ لا ينحصر في كونه واضحًا جليًّا وحسب، بل ذا قيمة للباحث في علم الأجناس، وكذلك للمؤرخ، وقد جاء في أَوَّلِ القائمة الفرسُ والميديون وكانوا مسلحين بالحربة والقوس والسيف، ثم الكيسيون Kissians والهركانيون Hyrcanians وكانوا مسلحين على نمط الفرس، ثم يأتي بعد هؤلاء الآشوريون بقبعاتهم البرنزية، والبكتريان

والأريان Arians والبرثيان Parthians، ثم القبائل المجاورة المسلحة بالمزاريق والحراب، ثم الساكا Sakae وقد اشتهروا بقبعاتهم المدببة وبلط الحرب، ثم الهنود ببذلهم المصنوعة من القطن، والإثيوبيون الإفريقيون بأجسامهم الملونة، مسلحين بأقواس طويلة وسهام أطرافها مصنوعةٌ من الحجر، و«أثيوبيو» آسيا — ويحتمل أنهم السكان الأصليون لجنوب بلاد الفرس — و«ماكران» بقبعاتهم الخارقة حد المألوف المصنوعة من رءوس الخيل، وغير هؤلاء، حتى نصل إلى الجزائريين القاطنين في الخليج الفارسي.

وقد كان على رأس كل جنس من هذه الجيوش فارسي، وكان الجيش كله مقسمًا فيالق وفرق ووحدات (مائة جندي) وأقسام، وكانت القيادة العليا للمشاة في يد القائد «مردونيوس»، ولكن «الخالدين» كانت لهم قيادةٌ منفصلة، وكانت فرقة الفرسان التي تشمل القبائل التي تحارب بالعربات يتألف معظمُها من الفُرس والميديين، وتشمل نحو ثمانية آلاف «ساجا ريتاني Sagartians» من شمالي بلاد الفرس مسلحين بالحبائل، وكان هناك كذلك كيسيون وهنود، وهؤلاء الأخيرون كانوا يُحاربون في عربات تجرُّها حمير، غير أن فائدتهم الحربية لم تكن ذات بال.

وكذلك البكتريون والكسبيون والليبيون كانوا يحاربون في عربات، هذا فضلًا عن قوة من العرب كانت تحارب على ظُهُور الجمال، أَمَّا الأُسطولُ الذي كان يتألف من ألف ومائتي سفينة حربية وتحمل كل سفينة منها مائتي مُقاتل، فقد اشترك في توريدها الفنيقيون والمصريون والرعايا الإغريق الذين كانوا مُوالِينَ للفُرس، وكانت كُلُّ سفينة تحمل بعض الفُرس أو الساكا Sakae الذين كانوا يعملون بحارة ومساعدين لقُوَّاد الفُرْس، هذا فضلًا عن ثلاث آلاف سفينة حمل كانت تتبع الأُسطول.

وقد قَدَّمَ لنا هردوت تأليف الجيش الفارسي العظيم كما يأتي:

١٧٠٠٠٠٠ من المشاة، ١٠٠٠٠٠ من الفرسان، ٥١٠٠٠٠ من البَحَّارَة والنواتي.

وإذا أضفنا إلى ذلك النجدات من أوروبا والخدم؛ فإن عدد الجيش وأتباعه يصل إلى أكثرَ مِن خمسةِ ملايين، وهذا العددُ لا يمكن قبولُهُ بحال من الأحوال، ولكن بالنسبة لاعتماد الفُرس في حروبهم على كثرة العدد وعلى حجم الإمبراطورية فقد يحق لنا أن نفرض أن القوتين البحرية والبرية معًا — بما في ذلك أتباع الجيش — كانتا تُقدران بمليون واحد، فإذا طرحنا من ذلك أعدادَ النواتي؛ فإن هذا المجموعَ لا يبلغ أكثرَ مِن مائتَي ألف مقاتل، وذلك أن أتباع المعسكرات في مثل هذه الحرب كانوا كثيرين في الجيوش الشرقية، وإذا طرحنا من هذا العدد الفصائل التي كانت تُعسكر على خطوط المواصلات،

وكذلك المرضى وغيرهم؛ فإن الأعداد الحقيقة من الجنود الذين تلاقَوا مع الإغريق بحرًا وأخيرًا برًّا؛ لم تكن جبارة كما قُدرت، ولكن من الواضح أنه لم تحدث غزوة قط قبل الآن على مثل هذا النطاق.

على أن عِظَم ضخامتها تُعَد أكبر إطراء وتمجيد للشجاعة الهيلانية، ومع ذلك فإن نفس ضعف هذه الحملة الفارسية كان يكمن في كثرة عددها؛ وذلك لأن مثل هذا الجيش كان لا يُمكن استعمالُهُ لحركاتٍ حربية طويلة لما كان يُلاقِيهِ دائمًا مِن صعابٍ في أَمْرِ تموينه، هذا فضلًا عن أنه كان لا يُمكنُ فصله عن الأسطول أكثر من أيام قلائلَ.

موقف اليونان العسكري في هذه الحرب

لقد كانت «أثينا» هي الهدف الرئيسي في هذه الحرب، كما كانت في الحروب السابقة، وعلى ذلك كان معظم عبء الحرب يقع على عاتقها، ومن جهة أُخرى فإن الفُرس إذا لم يكونوا في خطر من البحر، فإنه كان يمكنُهُم أن يُحولوا خط الدفاع الواقع عند برزخ «كورنثا» أو أي خط دفاع آخر بكل سهولة، وعلى ذلك وُجدت «أسبرتا» أن مصيرها في آخر الأمر كان مرتبطًا بمصير «أثينا»، وذلك على الرغم من أن هذا الموقف الحرج لم يفطن إليه الأسبرتيون البلداء وحلفاؤهم الذين وكل إليهم أمر الدفاع عن البرزخ. ويرجع الفضل إلى مجهودات «تيمستوكليس» التي بذلها في السنين العشر الأخيرة في إنماء قوة «أثينا» البحرية إلى درجة عظيمة، ولم يكن ذلك ببناء سفن حربية ذات ثلاث صفوف من المجدفين وحسب، بل كذلك بإنشاء ميناء «بيريوس» لتكون قاعدة حربية محصنة، وعلى ذلك كان في مقدورهم عندما أتت الحملة الفارسية أن ينقلوا السكان إلى الجُزُر المجاورة، وكان في مقدورهم — كآخر منفذ لو اقتضى الأمر — أن ينقلوا السكان ويؤسسوا «أتيكا» جديدة في «إيطاليا» كما هدد في الواقع «تيمستوكليس» مرة بالقيام بذلك.

وقد عمل مسعًى لإنكار كل الأحقاد الداخلية في البلاد، وتكوين حلف عظيم من كل العالم الهيلاني لمقاومة الغُزاة، وقد كانت أول محاولة للوصول إلى ذلك مع جزيرة «أرجوس»، غير أنَّ المفاوضات أخفقتْ؛ وذلك لأن أهالي «أرجوس» قد طلبوا أن تُوضَعَ بلدُهُم على قدم المساواة مع «أسبرتا» من حيث القيادة، وعلى أَيَّةِ حال لم تعلن «أرجوس» صراحة انحيازها لبلاد الفُرس، وذلك على الرغم مِن أنَّ مسلكها كان يدعو للخوف، وكذلك عملت مفاوضات مع «جلون» حاكم «سيروكوزا»، ويقول «هردوت»: إنه بدوره طلب إلى المبعوثين، إما أن يقود هو القوات البحرية أو القوات البرية لبلاد «هيلاس»، إذا أُريد

اشتراكُهُ في هذه الحرب، وعلى الرغم مما كان لديه من العَدَد الكبير من الجنود والسفن الحربية فإن المبعوثين قد رفضوا النظرَ في اقتراحه، وأخيرًا نجد أنَّ كُلًّا من «كريت» و«كورسيرا» (كورفو)، لم تُقدم أية مساعدة لخلاص البلاد اليونانية.

زحف جيش الفرس العظيم

(انظر وصف سير هذا الجيش في الجزء ١٢ مصر القديمة) لقد وصف لنا «هردوت» زحف جيش «أكزركزس» من مدينة «سرديس»، ويدل الوصف على أن منظر هذا الزحف كان مدهشًا، فقد كانت توجدُ في صُفُوف الجيش فرقٌ من خيرة الجنود لتحفظ كيانه على مسافات، في حين أن بقية الجيش كان مؤلفًا من العامة الذين كانوا يَسيرون في غير نظام، ومع ذلك فإن مجرد فكرة أن مثل هذه القوة الهائلة أمكنها أن تزحف بنجاح وتمون؛ لَبرهانٌ على أن الدولة الفارسية كانت على شيء كبير من النظام، ولا نزاع في أن قوتها كذلك في نواحٍ أخرى كانت عظيمة، ولا أدل على ذلك من أنه لم يقم جسرين متينين عبر الدردنيل وحسب، بل كذلك أُقيم على «ستريمون Strymon» جسرٌ آخرُ كما حفرت قناة في رأس «آتوس Athos» وهذا دليلٌ على المعرفة العظيمة بعُلُوم الهندسة، وبخاصة عندما نعلم أنه أُقيم بعيدًا عن قلب الإمبراطورية، وفضلًا عن ذلك فقد أسست مخازن للتموين في محاطَّ مختلفة في طريق الجيش، وكانت نقطة الضعف الوحيدة في تموين هذا الجيش هي توريدُ الماء العذب من وقت لآخر لمثل هذا العدد الضخم من الجنود، ولقد كان عبر الدردنيل (هلسبونت) من الأعمال الجبارة التي قام بها الفرس، فقد عبر الجيش إلى الشاطئ الأوروبي على جسرين صُنِعَا صُنْعًا متينًا على مرأًى من الملك «أكزركزس»؛ إذ كان يجلسُ على عرش من الرخام أُقيم على تل بالقرب من «أبيدوس»، وعند مطلع الشمس صب العاهل «أكزركزس» قربانًا في البحر من كأس صنع من الذهب وصلى لربه راجيًا أن يكون في قدرته فتح أوروبا.

وقد ألقى في البحر كأس الذهب وكذلك طاسة من الذهب وسيفًا فارسيًّا، وكان الجنود «الخالدون» يلبسون أكاليلَ على رءوسهم عندما كانوا يقودون الطريق عبر الجسر الذي كان منثورًا عليه أغصان الريحان، وفعلًا عبر هذا الجيشُ الجَرَّارُ إلى الشاطئ الأوروبي فرقة فرقة تحت تهديد السوط الذي كان دائمًا مرفوعًا فوق الرءوس، وبعد ذلك أحصى عدد الجيش في سهل «دوريسكوس Doriscus»، ومن ثم زحف الجيش إلى «أكانتوس

Acanthus»، حيث انقسم مؤقتًا ثلاثة أقسام ليتجمع ثانية عند «ترما Therma»، أما الإغريق فإنهم تلبية لاستغاثةٍ جاءتْ مِن «تسالي Thessaly» للمساعدة على الدفاع عن اقتحام ممر «مونت أوليمبوس»؛ فإنهم أرسلو أولًا قوةً تتألف من عشرة آلاف إلى «تمبه Tempe» ولكن على حسب ما جاء في «هردوت» وجدوا أن الموقع يُمكن أن يُحاط به، وعلى ذلك تقهقروا تاركين التساليين يعملون شروط صلحهم مع «أكزركزس»، وقد سلموا في الحال، وعلى ذلك زحف الجيشُ الفارسيُّ دون مقاومة في «مقدونيا» و«تسالي»، وقبل أن تقع الواقعةُ الأُولى خضعت معظمُ حكومات الإغريق الواقعة في شمالي ووسط «هيلاس» إلا «تسبيا Thespiae» و«بلاتا Plataea».

الدفاع عن «ترموبيلا Thermopylae» ٤٨٠ق.م

كان الأسبرتيون موكلًا إليهم أمرُ الدفاع عن خليج «كونثا» وقد رغبوا في أن يترك الأثينيون «أتيكا» للعدو ويتقهقروا إلى الجنوب، وقد رفض الأثينيون هذا العرض الذي ينطوي على دفاع سلبي بحق، وأخيرًا بعد التقهقُر من «تمبه» كان هناك اتفاق أخرق نتج عنه إرسالُ قوة قوامها سبعة آلاف مقاتل تحت إمرة «ليونيداس Leonidas» ليدافعوا عن ممر «ترموبيلا» الضيق بفكرة تقويته بعد العيد الذي كان لا مَفَرَّ من إقامته في نظر «أسبرتا»، وهذا المكان كان هو الموقع القوي لـ «هيلاس»، ويقع بين الصخور والبحر، وقد كان محروسًا في الجناح الأيمن بالأسطول الإغريقي الذي كان يتألف من حوالي ثلاثمائة سفينة راسية على مسافة من رأس «أرتيميزيوم Artemisium» في «ايوبوا».

على أنه لو كان الإغريقُ جمعوا كُلَّ قُواهم هنا؛ لكان من المحتمل كسب قوة «أكزركزس» بقوة السلاح كما حدث لـ «برنوس Bronnus» وجنوده الغالبين في عام ٢٧٩ق.م، والواقعُ أنه في هذه المرة قد جربت سياسة الدخول في أمرٍ غير مؤكد، فكان مصيرُهُ الفشل، وذلك أن فيلقًا هامًّا هُزم هزيمة منكرة دون أن يعيق تَقَدُّم العدو تقدمًا مُحَسًّا، ولا نزاع في أنه — من جهة أخرى — كان التأثيرُ المعنويُّ على الجيش الفارسيِّ بالنسبة للشجاعة التي أبداها الجنودُ الإغريقُ عظيمًا جدًّا، ولم يُنقص الخطأ الذي ظهر في الخطط الحربية الإغريقية شيئًا ما من الشهرة الخالدة التي نالها «ليونيديس» وصحبُهُ الشجعانُ في ميدان القتال، بل زاد فيها. وعندما سمع «أكزركزس» أن الممر كان يقاوم وهو متقدم إلى الأمام بجموعه نحو «ترما» وقف وأرسل جماعة للاستطلاع.

ويُلحظ أنه في أيامنا هذه قد امتد خط الساحل كثيرًا في البحر، ولكن في عام ٤٨٠ق.م لم يكن هناك غير شريط من الأرض عرضه مائةُ قدم عند قاعدة الصخور، وكان الإغريق يُعسكرون بين أَضْيَقِ نقطتين هناك، وقد قَصَّتْ جماعةُ الكشافة على الملك أن الأعداء كانوا يَلْهُون في طمأنينة في الألعاب الرياضية وتسريح شعورهم الطويلة كأنهم يستعدون لعيد، ولكن «أكزركزس» الذي انتظر مدة أربعة أيام — على ما يظهر — بأمل أن يقتحم أسطولُهُ ممر «أيوريبوس Euripus»؛ أمر في النهاية الميديين والكيسيين ثم الخالدين بالهجوم، ولكن حرابهم الكثيرة ودروعهم غير الملائمة على الرغم من شجاعتهم لم تُحدِث أيَّ تأثير على الإغريق المدججين بالدروع الثقيلة، فقد انقضُّوا عليهم وذبحوهم بالمئات، وفي اليوم التالي استؤنِف القتال وكانت النتيجة واحدة مما جعل «أكزركزس» في يأس.

وقد نجى الفرس موقفهم في طريق عبر الجبال أن أرشد إليه خائن هيلاني، فأرسل الخالدون عليه، غير أن جنود الفيلق الإغريقي الذي كان قد وضع لحراسته خانوا ما ائتمنوا عليه فلم يُبدوا أية مقاومة وارتدوا على أعقابهم، وقد عرف أمر هذه الخيانة، فارتد كل الفيلق الأسبرتي الذي كان يبلغ عدده ثلاثمائة مقاتل، وكذلك التسبيين Thespians ثم الطيبيين الذين حجزوا بالقوة، وبعد ذلك لم تنتظرْ فرقة هؤلاء الشجعان حتى يحاصروا، بل تقدموا مهاجمين الفُرس وحاربوا حرب اليائسين أمام عدو يفوقُهُم بدرجةٍ عظيمة في العدد، بشجاعة منقطعة النظير، حتى ماتوا عن آخرهم ميتة أكسبتهم شهرة خالدة على مَرِّ الدهور.

موقعة أرتميزيوم البحرية

وفي تلك الأثناء كانت الأُمُور تسيرُ سراعًا في الحرب البحرية؛ وذلك أنَّ الأُسطول الفارسيَّ قد انتظر عند «ترما» لمدة اثني عشر يومًا بعد زحف الجيش، وذلك لعدم وجود ميناء بحرية بين هذه الميناء والخليج الباجاسي Pagasaian، ولكنه بعد ذلك تَقَدَّمَ تسبقه سبعُ سفن سريعة، فهاجمت السفن الإغريقية التي كانت مشغولة في أعمال كشفية بعيدًا عن مصب نهر «بنيوس Peneius» وقد قضى على اثنتين منها، وقد وصلت قطعُ أساطيلِ الغُزاة سالمة إلى ساحل «ماجنيزيا Magnesia» غير أنه لِعِظَم الأُسطول الفارسي كان عليه أن يرسو في ثمانيةِ صفوف موازية للساحل، وبينما كان الأُسطول راسيًا في هذا الوضع الخطر قامت عاصفة هوجاء وقضت على أربعمائة سفينة منه، وبعد سُكُون العاصفة تحرك الأسطولُ الفارسيُّ الممزق عبر «أفيتا Aphetae» الواقعة على اليابسة قبالة «أرتميزيوم»،

وقد فصل الفرس الذين لم تكن تنقصُهُم المبادرةُ، والذين لم يحلموا بالهزيمة مائتي سفينة من أُسطولهم ليبلغوا حول «أيوبوا» بقصد السياحة إلى المضايق التي تفصل الجزيرة من اليابسة مؤملين بذلك الاستيلاءَ على كُلِّ الأسطول الإغريقي، ولما نقل خبر هذه الحركة للإغريق الذين كانوا تحت إمرة القائد البحري «يوريبيادس Eurybiades» هاجم الأسطول الفارسي الرئيسي واستولى على ثلاثين سفينة منه، وعلى أي حال لم تكن الموقعةُ فاصلةً، وفي الليلة التالية كانت العناصرُ الطبيعيةُ في جانب الإغريق، فقضتْ على الأُسطول الفارسيِّ الذي كان قد أرسل حول «أيوبوا» وهذا الخبر السار أتى به نجدة كبيرة مؤلفة من ثلاثمائة وخمسين سفينة أثينية يحتمل أنها كانت تحرس مضيق «كالسيس Chaicis».

وفي الجزء النهائي من المعركة حارب الجنودُ الفرسُ الذين كانوا — على ما يظهر — يتلقون الأوامرَ باستمرارٍ من «أكزركزس» بأن يخترقوا صُفُوفَ الأُسطول الإغريقي، ويتصلوا — من جديد — بالجيش البري، على طول الخط، وقد نشبتْ معركةٌ يائسةٌ كانت في غير صالح الإغريق، فقد هشمت الكثير من سفنهم، وذلك في الوقت الذي وصلت فيه الأخبارُ باقتحام ممر «ترموبيلا Thermopylae»، وهذه الكارثةُ غيرت الموقف، وفي خلال الليل أمر الإغريق بالتقهقر، على أنه لو تابع الأسطول الفارسي الأسطول الإغريقي لتَمَكَّنَ من الاستيلاء على كثيرٍ من سفنه المهشمة، ولكن الفرس كانوا يجهلون أمر انسحاب الإغريق، ولو أنه كان لزامًا عليهم أن يتوقعوا هذا التقهقُر، وعلى ذلك سار الأسطول الإغريقي آمنًا على ساحل «أيوبوا» بحراسة الأثينيين.

زَحْف الجيش على «أثينا» والاستيلاء عليها

لقد سارت الحملة حتى الآن في صالح الفرس فقد اقتحم جيشُهُم أوعر ممر، يضاف إلى ذلك أن الأسطول الإغريقي بعد موقعتين أمر بالتقهقر وأصبح وسط «هيلاس» معرضًا للخطر أمام الغزاة.

هذا، وقد سار «أكزركزس» بجيشه على «فوسيس Phocis» فخربها، وبعد ذلك تحول الجيش الفارسي نحو «أتيكا» وكان الأثينيون الذين كانوا يأملون أن ينتصروا عند «ترموبيلا» لم يغادروا «أثينا» ولكنهم قاموا الآن بمغادرتها بكل سرعة، فأرسل النساء والأطفال إلى «ترويزن Troizen» و«أجينا Aegina» و«سلامس Salamis»، ومن

جهة أُخرى نجد أن بعض الأفراد قد اعتمدوا على وحي «دلفي» مبهم يقول إن: «أثينا» يجب عليها أن تثق في جدرانها الخشبية، فاعتصموا في «الأكروبول Acropolis»، ولكنهم بعد مقاومة يائسة تغلب الفرسُ عليهم وقتلوهم، وفي النهاية أصبحت «أثينا» في يد الغُزاة فأحرق الفرس محاريبها انتقامًا لتخريب «سرديس»، ولَمَّا تم النصر للملك العظيم بتخريب «أتيكا» والاستيلاء على «أثينا» ظن أن الحملة لا تلبث أن تتوج بالنجاح، غير أنه كان يرتكز على مقدمات خاطئة.

موقعة «سلامس» ٤٨٠ق.م

كان على الأُسطول الإغريقي، على حسب التصويرات المستعجلة التي أبداها «تيميستوكليس» الذي كان مشهورًا بقوة إقناعه للأسبرتيين بالحجة الدامغة التي تروق في أعيُنهم، بعد أن غادر «أرتيميزيوم»؛ أن يشق طريقه إلى «سلامس» وذلك بحجة أن يسهل للأثينيين نجاة أُسرهم، وقد تسلم الأسطول عند هذه الجزيرة آخر مدده مما جعل قوته العددية التي كان يتوقف عليها خلاصُ «هيلاس» تبلغ حوالي أربعمائة سفينة، وكان عدد سفن العدو أعلى من ذلك بكثير.

وقد كان من جراء الاستيلاء على «أثينا» وزحف الجيش الفارسي على «فاليرون Phaleron» أن تسبب اضطرابٌ عظيمٌ، لدرجة أن الفيلق «البلوبونيزي» صمم بسرعة على تَقهقُر الأُسطول إلى خليج «كورنثا» دون أن يعير أي التفاته مصير الأثينيين الذين كانت تتعرض أُسرُهم بذلك إلى الأسر، وقد كانت حجتهم في ذلك أنهم لو هزموا في «سلامس» فإنهم لن يُفلتوا مِن أيدي الفرس، في حين أنهم عند البرزخ يكونون محميين بقوة جيش «هيلاس» المجتمِع هناك، ولقد كان هذا الشعور عامًّا لدرجة أن «تيميستوكليس» كان في يأس من أمره، ولكنه في المجلس الحزبي الذي عقد تحت رياسة «ايوريبيادس»، تغلب بشخصيته ونال الموافقة على رأيه قسرًا، وذلك أنه بين الأمل الوحيد في نجاة «هيلاس» أن تحارب في المياه الضيقة وأن الحرب عند خليج «كورنثا» يجعل للكثرة العددية للأسطول الفارسي الغلبة بدون شك.

وقد حاول أمير البحر الكورنثي أن يحدث شجارًا بينه وبين «تيميستوكليس» بقوله: بما أن الأثينيين قد فقدوا بلادهم فإنهم ليسوا في حِلٍّ من أن يعطوا رأيًا في الموقف، ولكن

هذا الهجوم قد اجتُنب بمهارة، وذلك بتهديد شديد، وهو أن الأثينيين لو أقلعوا بأُسطولهم لتأسيس «أتيكا» جديدة في «إيطاليا» فإن معونتهم ستفتقد في هذه اللحظة الحرجة التي يقرر فيها مصير «هيلاس»، وبينما نرى الأُمُور تجري من جهة على هذا الحال مضافًا إلى ذلك تنصُّل فيلق أو فيلقين مِن جُنُود الإغريق؛ نرى من جهة أخرى أن «تميستوكليس» قد نال نجاحًا بضربة صائبة وخلص «هيلاس»، وذلك بالقيام بعملٍ يَدُلُّ على عدم الولاء لرفاقه، وهو أنه أرسل رسالة إلى «أكزركزس» يخبره فيها أن الإغريق يفكرون في التقهقُر، وأن فرصته في تدميرهم قد أصبحتْ في النهاية سانحة، ولما كان «أكزركزس» متعودًا على الخيانة الإغريقية؛ فإنه قرر أن يُصدق هذا الخبر وأرسل أُسطوله المصري المؤلف من مائتي سفينة لسد الممر الغربي بين «سلامس» و«مجارا Magira»، وبعد ذلك تقدم أُسطوله الرئيسي من «فاليرون» واتخذ مكانًا للموقعة الكبرى في ثلاثة صفوف على كل جانب من جوانب جزيرة «بسيتاليا Psyttaleia» التي كانت تحتلُّها قوة الفرس.

وقد ظن «أكزركزس» أن النصر أصبح مؤكدًا، وعلى ذلك كان اتجاهُهُ الرئيسي أن يمنع الإغريق من الهرب، وقد وصلت إليه معلوماتٌ عن تحرُّكات الأُسطول الإغريقي، يُفهم منها صراحة أن «هيلاس» لن تنجوَ إلا بالانتصار، وقد وصلت هذه المعلوماتُ للمجلس بوساطة «أريستيدس Aristides»، الذي كان قد عاد حديثًا مِن منفاه، ومن ثم تأكد الإغريقُ تمامًا من أن حياتهم وحياة أُسرهم كانت في خطر داهم، ولقد كان لديهم ميزةُ التضامن، هذا فضلًا عن أن المعركة كانت ستقعُ في مياهٍ ضيقةٍ من صالحهم.

أما الأُسطولُ الفارسيُّ من جهة أُخرى فكان يتألف من فيالقَ متنوعة، وعلى الرغم مِن أنه كان يشغل في بداية المعركة مساحةً واسعة من البحر، إلا أنه التحم مع العدو في مساحة من الماء كانت صغيرة جدًّا بالنسبة للأسطول الفارسي العديد، وكان لا بد أن يتقدم الأسطول للمعركة في صفوف، وذلك لمقابلة جيش الإغريق الذي كان قد صف في خط، ومع ذلك لم تنقص رعايا الملك العظيم الشجاعة، وبخاصة عندما عرفوا أنهم يقاتلون تحت نظر سيدهم الذي لا يرحم.

بدأت المعركة البحرية في صالح الفرس، وعندما انبلج الصباحُ ارتاع الإغريقُ من كثرة عدد سفن الفرس؛ ولذلك جعلوا سُفُنهم تمس الشاطئ تقريبًا، ولكن على حين غفلة حولتهم شجاعةُ اليائسِ إلى أبطال من الطراز الأول، وانقضُّوا على العدو، وقد قابل الصف الذي كان يتحرك بين «بسيتاليا Psyttaleie» واليابسة الأثينيون والأجنتان، أما الإغريق

الأيونيون الذين كانوا يتقدمون ما بين «بسيتاليا» و«سلامس» فقد وقفت في وجههم أساطيلُ «بلوبونيز».

وقد حمي وطيس الحرب بين الفريقين لدرجة اليأس، والواقعُ أن كثرة عدد سُفُن الأُسطول الفارسي كان عائقًا لا مُساعدًا في هذا المرسى الضيق، وعلى الرغم من أن الفرس قد كسبوا أرضًا من جهة جناحهم الأيسر فإن جناحهم الأيمن قد هزم في النهاية، وذلك بفضل بطولة ومهارة الأثينيين و«الأجينتان Aeginetans»، وقد أجمع الكل على أن الفضل يرجع إليهم في التغلُّب على العدو، وفي نهاية الأمر سَلَّمَ الفرس على طول الخط، وتقهقروا إلى «فاليرون» بعد أن خسروا مائتي سفينة، هذا عدا السُّفُن التي أسرت مع بحارتها، وقد خسر الإغريقُ في هذه المعركة خمسين سفينة.

هذا، ولم يقتف الإغريق أثرَ الأُسطول الفارسي المهزوم، وقد أمضى الإغريقُ الذين لم يقدروا نصرهم حق قدره ليلتهم على ساحل «سلامس» مستعدِّين لتجديد القتال في الصباح، ولكن عند انبثاق الفجر كان الأُسطول الفارسيُّ قد اختفى عن الأعيُن، ومِن ثم نجت «هيلاس».

تقهقر «أكزركزس»

جمع الملكُ «أكزركزس» في سرعة مجلسًا حربيًّا عندما أخذت الموقعة في الانتهاء، وقد أقنعه «مردونيوس» بسرعة العودة إلى «سرديس»، غير مُبَالٍ بانتهاك حُرمة الشرف الفارسي وسمعته العالمية، على أن يترك تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل لينهي بهم إخضاع الإغريق، وقد انسحب هذا الملكُ المتخاذلُ دون مقاومة من «أتيكا»؛ وذلك لأن الأسبرتيين قد انتهزوا فرصة كُسُوف للشمس حدث في اليوم الثاني من أكتوبر عام ٤٨٠ق.م، واتخذوه عذرًا لعدم إمكانهم ترك مكانهم عند البرزخ.

وبعد أن وضع «أكزركزس» رجاله في «تسالي» استأنف تقهقره الذي فقد فيه آلافًا من الرجال على الطريق؛ بسبب الجوع والمرض، ولما وجد أن جسر «الدردنيل» قد هُدم بعاصفة فَرَّ سالمًا في سفينة إلى «آسيا» حيث قيل إن آلافًا أخرى من جنوده المنهوكين قد ماتوا من الإعياء، وقد قفا الإغريق أثر الأسطول الفارسي المهزوم ولكن دون جدوى، وعندما وصلوا إلى «أندروس Andros» عقدوا مجلسًا حربيًّا حضَّ فيه «تيمسيتوكليس» الأعضاء على أن يقلعوا شمالًا ويهدموا جسر «الدردنيل»، وعلى أية حال عارض «أيوريبياس» — كما كان المنتظر — بكل شدة، ولكن عندما هزم مشروع هذا الأثيني الماكر أخذ في الإفادة

من هزيمته هذه، فأرسل خادمًا إلى الملك «أكزركزس» بالخبر، ومما يؤسَف له أن أعمالًا مثل هذه كانت تلطِّخ بالسواد شهرةَ الأثيني العظيم.

غزو «قرطاجنة» جزيرة صقلية ٤٨٠ق.م

وقد كان هناك دور آخر في هذه الرواية يمثل في «صقلية»؛ وذلك أنه من المحتمَل أن القرطاجنيين بتحريضٍ من الفرس قد جهَّزوا قوة كبيرة لمهاجمة «هيلاس» في «صقلية» وبعد أن خسروا فرسانهم وعرباتهم في عاصفة وصلت الحملة إلى «بانورموس Panormus»، ومن هذه الميناء زحف القائدُ «هاملكار» على ساحل البحر إلى هدفه وهو «هيمرا Himera» التي حاصرها، وقد أسرع في الحال «جلون Gelon» ملك «سرقوسة» لنجدة «ترون Theron» صاحب «هيمرا» بقوةٍ قوامها خمسون ألفًا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان، وقد سبق الواقعة الحاسمة تخريب المعسكر البحري القرطاجني وموت «هاملكار»، وقد قام بهذه العملية فرسان «سرقوسة» الذين سمح لهم بالدخول في هذا المعسكر خطأً على زعم أنهم حلفاء.

وبعد ذلك هاجم «جلون» القرطاجنيين الذين كان قد استولى عليهم الذعرُ والهلعُ، فلم يُبدوا مقاومة تُذكر، ثم أُبيدوا حتى آخر رجل، وبذلك تُعتبر موقعة «هيمرا» نصرًا آخر حاسمًا لبلاد «هيلاس».

حملة مردونيوس

نعود الآن إلى ما قام به «مردونيوس» بعد ترك «أكزركزس» له، والواقع أن حملة هذا القائد تُعَد النهاية للحروب الطويلة التي قامت بين جموع «آسيا» وبين قوة الإغريق المنظمة التي كانت تُدافع بكل شجاعة عن وطنها، ونحن نعلم أن الملك «أكزركزس» قد أسلم زمام خبرة جنوده الذين كان يأمل «مردونيوس» القائد الفارسي الشجاع أن يضم بهم «هيلاس» إلى قائمة الشطربيات الطويلة التي تحت سُلطان الملك العظيم، والواقع أنه كان يعد مغادرة الملك تخلصًا من جنوده غير المدربين.

وأَهَمُّ من ذلك كان تخلُّصُه من حضور الملك وحاشيته وأتباعهم الذين لم يكن لهم أي فائدة في ميدان القتال، هذا فضلًا عن أنه كان لا بد من إطعامهم قبل أن يتسلم الجنودُ المحاربون جراياتهم، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك شيء أكثر صدقًا في الحرب من أن

الكارثة تكاد تكون في ركاب العمليات الحربية، عندما يتدخل في شئونها رجال البلاط. ولقد كان من حُسن سياسة «مردونيوس» الذي كان صاحب تجارب عظيمة في الشئون الإغريقية الآن أن لا يكتفي باستشارة عدة هياكل الوحي، بل فتح باب المفاوضات مع الأثينيين بوساطة الملك «الإسكندر» ملك «مقدونيا»، وقد عرض عليهم أن يصبحوا حلفاء الملك العظيم.

وعندما سمع أهل «أسبرتا» بذلك أرسلوا مبعوثًا خاصًّا إلى «أثينا» مُرحِّبين بذلك، وعلى الرغم من أن «أسبرتا» التي كانت في الماضي لها أكبر قوة برية فإنها لم تلعب إلا دورًا محزنًا في المعركة الكبرى؛ فإن المواثيق المقدسة التي قَدَّمَها المبعوثون قد تسلمها الأثينيون الذين عضدتهم التجارب، غير أنهم رفضوا هذا العرض الفارسي المغري قائلين: ما دامت الشمس تجري في فلكها في السماء فإنا لن نعمل شروطًا «لأكزركزس».

ولما تحقق «مردونيوس» أنه لا يمكنه فصل الأثينيين؛ زحف بجيشه جنوبًا من «تساليا» وأعاد الاستيلاء على «أثينا» بعد عشرة أشهُر من استيلائه الأول عليها، وعندئذ نجد أن الأثينيين وجدوا أنفسهم وحيدين لم تساعدهم حلفاؤُهُم، ومن ثم اضطروا إلى حمل أسرهم إلى «سلامس» حيث كانوا في هذه المرة في أمانٍ مطلقٍ، وفي هذه اللحظة فتح «مردونيوس» باب المفاوضات مع الأرجيفيين Argives والأثينيين ولكن دون الوصول إلى نتيجة، ولمجابهة هذه الأحداث وجد الأسبرتيون أنه لا بد لهم من الاستمرار في تحصين البرزخ، وذلك قبل أن تشرق على عقولهم البليدة ضرورةُ اتخاذ خطة الهجوم.

والواقع أن الأسبرتيين قد ضايقوا الأثينيين لدرجة أن ما بينهما من ولاء كادت تنفصم عُراه، ولكن في نهاية الأمر أخذ الأسبرتيون يُظهرون سياسة فعالة، وقد يرجع في ذلك إلى موت «كليو مبروتوس Cleombrotus» وتولى «بوزانياس Pousanias» قيادة الجيش، وعندما أعطى الأمر بالزحف سار الجيش على جناح السرعة شمالًا لمقابلة العدو.

أما «مردونيوس» الذي كان قد خَرَّبَ ما بقي من «أثينا» فإنه ارتد إلى «بوشيا Boeotia» حيث عاضده حلفاء له وأصبح في إمكانه استعمال فرسانه بنجاح أكثر مما كان يلاقيه في بلاد «أتيكا» الجبلية، وقد قامت حروبٌ في هذه الجهة انتهت بقتل القائد الفارسي الذي سقط من فوق جواده، وقد حاول جنودُهُ بكل شجاعة استرداد جثته، فلم يفلحوا بعد هجوم عنيف باء بالفشل، وبعد خسائر فادحة ارتدوا إلى معسكرهم والأسى يحز في نفوسهم.

موقعة «بلاتا Plaataea» ٤٧٩ق.م

لقد فرح الإغريق بهذا النصر الذي شجعهم على الاستمرار في حرب عدوهم، وعلى ذلك تركوا الاحتماء بالتلال واتخذوا لأنفسهم مركزًا متقدمًا، فكان جناح جيشهم الأيسر يرابط على فرع من نهر «أسوبوس Asopus» والجناح الأيمن يحتل مكانه بالقرب من ينبوع «جارافيا Garaphia» وكان مجرى نهر «أسوبوس» الرئيسي يقع بين الإغريق والفرس، ويُلحظ أنَّ فرسان الفرس كان في مقدورهم أن يعملوا الآن بسهولة، ولم يعد موقعُ الجيش الإغريقي يحمي الممرين اللذين يجري عبرهما طريقُ مواصلاتهم، وقد كان من جراء ذلك أن الفرس قضوا على قطيع من حيوانهم.

وتدل شواهد الأحوال على أن «مردونيوس» كان يرغب في منازلة عدوه في موقعة فاصلة، وقد كانت خطتُهُ أن يضعف من القوة المعنوية للجيش الإغريقي باستعمال فرسانه بدرجة عظيمة، وقد أفلح جزئيًّا في ذلك فقد ضايق فرسانه العاملون كل الجيش الإغريقي بهجماتهم المتكررة، وذلك بإلقاء المزاريق وتصويب السهام عليهم، هذا فضلًا عن أن الفرس قد أتلفوا ينبوع «جارافيا» الذي كان يستقي منه كل الجيشُ الإغريقي كما يقول «هردوت»، كل ذلك يدل على أن الأحوال كانت في صالح الفرس، ولما رأى الإغريقُ ذلك قرروا الانسحاب إلى موقعٍ أكثر ملاءمة لهم بالقرب من «بلاتا».

وقد كانت عملية الانسحاب هذه أخطر عمليات الحرب؛ إذ كادت تكون كارثة عليهم، وذلك أن أحد القُوَّاد الأسبرتيين أبى التقهقر لمدة عدة ساعات، وعلى ذلك فإن قلب الجيش الذي كان يتألف من فِرَق صغيرة فَقَدَ اتصاله بالجناحين، وعلى ذلك فإنه عند طلوع النهار كان الجُزء الرئيسي من الجيشين الأسبرتي والأثيني ليس بينهما اتصال لبعدهما بعضهما عن بعض، فقد كان الأول على مقربة من العدو جدًّا في حين أن الحلفاء الآخرين لم يعرف مكانهم.

ولا بد أن «مردونيوس» قد اعتقد أن الواقعة مهيأةٌ لنصره فقد كان جيشُهُ المهاجمُ يتألف من مائتي ألف جندي وفارس وحوالي خمسين ألف مقاتل إغريقي، في حين أنَّ جيش الإغريق كان يتألف من مائة ألف مقاتل كانوا مقسمين ثلاثة أقسام، لم يكن في قدرة أَي قسم منها مساعدة الآخر، ولما كان «مردونيوس» يتحرق شوقًا لملاقاة العدو والهجوم عليه؛ فإنه أرسل فُرسانه إلى ساحل القتال ثم أتبعهم «بالخالدين» لمهاجمة الأسبرتيين الذين كانوا على مقرُبة منه.

وقد وجد الأسبرتيون أن الفأل لم يكن في جانبهم في بادئ الأمر، ومن أجل ذلك تحملوا بهدوء وابلًا من السهام، وأخيرًا كان الفأل في صالحهم فانقضوا على عدوهم الذي كان يحمل أسلحة خفيفة، وقد أظهر الفرسُ شجاعة ممتازة، غير أن حاجتهم إلى الدروع الثقيلة جعلت كل محاولاتهم فاشلة، وقد قرر مصير الواقعة بموت «مردونيوس» قائدهم الشجاع وهو يحارب على رأس «الخالدين»، وقد سقط في حومة الوغى ومن حوله آلافٌ من الجثث، وقد أحدث موتُ القائد — كما هي العادة — ذُعرًا في صفوف الجيش، ومن ثم ولى الجنود الفرس الأدبار إلى معسكرهم.

وفي تلك الأثناء كان الأثينيون — وهُمْ في طريقهم لمساعدة الأسبرتيين — قد هوجموا بفيلق جبار من الإغريق الذين يعملون في جيش «مردونيوس» غير أنهم لم يظهروا حماسًا ملموسًا في هجومهم اللهم إلا جنود «بوشيا» فقد دافعوا عن أنفسهم، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أن عدد القتلى في صفوف الفرس كان هائلًا، والواقع أن الأسبرتيين لم يُقاوموا إلا مقاومةً ضئيلة، ويقص علينا «هردوت» أنه لم يفلت من الجيش الفارسي إلا ثلاثة آلاف مُقاتل على قيد الحياة، وكذلك ذكر لنا أن فرقة قوامها أربعون ألف مقاتل بقيادة «أرتابازوس» الذي عارض آراء «مردونيوس» ونصح بانتظار الفرصة؛ قد تقهقرت في نظام من ساحة القتال دون أن تحارب الإغريق، وفضلًا عن ذلك فإنه لا يصدق أن قوة الفرسان العظيمة قد أبادها الإغريق.

ويرجع الفضلُ إلى شجاعة الأسبرتيين في نيل الإغريق هذا النصر الحاسم إلى أقصى حد، فقد انقض الفُرس على جيوشهم في العراء بعدد يفوق عدد جيشهم ولم يكن في ساحة القتال إلا فيلقان من الثلاثة التي كان يتألف منها الجيش الإغريقي، وهذان الفيلقان لم يكن في مقدورهما مساعدة بعضهما بعضًا، ومع كل هذه العوائق فإن الجيش الإغريقي بما أوتي من تدريب ممتاز وأسلحة متفوقة كان له في النهاية النصر المبين.

موقعة «ميكال» ٤٧٩ق.م

وقد حدث في نفس الوقت الذي وقعت فيه واقعة «بلاتا» الحاسمة في تاريخ العالم موقعةٌ أخرى، يحتمل أنها وقعت في نفس اليوم على مقربة من «ساموس»، حطم فيها الأسطول الإغريقي الأُسطول الفارسي، وذلك أن الفرس لم يرغبوا في أن يشتبك أُسطولهم مع الأُسطول الإغريقي الذي انتصر في «سلامس»، ومن ثم سحبوا سفنهم حتى اليابسة عند رأس «ميكال» حيث كان يحميهم قوةٌ يبلغُ عددُها ستين ألف مقاتل مختدقين في أماكنَ

حصينة، غير أن أبطال «هيلاس» لم يكن هناك ما يعوقُهُم عن الانقضاض على فريستهم، فتتبعوا العدو على الساحل وانتصروا عليه نصرًا عظيمًا؛ إذ حرقوا كل سفنه وهذه الضربة الأخيرة قصمت ظهر قوة فارس على الجُزُر الإغريقية، ولم تلبث بعد ذلك أن اندلعت نيرانُ الثورة في كل مكان، وقد عاضد الأثينيون هذه الثورة إلى أن أصبح الهيلانيون في «أوروبا» والذين في الجزائر أحرارًا وصار في مقدورهم مساعدة إخوانهم الذين يقطنون على شاطئ آسيا لنيل حريتهم.

الاستيلاء على «سستوس Sestos» ٤٧٨ق.م

ولقد كانت نهاية الصراع الجبار في هذه الحملة هو من أجل الاستيلاء على «سستوس»، وهي التي بوقوعها على الجانب الأوروبي من الدردنيل جعلها تعد جسرًا مدهشًا للملك العظيم، ويلفت النظر هنا أن قائد الأُسطول الأسبرتي لم يفقه الضرورةَ الاستراتيجيةَ لمشروع الاستيلاء على هذا الموقع؛ ولذلك أقلع إلى وطنه، وقد وقع عبءُ الاستيلاء على هذا المكان على الأثينيين الذين نجحوا في الاستحواذ عليه؛ لِمَا له من أهمية بالغة، وقد هربت الحاميةُ الفارسيةُ غير أن الأثينيين لحقوا بجُنُودها وقضَوا عليهم، وهكذا نجد أنه بالاستيلاء على «سستوس» ختم آخر منظر من مناظر حرب الفرس العظيمة.

نتائج الحملة النهائية

إن هذه الحملة الجبارة التي قاد زمامها دولة الفرس الآرية في «آسيا» على قريبتها في الجنس في «أوروبا»؛ تستحق بعض التأمل، وأول سؤال يسأله الإنسان في هذا الصدد هو: لماذا كسب الإغريق المعركة في النهاية؟ والجوابُ على ذلك سهلٌ ميسورٌ، وهو أنه مما يلحظ أولًا أن الإغريق، بصرف النظر عن قوتهم المعنوية المدهشة؛ فإنهم كانوا يحاربون في أرض وعرة كانوا قد تعودوها وتتفق مع تدريبهم ومزاجهم، في حين أَنَّ الفرس كانوا قد اعتادوا على الحروب في سهول «آسيا» المفتوحة المنبسطة، وهي التي إذا لم يعاضد فيها المشاة الفرسان، فإن القوة المهاجمة تكون كفتها خاسرة بالنسبة لقوة من الفرسان خفيفي الحركة، يضاف إلى ذلك أنه كان هناك فرقٌ في التسلح؛ فقد كان الإغريقُ مدربين على حمل الدرع الثقيل بسهولة نسبية، كما كان في مقدورهم أن يستخدموا الأسلحة الثقيلة أكثر من أعدائهم الذين كانوا يعتمدون على الكمية لا على النوع، وأخيرًا فإنه على

الرغم من تنظيم الجيش الفارسي تنظيمًا حسنًا فإن بعد «هيلاس» عن القاعدة الحربية قد جعلت كفة النجاح في صف الإغريق.

وإنه لَمِنَ الممكن أن نبالغ في أهمية النتائج الحربية لهذه الحملات لدرجةٍ ما، حتى لو كان «أكزركزس» قد فتح «هيلاس» فإن بعد هذه المديرية كان يجعل من الصعب بقاءَها في يد الفرس لمدة طويلة، والواقع أن الحرب نفسها — لا نتائجها — هي التي حققتْ نجاة بلاد الإغريق وحريتها، وبعبارة أخرى: نشاهد أن العدوان المرير الذي أثاره الغزوُ في نفوس الإغريق هو الذي نَجَّى مدينة «هيلاس» مِن جَعْلها بلادًا شرقية تحت سلطان الفرس.

وقد ظَنَّ الكثيرُ من الكُتَّاب أن الإمبراطورية الفارسية، قد قُضي عليها بسبب صدها على يد الإغريق، ولا نزاع أن البقية الباقية التعسة من الذين أفلتوا من هذا الجيش الفارسيِّ العظيم من يد الإغريق؛ قد حَملوا إلى بلادهم قصة الهزيمة إلى كل ركن من أركان الإمبراطورية، ومع ذلك نُشاهد أن الفرس بقيت تلعب الدور الرئيسي على المسرح العالمي لمدة لا تقل عن قرن ونصف قرن من الزمان بعد خيبتها في فتح بلاد الإغريق، وهذا يدل على أن سلالتها لم تكن قد انحطتْ بأيةِ حالٍ من الأحوال.

والواقع أن بلاد الإغريق التي كانت قد انقسمت عدة حكومات صغيرة مناهضة بعضها بعضًا لم يكن في مقدورها، حتى بعد مواقع «ماراتون» و«سلامس» و«بلاتا»؛ أن تقف في وجه سيد «آسيا» موقف الند للند، وقد بقيت الحالُ كذلك حتى ظهرت «مقدونيا» على مسرح التاريخ وتزعمتْ «هيلاس» — وعلى رأسها عبقريٌّ عظيمٌ في فنون الحرب، بل يحتمل أنه أكبر عبقرية ظهرت في كل عصور التاريخ، وبذلك كان في مقدورها أن تدخل في نضال مع الفرس، انتهى بالنصر الحاسم عليها، وقد بقيت بلاد الإغريق، حتى ظهور «الإسكندر الأكبر» تحصر حروبها في الشريط الذي يمتد على ساحل «آسيا الصغرى»، أما الأراضي التي وراء هذا الساحل، فكانت تحت سلطات شطربة «سرديس» الفارسي.

وإذا كان الكُتَّابُ الذين كتبوا عن التاريخِ الإغريقيِّ من جهةٍ قد بالغوا في فَداحة الضربات التي أنزلتْها بلاد الإغريق بالفرس عند صد الملك العظيم؛ فإنه من جهة أُخرى يكادُ يكونُ من المستحيل أن نُغالي في أهمية الانتصارات بالنسبة لـ «هيلاس» وللعالم الحديث؛ وذلك أننا نعلم أن «كورش» — بعد هزيمة الملك «كروسوس» — قد ضم بسهولةٍ المستعمرات الإغريقية الواقعة على ساحل «آسيا الصغرى» والجزر المجاورة لها، وكذلك نُشاهد أن «دارا» بعد حرب «سيثيا» سحب قوةً من جيشه مدت سلطان الفرس حتى

الحدود الشمالية لبلاد الإغريق، وبعد ذلك عندما زحفت الحملةُ العظيمةُ على بلاد الإغريق شاهدْنا أنَّ معظم شمالي ووسط «هيلاس» قد خضع للفرس ولم يبق حرًّا إلا بلاد «أتيكا» الشجاعة وبلاد «البلوبونيز»، وقد خرب الفرس حتى بلاد «أتيكا» كما أرادوا، هذا إلى أنهم خربوا «أثينا» مرتين، ولكن نجد في النهاية أن انتصارات الإغريق قد حررت في الحال كل بلاد «هيلاس» وكل مستعمراتها في «آسيا» و«أوروبا»، وكذلك استردت الجزرُ استقلالَها في الوقت نفسه، كما تحررت المدنُ التي على اليابسة.

والواقع أن الفضل في ذلك يرجع إلى ضعف الأخلاق الذي أظهره «أكزركزس» الذي رفض — خلال المدة الباقية من حكمه المشين — مواجهة المسألة الإغريقية، وقد كان في مقدور «هيلاس» أن تأخذ خطة الهجوم بعد أن كانت ملازمة خطة الدفاع، وقد كان هذا دورها حتى جاء «الإسكندر» وحرق عاصمة «إيران» وأصبح سيد «آسيا»، ولكن هناك النظرة الأوسع لهذه الحالة، وأعني بها: النظرة العالمية، فمن هذه الوجهة نجد أن «ماراتون» و«سلامس» و«بلاتا» كانت انتصارات لا تقتصر على بلاد الإغريق، بل انتصارات لكل الإنسانية، لقد كان هذا الانتصارُ هو فوز المُثُل العُليا، وحتى يومنا هذا لا يُمكن أن نُقدر — تقديرًا تامًّا — ما نحن مدينون به لهؤلاء الشجعان البواسل الذين جاهدوا وحاربوا بشجاعة لم يأت بمثلها فئةٌ قليلةٌ لا مِن قبلُ ولا من بعد.

الإمبراطورية الفارسية
بعد ارتداد الفرس عن «هيلاس»

«أكزركزس» بعد التقهقُر عن «هيلاس»

ليس لدينا مصادرُ يُمكنُ الاعتمادُ عليها عن هذا العهد إلا المؤرخ هردوت، وبعد انتهاء تاريخه العظيمِ بحادثِ الاستيلاء على «سستوس Sestos» نجد أن تاريخ الفرس قد أصبح لِمُدَّةٍ مبهمًا بعض الشيء، حقًّا نجد في التاريخ الذي وضعه المؤرخ «ثوسيديدس Thucydides» ذكر بعض حوادث هامة لها علاقة بتاريخ الفرس، غير أن التفصيلات عن هذه الحوادث معدومة.

والواقع أن «أكزركزس» قد أمضى أكثر من سنة في «سرديس» بعد تقهقره المشين، والظاهر أنه كان لديه تصميماتٌ لم تسفر عن شيء خاص بقيام حملة جديدةٍ للتغلُّب على الإغريق وقهرهم، ونجد في الوقت نفسه أنَّ هذا الملك الخليع قد وقع في غرام زوج أخيه «ماسيستس Masistes»، ولكنها لَمَّا أعرضت عنه وانتهرتْه حَوَّلَ حُبَّه لابنتها، وقد حاول أن يُخفي أغراضه الشريرة بأن زوج الأخيرة من ابنه «دارا»، ولما وقفت زوجه؛ أي الملكة الشرعية «أمستريس» على جلية الأمر جُنَّ جنونُها غيرة، واحتالت على أن توقع أم مناهضتها في قبضتها، وبعد أن تم لها ما أرادت وأثخنتها جروحًا جعلتْ منها امرأة مشوهة الخَلق، وقد كان من جراء عملها الشيطاني هذا أن غادر البلاد «ماسيستس» بقصد التحريض على القيام بثورة في «بكتريا»، ولكنه قُبض عليه وهو في طريقه إلى تنفيذ غرضه وذُبح، أما «أكزركزس» فإنه ولى وجهه نحو «سوسا» ولم يظهر للناس لمدة بضع سنين.

الغارات التي قام بها الإغريق على «آسيا الصغرى» وموقعة «أيورمدون Eurymedon» ٤٦٦ق.م

تدلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ الحملات التي قام بهاالإغريقُ عندما ارتد ملك الفرس إلى أواسط إمبراطوريته؛ كانت قد فقدت الكثير من أهميتها من الوجهة الفارسية في حين أنه كان من المستحيل على الإغريق أن يضربوا ضربةً في القلب قاضية؛ وذلك لأن المسافة من قاعدتهم كانت طويلةً جدًّا، ولكن في الوقت نفسه كان من الأهمية البالغة لـ «أثينا» أن تستمر في شَنِّ الغارات على الفرس، والواقع أنه كان في إمكان «أثينا» — على حسب حلف «ديلوس» الذي كان من شروطه أن تنظم وتقود قوات حلفائها — أن تكون قوة بحرية جبارة، ففي عام٤٦٦ق.م؛ أي بعد اثنتي عشرة سنة في حروب مستديمة وصلت مجهودات الإغريق بقيادة «كيمون» الملهمة إلى إحراز نصر باهر على صعيد «أيورمدون Eurymedon» الواقعة في خليج «بامفيليا Pamphylia»؛ إذ كما حدث في «ميكال» أنزل الإغريق قوة هزمت جيشًا فارسيًّا كان مخندقًا هناك، هذا فضلًا عن أنهم قضوا على أُسطول العدو، وهذا النصر قد تم بالاستيلاء على نجدة مؤلفة من ثمانين سفينة فنيقية، ويُمكن الاعتقادُ أن البحارة الآسيويين بعد هذه الخسائر الساحقة لم يرغبوا قَطُّ بعد ذلك في منازَلة الإغريق بحرًا إلا إذا كان عددُ سُفُنهم عظيمًا بالنسبة لسفن الإغريق.

قتل «أكزركزس» ٤٦٦ق.م

يظهر أن عدم قُدرة «أكزركزس» وآثامه وخلاعته قد جلبتْ عليه العقابَ المحتوم، وذلك أنه بعد أنْ حكم عشرين سنة كانت نتيجتها الخراب قتله «أرتابانوس Artabanus» قائد حرسه.

وإذا أردنا أن نحكم على أخلاق «أكزركزس» الذي وُصف في التوراة بالخلاعة والبذخ، فلا نجد ما يُذكر عنه بالخير إلا القليل، والواقعُ أنه ورث أضخمَ إمبراطورية شهدها العالم حتى عهده، هذا بالإضافة إلى جيشٍ فاخرٍ وموارد ثروة هائلة. وعلى الرغم من هذا الإرث الباهر فقد جعل الهيلانيين يرعبونه حتى هرب من وجههم بعد انتصارهم في موقعة بحرية، وبدلًا من استمرار الحرب ليمسح ما لحق به من عار الهزيمة هرب من أراضي «هيلاس» الوعرة المسالك إلى «آسيا» حيث أرخى لنفسه العنان في الانغماس في الشهوات وألوان الخلاعة، كما سمح لخصي أن يقود زمام الأُمُور في إمبراطوريته حتى آخر لحظة من حياته.

تولي «أرتكزركزس» الأول ملك «فارس» (٤٦٥ق.م)

لقد جاء في رواية يحتمل صدقها أن «أرتابانوس» كان يُشاركُهُ في جريمة قتل «أكزركزس» رئيس الخصيان، الذي يُقال عنه إنه بعد قتل سيده حرض الأمير الصغير «أرتاخوها يارشا» (أرتكزركزس الذي كان لا يزال طفلًا) يتهم أخاه الأكبر «دارا» بقتل والده ثم انتزع منه أمرًا بقتل الأخير، وقد نفذ ذلك في الحال.

تلك هي الأحوالُ المنحوسة التي تولى فيها «أرتكزركزس» الأول عرش «فارس»، وقد نُعت في التاريخ بعبارة «طويل اليد» (ويحتمل أن ذلك كان لحالة طبيعية؛ أي أن يده كانت طويلة)، وقد ظل «أرتابانوس» مدة سبعة عشر شهرًا الملك الحقيقي لدرجة أنَّ اسمه قد ظهر في بعض التأريخ، ولكن نصره لم يدم طويلًا، وذلك أنه لم يكتف بقتل سيده وابن سيده، بل أراد أن يأتي على حياة الملك الصغير، ولكنه في هذه المرة — على أية حال — قضى على نفسه هو، وقد كان المنتقم يُدعَى «باجاتوخاشا» (= مجابيزوس Megabyzus)، الذي كان مقدرًا له أن يمثل الدور الرئيسي في حياة «أرتكزركزس» الطويلة.

ثورة هيستاسبس ٤٦٢ق.م

لم تكن بلادُ الفُرس في حالة تفكُّك على الرغم من هذه الاضطرابات المحلية، وعندما قام «هيستاسبس» أحد إخوة الملك الكبار بثورة في بلاد «بكتريا» النائية؛ فإن الجيش الملكي هاجمه، وكان على رأسه «أرتكزركزس» نفسه وهزمه في واقعتين حوالي ٤٦٢ق.م، وقد نتج عن هاتين الهزيمتين أن قُضي على قضيته؛ لأنه لم يُسمع عنه أي شيء بعد ذلك.

الثورة في «مصر» ٤٦٠–٤٥٤ق.م

بعد انتهاء الثورة الأولى التي قامت في عهد الفُرس لم يحرم الأمراء المحليون من سلطانهم، وعلى ذلك فإنه لما قامت بلاد «لوبيا» بثورة بقيادة «أناروس Inaros» بن «بسامتيكوس Psammetichus» كان في استطاعته أن يجمع جيشًا قويًّا كما أعلنت الدلتا انحيازَها له، ولكن وادي النيل الذي كانتْ فيه الحاميةُ الفارسيةُ تقبضُ على المواقع الهامة لم يقم بفتنة، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه كان في إمكان «أخمينيس» ولي العهد أن يسحق الثورة لولا أن الأثينيين أتوا لنجدة المصريين، وكانت «أثينا» في هذا العهد في قمة مجدها وعظمتها، ولدينا وثيقةٌ شهيرةٌ لا تزال باقيةً في صور أثر يوناني أقيم لمواطني قبيلةٍ من المدينة يحمل ١٦٨ اسمًا من أسماء الأبطال الأثينيين الذين سقطوا كلهم في ميدان الشرف عام ٤٥٩ق.م (وهو العام الذي أبحر فيه الأسطولُ إلى مصر) في «قبرص» و«مصر» و«فنيقيا» و«هاليس» (الواقعة في شبه جزيرة «أرجيف Argive»)، و«آجينا Aegina» و«مجارا Megara»، يضاف إلى ذلك موقعةٌ بحريةٌ أُخرى وقعت في نفس السنة، وتدعى «ككريفالا Kekryphalea»، والواقع أن مثل هذا السجل ليس له مثيلٌ إلا القليل في تواريخ أية دولة.

فقد أُرسل أسطولٌ مؤلفٌ من مائتي سفينة إلى «مصر» يحمل قوةً جبارةً للحرب برًّا وبحرًا، وقد قابلت قوة الحلفاء الجيش الفارسي عند مدينة «بابريميس Papr» الواقعةُ في الدلتا، وقد أسفرت الحربُ عن قتل «أخمينيس» وإبادة جيشه، وفي هذه الآونة تَقَابَلَ جزءٌ من الأُسطول الأثيني صدفةً مع الأُسطول الفنيقي، وأسفرت الموقعةُ عن خسارة الأخير خمسين سفينة، غرق بعضها واستُولي على بعضها الآخر، وعلى ذلك فإن الآثينيين الذين فرحوا بهذا النصر هاجموا «منف» واستولوا عليها بسرعة، غير أن المصريين كانوا لا يزالون مرابطين في قلعتها المعروفة باسم «الجدار الأبيض» وقاوموا المهاجمين من الفرس الذين اضطروا — في آخر الأمر — إلى نصب حصار منظم عليها.

وفي العام التالي؛ أي ٤٥٦ق.م ظهر أسطولٌ فارسيٌّ يبلغُ عددُهُ ٣٠٠٠٠٠ مقاتل يعاضدُهُ أسطولٌ فنيقيٌّ مؤلفٌ من ثلاثمائة سفينة في ميدان القتال بقيادة «مجابيزوس»، وفي تلك الأثناء رفع الحلفاءُ حصارَ «الجدار الأبيض» وقابلوا العدوَّ في العراء، فهزم الجيش المصري وجرح في خلال ذلك «أناروس» وقبض عليه، وعندئذٍ تقهقرت القوةُ الإغريقية إلى الجزيرة المجاورة لبلدة «بروسوبيس Prosopis» وقاومت كل الهجمات لمدة عام ونصف عام بعد بداية عام ٤٥٥ق.م.

وفي تلك الأثناء كان الجيشُ الفارسيُّ يحاولُ تحويل فرع من فروع النيل عن مجراه، وفي يوم من الأيام سار الأُسطولُ بهذه الخدعة على اليابسة، فحرق بأيدي الإغريق اليائسين، وقد مات معظمُهُم في القتال الذي نشب بعد ذلك، أما ما بقي منهم وعددُهُم حوالي ستة آلاف مقاتل؛ فقد سلموا بشروط مشرفة وأخذوا إلى «سوسا» انتظارًا لتصديق الملك العظيم على الاتفاقية التي أُبرمت بشروط التسليم، أما الفنيقيون فإنهم قد انتقموا لأنفسهم لِمَا أصابهم من هزائمَ من قبل، وذلك بإغراق نصف نجدة من السفن الإغريقية تحتوي على خمسين وحدة كانت قد دخلت في مَصَبِّ أحد فروع النيل، وقد كان مِن جراء هزيمة الإغريق أن انتهى العصيانُ، غير أن حرب العصابات قد استمرت بنجاح بجماعة من المواطنين احتمَوا في مناقع الدلتا، وهناك أعلنوا أحد رجال أسرة «أماسيس» ويُدعَى «أميرتايوس Amyrtaeus» ملكًا على «مصر»، وإذا نظرنا إلى هذه الحملة من الوجهة الحربية فإنها تُبين لنا أنه حتى الأعداد الكبيرة من الجُنُود الإغريق كان لا يُمكنُها — حتمًا — أن تقهر الجيوش الفارسية، ومِن ثم فإنه من المحتمل لو كان «أرتكزركزس» رجلًا على خُلُق عظيم لأصبحت المستعمراتُ الإغريقيةُ التي في «آسيا الصغرى» رعايا للفرس، وكان من الممكن تهديدُ استقلال «هيلاس» بصورة جدية.

صلح «جالياس» حوالي ٤٤٩ق.م

لقد كان مِن نتائجِ الضربة العنيفة التي كالها الفرسُ للإغريق في «مصر» أنْ جاء على أعقابها، سعيُ الفُرسِ لاسترداد جزيرة «قبرص»، وقد هَبَّ الأثينيون للدفاع عن هذه الجزيرة فأرسلت «أسبرتا» «كيمون» القائد الأعلى للحلف الهيلاني على رأس أُسطولٍ قوامُهُ مائتي سفينة لغزو «قبرص»؛ غير أن هذا القائد القديرَ قد مات قبل أن ينال أي نجاح حاسم، وقد اضطرَّ الأُسطول بسبب قلة المؤن أن يتخلى عن حصار «كيتون Kition» في «قبرص»، ولكن عندما كان مارًّا بـ «سلامس» في نفس الجزيرة تَقَابَلَ مع أُسطول فنيقي قوامُهُ ثلاثمائة سفينة كانت تُنزل جنودًا إلى البر.

وفي هذه المرة — كما حدث في مرتين سابقتين — هزم الإغريق هذا الأُسطول الفنيقي، وفضلًا عن ذلك نالوا نصرًا على القوات البرية هناك، وقد أفاد الأثينيون من هذا النصر العظيم لعملِ صلحٍ مع الملك العظيم، وقد ذهب «جالياس» وهو سياسي عظيم إلى «سوسا» وأمضى معه الملك العظيم اتفاقًا اعترف فيه باستقلال كل البلاد الإغريقية التي يتألف

منها أعضاءُ حلف «ديلوس»، وفي الوقت نفسه اتفق ألا تدخل سفنٌ حربيةٌ المياهَ الهيلانية باستثناء السفن التجارية وحسب، وقد تعهد الإغريق — من جانبهم — أن يَتَنَحَّوْا عن كل أفكار تَرْمِي إلى تحرير ما تَبَقَّى من نِير الحكم الفارسي، وقد كان أشد شيء على نفوسهم سلموا فيه هو نزولُهُم عن جزيرة «قبرص».

ويقول المؤرخ «هولم» (راجع: Holm. II, p. 167): إنه لم تكن هناك معاهدةٌ في هذا الموضوع، ويظهر فعلًا أنه لم تكن هناك معاهدة رسمية، (ولكن يظهر أن الملك العظيم قد ختم أمرًا يحتوي على هذه الشروط وبذلك حفظ سمعته)، وقد أظهر الإغريقُ حزمًا زائدًا بالتصديق على هذه المعاهدة، وذلك أنهم كانوا يعرضون أنفسهم لأكبر خطر بتبديدِ شمل سكان «أتيكا» القليلة السكان، وهي التي كان يتطلب منها جنودًا باستمرار للمحافظة على قوة «أثينا» في داخل البلاد، يضاف إلى ذلك أن «قبرص» كانت بعيدة جدًّا عن «أتيكا» وقريبة جدًّا من «فنيقيا» إذا أريد استمرار الحرب في الأخيرة، ولذلك لم يجدوا لبقائها في أيديهم نفعًا كبيرًا، ويرجع الفضلُ في ذلك إلى هذا الصلح، فقد أصبحتْ به «أثينا» لا تخشى أيَّ هُجُوم من الفُرس إلى أن ذهب الخوفُ من هذه الإمبراطورية العاتية نهائيًّا بزوالها.

ثورة «مجابيزوس»

إن المطلع على مجال حياة «مجابيزوس» يُحس منه أنه يلقي ضوءًا عظيمًا على حالة بلاد الفرس في عهد ملك من أضعف ملوكها، فهو الذي منح شروطًا شريفة للبقية الباقية من جنود الإغريق في «مصر» عندما وضعوا سلاحَهم، كما وعد بإنقاذ حياة «أناروس» ملك «مصر» المهزوم، وقد كان لا بد من محاسبة الملكة «أمستريس» على أيَّةِ حال، وبعد خمسة أعوام قضيت في نضال وإلحاح من جانبها قُضي على «أناروس» بوضعه على خازوق وانتقامًا لقتل «أخمينيس». هذا بالإضافة إلى قطع رقاب حوالي خمسين إغريقيًا؛ إرضاء لشهوة هذه المرأة الآثمة الحقودة، وقد كان ذلك عملًا عدائيًّا في عيني «مجابيزوس» مما دعاه للقيام بثورة هزم في خلالها جيشين على التوالي كانا قد أُرسلا لمحاربته وإخماد الثورة التي قام بها، وبعد ذلك عفا عنه الملك وعاد إلى البلاط الفارسي.

وقد دعاهُ الملكُ للاشتراك في طراد أسود فجاء في أثناء ذلك بين الملك وفريسته، ومن أجل هذا الجرم العظيم حُكم عليه بالموت، غير أن حكم الإعدام قد عُدل إلى حكم بالنفي إلى شواطئ الخليج الفارسي، وبعد أن أمضى خمسة أعوام في هذا الجزء القحل

من الإمبراطورية ادعى أنه مريض بالبرص، ومن ثم عاد إلى «فارس» فلم يعمل أحد على منعه من ذلك، وأخيرًا عفا عنه الملك العظيم وعاش إلى عمر أخضر شائخ بوصفه ناصحه الأمين.

عصر اضطرابات ٤٢٥ق.م

عاش «أرتكزركزس» — على الرغم من ضعفه الخلقي، وعدم كفايته، وتأثير أمه السيئ عليه — يحكم البلاد عدة سنين دون أن يحدث أي تصدع خطير يهدد السلام في بلاده، حقًّا كان الأثينيون في تلك الفترة في حرب على «أسبرتا» للمحافظة على كيانهم كحكومة مستقلة، وقد عاقهم ذلك عن السعيِ إلى القيام بأية مُخاطرة خارج حدود بلادهم، ولَمَّا مات «أرتكزركزس» عام ٤٢٥ق.م خلفه ابنه «أكزركزس الثاني» الذي لم يلبث أن قُتل وهو ثمل بيد أخيه «سوغديانوس Soghdianos» وهذا الأمير الأخير انقض عليه «أوكوس» — أحد أبناء «أرتكزركزس» — زوج «باريساتيس Parysatis» ابنة «أرتكزركزس»، وقد تجمع حول لوائه أشرافُ الفُرس في حين أن «سوغديانوس» الذي عرض عليه أن يشترك معه في حُكم البلاد قد قُبض عليه خيانة، وحكم عليه بالموت على الطريقة الفارسية، وذلك بالإلقاء به في النار.

عهد «دارا نوتوس» (٤٢٤–٤٠٤ق.م)

بعد أن خلع «أوكوس» أخاه تولى هو عرش الملك باسم «دارا الثاني» (وكلمة «نوتوس Nothus» تعني أنه ابن سفاح)، ولما كانت «باريساتيس» وثلاثة من الخصيان هم نصحاءه الرئيسيين، فلا نعجب إذا كانت مدة حكمه سلسلة متصلة الحلقات من الثورات، وقد كان أول من قام بثورة من هذه الثورات هو أخوه «أرستيس Aristes» الذي انضم إلى «أرتيفيوس Artyphius» أحد أولاد «مجابيزوس»، وقد انتصر في موقعتين بمساعدة الجُنُود الإغريق المرتزقين، غير أنَّ ملك الفرس العظيم أفسد الإغريق بالذهب الذي أصبح من الآن فصاعدًا أعظمَ سلاح فَتَّاك في يد الفُرس، وقد سلم العصاة بغباء عندما وعدوا بحُسْن المعاملة.

غيرَ أنَّ الوفاءَ بالمواثيقِ عندَ الفُرس لم يكن أمرًا مرعيًّا، وعلى ذلك فإن الثائرين ألقيا كذلك في النار كما حدث في أمر «سوغايانوس». هذا، ونجد أن ثائرًا آخر يُدعَى «بيسوتنيس Pissuethnes» شطربة «ليديا» قد هجره جنودُهُ المرتزقة من الإغريق؛ إذ لم يكن في مقدورهم مقاومةُ إغراء ذهب الملك «دارا»، ولما أُجبر على الاستسلام نال نفس المصير الأليم الذي ناله من سبقه من الثوار، ويرجع الفضل في ذلك إلى حيل وأخاديع «تيسافرنس Tissaphernes» فإنه قبض عليه وعين مكانة شطربة على «ليديا»، وقد استعمل ذكاءه عدة سنين للدس بنجاح لدرجة أنه أصبح ذا نفوذ عظيم في السياسات الإغريقية، وقد كان كذلك «فارنابازوس» شطربة «داسكليون Daskyleion» حاكمًا فارسيًّا على جانب عظيم من المهارة في هذا العهد.

«تيسافرنس» والمحالفة مع «أسبرتا» ٤١٢ق.م

كانت حملة الأثينيين في تلك الفترة على «صقلية» قد انتهت بالخيبة التامة كما انتهت حملة القرطاجنيين في زمن حملتي «سلامس» و«بلاتا» بالخذلان، وقد انتهز «تيسافرنس» الماكر الموقف الجديد ووقَّع اتفاقية مع «أسبرتا»، وبمقتضى شروطها أعلن البلدان الحرب على «أثينا»، ومِنْ ثَمَّ نرى أنَّ النظام القديم الذي كان بمقتضاه أن تضع الحكومتان الرئيسيتان انقساماتهما المحلية جانبًا وتَتَّحِدَان على مقاومة الفرس؛ قد انهار وحل محله الاتفاق الجديد، وهكذا نرى «أسبرتا» ومن بعدها «أثينا» وفيما بعد «طيبة» تعقد كل منها اتفاقًا مع الفرس للانقضاض على الدويلات الإغريقية الناهضة بعضها بعضًا في «هيلاس».

وقد لعب «تيسافرنس» دوره في هذه الفترة بمهارة فائقة، وذلك بألَّا يساعد أي حكومة من هذه الحكومات لتهزم عدوتها هزيمة منكرة، وبذلك يقلب ميزان القوى، وبذلك أبقى على النُّفوذ والمصالح الفارسية حتى جعلها تمتد إلى «آسيا الصغرى» دون الالتجاء إلى مجهودات حربية كبيرة أو مصاريف باهظة، ولما كان الجيشُ قد انحطتْ أخلاقُهُ على غرار أخلاق مليكهم، وبما كان يتمتع به من ثراء جَمٍّ، فإنه كان لزامًا على الملك العظيم أن يُقَوِّيَ هذا الجيش بجنودٍ مرتزقين أتى بهم بأعدادٍ كبيرة، وكان رؤساؤهم يشغلون أكبر مراكز في القيادة برًّا وبحرًا، وقد كان لهذا الموقف الجديد في الجيش نتائجُ سيئة.

قصة «تريتوخميس Terituchmes»

يتمثل الانحطاطُ الكليُّ الذي حدث في البلاط الفارسي، واختفاء ما كان عليه من مُثُل عُليا في عهد كُلٍّ من «كورش» و«دارا» الأول ما شُوهِدَ في عهد حكم الملك «دارا الثاني» في قصة «تريتوخميس»، فقد كان هذا المخلوقُ الحقيرُ ربيب الملك العظيم، ولكنه وقع في حب أُخته من أُمه «روكسانا» وقام بمؤامرة على زوج أمه لأجل أن يتخلص من زوجه «أمستريس Amestris»، وقد عقد كُلُّ المتآمرين الأيمانَ على أن يَغْمِسُوا سيوفهم في حقيبة كانت ستُوضع فيها سيئة الطالع «أمستريس» بعد موتها، وذلك لأجل أن يؤكدوا أنه لا وسيلة إلى التراجع عن عزمهم، غير أن المؤامرة أُخفقت وقُتل «تريتوخميس»، وقد منحت هذه

الثورة «باريساتيس» ابنة أكزركزس يدًا طليقة في ارتكاب أعمال القسوة والغلظة، وقد بدأت بتمزيق «روكسانا» إربًا إربًا ثم ثَنَّتْ بكل أقارب الثأر، بما في ذلك والدتُهُ وأختُهُ، فقد دُفِنَتا أحياء.

وهكذا كان البلاط الفارسي في عهد ذلك الملك الفاسق الذي بلغ من الانحطاط أسفله.

سقوط الإمبراطورية الفارسية

قال المؤرخ «اكزنوفون» عندما تحدث عن «كورش» الأصغر: إنه الرجل الذي عاش من بين كل الفرس بعد «كورش» القديم، فكان أعظمهم جلالًا وأخفهم بالقيادة كما يعترف بذلك كُلُّ أولئك الذين كان لهم الحظُّ أن يحكموا عليه.

والواقعُ أنه لم تكن هناك حملةٌ في «آسيا» قد استرعت الأنظارَ أكثر من الحملة التي قام بها «كورش» الأصغر، ويرجع السببُ الرئيسيُّ في ذلك إلى الأعمال الشهيرة التي قام بها الجيشُ الإغريقيُّ الذي كان يعمل تحت إمرته وعبقرية اكزنوفون، يضاف إلى ذلك ما يشعر به الإنسان من ميل تُوحِي به طبيعتُهُ نحو الرجل المخاطر الذي تتفجر منه الحيويةُ والنشاطُ، وهي الصفاتُ التي تتنافى بصورة بارزة مع طبيعة ملوك الفُرس العجزة، الخائري القوى.

كان «كورش» الأصغر ثاني أولاد الملك «دارا» الثاني، وكان أخوه الأكبر يُدعَى «أرساسس Arsaces» وهو الذي تولى الملك باسم «أرتكزركزس الثاني» ولكن في حين أن «أرساسس» كان قد وُلد وأبوه شطربة «هركانيا» فإن «كورش» قد وُلد وأبوه ملك على الفرس، وقد كان كذلك أَحَبَّ وَلَدٍ لدى أُمِّه الفظيعة، وبنفوذها نصب ولي عهد على «آسيا الصغرى» بسلطات كادت تجعله مستقلًّا في قطره، وقد كان متأكدًا أنه في خلال تغيُّبه عن البلاط الملكي كانت والدتُهُ تعمل لمنفعته.

علاقة «كورش الأصغر» بحكومة «أسبرتا»

وقد عزم «كورش» — من أول الأمر — أن يُوَطِّد مركزه؛ ولذلك فإنه لما فطن إلى ما للجنود الإغريق من تفوق في القتال؛ عزم على أن يستعمل كل نفوذه الرسمي في جمع جيش عرمرم لمد سلطان بلاده، وبعد أنْ درس الموقف بعناية استنتج أنَّ الحلف الأسبرتي كان أكثر ملاءمة لخدمة أَغْرَاضِهِ أكثر من قوةٍ بحرية مثل قوة «أثينا»، وعلى ذلك حابى الأسبرتيين، وقد كان مِن جراء المساعدة المالية التي منحها القائد «ليسندر» الذي كان صاحب مهارة تفوق المألوف؛ أنْ عاضدتْه على الانتصار في موقعة «أجوسبوتامي Aegospotami» عام ٤٠٥ق.م، ولما رأى «تيسافرنس» أنَّ مركزه قد ضعف وفطن إلى أنَّ «كورش» كان يستعدُّ للقيام بثورة؛ فإنه حذر الملك العظيم بما عساه أن يحدث، وبعد ذلك طلب إلى هذا الأمير الطموح المثول بين يدي والده في «سوسا» لأجل أن يُدافع عما نُسب إليه، غير أنه قد وصل في الوقتِ المناسب عند موت والده في عام ٤٠٤ق.م.

تولي «أرتكزركزس» منمون عرش الملك (٤٠٤ق.م)

وقد تَوَلَّى الملك «أساسبس» على الرغم مما كان للملكة «بايساتيس» من نفوذ، وتسمى باسم «أرتكزركزس الثاني»، وكنى «منمون» أي المفكر؟ وقد توج في «باسارجادا»،[١] ويُقال إن «كورش» قد صَمَّمَ على قَتْل أخيه عند المذبح المقدس أثناء الاحتفال، وقد حذر «تيسافرنس» الملك قَتْل أخيه عند المذبح المقدس أثناء الاحتفال، وقد حذر «تيسافرنس» الملك غضبًا شديدًا وأمر بقتله في الحال، ولكن الملكة الوالدة حَمَتْه بذراعيها، وحصلت في النهاية على العفو عنه، وقد سمح «أرتكزركزس» الغبي كرمًا منه لأخيه الذي أعماه الطمع أن يعود إلى «آسيا الصغرى»، وكما كان المنتظر، لم يلبث أن أَعَدَّ نفسه للحرب طلبًا للعرش، وكان قائدُهُ الإغريقيُّ الذي يُدعَى «كليركوس Clearchus» وهو أسبرتي صاحب أخلاق وتجارب، وفي سرعة خاطفة جَنَّدَ جيشًا جَبَّارًا من الإغريق المرتزقين، هذا إلى أنَّ «كورش» طلب إلى «أسبرتا» المساعدة، وعلى الرغم مِن أنها لم تُسَاعِدْه مساعدة ملموسة ظاهرة فإنها أرسلتْ إليه سبعمائة مقاتل ليكونوا تحت إمرته، وقد بلغ جيش «كورش» في نهاية الأمر ثلاثة عشر ألف مقاتل من الإغريق، ومائة ألف من الآسيويين، وفي عام ٤٠١ق.م زحف ذلك المُخاطر العظيم بجيشه من معسكره ليحارب من أجل السيادة على «آسيا».

[١] راجع: Plutarch's Life of Artaxerxes.

زحف «كورش» على «بابل»

وعندما ترك «كورش» بلده «سرديس» لم يُطْلع أحدًا على الهدف الذي كان يَرْمِي الوصولَ إليه إلا رؤساء مستشاريه؛ فقد أخبرهم أن الغرض من حملته كان إخضاع «بيزيديان Pesidian» فاقتحم بلاد «فريجيا» و«ميزيا Mysia»، وقد قابل في طريقه «أبياكزا Epyaxa» زوج «سنيسيس Syennesis» ملك «سيليسيا» فأعطتْه مبالغ كبيرة من المال، ثم سار بعد ذلك في نصف دائرة قاصدًا البوابات السليسية التي كانت غايةً في الوعورة، ولا يمكنُ اقتحامُها على حسب ما ذكره «اكزنوفون»، إذا أراد إنسان تصدي عبورها، (راجع: Anabasis Translation by Wheeler I, 2, 21)، وعندما وصل إليها وَجَدَ أنَّ قِمَمها قد احتُلت، غير أن الملكة «سنيسيس» ذكرتْ أنَّ جُنُود «منون» قائد «كورش» في «تساليا»، كانوا قد نزلوا في «سبليسيا» فعلًا؛ وذلك لأجل أن يسحب قوتَه أثناء الليل، وعلى ذلك وصل جيش «كورش» إلى «طرسوس» دون أن يقوم بأي قتال، وفي هذه الآونة لاقى «كورش» مصاعبَ جمة من جُنُوده الإغريق.

وقد وصف لنا المؤرخ «اكزنوفون» الذي كان مقدرًا له أن يلعب دورًا هامًّا في هذه الحملة الشهيرة كيف أنهم في بادئ الأمر عصوا الزحف، وقذفوا «كليركوس» بالحجارة، غير أنهم في نهاية الأمر أُغروا بزيادةٍ في الأجر على الزحف، وذلك على الرغم من أن قبولهم هذا قد انتُزع منهم قسرًا، وقد صرح الآن «كورش» أن هدفه هو جيش «أبروكوماس Abrocomas» شطربة «سوريا» الذي كان من المعتقَد أنه سيقفُ في وجه عبوره نهر «الفرات»، وقد سار بسرعةٍ مقتحمًا أبواب «سوريا» التي كانت تُعتبر «ترموفيلا» «آسيا»، مراعيًا أن يكون على اتصال بأُسطوله، كما كان مستعدًّا أن يُنزل جنودًا خلف أية قوة مدافعة، غير أن «أبروكوماس» لم يكن في عزمه مقاومة أخي الملك العظيم الذي بعد أن عبر الأراضي السورية الخصبة وصل إلى «تاباساكوس Thapasacus» الواقعة على نهر «الفرات» وهناك وصل خبر تقهقُر «أبروكوماس» بعد أن حرق كل القوارب التي كانتْ في متناوَله؛ حتى لا يمكن «كورش» من عبور النهر، وقد وجد الإغريقُ أنفسهم عند «تاباساكوس» مضطرين أخيرًا — دون أي أمل في التقهقُر — إلى الدخول في معركة مع الملك العظيم، وقد وقع هناك ثانية انقسامٌ خطير في جيش «كورش» فقد غضب الجنود وهاجوا على قوادهم؛ لأنهم خدعوهم، غير أنهم أغروا ثانية بالمال على مزاولة الحرب، وذلك أنهم بسبب زيادة في الأجور قرروا أن يتحملوا أي خطر، وقد منحهم «كورش» ما طلبوا، والواقع أنه كان رجلًا مغامرًا يُضحي بكل شيء في سبيل انتصاره وتحقيق مطامعه، وقد

كانت أحوال فيضان نهر «الفرات» على غير العادة منخفضة فسهل ذلك عبوره على الغزاة الذين اجتازوه وأسرعوا في سيرهم بسرعة ما يقرب من عشرين ميلًا في اليوم، دون أن يروا أو يسمعوا أي شيء عن العدو، وقد كان غرض «كورش» أن يمنع الملك العظيم من تجميع كل قواه — كما أشار إلى ذلك «اكزنوفون».

موقعة «كونكسا» ٤٠١ق.م

لم يقابل جيش «كورش» عند دخوله مديرية «بابل» إلا بعض الفُرسان، كما أنه لم يجد أي شيء يدل على وُجُود جيش فارس وهو مستمر في سيره نحو الجنوب، وبعد أن تقدم «كورش» بجيشه مصطفًّا للموقعة لمدة ثلاثة أيام؛ اتضح له — على ما يظهر — أن جواسيسه وعيونَه لم يقوموا بواجبهم في تتبُّع أثر العدو؛ ولذلك فإنه وصل إلى النتيجة الطبيعية في تقديره، وهو أن «أرتكزركزس» قد انسحب من «بابل» وتقهقر إلى هِضَاب بلاد الفرس، غير أنه كان قد أخطأ التقدير؛ وذلك أنه في اليوم الرابع مِن تَقَدُّمه كانت جنودُهُ تسيرُ في غير نظام، ظهر في الأُفُق فارسٌ يخبره أن جيش الملك العظيم الجرار سينقض عليه بعد ساعات قليلة، وبفضل هذا التحذير كان في مقدور «كورش» أن يصف جيشه للموقعة، فوضع الفيلق الإغريقي تحت إمرة «كليركوس» على اليمين منتظرًا على نهر «الفرات»، أما «كورش» نفسه فقد اتخذ مركزه في الوسط — سيرًا على العادة الفارسية — وأحاط نفسه بحرس مؤلف من ستمائة فارس مدججين بالأسلحة الثقيلة، وجعل قائده «أرياوس Ariaeus» في الميسرة حيث تجمع الجزء الأعظم من الفرسان.

أما جيش «أرتكزركزس» الهائل العدد الذي كان يتألف — كما قيل — مِن نحو نصف مليون مقاتل؛ فقد تَصَادَمَ بجيشِ «كورش»، وقد كان الأخير يعلم أن كل شيء يتوقف على هزيمة قلب الجيش الذي اتخذ فيه الملكُ العظيم مكانَه، ولذلك فإنه أمر «كليركوس» أن يهجم بالإغريق على قلب جيش العدو، غير أنَّ «كليركوس» لم يفطن للموقف؛ إذ كان يخاف أن يترك جناحيه مكشوفين؛ ولذلك فقد أجاب مراوغًا أن كل عنايته تنحصر في أن كل شيء يكون على ما يُرام، وبقي ملاصقًا لنهر «الفرات» بجيشه، وقد بدأت المعركةُ بانقضاضِ الإغريقِ على العَرَبَات التي كانت تواجهُهُم، وكان ينتظر منها الشيء الكثير، وقد كانت النتيجةُ فوق ما كان منتظرًا؛ فقد وَلَّى سائقو العربات الأدبار، وقَفَا الإغريقُ أثرَهم أكثر من ميلين، أو ثلاثة.

وقد رأى «كورش» تشتيت شمل جناح الفرس الأيسر، غير أنه فطن إلى أن الموقعة لن تكون حاسمة إلا بعد هزيمة قلب جيش العدو، والواقعُ أنه كان قائدًا عظيمًا؛ ولذلك فإنه كبح من غرب اندفاعه الطبعي إلى أن رأى قلب الجيش الفارسي ينهار في مؤخرة الإغريق، وبعد ذلك قام بهجمته الجبارة، يحرسه المؤلف «اكزنوفون» من ستمائة بطل على ستة آلاف من جنود «الكادوسيين Cadusians» الذين كانوا في خدمة الملك العظيم، فقتل بيده قائدَ القوةِ التي أمامه، وقد اشتدت الموقعةُ في العنف عندما أخذ العدوُّ يترنح، وفتحت أمامه الطريق إلى حيث كان يقف «أرتكزركزس». ولما كان مرجل الحقد يغلي في صدر «كورش» وتعطشه للدماء يزدادُ، فإنه صاح عاليًا قائلًا: «إني أرى الرجل.» ورمى بمزراقه فأصاب أخاه إصابة مسددة في الصدر اخترقت زرده، وأوقعته من على ظهر جواده، وعندئذ خُيل إليه أن مُلك «آسيا» والسيطرة عليها قد أصبح مِلك يمينه، وقد كان ذلك في اللحظة التي أُصيب هو فيها على غفلة بمزراق من العدو سَبَّبَ له جرحًا بالقرب من عينه، وفي غمار القتال الذي حدث بعد ذلك خَرَّ هذا البطلُ العظيمُ صريعًا، أما «أرتكزركزس» الذي لم يكن جرحه مميتًا، فإنه عندما سمع بموت أخيه انقضَّ على الجنود الآسيويين، وعندما علم هؤلاء أن «كورش» قد قُتل تقهقروا شمالًا.

أما «تيسافرنس» — الذي كان في أقصى الشمال من الخط الفارسي — فإنه اقتحم بجنوده وسط الفيلق الإغريقي دون أن تصيبه أيةُ خسارة وهاجم معسكرهم، غير أنه صد عنه، وقد عاد القائد «كليركوس» من متابعة العدو، وعندما سمع أن معسكره في خطر، وتفاديًا من هجوم شامل؛ تجمع الإغريق ثانية بظهورهم نحو النهر، وقاموا بهجوم آخر. ونجد هنا ثانية جموع الفرس الرعاديد يرفضون منازلةَ جُنُود الإغريق المرعبين، وعلى ذلك فإن الإغريق بعد أن قفوا أثر أعدائهم الجبناء مدة عادوا إلى معسكرهم يحملون لواء النصر على حسب زعمهم، غير أن الحقيقة كانت قد أسفرتْ عن خُسرانهم المبين، ويرجع ذلك إلى سُوء قيادة «كليركوس»، وقد كانت نتيجة «كونكسا Cunaxa» — وهو الاسم الذي عُرفت به هذه المعركة — هائلةً؛ فقد علم الإغريق الآن أنه أصبح في مقدورهم أن يسوقوا حشدًا من الفرس أمامهم كقطيعٍ من الأغنام، وعلى الرغم مِن أنه لم يفد من تفوقهم الهائل لمدة عدة سنين، فإنه من المؤكد أن «الإسكندر الأكبر» فيما بعد قد أفاد من تجربة موقعة «كونكسا».

ولا نزاع أن موت «كورش» كان كارثة عُظمى على بلاد «فارس»؛ وذلك لأنه كان في إمكانه — بما أُوتي من قدرة عظيمة ونشاط وتجارب منوعة — أن يكون ملكًا عظيمًا مثاليًّا، بل كان في الإمكان أن يعيد الإمبراطورية الفارسية إلى المكانة التي كانت تحتلها في عهد كل من «كورش العظيم» و«دارا الأول». وعلى أية حال كان في قدرته أن يحيي بلاد الفرس من جديد، هذا فضلًا عن أنه بمعرفته بالإغريق ومهارته في جعل حكوماتها تتطاحن الواحدة مع الأخرى كان في إمكانه أن يقضي على استقلال «هيلاس».

تقهقر عشرة الآلاف إغريقي «الخالدين»

ليس في أعمال بني الإنسان الخالدة ما يسترعي إعجابنا أكثر من التقهقر الذي قام به عشرة الآلاف الخالدين، ففي الصباح الذي تلى موقعة «كونكسا» كان الإغريق على أهبة الزحف لشق طريق لهم للحاق برئيسهم «كورش»، ولكنهم عندئذٍ سمعوا بموته وفرار أتباعه من الفرس، فلم يهنوا ولم يخافوا، وأرسل «كليركوس» إلى «ارياوس Ariaeus» القائد الفارسي يعرض عليه تاج البلاد، غير أنه اعتذر عن ذلك بحزم بسبب أن أشراف «فارس» لا يقبلونه ملكًا عليهم.

وقد وصل في آخر النهار نفسه رسلٌ من قِبل «تيسافرنس» قائد «أرتكزركزس» يطلبون إلى الجنود الإغريق أن يُسَلِّمُوا أسلحتَهم، وأن يَقصدوا باب قصر الملك؛ ليحصلوا منه على أي شروط في صالحهم بقدر المستطاع، وقد سبب هذا الطلب صخبًا شديدًا بينهم، ولكنهم بعد أن ناقشوا الموقف ووصل إليهم رفض «ارياوس» وقرروا أن زحفهم لن يكون من الحكمة في شيء.

وقد بدأ تقهقرهم المشهور أثناء الليل فوصلوا ثانية إلى المكان الذي غادروه في اليوم الذي كان قبل المعركة، وهنا انضموا إلى جنود «ارياوس»، وبعد ذلك عقد مجلس حربي أظهر لهم فيه القائدُ الفارسيُّ أنَّ مسألة المؤنة تقف حجر عثرة في سبيل تقهقُرهم على الطريق التي أتوا منها، ونصح لهم باتخاذ طريقٍ أطول نحو الشمال؛ تفاديًا من الأخطار، وأضاف أنه باقتحام مسلكين أو ثلاثة في وسط جُنُود العدو يُمكنُهُم أن ينجوا من جيش الملك العظيم الذي كان جيشه يسير ببطء، وفي الصباح سارتْ قوتُهُم المتجمعةُ شمالًا على حسب الخطة المرسومة، غير أنَّ دهشتهم كانت عظيمة عندما تصادموا مع جيش الملك العظيم.

وقد ارتاع الفرسُ أكثر من الإغريق الذين كانوا في فزع طوال الليل، وفي اليوم التالي بدأت المفاوضات لعقد هدنة على يد «تيسافرنس»، وبعد نقاش طويل اتفق الطرفان على أن يعود الإغريقُ إلى وطنهم دون أية مضايقة، وأخيرًا ساروا في طريقهم، وقد صحبهم جنود «تيسافرنس» و«ارياوس» — وقد اصطلح الأخيرُ مع الملك العظيم في أثناء ذلك — ووصلوا نهر «دجلة» وعبروه على ظهر سبعة وثلاثين قاربًا.

وقد أدى بهم السير بعد أربع مراحل إلى «أوبيس Opis» وموقعُها معروفٌ الآن، وبعد أنْ مَرُّوا بها وصلوا إلى نهر «الذاب الأصفر»، وقد أغرى هنا «تيسافرنس» القائد «كليركوس» وقُوَّادًا آخرين إلى عَقْدِ اجتماع، ولكنه خَانَهُمْ وقبض عليهم، على أن هذه المحنة التي تُعتبر أقسى محنة مرت بجماعة من الناس في مركزهم؛ لم تَفُتَّ في عضد الإغريق الشجعان وتجعلهم يستسلمون كما كان لا بد من حدوثه مع أيَّةِ قوة أُخرى، وفي الحال انتخبوا قائدَ الفيلق الأسبرتي قائدًا عامًّا عليهم، كما انتخبوا «اكزنوفون» أركان حرب له.

وبدأ السير من جديد في وجه الفرس الذين أظهروا لهم العداء صراحة، وقد سار هذا الجيش الصغير مأخوذًا بالمدن القديمة الآشورية، ولكنه على الرغم من الاتفاق الذي حدث بين الطرفين كان يضايقهم من وقت لآخر القائد «تيسافرنس» الذي كانت هجماته على أيَّةِ حال ضعيفة تنقصُها الشجاعةُ الجريئةُ، هذا فضلًا عن أنَّ قُوَّتَه كانت تنسحب مبكرة دائمًا؛ لأجل أن تُعسكر على مسافة من الهيلانيين الذين كان الفرس يخشون بأسَهم.

وفي نهاية الأمر تنصل الفرسُ من القتال، غير أنَّ الصعاب التي كان يلاقيها «الخالدون» في جبال «الكرد» وفي هضاب «أرمينيا» كانت أعظم من التي تَخَلَّصُوا منها من قبل، وقد كانت هجماتُ القبائل المتوحِّشَة عليهم تُصَدُّ باستمرار، وذلك باتباع خطط جبلية جميلة كان رجال الهضاب من الإغريق يحذقونها، كما أنهم كانوا يحصلون على المؤن — بوجه عام — بشيءٍ من الصعوبة، غير أنهم كانوا يواجهون مشاقَّ جسمانية عظيمة، كتحمل سقوط الثلج والبرد الشديد.

ومما يدل على قوة هذا الجيش المعنوية وعلى نفوذ «اكزنوفون» عليهم؛ أن خسارتهم في الأرواح كانت ضئيلة جدًّا، وقد ساروا قدمًا مارين إلى الغرب من بحيرة «وان» وعبر وسط «آسيا الصغرى» إلى أن تَسَلَّقُوا أخيرًا في يوم سعيد ممرًّا رأوْا من خلاله البحر،

ووصلوا إلى «ترابيزوس Trapezus» (ترابيزوند الحالية)، بعد أَنْ أَتَمُّوا عملًا عظيمًا لم يَفُقْهُ من قبل عملٌ آخرُ مماثل.

حالة بلاد «فارس» و«هيلاس» بعد موقعة «كونكسا»

لقد كان نتيجة طبيعية لهزيمة «كورش» أن تنحلَّ عُرَى التحالف بين بلاد الفرس و«أسبرتا» التي كانت تُعَد أقوى بلد في «هيلاس»؛ وذلك بسبب المساعدة التي قدمتها لـ «كورش»، وقد وجدنا أن «أسبرتا» قد أَبَتْ كُلَّ الإباء أَنْ تطلب الصفح مِن مَلِكِ الفُرس العظيم بعد الامتحان الذي اجتازتْه في موقعة «كونكسا»، بل على العكس استعملتْ في آخِرِ الأمر عشرة الآلاف «الخالدين» لحماية هيلاييني «آسيا» من ما لشطربتين «تيسافرنس» و«فرنابازوس» اللذين كانا يناهض الواحد منهما الآخر، فكان كل واحد منهما مستعدًّا ليدفع بسخاء لمساعدة الجنود الإغريق له على مناهضه.

وعلى أيَّةِ حالٍ نجد هنا ثانية أن الذهب الفارسي كان العاملَ الأسمى في كسب الجُنُود الإغريق، وقد أتى وقتٌ كان من المُمكن فيه — على ما يظهر — أن تَنتزع المستعمرات الإغريقية وكذلك كل «آسيا الصغرى» النير الفارسي عن عاتقها، ولكن الذهب الفارسي تغلب على ذلك أيضًا، فمن ذلك أن القائد «أجيسيلاس» الذي كان يقود العمليات الحربية بمهارة عظيمة، وانتصر انتصارًا حاسمًا على «باكتولوس Pactolus» مما أدى إلى قتل «تيسافرنس» الفارسي؛ قد طلب إليه العودة إلى وطنه لمقابلة الحلف الذي كان قد تألف من «طيبة» و«أرجوس» و«كورنثا» و«أثينا» على «أسبرتا»، وكان سبب ذلك الطلب نتيجة لدسيسة فارسية يعاضدها الذهب الفارسي حتى لا تقهر الفرس ثانية.

أما «أثينا» فقد أصبحت بدورها حليفة «فارس»، وقد هزم القائد «كونون Conon» الأسطول الأسبرتي عند «كنيدوس Cnidus» عام ٣٩٤ق.م، وذلك بعد أن كان قد هرب على أثر كارثة «اجوسبوتامي» إلى «قبرص» ودخل الجيش الفارسي تحت قيادة «فارنا بازوس» وهزم الأسطول الأسبرتي عند كنيدس في عام ٣٩٤ق.م، وبهذا النصر أعاد من طريق غير مباشر لـ «أثينا» السيادة على البحر، ومتابعة لهذا النصر خرب أسطول «فارس» بقيادة «فارنابازوس» وقائده الأثيني ساحل «البلوبونيز» وأُعيد بناء جدران «أثينا» الطويلة تحت إشرافه، وذلك بمال الفُرس الذي كان له الكلمة العليا على النفوس، ولا أَدَلَّ على تغيير

الموقف تمامًا من أن «طيبة» التي كانت أولًا عدوة «أثينا» اللدود، قد ساعدت بالاشتراك مع ولايات أُخرى في إقامة هذه الجدران.

صلح «أنتالسيداس Antalicidas» ٣٨٧ق.م

وبهذه الكيفية نُشاهد أن نائب ملك الفرس قد أفلح بسياسته الماهرة التي كانت تنطوي — بوجه خاص — على جعل الولايات الضعيفة من ولايات «هيلاس» تقوم في وجه «أسبرتا»، ومن ثم أعاد توازن القوى في بلاد الإغريق، والواقع أن سلطان بلاد الفرس قد أُعيد معظمُهُ بإظهار ما كان للملك العظيم من قوة بحرية في مياه «البلوبونيز» التي لم تكن قد نفذت إليها من قبل، مما اضطر «أسبرتا» في نهاية الأمر لطلب الصلح، وقد استمرت المفاوضات تجرُّ أذيالها عدة سنين، وقد كان سبب ذلك جزئيًّا — على أية حال — هو لإعلاء مقام ملك الفرس، وأخيرًا بعد أن أمضى السفير الأسبرتي «أنتالسيداس» بعض الوقت في «سوسا» عقد صلحًا، غير أنَّهُ لم يكن بمعاهدة بل بمنشور الملك العظيم أعلن فيه أن كل قارة «آسيا الصغرى» بالإضافة إلى «قبرص» و«كلازومون Clazomone» قد أصبحت تؤلف جزءًا من الإمبراطورية الفارسية، وأن كُلَّ حكومة من حكومات «هيلاس» من التي ليست تحت السيطرة الفارسية، يجب أن تكون ذاتَ سيادة مستقلة عدا «لمنوس Lemnos» و«إمبروس Imbros»، و«اسكيروس Iskyros» فإنها تبقى مع «أثينا».

وهذا الصلح الذي أمضتْه البلادُ الرئيسيةُ من بلاد اليونان كان صالحًا جدًّا لبلاد الفرس؛ وذلك أنه أعاد لها أملاكها التي كانت قد فقدتْها كما منعت أيَّ تَدَخُّل في مستقبل «آسيا الصغرى» من جانب «هيلاس»، وبالاختصار أصبح صلح «كاللياس Callias» لاغيًا، ولا بد أن نفوذ الملك العظيم كان قد ازداد زيادة ضخمة، وأن مسئوليات حماية «آسيا الصغرى» قد انتهت.

والواقع أن هذا المنشور كان مذلًّا لـ «هيلاس»، غير أنه كان لـ «أسبرتا» حسنا؛ وذلك لأنها قد استبقت به كل بلادها، وبذلك كان في مقدورها أن تلعب دورًا رئيسيًّا في «هيلاس» إلى أنْ أصبح كأس استبدادها قد فاض، وبعد ذلك نال كبرياؤها درسًا مذلًّا في موقعة «لوكترا Leuctra» سنة ٣٧١ق.م على يد «إبامينونداس Epaminondas» صاحب «طيبة».

الحملات على «مصر»

لقد كان لإضعافِ الحكومة المركزية الفارسية أثرٌ رجعيٌّ على مركز «فارس» في «مصر»، مما دَعَى إلى قيام ثورةٍ فيها انتهتْ باستقلالها عن الحُكم الفارسي، وقد تحدثنا عن ذلك في غير هذا المكان عند التحدُّث عن مُلُوك الأسرة الثامنة والعشرين وما بعدها.

الحملة على الكادوسيين

وفي خلال هذا العهد قام الكادوسيون بثورة، فقام الملكُ «أرتكزركزس» بنفسه لتأديبهم بجيشه الضخم المُفَكَّك، وأهل هذه القبيلة كانوا يقطنون مديرية «جيلان» الحالية، بالقُرب من بحر «الخزر»، وكان الوصولُ إليها يكادُ يكونُ ضربًا من المستحيل؛ بسبب ما تحتويه من غابات كثيفة، وجبال وعرة، وأنهار متعددة. وقد قصر الكادسيون حروبهم على المناوشات، وكان من جراء ذلك أنْ قطعوا وُصُول المُؤَن إلى جيش الفُرس، ووضعوهم في مواقفَ حرجة، غيرَ أنه في نهاية الأمر قد وقع خلافٌ بين رئيسيها، ومن ثم تم الاتفاق على الصلح، وقد عاد الجيشُ الفارسيُّ إلى الهضبة الإيرانية سالمًا، ولكن دون أن يحرز أي نصر.

الأيام الأخيرة من حكم «أرتكزركزس»

على الرغم من خيبة الحملة على «مصر» وفشلها فشلًا ذريعًا؛ فإنَّ الإغريق الذين قد أعمتْهم الغيرةُ أرسلوا «أنتالسيداس» الأسبرتي إلى «سوسا» في عام ٣٧٢ق.م؛ ليحصلوا على مرسوم جديد، يكون مضمونُهُ نهايةً للمُخَاصمات القائمة في «هيلاس»، وفي عام ٣٦٧ق.م وصل إلى بلاط الملك العظيم مبعوثون من «طيبة»، وفي السنة التالية وصل آخرون من «أثينا»؛ وذلك لأنه على الرغم من ضعفه الحقيقيِّ فإنه كان معترفًا به عمومًا بوصفه المحكِّم في المخاصمات التي تقوم بين حكومات الإغريق، وهكذا وصلت «هيلاس» إلى هذا الحد من الانحطاط في تلك الفترة.

ومن العجيب أن تقدير مكانة «أرتكزركزس» في بلاده فِي آخِرِ أيام حياته إذا ما قُرن بتقديره في نُفُوس الإغريق؛ كانت على النقيض، فقد ثار واحدٌ مِن شطاربته، ثم تبعه آخرُ بثورة أُخرى، وذلك بسبب غضب ملكي أو من أجل مطامعَ شخصية، وقد انتهز «تاخوس» ملك «مصر» قيام ثورة في «سوريا» وغزاها، ولكن حدث في أثناء غيابه أن قامت

ثورة في «مصر» بمعاضدة القائد «أجيسيلاس» المسن وهو الذي ظهر بأَحَطِّ مظاهره في «مصر»، وقد اضطر «تاخوس» إلى الهرب قاصدًا «سوسا»، وقد قامت اضطراباتٌ في «مصر» شَلَّتْ من نشاطها لمدة سنين، كما فَصَّلْنَا ذلك في غير هذا المكان.

وقد حدث في وقت أن الإمبراطورية الفارسية كادت تتمزق، غير أن الرشوة، والخيانة وحُسْن الحظ الذي جعل أعداء «أرتكزركزس» يحاربون بعضهم بعضًا؛ قد نَجَّى بلاد الفرس من موقفها الحرج.

وقد مات «أرتكزركزس» بعد أن عمر طويلًا في عام ٣٥٩ق.م، وكان قد حكم ٤٦ سنة، وتدلُّ شواهدُ الأحوال على أنه كان ملكًا لَيِّنَ العريكة كريمًا إلى أقصى غاية الجود، كما كان على استعداد دائمًا للعفو عن أعدائه، غير أنه كان واقعًا تمامًا تحت سلطان زوجه «باريساتيس Parysatis» التي كانت تسيطر عليه حتى بعد أن سمت زوجه «ستاتيرا Statira» التي كانت تربط بينها وبينه أواصر الحب، ولقد كان من جراء نصيحتها الآثمة أن ابنها الخائر القوى قد تزوج من أخته «أتوسا»، وقد حدث من جراء ذلك مصائبُ في المستقبل، وبقي علينا أنْ نُضيف إلى ما سبق أن «أرتكزركزس» قد أقام تماثيلَ لآلهة الخصب المسماة «أناهيتا Anahita» وبذلك أحدث تطوُّرًا محسًّا في ديانة الفُرس القومية؛ إذ بذلك أدخل فكرة عبادة آلهة الطبيعة، وهذه الفكرةُ سامية بابلية، وأَهَمُّ من ذلك أن هذا الملك أحيا عبادة الإلهة «مترا Mithra».

تولي الملك «أرتكزركزس» الثالث الحكم (٣٥٨ق.م)

كان المعتقَد أن الملك المسن «أرتكزركزس» الثاني له أكثر من مائة ابن من حظياته اللاتي كن تعد بالمئات، غير أن معظمهم كان قد مات في حياة والدهم، ولم يكن يعتبر من بينهم أبناء شرعيون إلا ثلاثة من زوجه الإغريقية «ستاتيرا» وهؤلاء هم «دارا» و«ارياسبس» و«أوكوس»، وهم الذين كانوا مرشحين لتولي عرش المُلك، وقد نصب «دارا» وليًّا للعهد منذ بضعة سنين قبل موت والده، غير أنَّ «أوكوس» الذي كان ماهرًا في الدس وجديرًا بأن يكون من نسل «باريساتيس» كان قد أغراه على السعي لقتل الملك المسن الذي ادعى «أوكوس» أنه قد عزم أن يتخطى «دارا» في تَوَلِّي الملك، وقد وقع «دارا» في الشرك وخاب في مسعاه وحُكم عليه بالإعدام، وقد أخاف «أوكوس» كذلك أخاه «ارياسبس» بأنه سيُحكم عليه كذلك بالإعدام لاشتراكه في المؤامرة، وعلى ذلك انتحر هذا الأميرُ التَّعِس خوفًا من العار.

وبهذه الأعمال التي انطوتْ على الخيانة والغَدر؛ قد أصبح وليًّا للعهد بمساعدة «أتوسا» التي وعدها بالزواج، وعلى أثر موت الملك الذي كان قد عجل موتَه تلك المآسي الأسرية؛ تولى «أوكوس» عرش الملك باسم «أرتكزركزس» الثالث، وقد افتتح حكمه بقتل كل الأمراء الذين مِن دَمٍ ملكيٍّ، ويُقال إنه قضى كذلك على الأميرات.

الاستيلاء على «صيدا» وإعادة فتح «مصر» ٣٤٢ق.م

لم يكن عرشُ الملك الجديد — بأية حال من الأحوال — ثابتَ الأركان بعيدًا عن المخاطر؛ إذ الواقعُ أن خيبة والده فِي فتح «مصر» قد حولت هذه الأخيرة إلى دولة معادية للفُرس، كما كانت مركزًا للمؤامرات على قلب كيان «فارس» كما بيَّنَّا ذلك من قبل، ولقد كان من الواضح للملك «أوكوس» أنه لن يأمل في إخماد الثورات التي قامت في أنحاء متفرقة من إمبراطوريته إلا إذا فتح «مصر» كرة أخرى، وقد ذكرنا أن جيش الملك «نقطانب الأول» قد أنزل هزيمةً ساحقةً بالجيش الفارسي وجعله يفر من أمامه بسرعة هائلة، وفي الحق لم تكن «مصر» — في أي عصر من عصور تاريخها — محصنة أكثر من هذه اللحظة. يُضاف إلى ذلك أن القوة المعنوية لجنودها الوطنيين كانت عالية إلى حد بعيد، وقد كان من نتيجة هذا النصر المصري على الفرس أنْ قامت ثوراتٌ في «سوريا» و«آسيا الصغرى» و«قبرص»، بل وفي «فنيقيا» كذلك نجد أن الملك «تنيس» ملك «صيدا» حرق القصر الملكي الذي على جبال «لبنان» كما حرقت المؤن التي جمعتْ هناك لمد الحملة على «مصر»، وقد كان القائدُ اليونانيُّ للملك «أوكوس» قد انتصر في «قبرص»، ولكن نجد في «آسيا الصغرى» أن شطربة «فريجيا» الثائر قد صمد في وجه الجيش الفارسي بمعاضدة «أثينا» و«طيبة»، وكذلك نال «تنيس» ملك «صيدا» نصرًا في «سوريا» بمعاضدة «نقطانب الثاني» الذي أَمَدَّهُ بأربعةِ آلافِ محاربٍ من الجُنُود الإغريق المرتزقين.

ولم يكن «أوكوس» بالملك الضعيف مثل والده؛ إذ قد جَنَّدَ جيشًا جبارًا آخر وسار به بنفسه على «صيدا» التي كانت محمية بجدران عالية وثلاثة صفوف من الخنادق، ولكن لَمَّا أراد «تنيس» أن ينجي نفسه خان رؤساء المدينة، وأوقعهم في يد ملك الفرس، كما أن الجُنُود الإغريق الذين أُرسلوا من «مصر» قد أُغروا بالدينار الفارسي، وعندئذٍ لم يعد الصيديون يُفكرون في أيَّة محاولة للدفاع عن بلدهم، وقد ذُبح ممثلوهم الذين بلغ عددهم خمسمائة بأمر هذا الملك المتعطش للدماء، أما باقي أهل المدينة فقد عزموا أن يعملوا من أنفسهم ومن أسرهم ومنازلهم وقودًا تأكله النار، وقد نفذوا مقصدهم المخيف، وعندما دخل «أوكوس» المدينة لم يجد إلا كومة من الخرائب، وقد باع هذا الخرائب بمبلغٍ عظيم من المال للباحثين عن الكُنُوز، أما «تنيس» الخائن فقد حُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه بمجرد الاستيلاء على «صيدا»، وقد سلمت المدن الفنيقية الأُخرى نتيجة لذلك، لم يتأخر الجيشُ الفارسيُّ في «صيدا» إلا زمنًا قليلًا، ثم عاود السير في طريقه جنوبًا على الطريقِ القديمةِ المؤدية إلى «مصر»، وتم له فتحُها — كما شرحنا ذلك من قبل.

قتل «أرتكزركزس» ٣٣٨ق.م

كان من أثر فتح «مصر» أنْ هدأت الأحوالُ في الجُزء الغربي من الإمبراطورية الفارسية، فقد هرب «أرتابازوس» الذي أعلن الثورةَ لمدة عدة سنين إلى «مقدونيا»، يُضاف إلى ذلك أنَّ مُلُوكًا آخرين أسرعوا بتقديم خضوعهم للفرس، أما الولايات الإغريقيةُ المناهضةُ بعضها بعضًا، فقد أخذت تملق الملك العظيم وأسرعتْ في تنفيذ أوامره متعطشة للأصفر الرَّنَّان الفارسي، ومع كل ذلك فإن حالة الشطربيات كانت قد تغيرتْ عما كانت عليه أيام «دارا الأول» فنجد أنَّ مديريات «بحر قزوين» التي كاد يكونُ الوصولُ إليها مستحيلًا قد استعادت استقلالها.

أما «البنجاب» فقد نفضت عن نفسها سلطان الفرس، ونجد في أماكنَ أُخرى تراخيًا في القبض على زمام الأمور للمحافظة على كيان الإمبراطورية الشاسعة والإبقاء على وحدتها، يضاف إلى ذلك أن إدارة البلاد كانت في قبضة الخصي «بابواس»، مما جعل نظام الحكومة في تَحَسُّن، غير أنَّ قوة بلاد «مقدونيا» التي كانت آخذة في الظهور قد حتمت النظر إليها بعينٍ حذرةٍ والعمل على الكبح من جماحها، ومما يؤسف له أن سياسة هذا الخصي قد فشلت بالدسائس التي أصبحت خطيرة حتى إنه وجد نفسه في نهاية الأمر مضطرًّا في عام ٣٣٨ق.م أن يقتل سيده الملك عندما وجد أنه لا مفر مِن قتله هو إذا سكت عنه، وكذلك قتل معظم أولاد الملك، ولكنه وضع «أرمسيس» أضعفهم على عرش الملك، وحتى هذا الفتى عندما ظهرتْ منه بادرةٌ على أنه يُريد أنْ يَستقِلَّ بالملك؛ قتله هذا الخصي الذي لا رحمة في قلبه.

تولي «دارا كودومانوس Codomannus» ٣٣٦ق.م

وبعد أن أودى هذا الخصي بحياة «أرمسيس» انتخب فردًّا يُدعَى «كودومانوس» وكان مغمور الذكر، ولكن من المحتمل أنه كان من فرع من نسل الأخمنيسيين، وقد تولى عرش الملك باسم «دارا الثالث»، ولما كان يُعدُّ آخِرَ فرد مِن أُسرة عظيمة؛ فإنه جلب إليه بذلك بعضَ العطف من الأهلين، وكان قد نال شهرة بما أبداه من شجاعة في الحملة على الكادوسيين، وذلك بقتله أَحَدَ جبابرة رجال هذه القبيلة في مبارزة واحدة، وبعد ذلك عين شطربة على بلاد «أرمينيا» مكافأة له.

وتدل أخلاقُهُ على أنه كان أكثر كرمًا وأقل رذيلة ممن سبقوه على عرش الملك مباشرة، ولذلك فإنه لو كانت أحوالُ عهد توليه الملك عادية لحكم بصدق وإخلاص، ولكن لسوء

حظه ظهرت مملكةٌ جديدةٌ قويةٌ في الغرب، يقودُها أعظمُ جندي ظهر في كل الأزمان، وعلى الرغم مِنْ أنَّ «دارا» كانت تُساندُهُ كل موارد الإمبراطورية الفارسية؛ فإنه ارتعدت فرائصُهُ وسقط أمام الهجوم الناري الذي قام به «الإسكندر الأكبر» على كل العالم المتمدين وقتئذٍ بما لم يُعرف مثله في التاريخ القديم.

ملحق

قصة «قناة السويس» من أقدم العهود
حتى نهاية القرن التاسع عشر، استعراضٌ وتحليل

مقدمة

حينما يتحدث المؤرخون والسياسيون المحدثون عن «قناة السويس» تنصرف — في الحال — أذهانُهُم وتتجه أفكارُهُم إلى تلك الفترة الزمنية التي عاش فيها «فردننديلسبس»؛ أي إلى باكورة النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد الميلاد، وكأن آلاف السنين التي سبقت تلك الفترة من تاريخ هذه القناة، وما مَرَّ عليها من أحداث وتقلُّبات صحفية بيضاء؛ لا تجذب نظر الجم الغفير من المثقفين، وأشباه المثقفين.

والواقع أن إنشاء قناة تربط بين البحرين الأبيض والأحمر فكرة قديمة ترجع إلى آلاف السنين، وقد احتلت مكانة رفيعة في تاريخ مصر بخاصة وفي تاريخ الشرق القديم بعامة، في وقت كانت فيه أوروبا تعيش في طَيِّ الجهالة ولا يعلم عنها شيء في العالم المتمدين.

تاريخ حفر أول قناة وتَطَوُّرها

ولعل أول تفكير في إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط بقناة متفرعة من نهر النيل، يرجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية حوالي ٢٠٠٠ق.م، ويجوز أن يكون التفكيرُ في ذلك سابقًا لهذا العهد بقليلٍ — كما سنرى — وعلى الرغم من أن الوثائقَ

المصريةَ الأصيلةَ لم تحدثنا عن هذه القناة وإنشائها في هذه الأزمان القديمة؛ إلا أن البحوث الجيولوجية والهندسية، وما كتبه المؤلفون القُدامى من إغريق ورومان نقلًا عن قدماء المصريين يَدُلُّ صراحةً لا على، وكان الغرض منها واحدًا وهو ربط البحرين الأحمر والأبيض بوساطة قناة نيلية تسهيلًا للتجارة.

العثور على آثار قنوات ثلاث

ويدلُّ البحثُ الهندسيُّ حتى الآن على وُجُود آثار ثلاث قنوات، وهي: (١) «قناة ثاروا» تل أبو صيفة الحالية، وتبعد حوالي أربعة كيلومترات من «القنطرة» (الحالية)، ويسميها الأثري «كليدا» «قناة الجفار»، (٢) و«قناة الفراعنة» أو «القناة القديمة»، (٣) وأخيرًا قناة «بطليموس الثاني» «فيلادلف».

إصلاح قناة «بطليموس الثاني» بعد ردمها

وفي العهد الرُّوماني نجد أن الإمبراطور «تراجان» الروماني (٩٨–١١٧ ميلادية) قد شرع في إصلاح قناة «بطليموس فيلادلف» وجعلها صالحة للملاحة، غير أن الذي أَتَمَّ إصلاحَها هو خلفُهُ وربيبُهُ العاهلُ «هدريان»، ولكنها رُدمت بعد ذلك إلى أن جاء العهدُ الإسلاميُّ وأمر «عمر بن الخطاب» بتطهيرها، وبقيتْ مستعملة للملاحة إلى عهد «أبي جعفر المنصور» الذي أمر بسدها عند «السويس» لأسباب سياسية بحتة.

«هارون الرشيد» والتفكير في إنشاء قناة مباشرة بين البحرين، وفضل مُؤَرِّخِي العرب

وقد أراد بعد ذلك «هارون الرشيد» أن يصل البحرين، غير أنَّه أحجم عن التنفيذ لأسباب سياسية، ومنذ عهد «الرشيد» لم يُفكر أحدٌ بصفةٍ جدية في إحياء التجارة بحفر قناة تربط بين البحرين إلى أنْ جاء «فردننديلسبس» وحفر قناة «السويس» الحالية، وقد أخذ فكرتها عن العرب مباشرة، الذين يرجع الفضل إلى مؤرخيهم فيما دونوه من إيضاحات جلية عن فكرة إنشاء قناة تُوصِل مباشرة بين البحرين، ومن ثم نفهم ونرى أن الغرب لم يأت بفكرة جديدة يفخر بها على الشرق في موضوع القناة.

طبيعة الإقليم الذي حُفرت فيه القناة وخصائصه

وسنُحاول هنا أولًا أن نُلقي نظرة خاطفة على الإقليم الذي تقع فيه هذه القناة أو تلك القنوات؛ لنصل من طبيعة تكوينه إلى الأسباب التي حَدَتْ بالمصريين القُدَامَى أَنْ يختاروا لهذه القناة هذا الإقليمَ بالذات، ثم نُوردُ بعد ذلك بعضَ ما كتبه المؤرخون القُدَامى على حسب ترتيبهم الزمني.

وإذا فحصنا مصور برزخ «السويس» والإقليم الذي ينحصر بين البحرين الأبيض والأحمر وصحراء العرب من الوجهة الجغرافية، وكذلك إذا حاولنا أنْ نُحَدِّدَ ماهية هذا الإقليم خلال العصور التاريخية؛ وجدنا أن طبيعة تربته تكشف لنا عن خصائص ومميزات تدفع الإنسان دفعًا إلى إنشاء مواصلات مائية، وذلك بحفر ترعة تخرج من النيل تضم البحيرات والبِرَك المتناثرة في هذه المنطقة، فتربط البحرين الأبيض والأحمر.

وقد دلت البحوث الجيولوجية حديثًا على أن البحر الأحمر والبحر الأبيض كانا متصلين معًا في أَزْمانٍ موغلة في القدم بوساطة النيل، فلا غرابة أن تُعاود هذه الفكرة أذهان الباحثين من وقت لآخر، وها هي تلك الخصائص:

(١) يشاهد في غرب هذا الإقليم النيل بفروعه السبعة الطبيعية القديمة، وقنوات أُخرى من صُنع الإنسان القديم، ويلفت النظر — بوجه خاص — بقايا الفرعين «التنيسي» (نسبة إلى بلدة «تانيس» = «صان الحجر») «والبلوزي» (نسبة إلى بلدة «بلوز» = «الفرما» الحالية) وكذلك بقايا قنوات متفرعة من النيل في إقليم «القاهرة».

(٢) ويشاهد في الشمال الغربي منه «بُحيرة المنزلة» التي كانت تفصلُها عن البحر الأبيض سلسلةُ جُزُر صغيرة.

(٣) كما يُشاهَد كذلك في الشمال من أسفل هذا الإقليم منخفض «بحيرة البلاح» وحوض «البحيرات المرة» والبطاح المتجهة نحو البحيرة المرة الصغرى، ثم مستنقع «السويس» الصاعد نحو الشمال حتى بلدة «الكبرى» القريبة من البحر الأحمر.

ويلفتُ النظرَ أنَّ سلسلةَ المنخفضات السالفة الذكر قد فصل بعضها عن بعض بثلاثة سدود هي:

(أ) سد «الجسر»: وهو أعلاها وأقدمها، ويقع بين بحيرة «البلاح» وبحيرة «التمساح».
(ب) سد «السرابيوم»: ويقع بين بحيرة «التمساح» والبحيرة المرة الكبرى.

(جـ) سد «الشلوفة»: وهو أكثر هذه السدود انخفاضًا، ويقع بين مستنقعات البحيرة المرة الصغرى ومستنقع «السويس».

(٤) ويُشَاهَد بين الجبال المتفرِّعة من جبل «المقطم» «وادي طميلات» الذي يربط نهر النيل بسهل الدلتا ومنخفض بحيرة «التمساح».

وفي استطاعة الباحث في هذا الموضوع بعد درس المتون القديمة التي عُثِرَ عليها في هذا الإقليم أو الخاصة به؛ أن يتصور ما كان عليه الإقليمُ المذكورُ في عهد الدولة المصرية، وبخاصة في عهد «سيتي الأول» ومن بعده ابنه «رعمسيس الثاني»، (حوالي ١٣٠٠ق.م).

فرع النيل البلوزي وصلتُهُ بهذا الإقليم

وقد كان الحَدُّ الغربيُّ لهذا الإقليم فرع النيل البلوزي، وتَدُلُّ شواهدُ الأحوال على أنَّ هذا الفرع من النيل قَدْ بقي صالحًا للملاحة طيلة عهد ملوك البطالمة ومدة حكم أباطرة الرومان، ويحتمل أنه ظَلَّ على هذه الحال خلال القُرُون الأُولى من الفتح العربي، على الرغم مما ذكره المقريزي من أن إقليم بحيرة المنزلة كان مغمورًا بالمياه عام ٥٣٥ ميلادية.

الجهات التي كان يرويها فرع النيل البلوزي

وتدل الأسانيدُ التاريخية على أن مياه فرع النيل البلوزي كانت تغمر جدران مدن «عين شمس» و«تل بسطة» و«تل أدفينا» وحقولها، فكانت إذن مياه هذا الفرع تروي — في الواقع — مقاطعة «عين شمس» (وهي المقاطَعة الخامسة عشرة من مقاطَعات الوجه البحري) ومقاطعة «تانيس» (وهي المقاطعة السادسة عشرة من مقاطعات الوجه البحري، وموقعها الآن حول «صان الحجر» الحالية).

القنوات المتفرعة من الفرع البلوزي

وكان يتفرع من الفرع البلوزي، مِن أعلاه من الشمال الشرقي عند مدينة «أدفينا» القديمة قنواتٌ ذكرها الجغرافيُّ «استرابون» (حوالي عام ٥٨ق.م)، وقد اتضح أنها تغذي سلسلةَ

البحيرات والبِرَك التي تشاهد بقاياها في بحيرة «البلاح» التي كانت تُدْعَى قديمًا بحيرة «ثارو» («تل أبو صيفة» الحالية القريبة من بلدة «القنطرة»).

بحيرة «ثارو» الحد الطبعي للدولة المصرية

وكانت بحيرة «ثارو» تُعَد الحَدَّ الطبعي للملكة المصرية، وتقع بين الفرع البلوزي ومنخفض بحيرة «التمساح»، ويشاهد شمالي هذه البقعة شريطٌ من الأرض الصلبة كان يعد طوارًا يؤدي إلى بلاد آسيا.

وتقع بلدة «ثارو» على الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة «البلاح»، وقد بقيتْ باسم «سيلة» في العهد الروماني.

وهذه البحيراتُ والبرك كانت تمتد حتى سد «الجسر» الذي يعد أَوَّلَ سد أُقيم في مدى الدهور على طول الخليج العربي (أي خليج «السويس») وبطاحه.

ويشاهَد في جنوب هذا السد بحيرة «التمساح» التي كانت منخفضًا عميقًا ممتدًّا تجاه البحيرات المرة بمستنقعات.

هذا، ويوجد كثيب من الرمال والحصباء يقسم هذا المنخفض حوضين، ويؤلف كل من سد «الجسر» وسد «السرابيوم» والكثيب الذي بين حوضي بحيرة «التمساح» طرقًا طبيعية كان لا بد من العناية بها والمحافظة عليها.

معقل مدينة «تكو» «تل المسخوطة»

ومن أجل ذلك نجد أنَّ مدينة «تكو» قد أُقيمتْ في هذه البقعة لتكون معقلًا لحراسة الحدود، وكانتْ تُعَد مركزًا حربيًّا وبحريًّا في الجزء الخلفي من منخفض بحيرة «التمساح»، والواقع أنها كانتْ تُعَد مفتاحَ وادي «طميلات».

مدينة «تاوباستو» («العباسية» الحالية)

وعلى مسافة من معقل مدينة «تكو» تقع مدينة «تاوباستو» التي أُقيم على أنقاضها قرية «العباسية» الحالية وهي مدينة إغريقية أُقيمتْ في العصر اليوناني.

اتصال حوض البحيرات المرة بالبحر الأحمر

وقد دلت البحوثُ الحديثةُ على أنه من المحتمل جدًّا أن حوض البحيرات المرة الحالي، كان لا يزال متصلًا بالبحر الأحمر على الأقل في عهد «رعمسيس الثاني» بقنوات متعرجة ضيقة، غير أنها لم تكن قديرة على حمل سُفُن هذا العهد.

«كم ور» الاسم القديم لحوض البحيرات والمستنقعات المتصلة به

ويؤلف حوض البحيرات المرة الحالي، والمستنقعات المتصلة به شمالًا وجنوبًا، والقنوات الصغيرة التي تربط هذا الحوض بمستنقع «السويس» الحالي؛ ما كان يُطلق عليه قديمًا المصريون القدامى اسم «كم ور» (= الماء الآسن الراكد).

وادي «طميلات»

ومن أهم الخصائص البارزة التي اتَّسَمَ بها هذا الإقليمُ الواقع على الحدود: وجود الوادي الذي يطلق عليه اسم وادي طميلات، وهذا الوادي ينحصرُ بين جبال المحاجر الواقعة جنوبه وشماله وهضبة الصحراء الواقعة بين الفرع البلوزي وبحيرة ثارو (بحيرة البلاح).

ويربط كذلك هذا الوادي بين حقول مدينة «بوبسطة» (الزقازيق الحالية) وبين منخفض بحيرة التمساح ثم ينفرج عند شرقي بلدة صفط الحناء الحالية وهي بلدة سبد حنو القديمة وتقع على مجرى الفرع البلوزي الأسفل، وتدلُّ البحوثُ الأثريةُ والهندسيةُ على أنَّ هذا الوادي كان يؤلف فرعًا قديمًا من فُرُوع النيل يصب ماءه في خليج السويس.

تأثير الطبيعة في إقليم وادي «طميلات»

وقد لُوحظ في خلال القرن التاسع عشر الميلادي، قبل القيام بأي مشروعٍ حديث؛ أنَّ مياه الفيضانات العظيمة التي تحمل إلى البلاد الخصب، كانت تصل إلى بحيرة «التمساح» الحالية. وعلى ذلك نفهم مما سبق أن الطبيعة قد رسمت — بصورة واضحة — لفراعنة «مصر» طريقَ المواصلات التي كان لا بد من اتخاذها والعمل على إنجازها بين النيل والبحر الأحمر؛ لتحمل عليها سلعُ التجارة إلى «مصر» من بلاد «بنت» الواقعة على البحر الأحمر وحول «الصومال» و«اليمن» ومن بلاد «الهند» وغيرها فيما بعد.

سياسة الفراعنة بالنسبة لهذا الإقليم

لم تكن سياسةُ الفراعنة حيال «قناة السويس» تدورُ حول الاقتصاديات وحدها، ولم يكن خليجُ «السويس» عند الفراعنة طريقًا تجارية وحسب، بل إن أهميتَه كانت فوق ذلك، فقد كان يُعَدُّ خطًّ دفاعٍ للملكة المصرية تجب حراسته، ولا أدل على ذلك من أن غزو كل من «قمبيز» ملك الفرس و«الإسكندر الأكبر» المقدوني للبلاد المصرية جاء عن طريق «بلوز» (= الفرما) و«ثارو» (= تل أبو صيفة) و«تكو» (= تل المسخوطة) هذا بالإضافة إلى مراكز حصينة أُخرى مثل المجدل الشمالي الواقع عند «تل الهر» الحالي والمجدل الجنوبي الواقع عند «جنيفة» (في أسفل البحيرة المرة الكبرى)، ويحتمل كذلك أنه كان يوجد حصنٌ آخرُ يحتل موقع «القلزم» (= السويس) ليكون سدًّا منيعًا في وجه الآسيويين، وهذا الحصن كان يُدعَى «جدار الأمير» وكان يُعَدُّ في نظر المصريين خَطَّ دفاعٍ عن الدولة المصرية.

ما ورد في المؤلفات الإغريقية والرومانية عن «قناة السويس»

(١) كانت أول وثيقة صريحة جلية وصلت إلينا من كُتاب الإغريق الأقدمين، عن قناة للملاحة تربط بين البحرين الأحمر والأبيض بوساطة النيل؛ هو المتنُ المشهورُ الذي أورده «هردوت» في كتابه الثاني من تاريخه العام.

(راجع: Herod. II. 158.)

(٢) ما جاء في ملحمة «الأودسي» عن «قناة السويس»

أما ما ورد في ملحمة «الأودسي» المنسوبة للشاعر الإغريقي «هومر»؛ فقد جاء في عهد سابق للجغرافي «استرابون» (Strabon 1 § 31) فقد أشار هذا الجغرافي إلى ما جاء في «الأودسي Odysseé IV» في سياق كلام بطل الملحمة «منيلاس» الذي يقول: وبعد ثماني سنوات عُدت إلى وطني وقد جبت «قبرص» و«فنيقيا» و«مصر» وزرت كلًّا من الإثيوبيين والصيديين، والأرميس (سكان الكهوف)، واللوبيين جميعهم، وقد استنبط «استرابون» أن «منيلاس» قد مر بسفنه في القناة النهرية التي كانت تجري في زمنه بين النيل والبحر الأحمر، وقد اعترض بعض المؤرخين المحدثين على صحة هذا الخبر مُدَّعِين أن «استرابون» قد بالغ في قدم حروب «طروادة»، غير عالمين أن الحفائر الحديثة في موقع «طروادة» القديمة الواقعة على ساحل «آسيا الصغرى» قد برهنتْ على أن تاريخ هذه الحروب يرجع إلى ما قبل القرن الحادي عشر قبل الميلاد بكثير، وسَنَرَى بعدُ أنَّ هذه القناة على حسب الروايات القديمة التي وصلتْ إلينا قد حفرت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، وعلى هذا

الزعم يُصبح من الجائز جدًّا أن «منيلاس» كان قد مَرَّ بقناة «السويس» في رحلته على الرغم مِن أنه لم يذكر لنا ذلك صراحةً في كلامه.

ما جاء في هردوت «عن قناة السويس»

وإذ كنا سنُوردُ هنا تباعًا ملخصات للنصوص التي وصلت إلينا من العهدين الإغريقي والروماني؛ فإننا سنُورد حرفيًّا ما ذكره «هردوت» لأهميته البالغة؛ إذ قد عاش في زمن كانت القناة فيه مفتوحة للتجارة فاستمع إليه وهو يتحدث عن «بسمتيك الأول» مؤسس عهد النهضة في «مصر» وعن «نكاو» ابنه الذي كان أُسطوله سيد بحار العالم في التجارة والحرب في نهاية القرن السابع وباكورة القرن السادس قبل الميلاد.

(١) متن «هردوت»

وقد كان لهذا الملك «بسمتيك» ابنٌ يُدعَى «نكاو» خَلَفَه على العرش، وكان هو أولَ مَنْ بدأ حَفْرَ القناة التي تجري لتصب في البحر الأحمر، وكان «دارا» ملك الفرس ثاني ملك اهتم بها، وكان طولُها أربعةَ أيام بالسفينة، وكانت تتسعُ لسير سفينتين فيها متحاذيتين، وكان ماؤُها يخرج من النيل من فوق مدينة «بوبسطة» (= «الزقازيق» الحالية)، بمسافة قليلة، وتمر بمدينة «باتوم» وهي مدينة في مقاطعة العرب (هي في الواقع مدينة «بيثوم Pithom» المذكورة في سفر الخروج) وتسيرُ لتصب في البحر الأحمر، وتبتدئ فتحة هذه القناة في ريف «مصر» «الدلتا» من جهة مقاطعة العرب، وتستمر جارية في أعلى هذا الريف محاذية جبل المحاجر المجاور لمدينة «منف»، وهكذا فإن هذه القناة الطويلة التي تجري من الغرب إلى الشرق تَمُرُّ بسفح الجبل السالف الذكر، ومِنْ ثم تجري مخترقةً الأودية الصغيرة التي تحملُها من الجبل حتى الخليج العربي «خليج السويس»، وأقصر وأسهل طريقٍ للصعود من البحر الأبيض المتوسط إلى بحر الجنوب المسمى البحر الأحمر هو من جبل «كاسيوس» الذي يفصل «مصر» عن «آسيا»؛ وذلك لأنه لا يوجد إلا ألف استاديا، من هناك حتى خليج العرب، والقناة أطولُ من ذلك بقليل؛ لأنها أكثرُ تَعَرُّجًا، وفي أثناء انشغالِ «نكاو» بالقناة المذكورة مات فيها مائة وعشرون ألف مصري، وقد أمر بوقف العمل بسبب ذلك، وكذلك نزل عليه وحيٌ معترضًا سير العمل فيها، قائلًا: «إن همجيًّا سينجزها.» وقد كان المصريون يسمون كل الأمم التي لا تتكلم لغتهم همجًا.

(٢) أرسطو «أرسطوطوليس»

وفي حين نفهم مِن قول «هردوت» صراحةً أن «دارا» قد أَتَمَّ القناة نقرأ في «أرسطو» ما يأتي (راجعْ: Meteorologie, Live, 1, XIV)، نحن نعتبر أقدم البشر هؤلاء المصريين الذين تَظهر كل بلادهم قاطبة من عمل النيل، ولا تعيش إلا به، وهذه الحقيقةُ تفرضُ نفسها على أيِّ فردٍ يجوبُ هذه البلاد، ولدينا شاهدٌ ظاهرٌ نجده في إقليم بحر «إريتري» «البحر الأحمر»، والواقع أن أحد الملوك شرع في القيام بحفر البرزخ، فإن جَعْل هذا الممر صالحًا للملاحة كان له فائدةٌ عُظمى، والظاهرُ أنَّ «سيزوستريس» هو أول الملوك القدامى الذين تَبَنَّوْا هذا العمل، ولكنه قد لحظ أن مستوى الأراضي كان أكثر انخفاضًا عن مستوى البحر.»

(٣) ديودور الصقلي

ويُصادفُنا بعد «أرسطو» ممن تَكَلَّمُوا عن قناة «السويس» المؤرخ «ديودور الصقلي»، (راجع: Diodorus Siculus I § 33, Trans. C. H. Old Father. The Loeb Classical Library) فاستمع لما يقول:

ينقسم النيل في مجراه في «مصر» عدة أفرُع، فيؤلف الإقليم الذي يسمى من شكله «الدلتا»، ويُحَد جانبا الدلتا بفرعيه الخارجيين في حين أن قاعدتها هي البحر الذي يصيب فيه الماء من مصبات النهر العدة، ويفرغ النهر ماءه في البحر بسبعة مصبات أولها من الشرق يسمى الفرع «البلوزي» والثاني «التنيسي»، وبعد ذلك الفرع «المنديسي» فالفرع «الفتنيتي» فالفرع «السمنودي» فالفرع «البوليبيتي»، وأخيرًا الفرع «الكانوبي» وهو الذي يسمى كذلك «الهيراكلوتي»، وهناك كذلك مصباتٌ أُخرى عملتْها يدُ الإنسان، وليس لدينا سبب خاص للكتابه عنها.

وتوجدُ عند كل مصب مدينةٌ مسورةٌ يَشُقُّها النهرُ قسمين، ومجهزةٌ على كل جانب من المصب بجسور متنقلة وبيوت حراسة في نقط ملائمة، ويخرج من الفرع «البلوزي» قناةٌ صناعيةٌ، تجري إلى الخليج العربي[١] والبحر الأحمر، وكان «نكاو» بن «بسمتيك» هو

[١] المقصود بالخليج العربي في كل هذا المقال هو خليج السويس.

أول من أقام بناءها، وقد عمل فيها الملك «دارا» الفارسي مدة ولكنه تركها نهائيًّا دون أن تتم؛ لأن بعض الناس أخبروه أنه إذا حفر البرزخ كان مسئولًا عن إغراق «مصر»؛ لأن مستوى البحر الأحمر في نظرهم كان أعلى من أرض «مصر»، وفي زمن متأخر عن ذلك أَتَمَّهَا «بطليموس الثاني» وأقام في أقوى نقطةٍ فيها نوعًا من الأهوسة، وكان يَفتح الهويس حينما يُريد المرورَ فيه ثم يغلق ثانية بسرعة، وقد أسفر استعمالُهُ عن أنه مخترع ناجحٌ مفيد، والنهر الذي يصب في هذه القناة يُدعَى «بطليموس» باسم مَنْ أقامه، وتقعُ عند مَصَبِّهِ المدينة التي تُدعَى «أرسنوي» (وهي زوج «بطليموس الثاني»).

استرابون

ويأتي بعد «ديودور الصقلي» الجغرافي «استرابون» (حوالي ٦٦ق.م)، ويحدثنا بوضوح أكثر من «ذيودور» عن القناة (راجع: Strabo XVII, Chapter I § 24, 25, The Loeb Edition p. 75)، نقلًا «أرتميدورس» الجغرافي (عام ١٠٠ق.م) فاستمع لِما يقول: ويضيف «أرتميدورس» قائلًا: إنَّ أول قناة عندما يَبتدئ الإنسان من «بلوز» هي القناة التي تملأُ البحيرات المستنقعة كما تُسمى، وهما اثنتان في العدد وتَقَعَان على الجِهة اليُسرى من النهر الكبير فوق «بلوز» في مقاطعة العرب، وهو يتحدثُ كذلك عن بُحيرات أُخرى وقنواتٌ في نفس الإقليم خارج الدلتا.

وهناك كذلك مقاطعة «ستوريت» («صان الحجر» الحالية) بالقُرب من البحيرة الثانية، وذلك على الرغم مِن أنه يعد هذه المقاطعة واحدةً من المقاطعات العشر التي في الدلتا، وتتقابل قناتان أُخريان في نفس البحيرة، وتوجدُ قناةٌ أُخرى تصب ماءها في البحر الأحمر والخليج العربي، بالقرب من مدينة «أرسنوي»، وهي مدينةٌ يطلق عليها بعض الكُتاب اسم «كليوباتريس»، وهي تَصُبُّ كذلك في البُحيرات المرة — كما تسمى — وقد كانتْ حقيقة مرة في الأزمان المبكرة، ولكن عندما حُفرت القناةُ السابقةُ الذكر تَغَيَّرَ ماؤُها؛ وذلك بسبب اختلاطه بالنهر، وهي الآن مزودة بالسمك مملوءة بالطيور المائية.

وكان أول مَنْ حفر القناة هو الملك «سيزوستريس» قبل حروب «طروادة»، وإن كان البعض يقول: إن ابن «بسمتيك» ابتدأ فيها فقط العمل ثم مات، وخلفه في العمل في القناة «دارا الأول»، ولكنه بدوره كذلك قد ترك العمل فيها بسبب فكرة خاطئة راودتْه عندما كانت القناة على وشك أن تتم، فقد أقنع أن ماء البحر أعلى مستوى من أرض «مصر»، وأنه إذا قطع البرزخ «الذي بينهما في كل طوله فإن البحر سيغرق البلاد، وعلى أية حال

فإن ملوك البطالمة قد قطعوا البرزخ طولًا وجعلوا البوغاز ممرًّا مقفلًا فكان في مقدورهم أن يَسيحوا عندما يريدون دون عائق في عرض البحر ويدخلوا في القناة ثانية …»

(٥) لوسيان

وفي عصر الرُّومان يُحدثنا «لوسيان»، وقد عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، (وُلد في عام ١٢٥ ميلادية)، وشغل وظائفَ عامةً في الحُكُومة المصرية، حوالي عام ١٧٠ ميلادية؛ أي بعد الأعمال التي قام بها الإمبراطور «هدريان»، فيقول: إن سائحًا في عهده أقلع من «الإسكندرية» وساح في النيل حتى «كلزما» أي «القلزم»،[٢] وقد أُغري بالذهاب حتى بلاد الهند»، (راجع: Laurand. Manuel des Etudes grecques et Latines, p. 275).

(٦) «بليني» القديم

ومن بين المؤلفين الرومان «بليني القديم» (٢٤–٧٩ ميلادية)، الذي كتب عن خليج العرب ما يأتي: (راجع: Liv VI, Chapter XXXIII).

ويتفرع من الخليج الألانتيكي Aelantique خليج آخر يسميه العرب «أيانت Aeant» وقد أُقيمت عليه مدينة «هيروس Heros»، وهناك كانت توجد كذلك «كامبيسو Cambysu» الواقعة بين «نيلوس Netos» و«مارشاداس Marchadas» حيث كان يقاد مرضى الجيش، وهناك ميناء «دانون Danéon» وهي مؤسسة صيدية منها خرجت قناة للملاحة حتى النيل، يَبلغ طولُها ٦٢٠٠٠ خطوة حتى الدلتا، (وهذه هي المسافةُ التي بينَ النهر والبحر الأحمر) حفرها أولًا: «سيزوستريس» ملك «مصر» ثم «دارا» ملك الفرس وأخيرًا «بطليموس الثاني»، وهذا الأخير عمل قناة عرضها مائة قدم وعُمقها أربعون قدمًا، (وفي رواية أُخرى ثلاثون قدمًا).

وطولها ٣٧٥٠٠ خطوة حتى حوالي البحيرات المرة، ولم تتم خوفًا من الفيضان؛ وذلك لأن البحر الأحمر كان منسوبُهُ أعلى مِن أديم «مصر» بثلاثة أذرع، ويقول آخرون: إن هذا لم يكن السبب الحقيقي، ولكن كان السبب الخوف مِن أنْ يُفسد ماء البحر ماء النيل العذب الصالح للشرب.

[٢] القلزم = السويس الحالية.

(٧) جرجوار الطوري

هذا المؤرخ الفرنسي كتب تاريخه حوالي عام ٥٦٧ ميلادية عن «فرنسا»، وقد كانت عادة أمثال هؤلاء المؤرخين أن يَبتدءوا تاريخهم بنبذة عن تاريخ العالم، وقد نقلت النبذة التالية عن «قناة السويس» من تاريخه: يجري النيل من الغرب إلى الشرق نحو البحر الأحمر، وتمتد في الغرب بحيرة حقيقية بمثابة ذراع من البحر الأحمر تجري نحو الشرق طولها نحو خمسين ميلًا وعرضها ثمانية عشر، وتوجد عند رأس هذه البحيرة مدينة «كلزما» «القلزم» ولم تقم هناك؛ لأن الموقع خصب التربة، فإنه لا توجد تربة أكثر جدبًا من هذا المكان، ولكنها أقيمت بسبب الميناء؛ وذلك لأن السفن التي تأتي من الهند ترسو هناك بسبب صلاحية هذه الميناء، وقد كانت توزع منها السلع المستوردة على كل «مصر»، وكان اليهودُ الذين يَهتدون في سيرهم نحو هذه البحيرة في أثناء اقتحامهم الصحراء يصلون إلى هذا البحر وعندما يجدون هناك الماء العذب يضعون رحالهم، (راجع: Les Sources de l'Histoire de France, I, p. 58, ff).

(٨) الراهب «فيدليس Fidelis»

عاش هذا الراهبُ في خلال القرن الثامن الميلادي حوالي عام ٧٥٠، وقد ذكر لرئيسه «سويبنوس Suibneus» ما يأتي:

«… وبعد ذلك نزلوا في السفن وساحوا في النيل حتى مدخل البحر الأحمر الواقع على الشاطئ الشرقي حتى الطريق التي قفاها «موسى» إلى البحر الأحمر.»

وقد أَدَّى الراهب «فيدليس» فريضة الحج عن طريق «سيناء» مارًّا ب «القلزم» و«الطور»، وقد نزل في سفينة في النيل، وسار في القناة حتى «القلزم»، ومنها ركب السفينة إلى «الطور»، ومن ثم نلمس حقيقة أكيدة لشاهد عيان، وهو رجل قام بهذه السياحة في القرن الثامن الميلادي؛ أي قبل اختفاء القناة بقليل، وقد زار «فيدليس» دير «سنت كترين» في عام ٧٥٠ ميلادية، وهذا يُخالف ما قاله «لانجلي Langlés» من أن الملاحة في القناة، قد ظلت قائمة حتى عام ٧٢٠ ميلادية.

ما جاء في المصادر العربية عن «قناة السويس»

نحن نعلم مِمَّا كتبه مؤرخو العرب أنَّ القناة التي كانت بلا شك قد أُهملت في عهد البطالمة المتأخرين، واستعمل بدلًا منها الطريقان البرِّيتان اللتان تؤدي إحداهما إلى «برنيقة» والأخرى إلى ميناء «ميوس هرموس» الواقعة على البحر الأحمر بالقرب من «جاسوس»؛ قد طهرت، وأصبحت صالحة للملاحة في عهد الحُكم الروماني، وبخاصة في حكم الإمبراطور «تراجان»، وفي عهد ربيبه الإمبراطور «هدريان»، ثم أُصلح مِن شأنها فيما بعد بأمر «عمر بن الخطاب» بعد أن ردمت زمنًا طويلًا، وقد وصلت إلينا أخبارُ القناة مِن عَدَدٍ من الكُتَّاب العرب، نذكر منهم:

(١) الفرجان

كتب هذا المؤرخ في عام ٨٢٨ ميلادية ما معناه: أن قناة «تراجان» التي تمر ب «بابليون[١] مصر»، كما يقول «بطليموس» الجغرافي بألفاظ صريحة، هي نفس القناة التي سُميت «خليج أمير المؤمنين»، وهو الذي يجري بمحاذاة «الفسطاط»؛ وذلك لأن «عمر» أمر أن تطهر هذه القناة التي كانت في عهده مردومةً بالرمال مِن جديد لأجل أن تحمل المؤن إلى «المدينة» و«مكة المكرمة».

---

[١] بابليون موقعها الحالي «مصر القديمة = العتيقة».

(٢) المقريزي

وقد وصف لنا «المقريزي» «خليج القاهرة» فاستمعْ لِمَا يقول:

هذا الخليجُ بظاهر «القاهرة» مِن جانبِها الغربي، فيما بينها وبين «المقس»، عرف في أول الإسلام باسم «خليج أمير المؤمنين»، ويسميه العامة اليوم «الخليج الحاكمي» و«خليج اللؤلؤة»، وهو خليجٌ قديمٌ، أول من حفره «طوطيس بن ماليا» أحد ملوك «مصر» الذين سكنوا مدينة «مصر» وأخذ منه امرأته «سارة» وأخدمها «هاجر» أم «إسماعيل» — صلوات الله عليهما — فلَمَّا أخرجها «إبراهيم» هي وابنها «إسماعيل» إلى «مكة» بعثت إلى «طوطيس» تُعَرِّفُهُ أنها بمكان جدب وتستقيه فأمر بحفر هذا الخليج، وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى «جدة» فأحيا بلد «الحجاز».

ثم أن «أندرومانوس» (يقصد الإمبراطور «هدريان») الذي يعرف «بايليا» أحد ملوك الروم بعد «الإسكندر بن فيلبس» المقدوني؛ جَدَّدَ حفر هذا الخليج، وسارتْ فيه السفن، وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة عام، ثم إن «عمرو بن العاص» — رضي الله عنه — جَدَّدَ حفره لما فتح «مصر» وأقام في حفره ستة أشهر، وجرت فيه السفن تحمل الميرة إلى «الحجاز»، فسُمي «خليج أمير المؤمنين» (يعني: «عمر بن الخطاب» — رضي الله عنه) فإنه هو الذي أشار بحفره، ولم تَزَلْ تجري فيه السفنُ من «فسطاط مصر» إلى مدينة «القلزم» التي كانت على حافة البحر الشرقي، حيث الموضع الذي يُعرف اليوم على البحر بـ «السويس»، وكان يصبُّ ماءَ النيل في البحر من عند مدينة «القلزم» إلى أنْ أمر الخليفة «أبو جعفر المنصور» بِطَمِّهِ في سنة خمسين ومائة فطُمَّ، وبقي منه ما هو موجودٌ الآن.

(٣) شمس الدين

وكتب «شمس الدين» في عام ١٦٥٠ ميلادية عن هذه القناة ما معناه: إنه يرجع أصلُ خليج «القاهرة» إلى مِلك مصري قديم يُدعَى «طرسيس بن ماليا» وفي عهده أتى «إبراهيم» إلى «مصر»، وهذه القناةُ كانت تجري حتى مدينة «القلزم» وتمر بالقرب من «السويس»، وكانت مياهُ النيل تصبُّ في هذا المكان في الماء الملح …

وقد أمر «عمر» بتطهير هذه القناة وإعادة حفرها وسَمَّاها: «خليج أمير المؤمنين»، وقد بقيتْ على هذه الحال مائة وخمسين سنة، حتى عهد الخليفة العباسي «أبو جعفر

المنصور» الذي أمر بِطَمِّ مصب هذه القناة الذي كان يصب في بحر «القلزم» (Le Pere, Description de l'Egypte tome XI).

(٤) أبو الفداء

ويذكر لنا «أبو الفداء» (١٢٧٣–١٣٣١) رواية عن «ابن سعد» أن «عمرا» كان يفكر في إنشاء قناة مباشرة بين البحرين من مائهما (راجع: Abu'l Fida Trad, Reynaud p. 176).

وقد لاحظ «ابن سعد» أنه بالقرب من «الفرما» يقترب البحر الأبيض المتوسط من البحر الأحمر حتى إنه ليس بينهما أكثر من سبعين ميلًا، وكان «عمرو بن العاص» يفكر في عمل قطع يوصل بين البحرين، وكان يجب أن يعمل هذا القطع في المكان الذي يسمى حتى يومنا «ذنب التمساح».

(٥) المسعودي

ويقدم لنا «المسعودي» الذي تُوُفي في عام ٩٥٦ ميلادية أتم المتون التي وصلت إلينا، عن هذه القناة، وفي الوقت نفسه أهمها، فاستمع إليه وهو يقول في كتابه «مروج الذهب» الجُزء الثاني، ص١٥٦-١٥٧ وقد كان بعضُ مُلُوك الروم قد حفر بين «القلزم» وبحر الروم طريقًا، فلم يَتَأَتَّ له ذلك لارتفاع القلزم، وانخفاض بحر الروم، وإن الله — عز وجل — قد جعل ذلك حاجزًا — على حسب ما أخبر في كتابه.

والموضع الذي حفر ببحر القلزم يُعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة «القلزم»، عليه قنطرةٌ عظيمةٌ، يجتاز عليها من يريد الحج من «مصر»، وأجرى خليجًا من هذا البحر إلى موضع يعرف بـ «الهامة»، ضيعة «محمد بن علي المدراني» من أرض «مصر» في هذا الوقت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — فلم يَتَأَتَّ له اتصالٌ بين بحر الروم وبحر القلزم، وحفر خليج آخر مما يلي بلاد «تنيس» (آثارها على جزيرة صغيرة في بحيرة المنزلة) و«دمياط» وبحيرتهما، ويعرف هذا الخليج بـ «الزبر والخبية» (في رواية أخرى «الزنير والحسة»)، واستمر الماء في هذا الخليج من بحر القلزم الذي في نحو من هذه القرى، ومن بحر القلزم في خليج «ذنب التمساح» في تتابع أرباب المراكب، وتقرب حمل ما في كل بحر إلى آخر، ثم ارتدم ذلك على تطاوُل الدهور، ملأتْه السوافي من الرمل وغيره.

وقد رام «الرشيد» أن يُوصِلَ بين البحرين، مما يلي النيل مِن أعالي مَصَبِّهِ، من نحو بلاد الحبشة وأقاصي صعيد «مصر»، فلم يَتَأَتَّ له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلي بلاد «الفرما» نحو بلاد «تنيس» على أنْ يكون مصب بحر القلزم إلى البحر، فقال «يحيي بن خالد»: يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف، وذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر القلزم إلى بحر «الحجاز» فتطرح سراياها مما يلي «جدة» فيخطف الناس من المسجد الحرام و«مكة» و«المدينة» على ما ذكرناه، فامتنع عن ذلك.

وقد حُكي عن «عمرو بن العاص» حين كان بـ «مصر» — أنه رام ذلك فمنعه «عمر بن الخطاب» — رضي الله عنه — وذلك لما وصفناه مِن فِعْل الروم وسراياهم، وذلك في حال ما افتتحها «عمرو بن العاص» في خلافة «عمر بن الخطاب» — رضي الله عنه — وآثار الحفر بين هذين البحرين فيما ذكرنا من المواضع والخلجان على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة، طلبًا لعمارة الأرض وخصب البلاد وعيش الناس بالأقوات، وأن يحمل إلى كل بلد ما فيه من الأقوات وغيرها عن ضروب المرافق، والله تعالى أعلم.

(٦) الكندي

وذكر «الكندي» الذي عاش في أواسطِ القرن التاسع الميلادي في كتاب «الجندي العربي» أنه بدئ حفر الخليج في سنة ثلاث وعشرين، وفرغ منه في ستة أشهر، وجَرَتْ فيه السفُنُ، ووصلت إلى «الحجاز» في الشهر السابع، ثم بنى عليه «عبد العزيز بن مروان» قنطرةً في ولايته على «مصر»، ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه «عمر بن عبد العزيز»، ثم أضاعتْه الولاةُ بعد ذلك فترك، وغلب عليه الرمل فانقطع وصار منتهاه إلى «ذنب التمساح» من ناحية بطحاء القلزم، (راجع: Description de l’Egypte, ed. Pankoucke, Tome XI).

(٧) ابن الطوير

وقال «ابن الطوير» إن مسافته خمسة أيام، وكانت المراكبُ النيليةُ تفرغ ما تحمل من ديار «مصر» بالقلزم، فإذا فرغت حملت من «القلزم» ما وصل من «الحجار» وغيره إلى «مصر»، وكان مسلكًا للتجار وغيرهم، (راجع: Description de l’Egypte tome, XI).

النقوش الهيروغليفية والفارسية التي وصلت إلينا عن القناة

أوردنا حتى الآن المصادرَ الثانوية التي وصلت إلينا عن القناة التي تُوصل بين البحرين، وهي عديدةٌ، ولكن مما يؤسَف له جد الأسف أنَّ المصادر الأصلية المنقوشةَ عن هذه القناة من العهد الفرعونيِّ ضئيلةٌ جدًّا، غير أنَّها على ضآلتها غايةٌ في الأهمية؛ لأنها تؤكد ما جاء في المصادر الإغريقية واللاتينية والعربية بصفة قاطعة، والوثائقُ المنقوشةُ التي في مُتناولنا حتى الآن اثنتان، إحداهما ترجع إلى العهد الفارسي حوالي عام ٥٢١ق.م، والأُخرى ترجعُ إلى العهد البطلميِّ حوالي عام ٢٠٥ق.م، وسنتكلمُ عن كلٍّ في مكانه الزمني، حسب الترتيب التاريخي؛ أي أننا سنتناولُ هنا الكلام عن القناة وتَقَلُّباتها في العصور التاريخية مِن أقدم العُهُود حتى العهد العربي، فنتحدثُ أولًا عن قناة «الجفار» وقناة «سيزوستريس»، فقناة «نكاو»، فقناة «دارا»، فقناة البطالمة، وأخيرًا قناة العرب، أو «خليج أمير المؤمنين».

قناة الجفار

انظر الكلام عنها فيما بعد.

قناة سيزوستريس

تاريخ إنشاء «قناة سيزوستريس»

إن المُطَّلِع على ما جاء في كتابات المؤرخين القدامى، من إغريق ورومان وعرب؛ لا يكاد يَشُكُّ في أنه كانت توجدُ قبل عهد الفرعون «نكاو الثاني» أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (حوالي ٦٠٩ق.م) وصاحب مشروع حفر قناة تربط بين البحرين؛ مواصلاتٌ مائيةٌ تربطُ بين النيل والخليج العربي (= البحر الأحمر)، ومن جهة أُخرى ليس هناك شَكٌّ في أنه كانت توجدُ في الأصل مواصلاتٌ طبيعيةٌ حَلَّ مَحَلَّهَا — بمرور الزمن — حفر قناة من صنع الإنسان، وإذا كان كل من «هردوت» و«ديودور» قد أرجع القناة إلى ما قبل حُكم الفرعون «بسمتيك الأول» (٦٦٣–٦٠٩ق.م)، فإن كُلًّا من «استرابون» الجغرافي و«بليني القديم» قد نسب شرف حفرها للملك «سيزوستريس» أحد مُلُوك الأُسرة الثانية عشرة، الذين كان يسمى بعضُهُم بهذا الاسم.

هذا، ونجد أن بعض مؤرخي العرب — وبوجه خاص «شمس الدين المقريزي» — قد نَسَبَ حفرها لملكٍ مصري يُدْعَى «طرسيس بن ماليا» أو «طرطيس بن ماليا» الذي عاصر — على حسب زعمهم — «إبراهيمَ» عليه السلام.

تحديد عهد «إبراهيم» على وجه التقريب في التاريخ

ولا يبعد أنَّ «إبراهيمَ» كان فعلًا معاصرًا للملك «سيزوستريس» «سنوسرت» الثاني أحد ملوك الأُسرة الثانية عشرة، وأن اسم «طوطيس بن ماليا» أو «طرسيس بن ماليا» هو تحريف الاسم «سيزوستريس»، وتدلُّ ظواهرُ الأُمُور على أن «إبراهيم» قد عاش في الفترة حوالي ٢٠٠٠ق.م، وهي نفسُ الفترة التي عاش فيها ملوكُ الأسرةِ الثانية عشرة المصرية — على أغلب الظَّن.

منظر مقبرة «خنوم حتب» بـ «بني حسن» وعلاقتُهُ بزيارة «إبراهيم» المزعومة لـ «مصر»

ومما يَطيب ذِكرُهُ في هذا المقام أن لدينا منظرًا في مقبرة من مقابر جبانة «بني حسن» معاصرًا للملك «سنوسرت الثاني» يقرب نظرية تحديد عهد «سيزوستريس» الثاني بعد

ظهور سيدنا «إبراهيم»، وهذا المنظر يمثل وصول رئيس من البدو يصاحبه أسرته وأتباعه إلى «مصر»، ويُشاهَدون في هذا المنظر وهم يقدمون الخضوع لحاكم مقاطعة «بني حسن» وهو أحد المقربين من الفرعون «سيزوستريس» الثاني، وقد حدد زمن وصولهم إلى «مصر» بزمن القحط الذي كان قد انتاب بلاد «مسوبوتاميا» (ما بين النهرين) مسقط رأس «إبراهيم»، كما أعلن ذلك في مديحه للحاكم «خنوم حتب» صاحب المقبرة التي عليها المنظر، والأشياء الممثلة في هذا المنظر تشبه التي جاءت في التوراة منسوبة إلى سيدنا «إبراهيم».[١]

ملوك الأسرة الثانية عشرة ومشاريعهم العمرانية المائية العظيمة

ومن المهم جدًّا في هذا الصدد أن نذكر أن ملوك «مصر» الذين يحملون اسم «سيزوستريس»، وبوجه عام: كل ملوك الأسرة الثانية عشرة؛ كانوا أصحاب مشروعات عمرانية خاصة بالري والتجارة، ولا أدل على ذلك مما قام به «سيزوستريس الأول» من إعادة حفر قناة عند الشلال الأول؛ لِتَفَادِي صخور هذا الشلال حتى تُصبح التجارةُ بين «مصر» وبلاد «النوبة» سهلةً ميسورةً طوال العام بدلًا من قصرها على وقت الفيضان فقط، هذا بالإضافة إلى ما قام به أخلافُهُ مِن مَشَارِيعَ مماثلة، وبخاصة ما أَتَمَّهُ «أمنمحات الثالث» من مشاريعَ عظيمةٍ للري في «الفيوم»، وبخاصة تخزين مياه الفيضان في بحيرة «موريس»، ومِن ثَمَّ ليس بغريب أن يكون أحدُ ملوك هذه الأسرة الذي كان يحمل اسم «سيزوستريس»؛ قد تَمَكَّنَ من الإفادة من استعمال الوادي القديم لفرع النيل البلوزي، الذي كان لا يزال مغطًّى بفيضاناته ومنتشرة فيه البحيرات والبِرَك، لحفر قناة تكونُ أداةً للمواصلات بين نهر النيل والخليج العربي، وذلك بأَقَلِّ تكاليف ممكنة، كما أفاد من بعده «أمنمحات الثالث» من خَزْنِ مياه فيضان النيل بأقل قسط ممكن من المال، وقد تَحَدَّثْنَا مليًّا عن هذه المشروعات في الجُزء الثالث من مصر القديمة.

---

[١] راجع مصر القديمة، الجزء الثالث.

الرواياتُ التاريخيةُ التي تسند إنشاء القناة لـ «سيزوستريس» الثاني

وقد جاءت الرواياتُ التاريخيةُ القديمةُ، التي رواها المؤرخون الإغريق وغيرهم مؤيدة لذلك؛ فقد لَفَتَ العالمُ الألماني «زيته» النظر إلى ما رواه «اراتوستين» (حوالي عام ٢٧٦م) الفلكي الإسكندري الذائع الصيت نقلًا عن «استرابون» الجغرافي العظيم عن هذه القناة إذ يقول:

إن «سيزوستريس» كان قد تعرف على ساحل البحر الأحمر، وإنه على حسب ما جاء فيما رواه كل من «استرابون» (Strabon tome III, p. 404)، و«بليني القديم»؛ قد قاد جيشًا إلى بلاد «زيمت» وإنه في «ديرا» الواقعة على الساحل الإفريقي لباب المندب كانت توجد لوحةٌ أقامها الملك «سيزوستريس» عليها نقوشٌ هيروغليفيةٌ، تُحدثنا عن الاحتفال بمرور هذا الفرعون في هذا المضيق بسُفُنه، وإنه بالقُرب من «تورس» — وهما جبلان يشبهان ثورين — الذي لا يبعد عن بلدة «بطليموس» التي أَسَّسَها «بطليموس الثاني»، يشاهد معبد للإلهة «إزيس»، وهذا الأثر يدل على تقى «سيزوستريس» وعنايته العظيمة بهذه الإلهة.

علاقة الإلهة إزيس بالملك «سيزوستريس»

ومما يُقَوِّي صحة هذه الرواية أن اسم الملك «سيزوستريس» المحرف عن اسمه بالمصرية «سنوسرت»؛ معناه في الأصل «رجل القوية»، وكلمة القوية هنا نعتٌ للإلهة «إزيس»، بوصفها أنها كانت أُمَّ الإله «حور»، وهو اسمٌ كان يحملُهُ كُلُّ ملك يتربعُ على عرش «مصر»، ولا غَرَابَةَ أن ينسب الملك لأمه.

الحملات البحرية والمواصلات التجارية في هذه العهود القديمة

وقد تحدث كل من «ديودور» الصقلي المؤرخ المشهور وهردوت (Herod. II, 102) عن حملاتٍ بحريةٍ قام بها «سيزوستريس» في هذه الجهة؛ فقد ذكر الكهنةُ أنه كان أَوَّلَ مَنْ ساح بسُفُن طويلة في خليج العرب لمناهضة الأُمم التي حوله، وقد أخضعها كلها لسُلطانه، وقد زحف في فُتُوحه إلى أنْ وجد أنَّ الخليج لم يَعُدْ صالحًا للملاحة بسبب المضايق التي فيه، والماء الضحضاح المنتشر في نواحيه.

هذا، ولدينا نقشٌ في «وادي جاسوس» الواقع عند البحر الأحمر، يتحدث عن وُجُود ميناءٍ بحرية أَسَّسَها أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، وهو «أمنمحات الثاني»، وأخيرًا تشهدُ المناظرُ المصريةُ القديمةُ، التي على جدران معبد الدير البحري، الخاصة بالحملة التي أرسلتْها الملكةُ «حتشبسوت» إلى بلاد «بنت» أن السفن التي كانت محملةً بمحاصيلِ هذه البلاد كانت تصعد في النيل حتى «طيبة».

ومن كل هذه الشواهد التي أوردناها هنا يُمكن أن نستنبط أنه منذ الأسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٠٠ق.م) كانت توجد علاقاتٌ تجاريةٌ وحربيةٌ بين «مصر» وشواطئ البحر الأحمر، وهذه العلاقات كان لا يمكن وجودُها إلا بوساطة مواصلات مباشرة أو بوساطة وُجُود مستودعات للميرة والذخيرة بين النيل والخليج العربي.

أعمال الحَفْر الحديثة في منطقة القناة تَدُلُّ على وُجُود طريقٍ مائية

وقد دَلَّتْ أعمالُ الحفر التي عُملت حديثًا عند «تل الرطابة» على وُجُود موقع مدينة قديمة يرجع عهدها إلى الدولة القديمة، وقد ازدهرتْ بوجهٍ خاصٍّ في عهد «رعمسيس» الثاني (حوالي ١٣٠٠ق.م)، والواقعُ أنه قد وُجدتْ آثارٌ هامةٌ من عهد هذا الفرعون، وكذلك من عصر «رعمسيس الثالث» في تلك البقعة.

وتدل ظواهر الأحوال على أن «تل الرطابة» هذا هو موقع مدينة تعد مركز حدود محصن للميرة والذخيرة، وتقع على قناةٍ قد احتلتْ مكان وادي «طميلات» على مقرُبة من البحر الأحمر، وكذلك أسفرتْ أعمالُ الحفر التي عُملت في «تل المسخوطة» القريب من «تل الرطابة» عن كشف مدينة مصرية ضخمة من عهد «رعمسيس الثاني»، وقد أُميط اللثامُ فيها عن آثارٍ من العُهُود التي تلتْ «رعمسيس» حتى عصر البطالمة.

ومن الجائز جدًّا أنه كانت توجد قناةٌ منذ الأسرة الثانية عشرة كان الغرضُ منها سد الحاجة من المياه؛ لعدم كفاية ماء فرع النيل لتزويد الأهلين بالماء، وقد لُوحظ وُجُود هذه القناة بصفةٍ قاطعة في عهد «رعمسيس الثاني»، وكانت تحتل مكان «وادي طميلات الحالي»، وعلى أيَّةِ حال لا بد من الاعتراف بوُجُود هذه القناة سواءٌ أكان «نكاو» قد أصلحها أم بدأ إنشاء واحدة جديدة، ولم يتمكن من إتمامها.

ولما جاء «دارا» قام بحفرها فعلًا، وذلك على الرغم مما جاء من خلط فيما كتبه المؤلفون الإغريق وغيرهم بشأن هذه القناة.

الفرس وقناة السويس

تحدثنا حتى الآن عما كتبه المؤرخون الإغريق عن شق قناة تربط بين البحرين تخرج من النيل، ويرجع عهدُها إلى الأُسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٠٠ق.م) غير أن كل ما وصل إلينا لا يُعَدُّ وثائقَ أصلية يُعتمد عليها تمام الاعتماد من الوجهة التاريخية، يُضاف إلى ذلك ما جاء في هذه المصادر الثانوية من تضارُب في سَرْدِ الوقائع.

اللوحات التذكارية التي كشف عنها على طول قناة «السويس» في العهد الفارسي

وقد كانت أول وثائق أصلية وقعتْ في أيدينا، ويعتمد عليها تمامًا في إثبات وجود قناة توصِل بين البحرين، هي اللوحاتُ التي كشف عنها في أماكنها الأصلية في منطقة «السويس»، ويرجع تاريخُها إلى أوائلِ العهد الفارسي في «مصر» (حوالي عام ٥٢١ق.م).

والواقعُ أنَّ أعمال الحفر التي عملت في تلك المنطقة حديثًا؛ قد أسفرت حتى الآن عن وُجُود أجزاءٍ عدة من لوحاتٍ ثلاثٍ يرجع عهدُها إلى حكم الملك «دارا الأول» عاهل الفرس وخلفه «أكزركزس»، وهذه اللوحاتُ كانت قد نُصبتْ على طُول القناة من النيل حتى البحر الأحمر.

لوحة «السرابيوم»

وتدل شواهد الأحوال على أنه كانت توجد لوحةٌ رابعة، غير أنَّنَا لا نعرف عنها شيئًا إلا المكان الذي أُقيمت فيه، وقد عُرفت عند الأثريين بلوحة «السرابيوم»، وكانت منصوبةً في البُقعة الواقعةِ بين بحيرة «التمساح» والبحيرات المرة.

حفائر «كليرمون جانو» في هذه البقعة

وقد قام الأثريُّ «كليرمون جانو» بحفائرَ في مكانٍ هذه اللوحة عام ١٨٨٤ ميلادية، وقد عُثِرَ على قِطَع صغيرة من لوحة عليها نقوشٌ مصريةٌ قديمةٌ، وقد نقل حوالي ٢٣ أو ٢٤ قطعة منها في عام ١٨٨٦ ميلادية إلى متحف «اللوفر»، غير أنها اختفتْ بعد هذا التاريخ بعامين، ولعل الأيام تكشف عن مكانها.

اللوحات أقيمتْ على الشاطئ الأيمن للقناة

وقد أقيمت اللوحاتُ الأربعُ على الشاطئ الأيمن للقناة تجاه البحر الأحمر على مرتفعات من الأرض، وكانت قد أُقيمت لغرضٍ أنْ تراها السفنُ التي تَسيرُ في القناة، وهذا يدلُّ على كِبَر حجمها وضخامةِ القواعد التي أُقيمت عليها، كما يدل على حسن اختيار الأماكن التي نصبتْ فيها، وقد وُجدت في كل موقع من مواقع هذه اللوحات الثلاث — وهي لوحة «تل المسخوطة» ولوحة «كبريت»، ولوحة «السويس» — قطعٌ منقوشةٌ بالكتابة الهيروغليفية والمسمارية.

النقوش التي على اللوحات ولُغاتها

وقد وُجدتْ على لوحة «كبريت» أو لوحة «شلوفة» نقوشٌ هيروغليفيةٌ ومسماريةٌ على وجهيها، ومن المحتمل أن هذا النظام كان متبعًا في لوحة «السويس»، أما اللوحةُ التي وُجدت في «تل المسخوطة» فقد وُجد أنَّ كُلًّا من المتنين الهيروغليفي والمسماري قد نُقش على جزء خَاصٍّ، ويلفت النظر كذلك أن المتن المسماري قد دُوِّنَ بثلاثِ لغاتٍ، وهي الفارسيةُ القديمةُ والبابليةُ ثم العيلاميةُ، وقد ذكر عليها الألقاب الملكية والمرسوم الخاص بعقيدة «أهورامازدا»، هذا بالإضافة إلى مختصَر خاص بشق القناة وبسياحة أُسطول مصري إلى بِلاد فارس.

ومما يؤسف له جد الأسف أنه لم يَبْقَ محفوظًا لنا — على وجه التقريب — من هذه المتون إلا المتن الذي على لوحة «كبريت»، والظاهرُ أن لوحتَي «تل المسخوطة» و«السويس» مُوَحَّدَتان من حيث اللغة بلوحة «كبريت».

لوحة «تل المسخوطة»

ومما هو جديرٌ بالذكر هنا أنَّ لوحة «تل المسخوطة» مصنوعةٌ من الجرانيت الوردي، ومحفوظةٌ بمتحف «القاهرة»، وأَهَمُّ ما يَلْفِتُ النظر في نُقُوشها هو ما جاء في الصف الثاني الذي يحتوي على قائمةٍ مؤلفةٍ مِن أسماء أربع وعشرين إقليمًا، وهي بعض الأقاليم أو الأقطار التي كانت منتفعة بالقناة، وهذه الأقطارُ كانت هي التي تتألف منها الإمبراطوريةُ

الفارسيةُ في هذ العهد، أما الصفُّ الثالثُ من هذه اللوحةِ فقد جاءتْ فيه عبارةٌ تدلُّ على حَفْرِ القناة في عهد الملك «دارا الأول» الفارسي.

لوحة «كبريت»

واللوحة الثانية هي لوحة «كبريت» محفوظةٌ الآن بمتحف «الإسماعيلية»، وهي مصنوعةٌ من الجرانيت الوردي، ويُلحظ أن أحد وجهيها قد خُصِّصَ للمتن الهيروغليفي والآخر للترجمة باللغات الفارسية والعيلامية والبابلية، ويحتوي الصفُّ الثاني من نُقُوشها على أمرٍ بحفر القناة وتسيير السفن فيها.

لوحة «السويس»

واللوحة الثالثة هي «لوحة السويس»، وكانت مُقامةً على مسافة ستة كيلومترات شمالي مدينة «السويس»، ويدل ما بقي منها على أن الذي نصبها في هذا المكان هو الملك «أكزركزس الأول» خليفة «دارا الأول» ملك الفرس، (راجع: Posener, La Premère Domination Perse en Egypte, p. 180 ff; Bourdon, anciens Canaux Anciens Sites et Ports de Suez).

خلاصة ما جاء على لوحات القناة الثلاث

وُجُود طريق بحرية بين فارس وأملاكها الإفريقية ووصفها

مما لا جدال فيه أنه كانتْ توجدُ طريقٌ بحريةٌ مستعملةٌ في عهد «دارا الأول» مِلِك الفرس؛ لتسهيل المواصلات بين عاصمة مُلكه وبين أملاكه الإفريقية، والبرهان على ذلك ما نجدُهُ منقوشًا على اللوحات التي أُقيمت على طُول القناة التي كانت تربطُ النيل بالبحر الأحمر، وكانت هذه القناةُ تبتدئ من النيل بالقرب من «بوبسطة» «الزقازيق»، وتجري متتبعة وادي «طميلات» متفادية من جهة الشرق بحيرة التمساح، ثم تخترق البحيرات المرة إلى أَنْ تصل إلى خليج السويس بالقُرب من بلدة «الكبرى» الحالية.

وكان عرضُ القناة حوالي خمسة وأربعين مترًا، والظاهرُ أنه كان على شاطئيها طريقان، تستعملان لجَرِّ السفن التي كانت تمر في القناة، وكانت المسافةُ بين «بوبسطة» حتى البحر تُقطع في مدة أربعة أيام.

الملك «نكاو الثاني» وقناة «السويس»

ولم يكن الملك «دارا الأول» هو أول من بدأ حفر هذه القناة، بل الواقع أن أول من شرع في حفرها هو الملك «نكاو الثاني» فرعون «مصر» الذي حكم من ٦٠٩–٥٩٧ق.م، والواقع أنَّ كل ما فعله «دارا» هو إصلاح ما حفره «نكاو» من هذه القناة ثم إتمامها، وهذا هو ما يَلُوحُ استنباطُهُ مِن لوحة «تل المسخوطة» السالفة الذكر، وذلك على حسب ما جاء في السطر السابع عشر من هذه اللوحة؛ حيث يفهم أن «دارا» قد أرسل سفينة لأجل أن تفحص عن المياه (وقد عمل جلالتُه على أن تذهب سفينةٌ لأجل جَسِّ الماء)، وليعلم أنه على مسافة ٨٤ كيلومترًا تقريبًا «ليس هناك ماء»، وهذه المسافةُ هي طُولُ القناة القديمة، التي كانت تقعُ بين لوحات الحدود التي أقامها الملك «دارا» بين «تل المسخوطة» و«السويس».

وعبارة «ليس هناك ماء»، قد كررت في اللوحات الأخرى، يضاف إلى ذلك وُجُود كلمة «رمال» على لوحتَي «كبريت» و«السويس»، ومن المحتمل جدًّا أنَّ هذه العبارات تصفُ الحالةَ التي كانت عليها القناةُ قبل الأعمال التي قام بها «دارا الأول» فيها لإصلاحها وإتمامها.

علاقة حفر القناة بالفتح الفارسي لـ «مصر»

إن ما لدينا من معلوماتٍ يَدُلُّ على أنَّ الأحوال التي تَمَّتْ فيها هذه الإصلاحاتُ غيرُ واضحة، بل يُحيطُها الغموض، ويَجِبُ أن نضع علاقة منطقية بين حفر القناة وبين حملة «دارا» على «مصر»، وذلك أنه من الجائز أن تكون الحادثتان متعاصرتين، هذا إذا لم تكونا قد وقعتا في وقت واحد، وفي ذلك يقول «دارا الأول» في متن الرواية المسمارية التي أُقيمت على القناة: «إني فارسيٌّ وبمساعدة فارس فتحت «مصر»، وقد أمرت بحفر قناة من أول النهر المسمى «النيل» الذي يجري في «مصر» حتى البحر الذي يتصل بالفُرس، وبعد ذلك حفرت هذه القناة هنا كما أمرت، وعندئذٍ قلت اذهبوا من أول «بيرا» حتى الساحل واهدموا نصف القناة — كما هي «إرادتي»».

هذا، ويذكر لنا المتنُ المصريُّ الذي وُجد ممزقًا عند هذه النقطة رحلةً قام بها «دارا» إلى مكانٍ مجهولٍ، ونقرأُ في نفس المتن بعد أجزاء مهشمة أن الملك «دارا» أمر بأن يمثل بين يديه رجالُ إدارة مدينة وسألهم بعض أسئلة، فهل لا يُمكن أنْ نفرض أن الملك «دارا» وهو في طريقه إلى «مصر» قد وقف بالقرب من القناة، واستعلم عن صلاحيتها للملاحة؟ غير أنه مما يؤسَف له جد الأسف أن الحالة التي وُجدتْ عليها اللوحاتُ — من التمزيق — تقف حجر عثرة في تحقيق هذه النظرية، وكل ما نعرفه هو أن الملك «دارا الأول» أمر بإصلاح القناة وبحفر بئر أو عِدَّة آبار على طول القناة.

أول أسطول يعبر القناة

وبعد أن تَمَّ حفرُ القناة قام أسطولٌ مؤلفٌ من أربع وعشرين سفينة (وفي رواية أخرى: اثنتين وثلاثين) محملة بالإتاوة من «مصر» إلى بلاد فارس، وقد عرف «هردوت» أن «دارا» قد أفلح في شَقِّ القناة، غير أننا نعلم أن بعض الكُتاب من بعده أمثال «أرسطو» و«ديودور» و«استرابون» و«بليني القديم» قد ظنوا أن القناة لم تُشَقَّ في العهد الفارسي؛ وذلك لاختلاط الأمر عليهم في استقصاء مصادرهم.

علاقة الفتح الفارسي للهند بمشروع حفر قناة «السويس»

ومما يَطيبُ ذكرُهُ هنا أن الرحلة البحرية التي قام بها الأسطولُ الفارسيُّ من «مصر» إلى «فارس» بوساطة القناة كان لها صلةٌ بالرحلة التي قام بها «سيلاكس» البَحَّار والجغرافيُّ الإغريقيُّ الذي عاصر الملك «دارا الأول» حول الهند، وذلك أن العاهل «دارا» الأول كان قد فتح جُزءًا كبيرًا من بلاد «آسيا» بإشرافه، وقد كان شغوفًا بمعرفة موقعِ نهر الهند الذي كان يُعَدُّ ثانيَ نهر يُمكنُ الحصولُ منه على تماسيحَ، ويصب ماؤه في البحر.

وقد أرسل من أجل ذلك سُفُنًا بقيادة نفرٍ ممن يعتمد عليهم؛ لوضع تقاريرَ صحيحة له عن ذلك، وكذلك أرسل «سيلاكس» للغرض عينه، وقد أفلحت الحملةُ، وكان مِن نتائجها أنْ ذهب «سيلاكس» إلى خليج العرب «البحر الأحمر» في سفينة بعد أنْ تَعَرَّفَ على نهر الهند، فحقق بذلك الصلة بين بعض المديريات الفارسية القصوى وبعضها الآخر.

والواقعُ أن مشروعَ حفر قناة «السويس» كان له صلةٌ بمشروع فتح الهند؛ وذلك لأن فتح الهند — على حسب قول «هردوت» — قد جاء مباشرة على أثر سياحة «سيلاكس»

إلى بلاد الهند، وعلى ذلك تَدُلُّ الظواهرُ على أن المشروعين كانا بمثابة تصميم واحد عمل، وتم عن تدبير وروية.

وعلى ذلك فإنه من الجائز أن القناة كانت قد أصلحتْ في عهد قريب من تاريخ فتح الهند (٥١٨ق.م)، وهذا ما يُقَوِّي الاعتماد على التأريخ الذي اقترحه الأثريُّ «فيدمان» لسياحة «دارا» إلى «مصر» في تلك السنة.

قائمة الممالك التي وُجدتْ على لوحات القناة

ويؤيدُ لنا — على ما يظهر — صحة هذه الملاحظات؛ ما جاء في الصف الثاني من لوحات القناة، وهذا الجزء من النقوش يحتوي على قائمة تشمل أربعة وعشرين اسمًا للبلاد التي تؤلف جزءًا من الإمبراطورية الفارسية، ومن ثم نفهم أنَّ هذه الوثيقة، وكذلك المتون المسمارية التي من هذا الطراز؛ لا تقدم لنا قائمة المديريات الفارسية، بل تسمى نخبة من الممالك التي كانت تتألف منها الإمبراطورية الفارسية المنتفعة بالقناة.

وهذه الممالكُ مقسمةٌ قسمين متساويين، موزعين توزيعًا منظمًا على اليمين وعلى الشمال من وسط الصف، ونعرف منها فعلًا أربعًا وعشرين مملكة.

وبدرس ما بقي من متون لوحات القناة الثلاث حصلنا على قائمة أسماء ممالك تقسم الإمبراطورية الفارسية قسمين، يفصل الواحد عن الآخر خطٌّ يخرج من الخليج الفارسي حتى بحيرة «أورمياة» وما بعدها.

مجموعة الممالك التي في الشرق

(١) «فارس»، (٢) «ميديا»، (٣) «عيلام»، (٤) «هرو»، (أربا)،[٢] «برتو» (بارثيا = خورسان)، (٦) «بختر»، (= بكتريان، وهي الآن ضمن التركستان والفرس)، (٧) «سوجدا» = سوجاديان = بخارى وسمرقند «هرخدي» (اراخوذي = اسم بلاد تابعة لبلاد الفرس القديمة)، (٩) «سرنج» (= درانجيان Drangiane)، (١٠) «سدجوز» (= ستاجيدس Sattagydes)، (١١) «خرسم» = (خوارزم)، (١٢) «سك بح سك تا» (= سرداريا وموداريا = سيحون وجيحون).

---

[٢] «خورسان» الشرقية و«سيستان».

مجموعة البلاد التي في الغرب

(١٣) «ببر» (= بابل) (١٤) «أرمينيا» (١٥) «ابونيا»، (١٦) كبورشيا (بآسيا الصغرى)، (١٧) «سرديس»، (١٨) «آشور»، (١٩) «مصر»، (٢٠) «لوبيا»، (٢١) بلاد العرب، (٢٢) «كوش» (أي السودان)، (٢٣) «مج»، (= عومان)، (٢٤) «هندوس» (أب الهند)،[٣] وبمُوازنة كتابة هذه الأسماء بالهيروغليفية بكتابتها باللغات الأرمنية والبابلية والفارسية؛ يتضح أن القائمة الجغرافية للوحات القناة قد أخذت عن أَصْل آرامي، والظاهرُ أن اللغة الآرامية كانت اللغة الإدارية للإمبراطورية الفارسية.

ومهما يكن مِن أمر فإنه مما لا شك فيه أنه يُمكن أن نستخلص — فيما يخص هذه المتون — أن اللغة المصرية القديمة كانت لغةً رسمية بجانب اللغة الفارسية القديمة واللغة البابلية واللغة العيلامية، ولكن يلحظ أنه في حين أنَّ هذه اللغات كانت مستعملة في كل أنحاء الإمبراطورية؛ فإنا نجد أن لغات البلاد الخاضعة للحُكم الفارسي مثل اللغة المصرية لم تكن مستعملة إلا في البلاد التي كانت تنطق بها، ومن ثم نجدُ أنه قد أُضيف إلى نقش مسماري على ضفاف «البسفور» آخر إغريقي.

هل أتم «دارا» حقيقة حفر القناة؟

وبعد هذا العرض عن قناة «دارا» الأول لا يزالُ أمامنا سؤالٌ محيرٌ، وهو: هل ما جاء في هذه اللوحات التي نصبتْ على طول القناة ما يوضح حقيقة أن «دارا» الأول أَتَمَّ حفر هذه القناة بصورة قاطعة؟ وهذا السؤال قد نتج عن جملةٍ جاءتْ على لوحة «كبريت» في المتن المسماري، وهي: «لقد أمرت بحفر قناة من أول النهر المسمى النيل الذي يجري في «مصر» حتى البحر الذي يتصل ببلاد «الفرس»»، وهذا المتنُ يُعبر — على الأقل — عن مقاصد ملك قوي كان له فائدةٌ عظيمةٌ في إنشاء مواصلاتٍ بين عاصمة مُلكه وفتوحه الجديدة عن طريق البحر، وذلك لِتَفَادِي عقباتٍ مِن أيِّ نوع يُمكن مصادفتُها في الطريق البرية، غير أن الذي حفر هذه الأسطُر على لوحة «كبريت» المصنوعة من الجرانيت، على الرغم مِن أنه دون العمل الذي حقق لم يكن — بالتأكيد — قد رأى نهايته؛ وذلك لأن لوحة «الكبرى»

[٣] راجع: Journal of Near Eastern Studies Vol. II. October 1943 No. 4, p. 308.

التي تُعَد أقرب لوحة من البحر هي للعاهل «أكزركزس» خلف «دارا الأول»، ولكن نقرأ على نفس لوحة «كبريت» بعد التصريح الذي اقتبسناه هنا، وبعد الاعتراف بتنفيذ هذا الأمر ما يأتي: «هذه القناة قد حُفرت هنا كما قد أمرت.» وقد عرتنا الدهشةُ عندما نقرأ بعد هذه العبارة ما يأتي: وعلى ذلك قلت «اذهبوا من أول «بيرا» حتى الشاطئ واهدموا نصف القناة على حسب إرادتي.»

ونحن — في الواقع — لا نعرف ما هي «بيرا»، ويدلُّ سياقُ الكلام الذي فيه هذه الجملة المنقوشة على لوحة أُقيمت عند «كبريت» على أنَّ هذا الأمرَ ينطبقُ على جزء القناة الواقع بين «كبريت» والبحر، ولكن ما هو الدافعُ الذي دعا إلى التصريحِ بهذا العزم؟ فهل يا ترى كان لذلك علاقةٌ بالانتصارات الإغريقية على الفُرس في موقعتَي «آتوس» و«ماراتون» والخوف من بعض محاولات عدائية على مواصلات الإمبراطورية البحرية؟ أو أن ذلك كان نتيجة للثورة التي قامت في «مصر» قبل موت «دارا» بقليل؟ أو كان ذلك سببه الاعتراف المقنع للامتناع عن العمل الذي شرع فيه؟ وهذا ما يقدم لنا تفسير تلك الرواية التي نجدها في مؤلفات الكُتاب الإغريق منذ «أرسطو».

ولكننا قد رأينا أنه كانت توجدُ عند «الكبرى» الواقعة على مسافة ستة كيلومترات من «السويس» لوحةٌ أقامها «أكزركزس» الذي خلف «دارا الأول» على عرش الملك، وهذه اللوحةُ كانت قد أُقيمت على قاعدةٍ من اللبنات ارتفاعُها متران؛ لتوضع عليها اللوحة الجرانيتية بعيدة عن ماء المستنقع الملح، وقد كشف عنها الأثري «كليدا» في هذا المكان على مسافة ٤٥٠ مترًا، حيث توجد آثارٌ ظاهرةٌ للقناة القديمة، ويُلحظ أنه في هذا المكان، لا يصلُ ماءُ المستنقع إلى أكثرَ مما هو عليه الآن.

وتدلُّ البحوثُ الجغرافية التي عملت عن هذه المنطقة على أن بقايا الشواطئ القديمة الباقية توحي بأنه في عصور حديثه نسبيًّا كان المستوى الذي يمكن أن يصل إليه البحر أكثر ارتفاعًا من أيامنا هذه، وعلى ذلك فإن هذه اللوحة يجب أن تكون قد أُقيمت بالقرب من شاطئ البحر، وأن وُجُودها يحملنا على أنْ نؤكد أن «أكزركزس» بعد أن تخلص من مخاوفه السياسية أو المائية التي كانت تقفُ في وجه سلفه «دارا الأول»؛ قد أَتَمَّ حفر القناة حتى البحر، وهي القناةُ التي يُحدثنا عنها «هردوت» بأنها كانت مستعملةً في العهد الذي ساح فيه هو في حُكم الملك «أرتكزركزس» حوالي عام ٤٥٠ق.م.

قناة الجفار

لاحظ الأقدمون أن طبقة المياه الجوفية الناشئة مِن رَشْح النيل؛ كانت لا تكفي عيش الإنسان في الإقليم الذي يقعُ بين فرع النيل البلوزي ومنطقة البحيرات حتى الخليج العربي، فأنشئوا لإصلاح هذا النقص قناةً واسعةً عميقةً صالحةً للملاحة، تأخذ مياهها من النيل لري هذه الأراضي أولًا حتى حدود الخليج العربي وفيما بعد حتى «استراسين» = بلدة «الفلوسية» القريبة من «القنطرة» الحالية، وهكذا كانت القناةُ تخترق كل السهل المعروف الآن باسم «الجفار» حاملة الحياة والثراء في هذه الأقاليم المقفرة.

ومعلوماتُنا التاريخيةُ عن قناة «الجفار» لا تكاد تُذكر، ولكن على قِلَّتِها يُمكنُ بما لدينا مِن آثارٍ باقيةٍ أن نتتبع سيرَ مجراها، ولا بد أنها كانتْ معروفة جدًّا في عصرها، وأقدمُ وثيقةٍ منقوشةٍ عن هذه القناة موجودةٌ حتى الآن على جدران معبد الكرنك الكبير، ويرجع عهدُها إلى حُكم الفرعون «سيتي الأول» أحد ملوك الأُسرة التاسعة عشرة. وهذه الوثيقةُ معروفةٌ جدًّا؛ فهي تؤلف المنظرَ الذي يمثل عودة الملك «سيتي الأول» مظفرًا من حملته الأُولى على «سوريا» وقد مثل باسم طريق «حور» إلى حدود «مصر» أمام قلعة «ثارو» (= تل أبو صيفة)، القريب من «القنطرة»[٤] الحالية التي تخترقها قناة، ويشاهد في الجهة الأُخرى من القلعة أنه قد تَجَمَّعَ هناك القومُ الوافدون لتحية مليكهم بعد عودته من «فلسطين» مظفرًا، وهذا يُذكرنا بعودةِ البطل المصري «سنوهيت» إلى «مصر» من منفاه وله قصةٌ شائعةٌ تَرجعُ إلى عهد الملك «سنوسرت الأول»، وكذلك يذكرنا بوصول «يعقوب» إلى «مصر» لِلَّحَاق بابنه «يوسف» كما جاء ذكر ذلك في التوراة والقرآن.

ففي الحالة الأُولى نرى سفراء الملك «سنوسرت» الأول يستقبلون «سنوهيت» عند «ثارو» (تل أبو صيفة) ومعه حاشيتُهُ (المتن المصري يتحدث هنا عن طريق «حور»)، وفي الحالة الثانية نجد أن «يوسف» قد أرسل مع رُسُل له التصريحَ لوالده بالدخول إلى أرض «مصر»، غير أن الرواية العبرانية تضع بدل بلدة «ثارو» بلدة «العريش»، ولكن الأمر الذي يَلفتُ النظرَ بوجه خاص جدًّا — وهو ما يهمنا هنا — هو نهاية رحلة «سنوهيت» من أول «ثارو» وكان قد قطعها في سفينة، وكان رُسُل الملك قد وصلوا يحملون إليه الهدايا قبل وُصُوله في سفينة أيضًا.

---

[٤] راجع: J.E.A. Vol. 6. Pl. XI.

ومن ذلك نفهم أنه منذ بداية الأسرة الثانية عشرة في عهد الملوك الذين كانوا يحملون اسم «أمنمحات» أو «سنوسرت»؛ كانت قناة الجفار تجري حتى «القنطرة» ومن ثم يمكن القولُ — دون أي شك — إن هذه القناة يرجع عهدُها — على الأقل — إلى الأُسرة الحادية عشرة (حوالي عام ٢١٠٠ق.م)، ونحن نعلم أن أُمراء هذه الأسرة قاموا بحملاتٍ على شبه جزيرة «سيناء» وعلى «سوريا» الجنوبية، ومن المحتمل إذن أنَّ هؤلاء الأمراء قد حفروا هذه القناة لتسهيل سير حملاتهم، غير أنَّهُ مما يؤسف له جد الأسف أنه لا يوجدُ لدينا ما يُثبت أن جُزء القناة من «ثارو» حتى «الفلوسية» القريبة من «القنطرة» هو من عمل الفراعنة.

ونلحظ عند «ثارو» أنَّ الطريق تخترق القناة، ولكن لأجْل تسهيلِ العبور عملت قنطرة، وقد مثل كل من القناة والقنطرة في المنظر المرسوم على جدران الكرنك، ومن المحتمل أن كلًّا منهما يرجع عهده للأسرة الحادية عشرة، والآن يستطيعُ المرءُ أن يتساءل: هل كانت «القنطرةُ» واقعة في داخل المدينة (أي مدينة «ثارو»)؟ والواقع أنها قد مثلت في منظر الكرنك موضوعة بين بوابتين صخمتين.

ويشاهد على اليسار من الجهة الآسيوية على مسافة صغيرة برجٌ ضخمٌ، ذو درج، ويشاهد على الجهة اليُمنى من القناة حول البوابة وعلى صَفَّيْن ثلاثةُ مبان مماثلة، يوجد بينها برجٌ للحراسة يرقب الخروج من «مصر». ومن ثم نفهم أن القنطرة كانت تخترق القلعة.

«ثارو» أو «قنطرة» في العهد الروماني

وفي خلال الاحتلال الروماني لـ «مصر» كانت «ثارو» قد فقدت أهميتها الاستراتيجية، والظاهرُ أنَّ الطريق قد تَحَوَّلَتْ عن مكانها نحو الشمال قليلًا، وكذلك نقلت القنطرةُ إلى الغرب قليلًا على مسافةِ ثلاث كيلومترات، وكان لا يزال المبنى الجديد يُرى في منتصف القرن الثالث بعد الميلاد، وقد حتم إقامة القنطرة الجديدة هدمها، ولكن اسمها بقي في اسم القرية التي أُقيمت في هذا المكان («القنطرة» الحالية).

اسم القناة في منظر الكرنك

وتُسمَّى القناةُ التي رُسمت في منظر الكرنك «تادنيت» ومعناها القطع، غير أنَّ هذا الاسم الذي يُمكن أن يُطْلَقَ على أيِّ عمل مماثل صنعتْه يدُ الإنسان لا يظهر أنه هو الاسمُ الأصليُّ لهذه القناة.

وقد دَلَّتِ البحوثُ على أن «ثارو» كانت المكان الرئيسي للخليج؛ حيث كانت تمر عليه الناس والحيوان وكل المحاصيل العربية الداخلة إلى «مصر» بوساطة هذه المدينة، وقد كانت القناة تمتد من أول «ثارو» حتى الفلوسية الحالية القريبة من «القنطرة» وفي هذه الجهة وُجدت آثارٌ للقناة التي تأخذ ماءها من فرع النيل البلوزي.

قناة البطالمة

مِمَّا لا جدال فيه أنَّ أَهَمَّ وثيقة نُقشت على الحجر عن قناة نيلية تربط بين البحرين الأحمر والأبيض؛ هي اللوحةُ التي خَلَّفَها لنا «بطليموس الثاني» «فيلادلف»، عثر عليها الأثري «نافيل» أثناء الحفائر التي قام بها عند «تل المسخوطة»، وهي محفوظةٌ الآن بالمتحف المصري، ومما يؤسفُ له جد الأسف أنَّ اللوحة قد نُقشت نقشًا رديئًا، وقد تآكلتْ نُقُوشها؛ ولذلك فإنه من الصعب قراءتُها وحَلُّ معانيها، وسنُورد هنا الفقرات الهامة الخاصة بموضوع القناة، (راجع: Naville, The Store. City of Pithom p. 15 ff., 4th Edition 1903).

مُلَخَّص الترجمة:

نجد بعد سرد ألقاب الملك «بطليموس الثاني» زيارة هذا العاهل لبلدة «بثوم»؛ أي «تل المسخوطة»، فيقول المتنُ في السطر السابع: «إن جلالته ذهب بشخصه لبلدة «هروبوليس Heroopolis» عرش والده «آتوم»، وقد كانت البلاد في انشراح … وعندما زار جلالته معبد «بي قرحت» أهدى هذا المعبد إلى والده «آتوم»، وهو الإلهُ العظيمُ العائشُ في «تل المسخوطة» «تكو» …

وبعد جُملة غامضة جدًّا يَظهر أنَّ الحديثَ في اللوحة كان خاصًّا بسياحةٍ قام بها «بطليموس» لمقابلة آلهة «مصر» العائدين لـ «مصر» من بلاد الفرس، وبعد ذلك يتحدث المتنُ عن رحلةٍ قام بها «بطليموس» والملكة «آرسينوي» في مقاطعة «هروبوليس «نفر-اب»» وحفر قناة، فيذكر المتن أنه في السنة السادسة عشرة الشهر الثالث من …

لجلالته حفروا قناة لإرضاء قلب والده الإله «آتوم» الإله العظيم، وهو الإله العائش في «تل المسخوطة»؛ وذلك لنقل آلهة مقاطعة «تانيس» (= صان الحجر = خنت اب)، وابتداؤها هو النهرُ الذي في شمال «عين شمس» ونهايتُها في بُحيرة التمساح، وتجري بمحاذاة جانبها الشرقيِّ نحو الجدار العظيم الذي يبلغ ارتفاعُهُ مائة «ذراع»؟ وذلك لأجل أن يصد الثوار بعيدًا عن هؤلاء الآلهة، وبعد فقرة غاية في الغموض استعصى حَلُّها يتحدثُ المتنُ عن تأسيس بلدة «أرسينوي»، وعن حملةٍ على بلاد البدو في طلب الفيلة؛ لاستعمالها في جيش الملك.

ويدل فحص متن اللوحة على أن «بطليموس» قد حفر قناة غير قناة الشرق التي جاء ذكرُها في نُقُوش اللوحة، وأن الأخيرة كانت موجودة من قبل.

أما القناة الجديدة فكانت تأخذُ ماءها من الفرع البلوزي الذي يخترق مقاطعة «تانيس»، أو كان يربطها بقناة «ثارو» السالفة الذكر، وتجري تجاه «تل المسخوطة»، وهو مكانٌ محصنٌ يؤلفُ مع قناة «ثارو» الجُزْءَ الأوسط من «جدار الشرق» الذي ورد في النصوص القديمة.

رأي الأثري «كليدا»

ويقولُ الأثريُّ «كليدا» إن فحصه موضوعَ قناة «بطليموس الثاني» أَدَّى إلى أن هذه القناة كانت تأخذُ ماءها بالقرب من «دفنه»، على مقربة من منبع قناة «ثارو»، عند منتصف الطريق بين «فاقوس» ومصب الفرع البلوزي، وهذا يفسر الخلافَ الذي نجدُهُ في كلام المؤرخين.

الطريقُ البري من «قفط» إلى «برنيقة»

غير أنَّ هذه القناة هجرت في آخر عهد البطالمة، واستعمل بدلًا منها طريقٌ بريٌّ من «قفط» إلى «برنيقة»، أو إلى ميناء «ميوس هرموس»، وهي ثغرٌ على ساحل البحر الأحمر، والأُولى كانتْ مستعملةً منذ عهد «بطليموس» الثاني، وذلك أنه في السنة العاشرة من حُكْمه ٢٧٥ق.م، أسس هذا العاهلُ مدينةَ «برنيقة» على شاطئ خليج «أكاتارتوس Acatartos» (وهو الآن جرفٌ غيرُ صحي على شاطئ البحر الأحمر)، والواقعُ أن «برنيقة» هذه كانت تُعد نهاية طريقٍ برية أنشأها «بطليموس» بوساطة جُنُوده بين البرزخ الذي يفصل النيل

عن البحر، وقد أُقيم فيه — على مسافاتٍ — مَحَاطُّ مجهزةٌ بماء عذب وإصطبلات؛ لأجل أن يعوض نقص الماء في هذه الجهة.

سببُ إنشاءِ هذا الطريق

ويقول الجغرافيُّ «استرابون»: إن سبب إنشاء هذا الطريق من «قفط» حتى «برنيقة»؛ كان للتغلُّب على الصعوبة التي تَعترض السياحة فِي بحرٍ رياحُهُ شديدةٌ، وبخاصة خليج «السويس» الضيق، وتَدُلُّ الحقائقُ التاريخيةُ على أن استعمال الطريق المائية الموصلة بين البحرين لم تُهمل بعد عهد الملك «بطليموس فيلادلف»، بل من المحتمل أنها هجرتْ في خلال القرن الأول قبل الميلاد واتخذت بدلًا منها طريق «برنيقة/قفط».

ميناء «ميوس هرموس»

وكذلك ينسب إنشاء ميناء «ميوس هرموس» (= ميناء القواقع) الواقعة على البحر الأحمر لإيجاد طريق بينها وبين «قفط»، وسبب ذلك أن المسافة بين هذه الميناء وبين النيل كانت أقصر (المسافة بين «قنا» وميناء «مينوس هرموس» حوالي ١٨٣ كيلومترًا)، وكذلك لوُجُود مَرسًى شاسعة ممتازة فيها — كما يقول «استرابون» — وإذا صدقنا ما يقوله «استرابون» عن هذه الميناء؛ فإنها لم تكن مستعملةً للتجارة في عهد البطالمة إلا بقدر معلوم؛ وذلك لأنه في عهد هؤلاء الملوك كانتْ تجارةُ «الإسكندرية» العامة إلى الهند تَسير بوساطة النيل، وكذلك بوساطة ميناء «ميوس هرموس»، وعلى العكس من ذلك كانت التجارةُ في عهد الإمبراطور «أغسطس» نشطةً في هذه الميناء؛ إذ قد أقلع منها مائة وعشرون سفينة إلى الهند، وذلك في عهد ولاية «اليوس جالوس» الروماني على «مصر».

ميناء «ميوس هرموس» تحمل محل «برنيقة»

وأخيرًا يظهر أن «ميوس هرموس» قد حَلَّتْ محل «برنيقة» نهائيًّا، فكانت الطريق التجارية من «قفط» إلى «ميوس هرموس» هي الطريق العامة المتبعة، لدرجة أنَّ كل التجارة كانت تمر بها، وعلى ذلك فإنه من المحتمل جدًّا أن الطريق المائية إلى «السويس» — بوساطة قناة — قد هجرتْ شيئًا فشيئًا، ونقصت قيمتُها كما نقص عُمْقُها، ومن ثم لم تصبحْ صالحةً لسير السفن الكبيرة فيها.

إحياء الطريق المائية بين البحرين

وتدل شواهدُ الأحوال على أنه في بداية العصر المسيحي كانت القناةُ التي تربط النيل بالبحر الأحمر مهملةً، غير أنها قد ذكرت أحيانًا بأنها الطريق إلى الهند، كما جاء ذِكْرُ ذلك على لسان كل من الكاتبين «لوسيان» والجغرافي «بطليموس» في منتصف القرن الثاني المسيحي، ويتساءل الإنسان عن الأسباب التي دعتْ إلى إعادة استعمالِ هذه الطريق النهرية والبحرية بين «إفريقيا» و«آسيا» و«أوروبا»؟

الإمبراطور «تراجان» وإصلاح القناة

وإجابة على ذلك نقول: إنه من المحتمل أن الإمبراطور «تراجان» الروماني بعد انتهاء حروب «داسيس»؛ شرع في فتح بلاد العرب السعيدة و«أرمينيا» وبلاد ما بين النهرين («العراق» الحالية)، وقد رأى أنه من الأُمُور الحربية الهامة لديه أن يُعيد إنشاءَ طريق مواصلات بحرية بين البحر الأبيض المتوسط و«مصر» والبحر الأحمر الذي تغمرُ مياهُهُ ميناء «عيله»، وبذلك توجد طريقٌ إلى الخليج الفارسي، غير أن هذا الإمبراطور قد تُوُفِّيَ حوالي عام ١١٧ ميلادية.

ومما يلفت النظرَ بصفةٍ خاصة؛ أنْ نقرأ فيما كتبه مؤرخو العرب — خصوصًا «المقريزي» — أن الإمبراطور «هدريان» ربيب «تراجان» وخليفته هو الذي أَتَمَّ القناة التي ابتدأها «تراجان» وأن «هدريان» هو الذي أعاد حَفْرَ هذه القناة التي تَصُبُّ في بحر القلزم «البحر الأحمر»، ومما يَطِيبُ ذِكرُه هنا — بهذه المناسبة — أن الإمبراطور «هدريان» كان قد زار «مصر» عام ١٣٢ ميلادية، ومكث فيها مُدَّةً طويلة، وهذا يتفق مع الرأي القائل إنه هو الذي أعاد حفر القناة.

الأسباب التي دعت لإعادة حفر هذه القناة

وقد حَدَّثَنا كُلٌّ من الجغرافي «بطليموس» وكُتاب العرب عن العمل الذي قام به كل من «تراجان» و«هدريان»، فنفهم مما كتباه أن انحدار مجرى القناة في زمنهما كان ضعيفًا عند «بوبسطة»، ومن نقطة تقع ما بين «عين شمس» و«بوبسطة» حتى «القلزم» الواقعة على البحر الأحمر، مما سَبَّبَ صعوبةَ الملاحة، ومن ثَمَّ نفهم أن ما قام به هذان العاهلان

كان ينحصرُ في حفر القناة من جديد بصورةٍ جِدِيَّةٍ، أو إنشاء قناة جديدة تحمل المياهَ مِنَ النيل من عند «بابليون» («مصر القديمة» الحالية).

والظاهرُ أن هذه القناة قد استمرت مستعملةً حتى العهد الإسلامي في «مصر» على حسب ما رواه «المقريزي»، وهو القائلُ إن الإمبراطور «هدريان» قد حفر القناة التي تَصُبُّ في بحر القلزم، وكانت السفنُ تَمُرُّ فيها في الأزمان الأُولى من العهد الإسلامي.

إصلاح القناة على أيدي العرب

«عمر بن الخطاب» والقناة

لاحظنا في الوثائق العربية التي استعرضناها هنا بَعْضَ الغُمُوض في التعابير التي يصعب فهمُها على القارئ العادي، وتَدُلُّ كل الوثائق التي وصلتْ إلينا من كُتاب العرب على أن «عمرو بن العاص» هو الذي قام بإصلاح القناة ثانية حتى جعلها صالحة للملاحة، وقد شرح لنا السبب في ذلك الكاتب الفرنسي «لابيير» في مؤلفه المسمى «قناة البحرين»، وذلك على حسب ما جاء بكتاب «ابن عبد الحكم» الذي نقل — بدوره — عن «عبد الله بن صالح».

ويَتَلَخَّصُ ذلك في أنه حَدَثَ قحطٌ كبيرٌ في مدينة الرسول وفي كل أنحاء بلاد الحجاز، ومن أجل ذلك طلب الخليفةُ «عمر بن الخطاب» إلى «عمرو بن العاص» إرسال قافلة كبيرة العدد، فكان أَوَّلُها قد وصل إلى «المدينة» قبل أنْ يغادر آخرُها «مصر»، ويكفي أن يتصور الإنسان عِظَمَ الكارثة عندما يعرف أن المؤنة والجمال التي كانت تحملها لم تكد تكفي سد حاجة الناس هناك، ومن أجل ذلك أمر «عمر بن الخطاب» عامله على «مصر» «عمرو بن العاص»، بالحضور إلى «المدينة»، وهناك أمره بحفر قناة النيل التي تصل إلى البحر الأحمر؛ لتسهيل حمل الميرة التي يصعب حملها على ظهور الإبل.

ولم يرض المصريون عن هذا المشروع عن طيب خاطر؛ لأن ذلك كان فيه خرابٌ لبلادهم لمصلحة الغُزاة، ولكن الخليفة «عمر» فهم ما في قلوبهم وهدد «عمرا» إنْ هو لم يفعل ما أمره به، وقد عاد «عمرو» إلى «مصر» وجمع عددًا كبيرًا من العُمَّال وحفر القناة

من النيل حتى «قصر القلزم» «السويس»، ولم تكد تنتهي السنة حتى أصبح في مقدور السفن أن تجري في القناة حاملة المؤن الضرورية إلى «مكة» و«المدينة».

رأي «عمر بن الخطاب» في إحياء التجارة القديمة

وقد روى لنا الكاتبُ «لابيير» — نقلًا عن وثيقة أُخرى لم يذكر لنا اسم مؤلفها — أن «عمرو بن العاص» أجاب عن خطاب أرسله «عمر بن الخطاب» إليه في هذا الشأن قائلًا: يا أمير المؤمنين «عمر» إني أعلم أنه قبل الإسلام كانت هناك سُفُنٌ تحمل إلينا التجارة من «مصر» وإنه منذ أن قمنا بفتح البلاد توقفت هذه الصلة وإن القناة رُدمتْ، وتَخَلَّي التجارُ عن السياحة فيها، فهل تريد أن آمر بحفرها ثانية؟

رواياتُ مؤرخي العرب عن إعادة حفر القناة

هذا، وقد روى لنا كثيرون مِن مُؤَرِّخِي العرب روايات مختلفة عن إعادة حفر هذه القناة، نذكر منهم:

(١) القضاعي: روى «القضاعي» أن «عمر بن الخطاب» أمر «عمرو بن العاص» بحفر القناة التي تُسمى قناة «أمير المؤمنين»؛ وهي التي تخرج من عند «الفسطاط»، وقد أنجز حفر هذه القناة في أَقَلَّ من سنة.

(٢) الكندي: أما «الكندي» فيقول: إن هذه القناة كانت قد حُفرت في عام ٦٤٣–٦٤٤، وانتهت في ستة أشهُر.

«مصر» مصدر ثروة لبلاد العرب

وهذه الوثائقُ التي ذكرناها من قبل تخول لنا أن نقرر هنا أنه على أثر فتح «مصر» (٦٤٠–٦٤٢ميلادية)، رأى العرب ما كانت عليه «مصر» من خصب وثراء يمكنُ الإفادةُ منه لتموين بلاد «الحجاز» الفقيرة، ومن ثم رأى «عمر» ضرورة إعادة هذه الطريق المائية الهامة بين النيل والبحر الأحمر، تلك الطريق التي توصل إلى بلاد العرب وثغورها.

تطهير القناة من عند «الفسطاط»

ولم يكن القيام بكري القناة بالعمل الشاق؛ إذ كان مجرد تطهير، دون إحداث تغيير أو إصلاح في مجراها الأصلي، والواقعُ أن العمل في ذلك لم يمكثْ أكثر من سِتَّة أشهُر — كما ورد ذلك في رواية «الكندي» — وقد بُدِئَ العملُ في هذه القناة عند «الفسطاط»، وانتهى عند «القلزم»، وبذلك أصبح في استطاعة التجار استعمالُها دون أيِّ عائق.

فكرة حفر قناة مباشرة بين البحرين

ومن المُدهش في تاريخ إعادة هذه القناة بوصفها طريقًا مائية تربط بين البحرين؛ أنه قد فكر في العهد العربي في حفر قناة مباشرة بين البحرين، تأخذ من مائهما دون الالتجاء إلى قناة تخرج من النيل لتربط بينهما، فقد روى لنا المؤرخ «أبو الفداء» عن «ابن سعد» أنه بالقرب من «الفرما» يقتربُ البحرُ الأبيض المتوسط من البحر الأحمر، لدرجة أنهما لا يبعدان الواحد عن الآخر أكثر مِن حوالي سبعين ميلًا، وهذه المسافةُ التي تبلغ ١٠٤ كيلومترًا هي عبارة عن عشرة كيلومترات أقل من «الفرما» إلى «قصر القلزم» (السويس) إذا قِيست في خَطٍّ مستقيم.

عمرو بن العاص» أول مَنْ فكر في هذا المشروع

هذا، ويضيف «أبو الفداء» إلى ما سبق أن «عمرو بن العاص» كان لديه فكرةٌ في عمل قطع ليُوصِل البحرين بمائهما، وهذا القطعُ كان لا بد أن يُعمل في المكان الذي يُسَمَّى «ذنب التمساح»، وقد ذكر لنا ذلك «المسعوديُّ» الذي أوردنا متنه الغريب فيما سبق بشيء من التفصيل، ولكن رأيه في ذلك كان كرأي الكُتاب الأقدمين أمثال «أرسطو» و«ديودور الصقلي» و«بليني القديم» وهم معروفون عند المؤرخين العرب، فقد أعلنوا استحالة تنفيذ هذا المشروع بسبب أنَّ مستوى البحر الأحمر كان أعلى مِن مستوى البحر الأبيض، وهذه النظريةُ كانتْ من المحتمل جدًّا أنها ترجعُ في أصلها إلى وُجُود المستنقع الذي يروي «القلزم»، ولكن هذا المنسوب المرتفع كان يَتلاشى تمامًا عند «الفرما»، وكذلك نُشاهد في رواية المسعودي أن «عمرو بن العاص» قد ضرب صفحًا عن هذه الفكرة الجَذَّابة، وعاد إلى تَتَبُّع أثر القناة الخارجة من النيل وتطهيرها.

وأول فرع للقناة هو الذي يخرج من النيل إلى بحر القلزم، وكان هنا بالضبط كما ذكر المؤرخون العرب قد بدأ العمل الذي أنجز «عمرو بن العاص»؛ أي جعل قناة القدامى صالحة للملاحة بتطهيرها.

وقد ذكر «المسعودي» أن الموضع الذي حفره «عمرو» ببحر القلزم — وهذا ما يسميه «أبو الفداء» القطع — يُعرف بذنب التمساح وهو على مسافة ميل من مدينة «القلزم»، وهذا الموقع ذكره كذلك «أبو الفداء» بوصفه منبع القناة، وقد حدده «المسعودي» بالنسبة لـ «القلزم»، والواقعُ أن «القلزم» هو الاسم العربي الذي حل محل الاسم الإغريقي «قلزما Clysma» وهو ما يقابل «كوم القلزم» الحالي الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية من مدينة «السويس»، أما اسم ذنب التمساح فإنه — على ما يظهر — مأخوذٌ من شكل المكان هناك؛ إذ من المحتمل أنَّ خليج «السويس» وبخاصة المستنقع — وهو آخر مكان ينغمس فيه خليج «السويس» — قد سُمي بذنب التمساح من شكله.

وعلى أية حال فإن المكان الذي ذكره كُلٌّ من «المسعودي» و«أبو الفداء» بأنه منبعُ القناة قد أُشير إليه بوضوح؛ إذ نجدُهُ مذكورًا حتى في أيامنا.

قنطرة «عبد العزيز بن مروان»

والعمل الوحيد الذي نجدُهُ مذكورًا في المتون الإغريقية واللاتينية هو القنطرةُ العظيمةُ التي يتحدث عنها «المسعودي»، وهي التي كان يَعْبُرُ عليها الحجاجُ المصريون المستنقع، وكان قد أقامها «عبد العزيز بن مروان» حاكم «مصر»، وهذه القنطرةُ — على ما يظهر — لم تكن إلا معبرًا، وقد عُثر على بقاياها، وليس من المستحيل أنها كانت قد أُقيمت هناك على أنقاض معبرٍ معروف منذ أزمان قديمة جدًّا، وكان الغرضُ منها أن تُوصِلَ إلى الطريق الكبيرة الآتية من «بابليون» و«القاهرة» و«منف» و«بلوز» (= الفرما) ويستمر «المسعودي» في متنه قائلًا: إن القناة كانت تمر بقنطرة في أرض «مصر» تُسمى «الهامة» (وكان العرب يقصدون بأرض «مصر» إقليم الدلتا الخصب)، وهنا كانت كذلك تبتدئ «مصر» في نظر القدامى، ومن المحتمل أن «الهامة» كانت تقع على الفرع البلوزي في إقليم «صفط الحناء» أو «بلبيس»، وذلك على حسب ما إذا كانت قناة العرب قد شغلت القناة الشمالية أو القناة الجنوبية لوادي «طميلات».

ومن المحتمل جدًّا — على أية حال — أن القناة الجنوبية هي قناة «هدريان»، وأنها هي التي أعاد العرب كَرْيها وجَعْلها صالحة للملاحة، يدل على ذلك ما حدثنا به المؤرخ

العربي «الفرجان» الذي عاش في أوائل القرن التاسع الميلادي بمناسبة الخليج الذي كان أصل القناة النيلية: «إن القناة التي أصلحها «عمرو بن العاص» وسُميت باسم «خليج أمير المؤمنين» تمجيدًا لـ «عمر بن الخطاب» هي نفس قناة «تراجان» التي أطلق عليها «بطليموس» الجغرافي هذا الاسم.»

أسماء القناة عند المؤرخين العرب

أما عن الأسماء الأخرى لهذه القناة في المؤلفات العربية؛ فقد ذكر لنا «المقريزي» — فيما كتبه — بعضَ معلوماتٍ في هذا الصدد، فعلى حسبه سميت أولًا قناة «مصر»، والواقعُ أنها كانت تُحاذي الشاطئ الشرقي لهذا الإقليم الغني (يقصد الدلتا)، ولما أُسست مدينة «القاهرة» على مسافة قليلة من «الفسطاط» «بابليون» على الشاطئ الشرقي لهذه القناة سميت قناة «القاهرة»، ولكن كان اسمها الرئيسي أول الأمر هو «خليج أمير المؤمنين» وكانت تُسمى أحيانًا «قناة اللؤلؤة».

نقطة تَقابُل السفن في هذه القناة

ومِمَّا يطيبُ ذكرُه هنا أنْ نُقرر أنه على حسب ما جاء في المتون العربية؛ أن هذه القناة لم تكن تؤلف اتصالًا بحريًّا مباشرًا بين البحر الأبيض المتوسط والأحمر، وفي ذلك يقول «المسعودي» إن نقطة التقابُل كانت تَحدُث في أرض «مصر» (أي الدلتا) عند «الهامة» وذلك أن سفن النيل والقوارب الصغيرة التي تُشبه القوارب الشراعية التي تجري في البحر الأبيض حديثًا؛ كانت تأتي هناك لمقابلة قوارب البحر الأحمر، وهناك كانت تجري المعاملاتُ التجارية.

مدة السفر في القناة حتى البحر الأحمر

ويقول «ابن الطوير» في هذا الصدد إنه في وقت الفيضان — وهو أحسن فصل للسياحة — كان لا بد من خمسة أيام للسفن لتحمل على النيل والقناة المؤنَ المشحونة من «مصر» إلى «الحجاز»، وكان أهل «الحجاز» يُرسلون مثل أيامنا قوارِبَهم إلى «السويس» «القلزم» لملاقاة سفن النيل عند «القلزم» محملة بمحصول «مصر».

تاريخ طم القناة في العهد العربي

اتفقت كل المصادر العربية على الزمن الذي طمت فيه القناة والأسباب التي دعت إلى ذلك، فقد كتب «المقريزي» أن الناس كانت تسيح في هذه القناة إلى الوقت الذي ثار فيه «محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب» في «المدينة» على «أبي جعفر عبد الله بن محمد المنصور» ثاني خلفاء بني العباس.

ويروي لنا «شمس الدين البلاذري» نفس الرواية في عهد الخليفة السالف الذكر، ولكنْ تختلفُ تواريخُ هذا الحادث على حسب أقوال المؤرخين من ٧٦٢ إلى ٧٦٧ ميلادية، ويؤكد «المقريزي» أنَّ رَدْمَ القناة قد حدث في سنة ٧٦٧–٧٦٨ ميلادية.

هذا، وقد رأينا عند درس المتون التي وردتْ عن القناة أنه في عام ٧٥٠ ميلادية أن الراهب «فيدليس» عند ذهابه إلى شِبْهِ جزيرة «سيناء» سَاحَ في النيل حتى «القلزم» بوساطة القناة، أما «شمس الدين» فيُحَدِّد ردم القناة بأنه قد نفذ بسد فتحة مصبها عند «القلزم».

رأي «المسعودي»

ولكن إذا صَدَّقْنا ما رواه «المسعوديُّ» من أن خلف المنصور — وهو أمير المؤمنين «هارون الرشيد» — قد تناول ثانية مشروع إحياء المواصلات بين البحرين؛ فإن ذلك يعد تجديدًا لفكرة «عمر» فيقول:

«فرام ذلك مما يلي بلاد «الفرما» نحو بلاد «تنيس» على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي»، وعلى ذلك يكون هذا المشروع عبارة عن الأخذ ثانية بفكرة «عمرو بن العاص»، وهي إنشاء قناة مباشرة من «بلوز» إلى «الفرما» دون استعمال ماء النيل.

وإنه لمن الغريب حقًّا أن يكون إحجام «الرشيد» أو تخليه عن تنفيذ هذا المشروع يرجع إلى فكرة سياسية كالتي فرضناها عند تفسير ردم «دارا» للقناة، على حسب ما جاء في الحملة الغامضة التي وردتْ في لوحة «كبريت»، غير أنَّ «الرشيد» القوي السلطان لم يخلفه على العرش رجلٌ قوي مثل «أكزركزس» الذي أَتَمَّ حفر القناة التي بدأها «دارا الأول» والده.

هل بدأ «الرشيد» في تنفيذ مشرُوعه؟

ومِن المهم جدًّا أنْ نبحث فيما إذا كان ما رامه «الرشيد» — كما يقول «المسعودي» — قد اتخذت الخطوةُ الأُولى في تنفيذه؛ لأنه على حسب ذلك قد يكون في أيدينا المفتاح لحفر جُزءٍ من القناة، وهو الذي يبتدئُ مِن أول الجسر وهضبة الفردان، والواقعُ أنه ليس ببعيدٍ أن يكون «الرشيدُ» قد بدأ فعلًا هذا العمل، ثم أحجم عنه؛ وذلك لأنه كان صاحبَ مشاريعَ مائية عظيمة نُفذت في عهده، وبخاصة في بلاد الحجاز، ولا أَدَلَّ على ذلك مما قامتْ به زوجُهُ «زبيدة» مِن سَقْيِ أهل «مكة» من عين ماء تقعُ على مسافة ٢٥ كيلومترًا من «مكة» وأنفقت في حفر القناة التي توصل هذه العين «بمكة» حوالي ما يُساوي ثلاثة ملايين من الجنيهات، وذلك بعد أنْ كانت الروايةُ عند أهل «مكة» بدينار.

ويقول «الجوزي» في كتاب «الألقاب»: إن «زبيدة» أسالت الماء عشرة أميال بحفر الجبال ونحت الصخر، حتى غلغلتْه من الحل إلى الحرم وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها: يلزمك نفقةٌ كثيرة، فقالت: أعملها ولو كانت ضربةَ فأس بدينار، (راجع: «ابن خلكان الجُزْء الأول، ص٣٣٧» وBorchardt Travels Vol. I, p. 196).

وقد ظلتْ هذه القناة مهملة، لم يُحاول أحدٌ إعادةَ فتحها حتى عام ١٥٨٦ميلادية.

المحاولات الأُخرى التي بُذلت لإعادة حفر قناة قبل «ديلسبس»

سافاري دي لانكوزم Savary de Lancosme ومشروع حفر قناة تبتدئ عند «القاهرة»

ففي هذا الوقت كان «سافاري دي لانكوزم» سفيرًا لفرنسا في «القسطنطينية»، وقدم للملك «هنري الثالث» مشروعَ إعادة حَفْر قناة، تبتدئ عند «القاهرة» وتجري إلى خليج البحر الأحمر.

«ريشليو Richelieu» وقناة «السويس»

وبعد ذلك قدم فردٌ مجهولُ الاسم للوزير الفرنسي «ريشليو» في عهد الملك «لويس الثالث عشر» (١٥٨٥–١٦٤٢ميلادية) مشروعَ حفر قناة تجري من «السويس» إلى «القاهرة»، وهذه القناة كانت مستعملة في عهد فراعنة «مصر» ومن المحتمل في عهد «سليمان».

كولبير Colbert وقناة «السويس»

وكذلك نعلم أن الوزير الفرنسي «كولبير»، الذي عاش في عهد «لويس الرابع عشر» (١٦١٩–١٦٨٣ميلادية) قد طلب من مليكه بوساطة «دي لاهاي M. de la Haye» أنْ يَمْنَحه الحريةَ اللازمةَ لإقامة مستودعات عند «السويس» في «مصر» في داخل البحر

الأحمر، هذا بالإضافة إلى ضمان نقل كُلِّ السلع سواءٌ أكان ذلك بالعربات أم بالنيل من أول مدينة «السويس» حتى البحر الأبيض المتوسط.

ليبنتز Leibnitz الفيلسوف الألماني وقناة «السويس»

وكذلك جاء في المذكرة الشهيرة التي وضعها الفيلسوف العظيم «ليبنتز» لملك فرنسا «لويس الرابع عشر» أهمية برزخ «السويس» من الوجهتين السياسية والتجارية.

سفاري Savary وقناة «السويس»

وقد درس «سفاري» في نهاية القرن السابع عشر المشروعات المختلفة الخاصة بحفر قناة تربط بين البحرين في «مصر»، ومنها المشروع الذي تبناه ثانية «بنوا دي ماليه Benoist de maillet» الذي كان يعلم شيئًا عن آثار الأعمال التي كانت باقيةً في الصحاري المجاورة لمدينة «السويس».

مركيز «دارجنسون» Marquis d'Argenson

وتَدُلُّ حقائقُ الأُمُور على أن المركيز «دارجنسون» كان أول مَنْ فَكَّرَ بعد العرب في مشروع إنشاء قناة مباشرة لجميع العالم، والواقعُ أنه فكر فعلًا في حفر قناة جميلة تُوصل من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، غير أنه فَكَّرَ في ذلك، وكان يَأْمُلُ أَنْ يجعلها خاصة بالعالم المسيحيِّ وحسب.

البارون «توت» ومشروع قناة «السويس»

وقَدَّمَ البارون «توت» الذي كان يعملُ سفيرًا ومُعَلِّمًا لجيوش ملك فرنسا مشروعًا للسُّلطان مصطفى عام ١٨٨٦ ميلادية، وفحواه ربطُ البحرين الأبيض والأحمر بوساطة برزخ السويس Memoires sur les tures, 1784, part. III, et IV. Cités par Le Pére et Douin.

نابليون» وقناة «السويس»

وأخيرًا لَمَّا قدم «نابليون» إلى «مصر» في غارته المشهورة عليها فَكَّرَ في إعادة توصيل البحرين بحفر ترعة بينهما من مائهما، ولكنه امتنع عن إنفاذ مشروعِهِ لتَوَهُّم «لابيير» مهندس الحملة الفرنسية أنَّ سطح البحر الأحمر يعلو على سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار.

محمد علي» وقناة «السويس»

وبقيتْ هذه الغلطةُ شائعةً إلى أنْ أُصلحت نهائيًّا في عهد «محمد علي»؛ إذ حضر إلى «مصر» في عام ١٨٤٧ ميلادية بعثٌ من أُوروبا ليفحصوا المشروع، فاشترك معهم «لينان» مهندس الحُكُومة المصرية وقتئذٍ، فأقر الجميعُ بفساد رأي «لابيير»، وأثبتوا أن البحرين في مستوًى واحد، على أن «محمد علي» كان يشك في نجاح المشروع ويخشى عاقبته، كما فطن لذلك من قبله «هارون الرشيد» إلا أنه لم يأل جهدًا في مساعدة البعث في بحثهم؛ لئلا يظهر بمظهر المعرقل لمسعاهم.

وقد ظل بعد ذلك المشروع موقوفًا حتى تولي «سعيد» فنال منه «فردنند ديلسبس» عام ١٨٥٤ ميلادية إذنًا ابتدائيًّا بحفر قناة «السويس»، فكان ذلك الحادث أول تدخل في شئون «مصر» مما أفضى إلى استعمارها في عام ١٨٨٢ ميلادية، وظلت كذلك حتى عام ١٩٥٢ميلادية حين خلعت عن عاتقها نير الاستعمار وطردت المغتصب نهائيًّا، ثم أممت القناة وأصبحت «مصر» هي صاحبة السيادة عليها على الرغم مِن تكتُّل الدول العظمى عليها ومحاربتها لانتزاع استقلالها منها والاستيلاء على القناة ثانية، ولكن «مصر» ظلت صلبة العود عزيزة الجانب بفضل وطنية قادتها … وقوة إيمان شعبها الذي بهر العالم بصبره وحُسن بلائه أمام جحافل دولتين من دول العالم العظمى ودولة ثالثة صغيرة استُعملت بمثابة مخلب القط الذي فقد مخلبه وتلاشت آمالُه.

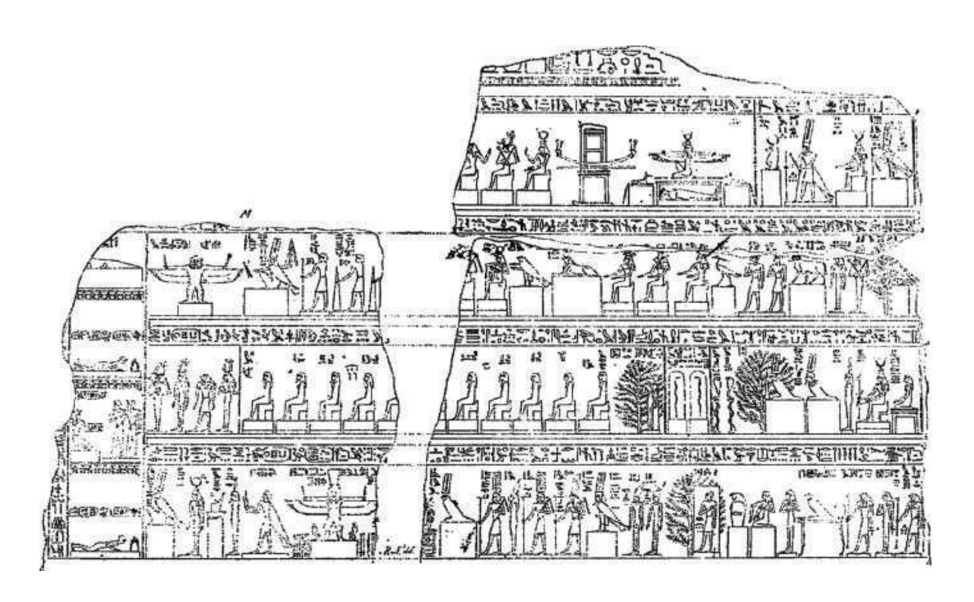
ملحق الصور



الملك أوكوريس انظر [فصل: الملك «هجر» «أوكوريس»].



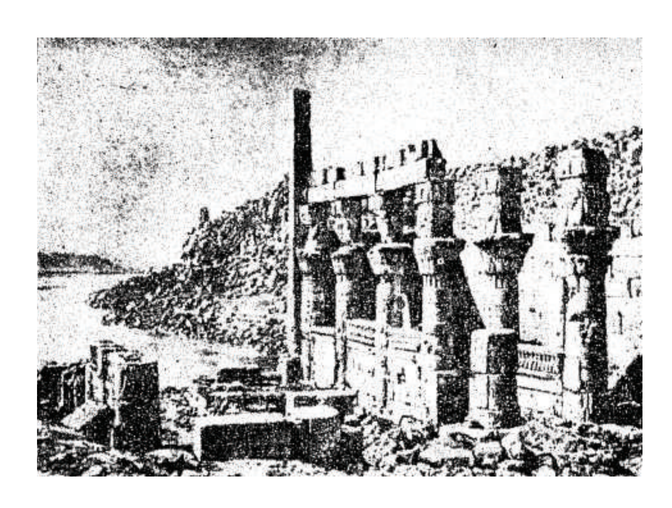
لوحة نقطانب الأول عُثر عليها في الأشمونين انظر: [فصل: حالة مصر في عهد نقطاب الأول – لوحة الملك نقطانب «نخت نبف» الأول].



جزء من ناووس نقطانب الأول في سفط الحناء انظر: [فصل: حالة مصر في عهد نقطاب الأول – صفط الحناء].



البوابة العظيمة للملك نقطانب الأول بالكرنك انظر: [فصل: حالة مصر في عهد نقطاب الأول – الكرنك].



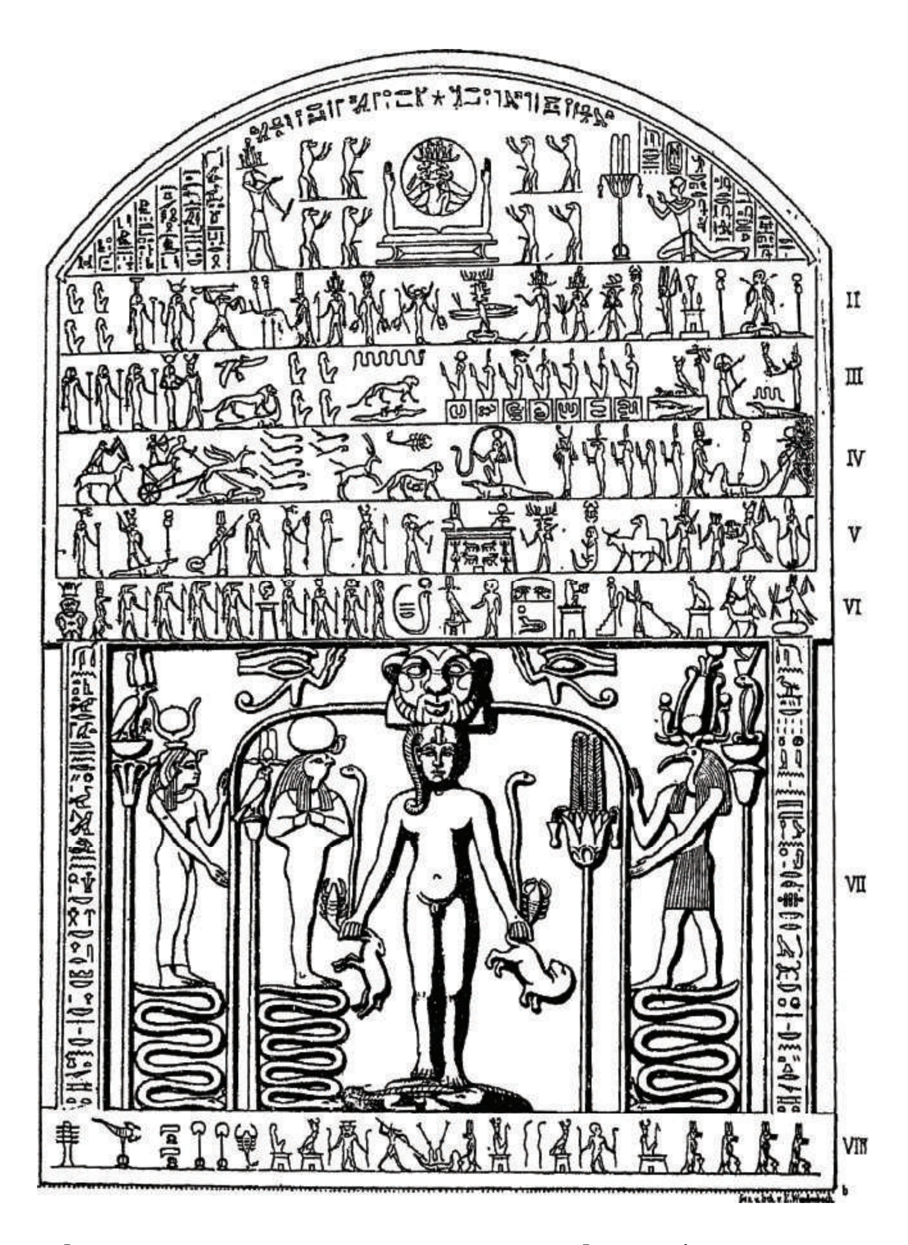
معبد نقطانب الأول في النهاية الجنوبية من الفيلة انظر: [فصل: حالة مصر في عهد نقطاب الأول – الفيلة].



الملك نقطانب الثاني أنظر: [فصل: بداية عهد «نقطاب» الثاني].



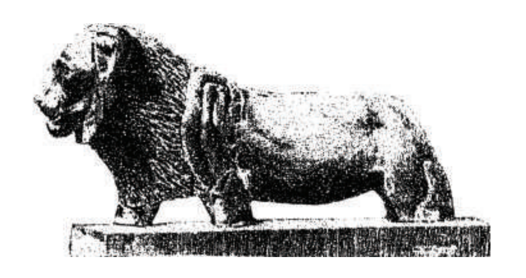
تابوت نقطانب الثاني انظر: [فصل: بداية عهد «نقطاب» الثاني – بهبيت الحجر].



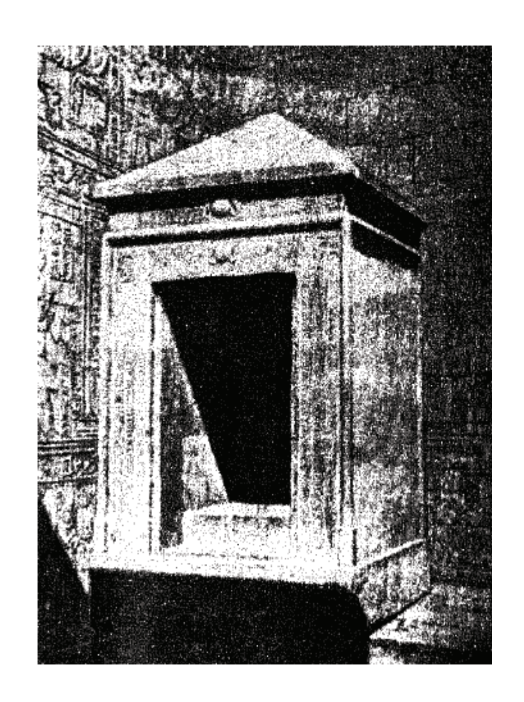
لوحة مترنين من الأمام انظر: [فصل: بداية عهد «نقطاب» الثاني – لوحة مترين السحرية].



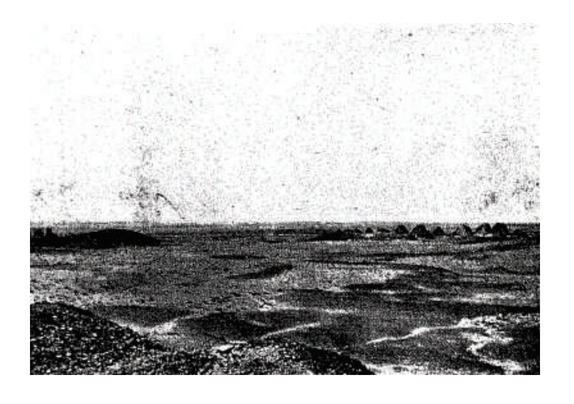
لوحة مترنين «من الخلف» انظر: [فصل: بداية عهد «نقطاب» الثاني – لوحة مترين السحرية].



أسد الفتيكان انظر: [فصل: بداية عهد «نقطاب» الثاني – منف (السرابيوم)].



ناووس نقطانب الثاني في إدفو انظر: [فصل: بداية عهد «نقطاب» الثاني – ادفو].



جبانتا مرو الجنوبية والشمالية مع الجبانة الغربية انظر: [فصل: تاريخ بلاد كوش (السودان) من بداية العهد الفارسي في مصر حتى عهد فتح الإسكندر الأكبر لأرض الكنانة].



أهرام نوري وما بعدها انظر: [فصل: الملك كاركامانى].



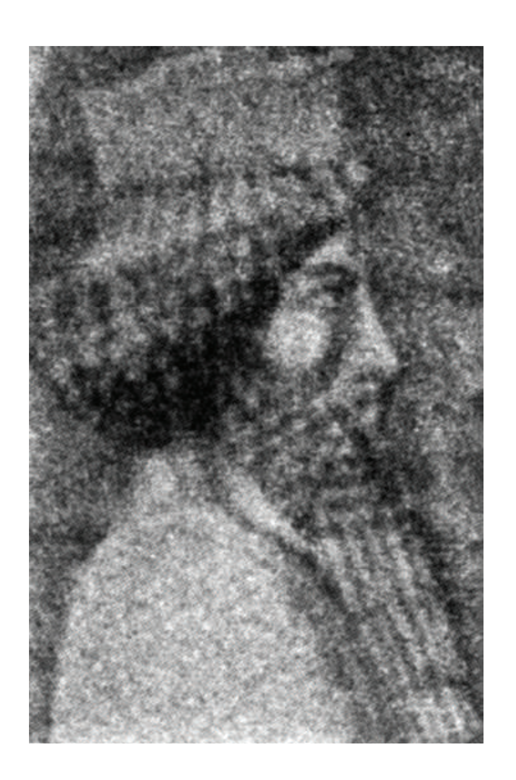
لوحة الملك حرسيوتف انظر [فصل: الملك مالويبأماني (٤٥٣–٤٢٣ق.م)].



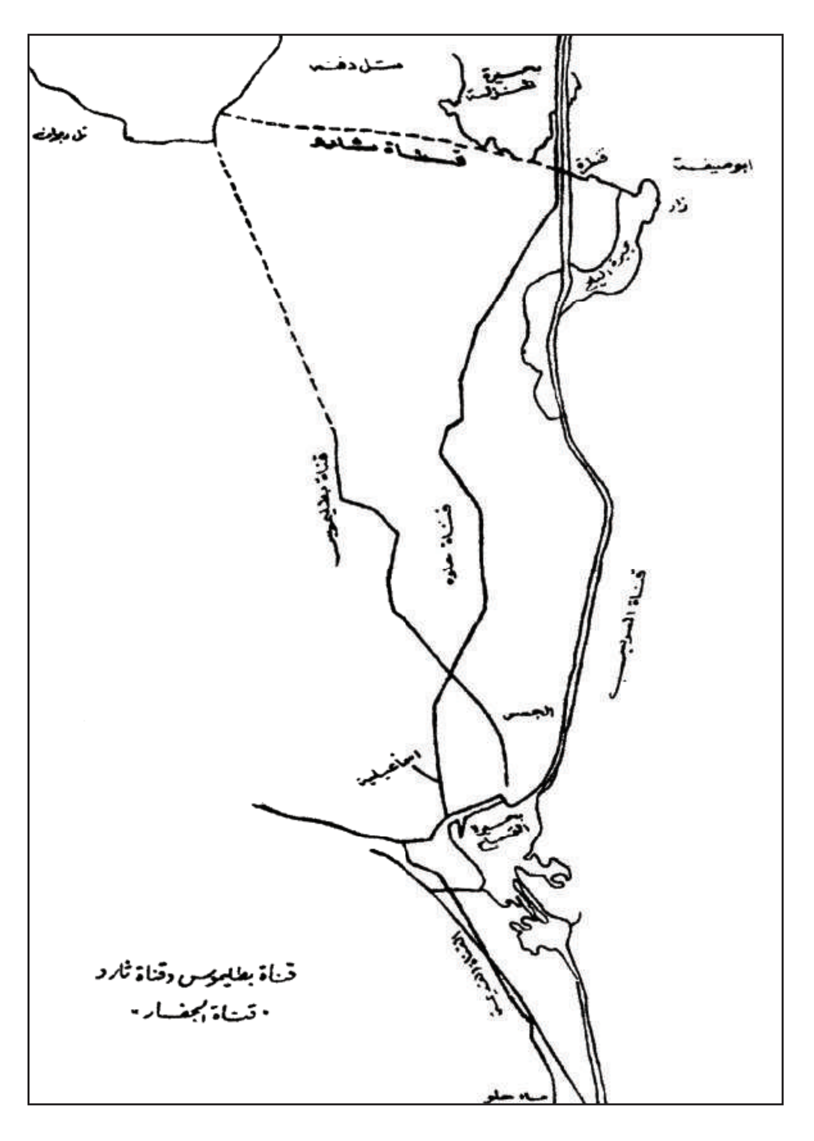
لوحة الملك نستاسن انظر: [فصل: الملك نستاسن].



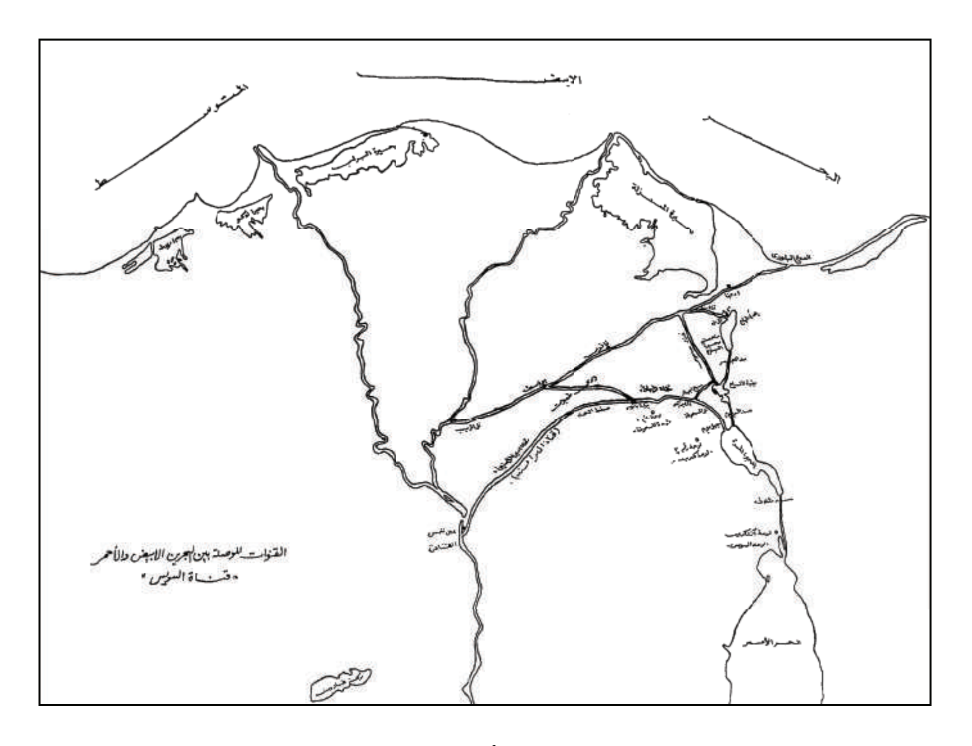
الملك كورش العظيم انظر: [فصل: الملك «كورش» «سيروس»].



الملك دارا الأول انظر: [فصل: تولي دارا «الملك» عام ٥٢١ق.م].



انظر: [ملحق: قصة «قناة السويس» من أقدم العهود حتى نهاية القرن التاسع عشر، استعراضٌ وتحليل].



انظر: [ملحق: قصة «قناة السويس» من أقدم العهود حتى نهاية القرن التاسع عشر، استعراضٌ وتحليل].

المصادر الإفرنجية

(١) مختصر أهم أسماء الدوريات الإفرنجية المستعملة في هذا الجزء:

A. F. O: Archiv fur Orientforschung, Berlin.

A. J. S. L: The American Journal of Semitic Language and Literatures., Chicago and New York.

Ancient Egypt, London.

A. R: Archaeological Report, Egypt Exploration Fund.

A. S: Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, Caire.

A. S. N: Survey Department, Archaeological Survey of Nubia., Cairo.

A. Z: Zietschrift fur Agyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig.

B. B. M. F. A: Bulletin of the Museum of Fine Arts, Boston.

B. C. H: Bulletin de Correspondence Hellénique, paris.

B. I. F. A. O: Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire.

Chronique d'Egypte, Brüssel.

E. E. M. M: The Bulletin of the Egyptian Expedition Metropolitan Museum of Art New York.

J. A: Journal Asiatique.

J. E. A: Journal of Egyptian Archaeology, London.

J. H. S: Journal of Hellenic Studies, London.

Kemi, Revue de, Philologie et d'Archaéologie, Egyptienne et Copte, Paris.

L. A. A. A: Annals of Archaeology and Anthropology issued by the Institute of Archaeology, University of Liverpool, Liverpool.

Mem Inst. Fr: Mémoires publiés par les Membres de I'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire.

Mém. Miss Fr: Mémoires publiés par les Membres de la mission Français au Caire, Paris.

Mitt. D. Inst: Mittelungen des Deutschen Instituts fur Agyptische Altertumskunde in Kairo, Berlin.

N. G. A. W: Nachrichten des Grittinger Akademie des Wissensch.

N. G. G. W: Nachrichten der Ges, der Wissensch, zu Gottingen.

O. L. Z: Orientalistische Literaturzeitung, 1898 ff.

p. S. B. A: Proceedings of the Society of Biblical Archaeology London.

Rec. Trav: Recueil de Travaux relatifs à la Philologie et à I'Archéologie Egyptienne et Assyrienne, Paris.

Rev. Archéol: Revue Archéologique.

Rev. Eg: Revue Egyptologique, Paris.

Rev. Eg. Anc: Revile de I'Egypte Ancienne, Paris.

Sphinx, Revue Critique Embrassant le Domaine Entier de l'Egyptologie, Upsala.

Sudan Notes and Secords, Khartoum.

T. S. B. A: Transactions of the Society of Biblical Archaeology, London.

W. O: Die Welt des Orients, Wissenschaftliche Beitràge zur Kunde des Morgenlandes, Wuppertal.

Z. A: Zeitschrift fu Assyriologie und verwandte Gebiete.

Z. D. M. G: Zietschrift der Deutschen Morgenlandischen Gessellsehaft.

(٢) المراجع الإفرنجية:

Amelineau: Nouvelles Fouilles.

Avedief, Y: The Origin and Development of Trade and Cultural Relations of Ancient Egypt with Neighbouring Countries (Papers presented by the Soviet Delegation at the 23rd International Congress of Orientalism.1954).

Borchardt, L: Die Mittel Zur Zeitlichen Festlegung von Punkten der agyptischen Geschichte, Kairo, 1935.

Boreaux: Antiquités Egyptiennes, Guide Catalogue Sommaire.

Bourdon: Anciens Canaux, Anciens Sites et Ports de Suez.

Breasted J. H: Ancient Records of Egypt.

British Museum: A Guide to the Egyptian Galleries, Sculptures, etc … 1909.

British Museum: Hiereglyphic Texts from Egyptian Stelae, 1911.

Brugsch, H. K: Thesaures Inscript, Aegy, Altaegvpt, Inschrift.

Brugsch, H. K: Gesch, Aegypt.

Budge, E. A. W: Book of Kings.

Budge: Annals of Nubian Kings.

Busolt, G: Griechische Geschichte bis Kur Schlacht bei Chaeroneia.

Buttles, Miss: The Queens of Egypt.

Cambridge Ancient History.

Campell: The Sarcophagus of Pabasa.

Catalogue Général du Musée du Caire, 1901.

Champollion, F: Monuments de l'Egypte et de la Nubie, Paris.

Champollion, F: Notices Descriptives, Paris, 1844.

De Laporte: Le Proche Orient.

Diodorus Siculus: Loeb, Ed.

Dunham: Royal Cemeteries of Kush Volume II, Nuri.

Evans, A: The Palace of Minos at Knossoss, London, 1921.

Gauthier, H: Le Livre des Rois d'Égypte, Le Caire, 1907 f, IV.

Gauthier, H: Dictionnaire des Noms Géographiques contenus dans., les Textes hieroglyphiques, Le Caire, 1925 ff., I–VII.

Griffith, E, L. I: Catalogue of the Demotic Pabyri in the Rylands Library at Manchester, I–III, Manchester, 1909.

Hall, H. R: The Anciens History of the Near East, London, 1913, Herodotus, Book I–V.

Hieratiche Papyrus aus den Koniglichen Mussen zu Berlin, Leipzig 1911.

Kees, H: Handbuch der Altertumswissenschaften.

Kienitz, F, K: Die politische eGschichte Agyptens vom, 7, bis zum 4 Jahrhundert vor der Zeitwende.

Lepsius, C, R: Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien, Berlin, 1894.

Luckenbill D. D: Ancient Records of Assyria and Babylnia, I–II.

Marriette. Monuments Divers Recueillis en Egypte et en Nubie, Paris,1889.

Marriette: Le Serapeum de Memphis, Paris, 1857.

Maspero, G: Guide du Visiteur au Musée du Caire, 1015.

Meyer E: Geschichte des Altertums.

Meyer E: Forschungen zur alten Geschichte, III,.

Meyer E: Kleine Schriftein, I–II.

Meyer, E: Der Papyrusfund von Elephantine, Leipzig, 1192.

Moret, A: Histoire de l'Orient.

Muller, C: Fragmenta Historicorum Graecorum.

Newberry, p. E: Egyptian Antiquities, Scarabs, 1906.

Otto, M. W: Priester und Tempel im hellenitischen Agypten, I–II.

Pauly–Wissowa: Real–Encyklopädie der klassischen Altertumswissen-schaft.

Petrie, W, M, F: Ihnasya.

Petrie, W, M, F: A History of Egypt, London.

Petrie, W, M, p: Kahun.

Petrie, W, M, p: Memphis.

Petrie, W, M, p: Naukratis.

Porter, B. and Moss, R: Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Inscriptions, Texts, Reliefs and Paintings, I–VI.

Posner,G: La Première Domination Perse en Egypte, Recueil d'Inscriptions Hiéroglyphiques, Kairo 1936.

Reisner, G.A: The Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907, 1908.

Rosellini, I: Monumenti dell, Egitto e della Nubie, 1832–1844.

Scharff, A: Handbuch der Altertumswissenschaften, herausgeg, von W. Otto 6, Abteilung, I, Textband, Handbuch der Archäologie, S, 433–642 A, Scharff, Agypten.

Schrader, E: Keilinschriftliche Bibliothek, I–VI.

Spiegelberg, W: Die sog, Demotiche Chronik des Pap, 215 der Bibliothepue Nationale zu Paris nebst den auf der Ruckseite des Papyrus stehenden Texten, herausgeg, und erklärt von W. Spiegelberg, Leipzig, 1914.

Steindorff, G: Urkunden des Agyptischen Altertums, hefausgeg Leipzig, d. G.R … Leipzig, 1880.

Wiedemann, A: Agyptische Geschichte, Gotha, 1884, Supplement hierzu, 1888.

Wiedemann, A: Herodots zweites Buch mit sachlichen Erlauterungen, 1890.

Wiedemann, A: Geschichte Agyptens von Psammetich 1, bis auf Alexander.


هنداوي